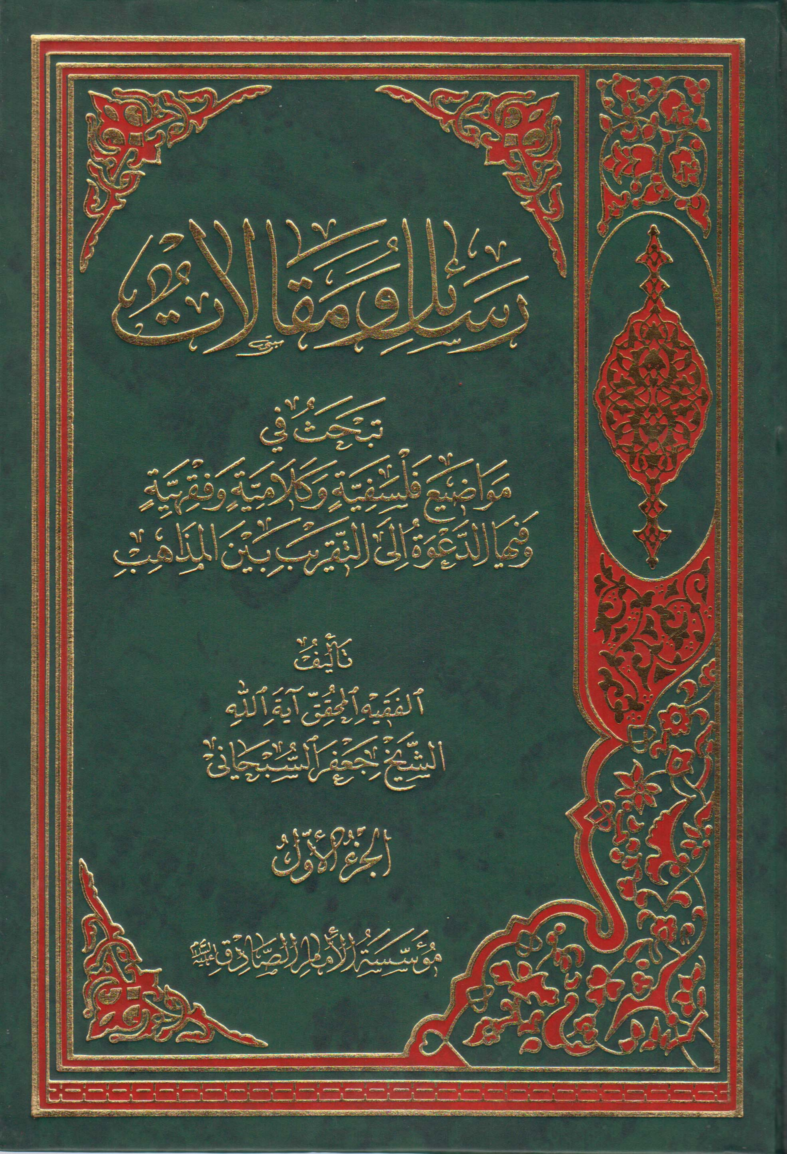
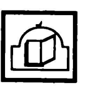

رسائل ومقالات
تبحث في
مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية
وفيها الدعوة الى التقريب بين المذاهب
تأليف
الفقيه المحقق آية الله
الشيخ جعفر السبحاني
الجزء الأول
مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام



رسائل و مقالات

تبحث في

مواضيع فلسفية وكلامية وفقهية

وفيها الدعوة الى التقريب بين المذاهب

تأليف

العلاّمة المحقّق

جعفر السبحاني

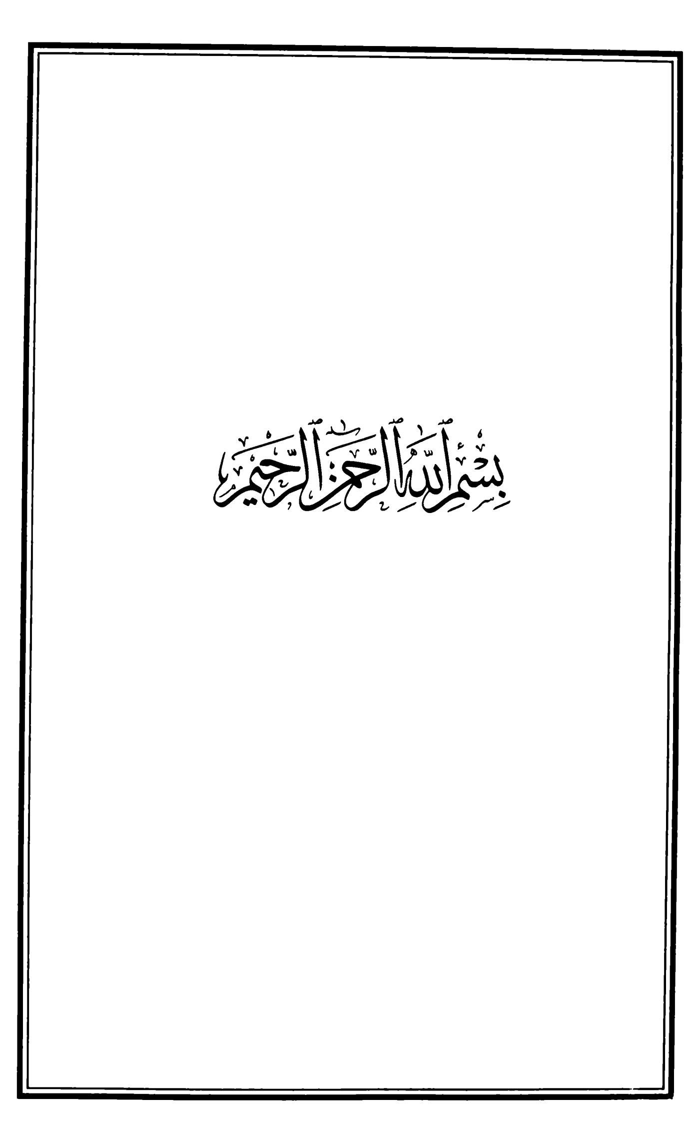
فهرستنويسى قبل از انتشار توسط: مؤسسهٔ تعليماتى و تحقيقاتى امام صادق عليه السلام

السبحاني التبريزي، جعفر، ١٣٤٧هـ.ق ـ
رسائل و مقالات ج١ / تأليف جعفر السبحاني . ــ قم : مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ، ١٤٢٥ ق . = ١٣٨٣ .
ج. ISBN:964-357-175-0 (ج. ١)
١ .شيعه. عقايد ــ مقاله ها و خطابه ها. ٢. اسلام ــ مسائل متفرقه. الف. مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام . ب .عنوان.
٥/ ٢س/ ٥/ BP ٢١١ ٢٩٧/٤١٧٢

اسم الكتاب: رسائل و مقالات/ ج١
الموضوع: مواضيع فلسفيّة وكلاميّة وفقهيّة وتاريخية
تأليف: آية الله جعفر السبحاني
الطبعة: الثانية
المطبعة: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
التاريخ: ١٤٢٥هـ. ق/ ١٣٨٣هـ.ش
الكمية: ٢٠٠٠ نسخة
الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام
الصفّ والإخراج باللاينوترون: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

E-mail:pub@imamsadeq.org
www.imamsadeq.org

توزيع
مكتبة التوحيد
قم ـ ساحة الشهداء ـ ☎ ٧٧٤٥٤٥٧و٢٩٢٥١٥٢، فاكس ٢٩٢٢٣٣١


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه وآله الطاهرين.

أمّا بعد:

هذه رسائل ومقالات كتبت في ظروف مختلفة لدواعي شتى، يجمعُها هدف واحد، وهو الذب عن الإسلام والتعريف بالتشيع، وفيها بحوث فلسفية وكلامية وتاريخية، صرفتُ في كتابتها وقتاً كثيراً، على أملٍ أن تكون مشعلاً منيراً في سبيل الوحدة الإسلامية التي هي أُمنية كل مسلم واعٍ، وكل مؤمن ملم بالأخطار المحدِقة بالإسلام والمسلمين.

والله من وراء القصد

قم المشرفة ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

جعفر السبحاني

قد طلب الأُستاذ رئيس تحرير مجلة «**آفاق الإسلام**» التي تصدر في المملكة الأردنيـة الهاشمية، منّـي كتابـة مقال مسهـب أُبين فيه أُصـول المذهب الجعفـري وفروعـه، فنزلت عنـد رغبته وبعثت بهذا المقـال إليه، فنشره على صفحـات مجلته، السنة الخامسة، العـدد الأوّل، آذار ١٩٩٧، وقد نشر قبل هذا العـدد ترجمة الأئمّة الأربعة للمذاهب الفقهية، وبهذا المقال اكتملت الحلقات حول المذاهب الفقهية الإسلامية.

نعم يمتاز هذا المقـال أنّه صب اهتمامه على أُصول الشيعة وفـروعها مكان ترجمة الإمام الصادق عليه‌السلام .

فأتقدّم بالشكـر الجزيل إلى الأُستاذ رئيس التحرير على مسـاهمته في إنجاز هـذا العمـل ونفض غبـار التعصـب من خــلال نشر هـذا المقـال في الأوسـاط السنية.

شكر الله مساعي الجميع

المؤلف

الرسالة الأُولى

الشيعة الإمامية الإثنا عشرية

رسالة موجزة تتناول تاريخ الشيعة الإمامية الإثني عشرية، نشأتهم، عقائدهم، ومنهجهم الفقهي

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبيّه وآله
وعلى رواة سُنَنِه وحملة أحاديثه، وحفظة كلمه
صلاة دائمة ما دام الفرقدان وكرّ الجديدان.

أمّا بعد :

فهذا مقال موجز عن الشيعة الإمامية يبيّن نشأتهم وعقائدهم ومنهجهم الفقهي والتراث العلمي الذي تركوه، إلى غير ذلك ممّا يمتّ لهم بصلة.

إنّ المذهب الشيعي الإمامي يقوم على دعامتين:

١ـ الأُصول التي يتبنّاها في مجال العقيدة.

٢ـ الشريعة التي يقرّرها دستوراً لجوانب الحياة كافة.

وليس المذهب الشيعي مذهباً فقهياً بحتاً كالمذاهب الأربعة، وإنّما هو منهج متكامل يغذّي الإنسانَ فكراً وعملاً، وعلى ضوء ذلك فلا محيص عن دراسة المذهب من جانبين: أحدهما يتعلّق بالأُصول، والآخر بالفروع.

وإليك الكلام في الجانب الأوّل.

تمهيد:

الشيعة لغةً واصطلاحاً وتاريخاً

الشيعة لغة هم الجماعة المتعاونون على أمر واحد في قضاياهم، يقال تشايعَ القومُ: إذا تعاونوا، وربّما يُطلق على مطلق التابع، قال تعالى: ﴿**وإنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لإبْراهيمَ * إذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[1].

وأمّا اصطلاحاً فتطلق على من يشايع علياً والأئمة من بعده باعتبار أنّهم خلفاء الرسول ﷺ، نصبهم لهذا المقام بأمرٍ من الله سبحانه.

فالتشيّع عبارة عن استمرار قيادة النبي ﷺ بعد وفاته، بمن نصَبه للناس إماماً وقائداً للأُمّة.

وأمّا تاريخاً فالشيعة هم ثلّة من المسلمين الأوائل الذين عاصروا الرسول ﷺ وآزروه وعاضدوه في مواقف عصيبة، فلمّا مضى الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى انطووا تحت قيادة عليّ عليه السلام وأولاده باعتباره الممثل الشرعي للخلافة والمنصوص عليه من قبل النبي ﷺ.

---

١. الصافات: ٨٣ ـ ٨٤.

فليس التشيّع ظاهرة طارئة على الإسلام، ولا أنّ الشيعة وليدة الأحداث التي رافقت وفاة النبي ﷺ.

وليس للتشيع تاريخ وراء تاريخ الإسلام، ولا للشيعة أُصول سوى أنّهم رهط من المسلمين الأوائل في عصر الرسول ﷺ ومن جاء بعدهم عبر القرون، كل ذلك يعلم من خلال التحليلات التي ستمرّ عليك.

تسمية التشيّع:

إنّ الآثار المروية على لسان النبي ﷺ تكشف اللثام عن وجه الحقيقة وتعرب عن التفاف ثلة من المهاجرين والأنصار حول الإمام عليّ في حياة الرسول وكانوا معروفين بشيعة علي، وانّ النبيّ ﷺ سمّاهم الشيعة ووصفهم بأنّهم الفائزون، وإليك بعض ما روي مقتصراً بالقليل من الكثير:

١ـ أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله، قال: كنّا عند النبي ﷺ فأقبل عليّ، فقال ﷺ: والذي نفسي بيده إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة، ونزلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئكَ هُمْ خَيْرُ ٱلبَرِيَّة**﴾ [1] فكان أصحاب النبي ﷺ إذا أقبل عليّ قالوا: جاء خير البرية [2].

٢ـ أخرج ابن عدي عن ابن عباس قال: لمّا نزلت: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيَّة**﴾ قال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام: هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين [3].

---

١. البيّنة: ٧.

٢ و ٣. السيوطي: الدر المنثور: ٢/ ٥٨٩. ولاحظ الصواعق: ١٦١؛ والنهاية لابن الأثير مادة «قمح»: ٤/ ١٠٦؛ ربيع الأبرار للزمخشري، فالروايات الواردة في تسمية النبيّ من يتابع علياً شيعياً، تقارب عشرين رواية.

وعلى ضوء هذه التسميـة غلب لفظ الشيعة على من يشـايع علياً في كلمات غير واحد من المؤرخين.

٣ـ قال المسعودي في حوادث وفاة النبي ﷺ: إنّ الإمام علياً أقام و من معه من شيعته في منزله بعد أن تمّت البيعة لأبي بكر [١].

٤ـ وقال النوبختي: إنّ أوّل فرق الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب المسمّون شيعة عليّ في زمان النبي وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته [٢].

٥ـ وقال الإمام أبو الحسن الأشعري: إنّما قيل لهم الشيعة لأنّهم شايعوا علياً وقدّموه على سائر أصحاب رسول الله [٣].

٦ـ يقول الشهرستاني: الشيعة هم الذين شايعوا علياً على الخصوص وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية [٤].

٧ـ وقال ابن حزم: ومن وافق الشيعة في أنّ علياً أفضل الناس بعد رسول الله وأحقّهم بـالإمـامة وولـده من بعـده فهو شيعـي و إن خالفهم فيما عـدا ذلك ممّـا اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً [٥].

جاءت دعوته ﷺ إلى التشيّع متزامنة مـع دعوته للرسالـة، فقد بذر التشيع حال حياته في غير موقف من مواقفه الحاسمة، و إليك نماذج منها:

١ـ حـديث يـوم الدار الـذي جمع فيه أكـابر بني هـاشم وعشيرتـه وعرض

١. المسعودي: الوصية: ١٢١.

٢. النوبختي: فرق الشيعة: ١٥.

٣. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١/ ٦٥.

٤. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/ ١٣١.

٥. ابن حزم: الملل والنحل: ٢/ ١١٣، طبعة بغداد.

عليهم رسالته، وقال: إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤمن بي ويؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟ فلم يقم أحد إلاّ عليّ، فقال: إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا [١].

٢ـ حديث المنزلة أعني قوله: «أما ترضى (مخاطباً علياً) أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي» [٢].

٣ـ حديث الغدير الذي سيوافيك تفصيله.

إنّ هذه الأحاديث وغيرها الناصّة على إمامة علي عليه السلام وخلافته بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم توقفنا على أنّه صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي بذر بذرة التشيع حال حياته وألفت أنظار المهاجرين والأنصار إلى قيادة عليّ عليه السلام للأُمة بعد رحيله صلى الله عليه وآله وسلم، مضافاً إلى ما صدر على لسانه صلى الله عليه وآله وسلم من الفضائل والمناقب لعلي وعترته حيث صار سبباً لاستقطاب الناس حوله في حال حياته صلى الله عليه وآله وسلم وبعد رحيله.

هذا، وقد تزامنت دعوته صلى الله عليه وآله وسلم للرسالة، دعوته للإمامة دون أن يكون بينهما سبق ولحوق.

وهو ما عبّرنا عنه أَنّ التشيع ليس ظاهرة طارئة، ولا الشيعة وليدة الأحداث التي رافقت وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، بل إنّ الإسلام والتشيع وجهان لعملة واحدة.

وإليك أسماء مجموعة من روّاد الشيعة في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

---

١. الطبري: التاريخ: ٢/ ٦٢، الجزري: الكامل: ٢/ ٤٠، ولاحظ التفاسير بشأن قوله سبحانه: ﴿وأَنْذِر عَشيرَتَكَ الأَقربين﴾ (الشعراء/ ٢١٤).

٢. مسلم: الصحيح: ج٦، باب فضائل علي ص ١٢٠ طبع محمد علي صبيح.

روّاد التشيع في عصر النبي ﷺ :

لمّا كان النبيّ ﷺ هو الباذر الأوّل للتشيّع في عصره، فقد التفّ حول الإمام عليّ عليه السلام مجموعة من المهاجرين والأنصار في عصره صلوات الله عليه وبعد رحيله، وناصروه في مواقف عديدة وعُرفوا بشيعة عليّ، ولأجل مرافقة المدعى بالدليل نذكر هنا أسماء روّاد التشيع من الصحابة في صدر الإسلام:

١ـ عبد الله بن عباس.
٢ـ الفضل بن العباس.
٣ـ قثم بن العباس.
٤ـ عبد الرحمان بن العباس.
٥ـ تمام بن العباس.
٦ـ عقيل بن أبي طالب.
٧ـ أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب.
٨ـ نوفل بن الحرث.
٩ـ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب.
١٠ـ عون بن جعفر.
١١ـ محمد بن جعفر.
١٢ـ ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب.
١٣ـ الطفيل بن الحرث.
١٤ـ المغيرة بن نوفل بن الحارث.
١٥ـ عبد الله بن الحرث بن نوفل.
١٦ـ عبد الله بن أبي سفيان بن الحرث.
١٧ـ العباس بن ربيعة بن الحرث.
١٨ـ العباس بن عتبة بن أبي لهب.
١٩ـ عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث.
٢٠ـ جعفر بن أبي سفيان بن الحرث.

هؤلاء من مشاهير بني هاشم، وأمّا غيرهم فإليك أسماء لفيف منهم:

٢١ـ سلمان المحمدي.
٢٢ـ المقداد بن الأسود الكندي.
٢٣ـ أبو ذر الغفاري.
٢٤ـ عمار بن ياسر.
٢٥ـ حذيفة بن اليمان.
٢٦ـ خزيمة بن ثابت.
٢٧ـ أبو أيوب الأنصاري (مضيّف النبي ﷺ).
٢٨ـ أبو الهيثم مالك بن التيهان.

٢٩ـ أُبي بن كعب.
٣٠ـ قيس بن سعد بن عبادة.
٣١ـ عدي بن حاتم.
٣٢ـ عبادة بن الصامت.
٣٣ـ بلال بن رباح الحبشي.
٣٤ـ أبو رافع مولى رسول الله ﷺ.
٣٥ـ هاشم بن عتبة.
٣٦ـ عثمان بن حنيف.
٣٧ـ سهل بن حنيف.
٣٨ـ حكيم بن جبلة العبدي.
٣٩ـ خالد بن سعيد بن العاص.
٤٠ـ بريدة بن الحصيب الأسلمي.
٤١ـ هند بن أبي هالة التميمي.
٤٢ـ جعدة بن هبيرة.
٤٣ـ حجر بن عدي الكندي.
٤٤ـ عمرو بن الحمق الخزاعي.
٤٥ـ جابر بن عبد الله الأنصاري.
٤٦ـ محمد بن الخليفة أبي بكر.
٤٧ـ أبان بن سعيد بن العاص.
٤٨ـ أُم سلمة زوج النبي ﷺ.
٤٩ـ أُم هاني بنت أبي طالب.
٥٠ـ أسماء بنت عميس.

هؤلاء خمسون صحابياً من روّاد الشيعة، فمن أراد التفصيل والوقوف على حياتهم وتشيعهم فليرجع إلى الكتب المؤلفة في الرجال.

قال محمد كرد علي في كتابه «خطط الشام»: عرف جماعة من كبار الصحابة بموالاة علي في عصر رسول الله ﷺ مثل: سلمان الفارسي القائل: بايعنا رسول الله على النصح للمسلمين والائتمام بعلي بن أبي طالب والموالاة له، ومثل: أبي سعيد الخدري الذي يقول: أُمر الناس بخمس فعملوا بأربع وتركوا واحدة، ولما سئل عن الأربع، قال: الصلاة، والزكاة، وصوم شهر رمضان، والحج، فقيل: فما الواحدة التي تركوها؟ قال: ولاية علي بن أبي طالب، قيل له: وإنّها لمفروضة معهن؟ قال: نعم هي مفروضة معهن، ومثل: أبي ذر الغفاري، وعمّار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان، وذي الشهادتين خزيمة بن ثابت، وأبي أيوب الأنصاري، وخالد بن سعيد،

وقيس بن سعد بن عبادة [١].

وبذلك يستغني القارئ عن الافتراضات الوهمية التي أبداها لفيف من المستشرقين تبعاً لما ورد على لسان بعض الباحثين من أُسطورة عبد الله بن سبأ التي حاكها سيف بن عمر الكذّاب الوضّاع [٢].

❋ ❋ ❋

هذا هو معنى الشيعة لغة واصطلاحاً وتاريخاً ذكرناه بصورة موجزة والتفصيل يطلب من الكتب المعدّة لهذا الغرض.

وأمّا دراسة عقائد الشيعة ومنهجهم الفقهي فتتمّ ضمن فصول سبعة:

الأول: الشيعة والتوحيد.

الثاني: الشيعة والعدل.

الثالث: الشيعة والنبوّة.

الرابع: الشيعة والمعاد.

الخامس: الشيعة والإمامة والخلافة.

السادس: الشيعة والمنهج الفقهي.

السابع: الشيعة والتراث الفكري.

---

١. خطط الشام: ٥/ ٢٥١.

٢. لاحظ ميزان الاعتدال: للذهبي: ١/ ٤٣٨، تهذيب التهذيب: لابن حجر: ٤/ ٢٨٥، اللئالي المصنوعة: ١/ ١٥٧ و ١٩٩.

الفصل الأول:

الشيعة والتوحيد

الشيعة تصف الله سبحانه كما وصف به نفسه ويقول: **﴿قُل هوَ اللهُ أحدٌ * اللهُ الصَّمدُ * لَم يلِدْ ولَمْ يُولَدْ * ولَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوَاً أحَد﴾** .

وتصفه بأنّه سبحانه قديم لم يزل ولا يزال، عالم قادر، حيّ قيّوم، سميع بصير، متعال عن جميع صفات خلقه، خارج عن الحدّين: حدّ التعطيل، وحدّ التشبيه، لا يجوز تعطيل ذاته عن صفاته كما لا يجوز تشبيه ذاته بمخلوقاته.

تعتقد الشيعة في توحيده ما كتبه الإمام الرضا عليه السلام للمأمون العباسي، حيث سأله المأمون أن يكتب له محض الإسلام على سبيل الإيجاز والاختصار.

فكتب عليه السلام له: «إنّ محض الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، إلهاً واحداً أحداً فرداً، صمداً، قيوماً، سميعاً بصيراً، قديراً قديماً قائماً، باقياً، عالماً لا يجهل، قادراً لا يعجز، غنيّاً لا يحتاج، عدلاً لا يجور وأنّه خالق كلّ شيء، وليس كمثله شيء، لا شبه له، ولا ضدّ له، ولا ندّ له، ولا كفو له، وأنّه المقصود بالعبادة والدعاء، والرغبة والرهبة»[1].

وقد عرض عبد العظيم الحسني عقيدته على الإمام الهادي علي بن محمد النقي عليه السلام فقال له: يا بن رسول الله، إنّي أُريد أن أعرض عليك ديني، فإن كان مرضيّاً ثبتُّ عليه حتى ألقى الله عزّ وجلّ.

---

١. الصدوق: عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ١٢١.

فقال عليه السلام: هاتها.

فقلت: إنّي أقول إنّ الله تبارك وتعالى واحد ليس كمثله شيء، خارج عن الحدّين: حدّ الإبطال، وحدّ التشبيه، وانّه ليس بجسم ولا صورة ولا عرض ولا جوهر، بل هو مجسِّم الأجسام ومصوِّر الصور، وخالق الأعراض والجواهر، وربّ كل شيء ومالكه وجاعله ومحدثه [١].

هذه عقيدة الشيعة في توحيده وتنزيهه، والقارئ إذا رجع إلى الكتب الكلامية والعقائدية التي أُلّفت بيد علماء الشيعة منذ أوائل القرن الثالث إلى العصر الحاضر يرى اتّفاقهم على ما ذكرنا، وقد اخترنا لك نصّين:

أحدهما: للرضا عليه السلام الإمام الثامن للشيعة الإمامية (١٤٨ ـ ٢٠٣ هـ).

وثانيهما: للإمام الهادي الإمام العاشر (٢٣٢ ـ ٢٥٤ هـ) فقد أمضى ما ذكره عبد العظيم الحسني عليه.

إخترنا هذين النصّين ليُعلم أنّ الشيعة أهل التنزيه منذ عهدٍ مبكّر، ومع ذلك كلّه فقد قسّم علماء الشيعة التوحيد إلى مراتب ودرجات نذكرها على وجه الإيجاز.

١ـ التوحيد الذاتي: واحد لا نظير له.

٢ـ التوحيد الذاتي أيضاً: بسيط ليس بمركب.

٣ـ التوحيد الأفعالي: إنّه لا خالق في الكون إلاّ هو.

٤ـ التوحيد التدبيري: إنّه لا مدبّر للكون إلاّ هو.

٥ـ التوحيد العبادي: لا معبود سواه.

---

١. الصدوق: التوحيد، باب التوحيد والتشبيه: ٨١ برقم ٣٧.

ثم إنّ هناك مراتب للتوحيد ذكرها علماء الشيعة في كتبهم الكلامية واستنبطوها من القرآن الكريم وأحاديث العترة الطاهرة، وهي:

٦ــ التوحيد في التقنين والتشريع: إنّه لا مقنّن ولا مشرّع إلاّ هو، وليس لأحد حقّ التشريع.

٧ـ التوحيد في الطاعة: إنّه لا مطاع بالذات إلاّ هو، ولو وجبت إطاعة النبي والإمام فإنّما هي بأمره سبحانه.

٨ـ التوحيد في الحاكمية: لا حاكم إلاّ هو، وانّه ليس لأحد أن يحكم إلاّ بإذنه سبحانه.

٩ـ التوحيد في الشفاعة: والمراد أنَّ الشفاعة حقّ لله سبحانه، و لا يشفع لأحد إلاّ بإذنه ﴿ولا يَشفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضى﴾ [1].

١٠ـ التوحيد في الاستعانة: وانّه لا يستعان إلاّ به، ولو استعان بغيره بزعم أنّه يقوم بالإعانة مستقلاً فهو مشرك، ولو استعان بغيره معتقداً بأنّه معين بحول وقوّة منه سبحانه فهو عين التوحيد.

١١ـ التوحيد في المغفرة: وإنّه لا يغفر الذنوب إلاّ هو.

١٢ـ التوحيد في الرازقية: وإنّه لا رازق إلاّ هو.

هذه مراتب التوحيد الاثنا عشر التي يتفقون فيها مع إخوانهم أهل السنّة لا سيما الأشاعرة.

نعم هناك مرتبة من التوحيد تختص بالشيعة الإمامية يختلفون فيها عن سائر الفرق والطوائف الإسلامية وهي:

---

١. الأنبياء: ٢٨.

التوحيد في الصفـات: والمراد به أنّ صفاته الثبوتية كـالعلم والقدرة والحياة عين ذاتـه لا زائدة على الذات وإلاّ يلـزم تعدد القـدمـاء الثمانية ــ وهي مسألـة كلامية خاض فيها عباقرة علم الكلام ـ خلافاً للأشاعرة القائلين بزيادة الصفات على الذات.

وهناك مصطلح كلامي وهو الصفات الخبرية والمقصود منها هي الصفات التي أخبر بها القـرآن الكـريـم وأثبتهـا الـوحي لله سبحـانـه كعين الله، ويـد الله، واستوائه على العرش، وما ماثلها، والمسلمـون فيها على أقوال: فمن معطّل يفوّض تفسير هذه الآيـات والصفات إلى الله تبـارك وتعالى، إلى مجسِّـم يفسّـرها بـا لمعاني اللغوية من دون أن يجعلهـا ذريعة إلى المعاني المجازية، إلى مـؤوّل يؤوّلها إلى معاني تجتمع مع تنزيهه.

والشيعـة الإماميـة تحملهـا على المعاني اللغـوية ولكـن تجعلها كنـايـة عن المفاهيم العالية، ولا ترى ذلك تأويلاً ، فإنّ كلام العرب مشحون با لمجاز فاليد في قوله سبحانه: ﴿يَدُ اللهِ فَوقَ أيْدِيهِم﴾ [١] مستعملة في نفس المعنـى اللغوي لكن كناية عن سعة قدرته، وهو أمر رائج بين البلغاء ولا يعدّ تأويلاً.

ثم إنّ تـوحيده سبحانـه بكونـه الخالق والمدبّـر لا يعني سلـب التأثير عن العوامل الطبيعيـة والجنود الغيبية للربّ، فإنّ سلـب التأثير الظلي والتبعي عن كل موجـود سوى الله، يردّه الذكـر الحكيم بقوله سبحـانه: ﴿ وَأنزَلَ مِنَ السَّمـاءِ ماءً فَأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [٢].

وعلى ضـوء ذلك فـا لماء يروي العطشـان، كما أنّ الخبـز يشبعُ الجائع، والماء ينبت النبت والزرع، لكن بأثـر مودع فيه من جانب خالقـه، فالقول بتأثيره في ظل

١. الفتح: ١٠.
٢. البقرة: ٢٢.

إرادته سبحانه وأمره عَيْـن التوحيد الذي دعا إليه الذكر الحكيم.

ومن أراد أن يفسّـر التـوحيد في الخالقيـة و التدبير، بسلـب الأثر عـن كل موجود سواه، فقد خالف القـرآن والوجدان الصريح ووقع في متاهات الجبر الذي سيوافيك بطلانه في الفصل الثاني.

تقسيم صفاته إلى ذاتي وفعلي:

إنّ صفاتـه سبحانـه تنقسم إلى ذاتي قائم بذاتـه، وفعليّ يعدّ وصفـاً لفعله، والميزان في تمييز الصفات الذاتيـة عن الفعلية هو أنّ القسم الأول لا يقبل السلب والإيجاب، بخلاف الثاني ولذلك لا يصحّ أن يقال الله يعلم ولا يعلم، أو يقدر ولا يقدر، بخـلاف الرزق فيصـدق إنّه يـرزق ولا يرزق ولذلـك تعتقد الشيعـة بأنّ من صفاته الفعلية كونه متكلّماً فالتكلّم صفة من صفاته الفعلية بالشرح التالي:

في تكلمه سبحانه:

اتفقت الشيعة على انّـه سبحانه متكلّم، ولكن التكلّم عنـدهم من صفات الأفعال ويفسّـر كونه متكلماً بأمرين.

الأوّل: إنّ كل ما في الكـون كلام الله سبحانه، فكما أنّ الكلمـة تعرب عمّـا يقـوم في نفس المتكلّم من المعـاني فكـذلك كل مـا في الكون يُعـرب عن حكمتـه وعلمه وقدرتـه الواسعة قال سبحـانه: ﴿**وَلَـوْ أَنَّما في الأرضِ مِـنْ شَجَرةٍ أقـلامٌ والبَحرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعدِهِ سَبعةُ أبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ ٱللهِ**﴾ [١].

قال عليّ عليه السلام : يقولُ لِمَنْ أراد كونه: «كُن فيكون»، لا بِصَوتٍ يَقرَعُ، ولا بِنِداءٍ

---

١. لقمان: ٢٧.

يُسمَعُ، و إنّما كلامُـه سبحانه فِعلٌ منـه أنشأَهُ و مثَّلَه، لم يكن من قبلِ ذلك كـائناً، ولو كان قديماً لكان إلٰهاً ثانياً[١].

فكل ما في صحيفـة الوجود من الموجودات الإمكـانية، كلماته وتخبر عما في خالقها من كمال وجمال، و علم وقدرة.

الثاني: إنّه سبحـانه يخلـق الحروف المنظومـة والأصوات المقطّعـة، يسمعها نبيّـه ورسـوله أو يـرسل رسـولاً فيبلّغـه آيـاته، أو يلقـي في روع النبي، وإلى هـذه الأقسام الثلاثة يشير سبحـانه، بقوله: ﴿**وما كانَ لِبَشَـرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاّ وَحياً أو مِنْ وَراءِ حِجابٍ أو يُرسِلَ رَسُولاً فَيُوحيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشاءُ إنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[٢].

وقد بيّـن تعالى أن تكلّمه مع الأنبياء لا يعدو عن الأقسام التالية:

١ـ ﴿**إلاّ وحياً**﴾.

٢ـ ﴿**أو من وراء حجاب**﴾.

٣ـ ﴿**أو يرسل رسولاً**﴾.

فقد أشار بقـوله: ﴿**إلاّ وحياً**﴾ إلى الكـلام الملقـىٰ في روع الأنبيـاء بسرعـة وخفاء.

كما أشار بقوله: ﴿**أو من وراء حجاب**﴾ إلى الكلام المسموع لموسى عليه السلام في البقعة المباركة. قال تعالى: ﴿**فَلَمّا أتاها نُوديَ مِن شاطِئِ الوادِ الأيمَنِ في البُقعَةِ المُباركَةِ مِنَ الشَّجَرةِ أنْ يا مُوسى إنّي أنا اللهُ رَبُّ العالَمِينَ**﴾[٣].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٦.

٢. الشورى: ٥١.

٣. القصص: ٣٠.

وأشار بقوله: ﴿أو يُرسل رسولاً﴾ إلى الإلقاء الذي يتوسّط فيه ملك الوحي، قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الـرُّوحُ الأمينُ * على قَلْبِكَ﴾ [١] ففي الحقيقـة الموحي في الأقسـام الثلاثـة هو الله سبحـانه، تـارة بلا واسطـة، بالإلقـاء في الروع، وأُخـرى بـالتكلّم من وراء حجـاب بحيث يُسمَع الصـوت ولا يُرىٰ المتكلم وذلـك بخلق الأصوات والحروف، وثالثة بواسطة الرسول (أمين الوحي جبرائيل)، فهذه الأقسام الثلاثة الواردة في الآية المباركة.

إنّ موقف أئمّة أهل البيت في مسألة خلق القرآن وقدمه هو الموقف الإيجابي وإنهّم كانوا يرون القرآن حادثاً لا قديماً وإلاّ يلزم أن يكون القرآن إلٰهاً ثانياً.

وأمّا انّه مخلوق فلو أُريد انّه مختلق فهو أمر باطل شبيه قول الوليد بن المغيرة الذي حكاه القرآن عنه: ﴿إنْ هذا إلاّ قَولُ البَشَـرِ﴾ [٢].

وإن أُريد انّـه مخلوق لله، وهو منزّلـه وهو نفس المطلوب، وقـد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن واقع القرآن فقال: هو كلام الله، وقول الله، وكتاب الله، ووحي الله وتنزيله، وهذا الكتاب العزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد [٣].

ومن هنا يعلم أنّ مسألة خلق القرآن كانت فتنة ابتلي بها المسلمون في عصر المأمون واستغلتها النصارى لصالحهم، وأوجدت فجوة عميقة بين المسلمين وكان النزاع نزاعاً بلا ثمر.

---

١. الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

٢. المدّثر: ٢٥.

٣. الصدوق: التوحيد: ٢٢٤، الحديث ٢.

تقسيم صفاته إلى ثبوتية وسلبية:

إنّ المتكلّمين قسّموا صفاته سبحانه إلى ثبوتية وسلبية وقد بسطوا القول فيها ومن جملتها انّه سبحانه:

١ـ ليس بجسم.

٢ـ ليس في جهة.

٣ـ ليس في محل.

٤ـ ليس حالاً في شيء ولا متّحداً مع غيره.

إلى غير ذلك من الصفات السلبية التي مرجعها إلى سلب النقائص عن ذاته سبحانه لأنّه الكمال المطلق.

وأمّا رؤيته سبحانه فقد اتفق المسلمون على أنّه سبحانه لا يُرى في الدنيا وإنّما اختلفوا في رؤيته في الآخرة.

رؤيته تعالى في الآخرة:

ذهبت الشيعة الإمامية تبعاً للذكر الحكيم وما جاء في خطب الإمام أمير المؤمنين إلى امتناع رؤيته، قال سبحانه: ﴿**لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وهوَ يُدرِكُ الأبصارَ وهُوَ اللَّطِيفُ الخَبيرُ**﴾[1].

وقال الإمام عليّ عليه السلام في وصفه سبحانه: الأوّل الذي لم يكن له قبل، فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أناسيَّ الأبصارِ عن أن تنالَهُ أو تُدركَه[2].

---

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ٨٧. والأناسي: جمع إنسان، وإنسان البصر هو ما يرى وسط الحدقة ممتازاً عنها في لونها.

وفي خطبة أُخرى: الحمد لله الذي لا تُدركُه الشواهدُ، ولا تَحويه المشاهدُ، ولا تَراه النواظرُ، ولا تحجُبُه السواتِرُ [١].

وفي كلامه لذعلب اليماني عندما قال له: هل رأيت ربّك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟» فقال: وكيف تراه؟ فقال: «لا تدركه العيون بمشاهدةِ العِيانِ، لكن تدركه القلوبُ بحقائقِ الإيمانِ، قريبٌ من الأشياءِ، غيرَ ملابِس، بعيدٌ منها غيرَ مُباين» [٢].

وأمّا ما يستدل به على جواز الرؤية في الآخرة فليس بتامّ، وقد استدلّ القائلون بجوازها قديماً وحديثاً بقوله سبحانه: **﴿وُجوهٌ يَومئذٍ ناضِرَةٌ * إلى رَبِّها ناظِرةٌ * وَوُجُوهٌ يَومَئِذٍ باسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرةٌ﴾** [٣].

والدقة في الآيات الأربع توقفنا على أنّ المراد بالنظر هو انتظار الرحمة وذلك لوجهين:

١ـ إنّه سبحانه: يسنِد النظر إلى الوجوه لا العيون، فلو كان المراد من النظر هو الرؤية كان اللازم أن يقول مكان «الوجوه»: العيون.

٢ـ إنّ مقابلة بعض الآيات ببعض يرفع الإبهام عن قوله: **﴿إلى ربّها ناظرة﴾** ويتعيّن كونه بمعنى انتظار الرحمة وذلك بالشكل التالي:

أ ـ **﴿وجوه يومئذ ناظرة﴾** يقابلها قوله: **﴿وجوه يومئذ باسرة﴾**.

ب ـ **﴿إلى ربّها ناظرة﴾** يقابلها قوله: **﴿تظنّ أنْ يُفعل بها فاقرة﴾**.

لا شك أنّ الفقرتين الأوليتين واضحتان جداً، وإنّما الكلام في الفقرة الثالثة

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٠.

٢. نهج البلاغة: الخطبة ١٧٤.

٣. القيامة: ٢٢ـ ٢٥.

فيجب رفع إبهامها عن طريق الفقرة الرابعـة التي تقابل الثالثة، بحكم أنّ الأشياء تعرف بأضدادها.

وبما أنّ المراد من الفقرة الرابعة هو تـوقّع العذاب الكاسر للفقار، والقاصم للظهر يكـون ذلك قرينة على أنّ المراد من الفقـرة الثالثة ضدّ ذلـك وليس هو إلاّ انتظار فضله سبحانه وكرمه.

على أنّه نسأل من يـدّعي إمكان الرؤيـة لله سبحانه في الآخرة، هل الـرؤية تتعلّق بكل ذاته أو ببعضه؟ فإن تعلّقت بالجميع يكون سبحانه محاطاً مع أنّه جلّ جلاله محيط.

وإن تعلّقت بالبعض فصار ذات أجزاء وأبعاض تعالى عن التركيب.

وأمّا ما ورد في الروايات حول الرؤية فكلّها أخبار آحاد لا تثبت بها العقيدة خصوصاً إذا كانت مضادّة للذكر الحكيم والعقل السليم، على أنّ في سند البعض ضعفاً.

هذا إجمال القول في توحيده وصفاته الذاتية والفعلية، والإيجابية والسلبية.

نتيجة البحث:

وقد خرجنا من هذا البحث الضافي بالنتيجة التالية:

إنّ المسلمين متّفقـون جميعـاً على تـوحيده وتنـزيهه ووصفـه بـالكمال، وإنّما تختلف الشيعة عن أهل السنّة في المسائل الكلامية التالية:

أ ـ إنّ صفاتـه الثبوتية كالعلـم والقدرة عين ذاته وجوداً وتحققـاً وإن كانت

غيره مفهوماً، وذلك لئلاّ يلزم تعدّد القدماء خلافاً للأشاعرة حيث قالوا بزيادة الأوصاف على الذات، ولو أرادت الأشاعرة المغايرة والزيادة مفهوماً، لا تحققاً وخارجاً يصبح النزاع لفظياً، ولو أرادت المغايرة خارجاً وعيناً يلزم تعدد القدماء، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ب ـ إنّ التكلم من صفاته الفعلية كالرزق والمغفرة والرحمة خلافاً للأشاعرة حيث فسّروه بالكلام النفسي القائم بذاته.

ج ـ إنّه سبحانه منزّه عن الرؤية في الدنيا والآخرة خلافاً لأهل السنّة حيث قالوا بجوازها في الآخرة.

الفصل الثاني:

الشيعة و العدل

اتّفق المسلمون على أنّه سبحانه عادل لا يجور، غير أنّ الشيعة اعتمدت في حكمها هذا على البرهان العقلي كما سيوافيك بيانه، واعتمدت السنّةُ في وصفه بالعدل على السمع، حيث يصفه القرآن الكريم بكونه قائماً بالقسط، قال سبحانه: **﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ والمَلائِكَةُ وأُولُوا العِلْمِ قائِماً بِالقِسْطِ﴾**[1].

والاختلاف في مصدر عدله نابع عن الاختلاف في مسألة أُخرى وهي مسألة التحسين والتقبيح العقليين أو الشرعيين، فذهبت الشيعة الإمامية إلى أنّ العقل قادر على أن يدرك حسنَ الأفعال وقبحها، ويستقلّ بالبعث إلى الفعل الحسن، والزجرِ عن الفعل القبيح، كالعدل والظلم فكل إنسان إذا جرّد نفسه عن كل شيء يرى في صميم ذاته حسنَ الأول وقبحَ الثاني، ومثله مجازاة الإحسان بالإحسان أو بالسوء، والعمل بالميثاق ونقضه فيستقلّ بحسن الأولين وقبح الأخيرين ولأجله قالوا بأنّ التحسين والتقبيح عقليان لا شرعيان.

ولو حكم الشارع بحسن شيء أو قبحه فقد حكم العقل به قبله، لأنّه رسول باطني، وحكم الشرع مؤكّد لحكم العقل وليس حكماً تأسيسياً.

هذا هو موقف الشيعة في مسألة التحسين والتقبيح العقليين وعلى ذلك بنت أُصولاً كلامية لا تقبل النقاش، وإليك تلك الأُصول:

---

١. آل عمران: ١٨.

١ـ لا جبر ولا تفويض:

طرحت مسألة الجبر والتفويض في أواسط القرن الأوّل بين المسلمين فصاروا إلى أقوال وأوجدت فجوة سحيقة بين المسلمين ولم تزل آثارها إلى يومنا هذا.

فمن قائل بالجبر وانّه سبحانه هو الخالق لفعل الإنسان والموجد له وليس للإنسان أيّ دور في أفعاله وأعماله، وإنّما هو ظرف لظهور إرادته سبحانه في أعماله وأفعاله.

وإنّما ذهب القائل إلى هذا القول لأجل أنّه فسّر التوحيد بالخالقية بالمعنى الباطل وزعم أنّ معناه سلب الأثر عن العلل والعوامل الطبيعية، وعند ذاك يتجلّى الإنسان في مجال الأفعال كالظرف ليس له دور ولا تأثير في أفعاله وأعماله.

ولا شك أنّ تفسير التوحيد بالخالقية بهذا المعنى باطل، لما عرفت من تصريح الذكر الحكيم بدور العلل الطبيعية في نمو الأزهار والأشجار ـ مضافاً إلى أنّ القول بالجبر ينافي عدله سبحانه ـ فكيف يكون هو الخالق لعمل الإنسان ولا يكون له دور فيه، لكن هو المسؤول عن العمل؟!

إنّ للقول بالجبر سبباً آخر وهو تفسير القضاء والقدر ـ الذي لا غبار في صحتهما ـ بالمعنى السالب للاختيار عن الإنسان، وسيوافيك أنّ القضاء والقدر حقّ ولكنّهما لا يسلبان الاختيار عن الإنسان.

فهذا وذاك صارا سببين لنشوء القول بالجبر بين كثير من المسلمين حيث صيّرهم مكتوفي الأيدي أمام الحوادث والطوارئ.

فكما أنّ الجبر يخالف عدله سبحانه فكذلك التفويض ينافي توحيده، لأنّ

معنى القـول بالتفويض كـون الإنسان مستقلاً في فعلـه وعمله عن الله سبحـانه، وبذلـك يصبح العمل إلٰهاً ثـانياً لاستغنـائه عن الله، مضافـاً إلى أنّه كيـف يمكن الجمع بين فقـر الإنسـان في ذاته، وغنـاه في فعله عنـه مع أنّ الفعـل أثر الـذات، والفعل متوقّـف على ذات الفاعل وهو الـواجب مفيض الوجـود، فيكون الفعل ـ بالتالي ـ متوقفاً على الواجب؟

والصحيح أنّه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، ومعناه أنّ الإنسان في فعله يعتمد على قدرته سبحانه ومواهبه فبذلك يكون للواجب دور في عمله، وبما أنّـه إنسان مـوجود مختـار في أعمال القدرة والسلطنـة في أيّ جـانب من جـوانب حياته، يكون هو المسؤول عـن عمله لا غيره فالعمل نتاج المواهب الإلهية وإعمال السلطنة من نـاحية العبد. ولتقـريب ذلك المعنى أمثلـة كثيرة مسطورة في الكتب الكلامية.

٢ـ التكليف بما لا يُطاق أمر غير جائز:

إذا قلنا بأنّه سبحانه عادل لا يجور فلا يصحّ على الحكيم تكليف العبد فوق قدرتـه، و قولنا إنّه لا يصحّ لله سبحـانه ذلك النوع مـن التكليف لا يعني تحكيم فكرتنـا و إرادتنا على الله سبحـانه بـل معناه إنّـا نستكشف من التـدبر في صفـاته سبحانه وهو كونه حكيماً لا يعبـث، وعادلاً لا يجور، إنّه لا يكلّف إنساناً إلاّ بما في وسعه وقدرته، قال سبحانه: ﴿**لا يُكلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها**﴾[1].

٣ـ أفعاله سبحانه معلّلة بالأغراض:

اتفقت الشيعة ــ بما أنّه سبحانه حكيـــم لا يعبث ـ على أنّ أفعالـه معلّلـة بـالأغراض، ومعنى ذلـك أنّ فعله لا ينفكّ عـن الغرض، وليس الغـرض غرضـاً

---

١. البقرة: ٢٨٦.

للفاعل وإنّما هو غرض لنفس الفعل، وكم فرق بين كون الغرض عائداً إلى الفاعل، وبين كون الفعل غير خال عن الغرض، ومقتضى الحكمة هو الثاني، أي عدم خلو فعله عن الغرض، ومقتضى غناه وكماله المطلق عدم عود الغرض إلى الفاعل.

وأظنّ أنّ النزاع بين الشيعة وأهل السنّة لفظيّ، فإنّ أهل السنّة ينفون أن يكون له سبحانه غرض في فعله يستكمل به ذاته والشيعة أيضاً يوافقونهم على ذلك ويقولون بأنّه سبحانه هو فوق الكمال ومن هو بهذه المكانة أسمى من أن يطلب غرضاً يستكمل به.

ولكنّ الشيعة تعتقد أنّ الغرض لا ينحصر بالغرض العائد إلى الفاعل بل هناك قسم آخر يخرج به الفعل عن العبثية ويضفي عليه وصف الحكمة ويكون غرضه سبحانه عائداً إلى المكلّفين، وهذا ما يتراءى من الذكر الحكيم في موارد مختلفة ويقول: **﴿سَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّمٰواتِ وما في الأرض﴾**[1].

فإنّ خلق السماوات والأرض لم يكن عبثاً، قال سبحانه: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقناكُمْ عَبَثاً وأنَّكُمْ إلَينا لا تُرجَعُونَ﴾**[2].

وقال سبحانه: **﴿وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرْضَ وما بَيْنَهُما لاعِبِينَ﴾**[3].

٤ـ القضاء والقدر لا يسلبان الاختيار:

إنّ القضاء والقدر من المفاهيم الإسلامية الواردة في الكتاب والسنّة، قال سبحانه: **﴿ما أصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ في الأرضِ ولا في أنْفُسِكُمْ إلاّ في كِتابٍ مِنْ قَبلِ**

١. لقمان: ٢٠.

٢. المؤمنون: ١١٥.

٣. الدخان: ٣٨.

أن نَبْـرأَها إنّ ذلكَ على اللهِ يَسيرٌ ﴾[١].

وفي السنّة النبـوية وأحـاديث العترة الطاهـرة تصريحات بالقضـاء والقدر، وهذا ممّا اتّفق عليه المسلمون و إنّما الكلام في تفسيرهما.

إنّ اليهـود ممّن غالـت في التقديـر حتى جعلتـه إلٰهاً ثانيـاً إلى حـدّ ليس لله سبحانه تغيير قضـائه وقدره، يقول سبحانه حـاكياً عنهم: ﴿**وقالَتِ اليَهودُ يَدُ اللهِ مَغلولَةٌ غُلَّتْ أَيْديهِمْ وَلُعِنُوا بِما قالوا بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ يُنْفِقُ كَيفَ يَشاءُ ...** ﴾[٢].

فَمن أراد تفسير القضاء والقدر على نحو يسلبان الاختيار عن الإنسان فقد وقع في متاهات الجبر فالإيمان بالقضاء والقدر يجب أن يكون بنحوٍ لا يسلب عن الإنسان اختياره قال سبحانه: ﴿**وقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿**إنّا هَدَيناهُ السَّبيلَ إمّا شاكِراً و إمّا كَفُوراً**﴾[٤].

إنّ تقـديره وقضـاءه سبحانـه يختلف حسب اختـلاف الفـاعل، فلو كـان الفاعل فـاعلاً موجَباً كـالنار بالنسبة إلى الحرارة، وسقـوط الحجر على الأرض فقد قدَّر وقضى بصدور الفعـل عن الفاعل عن جبر و اضطرار، وأمّا إذا كـان الفاعل فاعـلاً مختاراً ومسـؤولاً أمام الله فقـد قدَّر وقضى على صـدور فعله منـه عن إرادة واختيار.

فـالتقديـر والقضـاء عنـد الشيعة يخالفـان الجبر ويـؤيـدان الاختيار قـال سبحانه: ﴿**ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أو تَرَكْتُمُوها قـائِمةً على أُصُولِها فَبِإذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الفاسِقِينَ**﴾[٥].

---

١. الحديد: ٢٢.

٢. المائدة: ٦٤.

٣. الكهف: ٢٩.

٤. الإنسان: ٣.

٥. الحشر: ٥.

٥ـ تعذيب البريء مخالف لعدله:

اتّفقت الشيعة على أنّه لا يجوز سبحانه أن يعذّب أطفال الكفّار يوم القيامة، وذلك أنّ تعذيبهم بغير جرم اقترفوه مخالف لعدله وحكمته.

وقد أشرنا أنّ قولنا «لا يجوز» أو «يجوز» لا يعني تحكيم إرادتنا وفكرتنا على الله سبحانه حتى يكون الواجب محكوماً بحكم البشر فإنّ ذلك باطل لا مرية فيه، ولكن المراد هو استكشاف حال الواجب من خلال أوصافه من كونه حكيماً عادلاً فنستكشف من هذين الوصفين أنّه لا يعذّب طفلاً بريئاً سواء أكان طفلاً لمسلم أم لكافر.

٦ـ وجوب المعرفة:

اتّفقت الشيعة على لزوم معرفة الله سبحانه لزوماً عقلياً بمعنى أنّ العقل يحكم بحسن المعرفة وقبح تركها، لما في المعرفة من أداء شكر المنعم وهو حسن، وفي تركها احتمال الوقوع في الضرر وهو قبيح.

نعم غير الشيعة لم تلتزم بلزوم معرفة الله إلاّ سمعاً ونقلاً، ولكن لم يتبيّن لنا كنه مرادهم فإنّ المفروض أنّ الشريعة بعد لم تثبت فكيف يثبت وجوب المعرفة بحكم الشريعة؟

٧ـ لزوم تكليف العباد:

إذا كان فعله سبحانه منزّهاً عن العبث يستقل العقل بالحكم بلزوم إيصال كلّ مكلّف إلى الغاية التي خلق لها، وذلك يتحقق في مورد الانسان بالتكليف.

٨ ـ لزوم بعث الأنبياء:

إذا كان الإنسان لم يُخلق سدى بل خلق لغايـة، والغاية ممّا لا يدركها البشر بعقلـه العادي، ففـي ذمّته سبحـانـه إرسال الـرسل لهدايـة النـاس إلى الغايـات المنشودة و إلاّ يلزم أن يكون خلق الإنسان سُدى وعبث.

٩ـ قاعدة اللطف:

إنّ قاعدة اللطف لها دور في الكلام الشيعي وتترتّب عليها قواعد وأحكام، وحاصلهـا أنّه إذا كـان الغرض المترتـب على التكليف لا يحصل إلاّ بفعل يقـرّب العبد من الطاعة ويبعّده عن المعصية، كان على الله سبحانه القيام بذلك.

وبعبارة أُخـرى كل ما هو دخيل في تحقق الـرغبة إلى الطاعـة والابتعاد عن التمـرد والمعصية في نفـوس الأكثريـة الساحقـة من البشر يجب على الله سبحانـه القيـام بـه صونـاً للتكليف عـن اللغـو يقول سبحـانـه: **﴿وبَلَوناهُمْ بالحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ لَعلَّهُمْ يَرجِعُونَ﴾**[1]. وقال تعـالى: **﴿وما أرْسَلْنـا في قَرِيَـةٍ مِنْ نَبيٍّ إلاّ أخَذْنا أهلَها بالبأْساءِ والضَّرّاءِ لَعلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾**[2].

فإنّ تعليل ابتلاء الناس بالسراء والضراء لرجـاء رجوعهم للطاعة دليل على أنّ كل مـا يكون سبباً للجـوء الناس للطاعـة كان عليه سبحـانه أن يقوم بـه لأنّه مقتضى حكمته. والعقل يستقلّ بحسن ذلك.

١٠ـ لزوم النظر في برهان مدّعي النبوّة:

يجب النظر في بـرهان المدعـي إذا ادّعى مسألـة تمتّ إلى الدين بصلـة على وجه يعاقب الإنسان لو لم يعتقد بها أو اعتقد بالخلاف.

---

١. الأعراف: ١٦٨.

٢. الأعراف: ٩٤.

إنّ للتحسين والتقبيح العقليين دوراً عظيماً في المسائل الكلامية اقتصرنا على هذه النتائج القليلة ومن أراد التفصيل فعليه مراجعة الكتب الكلامية المطوّلة [١].

خاتمة المطاف:

وفي خاتمة هذا الفصل أود أن أطرح مسألتين لهما دويّ في الأوساط العلمية، والمسألتان هما عبارة عن القول بالبداء والتقية، فقد وقعا غرضاً للنبال وأخذ المخالف يعترض على الشيعة بالقول بهما غافلاً عن أنّ النزاع بين الطائفتين نزاع لفظي ولو وقف المخالف على الحقيقة، لتجاوب معها و إليك البيان:

البداء عند الشيعة:

البداء في اللّغة هو الظهور بعد الخفاء، قال سبحانه: ﴿**وبَدا لَهُمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونوا يَحْتَسِبونَ * وبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَستَهْزِءُونَ**﴾ [٢].

والبداء بهذا المعنى، لا يطلق على الله تعالى بتاتاً، لاستلزامه حدوث علمه بعد جهله بالشيء، تعالى عمّا يقول الظالمون.

وهذا هو الذي ينسبه متكلمو السنّة إلى الشيعة، وهم براء من تلك النسبة وإنّما أرادوا منه المعنى الثاني الآتي.

و هو أنّ تقديره سبحانه للحوادث على قسمين:

أ ـ تقدير قطعي وقضاء مبرم.

ب ـ تقدير معلّق وقضاء غير منجّز.

---

١. راجع الإلهيات: ١/ ٢٥٧ ـ ٢٦٢ بقلم المؤلف.

٢. الزمر: ٤٧ ـ ٤٨.

فأمّا القسم الأوّل: فلا يتسرّب إليه البداء لافتراض كونه تقديراً حتمياً وقضاءً مبرماً، وإنّما يتسرّب البداء إلى القسم الثاني وهو القضاء المعلق فهو يتغيّر إمّا بالأعمال الصالحة أو الطالحة قال سبحانه: ﴿إنّ الله لا يُغيِّرُ ما بِقَومٍ حتّى يُغَيِّروا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرىٰ آمَنُوا وَاتَّقوا لَفَتَحْنا عَلَيهِمْ بَركاتٍ مِنَ السَّماءِ والأَرضِ ولكنْ كَذَّبُوا فأَخْذناهُمْ بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾ (٢).

وقال تعالى: حاكياً عن شيخ الأنبياء نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتغفِروا رَبَّكُمْ إنَّهُ كانَ غفّاراً * يُرسِلِ السَّماءَ عَلَيكُمْ مِدراراً * ويُمْدِدْكُمْ بِأموالٍ وَبَنينَ ويَجْعَلْ لَكُمْ جَنّاتٍ ويَجْعَلْ لَكُمْ أنهاراً﴾ (٣).

فالبداء بهذا المعنى ممّا اتفق عليه المسلمون قاطبة كما اتفقوا على عدم صحة البداء بالمعنى الأول، وأمّا استعمال البداء «بدا لله» في هذا المقام مع أنّه بداء لنا من الله فهو أشبه بالمجاز وقد استعمل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في حديث الأقرع والأبرص والأعمى تلك اللفظة، وقال: وبدا لله عزّ وجلّ أن يبتليهم (٤). وعلى كلّ تقدير فليس النزاع في اللفظ والتسمية بل مورده هو المسمى والمقصود.

ولو أنّ علماء السنّة وقفوا على ما هو المقصود من القول بالبداء لله لما اعترضوا على الشيعة الإمامية. وكم من مسائل خلافية لو طرحت في جوٍّ هادئ يسوده روح البحث العلمي بعيدٍ عن التعصب لزالت حواجز الاختلاف ولتقاربت وجهات نظر الطائفتين.

---

١. الرعد: ١١.

٢. الأعراف: ٩٦.

٣. نوح: ١٠ ـ ١٢.

٤. البخاري: الصحيح: ٤/ ١٧١.

التقية عند الشيعة:

التقية من المفاهيم القرآنية التي وردت في أكثر من موضع في القرآن الكريم، والغاية منها هي صيانة النفس والعرض والمال، وذلك في البيئات التي صودرت فيها الحريات في القول والعمل، والرأي والعقيدة، فلا ينجو المخالف إلاّ بالصمت والسكوت، مرغماً أو بالتظاهر بما يوافق هوى السلطة وأفكارها.

إنّ التقية سلاح الضعيف وكهف الخائف أمام القوي الغاشم، سلاح من يبتلى بمن لا يحترم دمه وعرضه وماله، لا لشيء إلاّ لأنّه لا يتفق معه في بعض الأفكار والمبادئ.

وهذا شيء يستسيغه العقل كما ورد في الشرع، قال سبحانه: ﴿**مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمانِهِ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمانِ**﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿**لا يَتَّخِذِ المُؤمِنونَ الكافِرينَ أولِياءَ مِنْ دُونِ المُؤمِنينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلكَ فَلَيسَ مِنَ اللهِ فِي شَيءٍ إلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً**﴾[2].

ولا تختصّ بتقية المسلم من المشرك والكافر بل تعمّ تقية المسلم من المسلم الجائر أيضاً.

قال الرازي: إنّ مذهب الشافعي (رض): إنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلّت التقية محاماة عن النفس، وقال: التقية جائزة لصون النفس، وهل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ: حرمة مال المسلم كحرمة دمه، وقوله ﷺ: من قتل دون ماله فهو شهيد[3].

---

١. النحل: ١٠٦.

٢. آل عمران: ٢٨.

٣. الرازي: مفاتيح الغيب: ٨/ ١٣.

وقال جمال الدين القاسمي: وزاد الحق غموضاً وخفاءً، أمران: خوف العارفين ـ مع قلتهم ـ من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن، وإجماع أهل الإسلام، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق، وما برح المحق عدوّاً لأكثر الخلق، وقد صحّ عن أبي هريرة (رض) أنّه قال في ذلك العصر الأوّل: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، أمّا أحدهما فبثثته في الناس وأمّا الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم [١].

وليعلم أنّ التقية إنّما تتصور في القضايا الشخصية أي تقية شخص من شخص آخر في بيئته. وأمّا التقية العامة بأن تصور العقائد أو الأحكام في الكتب الفقهية بشكل يوافق عقائد الموافق وفقهه فهذا ليس بصحيح.

فالشيعة لم تتّق ولن تتّق في محاضراتها وكتبها ومنشوراتها قدر شعرة، فمن يتهم الشيعة بالتقية في كتمان عقائدها وتحرير فقهها، فقد خبط خبطة عشواء لما عرفت من أنّ التقية ترجع إلى القضايا الشخصية. وأين هم من الباطنيّة الذين يخفون كتبهم حتّى عن معتنقيهم، والشيعة الإمامية لم تزل مجهرة بعقائدها بشتى الطرق وأساليبها.

أضف إلى ذلك أنّ الشيعة قامت لهم دول مختلفة في فترات كثيرة من التاريخ منذ ألف سنة فلماذا تتقي في تحرير عقائدها ونشر أفكارها وبثّ فقهها؟!

---

١. جمال الدين القاسمي: محاسن التأويل: ٤/ ٨٢.

الفصل الثالث:

الشيعة والنبوّة العامة والخاصة

النبوّة عند الشيعة كسائر المسلمين: سفارة بين الله وبين ذوي العقول من عباده لهدايتهم إلى ما فيه السعادة في معاشهم ومعادهم.

والنبيّ هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بإحدى الطرق المعروفة الواردة في الذكر الحكيم.

أعني قوله سبحانه: ﴿**ما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلاّ وَحْياً أو مِنْ وَراءِ حِجابٍ أوْ يُرسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإذْنِهِ ما يَشاءُ إنَّهُ عليٌّ حَكيمٌ**﴾[1].

وبما أنّ صفحات التاريخ تشهد على وجود أُناس ادّعوا السفارة من الله والإنباء عنه عن كذب و افتراء ولم يكن لهم متاعٌ غير التزوير، ولا سلعة سوى السلطة فلابد في تمييز النبي عن المتنبّي من معايير وضوابط تكون هي الفصل في القضاء بالحق، وهي إحدى الأُمور الثلاثة التالية:

١ـ التحدي بالإعجاز:

تجهيز الأنبياء بالمعاجز عند طرحهم دعوى النبوّة. والإعجاز يدل بالدلالة المنطقية على صدق دعواه، وذلك لأنّ المعجزة فيها خرق للنواميس الطبيعية فلا

---

١. الشورى: ٥١.

يمكن أن تقع من أحد إلاّ بعنـاية من الله تعالى، واقتدار منه، فلو كـان مدّع النبوّة كاذباً في دعواه كـان إقداره على المعجزة من قبله سبحانه إغـراراً بالجهل، و إشادة بالباطل، وذلك محال على الحكيم تعالى، فإذا ظهـرت المعجزة على يده كانت دالّة على صدقه وكاشفة عن نبوّته.

يقول سبحانه: ﴿ولَوْ تَقَوَّلَ عَلينـا بَعضَ الأقاويلِ * لأخَذْنا مِنْـهُ باليَمين * ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنهُ الوَتينَ * فَما مِنكُمْ مِنْ أحدٍ عَنهُ حاجزينَ﴾ [1].

يريد سبحانه أنّ محمداً الذي أثبتنا نبوّته وأظهرنا المعجزة بتصديقه لا يمكن أن يتقوّل علينا بعـض الأقاويل ولو صنع ذلك لأخـذنا منه باليمين ولقطعنـا منه الـوتين، فإنّ في سكوتنـا عن هـذه الأقاويـل إمضاءً منّـا لها و إدخالاً للبـاطل في شريعة الحق فيجب علينـا حفظ الشريعة في مرحلة البقـاء كما يجب علينا حفظها في مرحلة الحدوث.

٢ـ تنصيص النبيّ السابق على نبوّة النبيّ اللاحق:

إذا ثبتت نبـوّة نبيّ بـدلائل مفيدة للعلـم ثم نصّ هـذا النبيُّ على نبـوّة نبيّ لاحق يـأتي من بعده، كـان ذلك حجـة قطعية على نبـوّة النبيّ اللاحـق لا تقل في دلالتها عن المعجزة.

ولأجل ذلك يستدل المسلمون بالبشـارات الواردة في العهدين على نبوّة نبيّ الإسلام، ويرشـدنا إليه قولـه سبحانه حاكيـاً عن المسيح: ﴿وإذْ قالَ عِيسَـى ٱبنُ مَريَمَ يا بَني إسرائيلَ إنّـي رَسولُ اللهِ إليكم مُصَدِّقاً لِما بَينَ يَديَّ مِنَ التَّوراةِ ومُبَشِّـراً بِرَسولٍ يأتي مِنْ بَعدِي ٱسمُهُ أحمد﴾ [2].

---

١. الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.

٢. الصف: ٦.

٣ـ جمع القرائن والشواهد:

إنّ جمع القرائن والشـواهد ضـابطة مطـردة في المحاكم الـوضعيّة تتّخـذها القضاة في إصـدار أحكامهم، ويستند إليهـا المحامون في إبراء مـوكليهم، فبجمع تلك القرائن والشواهد يمكن أن نستعلم صحّة دعوى المدّعي أو إنكار المنكر.

فعلى ضوء ذلك، فللباحث أن يتحرّى القـرائن المكتنفة بدعوى النبوّة حتى يقطع معها بصدق الدعوى أو كذبها وهذه القرائن تتلخّص في الأُمور التالية:

أ ـ سيرة المدّعي قبل الدعوة.

ب ـ سمات بيئته.

ج ـ مضمون الدعوة.

د ـ ثباته في طريق الدعوة.

هـ ـ الأدوات التي يستخدمها في نشر دعوته.

و ـ المؤمنون الملتفّون حوله.

ز ـ مكانة أتباعه في الورع والتقوى والعلم والوعي.

هذه القرائن وأشباهها ترشدنا إلى أحد الأمرين:

إمّا أنّه نبيّ صادق أو متنبّي كاذب.

الوحي:

إنّ تحديد حقيقـة الوحي وتبيين ماهيتـه من المواضيع الحساسـة في أبحاث النبوّة العامة، والأنبيـاء يتلقّون تعاليمهم عن هذا الطريـق ولولاه لانقطعت أخبار السماء عن الأرض وصلة الأنبياء بالله.

والشيعة الإمامية تعتقد بأنّ الوحي يختصّ بالأنبياء وليس هو نتاج الحسّ ولا العقل ولا الغريزة وإنّما هو شعور خاص لا نَعْلم حقيقته، وهو يغاير الشعور الفكري المشترك بين أفراد الإنسان قاطبة .

والوحي لا يغلط معه النبي في إدراكه، ولا يشتبه، ولا يختلجه شك ولا يعترضه ريب فهو يدركه من غير أن يحتاج إلى إعمال نظر أو التماس دليل، أو إقامة حجة، إذ لو افتقر إلى شيء من ذلك لكان اكتساباً عن طريق القوة النظرية لا تلقّياً من الغيب من غير توسط القوة الفكرية.

قال سبحانه: **﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ * على قَلبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرينَ﴾**[1].

سمات الأنبياء:

إنّ أخطر المناصب وأكبرها مسؤولية قيادة المجتمع البشري وهدايته إلى السعادة فإنّها تتطلّب في المتصدي لها، مؤهّلات وامتيازات خاصة ينفرد بها عن سائر الناس، وهذه في الأنبياء تتلخّص في الأُمور التالية:

١ـ العصمة ولها مراتب ثلاث:

المرتبة الأُولى: المصونية عن الذنب ومخالفة الأوامر المولوية قبل البعثة وبعدها، وخالف بعض أهل السنّة في عصمة النبي قبلها خصوصاً في صغائر الذنوب فجوزها له.

المرتبة الثانية: المصونية في تلقّي الوحي ووعيه وإبلاغه إلى الناس.

المرتبة الثالثة: المصونية من الخطأ والاشتباه في تطبيق الشريعة والأُمور

---

١. الشعراء: ١٩٣ ـ ١٩٤.

الفردية والاجتماعية.

٢ـ التنزّه عن كل ما يوجب نفرة الناس عنه وعقم التبليغ.

٣ـ الاطّلاع على أُصول الدين وفروعه وكلّ ما أُلقي إبلاغه على عاتقه.

٤ـ التحلّي بكفاءة خاصة في القيادة والإدارة مقترنة بحسن التدبير، وقد برهن الكلام الشيعي على لزوم هذه السمات في الأنبياء عامّة والنبيّ ﷺ خاصة. ومن أراد الوقوف فعليه الرجوع إلى الكتب الكلامية.

النبوّة الخاصة:

كان الكلام السابق في النبوّة العامّة من دون تخصيص بنبيّ، وأمّا النبوّة الخاصة أي نبوّة نبيّ الإسلام، فالشيعة الإمامية تعتقد بأنّ محمد بن عبد الله ﷺ نبيّ الله الخاتم جاء لهداية الناس في الوقت الذي عمّت سيادة الشرك وعبادة الأصنام أكثر ربوع المعمورة، وفي هذا الظرف قام رجل بين أُمّة متقهقرة تقطن أراض جدباء، ومعشر ليس لهم من الحضارة أيّ سهم يذكر، يسفكون دماءهم ويقطعون أرحامهم، فادّعى النبوّة والسفارة من الله تعالى على أساس نشر التوحيد، ورفض الوثنية وعبادة الأصنام، وإقامة العدل، وبسط القسط، ورفض التمييز، وحماية المضطهدين والمظلومين، وقد كان تاريخ دعوته في أوائل القرن السابع الميلادي ٦١٠ وأوّل ما بدأ به، بدأ بدعوة أقربائه وعشيرته.

واستطاع هداية جمع من عشيرته ثم وجّه دعوته إلى عموم الناس من غير خصوصية بين قبيلة وغيرها. ويُستدل على صحّة دعوته بالطرق الثلاثة:

١ـ معجزته الخالدة القرآن الكريم الذي تحدّى به الأُمم ولم يزل متحدّياً إلى يومنا هذا، قال سبحانه: ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ على أنْ يَأتُوا بِمِثْلِ هذا**

القُرآنِ لايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً﴾ [١].

مضافاً إلى سائر معجزاته التي كانت تظهر منه بين آونة وأُخرى.

٢ـ بشائره في العهدين وقد بقيت ـ بحمد الله ـ إلى يومنا هذا.

٣ـ دلالة القرائن الداخلية والخارجية على صحة دعوته.

سمات دعوته:

أوّلاً: عالمية رسالته:

اتفقت الشيعة على أنّ الإسلام عقيدة وعمل لا ينفرد بها شعب أو مجتمع خاص ولا يختص ببلد دون بلد، بل هو دين يعمّ المجتمع الإنساني ككل، على اختلافه في العنصر والوطن واللسان، ولا يفترض لنفوذه حاجزاً بين أبناء الإنسان، ولا يعترف بأية فواصل قوميّة أو إقليمية.

قال سبحانه: **﴿قُلْ يا أيُّها النّاسُ إنّي رَسولُ اللهِ إلَيكُمْ جَميعاً﴾** [٢].

وقال تعالى: **﴿وما أرْسَلْناكَ إلاّ كَافَّةً للنّاسِ بَشيراً ونذيراً﴾** [٣].

ثانياً: خاتمية رسالته:

اتّفقت الشيعة عن بكرة أبيها على أنّ نبيّها محمداً خاتم النبيين، وأنّ شريعته خاتمة الشرائع، وكتابه خاتم الكتب والصحف، فهو آخر السفراء الإلهيين أُوصد به باب الرسالة والنبوّة وختمت به رسالة السماء إلى الأرض، وأنّ دينه دين

---

١. الإسراء: ٨٨.

٢. الأعراف: ١٥٨.

٣. سبأ: ٢٨.

الله الأبدي، وأنّ كتابه كتاب الله الخالد، وقد أنهى الله إليه كلّ تشريع فاكتملت بدينه وكتابه الشرائع السماوية التي هي رسالة السماء إلى الأرض قال سبحانه: **﴿ما كانَ مُحمدٌ أبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ ولكنْ رَسُولَ اللهِ وخاتَمَ النَّبِيِّينَ وكانَ اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عليماً﴾** [١].

صيانة القرآن من التحريف:

القرآن الكريم هو المصدر الأوّل لدى المسلمين من غير فرق بين الشيعة وأهل السنّة، وهو كلام الله ووحيه وقوله وكتابه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم عليم، وانّه الحق الفصل وما هو بالهزل، و إنّ الله تبارك وتعالى منزله وحافظه صانه من الزيادة والنقيصة.

وهذه عقيدة كبار المحققين من الشيعة.

قال السيد المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ): إنّ جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود، وأُبي بن كعب وغيرهما ختم القرآن على النبيّ عدة ختمات وكل ذلك يدلّ بأدنى تأمل على أنّه مجموع مرتّب غير مبتور ولا مبثوث [٢].

وقد تقدمه في هذا القول (صيانة القرآن من التحريف) مشايخ الشيعة كالفضل بن شاذان (المتوفّى ٢٦٠ هـ) والشيخ الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ) و الشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣ هـ) وتبعه أيضاً الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠) والطبرسي (٤٧١ ــ ٥٤٨ هـ) والسيد ابن طاووس (المتوفّى ٦٦٤ هـ) إلى غير ذلك من أعلام الأُمّة إلى يومنا هذا.

و إليك كلمة قيّمة للأُستاذ الأكبر الإمام الخميني ﵀ في محاضراته حيث

---

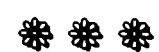
١. الأحزاب: ٤٠.

٢. الطبرسي: مجمع البيان: ١/ ١٠، نقلاً عن رسالة جواب المسائل الطرابلسية للسيد المرتضى.

قال:

إنّ الواقف على عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابة يقف على بطلان دعوى التحريف وانّه لا ينبغي أن يركن إليها، وما وردت من الأخبار في التحريف فهي: بين ضعيف لا يستدل به، إلى مجهول تدل أمارات الجعل على وضعه، إلى غريب يقضي بالعجب، إلى صحيح يدل على أنّ الساقط هو تأويل الكتاب وتفسيره لا نفس الكتاب ...[1].

نعم ذهب شذّاذ من الاخبارية والحشوية من الشيعة والسنّة إلى القول بالتحريف فلا يقام لأقوالهم وزن بعد كونها مخالفة للقرآن الكريم بإجماع الأُمّة.



خرجنا بالنتيجة التالية:

لا خلاف بين الشيعة والسنّة في حقل النبوّة العامة والخاصّة إلاّ شيئاً لا يذكر وهو تجويز العصيان للأنبياء قبل دعوى النبوّة فتنفيه الشيعة، ومجموعة من السنّة ويجوّزه لفيف منهم.

١. تهذيب الأُصول، محاضرات الإمام الخميني: ٢/ ٥٦ بقلم المؤلف.

الفصل الرابع:

الشيعة و المعاد

المعاد وحشر الإنسان بعد الدنيا إجابة عن أحد الأسئلة التي طالما أخذت جلَّ تفكيره فمذ فتح عينيه على الحياة يسأل نفسه عن الأُمور التالية:

١ـ ما هو مبدأ العالم والإنسان؟

٢ـ ما هو الهدف من وجود الإنسان؟

٣ـ إلى أين المصير بعد الموت؟

فالبحث عن الصانع إجابة عن السؤال الأوّل.

كما أنّ البحث عن كونه حكيماً وأنّ فعله منزّه عن العبث إجابة عن الثاني.

والقول بأنّ الموت ليس نهاية الحياة وإنّ الإنسان لا يفنى بموته، وإنّما هو جسر ينتقل عبره من نشأة إلى نشأة أُخرى أكمل من الأُولى، هو جواب عن السؤال الثالث.

إنّ الاعتقاد بالمعاد عنصر أساسي في كل شريعة لها صلة بالسماء، ولأجل ذلك أصبح المعاد في الشرائع السابقة أصلاً مسلّماً حتى عند اليهود في العهد القديم[١].

١. صموئيل الأوّل: الإصحاح الثاني: الجملة ٦، طبع دار الكتاب المقدس.

و إذا كان المعاد يحتلّ المكانة العليـا في الشرائع السماوية وكان القرآن خاتم الكتب، والمبعوث بـه خاتم الأنبياء فيناسـب أن يكون المعاد مطروحـاً فيه بشكل واسع مقترناً بالدلائل العقلية المقنعة.

وقد صدق الخُبرُ الخبر، فالذكر الحكيم يعتني با لمعاد، ويهتم به اهتماماً بالغاً تكشف عنه كثرة الآيات الواردة في مجال المعاد وربّما تبلغ زهاء ألف وأربعمائة آية، وكان أُستاذنا العلاّمة الطبـاطبائي يقول: تربُو على الألفين ولعلّه ﷺ ضم الإشارة إلى التصريح به فبلغت ما تربو على ألفي آية.

وعلى أية حال فالشيعة لا تختلف عن سائر الفرق الإسلامية في هذا الأصل الخطير وتقول: إنّ الله سبحانه سيجمع الناس يوم القيامة ويضع الموازين القسط فلا يظلم أحداً مثقال ذرة، وتوفّى كل نفس ما عملت فإمّا إلى النعيم الدائم أو إلى العذاب المقيم.

وهناك أُصول اتّفقت الشيعة عليها نذكرها لشدّة مناسبتها با لمقام:

١ـ اتّفقت الشيعـة على أنّ المسلـم المؤمن العاصي غير مخلّد في النـار وهو مؤمن فاسق فليس بكافر ولا با لمنزلة بين المنزلتين.

٢ـ اتّفقت على أنّ الشفاعة حقّ، وانّ لخاتـم الأنبياء مقام الشفاعة الكبرى كما تعتقد بجواز طلبها من النبيّ ﷺ في حياته ومماته.

قال سبحانه: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً**﴾[1].

وليس طلب الشفـاعة إلاّ طلب الدعـاء فإذا جاز في حال الحيـاة يجوز بعد الرحيل أيضاً لافتراض أنّه ﷺ حيّ يُرزق وأنّه بإذنه سبحانه يسمع كلامنا ويجيب سلامنا.

---

١. النساء: ٦٤.

٣ـ اتّفقت الشيعة على أنّ التناسخ باطل والقائل به كافر، والمراد منه انتقال النفس من بدن إلى بدن آخر في هذه النشأة فإذا مات البدن الثاني انتقلت إلى ثالث وهكذا.

والداعي للقول بالتناسخ هو إنكار المعاد كما حقّق في محلّه.

٤ـ اتّفقت الشيعة على أنّ حقيقة التوبة عبارة عن الندم عمّا مضى والعزم على عدم العودة عليه وإذا قدر الإنسان عليها وجبت ولا تقبل حين الموت.

٥ـ اتّفقت الشيعة على أنّ حبّ النبيّ والأئمّة المعصومين يقرب الإنسان من الله تبارك وتعالى ويبعث في روعه روح الطاعة والمشاكلة معهم في الإتيان بالواجبات والتحرّز عن المحرمات، وأمّا الحب المجرَّد عن العمل فليس سبباً للنجاة وإنّما النجاة هو العمل بعد الحب.

٦ـ إنّ الشيعة تبعاً واقتداءً بأئمتهم يقدّسون الصحابة الذين عملوا بكتاب الله سبحانه وسنّة نبيّه، ولم يتجاوزوهما، كما أنّهم يتبرّأون ممن خالف كتاب الله وسنّة رسوله وفي هذا المقام كلمة مباركة للإمام زين العابدين قال في دعاء له:

«اللّهمّ وأصحاب محمّد خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاءَ الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوّته، وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبّته يرجون تجارة لن تبور في مودّته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته وانتفت منهم القربات إذ سكنوا في ظلّ قرابته، فلا تنس لهم اللّهمّ ما تركوا لك وفيك وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك وكانوا مع رسولك دعاة لك إليك، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومَن كَثَّرْتَ في إعزاز دينك من مظلومهم. اللّهمّ وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان

الذين يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا[١].

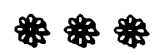
نعم لا يقولون بعدالة كلّ صحابي وكل من رأى النبيّ ﷺ ولو يوماً أو أياماً بل يقسّمون الصحابة كالتابعين إلى قسمين تبعاً للذكر الحكيم والسنّة النبوية، وهذا هو الذكر الحكيم يصف بعض الصحابة بالفسق يقول: ﴿**إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾[٢].

كما أنّ الرسول الأعظم ﷺ يصفهم في حديث الحوض بما لا يتلاءم مع عدالة الجميع.

روى البخاري ومسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: يرد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابي ويُحلَؤون عن الحوض فأقول: يا ربِّ أصحابي فيقول: إنَّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنّهم ارتدُّوا على أدبارهم القهقرى[٣].

هذا هو قدامة بن مظعون صحابي بدري شرب الخمر وأقام عليه عمر الحدّ[٤].

ومن الصحابة من خضبوا وجه الأرض بالدماء، فهذا بسر بن أرطأة قد قتل مئات المسلمين وما نقم منهم إلاّ أنّهم كانوا يحبّون علي بن أبي طالب، ولم يكتف بذلك فحسب، بل قتل طفلين لعبيد الله بن عباس[٥].



١. الصحيفة السجادية، الدعاء الرابع مع شرح «في ظلال الصحيفة السجادية»: ٥٥ ـ ٥٦.

٢. الحجرات: ٦.

٣. لاحظ في الوقوف على هذا النوع من الأحاديث جامع الأُصول لابن الأثير: ج١١ كتاب الحوض: ١٢٠ ـ ١٢١.

٤. الجزري: أُسد الغابة: ٤/ ١٩٩.

٥. الثقفي: الغارات: ٢/ ٥٩١؛ اليعقوبي: التاريخ: ١/ ١٨٦؛ الجزري: الكامل: ٣/ ١٩٢.

إلى هنا خرجنا بالنتيجة التالية:

لا اختلاف بين المذهبين: فيما يرجع إلى المعاد والأُصـول الستة التي تتبنّاها الشيعة إلاّ في الأصل الســادس فالسنّة تعتقد بعـدالة كلّ صحابي خلافـاً للشيعة حيث تقسّمهم إلى مثالي يُستدر به الغمام، ومؤمن يضحّي بنفسه ونفيسه في طريق الدين و إعلاء كلمة الله، إلى من يصفه سبحانه في محكم كتابه [1] على خلاف هذين الصنفين.

---

١. انظر الحجرات: ٦.

الفصل الخامس:

الشيعة و الإمامة و الخلافة

الخلافة عند الشيعة إمرة إلهية واستمرار لتحقيق أهداف النبي ﷺ ووظائفه، والإمام له نفس الصلاحيات والوظائف المخولة إلى النبي ﷺ غير انّه ليس بنبيّ ولا يوحىٰ إليه والنبوّة أُوصدت وختمت بالرسول فلا نبيّ ولا رسول بعده، ولكن الوظائف كلّها مستمرة، ولأجل ذلك يجب أن يكون الإمام قائماً بوظائفه الروحية والمادّية والعلمية والاجتماعية كي يسدّ الفراغ الحاصل بوفاة النبي ﷺ ومن جملة وظائفه ﷺ:

١ـ تبيين الأحكام الشرعية والوظائف الاجتماعية.

٢ـ تفسير القرآن الكريم وتوضيح إجماله وتبيين متشابهه.

٣ـ تبيين الأحكام الشرعية للحوادث المستجدّة.

٤ـ إزالة الشبهات الطارئة من قبل الفرق المختلفة.

٥ـ إزالة الخلاف الناجم بين أصحابه باعتباره محوراً للحق والباطل.

هذا ما يرجع إلى الوظائف الروحية وأمّا ما يرجع إلى الوظائف المادية فحدّث عنها ولا حرج فقد كان رئيساً للدولة، مرسلاً الجيوش لنشر الدعوة الإسلامية، مؤمِّناً لميزانية الدولة عن طريق جلب الضرائب والزكوات، باعثاً السرايا لإخماد الفتن إلى غير ذلك.

فالإمام عند الشيعة الإمامية هو الذي يقوم بهذه الوظائف كافةً بلا استثناء

ولا يقوم بها إلاّ الأمثـل فالأمثل من الأُمّـة، و من تمتَّع بتربيـة إلهية وكـان ذا كفاءة وجدارة على إدارة الدولة بمختلف شـؤونها، وليس التعرّف على مثل ذلك الإنسان أمراً يسيراً بل لا يعلمه إلاّ الله سبحانه والنبيّ ﷺ عن طريق إبلاغه.

وهـذه هي نظريـة التنصيص عنـد الإمـامية فهم لا يـرضـون إلاّ بتنصيص النبيّ ﷺ على من يخلفه لملء الفراغ الحاصل بعـد غيابه ﷺ عن المسرح السياسي والاجتماعي وليـس في مقدرة الشـورى ولا وسع البيعـة العامـة التعـرّف على ذلك الرجل المثالي والكفوء الذي يلي النبي ﷺ في الفضائل والمناقب.

إنّ انتخاب الخليفة عن طريق شورى المهاجرين والأنصار أو البيعة العامّة قد تعـرّض إليه علماء الكلام نظريـاً، دون أن يدخل حيـز التطبيق العملي بل واقع الخلافة في صدر الإسلام أثبت خلاف ذلـك، ويعرب هذا عن أنّ المعهود في ذلك العصر هو التنصيص لا المشاورة ولا الاستفتاء ولا بيعة عامة.

فهذا عمـر بن الخطاب قد أخذ بـزمام الأُمور من قبـل الخليفة الأوّل حيث قال: إنّي أستخلف عليكم عمر بن الخطاب [١].

كما أنّ الخليفة الثالث تسلّم مقاليد الأُمور عن طريق شورى سداسية عيّـن أعضاءها عمر بن الخطاب [٢].

روى المؤرّخون أنّ عمـر بن الخطـاب لمّا أحسّ بالموت قـال لابنه عبـد الله: إذهب إلى عائشة واقرأها منّي السـلام واستأذن منها أن أُقبر في بيتها مع رسول الله ومع أبي بكر.

فأتاها عبد الله بن عمر فأعلمها فقالت: نعم وكرامة، ثم قالت: يا بُنيّ أبلغ عمـر سلامي وقـل له: لا تـدع أُمّة محمّـد بـلا راع واستخلف عليهم ولا تـدعهم

١. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ١٨؛ الجزري: الكامل: ٢/ ٤٢٥.
٢. الطبري: التاريخ: ٣/ ٢٩٤.

بعدك هملا فإنّي أخشى عليهم الفتنة [١].

إنّ عبد الله بن عمر دخل على أبيه قبيل وفاته، فقال: إنّي سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لك، وزعموا أنّك غير مستخلف وانّه لو كان لك راع إبل، أو راع غنم ثم جاءك وتركها لرأيت أن قد ضيع فرعاية الناس أشد [٢].

إلى غير ذلك من النصوص الحاكية على أنّ النظرية التي تبنّاها المسلمون الأوائل هي نظرية التنصيص، ولكنّهم عدلوا عن تنصيصه سبحانه إلى تنصيص نفس الخليفة.

هل المصلحة كانت تكمن في تعيين الوصي أو تركه إلى انتخاب الأُمّة ؟

هل المصلحة العامّة عند الرسول تكمن في تعيين الوصي والقائم بشؤون الخلافة، أو تكمن في تركه إلى الأُمّة؟

إنّ دراسة أحوال المسلمين يوم ذاك، تحتم علينا، أن نقول بأنّ المصلحة العامة كانت رهن تعيين الوصيّ.

وقد فرضت الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بالإسلام على النبي ﷺ تعيين وصيّ يسدّ ذلك الفراغ الحاصل بغيابه عن المسرح السياسي ويسدّ باب الجدل والنقاش في وجه الأُمّة.

إنّ الخطر الثلاثي لم يكن أمراً خفياً على الرسول ﷺ خاصّة إنّ امبراطورية إيران ذات الحضارة الزاهرة تهدّد كيان الحكومة الفتّية، كما انّ الامبراطورية البيزنطية في شمال الجزيرة العربية لم تكن بأقل من امبراطورية إيران خطراً في إيجاد

١. ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة: ٣٢.

٢. أبو نعيم الاصفهاني: حلية الأولياء: ١/ ٤٤.

الفتن والفوضى فأخذت تشغل بال النبيّ ﷺ ولم يبارحه التفكير في خطرها حتى لحق بالرفيق الأعلى، و أضف إلى ذلك خطر المنافقين من الداخل الذين كانوا يتحيّنون الفرص ويتربّصون الدوائر لتسديد ضربة قاصمة إلى الإسلام.

واتّحاد هذا المثلث الخطر: الفرس والروم والمنافقون ، لاكتساح الإسلام واجتثاث جذوره، بات أمراً محتملاً ، خاصّة بعد رحيل النبيّ ﷺ وغيابه عن الساحة السياسية.

أفهل يمكن أن يغيب عن قلب النبيّ ﷺ هذا الخطر ليحول دون وقوعه بتعيين الوصي فيلتفّ المسلمون حوله ويفض النقاش والجدال بينهم؟!

هذا التهديد التاريخي يجرّنا إلى القول بأنّ المصلحة اقتضت التنصيص على الوصي لا أن يترك الأمر سُدًى يتلقفه الصحابة بالجدال والنقاش الحاد دون أن ينتهي عند حد .

فنرى أنّ الشيخ الرئيس ـ ذلك العقل الكبير ـ يقول:

والاستخلاف بالنص أصوب، فانّ ذلك لا يؤدّي إلى التشعّب والتشاغب والاختلاف [1].

السنّة النبويّة و التنصيص على إمامة عليّ :

إنّ من أحاط علماً بسيرة النبيّ ﷺ في تأسيس دولة الإسلام، وتشريع أحكامها وتمهيد قواعدها، وبمواقف عليّ بن أبي طالب وزير رسول الله ﷺ في أمره وظهيره على عدوّه، وعيبة علمه، ووارث حكمه، وولي عهده، وصاحب الأمر بعده

---

١ . ابن سينا: الشفاء، الإلهيات، المقالة العاشرة، الفصل الثالث والخمسون؛ ولاحظ المبدأ والمعاد: ٥٥٨.

ومن وقف على أقوال النبي وأفعاله في حلّه وترحاله، يجد انّ نصوص النبي ﷺ في خلافة علي عليه السلام و إمامته متواترة، و إليك البيان:

أ ـ حديث بدء الدعوة:

أخرج الطبري وغيره انّه لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين**﴾[1] دعا رسول الله علياً، فقال له: يا عليّ إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أنّي حتى أُباديهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فاصنع لنا يا عليّ صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ عساً من اللبن.

فلمّا جاء القوم وأكلوا وشربوا قام النبيّ ﷺ وقال: يا بني عبد المطلب إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرني على هذا الأمر، على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟

قال: فأحجم القوم عنها جميعاً، وقلت: أنا يا نبيّ الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثم قال: إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا[2].

ودلالة الحديث على الخلافة لعلي والوصاية له لا تحتاج إلى بيان، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ النبوّة والإمامة كانتا متعاقدتين بعقد واحد تتجليان معاً ولا تتخلفان.

---

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. الطبري: التاريخ: ٢/ ٦٣ ـ ٦٤ وابن الأثير: الكامل: ٢/ ٤٠، أبو الفداء عماد الدين الدمشقي في تاريخه: ٣/ ٩٠ والإمام أحمد: المسند: ١/ ١٥٩ إلى غير ذلك من المصادر.

ب ـ حديث المنزلة:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما وكثير من أهل السير والتاريخ انّ رسول الله ﷺ خلّف عليّ بن أبي طالب عليه السلام على أهله في المدينة عند توجّهه إلى تبوك فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلاّ استثقالاً له، وتخفّفاً به، فلمّا قال ذلك المنافقون أخذ عليّ بن أبي طالب عليه السلام سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبيّ الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلفتني انك استثقلتني، وتخففت بي، فقال: كذبوا، ولكنّي خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي؟

فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ في سفره [1].

الحديث يدلّ بوضوح على أنّ النبيّ ﷺ أفاض على علي عليه السلام بإذن من الله سبحانه الخلافة والوصاية، فكل مقام كان ثابتاً لهارون فهو أيضاً ثابت لعليّ عليه السلام إلاّ ما استثناه وهي النبوّة، على أنّ الاستثناء دليل العموم.

وما جاء في صدر الحديث من أنّه خلّفه على أهله لا يكون دليلاً على التخصيص لبداهة أنّ المورد لا يكون مخصّصاً.

ج ـ حديث الغدير :

حديث الغدير حديث الولاية الكبرى، حديث كمال الدين وإتمام النعمة

---

١. البخاري: الصحيح، غزوة تبوك: ٦/ ٣، طبع عام ١٣١٤ هـ، ومسلم: الصحيح: فضائل علي: ٧/ ١٢٠، وابن ماجة: السنن في فضائل أصحاب النبيّ : ١/ ٥٥، وأحمد: المسند: ١/ ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٥، ٣٣٠.

ورضى الرب تعالى وهو حديث نزل به كتـاب الله المبين وتواترت به السنّة النبوية، وتواصلت حلقات أسانيده منذ عهد الصحابة والتابعين إلى يومنا هذا.

وقد صبّ شعـراء الإسلام واقعة الغديـر في قوالب شعرية وإليـك خلاصة تلك الواقعة:

أجمع الرسول ﷺ الخروج إلى الحجّ في السنة العاشرة من الهجـرة تلك الحجة التي سميـت بحجّة الـوداع وحجّـة الإسلام وحجّـة البلاغ، فلمّا قضـى مناسكـه انصرف راجعاً إلى المدينـة ومن معه من الجمـوع المذكورة وصل إلى غديـر خمّ من الجحفة التي تتشعّب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وذلك يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة فعنـد ذاك نزل جبرئيل الأمين بقوله: ﴿**يا أيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيكَ مِنْ رَبِّكَ**﴾[1].

وكان أوائل القوم قريبين من الجحفة فأمر رسول الله ﷺ أن يرد من تقدّمهم ويحبس من تأخر عنهم حتى إذا أخذ القوم منـازلهم نودي بالصلاة، صلاة الظهر، فصلّـى الناس، وكان يوماً حـاراً يضع الرجل بعض ردائه على رأسه وبعضه تحت قدميه مـن شدة الرمضاء، فلمّـا انصرف من صلاته قام خطيبـاً وسط القوم على اقتاب الإبل، وأسمع الجميع رافعاً عقيرته، فقال:

الحمد لله، ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكّل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنـا، الذي لا هادي لمن أضلّ ولا مضلّ لمن هـدى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمـداً عبده ورسـوله، أمّـا بعد: أيّها النـاس، إنّي أُوشك أن أُدعى فأجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: «نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت، وجاهدت، فجزاك الله خيراً».

---

١. المائدة: ٦٧.

قال: «ألستم تشهدون أنّ لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حقّ، وناره حقّ، و أنّ الموت حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟» .

قالوا: «بلى نشهد بذلك».

قال: «اللّهم اشهد». ثم قال: «أيّها الناس، ألا تسمعون؟»

قالوا: «نعم».

قال: «فإنّي فرط على الحوض، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين».

فنادى مناد: «وما الثقلان يا رسول الله؟»

قال: الثقل الأكبر، كتاب الله، والآخر الأصغر، عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا».

ثم أخذ بيد عليّ فرفعها، حتى رؤي بياض آباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: «أيُّها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟».

قالوا: «الله ورسوله أعلم».

قال: «إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه، فعليّ مولاه ــ يقولها ثلاث مرات ـ ثم قال: اللّهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبّه، وابغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب».

ثم لم يتفرّقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله:

﴿اليومَ أكْمَلْتُ لكُمْ دِينكُمْ وَأتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي﴾ الآية [1]، فقال

---

١. المائدة: ٣.

رسـول الله: «الله أكبر على إكمال الـدين و إتمام النعمـة ورضى الـربّ بـرسـالتي، والولاية لعليّ من بعدي».

ثم أخذ الناس يهنّئون عليّاً، وممّن هنّاه في مقدّم الصحابة: الشيخان أبو بكر وعمر، كلّ يقول: بخ بخ، لك يا ابن أبي طـالب أصبحت مولاي، ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وقال حسّـان: أتأذن لي يا رسول الله أن أقـول في عليٍّ أبياتاً، فقـال: قل على بركة الله، فقام حسان، فقال:

ينـــاديهم يـــوم الغـــديـــر نبيّهـــم
بخـــمّ وأَسمِعْ بـــالـــرســـول منـــاديـــا

فقـــال فمـــن مـــولاكـــم ونبيّكـــم
فقـــالـــوا ولم يبـــدوا هنـــاك التعـــاميـــا

إلهك مـــولانـــا وأنـــت نبيّنـــا
ولم تلـــق منّـــا في الـــولايـــة عـــاصيـــا

فقـــال لـــه قـــم يـــا عليّ فـــإنّنـــي
رضيتـــك مـــن بعـــدي إمـــامـــاً وهـــاديـــا

فمـــن كنـــت مـــولاه فهـــذا وليّـــه
فكـــونـــوا لـــه أتبـــاع صـــدق مـــواليـــا

هنـــاك دعـــا اللّهـــم وال وليّـــه
وكـــن للـــذي عـــادى عليّـــاً معـــاديـــا

فلمّا سمع النبيّ أبياته قال: «لا تزال يا حسّان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك».

هذا مجمل الحديث في واقعة الغدير، وقد أصفقت الأُمّة على نقله، فلا نجد حديثاً يبلغ درجته في التواتر والتضافر ولا في الاهتمام به نظماً ونثراً.

لا أظن أن أحداً ينكر سند الحديث وتواتره، فقد رواه:

١ـ من الصحابة ١١٠ صحابياً.

٢ـ ومن التابعين ٨٤.

وأمّا عدد الرواة من العلماء والمحدثين فنذكرهم على ترتيب القرون.

٣ـ في القرن الثاني: ٥٦ عالماً ومحدِّثاً.

٤ـ في القرن الثالث: ٩٢ عالماً ومحدِّثاً.

٥ـ في القرن الرابع: ٤٣ عالماً ومحدِّثاً.

٦ـ في القرن الخامس: ٢٤ عالماً ومحدِّثاً.

٧ـ في القرن السادس: ٢٠ عالماً ومحدِّثاً.

٨ـ في القرن السابع: ٢٠ عالماً ومحدِّثاً.

٩ـ في القرن الثامن: ١٩ عالماً ومحدِّثاً.

١٠ـ في القرن التاسع: ١٦ عالماً ومحدِّثاً.

١١ـ في القرن العاشر: ١٤ عالماً ومحدِّثاً.

١٢ـ في القرن الحادي عشر: ١٢ عالماً ومحدِّثاً.

١٣ـ في القرن الثاني عشر: ١٣ عالماً ومحدِّثاً.

١٤ـ في القرن الثالث عشر: ١٢ عالماً ومحدِّثاً.

١٥ـ في القرن الرابع عشر: ١٩ عالماً ومحدِّثاً[١].

وقد ألّف غير واحد من أعلام الفريقين كتباً في اسناد الحديث وتواتره وإنّما المهم هو تبيين دلالة الحديث على الإمامة الكبرى.

دلالة الحديث على الولاية الكبرى:

إنّ لفظة «مولى» في كلام النبي ﷺ «من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» بمعنى «أولى» كما في قوله سبحانه: **﴿فَاليومَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِديَةٌ ولا مِنَ الَّذينَ كَفَرُوا مَأْواكُمُ النّارُ هيَ مَولاكُمْ وبِئْسَ المَصِيرُ﴾**[٢].

وقد فسّر المفسّرون قوله: **﴿هي مولاكم﴾** بقولهم هي أولى لكم، وهناك قرائن حالية ومقالية على أنّ المراد من ذلك اللفظ هي الولاية.

أمّا القرائن الحالية فهي أنّ النبي أمر بحبس المتقدم في السير ومنع التالي في محل ليس صالحاً للنزول، غير أنّ الوحي حبسه هناك والناس قد أنهكتهم وعثاء السفر وحرّ الهجير وحراجة الموقف حتى أنّ أحدهم ليضع طرفاً من ردائه تحت قدميه فعند ذاك رقى رسول الله منبر الأهداج.

فهل يصحّ أن يراد من المولى في هذا الموقف الحرج غير إبلاغ الولاية لعليّ وانّه هو المتصرّف والآخذ بالزمام بعده، وإلاّ فلو أغمض على هذا المعنى وقيل بأنّ

---

١. راجع في الوقوف على مصادر هذا البحث الكتاب القيم «الغدير» الجزء الأوّل.

٢. الحديد: ١٥.

المراد من المولى الناصر والمحب لسقط الكلام عن البلاغة واحتفظ عامة الناس بحقّ النقد والرد على النبيّ بعدم ضرورة حبس هذه الحشود في ذلك الموقف غير الصالح للنزول، وإلقاء الخطبة لأجل تفهيم الجميع أمراً واضحاً وهو الدعوة إلى نصرة عليّ وحبّه.

فلا يسوغ للنبيّ ﷺ حشر الجماهير في حرّ الرمضاء إلاّ أن تكون الخطبة حول أمر خطير تناط به حياة الإسلام وكيان المسلمين وهي تعيين الوصي بعده وإضفاء الولاية العامة على من بعده.

وأمّا القرائن المقالية فكثيرة ونشير إلى بعضها:

الأُولى: صدر الحديث وهو قوله ﷺ: «ألست أولى بكم من أنفسكم»، فهذه قرينة على أنّ المراد من المولى ما ورد في الصدر وهي الأولوية في النفوس والأموال قال سبحانه: ﴿النَّبِيُّ أولى بالمؤمنينَ مِنْ أنْفُسِهِمْ﴾[1].

الثانية: قوله في ذيل الحديث: «اللّهمّ وال من والاه وعاد من عاداه» وفي جملة من الحديث قوله «وانصر من نصره واخذل من خذله» أو ما يؤدي مؤداه فلو أُريد منه غير الولاية العامة والأولوية بالتصرّف فما معنى هذه الإطالة.

الثالثة: أخذ الشهادة من الناس حيث قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ الجنةَ حقّ والنار حقّ» فانّ وقوع قوله «من كنت مولاه» في سياق الشهادة بالتوحيد والرسالة يحقّق انّ المراد هو الخلافة بعد الرسالة للأولوية على الناس.

ولعلّ يكفيك ما ذكرنا من القر[illegible] ولم يفهم الشعراء والأُدباء منذ صدور الحديث من صاحب الرسالة إلاّ الولاية العامة لعليّ عليه السلام، وقد أنشأ حسان شعراً في هذا المقام حيث قال:

---

١. الأحزاب: ٦.

فقال لـه قـم يـا عليّ فـإنّني رضيتك مـن بعـدي إمـامـاً وهـاديـا

وهذا هو علي صاحب الولاية يقول في شعره:

وأوجـب لي ولايتـه عليكـم رسـولُ الله يـوم غـديـر خـم

وهذا هو قيس بن سعد بن عبادة ذلك الصحابي العظيم يقول:

وعليٌّ إمـامُنـا وإمـامٌ لسـوانـا أتـى بـه التنـزيـل

يـوم قـال النبـيّ مـن كنـت مـولا ه فهـذا مـولاه خطـب جليـل

هذا هـو داهية العـرب عمرو بـن العاص يكتب إلى معـاوية رسـالة وفيهـا قصيدته المعروفة بالجلجلية يقول فيها معترضاً على معاوية:

وكـم قـد سمعنـا مـن المصطفـى وصـايـا مخصصـة في علي

وفي يـوم خـم رقـى منبراً وبلـغ والصحـب لم تـرحـل

فـامنحـه امـرة المؤمنين مـن آل مستخلـف المنحـل [١]

هذا هو خلاصة القول في إمامة علي بعد رحيل الرسول ﷺ من الله.

ومن عجائب الأُمور أنّ الشيعة قد ذهبت إلى أنّ عدد الخلفاء بعد النبي ﷺ هـو اثنا عشر خليفـة، ونرى ذلك أيضـاً في الصحاح والمسـانيد، وقـد تضافـرت الروايات الناهزة على سبع عشرة رواية، أنّ عدد خلفاء الرسول هو اثنا عشر خليفة والمواصفات المحدّدة لهم تنطبق بالتمام على أئمّة الشيعة، وإليك بيانه.

روى البخاري عن جابر بـن سمرة قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: يكون اثنا

١. من أراد أن يقف على مصادر هـذه الأشعار ومـا حـول هذا الحديث مـن كلمات درّية لأسـاطين الحديث، فعليه الرجوع إلى كتاب الغدير للعلامة الأميني بكافة أجزائه.

عشر أميراً، فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنّه قال: كلّهم من قريش [١].

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلّهم من قريش» [٢].

وروى أيضاً: لا يزال هذا الدين منيعاً إلى اثني عشر خليفة، فقال كلمة صمنيها الناس، فقلت لأبي ما قال؟ قال: «كلّهم من قريش» [٣].

هذه النصوص تثبت أنّ صيغة الحكومة والإمامة عند النبي ﷺ كانت هي التنصيص وقد نصّ على عليّ عليه السلام وهو نصَّ على ولده الحسن عليه السلام وهو على أخيه الحسين عليه السلام وتوالت الأوصياء حسب التنصيص إلى اثني عشر إماماً، وعلى ضوء ذلك اتّفقت الشيعة على أنّ الأئمّة الاثني عشر خلفاء الرسول وانّهم منصوبون من الله لزعامة الأُمة وقد نصّ الرسول على عددهم بل وعلى أسمائهم كما ونصّ كل خليفة سابق منهم على الخليفة من بعده ودونك أسماءهم:

أوّلهم الإمام عليّ بن أبي طالب، ابن عمّ الرسول وصهره تربّى في حجره، ولم يزل يقفو أثره طول حياته وهو أوّل النّاس إسلاماً وأشدّهم استقامة في طاعة الله وتفانياً في الدين، بلغ في علمه وتقاه درجة تقاصر عنها شأو أقرانه.

كان الإمام أفضل الناس وأمثلهم بعد رسول الله ولم يكن يومذاك رجل أليق بزعامة الأُمّة وقيادتها منه.

نعم قدمت مجموعة من المهاجرين غيره عليه عليه السلام وتناسوا النصّ وأجمعوا

١. البخاري: الصحيح: ٩، باب الاستخلاف، ص ٨١، وما رواه متن ناقص كما سيظهر ممّا نقله مسلم.
٢. مسلم: الصحيح: ٦/ ٣، باب الناس تبع لقريش، من كتاب الامارة.
٣. المصدر السابق، ولاحظ مسند أحمد: ٥/ ٩٨.

على صرف الخلافة من أوّل يومها عن وليّه المنصوص عليه.

ولم ير الإمام بداً ـ لحفظ مصالح الدين والمسلمين ـ من تسليم الأمر إليهم فلزم عقر داره مدة خمسة وعشرين عاماً إلى أن رجعت إليه الخلافة واتّفقت على قيادته وزعامته كلمتهم لا سيما جبهة الأنصار وسنام العرب. فتولى الإمام مقاليد الخلافة وأحيا سنّة النبيّ الأعظم في عدله وإنصافه و مساواته بين الناس ولم يكن لأحد فيه مطمع، ولا عنده هوادة ولم يكن يقيم وزناً لغير الحق ولم يحكم بين الأُمّة إلاّ بالحقّ والعدالة حتى قتل في محراب عبادته لشدة عدله.

فالحقّ أنّ الإمام مفخرة من مفاخر المسلمين على الإطلاق بل الإنسانية جمعاء.

فالإمام عليّ عليه السلام أوّل الأئمة الاثني عشر، ويليه:

الحسن بن علي، الحسين بن علي، فعلي بن الحسين زين العابدين، فمحمد ابن علي الباقر، فجعفر بن محمد الصادق، فموسى بن جعفر الكاظم، فعلي بن موسى الرضا، فمحمد بن علي الجواد، فعلي بن محمد الهادي، فالحسن بن علي العسكري، فمحمد بن علي بن الحسن الحجة المهدي المنتظر.

هؤلاء أئمّة الشيعة الاثني عشر وقادتهم يقتبس من أنوارهم ويهتدي بهداهم و قد حُفظت تواريخهم و آثارهم ودُوِّنت أحاديثهم وما رويت عنهم.

والإمام الثاني عشر هو الإمام المهدي المنتظر الذي تواترت الروايات على ظهوره في آخر الزمان.

إنّ الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر عقيدة مشتركة بين جميع المسلمين، إلاّ من أصمّه الله، فكلّ من كان له أدنى إلمام بالحديث يقف على تواتر البشارة عن النبيّ وآله وأصحابه، بظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم، ونشر

أعلام العلم والعدل، وإعلاء كلمة الحق وإظهار الدين كله ولو كره المشركون، وهو بإذن الله ينجي العالم من ذلّ العبودية لغير الله ويبطل القوانين الكافرة التي سفّتها الأهواء. ويقطع دابر التعصّبات القومية والعنصرية، ويزيل العداء والبغضاء التي صارت سبباً لاختلاف الأُمّة واضطراب الكلمة، وتأجيج نار الفتن والمنازعات، ويحقق الله بظهوره وعده الذي وعد به المؤمنين بقوله:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرضِ كَما ٱسْتَخْلَفَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذي ٱرْتَضَى لَهُمْ وليُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسِقونَ﴾ [1].

وقال سبحانه: **﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا في ٱلزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ﴾** [2].

هذا ما اتّفق عليه المسلمون في الصدر الأوّل والأزمنة اللاحقة وقد تضافر مضمون قول الرسول ﷺ: «لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد لطوّل اللهُ ذلك اليومَ حتى يخرج رجلٌ من ولدي، فيملأها عدلاً وقسطاً كما مُلِئت ظُلماً وجَوراً».

ولو وُجد هناك خلاف بين أكثر السنّة والشيعة فالاختلاف في ولادته، فانّ الأكثرية من أهل السنّة يقولون بأنّه سيولد في آخر الزمان، والشيعة بفضل الروايات المتواترة تذهب إلى أنّه ولد في «سرّ من رأى» عام ٢٥٥ هـ، وغاب بأمر الله سبحانه سنة وفاة والده، عام ٢٦٠ هـ وهو يحيى حياة طبيعية كسائر الناس غير انّ الناس يرونه ولا يعرفونه، وسوف يظهره الله سبحانه ليحقّق عدله.

وهذا المقدار من الاختلاف لا يجعل العقيدة بالمهدي من المسائل الخلافية،

---

١. النور: ٥٥.

٢. الأنبياء: ١٠٥.

ومن أراد أن يقف على عقيدة السنّة والشيعة في مسألة المهدي، فعليه أن يرجع إلى الكتب التالية لمُحققي السنّة ومحدّثيهم:

١ـ «صفة المهدي» للحافظ أبي نعيم الاصفهاني.

٢ـ «البيان في أخبار صاحب الزمان» للكنجي الشافعي.

٣ـ «البرهان في علامات مهدي آخر الزمان» لملاّ علي المتقي.

٤ـ «العرف الوردي في أخبار المهدي» للحافظ السيوطي.

٥ـ «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» لابن حجر.

٦ـ «عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر» للشيخ جمال الدين الدمشقي.

وعلى ضوء ذلك اتّفقت الشيعة على أنّ الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة إمّا ظاهراً مشهوراً أو غائباً مستوراً، وتلك الحجج في عامة الأدوار تتمثّل إمّا في نبيّ أو في وصيّ نبيّ، والحجة المهدي (عجل الله تعالى فرجه) هو خاتم الأوصياء حيّ يرزق منحه الله من العمر أطوله كما منح للمسيح ذلك، وليس على الله بعسير فهو القادر على كل شيء فله أن يمنح عبداً من عباده أيّ قدر شاء من العمر، فلا قدرة الله متناهية ولا الموضوع في نفسه محال ولا أُسس علم الحياة تعانده، وما جاء العلم بحدٍّ لحياة البشر لا يتجاوزه.

وقد ادّخره الله ليوم يتظاهر فيه الزمان بالجور والعدوان والقتل وسفك الدماء والفساد وإحاطة المجتمع بأنواع العذاب والبلاء.

فهذه الكوارث والمكاره تهيّئ المجتمع وتدفعه إلى ثورة عارمة على الظلم والعدوان، تقتلع بها جذور الفساد وتقطع دابر الجبابرة عن أديم الأرض، حتى ترفرف رايات العدل والإسلام في شرق الأرض وغربها بقيادة آخر الخلفاء وخاتم الأوصياء فيملأ الله به الأرض عدلاً وأمناً كما مُلئت ظلماً وجوراً.

هذه خلاصة القول في الإمام المهدي.

وفي خاتمة المطاف نأتي بما كتبه الدكتور عبد الباقي في كتابه الذي أسماه «بين يدي الساعة» وقد طبع في السعودية، فقال في تضافر الأخبار الواردة في حق المهدي:

إنّ المشكلة ليست في حديث أو حديثين أو راوٍ أو راويين إنّها مجموعة من الأحاديث والأخبار تبلغ الثمانين تقريباً اجتمع على تناقلها مئات الرواة وأكثر من صاحب كتاب صحيح.

فلماذا تردّ كل هذه الكمية، أكلّها فاسدة؟ لو صح هذا الحكم لانهار الدين ـ والعياذ بالله ـ نتيجة تطرّق الشك والظن الفاسد إلى ما عداهما من سنّة رسول الله.

وإذا نظرنا إلى المهدي نظرة مجردة فإنّا لا نجد حرجاً من قبولها وتصديقها أو على الأقل عدم رفضها [١].

الفصل السادس :

الشيعة و المنهج الفقهي

لقد سبق قولنا أنّ مذهب الشيعة مزيج من العقيدة والشريعة وليس مذهباً كلامياً بحتاً حتى نقتصر في دراسته على بيان الأُصول الكلامية، ولا مذهباً فقهياً كما لمذاهب الفقهية الأربعة حتى يُكتفى في تعريفه بما يتبنّى من فروع في باب العبادات والمعاملات والإيقاعات والسياسات، وقد وقفت على موجز عقائدهم في المسائل الكلامية في الفصول الخمسة السالفة الذكر، وإليك الإشارة إلى ما يدينون به في باب الأحكام.

ينقسم فقه الشيعة إلى:

١ـ عبادات ٢ ـ عقود ٣ـ إيقاعات [1] ٤ـ سياسات.

وهناك تقسيم آخر وهو تقسيمه إلى العبادات، والمعاملات، والأحوال الشخصية، والسياسات.

مصادر الفقه الشيعي:

تعتمد الشيعة في استنباط الأحكام الشرعية على الأدلة الأربعة لا غير:

الأوّل : كتاب الله العزيز ولا يعدل عنه إلى غيره مطلقاً.

الثاني : السنّة المأثورة عن النبي ﷺ عن طريق أئمّة أهل البيت وسائر الثقات،

---

١ . العقد: اتفاقية قائمة بالطرفين كالبيع والنكاح، بخلاف الإيقاع فإنّه إنشاء أمر قائم بطرف واحد، كالطلاق والعتق. وربّما يعبر عن الرابع بـ «أحكام» وهو أمتن وأشمل.

فإنّ المأثور عن أئمّة أهل البيت يصل إلى النبيّ ﷺ بسند عالٍ غير خاضع للنقاش.

الثالث : الإجماع: إجماع المسلمين على حكم شرعي، أو إجماع الطائفة الشيعية الكاشف عن وجود النص الواصل إلى يد المجمعين وغير الواصل إلينا. وليس الإجماع عندهم بنفسه حجة، بل لأجل كشفه عن دليل شرعي موجود لدى المجمعين.

الرابع : العقل: أعني الإدراكات القطعية العقلية التي لا يتردد فيها ولا يشك في صحتها، كيف والعقل هو الحجة الباطنية التي يحتجّ بها المولى سبحانه على العباد، ثم بحكم العقل الذي له صلاحية الحكم والقضاء يُستكشف حكم الشرع، للملازمة بين حكم العقل والشرع واستحالة التفكيك بينهما، فمثلاً إذا استقلّ العقل بقبح العقاب بلا بيان فيفتي المجتهد في الموارد التي لم يرد فيها دليل شرعي على الحكم الشرعي، بالبراءة أو الحلّية.

هذه هي مصادر التشريع عند الشيعة وليس هناك مصدر آخر تعتمد عليه.

وأمّا الرجوع إلى العرف، فإنّما هو لتحديد المفاهيم وتبيين الأوضاع كالرجوع إلى قول اللغوي.

نعم، رفضت الشيعة منذ زمن مبكر القياس والاستحسان وسدّ الذرائع وما يماثلها من الأدلة الظنية التي لم يقم دليل عندهم على حجيتها.

اتفقت الشيعة على أنّ السنّة المطهرة كما تثبت بالخبر المتواتر، والخبر المحفوف بالقرائن، تثبت أيضاً بالخبر الواحد إذا كان رواته ثقات في جميع السلسلة.

❋ ❋ ❋

فتح باب الاجتهاد:

الاجتهاد هو بذل الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها المعينة وهو رمز خلود الدين وبقاء قوانينه، لأنّه يحفظ غضارته وطراوته ويصونه عن الاندراس ويغني المسلمين عن التطفل على موائد الأجانب بإعطاء كل موضوع ما يقتضيه من الحكم.

وقد حثّ أئمّة أهل البيت شيعتهم على التفقه في الدين والاجتهاد فيه وانّه من لم يتفقّه في الدين فهو أعرابي، وأرشدوهم إلى كيفية استخراج الفروع المتشابكة، من الآيات والأُصول المتلقّاة عنهم، كل ذلك صار سبباً لاندفاع الشيعة نحو دراسة كتاب الله والأحاديث المروية وبذل الجهد في استنباط الأحكام من أدلّتها الشرعية ورأوا أنّ الاجتهاد أمرٌ لازمٌ لأنّ بين الأخبار ما هو عام وخاص ومطلق ومقيد، وبين الآيات ناسخ ومنسوخ، وبين الأحكام ما هو مجمع عليه ومختلف فيه. كل ذلك جرهم إلى فتح باب الاجتهاد أي بذل الوسع في فهم الحكم الشرعي من أدلته.

وأمّا لزوم فتح هذا الباب في عصرنا فلا يحتاج إلى البرهنة والدليل، لأنّنا أمام موضوعات مستجدّة تتطلب لنفسها الجواب، والجواب إمّا يطلب من بذل الوسع في استنباط أحكام الموضوعات المستجدة من الأُصول والقواعد الإسلامية، أو اتّباع المبادئ الغربية من غير نظر إلى مقاصد الشريعة. ومن المعلوم تعيّن الأوّل وبطلان الثاني.

فقهاء الشيعة:

لقد أنجبت مدرسة أهل البيت فقهاء في عصر الأئمّة كـ «زرارة بن أعين» (٨٠ ـ ١٥٠هـ) و «محمد بن مسلم الطائفي» (٨٠ ـ ١٥٠ هـ) و «محمد بن

أبي عمير» (المتوفّى ٢١٧ هـ) و «الحسن بن محبوب» (١٥٠ ـ ٢٢٤ هـ) إلى غير ذلك من فقهاء الشيعة في القرن الثاني والثالث.

احتفل القرن الرابع والخامس بفقهاء كبار لهم مكانتهم في الفقه الشيعي كـ «علي بن بابويه» (المتوفّى ٣٢٩ هـ)، و «محمد بن جعفر بن قولويه» (المتوفّى ٣٦٩هـ)، و«الشيخ الصدوق» (٣٠٦ ـ ٣٨١هـ) و « الشيخ المفيد» (٣٣٦ـ٤١٣ هـ)، و«السيد المرتضى» (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ)، و « الشيخ الكراجكي» (المتوفّى ٤٤٩ هـ)، و«الشيخ الطوسي» (٣٨٥ـ٤٦٠ هـ)، و «سلار الديلمي» مؤلف المراسم، و«ابن البراج» (٤٠١ ـ ٤٨٩ هـ) مؤلف المهذب، وغيرهم من الذين ملأت أسماؤهم كتب التراجم والرجال، ومن أراد الوقوف على حياتهم وكتبهم فعليه الرجوع إلى الموسوعات الرجالية و فهارس المؤلفات، وأخص بالذكر كتاب الذريعة إلى تصانيف الشيعة، و توالى التأليف في الفقه بأشكال وصور مختلفة إلى العصر الحاضر وترى فيه موسوعات كبيرة كجواهر الكلام في ٤٢ جزءاً، والحدائق الناضرة في ٢٦ جزءاً.

إنّ لكل كتاب أو باب فقهي شأناً ومكانة خاصة تدور عليها رحى الحياة المادّية والروحية للمسلم ولا يستغني المجتمع الإسلامي عن واحد منها، غير أنّ هناك موضوعات تعدّ بمثابة أُصول لها منزلة متميّزة وهي ما نسمّيه أركان الفقه.

أركان الفقه وأُسسه:

١ـ الصلاة : وهو ركن عظيم إسلامي، فيجب على كل مسلم أن يقيم الصلوات اليومية في أوقاتها الخاصة إلى الجهة (القبلة) التي نصّ عليها القرآن وأطبق المسلمون عليها، وهي الكعبة.

٢ـ الصوم: يجب على كل مسلم أن يصوم شهر رمضان كلّه بادئاً برؤية

هلاله وخاتماً بهلال شوال.

٣ـ الحج: يجب على كل مسلم مستطيع أن يحج بيت الله الحرام ولو مرّة واحدة، ويجتمع مع سائر إخوانه في ذلك المشهد العظيم الذي ينعقد مرة واحدة كل سنة.

٤ـ الزكاة: وهي عند الشيعة ركن اجتماعي بارز وضريبة إسلامية، وهي حق الجماعة في عنق الفرد وعلى عاتق المكلفين، حدّد لها الإسلام نصاباً، وجعل لها شرائط، وأوضح جهة مصارفها كمساعدة الفقراء والمساكين وتجهيز المجاهدين ودعم المرابطة وعلاج المرضى وكل ما يمت إلى مصالح الإسلام والمسلمين بصلة.

٥ـ الخمس: وهي ضريبة إسلامية أُخرى تتعلق بأموال المتمكنين من المسلمين ولها شرائط وضوابط محرّرة في مواضعها.

٦ـ الجهاد: وهو ركن من أركان الإسلام فيجب على كل مسلم الوقوف أمام أعداء الإسلام بكل حول وقوة بتضحية النفوس والأموال .

٧ و ٨ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: هما من أفضل القربات لدى الشيعة أساسهما الدعوة إلى الحق، والهدى، ومكافحة الفساد، بألوانه المختلفة الفردية والاجتماعية على ضوء العلم و المنطق الصحيح، وهما وظيفة الشعب المسلم ولا يختص بطائفة دون أُخرى ليقف على الأحداث المهددة لمجتمعه ويعالجها بالحكمة والموعظة الحسنة. وأمّا تنفيذهما فيقع على عاتق الدولة الإسلامية وليس له شكل خاص وإنّما يتبع المصالح العامّة حسب اختلاف الظروف.

ما ذكرنا من العناوين الفقهية تعدّ من أركان الفقه وأُسسه، وأمّا الكتب الفقهية التي وقعت في إطار البحث والنقاش بين فقهاء الشيعة فتربو على أكثر

من خمسين كتاباً، وإليك أسماءها:

١ـ كتاب الطهارة.
٢ـ كتاب الصلاة.
٣ـ كتاب الزكاة.
٤ـ كتاب الخمس.
٥ـ كتاب الصوم.
٦ـ كتاب الاعتكاف.
٧ـ كتاب الحج.
٨ـ كتاب الجهاد.
٩ـ كتاب الكفارات.
١٠ـ كتاب النذر.
١١ـ كتاب القضاء.
١٢ـ كتاب الشهادات.
١٣ـ كتاب الوقف.
١٤ـ كتاب العطية.
١٥ـ كتاب المتاجر.
١٦ـ كتاب الدين.
١٧ـ كتاب الرهن.
١٨ـ كتاب الحجر.
١٩ـ كتاب الضمان.
٢٠ـ كتاب الحوالة.
٢١ـ كتاب الكفالة.
٢٢ـ كتاب الصلح.
٢٣ـ كتاب الشركة.
٢٤ـ كتاب المضاربة.
٢٥ـ كتاب الوديعة.
٢٦ـ كتاب العارية.
٢٧ـ كتاب المزارعة.
٢٨ـ كتاب المساقاة.
٢٩ـ كتاب الإجارة.
٣٠ـ كتاب الوكالة.
٣١ـ كتاب الشفعة.
٣٢ـ كتاب السبق والرماية.
٣٣ـ كتاب الجعالة.
٣٤ـ كتاب الوصايا.
٣٥ـ كتاب النكاح.
٣٦ـ كتاب الطلاق.
٣٧ـ كتاب الخلع والمباراة.
٣٨ـ كتاب الظهار.
٣٩ـ كتاب الإيلاء.
٤٠ـ كتاب اللعان.
٤١ـ كتاب العتق.
٤٢ـ كتاب التدبير والمكاتبة والاستيلاء.
٤٣ـ كتاب الإقرار.
٤٤ـ كتاب الغصب.
٤٥ـ كتاب اللقطة.
٤٦ـ كتاب إحياء الموات.
٤٧ـ كتاب الصيد والذبائح.
٤٨ـ كتاب الأطعمة والأشربة.
٤٩ـ كتاب الميراث.
٥٠ـ كتاب الحدود.
٥١ـ كتاب القصاص.
٥٢ـ كتاب الديات.

الملامح العامّة للفقه الشيعي:

إنّ للفقه الشيعي ملامح عامة يتميز بها عن سائر المناهج الفقهية، و إليك بيانها:

١ـ الفقه الشيعي هو حصيلة النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسنّة وذلك، لأنّ الأحاديث الفقهية عند أهل السنّة لا تتجاوز عن ٥٠٠ حديث يدعمها مراسيل وموقوفات، قال السيد محمد رشيد رضا مؤلف المنار: إنّ أحاديث أحكام الأُصول خمسمائة حديث فعدها أربعة آلاف فيما أذكر[1]، وما يذكره من أربعة آلاف إنّما هي موقوفات ومراسيل لا يحتج بها.

وعلى كل تقدير صار ذلك سبباً للجوئهم في استنباط الأحكام إلى غير النصوص، كالقياس والاستحسان وسدّ الذرائع، وأمّا الشيعة فبما أنّهم أناخوا مطيتهم على باب العترة الطاهرة فتسنّى لهم الوقوف على حجم هائل من الأحاديث النبوية أكثر من غيرهم حتى صار ذلك سبباً لثراء الفقه الشيعي، من غير حاجة إلى العمل بغير النصوص.

٢ـ قد عرفت أنّ باب الاجتهاد مفتوح عندهم منذ رحيل النبي ﷺ إلى يومنا هذا ولم يتوقف يوماً ما فأدّى إلى نضارة الفقه وتبلوره و إعداده للإجابة على المستجدات الطارئة.

ولا شك أنّ الحقيقة بنت البحث، والعلم يتكامل إذا دخل حلبة الصراع الفكري، وفقهاء الشيعة بذلوا جهوداً مضنية على هذا الصعيد بغية تنمية الفقه وتكامله فصار فقههم متكامل الجوانب.

---

١. الوحي المحمدي: ٢١٢، الطبعة السادسة.

٣ـ إنّ الاجتهاد عند فقهاء الشيعة ليس اجتهاداً في مذهب خاص وإنّما هو اجتهاد حر موضوعي لا يختص بمذهب دون آخر.

فالمجتهد الحنفي إنّما يجتهد للبحث عن رأي إمامه في المسألة، وهكذا المجتهد الشافعي ولا يخرج عن إطار المذهب وإن تبين أنّ الحق على خلافه.

وأمّا الاجتهاد في المذهب الشيعي فليس اجتهاد في مذهب الإمام جعفر الصادق أو غيره من أئمّة الشيعة، إذ ليست الأئمّة عندهم مجتهدين أو مفتين وإنّما هم روّاة سنن النبي ﷺ وعيبة علمه غير مشوب بالخطأ، فالمجتهد الشيعي إنّما هو بصدد استنباط الحكم الواقعي الذي نزل به الوحي وبيّنه النبيّ ﷺ.

٤ــ المذهب الفقهي يتمتع بالدقة في السند والدلالة فربّ رواية يراها الإنسان العادي دليلاً على الحكم الشرعي، ولكنّهم بإمعان الدقة، يرونها غير دالة عليه، يعلم ذلك بالرجوع إلى كتبهم الفقهية.

٥ـ الشيعة تستمد اجتهادها من القواعد العامّة المسماة بأُصول الفقه، وقد تكامل هذا العلم منذ عصر الأئمّة إلى يومنا هذا على وجه أوجد فجوة سحيقة بين ما ألفه علماء السنّة في الأُصول كالمختصر لابن الحاجب، والمستصفى للغزالي، وما ألفه علماء الشيعة في أُصول الفقه في القرنين الأخيرين، وما ذلك إلاّ نتيجة التعمّق في القواعد الأُصولية من خلال فتح باب الاجتهاد.

* * *

وحصيلة القول

إنّ الفقه الشيعي كالفقه السنّي يسيران جنباً إلى جنب في استنباط الحكم الشرعي مع اختلاف يسير في الطرق والمشارب.

فالأدلّة الفقهية عند الشيعة هي الأربعة السالفة الذكر، وعند السنّة إضافة

إلى الكتاب والسنّة والإجماع، القياس والاستحسان وسدّ الذرائع.

فنجد أنّ الفقه الشيعـي يتّفق في غالب المسائل الفقهيـة مع أحد المذاهب الأربعـة نتيجـة اتّفاقهـم في أُصـول الاستنبـاط، وأمامـك كتـاب الخلاف للشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) فهو خير شاهد على مـا ندّعيه، فإنّه فقه مقارن يبحث عن الحكم الشرعي على ضوء المذاهب الخمسة .

نعم ثمة مسائل خلافية انفردت الشيعة بها ونشير إلى بعضها:

١ـ إنّ الشيعي يمسح الرجلين في الوضوء والسنّي يغسلهما.

٢ـ إنّ الشيعي يصلي بـلا قبض اليسرى باليمنى والسنّـي يصلي مع القبض إلاّ المالكي.

٣ـ الشيعـي يطلق ضريبة الخمس إلى أربـاح المكاسب والسنّـي يخصصها بالغنائم الحربية.

٤ـ الشيعي جوّز الوصية للوارث دون السنّي.

٥ـ السنّي يقول بالعول والتعصيب في الارث دون الشيعي.

وهـذا المقدار الضئيل مـن الاختلافـات ليس بشيء أمـام الفقه الإسـلامي الواسـع والذي هو محيط لا يـدرك ساحله ولا يضر بـالوحدة المنشـودة ولا يقطع عرى الأُخوة.

ولو أقيـم مؤتمر فقهيّ حـول هذه المسـائل التي تفرّدت بها الشيعـة لتجلّت الحقيقة بأجلى مظاهرها، وتقاربت الخطىٰ وأخذ الجميع برأيٍ واحدٍ كما صار الحال كذلك في الطـلاق ثلاثاً في مجلس واحـد، فقد أخذ الفقه المصري في هـذه المسألة برأي الشيعـة الإمامية مـن انّه يحسب طلاقـاً واحداً، لا ثـلاثاً وصادقت المحـاكم المصرية على ذلك.

الفصل السابع:

الشيعة والتراث الفكريّ

إنّ المسلمين بصورة عامة شيّدوا أركـان الحضارة الإسلامية في ظلّ الخطوط التي رسمها النبيّ ﷺ من خلال القرآن والسنّة فأصبحت لهم قوة اقتصادية ونظم سياسية وتقاليد دينية وخلقية، وأصبحت العلوم والفنون تتطور وتتقدم، وقد قاموا بترجمة كتب اليـونانيين والفـرس وغيرهم إلى لغتهـم فصارت الحضـارة الإسلاميـة مزدهرة، بفضل هذه العلوم وتطويرها.

والـذي يطيب لنـا في هذا الموضـوع ذكر مسـاهمة الشيعـة في بناء الحضـارة خصوصاً فيما يرجع إلى العلوم والفنون:

١ـ الشيعة وعلم النحو:

قام أبو الأسود الدؤلي ـ الذي كان من سادات التابعين وصاحب علياً عليه السلام وشهد معه الجمل و صفّين ـ بوضع قـواعد نحوية ودوّنها بأمر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام و إرشاده وتعليمه قسماً من القواعد.

ومن المعلوم أنّ هـذه القواعد لم تكن تسـدّ الحاجة الملحّة ولكن أبـا الأسود قام بإكمالها، ثم عُرف فيما بعد بأنّه مدوّن علم النحو وواضعه وتوالى التأليف بعده من الطائفتين.

٢ـ الشيعة وعلم الصرف:

كما أنّ أوّل من دوّن الصرف هو أبو عثمان المازني، وكان قبل ذلك مندرجاً في علم النحو كما ذكره في كشف الظنون . وأبسط كتاب في الصرف، ما كتبه نجم الأئمة أعني محمد بن الحسن الاسترآبادي الغروي، له شرح الشافية في الصرف كما له شرح الكافية في النحو، وكلا الكتابين جليلا الخطر محمودا الأثر.

٣ـ الشيعة وعلم اللغة:

وقد ألّفت الشيعة كتباً في علم اللغة، فأوّل من ضبط اللغة هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد البصري الفراهيدي الأزدي الذي وضع علم العروض فهو سيد أهل الأدب، وقد سبق الجميع إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم، فألّف كتابه «العين» جمع فيه ما كان معروفاً في أيامه من ألفاظ اللغة وأحكامها وقواعدها، ورتب ذلك على ترتيب خاص.

ولم يشك أحد من علمائنا أنّ الخليل كان شيعياً، وعن المرزباني أنّه ولد عام مائة بعد الهجرة وتوفي عام ١٧٠ أو ١٧٥ هـ، وقد ألف كتاباً في الإمامة كما نقله ابن قانع.

٤ـ الشيعة وعلم العروض:

وإذا كانت الشيعة هي التي ابتكرت علم النحو بهداية من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، ولحسن الحظ أنّها المبتكرة أيضاً لعلم العروض وظهوره إلى الوجود، كما تقدّم وقد ألف كافي الكفاة الصاحب بن عباد الذائع الصيت، كتاباً في العروض أسماه «الاقناع» وقد توالى التأليف بعده إلى عصرنا هذا، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى المعاجم حول مصنّفات الشيعة.

٥ـ الشيعة والشعر:

وجدت في الشيعة طبقة راقية منذ أوائل القرون الأُولى، وكان أئمّة أهل البيت يقدّرون جهودهم ويرحّبون بهم بكل حفاوة كما نطق به التاريخ في حقّ الفرزدق وميميته، وهاشميات الكميت، وعينية الحميري، وتائية دعبل، لقد حظوا جميعاً بتقدير واحترام الأئمّة وصار عملهم في هذا المجال أُسوة الشيعة.

وإليك أسماء قليل من شعراء الشيعة:

١ـ قيس بن سعد بن عبادة.

٢ـ الكميت.

٣ـ السيد الحميري.

٤ـ دعبل الخزاعي.

٥ـ ابن الرومي.

٦ـ أبو فراس.

٧ـ أبو الطيب المتنبي.

٦ـ الشيعة وعلم التفسير :

إنّ مدرسة الشيعة منذ أن ارتحل النبيّ ﷺ إلى يومنا هذا، أنتجت تفاسير على أصعدة مختلفة وخدمت الذكر الحكيم بصور شتى.

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام بعد الرسول ﷺ هم المفسرون للقرآن الكريم حيث فسروا القرآن بالعلوم التي نحلهم الرسول ﷺ بأقوالهم وأفعالهم وتقريراتهم التي لا تشذّ عن قول الرسول وفعله وتقريره، ومن الظلم الفادح أن نذكر الصحابة والتابعين في عداد المفسرين ولا نعترف بحقوق أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

عكف المسلمون على دراسة القرآن وأوّل ما فوجئوا به بعد وفاة النبي ﷺ هو قصور باع لفيف منهم عن فهم بعض ألفاظ القرآن، والقرآن وإن نزل بلغة الحجاز، لكن توجد فيه ألفاظ غير رائجة وربّما كانت رائجة بين القبائل الأُخرى، وهذا النوع من الألفاظ ما سمّوه «غريب القرآن».

وبما أنّ تفسير غريب القرآن كانت الخطوة الأُولى لتفسيره، ألف غير واحد من علماء الشيعة إبَّان التدوين كتباً في ذلك المضمار، نذكر إليك بعضها:

١ـ غريب القرآن لأبان بن تغلب بن رباح البكري (المتوفّى ١٤١ هـ).

٢ـ غريب القرآن لمحمد بن السائب الكلبي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام.

٣ـ غريب القرآن لأبي روق، عطية بن الحارث الهمداني الكوفي التابعي.

٤ـ غريب القرآن لعبد الرحمن بن محمد الأزدي الكوفي.

٥ـ غريب القرآن للشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد الطبري الآملي الوزير الشيعي المتوفّى عام ٣١٣ هـ.

كما أنّ هناك لوناً آخر من التفسير يهدف إلى بيان مقاصده ومعانيه فيما إذا كانت الآية مشتملة على المجاز والكناية والاستعارة ، ونأتي ببعض ما أُلف في ذلك المجال بيد أعلام الشيعة:

١ـ مجاز القرآن، لشيخ النحاة الفرّاء يحيىٰ بن زياد الكوفي المتوفّى عام ٢٠٧ هـ.

٢ـ مجاز القرآن، لمحمد بن جعفر أبو الفتح الهمداني وله كتاب «ذكر المجاز في القرآن».

٣ـ مجازات القرآن، للشريف الرضي المسمّىٰ بـ «تلخيص البيان في مجازات القرآن».

وهناك لون آخر من التفسير يندفع فيه المفسر إلى توضيح قسم من الآيات تجمعها صلة خاصة كالمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، وآيات الأحكام، وقصص الأنبياء، وأمثال القرآن، والآيات الواردة في مغازي النبيّ ﷺ والنازلة في حقّ العترة الطاهرة إلى غيرها من الموضوعات التي لا تعم جميع آيات القرآن بل تختص بموضوع واحد.

وقد خدمت الشيعة كتاب الله العزيز بهذه الأنواع من التفاسير ومن أراد أن يقف عليها فعليه أن يرجع إلى المعاجم وأخص بالذكر الذريعة إلى تصانيف الشيعة.

٧ـ الشيعة والتفسير الموضوعي:

إنّ هذا النمط من التفسير هو غير النمط المعروف بالتفسير الترتيبي فإنّ النمط الثاني يتّجه إلى تفسير القرآن سورة بعد سورة وآية بعد آية، وأمّا النمط الأوّل فيحاول فيه المفسر إيراد الآيات الواردة في موضوع خاص في مجال البحث وتفسير الجميع جملة واحدة وفي محل واحد.

ولعلّ العلاّمة المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠ هـ) أوّل من فتح هذا الباب على مصراعيه في موسوعته «بحار الأنوار» حيث يورد في أوّل كل باب الآيات الواردة حولها ثم يفسّرها إجمالاً، وبعد الفراغ عنها، ينتقل إلى الأحاديث التي لها صلة بالباب.

٨ ـ الشيعة والتفسير الترتيبي:

إنّ المنهج الراسخ بين القدماء وأكثر المتأخرين هو التفسير الترتيبي، وقد نهجت الشيعة منذ عصر الإمام عليّ إلى العصر الحاضر هذا النمط من التفسير،

إمّا بتفسير جميع السور أو بعضها، والغالب على التفاسير المعروفة في القرون الثلاثة الأُولى، هو التفسير بالأثر ولكن تحول إلى اسلوب آخر وهو التفسير العلمي والتحليلي منذ أواخر القرن الرابع.

فأوّل من ألف من الشيعة على هذا الاسلوب هو الشريف الرضي (٣٥٧ ـ ٤٠٦ هـ) مؤلف كتاب «حقائق التأويل» في عشرين جزءاً ثم جاء بعده أخوه الشريف المرتضى فسلك مسلكه في أماليه المعروفة بالدرر والغرر، ثم توالى التأليف على هذا الاسلوب في عصر الشيخ الأكبر الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) مؤلف «التبيان في تفسير القرآن» في عشرة أجزاء.

٩ـ الشيعة وعلم الحديث:

إنّ السنّة هي المصدر الثاني للثقافة الإسلامية على كافة الأصعدة، ولم يكن شيء أهم، بعد كتابة القرآن وتدوينه وصيانته من نقص وزيادة، من كتابة حديث الرسول وتدوينه وصيانته من الدس والدجل وقد أمر به الرسول ﷺ غير مرّة.

لقد تعرّفت على أنّ أئمّة أهل البيت هم رواة سنن النبيّ وأحاديثه وقد التفّ حولهم الشيعة فأنجبت مدرسة أهل البيت في القرون الثلاثة الأُولى محدّثين كبار لكلّ منهم جامع حديثي نذكر منهم ما يلي:

١ـ يونس بن عبد الرحمن، من تلامذة الإمام موسى بن جعفر والإمام الرضا عليهما السلام، وقد وصفه ابن النديم في فهرسته بعلاّمة زمانه، له جوامع الآثار، والجامع الكبير، وكتاب الشرائع.

٢ـ صفوان بن يحيى البجلي (المتوفّى ٢٢٠ هـ) كان أوثق أهل زمانه وصنّف ثلاثين كتاباً.

٣ و ٤ـ الحسن والحسين ابنا سعيد بن حماد الأهوازي صنّفا ٣٠ كتاباً.

٥ـ أحمد بن محمد بن خالد البرقي (المتوفّى ٢٧٤ هـ) صاحب كتاب المحاسن.

٦ـ محمد بن أحمد بن يحيى الأشعري القمي صاحب الجامع المعروف (المتوفّى حوالي ٢٩٣ هـ).

٧ـ أحمد بن محمد ابن أبي نصر البزنطي (المتوفّى ٢٢١ هـ) صاحب الجامع المعروف.

هذه هي الجوامع الحديثية الأوّلية للشيعة، وهناك جوامع حديثية أُخرى أُلفت في القرن الرابع والخامس مستمدة تأليفها من الجوامع الأولية وهي:

١ـ الكافي، لثقة الإسلام الكليني (المتوفّى ٣٢٩ هـ) طبع في ٨ أجزاء.

٢ـ من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ) طبع في ٤ أجزاء.

٣ـ التهذيب طبع في عشرة أجزاء.

٤ـ الاستبصار طبع في أربعة أجزاء.

كلاهما لشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠ هـ) .

وهذه هي الجوامع الحديثية الثانوية.

وهناك جوامع أُخرى أُلّفت في القرن الحادي عشر وقد استمد مؤلّفوها من الجوامع الثانوية وهي:

١ـ وسائل الشيعة، للشيخ الحر العاملي (المتوفّى ١١٠٤ هـ) وطبع في ٢٠ جزءاً.

٢ـ الوافي، للمحدث الكاشاني (المتوفّى ١٠٩١ هـ) طبع حديثاً وراء طبعته القديمة في خمسة وعشرين جزءاً.

٣ـ بحار الأنوار، للشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٣٧ ـ ١١١٠ هـ) وقد طبع في مائة وعشرة أجزاء.

والركب بعدُ غير متوقف فقد انتشر في الآونة الأخيرة جامع حديثي للشيعة ألفته لجنة علمية بإشراف من فقيه العصر ومحدثه السيد حسين البروجردي، وقد تمّ طبعه في ٢٦ جزءاً.

كل ذلك ينم عن اعتناء الشيعة بالأحاديث النبوية والآثار المروية عن أئمة أهل البيت، ولو رجع محدّثو السنّة وفقهاؤهم إلى هذه الكنوز الثمينة لوجدوا فيها درراً و لآلئ لامعة تقرّ بها عيونهم.

١٠ـ الشيعة وعلم أُصول الفقه:

انبرى أئمّة أهل البيت عليهم السلام إلى إملاء ضوابط وقواعد يرجع إليها الفقيه عند فقدان النص، أو إجماله أو تعارضه إلى غير ذلك من الحالات، وتلك الأُصول هي التي تشكّل أساساً لعلم أُصول الفقه، ولقد جمعها عدة من الأعلام في كتب خاصّة أفضلها «الفصول المهمة في أُصول الأئمّة» للشيخ المحدث الحر العاملي المتوفى عام ١١٠٤ هـ.

كما ونرى أنّ لفيفاً من صحابة الأئمة درسوا بعض مسائل أُصول الفقه نظير:

١ـ هشام بن الحكم (المتوفى سنة ١٩٩ هـ) صنف كتاب الألفاظ.

٢ـ يونس بن عبد الرحمن، صنّف كتاب اختلاف الحديث ومسائله.

٣ـ إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت (٢٣٧ ـ

٣١١ هـ) صنّف كتاب الخصوص والعموم وكتاب إبطال القياس وكتاب نقض اجتهاد الرأي.

٤ـ أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي من علماء القرن الثالث، له كتاب الخصوص والعموم والخبر الواحد.

٥ــ محمد بن أحمد بن داود بن علي المتوفى عام ٣٦٨ هــ، له كتاب الحديثين المختلفين.

٦ـ محمد بن أحمد بن الجنيد المتوفى عام ٣٨١هـ، له كتاب كشف التمويه والالتباس في إبطال القياس.

١١ـ الشيعة وعلم المغازي والسير:

مغازي النبيّ ﷺ جزء من تاريخ حياته وسيرته، والرسول ﷺ قدوة وأُسوة وفعله كقوله حجة بلا إشكال، وقد وضع بعضهم كتباً في فقه السيرة فكان على المسلمين ضبط دقيقها وجليلها وقد قاموا بذلك لولا أنّ الجهاز الحاكم حال دون تحقق تلك الأُمنية.

ولكن قيّض الله سبحانه رجالاً من الشيعة في ذلك المجال ضبطوا سيرة الرسول ومغازيه، منهم:

١ـ محمد بن إسحاق بن يسار (المتوفّى ١٥١ هـ).

٢ـ عبيد الله بن أبي رافع، من أصحاب الإمام أمير المؤمنين فقد عمل كتاباً أسماه «تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفين والنهروان من الصحابة».

٣ــ كما ألّف جابر بن يزيد الجعفي (المتوفّى ١٢٨ هــ) كتباً في ذلك المجال، منها: كتاب الجمل، كتاب صفين، كتاب النهروان، كتاب مقتل أمير

المؤمنين وكتاب مقتل الحسين عليه السلام.

٤ـ أبان بن عثمان الأحمر البجلي الكوفي.

٥ـ أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي الغامدي، شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة، صنّف كتباً منها: كتاب المغازي، وكتاب السقيفة، وكتاب الردّة، وكتاب فتوح الإسلام، وكتاب المختار الثقفي، وكتاب صفين، وكتاب الجمل.

٦ـ نصر بن مزاحم ألف كتباً كثيرة في هذا المجال أشهرها كتاب صفين، وهو كبير الحجم.

٧ـ هشام بن محمد بن السائب الكلبي (المتوفّى ٢٠٦ هـ).

١٢ـ الشيعة وعلم الرجال:

اهتم علماء الشيعة بعد عصر التابعين بعلم الرجال، نذكر المؤلفين الأوائل منهم:

١ـ عبد الله بن جبلة الكناني (المتوفّى ٢١٩ هـ).

٢ـ علي بن الحسن بن فضال، كان فقيه أصحابنا بالكوفة ووجههم وثقتهم وعارفهم بالحديث.

٣ـ الحسن بن محبوب السراد (١٥٠ ـ ٢٢٤ هـ) له كتاب «المشيخة» و «معرفة رواة الأخبار».

٤ـ أبو عمرو الكشي، له كتاب «معرفة الرجال».

٥ـ أبو العباس أحمد بن علي النجاشي (٣٧٢ ـ ٤٥٠ هـ).

٦ـ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) له كتاب «الفهرست» و «الرجال».

١٣ـ الشيعة والعلوم العقلية:

إنّ خطب الإمام علي عليه السلام ورسائله وقصار حكمه شكلت احدى المصادر المهمّة لكلام الشيعة وآرائهم في العقائد والمعارف، ولم يقف نشاط الشيعة عند هذا الحد بل جاءت الأئمّة عليهم السلام وحثوا شيعتهم على التدبّر والتفكّر في المعارف حتى تربّى في مدرستهم رواد الفكر من عصر سيد الساجدين إلى عصر الإمام العسكري، تجد أسماءهم وتآليفهم وأفكارهم في المعاجم وكتب الرجال.

وقد نبغ في عصر أئمّة أهل البيت مفكّرون بارزون أفادوا الأجيال من بعدهم.

وإليك أسماء بعض متكلمي الشيعة في القرون الأُولى:

١ـ زرارة بن أعين، شيخ أصحابنا في زمانه، كان قارئاً متكلّماً، قال ابن النديم: وزرارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام (المتوفّى ١٥٠هـ).

٢ ـ محمد بن علي بن النعمان البجلي المعروف بمؤمن الطاق (المتوفّى ١٤٨هـ) . له كتب في الكلام قال ابن النديم: وكان متكلّماً حاذقاً، وله من الكتب: كتاب الإمامة والمعرفة، وكتاب الرد على المعتزلة.

٣ـ هشام بن الحكم، قال ابن النديم: هو من متكلّمي الشيعة الإمامية وبطانتهم، وقد ذكر الرجالي المعروف النجاشي كتبه الكلامية البالغة ٣٠ كتاباً، قال أحمد أمين المصري: هشام بن الحكم أكبر شخصية شيعية في الكلام، وكان قوي الحجة، ناظر المعتزلة وناظروه.

٤ـ قيس بن الماصر، أحد أعلام المتكلّمين تعلّم الكلام من عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، وهو من عيون المتكلّمين بين أصحاب الإمام الصادق عليه السلام .

٥ـ عيسى بن روضة، كان متكلّماً جيّد الكلام وله كتب في الإمامة.

إلى غير ذلك من متكلّمي القرن الثاني ويليهم في القرن الثالث أُناس بارزون في الكلام، وإليك أسماء طائفة منهم:

١ـ الفضل بن شاذان (المتوفّى ٢٦٠ هـ).

٢ـ الحكم بن هشام بن الحكم المتوفّى في أوائل القرن الثالث.

٣ـ محمد بن عبد الله بن مملك الاصفهاني، له كتاب مجالس مع أبي علي الجبائي.

٤ـ إسماعيل بن محمد المخزومي، له كتاب المعرفة.

إلى غير ذلك من متكلّمي الشيعة في القرن الثالث.

دخل القرن الرابع وبرز متكلّمون من الشيعة، كالحسن بن علي بن أبي عقيل، وإسماعيل بن علي بن نوبخت، ومحمد بن عبد الرحمن بن قبة الرازي، والحسن بن موسى أبي محمد النوبختي، مؤلّف كتاب الآراء والديانات، وكتاب فرق الشيعة.

وأمّا القرن الخامس فحدّث عن متكلّمي الشيعة فيه ولا حرج كابن المعلم المفيد (المتوفّى ٤١٣ هـ) الذي انتهت إليه رئاسة متكلّمي الشيعة وتلميذه السيد الرضي، وتلميذه الآخر السيد المرتضى وغيرهم.

وأمّا مساهمة الشيعة في العلوم الطبيعية فمن أكبر علمائهم جابر بن حيان وهو الذي ظهر في حقل الكيمياء، والشريف أبو القاسم علي بن قاسم القصري من علماء القرن الرابع، إلى إن وصلت النوبة إلى نصير الملّة والدين نصير الدين الطوسي، فأسّس معهداً للأبحاث الطبيعية لا مثيل له وجهزه بالآلات الفلكية التي زادت في شهرة المعهد ورفعت مكانته.

كما أسس مرصد مراغة وجلب إليه علماء من مختلف أنحاء المعمورة.

تقول السيدة زيغريد هونكه: «إنّ نصير الدين أحضر إلى مكتبة المعهد أربعمائة ألف مجلّد كانت قد سرقت من مكتبات بغداد وسوريا وبلاد بابل، وقد استدعى علماء ذوي شهرة واسعة من اسبانيا ودمشق وتفليس والموصل إلى مدينة مراغة لكي يعملوا على وضع الازياج بأسرع وقت ممكن»[1].

وفي مجال الجغرافيا نذكر في المقام رحّالتين طافا في البلاد الإسلامية وكتبا ما يرجع إلى جغرافية البلدان وقد صار كتاباهما أساساً للآخرين:

١ـ أحمد بن أبي يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبي، المتوفّى في أواخر القرن الثالث، فهو أوّل جغرافي بين العرب وصف الممالك معتمداً على ملاحظاته الخاصة متوخّياً ضبط ما أراد من وصف البلد وخصائصه.

٢ـ أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (المتوفّى ٣٤٦ هـ) فقد ألّف في ذلك المضمار كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وكتابه الآخر: «التاريخ في أخبار الأُمم من العرب والعجم» وكتابه الثالث «التنبيه والاشراف» فقد اشتمل وراء التاريخ على الجغرافية وتقويم البلدان، وقد جرّه حبّه للاستطلاع إلى السفر إلى بلاد نائية فكتب ما رآه وشاهده.

❋ ❋ ❋

هذه إلمامة عابرة حول الشيعة وفقهها وتاريخها، وتراثها، والأعمال التي قامت بها في بناء الحضارة الإسلامية ذكرناها على وجه الإيجاز ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب الموسعة المعدّة لذلك، ونذكر على سبيل المثال:

١ـ المراجعات، تأليف السيد شرف الدين الموسوي العاملي (١٢٩٠ـ

---

١. السيدة زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب: ١٣٣. والتسمية الأجدر: شمس الإسلام ... .

١٣٧٧ هـ).

٢ـ أصل الشيعة وأُصولها، للشيخ محمد كاشف الغطاء (١٢٩٥ـ١٣٧٣هـ).

٣ـ تاريخ الشيعة، للشيخ محمد حسين المظفر (المتوفّى ١٣٧٥ هـ).

٤ـ أوائل المقالات، للشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤٠٣ هـ).

٥ـ الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة الإمامية، للسيد صدر الدين المدني الحسيني (المتوفّى ١١٢٠ هـ).

٦ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة، للشيخ آغا بزرگ الطهراني (١٢٩٣ ـ ١٣٨٩ هـ).

٧ـ الشيعة والتشيّع، تأليف محمد جواد مغنية (المتوفّى ١٤٠٠ هـ).

٨ـ الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، تأليف هاشم معروف الحسني (المتوفّى ١٤٠٧ هـ).

٩ـ أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤ ـ ١٣٧١ هـ).

١٠ـ آخرها «الإلهيات» بقلم المؤلف.

جامعات الشيعة:

الإسلام دين العلم والمعرفة يحاول دفع الإنسان من حضيض الجهل إلى أعلى مستويات العلم والكمال، فأراد للإنسان حياة نابضة بالفكر والثقافة وقد كانت للشيعة خلال القرون الماضية جامعات في أقطار مختلفة نشير إلى بعضها:

١ـ المدينة المنورة:

إنّ الجامعة الأُولى للشيعة أُسست بيد الإمامين الهمامين الباقر والصادق

عليهما السلام فقد تقاطر طلاب العلم وعشاق الحقيقة إلى الاستفادة من علومهما، وكان لهما دور في صيانة وإحياء السنّة النبوية وتفسير القرآن الكريم وتربية طليعة إسلامية في العلوم المختلفة .

٢ـ الكوفة وجامعها الكبير:

لمّا هاجر الإمام أمير المؤمنين من المدينة إلى الكوفة، استوطن معه خيار شيعته ومن تربّى على يديه من الصحابة والتابعين وكانت نواة لجامعة شيعية ثانية.

ولمّا غادر الإمام الصادق المدينة المنورة إلى الكوفة أيام أبي العباس السفاح حيث مكث فيها مدة سنتين مغتنماً تلك الفرصة الذهبية التي أوجدتها الظروف السياسية، فربى جيلاً كبيراً من المحدّثين والفقهاء في عصره، وكان أبو حنيفة واحداً ممن تربّى على يد الإمام الصادق عليه السلام مدة سنتين.

وهذا هو الحسن بن علي الوشاء يحكي لنا ازدهار مدرسة الكوفة بعد رحيل الإمام الصادق عليه السلام يقول: أدركت في هذا المسجد يعني مسجد الكوفة تسعمائة شيخ كلٌّ يقول حدّثني جعفر بن محمد عليهما السلام .

ويضيف النجاشي ـ ذلك الرجالي الكبير ـ ويقول:

كان هذا الشيخ (الحسن بن الوشاء) عيناً من عيون هذه الطائفة، ثم ذكر كتبه.

ومن خريجي هذه المدرسة: هشام بن محمد بن سالم الكلبي الذي ألّف أكثر من مائتي كتاب، وابن شاذان الذي ألّف ٢٨٠ كتاباً، وابن أبي عمير الذي صنّف ١٩٤ كتاباً، وابن دوئل الذي صنف ١٠٠ كتاب، وجابر بن حيّان أُستاذ الكيمياء والعلوم الطبيعية.

٣ـ مدرسة قم والرَّي:

كانـت مدرسة الكـوفة مزدهـرة بالعلم والثقافـة ففي حوالي سنـة ٢٥٠ هـ هـاجر إبـراهيم بن هـاشم الكوفي إلى قـم ونشر فيها حـديث الكوفيين فصـارت مدرسة قم والرَّي مزدهرة با لمحـدثين والرواة الكبار، وساعد على ذلك بسط الدولة البويهيـة نفوذهـا على تلك البلدان، وقد خـرج من تلك المدرسـة علماء ومحدّثون، نظراء:

١ ـ محمـد بن يعقوب الكلينـي المتوفّى ٣٢٩ هـ ـ مؤلّف الكـافي في الأُصول والفروع.

٢ـ علي بن حسين بن بابويه والـد الشيخ الصدوق صاحب الشرائع المتوفّى عام ٣٢٩ هـ .

٣ـ ابن قولويه أبي القاسم جعفر بن محمد (٢٨٥ ـ ٣٦٨ هـ) إلى غير ذلك من أعلام الحديث والفقه.

٤ ـ مدرسة بغداد:

كانـت مدرسة الكـوفة تـزدهر بمختلف النشـاطات العلمية حينما كـانت بغداد عـاصمة للخـلافة. ولمّا أخـذ الضعف يـدبّ في الخلافة العبـاسية وكـانت مقاليد الأُمور بيد البويهيين، تنفّس علماء الشيعـة الصعداء في أكثر مناطق العراق فأسسـوا مدرسـة رابعة للشيعـة في بغداد أنجبت شخصيـات مرمـوقة تفتخـر بها الإنسانية ومن نتائجها ظهور أعلام نظير:

١ ـ الشيـخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣ هـ) تلك الشخصية الفـذّة حيث اعترف الموافق والمخالف بعلمه وفضله.

٢ـ السيد المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) صاحب الانتصار في الفقه والأمالي.

٣ـ السيـد الرضي (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ)جامع نهج البلاغة، ومـؤلف الكتب القيمة في التفسير والأدب، وهـو وأخوه كوكبان في سماء العلـم والأدب غنيان عن التعريف.

٤ـ الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) وهـو شيخ الطائفة ومن أعلام الأُمّة تربّى على يـد شيخه المفيد والسيـد المرتضى وله كتاب «التبيـان في تفسير القرآن» و «التهذيب» و «الاستبصار» وهما من المصادر المهمّة عند الشيعة.

وكانت مـدرسة بغداد زاهرة في عهـد هؤلاء الأعلام ، وقام كـلّ منهم بدور كبير في تطوير العلوم وتقدّمها من خـلال تخريج نخبة من المجتهدين والمحدثين، من الشيعة والسنّة.

٥ـ جامعة النجف الأشرف:

لمّا دخـل طغـرل بك ــ الحاكـم التركي ــ بغــداد وأشعـل نـار الفتنـة بين الطائفتين السنّـة والشيعة، و أحرق دوراً في الكرخ ومكتبـة الشيخ الطوسي، لم يجد زعيم الشيعة آنـذاك بدّاً من مغـادرة بغداد إلى النجف الأشرف، وتأسيس جـامعة علمية فقهية عند جوار ضريح أمير المؤمنين عليه السلام سنة ٤٤٨ هـ .

وقد مضى على عمرها قرابة ألف سنة وهي جامعة كبيرة لها حقوقها الكبرى على الإسلام والمسلمين، وقـد خرّجـت الكثير من المحقّقين والمفكّريـن في مختلف أصناف العلوم ولم تزل مشعّة حتى اليوم.

٦ـ مدرسة الحلّة:

في الوقت الذي كانت جامعة النجف تزدهر وتنجب أفذاذاً أُسست جامعة في الحلـة الفيحـاء وكانـت تحتضن كبـار المحققين، كـالمحقق الحلّـي صـاحب

الشرائع (٦٠٢ ـ ٦٦٧ هـ) ، وجمال الدين الحسن بن يوسف المعروف بالعلامة الحلي (٦٤٨ ـ ٧٢٦ هـ) صاحب الموسوعات الفقهية الكبيرة، وفخر المحققين ولد العلامة الحلي (٦٨٢ـ٧٧١هـ)، إلى غير ذلك من رجال الفكر كابن طاووس، وابن ورام، وابن نما، وابن أبي الفوارس الذين أنجبتهم مدرسة الحلة.

٧ـ الجامع الأزهر:

امتدّ سلطان الدولة الفاطمية من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً، ونافست الدولةُ الفاطمية الشيعية خلافةَ الحكّام العباسيين في بغداد، وكان المعز لدين الله (٣١٩ ـ ٣٦٥ هـ) أحد الخلفاء الفاطميين بمصر رجلاً مثقفاً ومولعاً بالعلوم والآداب، وقد أسس أعظم جامعة علمية إسلامية باسم الجامع الأزهر، وكانت جامعة شيعية من بدء تأسيسها إلى قرنين.

وهناك جامعات أُخرى للشيعة في أقطار العالم كافغانستان وباكستان والهند وسوريا تضم علماء ومدرّسين كبار.

وأمّا اليوم فالجامعة العلمية بقم التي أسسها الشيخ عبد الكريم الحائري (١٢٧٤ ـ ١٣٥٥ هـ) عام ١٣٤٠ هـ أكبر جامعة شيعية تحتضن قرابة ٢٨ ألف أستاذ ومساعد وطالب ومحقق وكاتب ومفكّر.

دول الشيعة:

حاول الأُمويون القضاء على التشيّع وأراد العباسيون الحدّ من انتشاره بعد اليأس من استئصاله ولكن نما وازدهر عبر القرون بالرغم من تلك العوائق، بل قامت لهم هنا وهناك دول ودويلات نظير:

١ـ دولة الادارسة في المغرب (١٩٤ ـ ٣٠٥ هـ).

٢ـ دولة العلويين في الديلم (٢٠٥ ـ ٣٠٤ هـ).

٣ـ دولة البويهيين في العراق وما يتصل بها من بلاد فارس (٣٢١ ـ ٤٤٧هـ).

٤ـ دولة الحمدانيين في سوريا والموصل وكركوك (٢٩٣ ـ ٣٩٢ هـ).

٥ـ دولة الفاطميين في مصر (٢٩٦ ـ ٥٦٧ هـ).

٦ـ دولة الصفويين في إيران (٩٠٥ ـ ١١٣٣ هـ).

٧ـ دولة الزنديين (١١٤٨ ـ ١١٩٣ هـ).

٨ ـ دولة القاجاريين (١٢٠٠ ـ ١٣٤٤ هـ).

أضف إلى ذلك وجود امارات للشيعة في نقاط مختلفة.

إنّ اطناب القول في مؤسس هذه الدول وترجمة أحوالهم وما آل إليه مصيرهم يحوجنا إلى تأليف كتاب مستقل فنترك المقال في ذلك وعلى القراء مراجعة الكتب المؤلفة في هذه المواضيع.

أمّا اليوم فتتواجد الشيعة في جميع أنحاء العالم بنسب مختلفة وربّما تعد بعض البلدان معقل الشيعة و التشيّعُ مذهباً سائداً فيها. وإليك أسماء بعضها وهي : إيران، والعراق، والحجاز، والشام، وتركيا، وافغانستان، والباكستان، والهند، واليمن، ومصر، والامارات العربية المتحدة، والبحرين، والاحساء، والقطيف، والكويت، ومسقط، وعمان، والتبت، والصين، وجمهورية اذربايجان، وطاجيكستان، والجمهوريات المتحررة بانحلال الاتحاد السوفيتي، وماليزيا، واندونيسيا، وسيلان، وتايلند، وسنغافورة، وافريقيا الشمالية، والصومال، والارجنتين، وبريطانيا، والمانيا، وفرنسا، والبانيا، والولايات المتحدة، وكندا، وغيرها مما يعسر عدها.

خاتمة المطاف:

قاربوا الخطى أيُّها المسلمون

قد تعرّفت على المنهج الشيعي عقيدة وشريعة، بقيت هنا كلمة وهي أنّ المذهب الشيعي على الرغم من امتيازه بأُصول وفروع نابعة عن صميمه، لكنه لا يحول دون اتحاد المسلم الشيعي مع أخيه المسلم السنّي.

هذا هو القرآن الكريم يتطرق إلى الوحدة ورصّ الصفوف ويمدحه بحماس ويقول: **﴿واْعْتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَميعاً ولا تَفرَّقوا﴾** [1].

ويقول أيضاً: **﴿إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ فأصلحوا بين أخَويكُم﴾** [2].

ويذم بشدة كل ما يمس بهذه الوحدة قائلاً: **﴿ولا تَكُونُوا كالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واختَلَفُوا مِنْ بَعدِ ما جاءَهُمُ البَيّناتُ﴾** [3].

حتى إنّه سبحانه يعدّ الفرقة نوع عذاب من الله سبحانه إلى من سعى إليها.

ويقول سبحانه: **﴿قُلْ هُوَ القادِرُ على أنْ يَبعَثَ عَليكُمْ عَذاباً مِنْ فَوقِكُمْ أو مِنْ تَحتِ أَرجُلِكُمْ أو يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعضٍ﴾** [4].

ففي ظلّ هذه الدعوة المباركة ترحّب الشيعة بكلّ خطوة نحو التقريب ولمّ الشمل وتندد بكل نعرة طائفية تفرّق شمل المسلمين وتهدّد كيانهم.

إنّ دعاة الوحدة لا يبغون سوى تقريب الخطى وتعريف المسلمين بعضهم

---

١. آل عمران: ١٠٣.
٢. الحجرات: ١٠.
٣. آل عمران: ١٠٥.
٤. الأنعام: ٦٥.

ببعض حتى يقفوا على المشتركات الكثيرة التي تجمعهم وهي الكتاب وسنّة النبيّ ﷺ وإنّما اختلافهم في فهم هذين المصدرين ولكلٍّ حجته ودليله. وللمصيب أجران وللمخطي أجر واحد.

نحن نعيش في عصر تحالفت فيه القوى الكافرة، على إطفاء نور الله والحدّ من الصحوة الإسلامية فعلى الرغم من التشتّت السائد بين تلك القوى الغاشمة في أُصول السياسة والاقتصاد، لكنّهم متفقون على إبعاد الإسلام عن ساحة الصراع الحضاري للحيلولة دون وصول المسلمين إلى مركزهم المرموق في بناء الحضارة.

فالمعسكر الشرقي والغربي طرفا مقص يتحركان معاً لاجتثاث الإسلام.

فإذا كان هذا ديدنهم فلماذا لا نتّحد نحن معاشر المسلمين فإنّ ما يجمعنا أكثر ممّا يفرّقنا؟

إنّ التعاون والمواساة من أهمّ الأُصول الاجتماعية، إذ بالتعاون يقوم صرح المجتمع وقد ندب إليه الإسلام حيث قال ﷺ: «من أصبح ولم يهتم بأُمور المسلمين فليس بمسلم»، فعلى المسلمين جميعاً أن يتعاونوا في مسائلهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والصناعية ليستغنوا بذلك عن القوى الشرقية والغربية.

يا أبناء أُمتنا الإسلامية المجيدة فالله ربّكم والقرآن كتابكم والكعبة قبلتكم والسنّة منهجكم، فكونوا يداً واحدة على من سواكم، ورصّوا صفوفكم أمام أعدائكم، ولا تصغوا لكلّ نعرة تهدّد وحدة كلمتكم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

جعفر السبحاني

قم ـ الحوزة العلمية

١١/ ربيع الآخر / ١٤١٧ هـ

الرسالة الثانية

الشيعة الإمامية

في دائرة المعارف المصرية «السفير»

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين.

أمّا بعد: فقد وقفت على مقال حول الفرقة الاثني عشرية في دائرة المعارف المصرية «السفير»، قرأته بامعان ودقّة فوجدت فيه أخطاءً لا تُغفر، و زلات لا تُسْتقال، علّقتُ عليه التعاليق الآتية مع تبنّي الايجاز والاختصار.

إنّ السنّة المتّبعة عند كتّاب دائرة المعارف هو تبيين المفاهيم المختلفة استناداً إلى المصادر والمراجع المقبولة، بلا أيّ تحيّز ، لكن المقال كُتِبَ لغاية الردّ على هذه الطائفة لا على تبيين عقائدها حقّة كانت أم باطلة.

كان من اللازم على كاتبه أن يشير إلى عقائدهم وأُصولهم وفروع مذهبهم في مقال خاص، ثم يُعلِّق عليها في آخر المقال بشيء ...، لا أن يبتدئ بالردّ والنقد العنيف معتمداً على كتب الخصوم بدلَ كتبهم الخاصة بهم.

هذه هي السنّة الدارجة بين أبناء دائرة المعارف ولكن الكاتب لم يتّبعها. فما هو الوجه؟ لا أدري ولا المنجم يدري، ولا القراء يدرون !!

ولإيقاف القارئ على ما في المقال من الأخطاء والقضاء الجائر نأتي بنصه أوّلاً ثم نردفه بالتعاليق ثانياً:

نص المقال في دائرة المعارف المصرية «السفير» :

الاثنا عشرية

هي إحدى فرق الشيعة، ويُطلق عليها أيضاً عدة أسماء أُخرى، منها: «الجَعْفرية» نسبة إلى «جعفر الصادق».

و «الرافضة» لأنّهم رفضوا نصرة الإمام «زيد بن علي زين العابدين» (٧٩ ـ ١٢٢ هـ = ٦٩٨ ـ ٧٤٠ م) حين طلبوا منه سبّ «أبي بكر» و «عمر» ـ رضي الله عنهما ـ فأبى.

و «الإمامية» نظراً لآرائهم الخاصة في الإمامة، وجعلهم إياها أصلاً من أُصول الدين.

أمَّا لقبهم «الاثنا عشرية»؛ فلقولهم بأنّ منصب الإمامة ليس باختيار الأُمّة، وإنّما قد حدده الله وعينه في «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه، وفي أحد عشر من ذريته من أولاد «فاطمة الزهراء» رضي الله عنها، وهم بالتتابع بعد «علي» رضي الله عنه (المعروف عندهم بعلي المرتضى):

١ـ «الحسن بن علي» المتوفى سنة (٥٠هـ = ٦٧٠م) ولقبه «الحسن المُجْتَبى».

٢ـ «الحسين بن علي» المتوفى سنة (٦١هـ = ٦٨٠م) ولقبه «الحسين الشهيد».

٣ـ «علي زين العابدين بن الحسين» المتوفى سنة (٩٤هـ = ٧١٢م) ولقبه «السجّاد».

٤ـ «محمد بن علي زين العابدين» المتوفى سنة (١١٤هـ = ٧٣٢م) ولقبه «محمد الباقر».

٥ـ «جعفر بن محمد» المتوفى سنة (١٤٨هـ = ٧٦٥ م) ولقبه «جعفر الصادق».

٦ـ «موسى بن جعفر» المتوفى سنة (١٨٣ هـ = ٧٩٩م) ولقبه «موسى الكاظم».

٧ـ «علي بن موسى» المتوفى سنة (٢٠٣ هـ = ٨١٨ م) ولقبه «علي الرِّضا».

٨ـ «محمد بن علي» المتوفى سنة (٢٢٦ هـ = ٨٤٠ م) ولقبه «محمد الجواد».

٩ـ «علي بن محمد» المتوفى سنة (٢٥٤ هـ = ٨٦٨ م) ولقبه «علي الهادي».

١٠ـ «الحسن بن علي» المتوفى سنة (٢٦٠هـ = ٨٧٣ م) ولقبه «الحسن العسكري».

١١ـ «محمد بن الحسن» المتوفى سنة (٢٦٥ هـ = ٨٧٨ م) ولقبه «محمد المَهْدِي».

و «الاثنا عشرية» أكثر فرق الشيعة عدداً في العالم، وبخاصة في قارة «آسيا»، ويبلغ عدد الشيعة بعامة قرابة (١٠٠) مليون شخص يمثلون حوالي ١٠٪ تقريباً من إجمالي عدد المسلمين.

وفي أواخر عهد الإمام السادس «جعفر الصادق» أخذ بعض الغُلاة يتجمعون حول ولده إسماعيل؛ مما دفعه إلى جمع الناس وإشهادهم على وفاة إسماعيل الذي مات في حياة أبيه عام (١٤٣ هـ = ٧٦٠ م) واختار ولده الآخر «موسى الكاظم» ـ كما تروي الاثنا عشرية ـ إماماً بعده، وقد قام بأمر الطائفة في نطاق سياسة أبيه «جعفر» التي نزعت إلى السلم، واتجهت إلى العلم والنشاط

الروحي، ومن «الكاظم» تناسل الأئمـة حتى «محمد بن الحسن العسكري» الإمام الثاني عشر و «المهدي المنتظر».

لكن الشيعـة انقسمـوا بعد وفـاة «جعفـر» ـ رضي الله عنـه ــ فتبع أكثـرهم «الكاظم» وهم الاثنا عشرية، وأصرت طائفـة أُخرى على إمامة «إسماعيل» منكرة إمامـة «الكاظم»، وقالـوا بإمامة «محمـد بن إسماعيل» بعد «جعفـر» مباشرة، ومن هؤلاء تشكلت طائفة الإسماعيلية التي تغلـو في التأويل الباطني، وترى أنّ للإمام وظيفة كونية بجانب سلطته التشريعيـة كمصدر للشرع، وسلطته التنفيذية كمنفذ له. كما نزعت إلى المبـالغة في التَّقيَّة والاختفاء، والظاهر والبـاطن في تأويل أحكام الدين، وقد استخدمت دولتها الفـاطمية في «مصر» و «المغرب» في تحقيق ما ترمي إليه.

وكان الشيعة الاثنا عشرية ـ بخلاف «الزيدية» و «الإسماعيلية» ـ قد اتجهوا وجهة ثقافيـة روحية بتأثير «جعفر الصادق»، وأعرضـوا عن النشاط السياسي إلى حد كبير؛ وبخاصة النشاط الثوري المسلـح الذي لجأت إليه فرق الشيعة الأُخرى، إلاّ ما كان منهم عند سقوط «بغداد» في يد «التتار» ونشوء الدولة «الإيلخانية» التي قامت بعد ذلك في القرنين (٧ ، ٨ هـ = ١٣، ١٤م).

وعلى الـرغم ممّا يـؤخذ عليهـم في أثناء هـذه الفترة، فقد أسهمـوا في تحويل بعض قادة المغول إلى الإسلام، و إلى التشيـع بطبيعة الحال، ولكنّهم أحسوا ببعض القوة في العهـد الجديد الـذي أعقب سقوط الخلافـة العباسية؛ ممّـا كان لـه أثر في إشعال الجدل الطائفي الـذي يتمثل في عدة مؤلفات: من أبـرزها كتاب «الحسن بن المطهر» «منهـاج الكرامة» الذي ردّ عليـه «ابن تيمية» بكتابه «منهـاج السنّة»، وتابعه علماء آخرون، وبخـاصة في الهند وفارس وما حولهما. ومن أبـرز ما كتبه أهل السنّة في ذلك «التحفة الاثنا عشرية» للشيخ «عبد العزيز بن ولي الله الدهلوي».

وفي أواخر عهد الأئمّة كان من بين الاثني عشرية رجل بلغ النشاط والحماسة للمذهب، مع نزوع إلى الغلو، اسمه «محمد بن نُصَيْر النميري» (٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م) وقد عاصر الأئمّة الثلاثة المتأخرين: «علي الهادي» (٢١٤ ـ ٢٥٤ هـ = ٨٢٩ ـ ٨٦٨ م) و «الحسن العسكري» (٢٣٠ ـ ٢٦٠ هـ = ٨٤٤ ـ ٨٧٣ م) و «محمد المهدي» الثاني عشر المولود (٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م) والمنتظر ظهوره فيما يعتقدون.

وقد زعم «ابن نصير» هذا أنّه «الباب» إلى الإمام «الحسن العسكري»، فتبعه طائفة من الشيعة سموا بالنُّصَيْرية، وخالفه جمهورهم الذين أنكروا ادعاءاته، وقالوا بأنّ المرجعية الدينية بعد موت «العسكري» وغيبة ولده «المهدي» ترجع إلى لجنة من أربعة أشخاص، هم: «عثمان بن سعيد العمري» ، و «محمد بن عثمان بن سعيد»، و «الحسين بن روح النوبختي»، و «علي بن محمد السمري».

ويغلب الغلو على عقائد النصيرية، إذ يؤلّهون علياً، ويتركون ظاهر الشرع، ويهملون المساجد وصيام رمضان، ويخالفون بعض الأحكام في النكاح وغيره، ويقولون بثالوث من علي ومحمد وسلمان الفارسي، وأنّ معنى الألوهية تَشَخَّص في عليّ، ثم محمد، ثم سلمان الفارسي، ثم المقداد.

وتتسم عقيدتهم بالمبالغة في السرية، وهم في هذا كلّه يقلدون من سبقهم من غلاة الشيعة منذ عبد الله بن سبأ، ومن جاء بعده؛ وخاصة «الخطابية» أتباع «أبي الخطاب الكاهلي» الذي زعم أنّه (الباب) للإمام الخامس [1] «موسى الكاظم»، ثم قال بتأليه الأئمّة ونسخ بعض الأحكام الشرعية، والإسراف في التأويل الباطني، فأخذ النصيرية بهذا كله.

ولكن «الاثني عشرية» ينكرون مزاعم «ابن نصير» ويكفرون من اعتقد هذه

١. كذا في أصل المقال، والصحيح: السابع. المعلق.

الأقاويل، بصرف النظر عن العلاقات العملية التي قد تقوم بين الطائفتين.

وقد عادت الطائفة «الاثنا عشرية» إلى تقاليدها المسالمة وعنايتها بإشاعة العلم والاهتمام بالشؤون الاجتماعية والروحية لأتباعها إلى أن قامت للاثني عشرية دولة في «إيران» لأوّل مرة في التاريخ على يد الشاه «إسماعيل الصفوي» (٩٠٦ ـ ٩٣٠ هـ = ١٥٠٠ ـ ١٥٢٣ م) الذي نزع هو وخلفاؤه إلى التشيع على الرغم من أُصولهم السنية الصوفية. وقد استمر حكم «الصوفيين» لإيران قرابة قرنين ونصف قرن إلى سنة (١١٤٨هـ[1]= ١٧٣٥م)، وكانوا خلال حكمهم في عداء شبه مستمر مع الخلافة العثمانية، ونشبت بينهما الحروب التي أسهمت في انحسار المد الإسلامي عن «أوربا» وتمزق بلدان العالم الإسلامي وتفككها، ثم سقوطها في براثن الاستعمار الغربي، ومما ساعد على ذلك: اتفاق الشاه «إسماعيل الصفوي» مع البرتغاليين ضد دولة الخلافة العثمانية، وسيطرتهم على بعض جزر الخليج كقاعدة موجهة لحرب «الخلافة العثمانية»، ثم قيام الشاه «عباس الصفوي» بعد توليه الحكم عام (٩٩٦ هـ = ١٥٨٧ م) بالتحالف مع «الإنجليز» لمحاربة دولة الخلافة، كما توقف الحج إلى «مكة» في عهده، وروجت الدولة لزيارة مدينة «مَشْهد»، وهي مدينة «طُوس» القديمة التي دفن بها «الرشيد» وولد فيها «أبو حامد الغزالي» وغيره من أئمّة المسلمين، ولكن مكانتها الدينية لدى الاثني عشرية ترجع إلى كونها تضم رفات الإمام الثامن «علي الرضا». وهو الإمام الوحيد المدفون بإيران، وبسبب ذلك اشتهرت باسمها الحالي.

وهذا التحالف مع الغزاة الأجانب، مع تمادي الخلاف بين الدولتين، قد مهد للاستعمار الغربي فرصة تمزيق العالم الإسلامي واحتلال أراضيه، وكان هذا الصراع المذهبي والسياسي من أهم أسباب هزيمة العثمانيين ـ والعالم الإسلامي

---

١. الصحيح: ١١٣٥ هـ. المعلق.

من ورائهم ـ أمام حمية الغرب الغازية.

وحين تحولت «الدولة الصفوية» إلى المذهب الشيعي كثر التشيع بإيران وصار أتباعه هناك أكثرية. بعد أن كانت الأغلبية سنية في تلك البلاد، ويرجع الاضطراب بين الطائفتين ـ إلى حد كبير ـ إلى العداء الذي خلفته «الدولة الصفوية» في إيران ضد أهل السنّة، فبرغم أنّ عدد أهل السنّة يصل الآن حوالي ٢٠٪ من إجمالي عدد السكان في إيران إلاّ أنّهم محرومون من تولي الوظائف الرئيسية في الدولة، ومن صلاة العيدين، ومن بناء مسجد لهم بطهران العاصمة، على الرغم من وجود (١٢) كنيسة للنصارى بها ومعبدين لليهود، ومثلهما للمجوس، وآخرين للهندوس.

وقد تطور مذهب الاثني عشرية على مر الزمن وأسهم العداء السياسي والغلو المذهبي في انفراد الطائفة بعقائد ومبادئ تتجافى عن روح الإسلام السمحة، ومقتضيات المنطق السليم، ومنها:

١. الإمامة والخلافة:

يدعي «الاثنا عشرية» أنّ الله أمر نبيَّه بأن يعلن في الناس أنّ علياً وصيُّه وأنّه الإمام من بعده عُقَيب حجة الوداع في طريق عودته من مكة إلى المدينة عند مكان يسمى «غدير خُمّ»، ويرون أن تستمر الإمامة في ولد «علي بن أبي طالب» و «فاطمة الزهراء» إلى يوم القيامة، وأنّ «علياً» هو الإمام بعد النبي ﷺ بلا فصل بتعيين الله له، ولكن الصحابة بايعوا «أبا بكر الصديق» و «عمر» و «عثمان» ـ رضي الله عنهم ـ ولذلك فإنّهم يعتقدون أنّ أكثر الصحابة خالفوا النص، وهو قول النبيّ ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه». [1]

١. سنن الترمذي: كتاب المناقب.

وقوله: «... اللهم والِ من والاه، اللهم عادِ من عاداه». [١]

وقد ورد كلا الحديثين فيما يرويه أهل السنّة من سنن النبي ﷺ وآثاره، ومعناهما ـ فيما يتأوله «الاثنا عشرية» ـ الوصية له بالخلافة، ولكنها لدى أهل السنّة وصية عامة بإكرام آل البيت، وتنويه بمكانة «علي» رضي الله عنه.

وهم يستشهدون أيضاً بآثار أُخرى، بعضها ضعيف والآخر موضوع (زائف) تدلّ لديهم على ولاية الإمام «علي بن أبي طالب» ـ رضي الله عنه ـ وخلافته للنبي ﷺ، وهذه الآثار لا تدل عند علماء السلف والخلف من أهل السنّة على ما ذهبوا إليه من وصية الرسول ﷺ لعلي بالخلافة من بعده؛ إذ الولاية تَرِد بمعنى النصرة والمودة والولاء والأخوة، لا بمعنى الإمامة والخلافة حتْماً، كما في قوله تعالى عن ولاية المؤمنين بعضهم بعضاً:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَنَصَرُواْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ . [٢]

كما قال سبحانه عن ولاية الكافرين بعضهم بعضاً:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ . [٣]

والإمامة عند الاثني عشرية من حق «علي» رضي الله عنه، وأحد عشر من ذريته، حيث نص كل إمام على من بعده حسب رواياتهم المتداولة فيما بينهم.

وهم يعنون الإمامة ركناً وأصلاً من أُصول الدين، ولكنها (أي الإمامة) أصل مذهبي في رأيهم، فمن لم يعرف إمام زمانه ولم يُبايعْه عُدَّ خارجاً عن المذهب، ولكنّه في عامة المسلمين، وربّما غلا بعضهم فكفره، غير أنّهم يرون فسق من لم يُبايع الإمام وكفر من يحاربه، مع أنّ الإمام «عليّاً» ـ رضي الله عنه ـ لم يكفّر

---

١. مسند أحمد: ١/ ١١٨.

٢. الأنفال: من ٧٢

٣. الأنفال: من ٧٣.

الخوارج الذين كفَّروه وحاربوه، وأمر ألا يُمنعوا من المساجد، وأن يُدفَن موتاهم في مقابر المسلمين.

ويزعـم «الاثنا عشريـة» أنّ أئمّتهم معصومـون من الخطأ، والمعصيـة، ولهم صفة المعرفـة اللُّدُنِّية، دون حاجة إلى تلقين الرواة، فيصـح لهم أن يرووا عن رسول الله ﷺ مباشرة دون سنـد من الرجال، كما أنّـهم يعلمون الغيب، ولا يمـوتون إلاّ باختيـار منهم، ولذا يعتبرون عهد الـوحي مستمراً إلى غيبة الإمـام الثاني عشر، ولا يُباح الاجتهاد مع وجود الإمام، وإنّما يبدأ الاجتهاد الفقهي بعد تلك الغيبة.

وفكرة «الإمـامة» على هذا النحـو ترجع إلى آراء مغاليـة ظهرت في الفترات الأولى من تـاريخ المسلمين، ثم ورثها الاثنـا عشرية، واتخذوها أُصـولاً لهم، وكان من نتائجها إيقاع العداوة والشقاق بين جمهور المسلمين.

وممّا يدل على بطـلان مبدأ «الإمامة» بصيغته تلك ــ عند «الاثني عشرية» ـ ما فعلـه الإمام «علي» رضي الله عنـه؛ إذ بايـع «أبا بكـر الصديق»، ونصره بنفسـه وولده، ممّا يدل على عدم وجود نص لديه يـوصي له بالإمامة، ولو وُجِد هذا النص لأخذ بـه الصحابة ــ رضوان الله عنهم ـ الـذين كانوا أشـد حرصاً على طـاعة الله ورسوله، وكـذلك بايع «علي» ـ رضي الله عنه ـ كـلاًّ من «عمر» و «عثمان» ـ رضي الله عنهما ـ بالخلافة، وسمى أولاده بأسمائهم، كما زوّج «عمر بن الخطاب» من ابنته «أُم كلثوم»، وأخلص لهؤلاء الخلفاء الثلاثة المشورة والنصرة.

وكل هذه الوقـائع تدل على أنّه بايع مختاراً، وليس مكرهـاً كما يدعي «الاثنا عشرية»، وعندما سئل وهو على فراش الموت عمن يستخلفه من بعده، قال: «لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ».

ولو كانت الإمامة حُدِّدت في «علي» وأولاده كما يزعمون، لعيَّـن الإمام «علي ابن أبي طالب» ـ كرم الله وجهه ـ ابنه «الحسن» ـ رضي الله عنه ـ خليفة للمسلمين

من بعده.

وبعد أن بُويع «الحسن» بالخلافة، صالح «معاوية بن أبي سفيان» ـ رضي الله عنه ـ وتنازل له عن الخلافة حقناً لدماء المسلمين، مما يسقط دعاوى القوم في بطلان ولاية أي إمام غير الاثني عشر.

ثم إنّ الإمامة لو كانت معينة بوصية الرسول ﷺ في «علي» وأولاده كما يرون، لما استطاع أحد من الصحابة أن يخالفها.

٢. المعاد والرجعة:

تعتقد الاثنا عشرية بالمعاد واليوم الآخر، وبتفاصيل ذلك من الجنّة والنار، والنعيم والعذاب الحِسِّيَّيْن، وبالحياة البرزخية، والحشر والنشر، والميزان والصراط كما وردت في الكتاب والسنّة، وأنّ الله تعالى هو الذي يحاسب الخلق على ما قدموا في حياتهم الدنيا، ويجزيهم عليها، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر.

ويعتقدون برجعة «المهدي المنتظر» الإمام الثاني عشر «محمد بن الحسن العسكري» قبل القيامة مهما طالت غيبته ليملأ الأرض عدلاً كما ملئت جَوراً، ويقول بعض غلاتهم برجوع الأئمة الاثني عشر إلى الدنيا بعد أن يكون «المهدي» قد سبقهم إليها، كما يعود إلى الحياة أعداء الأئمّة من الصحابة وغيرهم ليُقتص منهم على رؤوس الأشهاد، ثم يموتون انتظاراً للبعث والجزاء الأخروي.

وهذه المعتقدات الغالية ـ مما لا دليل عليه ـ ليست عامّة في مذهبهم، ولكن ما هي إلاّ روايات ضعيفة منسوبة إلى بعض أئمّتهم.

وأوّل من قال بفكرة (الرجعة) ودعا إليها «عبد الله بن سبأ» اليهودي، فأخذ يقول برجعة الرسول ﷺ مثل «عيسى» عليه السلام، واستشهد بقول الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ . [١]

ثم قال برجعة «علي بن أبي طالب» ـ رضي الله عنه ـ . وقد ترتب على القول بعقيدة «الرجعة» تمزيق الصف الإسلامي، وتقوية الفرقة بين الشيعة وأهل السنّة، كما أثّرت في دعاة الفرق الغالية المتأخرة التي تشبثت بهذه الأقاويل الفاسدة، من آخرهم: «ميرزا محمد» مؤسس «البابية» (وهي فرقة دينية نشأت بإيران منشقة عن الاثني عشرية إبان القرن ١٣ هـ = ١٩ م) و «الميرزا حسين، بهاء الله» مؤسس «البهائية» وهي صورة متطورة من البابية اختلفت عنها في أهدافها وأساليبها، تنحت تقليد الغلاة السابقين، وأعلنت نفسها ديانة جديدة تنسخ الجهاد وتنادي بالسلام، وتتخذ كتباً مقدسة بديلة عن القرآن، وتهدد وحدة الأُمة الإسلامية بوجه خاص، وتحظى بتأييد الغرب وأجهزته الاستعمارية، ويعيش رؤساؤها الآن في ظعن الدولة الصهيونية التي تحتل فلسطين.

٣. سب بعض الصحابة وأزواج الرسول ﷺ :

ويستبيح «الاثنا عشرية» سب بعض الصحابة وأزواج الرسول ﷺ، وبخاصة السيدة «حفصة» و السيدة «عائشة» رضي الله عنهما، على الرغم من نهي النبي ﷺ عن سب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، فقال:

«لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» . [٢]

وبرغم أنّ سب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ واتهامهم بالكذب قد يؤدي

١. القصص: من ٨٥.

٢. صحيح البخاري: كتاب فضائل الصحابة.

المُدّ: مكيال قديم، نصيفه: نصفه، والمراد أنّ القليل الذي أنفقه أحدهم خير من الكثير الذي ينفقه غيرهم.

إلى التشكيك في القرآن الكـريم والسنّة النبويـة، لأنّهما نُقِلا عن طريق الصحـابة رضـوان الله عليهم، ومن بعـدهم من علماء الأمـة بالشروط الشرعيـة في العدالـة، والضبط وما يتصل بهما. وسب الصحابة يشيـع للأسف بين عوام الاثني عشرية، ويوجد كذلك في كتب شيوخهم وعلمائهم، وكان ينبغي تنزههم عن ذلك ما داموا يدعون إلى تقارب المذاهب والفرق الإسلامية.

٤ . الطعن في القرآن الكريم ودعوى التحريف:

يـؤمن جمهـور «الاثنـي عشريـة» بـالمصحف الـذي بين أيـدي المسلمين، ويعتقد بعض غُلاتهم أنّ الإمام «عليّاً» ـ كرم الله وجهه ـ والسيدة «فاطمة الزهراء» ـ رضي الله عنها ــ كان لهما مصحف يخالف هذا المصحـف المتواتر بين المسلمين، ويزعم هؤلاء الغلاة أنّ الصحابة قامـوا بتبديله فأسقطوا كثيراً من السور والآيات التي نزلت في فضائل أهل البيـت، ومن جملة ما يدَّعون إسقاطه مـا يسمونه سورة «الولايـة»، وادّعوا أنّه كـان فيها: (يا أيها الـذين آمنوا آمِنـوا بالنبي والولي اللـذين بعثناهما يهديانكم إلى صراط مسقيم ... الخ).

وقد يضيفون أحياناً إلى بعض الآيات في السور الموجودة بالمصحف المتواتر عبارات من عندهم ليؤيدوا بها ولايـة «علي» ـ رضي الله عنه ـ وأبناءه الأئمة، ومن ذلك: (ألم نشرح لك صدرك [بعلي]. ومن يطع الله ورسوله [في ولاية علي والأئمة بعده] فقد فاز فوزاً عظيماً).

وهؤلاء الغلاة من دعاة التحريف يتـواصون بالعمل بما في المصحف الذي بين أيدينا؛ حتى يخرج «المهدي» ومعه المصحف الكامل في زعمهم.

ولا يخفى أنّ مـا ذهبوا إليه بـاطل من أساسـه، فقد تكفَّل الله تعـالى بحفظ القرآن، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾. (١)

وقد روت الأمة ــ بأجيالها المتعاقبة وشعوبها في أركان الأرض ـ القرآن الكريم بسوره وآياته وحروفه بالتواتر والإجماع، كما شهدت الأمة كلها على مدى (١٤) قرناً أنّ المصحف الذي بين الدفتين هو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ دون تحريف أو تبديل، ولم يثبت وجود مصحف لعلي أو «فاطمة الزهراء» ـ رضي الله عنهما ــ مخالف لما في أيدي المسلمين، وكان سائر أئمتهم يتلون هذا القرآن في صلواتهم ويستشهدون به في دروسهم، وكل ما روي عنهم ما زال على ما هو عليه الآن في أيدي المسلمين.

وقد سئل «علي بن أبي طالب» نفسه: هل عندكم شيء ما ليس في القرآن، فقال: والذي فَلَقَ الحَبَّة وبَرَأَ النَّسمَةَ (كل كائن حي فيه روح) ما عندنا إلاّ ما في القرآن، إلاّ فهماً يُعْطَى رجل في كتابه ...». (٢)

وهذا ما أجمع عليه المسلمون كافة.

٥. التَّقِيَّة:

ويقصدون بها أن يُظهر الإنسان خلاف ما يُبْطن، فيقول شيئاً ويضمر غيره، أو أن يقوم بعمل تعبدي لا يعتقد صحته، ثم يؤديه بعد ذلك بالصورة التي يعتقد صحتها، فالشيعي يتصرف بين خصومه كما لو كان يدين بعقيدتهم. وقد بدأوا العمل بهذا المبدأ منذ القرن الرابع الهجري، وقد يصل العمل بهذه التقية إلى حد استباحة الكذب والنفاق، وإخفاء العقيدة الأصلية عن الخصوم، ومع هذا فإنّهم ينسبونها إلى أئمّتهم؛ بل يرفعونها إلى الرسول ﷺ فيما زعموا، مع أنّه ﷺ ـ وأبناءه

---

١. الحجر: ٩.

٢. صحيح البخاري: كتاب الديات.

من علماء أهل البيت ـ كانوا أبعد الناس عن التقية، وكانوا من الشجاعة والإقدام بحيث يتحملون المشاق الناجمة عن مواقفهم وآرائهم بلا خوف أو تردد.

وهم ينسبون إلى «جعفر الصادق» قوله: «التقية ديني ودين آبائي». والتقية مبيحة للكذب والنفاق مبدأ مذموم في الإسلام، قال تعالى في معرض ذمه للمنافقين:

﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.[١]

وقال ﷺ: «كبرت خيانة أن تُحدِّث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب».[٢]

وقال أيضاً:

«إنّ الصدق بر، وإنّ البر يهدي إلى الجنّة، وإنّ العبد ليتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً، وإنّ الكذب فجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النار، وإنّ العبد ليتحرى الكذب حتى يُكتب كذاباً».[٣]

وقد كانت التقية من أهم الأسباب التي أدت إلى غلو كثير من الشيعة، وإلى إنشاء الجمعيات المنحرفة ذات الأهداف الباطنية الهدامة، وإن كان القرآن الكريم قد أباح للمسلم ـ في حالة الخوف والإكراه الملجىء ـ أن ينطق بكلمة الكفر ظاهراً وقلبه مطمئن بالإيمان، كما في قوله تعالى:

﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَٰنِ﴾.[٤]

---

١. البقرة: ١٤.

٢. سنن أبي داود: كتاب الأدب.

٣. صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب.

٤. النحل: من ١٠٦.

٦. البدَاء:

يقول بعض الغلاة بأنّ الله سبحانه وتعالى يبدو له ـ أحياناً ـ غير الذي أراده فيرجع عن إرادته الأولى إلى الذي بَدَا له، وفي هذا مساس بالقدرة الإلهية، والكمال الإلهي، مما يتناقض مع العقيدة السليمة ومقتضيات العقل، كما يتعارض مع صريح القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾.[١]

وقال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَاْ بِظَلّـٰمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.[٢]

والبدَاء بهذا المعنى فكرة يهودية روجها «عبد الله بن سبأ» واستغلها بعض الشيعة، لئلا يظهر على أئمّتهم كذب فيما يدعونه من علم الغيب، فإن تحقق ما يقولونه لأتباعهم، قالوا لهم: ألم نُعلمكم أنّ هذا سيكون، فنحن نعلم من قِبَل الله عزّ وجلّ ما علمته الأنبياء عن الله، وإن جاء الواقع بخلافه اعتذروا لشيعتهم وقالوا لهم: بدا لله في ذلك أمر.

ولكن «الاثني عشرية» وإن قالوا بالبداء، فهم يفسرونه بمثل ما قال به بعض أهل السنّة، من قضاء مبرم وقضاء معلق، وما أشارت إليه خواتيم سورة الرعد من محو وإثبات:

﴿يَمْحُوا ٱللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَـٰبِ﴾.[٣]

فأمّا القضاء المعلّق فهو ما توجهت إليه الإرادة من البداية معلقاً على شرط حصوله، وكلاهما مراد منذ البدء دون بداء أو تغير في العلم أو الإرادة، وليس هذا من قبيل ما كان يلجأ إليه كذبة الغلاة تضليلاً لأتباعهم حين يتخلف بعض ما

١. طه: من ٥٢.

٢. ق: ٢٩.

٣. الرعد: ٣٩.

قالـوا، ولا هو مستلـزم لنسبة الجهـل أو تخلف المعلوم إلى الله تعـالى ويقولـون بأنّ النسخ في عالم التكوين كالنسخ في عالم التشريع، فكما أنّ للنسخ حكماً وأسراراً قد تظهر أو لا تظهر، فللبداء بهذا المعنى حكم ومصالح قد تخفى على العباد.

٧. زواج المتعة:

وهو الـزواج لمدة محددة، وكان الرسول ﷺ قـد أباحه في بـدء البعثة [١]، ثم حرمـه تحريماً مؤبداً بعد ذلك وثبـت ذلك عنه ﷺ، كما حرمـه الإمام «علي بن أبي طالب» أيضاً وعمل الإمام حجة ملزمـة عند الشيعة، ومع هذا فإنّ جمهور الشيعة وبعض علمائها يبيحونه ويستدلون له بآية من سورة النساء كما يؤولونها، وهي قوله سبحانه:

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ . [٢]

وإباحـة زواج المتعة يُسبب اضطراب العـلاقة الزوجيـة، ويهز أركان الأسرة المسلمة، وإن كـانوا يبررونها بـأمور، منهـا أنّها تحل مشاكل الشبـاب المسلم حين يرحل إلى خارج العـالم الإسلامي، غير أنّ مسألة نكاح المتعـة على كل حال حكم فرعي لا يتصل بالعقيدة.

وقد ثبت عن النبي ﷺ نسخه، حيث قال:

«يا أيها الناس إنّـي قد كنت أذنت لكم في الاستمتـاع من النساء. وإنّ الله قـد حرم ذلـك إلى يوم القيـامـة، فمن كـان عنـده منهن شيء فليُخَلّ سبيلـه، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً». [٣]

---

١. الصحيح: في دار الهجرة.

٢. النساء: من ٢٤.

٣. صحيح مسلم: كتاب النكاح.

٨. بدع يوم عاشوراء:

يقوم عوام الشيعة بضرب ظهورهم بالسلاسل حتى يدموها، وضرب أجسادهم بالسيوف حتى يقطعوها حزناً على استشهاد «الحسين» وفقده، أو تطهراً من مسئولية خذلانه، وغالباً ما تؤدي هذه العادات المنكرة إلى حدوث صراع بين الشيعة والسنّة في المجتمعات المشتركة، وذهاب العديد من الأرواح البريئة. وليست هذه الأمور من أُصول المذهب أو فروعه، ولكنها شاعت بين جماهيره ـ وخاصة العوام منهم ـ في أقطار عديدة.

وكانت السياسة الاستعمارية قد روجت لشيوع ذلك في العالم الإسلامي منذ (٢٠٠) عام، وبخاصة في شبه القارة الهندية، ولا يزال لهذه العادة نفوذ بالغ وأثر سيئ هناك؛ وإن أخذت تقل حدتها وتختفي في مناطق أُخرى. ويستغل أعداء الإسلام فرصة هذه المواكب المشينة في يوم عاشوراء، ويسجلونها، ويصفون المسلمين من أجلها بالوحشية والرجعية.

٩. الخُمُس:

يرى الاثنا عشرية وجوب دفع الخمس من دَخْل كل اثني عشري في كل عام إلى مراجع المذهب، وهم المجتهدون من قادة الطائفة الذين يتبعهم العوام ويقلدونهم ويلتزمون بفتاواهم، وذلك لينفق منه على الشؤون المذهبية والمصالح الدينية التي يقدرها هؤلاء القادة، وهم يرون ذلك بديلاً عن الزكاة وفي بعض المجتمعات التي فرضت فيها الزكاة الشرعية بحكم القانون ـ كباكستان ـ رفض الاثنا عشرية دفعها للدولة بسبب دفعهم هذا الخمس إلى مراجعهم الدينية الخاصة.

هذا وقد أحدثت «الاثنا عشرية» في الصلاة أُموراً منها «السجود على التربة

الحسينية» وذلك لأنّهم يقدسون تراب مدينة كربلاء (النجف) التي استشهد فيها الإمام «الحسين بن علي» رضي الله عنهما، فلا يكاد يخلو بيت من بيوت الشيعة من تلك التربة.

ومن مظاهر تقديسهم لها أنّهم يقومون بالسجود عليها وتقبيلها والتبرك بها، بل وأكل قليل منها للشفاء ـ على الرغم من أنّ الفقه الشيعي يحرم أكل التراب ـ كما يصنعون من هذه التربة أشكالاً مختلفة يحملونها في سفرهم ويسجدون عليها في صلواتهم التماساً للقبول والبركة.

وأهم تطور في حياة الفرقة «الاثني عشرية» في العصر الحديث هو اتجاههم إلى النشاط السياسي، والعمل على إقامة الدولة التي ترعى المذهب وتحقق أهدافه وتنشر مبادئه، وأهم مظهر لذلك هو قيام دولتهم المسماة «بالجمهورية الإسلامية» في إيران التي ينظمها دستور أعلنه الخميني قائد الثورة التي أقامت هذه الجمهورية. ومارس فيها الخميني ومن بعده خليفته ـ مرشد الجمهورية ـ السلطة العليا نيابة عن الإمام الغائب حتى يظهر بناءً على ما للفقيه من سلطة وولاية حال غياب الإمام، برغم أنّ الثورة قبل قيام الجمهورية كانت تبدي وجهاً إسلامياً متسامحاً، ولا تتورط في مثل هذه الأمور الطائفية، ولكن بعض الشيعة من المجتهدين وغيرهم في بعض أنحاء العالم الإسلامي يرون أنّ ولاية الفقيه بهذا المفهوم السياسي ليست من مسلمات المذهب، وأنّ الأقرب إلى موقف الأئمة وخاصة «علي» ـ رضي الله عنه ـ تقديم وحدة الأمة على مسائل الإمامة، وجمع كل المسلمين على ما يحفظ مصالحهم في ظل الشريعة الخاتمة أياً كان شخص الحاكم القائم بذلك فيهم، فعسى أن يحقق الله ذلك وهو الغالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

❊ ❊

كان هـذا نص المقال المنشور في دائرة المعـارف الموسومة بـ «السفير» ، وقد بلغنا أنّ بعض المهتمين بهذه الموسـوعة قد وقف على أنّ فيه بخسـاً لبعض حقوق الاثني عشرية فاستعـدوا لتصحيحها بإرشادهـم إلى مواقـف الخطأ والاشتباه حتى يستدركوا في الطبعة الثانية فقمنا بعملين:

١ـ التنـويه بمـواضع الخطأ والاشتباه في المقـال المطبوع ونـاقشناها بـأرقام متسلسلة. وهذا هو الذي نقدمه في هذه الكراسة.

٢ـ تأليف مقالٍ[1] يتضمن تاريخ الفرقة الاثني عشرية وجذورهم وأُصولهم وعقائدهم ودورهم في بناء الحضارة الإسلامية. سوف يرسل إلى اللجنة التي ترأس دائرة المعارف إذا طلبت منا. راجين أن ينشر بدلاً عن المقال المنشور سابقاً.

ونقتصر في النقد والتحليل بما يمتّ إلى المذهب الاثني عشري بصلة وأما ما طرحـه في ثنايا المقـال من مسائل سيـاسية واشتباهـات من تحالف الصفويـة مع انكلترا، فنمر عليها مر الكرام.

---

١. المراد الرسالة الأُولى في هذه المجموعة وقد ألف بعد هذا المقال ونشر في صحيفة اللواء.

تحليل المقال ونقده

١ . يقـول: *«من أسمائهم الرافضة لأنّهم رفضـوا نصرة الإمام زيد بن علي زين العابدين (٧٩ ـ ١٢٢ هـ) حين طلبـوا منـه سبَّ أبي بكرٍ وعمر (رضي الله عنهما) فأبى»*.

مناقشتنا:

إنّ الرافضة مصطلح سياسي قد كـان رائجاً قبل ولادة زيد بن علي بأعوام، وكان يطلق على من لم يعترف بشرعية النظام السياسي الحاكم، ولأجل ذلك نرى أنّ معاوية يصف مخالفي علي عليه السلام بالرفض ويُسمِّيهم بالرافضة.

ينقل نصر بـن مـزاحم المنقـري (٢١٢ هــ) في كتـابـه «وقعـة صفين» عن معاويـة، أنّه كتب إلى عمرو بن العـاص وهو في البِيع في فلسطين، أمّا بعد: فـانّه كان من أمر عليّ وطلحـة والزبير ما قد بلغك وقد سقط إلينـا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة وقدِمَ علينا جريرُ بن عبد الله ...»[١].

ترى أنّه يصف مروان بن الحكم ومن كـان معه بالرفض وما ذلك إلاّ لأنّهم

---

١ . نصر بن مزاحم المنقري، وقعة صفين: ٢٩، ط: مصر.

لم يعترفوا بشرعيـة حكومـة الإمام علي عليه السلام وهـذا يعرب عن تقـدم الاستعمال على ولادة زيد.

إنّ الشيعـة عن بكـرة أبيهم لم يعترفـوا بشرعية خـلافـة غير الإمام فصـاروا رافضة، كما أنّ الخوارج والأمـويين بما أنّهم لم يعترفوا بشرعيـة خلافـة الإمام سُمّـوا رافضة.

فلا يصح اسناد تسمية الشيعة بـالرافضة إلى زيد بن علي عليه السلام ، فما جاء في المقال مأخوذ من كتب المخالفين.

يقول البزدوي: «وإنّما سمّوا روافض، لأنّهم وقعوا في أبي بكر وعمر فزجرهم زيد فرفضوه فسُمُّوا روافض»[1].

والتاريخ يشهـد بأنّ الشيعة كانت تسمى بـالرافضة في أعوام متقـدمة على ميلاد زيد[2].

٢ . *يقول الكاتب في شأن الإمام الثاني عشر :*

«محمد بن الحسن المتوفى سنة ٢٦٥ = ٨٧٨ الخ».

مناقشتنا:

الإمام الثـاني عشر عند الاثني عشريـة حيّ يُرزق فكيـف يقول بأنّـه المتوفى سنة ٢٦٥ ؟! . والظاهر انّه من هفـوة القلم. كما انّ عدّ الإمام الكاظم عليه السلام الإمام الخامس ناشئ من قلة الإمعان في دراسة الموضوع.

---

١ . البزدوي، أُصول الدين: ٢٤٨.

٢ . المرتضى، الأمالي: ١/ ٦٨، قسم التعليق، لاحظ: بحوث في الملل والنحل: ١/ ١٢٢ـ ١٢٥.

٣. *يقول في عدد الشيعة:*

«ويبلغ عدد الشيعة بعامة فرقها، قرابة ١٠٠ .مليون شخص يمثلون حوالي ١٠٪ تقريباً من اجمالي عدد المسلمين».

مناقشتنا:

أنّ دوائر الاحصاء في العالم تحت نفوذ الصهاينة، وأعداء الإسلام وهمّهم تقليل المسلمين وتكثير غيرهم.

وعدد الشيعة ما يقارب ٢٥٠ مليون شخص وهم يمثلون ٢٥٪ تقريباً من اجمالي عدد المسلمين لو صح أنّ عددهم في العالم يبلغ ميليار مسلم.

٤. *يقول: «وفي أواخر عهد الإمام السادس، جعفر الصادق أخذ بعض الغلاة يتجمعون حول ولده إسماعيل مما دفعه إلى جمع الناس وإشهادهم على وفاة إسماعيل الذي مات في حياة أبيه عام١٤٣ ».*

مناقشتنا:

أنّ إسماعيل أعلى شأناً ومقاماً من أن يجتمع حوله بعض الغلاة ويستغلوا مكانته الاجتماعية، والدليل على ذلك «انّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام كان يحبه حباً كثيراً وعندما توفي جزع أبو عبد الله عليه السلام جزعاً شديداً، وتقدم سريره بغير حذاء ولا رداء وأمر بوضع سريره على الأرض قبل دفنه، مراراً واستناب أجيراً ليحج عنه وكتب على كفنه: إسماعيل يشهد أن لا إله إلاّ الله» [١].

فلو كان إسماعيل ممن تستغله الغلاة لما كال له الإمام الصادق بهذا الصاع الكبير.

---

١. المفيد، الارشاد: ٢٨٤؛ ابن شهر آشوب: المناقب: ٤/ ٣٠٨، وغيرهما.

وأمّا استشهاد الإمام على وفاته فلم يكن لأجل اجتماع الغلاة حوله، بل كان ردّاً لما اشتهر بين الشيعة في ذلك اليوم، أنّ الإمامة للولد الأكبر وكان إسماعيل أكبر ولده، فلأجل إبطال تلك الفكرة أشهد الإمام عليه السلام على وفاته، ومع ذلك ذهبت ثلة من الشيعة ـ بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام ـ إلى إمامة ولده محمد بن إسماعيل.

٥. *يقول في حق الإمام الكاظم عليه السلام: «وقد قام بأمر الطائفة في نطاق سياسة أبيه جعفر التي نزعت إلى السَّلم»* .

مناقشتنا:

انّ نسبة النزوع إلى السَّلم إلى الإمام الصادق وولده الكاظم عليهما السلام نسبة خاطئة مستندة إلى النظر إلى ظواهر الأحوال من دون فحص عمّا كان يقوم به الإمام عليه السلام سرّاً، فقد كان الإمام الصادق عليه السلام يدعم ثورة زيد وثورات الآخرين التي تلت ثورته.

وكان الإمام الكاظم عليه السلام مسانداً لثورة الحسين بن علي الخير (شهيد فخ).

نعم كانت المصالح يومذاك تستدعي كون الحركة ثقافية في الظاهر، ودعم الكفاح المسلّح ضد الطغاة سراً لا علانية.

وبذلك يعلم عدم صواب كلامه الآخر، حينما قال: «وكان الشيعة الاثنا عشرية قد اتجهوا وجهة ثقافية روحية بتأثير جعفر الصادق وأعرضوا عن النشاط السياسي إلى حد كبير».

ولا نعود إلى نقده.

٦. يقول: *«وعلى الرغم ممّا يؤخذ عليهم في أثناء هذه الفترة فقد أسهموا في تحويل بعض قادة المغول إلى الإسلام وإلى التشيع بطبيعة الحال، ولكنّهم أحسوا ببعض القوة في العهد الجديد الذي أعقب سقوط الخلافة العباسية، ممّا كان له أثر في إشعال الجدل الطائفي الذي يتمثل في عدة مؤلفات من أبرزها كتاب الحسن بن المطهر «منهاج الكرامة» الذي ردّ عليه ابن تيمية بكتابه «منهاج السنّة»* .

مناقشتنا:

انّ السقيفة التي تم فيها الانتخاب المسرحي للخلافة كان مبدأً لانفتاح باب الجدل الطائفي وربّما أعقب حروباً دامية ولأجل ذلك يقول الشهرستاني: «وأعظم خلاف بين الأُمة خلاف الإمامة إذ ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كلّ زمان» [١]، وقد اشتد الجدال الكلامي في القرن الثاني في عصر الإمام الباقر عليه السلام والصادق عليه السلام يعلم ذلك من المناظرات التي دارت بين تلاميذهما كهشام بن الحكم، ومؤمن الطاق، وهشام بن سالم، مع مخالفيهم. وفي القرن الرابع والخامس استفحل فيهما الجدال في الإمامة بين المعتزلة والشيعة الإمامية وهذا هو عبد الجبار القاضي المتوفى عام ٤١٥ هـ ألف كتابه المغني في عشرين جزء وخص الجزء الأخير بمسألة الإمامة في الردّ على الإمامية، ونقضه السيد المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) بكتاب أسماه «الشافي» وقد طبع في أربعة أجزاء ولخصه تلميذه الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) إلى غير ذلك من المؤلفات الكلامية قبل حلول القرن السابع. والذي يدل على سبق الجدال انّه ألف عشرات الكتب باسم الإمامة قبل حلول القرن الرابع. لاحظ الذريعة [٢].

---

١. الشهرستاني، الملل والنحل: ١/ ٢٤ دار المعرفة، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ.

٢. آقا بزرگ الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج٢، مادة الإمامة.

٧. يقول: *«وفي أواخـر عهـد الأئمّـة كان من بين الاثني عشرية رجـل بلغ النشـاط والحماسة للمـذهب، مـع نـزوع إلى الغلو اسمـه محمـد بن نصير النميري...»*.

مناقشتنا:

كان الـلازم لمن يريد أن يكتـب عن الاثني عشرية أن لا يكتب عـن الغلاة شيئاً لأنّ الغلاة عندهم وعند جمهور المسلمين ليسوا بمسلمين.

٨. يقول: *«انّ المرجعية الدينية بعد موت العسكري وغيبة ولده المهدي ترجع إلى لجنـة من أربعـة أشخـاص، هـم: عثمان بن سعيـد العمـري، ومحمـد ابـن عثمان بـن سعيـد، والحسين بـن روح النــوبختـي، وعلي بن محمــد السمري»*.

مناقشتنا:

انّ ما ذكره من غرائب الهفوات فانّه لم تكن هناك أي لجنة بينهم لإدارة أُمور الشيعة بل كان كل واحد من الأربعة سفيراً عن الإمام في عصر يختلف عن عصور الآخرين.

وإليك تاريخ سفارتهم:

١ ـ عثمان بن سعيد العمري وكانت سفارته ما بين ٢٦٠ ـ ٢٦٥ هـ.

٢ ـ محمد بن عثمان العمري وكانت سفارته ما بين ٢٦٥ ـ ٣٠٥ هـ.

٣ ـ الحسين بن روح النوبختي وكانت سفارته بين ٣٠٥ ـ ٣٢٦ هـ.

٤ ـ علي بن محمد السمري وكانت سفارته بين ٣٢٦ ـ ٣٢٩ هـ.

٩. يقول: *«ولكن الاثني عشرية ينكرون مزاعم ابن نصير ويكفرون من اعتقد هـذه الأقاويـل بصرف النظر عـن العلاقـات العملية التـي قد تقـوم بين الطائفتين»* .

مناقشتنا:

انّ صـدر هذا الكـلام ينـاقض ذيلـه، فإذا كـانت الاثنـا عشرية يكفـرون النصيرية فما معنى العلاقات العملية التي تقوم بين الطائفتين؟!

١٠. يقول: *«إلى أن قـامت للاثنـي عشرية دولـة في إيران لأول مرة في التـاريخ على يد الشاه إسماعيل (٩٠٦ ـ ٩٣٠) الخ»* .

مناقشتنا:

مضـافاً إلى أنّ مبـدأ الحكومـة الصفويـة كان عـام ٩٠٥ لا ٩٠٦، انّه قـد سبقت الدولة الصفوية في إيران، دولة البويهيين في العراق، وما اتصل بها من بلاد فارس وغيرها، ودولة السربدارية في خراسان حوالي ٧٨٠، وقد طلب رئيس الدولة السربـدارية وهـو علي بن مؤيـد من الشهيـد الأوّل محمد المكي العـاملي (٧٣٤ ـ ٧٨٦) السفر إلى خـراسان فامتنع الشهيـد عن ذلك وأرسل إليهم رسالـة اللمعة الدمشقية وهي دورة فقهية مختصرة على أساس الفقه الإمامي.

وكذلك دولة السلطـان خدابنده المغولي الذي تشيّع على يـد العلاّمة الحلي وأمر بذكر «حيَّ على خير العمل» في الاذان وضرب السكة بأسماء أئمّة أهل البيت عليهم السلام . وكان حاكماً على البلاد بين سنة ٧٠٣ ـ ٧١٦.

١١. *يصف الشاه إسماعيل بقوله: «الذي نزع هو وخلفاؤه إلى التشيع على الرغم من أُصولهم السنية الصوفية».*

مناقشتنا:

انّه لم يكن الشاه إسماعيل ولا أبوه وجده سنيّين وإنّما طرأ عليهم التشيع في القرن الثامن وأوّل من تشيع منهم جدهم الأعلى صفي الدين الأردبيلي المتوفى عام ٧٣٥ أي قبل نشوء الدولة الصفوية بقرنين.

١٢. *يصف حكم الصفويين بأنّهم كانوا خلال حكمهم في عداء شبه مستمرّ مع الخلافة العثمانية ونشبت بينهما الحروب التي أسهمت في انحسار المد الإسلامي عن أوربا وتمزّق بلدان العالم الإسلامي وتفككها. الخ».*

مناقشتنا:

لا شك أنّه قامت بين الدولتين حروب طاحنة إنّما المهم هو تعيين المعتدي، والكاتب كتبَ وقد أغمض عينَه عن الواقع التاريخي فانّ اعتداء الخلافة العثمانية على الشيعة إلى عهد انقراضها، كالشمس في رائعة النهار وقد قتل السلطان سليم العثماني من الشيعة في يوم واحد حوالي أربعين ألفاً، مضافاً إلى اعتداءات وجرائم نكراء بأيدي عُمّاله في العراق والشام ولبنان ضد المواطنين الشيعة، وقصة الجزار معروفة فمن أراد أن يقف على تلك الاعتداءات ويتعرف على البادئ فليراجع كتاب «الشيعة والحاكمون» وبما أنّ التفصيل في المقام موجب لجرح العواطف نقتصر على هذا الموجز.

ثم إنّ الخلافة العثمانية كانت في عهد الصفويين في ذروة قدرتها وسلطانها، ولم يكن آنذاك أيّ انحسار للمد الإسلامي.

وإنّما بدأ الانحسار في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجري لعللٍ داخلية وخيانات في البلاط العثماني، والضباط الأتراك العملاء للأحزاب العلمانية.

ولا تنسَ يا كاتب ! أنّ فكرة العروبة والقومية العربيّة التي كان يتبنّاها سياسيو الأُمة العربية في القرنين الأخيرين، كانت هي الضربة القاضية على هيكل الخلافة العثمانية، وهذه الفكرة بعد لا تزال حيّة، ولما سقطت قلعة العثمانيين ارتفعت قلاع باسم الدول العربية تحمل الشعارات القومية بدل الإسلامية.

لا تكشفن مغطّاً فلربّـــ ـــما كشّفتَ جيفـــةً

تلك شقشقة هدرت ثم قرّت.

١٣. *يقول عن عهد الشاه عباس الصفوي بأنّه: «توقف الحج إلى مكة في عهده ووجبت زيارة مدينة مشهد وهي مدينة طوس القديمة الخ».*

مناقشتنا:

انّه لو ثبت انّ الحج توقف يوم ذاك فانّما توقف لفقد شرط وجوبه وهو أمن السرب والطريق ولم يكن المنع مختصاً بهذا العصر ففي عصر القرامطة مُنِع المسلمون من الحج لأجل فقد شرطه.

على أنّ عمل فرد من ملوك الشيعة لا يعتبر دليلاً على أنّه من عقائد الشيعة والكاتب بصدد بيان مذهب الاثني عشرية بما له من الأُصول والفروع.

١٤. *يقول: «فبرغم أنّ عدد أهل السنّة في إيران يصل إلى حوالي ٢٠٪ من اجمالي عدد السكان في ايران إلا أنّهم محرومون من تولي الوظائف الرئيسية في الدولة، ومن صلاة العيدين، ومن بناء مسجد لهم بطهران العاصمة الخ».*

مناقشتنا:

انّ الكاتب كأنّه يكتب عن أُمّة بعيدة عن أعين المسلمين ووكالات الأنباء العالمية، ونحن ندعو الكاتب لزيارة إيران حتى يرى بأُم عينه أنّ إخواننا السنّة أحرار في عقائدهم وشعائرهم كما أنّ لهم مندوبين في مجلس الشورى الإسلامي، وانّ الجمهورية الإسلامية هي المتبنّية للتقريب بين المسلمين عن طريق مساهمتها في تأسيس دار المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وقد شارك في تأسيس تلك الدار رجال من الشيعة والسنّة من الداخل والخارج، كما وتصدر عنها مجلة رسالة التقريب، والكاتب إنّما كتب هذه السطور لاثارة الفتنة بين الإخوة.

لكن نعود فنسأله انّ القاهرة مكتظة بالشيعة، فهل لهم فيها مكتبة رسمية أو مسجد أو مدرسة؟ وهل تسمح الحكومة بإقامة شعائرهم علناً.

انّ الحرمين الشريفين لا يختصان بطائفة دون أُخرى وإنّما هما لجميع المسلمين ﴿**سواءً العاكِفُ فيهِ والبادِ** ... ﴾. [1]

ولكن الشيعة محظور عليهم التظاهر بشعائر دينهم أو بناء مسجد أو مدرسة أو مكتبة لهم.

فدع عنك نهباً صيح في حجراته   ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

وأمّا ما ذكر من عدد أهل السنّة فلا أدري من أين جاء بتلك الاحصاءات فإنّ احصاء عدد النفوس في إيران لم يتم على أساس المذهب حِرصاً على وحدة الكلمة بين الطائفتين.

١٥ . يقول: «*وقد تطور مذهب الاثني عشرية على مرّ الزمن وأسهم العداء السياسي والغلو المذهبي في انفراد الطائفة بعقائد ومبادئ تتجافى عن روح الإسلام السمحة ومقتضيات المنطق السليم*» .

مناقشتنا:

انّ عقائد الإمامية مأخوذة من الكتاب وأحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام والعقل الصريح ولم يكن هناك أي تطور فيها. نعم نضجت المسائل الكلامية عبْر القرون كسائر العلوم الإسلامية، ولأجل الاشارة إلى ذلك نذكر فيما يلي ما كتب حول عقائد الشيعة في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث:

الف ـ كتب الإمام الرضا عليه السلام للمأمون رسالة في محض الإسلام [١].

ب ـ وقد عرض السيد عبد العظيم الحسني عقائده على الإمام الهادي عليه السلام المتوفى عام ٢٥٤ هـ وهو مكتوب [٢].

ج ـ وبعده توالت الرسائل العقائدية للشيعة ومعارفهم. يقف عليها من تتبع كتبهم الكلامية.

فهذا هو الصدوق (٣٠٦ ـ ٣٨١ هـ) له رسالة في عقائد الشيعة، وللشيخ المفيد (٣٣٦ ـ ٤١٣ هـ) رسالة أسماها «شرح عقائد الصدوق»، وللمرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ) رسالة «جمل العلم والعمل» ومن تتبّعها يرى أنّ الرسائل كلّها على غرار واحد ولو كان هناك خلاف فانّما هو في البحوث الكلامية والتي لا تمت إلى ذات العقائد بصلة.

نحن لا نريد المقابلة بالمثل، وإلاّ فانّ الإمام الأشعري كتب عقائد أهل

---

١ . الصدوق، عيون أخبار الرضا: ٢/ ١٢١ .

٢ . الصدوق، التوحيد: ٨١ رقم الحديث ٣٧.

السنّة في عدّة بنود في كتابه «الابانة عن أُصـول الديانة» وأفرد كل واحد منها، للردّ على الفـرق الإسـلاميـة فصارت عقـائد أهـل السنّة حصيلـة الـردود على عقـائد الآخرين، ولولا هذه الفرق، لم يكن هناك سبب لعقدها.

١٦ . *يتعرض الكاتب إلى حديث الغدير ويؤوّله بأنّه لدى أهل السنّة وصية عامّة لإكرام آل البيت والتنويه بمكانة علي رضي الله عنه.*

مناقشتنا:

انّ من قرأ تـاريخ حديث الغـدير وتدبـر في خطبة النبي ﷺ قبل أن يـدلي بقوله في حق علي عليه السلام : «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» لا يشك في انّ النبي ﷺ بصدد تعيين الوصي من بعده. ونحن نذكـر مقتطفاً من خطبة النبي الأكرم ﷺ في ذلك الحشد العظيم حتى يعلـم مدى صدق قول القائل بأنّها بصـدد إيصاء عام بإكرام آل البيت عليهم السلام ؟

قال ﷺ : «أيها الناس انّه قد نبّأني اللطيف الخبير انّه لم يعمر نبي إلاّ نصف عمـر الذي يليـه من قبله، وانّي لأظـن أني يوشـك أن أُدعى فأُجيب وأني مسـؤول وانّكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟»».

قالـوا: نشهد إنّـك قد بلغت وجهـدت ونصحت فجـزاك الله خيراً، فقال: «أليس تشهدون أنّ لا اله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنته حق، وأنّ ناره حق، وأنّ الموت حق، وأنّ البعث حق بعد الموت، وأنّ السـاعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث مـن في القبور؟ قـالوا: بلى، نشهـد بذلك، قـال: «اللهم اشهـد» ثم قال: «يـا أيها الناس انّ الله مـولاي وأنا مـولى المؤمنين وأنا أولى بهم مـن أنفسهم، فمن كنت مولاه فهذا ـ يعني علياً ـ مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه» ثم قال: «يا أيها الناس إنّي فُرطكـم وأنّكم واردون عليّ الحوض، حوض أعرض مما بين

بُصرىٰ، إلى صنعاء، فيـه عدد النجوم قدحـان من فضة وأنّي سـائلكم حين تردون عليّ عن الثقلين، فـانظروا كيـف تخلفوني فيهما، الثقـل الأكبر كتاب الله عـزّ وجلّ سبب، طرفـه بيد الله وطرفه بأيـديكم فاستمسكوا به لا تضلّـوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي، فانّه نبأني اللطيف الخبير انّهما لن ينقضيا حتى يردا عليَّ الحوض»[١].

وأخرجه غير واحد من أئمّة الحديث منهـم الإمام أحمد من حديث زيد بن أرقم، قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ بواد يقال له وادي خُم، فأمـر بالصلاة فصلاها بهجير، قال: «فخطبنا وظلل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فقال: «ألستم تعلمون، أولستم تشهدون، أنّي أولى بكل مـؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى، قال: فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[٢].

وأخرجـه الحاكم في مناقب علي من مستدركـه عن طريق زيـد بن أرقم من طريقين صححهما على شرط الشيخين، قـال: لما رجع رسول الله من حجـة الوداع ونزل غديـر خم، أمر بدوحات فقممـن، فقال: «إنّـي دُعِيتُ فأجبتُ، قـد تركت فيكم الثقلين، أحـدهما أكبر من الآخر، كتـاب الله وعترتي، فانظروا كيـف تخلفوني فيهما، فانّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، ثم قـال: إنّ الله عزّ وجلّ مولاي وأنا مولى كل مؤمن ـ ثم أخذ بيد عليٍّ فقال: ـ من كنت مولاه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ...»[٣].

وأخرجه النسائي في خصائصه عن زيد بن أرقم، قال: لما رجع النبي ﷺ من حجـة الوداع ونـزل غـدير خـم أمـر بدوحـات فقممن، ثـم قال: «كـأنّي دُعيت

---

١. الصواعق: ٤٣ ـ ٤٤ وأخرجه عن طريق الطبراني وغيره، وحكم بصحته.

٢. مسنـد الإمام أحمد: ٤/ ٣٧٢، وأخـرجه الإمـام أيضاً في مسنـده من حـديث البراء بن عـازب من طريقين، لاحظ الجزء الرابع الصفحة ٢٨١.

٣. المستدرك: ٣/ ١٠٩، مع أنّ الذهبي في تعليقته على المستـدرك يعلق على مواضع من تصحيحات الحاكم صرح في هذا المقام بصحة الحديث.

فأجبت، وأنّـي تارك فيكم الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وأهل بيتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فانّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحـوض ـ ثم قال: ـ إنّ الله مولاي وأنا وليّ كل مـؤمن ـ ثم أخذ بيد عليٍّ فقال: ـ من كنـت وليه فهذا وليه، اللّهم وال من والاه وعـاد من عاداه»؛ قال أبـو الطفيل: فقلت لزيـد: سمعتَه من رسول الله ﷺ؟ فقال: وانّه ما كان في الدوحات أحد إلاّ رآه بعينه وسمعه باذنه [١].

إنّ سـؤال أبي الطفيل يعـرب عن حقيقـة مـرّة، وهـو انّه يـرى التنـافي بين مضمون الحديث وعمل أكثر الأمة، فانّ الحديـث نص على ولايته وخلافته، وأكثر الأمة صرفتها عـن علي، فلأجل ذاك عاد يتعجب ويسأل، وليـس التعجب مختصاً به، فهذا هو الكميت يصرح به في هاشمياته ويقول:

ويوم الدوح دوح غدير خم	أبـان له الخلافة لو أطيعـا
ولكن الرجـال تبايعـوهـا	فلم أر مثلهـا خطراً مبيعـا
ولم أر مثل ذاك اليوم يومـا	ولم أر مثلـه حقاً أُضيعـا [٢]

ولـو أردنـا استقصـاء مصـادر الحديث وأسـانيـده ورواتـه من الصحـابـة والتابعين والعلماء لأحوجنا ذلك إلى تأليف مفرد، وقد قام بحمد الله أعلام العصر ومحققوه بذلك المجهود [٣].

والمهم هـو دلالة الحديـث على الولايـة العامـة والخلافة الكبرى لعليٍّ بعـد الرسول، وقبل الخوض في ذلك نقدم الأُمور التالية:

---

١. الخصائص العلوية: ٢١.

٢. الهاشميات طبعت غير مرّة وشرحها غير واحد من أدبـاء العصر كالرافعي المصري، والأُستاذ محمد شاكر الخياط وقد دبَّ اليها الدس والتحريف، لاحظ الغدير: ٢/ ١٨١.

٣. العبقات للسيد مير حامـد حسين (المتوفـى ١٣٠٦ هـ) والغدير للعلاّمة الفذ عبد الحسين الأميني (المتوفّىٰ ١٣٩٠ هـ) وكلاهما من حسنات الدهر.

١ـ انّه ﷺ قال في خطبته: «إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا ـ يعني علياً ـ مولاه» وهذا قرينة لفظية على أنّ المراد من «مولاه» الثانية عَيْـن المراد من «مولاه» الأولى فالمعنى انّ الله أولى بي من نفسي، وأنـا أولى بالمؤمنين مـن أنفسهم، ومن كنت أولى بـه من نفسـه، فعليّ أولى بـه من نفسه، وهذا هو معنى الولاية الكبرى للإمام.

٢ـ ذيل الحديث وهو قوله ﷺ: «اللهم وال من والاه وعـاد من عاداه» وفي بعض الطرق «وانصر مـن نصره واخذل من خذله» فـانّه ﷺ لمّا نصبه إمـاماً على الأُمّة بعـده، كان يعلـم أنّ تطبيق هذا الأمـر رهن تـوفر الجنـود والأعوان، وطـاعة أصحاب الـولايات والعمّـال، مع علمـه بأنّ في الملأ من يَحسده وفيهـم من يحقد عليه، وفي زمـرة المنافقين من يضمر لـه العداء، فعاد يـدعو لمن والاه ونصرَه، وعلى من عاداه وخذله، ليتم أمر الخلافـة وليعلم الناس أنّ موالاته موالاة لله وأنّ عداءه عداؤه، والحاصل أنّ هذا الدعاء لا يناسب إلاّ من نصب زعيماً للإمامة والخلافة.

٣ـ انّه ﷺ صدّر كلامه بأخـذ الشهادة من الحاضرين بأنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمـداً رسـول الله، ثم قـال: انّ الله مـولاي وأنـا مـولى المؤمنين وأنـا أولى بهم من أنفسهم، فقال: «فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مـولاه»، وهذا يدلّ على أنّ التالي، من جنس المقدم وأنّه ركن من الدين كما هما ركنان.

٤ـ انّه ﷺ ذكر قبل بيان الولاية قولـه: «كأنّـي دُعيت فأجبت» أو ما يقرب من ذلك، وهـو يعرب عـن أنّه ﷺ لم يبق مـن عمـره إلاّ قليل ويُحاذر أن يـدركـه الأجل، فأراد سـدّ الفراغ الحاصـل بموتـه ورحلته بتنصيب علي إمـاماً وقـائداً من بعده.

هذه القرائن وغيرهـا الموجودة في كلامه، توجـبُ اليقين بأنّ الهدف من هذا النبأ في ذلك الحشد العظيم ليس إلاّ إكمال الدين واتمام النعمة من خلال ما أعلن

عنه ﷺ أنّ علياً قائد و إمام للأمة، ومن أراد الحصول على المزيد من هذه القرائن فليرجع إلى كتاب الغدير القيم [١].

لا يشك من درس مضمون حديث الغدير وما احتف به من القرائن يقف على أنّ المراد منه هو نصب علي للإمامة والخلافة وهذا هو الذي فهمه الحضور من المهاجرين والأنصار في ذلك المحفل كما فهمه من بلغه النبأ بعد حين، ممن يحتج بقوله في اللغة، وتتابع هذا الفهم فيمن بعدهم من الشعراء ورجال الأدب إلى العصر الحاضر، وهذا هو حسان بن ثابت الذي حضر مشهد الغدير قد استأذن رسول الله أن ينظم الحديث في أبيات منها قوله:

وقــال له قـم يا علي فانني   رضيتك من بعدي إماماً وهاديا [٢]

١٧ . يقول: *«وهذه الآثار لا تدل عند علماء السلف والخلف من أهل السنّة على ما ذهبوا إليه من وصية الرسول لعلي بالخلافة من بعده إذ الولاية ترد بمعنى النصرة والمودة والولاء والاخوة لا بمعنى الإمامة والخلافة حتماً»*.

مناقشتنا:

انّه ورد في الحديث لفظ المولى وليس له إلاّ معنى واحد وهو الأولى، قال سبحانه: **﴿فاليومَ لا يُؤخَذُ مِنكُم فِديةٌ ولا من الّذينَ كَفَروا مَأواكُمُ النّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وبِئْسَ المَصِير﴾** . [٣]

وقد فسر المولى في الآية بمعنى الأولى، و إذا استعمل في مورد الجار وابن العم والعبد وغيرهم فبنفس ذاك الملاك فالجار أولى بأن يحمي الجار، وابن العم

١. الغدير: ١/ ٣٧٠، وقد ذكر هناك ما يقرب من عشرين قرينة على ما هو المراد من الحديث.

٢. رواه غير واحد من حفّاظ الفريقين لاحظ الغدير: ٢/ ٣٥ ـ ٣٧.

٣. الحديد: ١٥.

أولى بنصر ابن عمه، والعبد أولى بإطاعة أمر مولاه وهكذا.

والدليل على أنّ المولى في حديث الغدير بمعنى الأولى هو كلام الرسول ﷺ قبل هذه الجملة فقد قال: «ألستم تشهدون أني أولى بكلِّ مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فمن كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه»[١].

على أنّ ذكر التوحيد والمعاد والرسالة في خطبة الرسول ﷺ والتنويه برحيله عن قريب وذكر الثقلين، كل ذلك يعرب عن أنّ النبي ﷺ بصدد بيان أمر خطير فيه اكمال الدين واتمام النعمة لا بصدد الايصاء بإكرام أهل بيته الذي لم يكن أمراً مستوراً على الأُمّة.

أضف إلى ذلك أنّه لو كان الهدف من كلام النبيّ ﷺ هو الايصاء بالمحبة والمودة فلماذا أخره إلى أُخريات أيام حياته الشريفة؟ ولماذا نوه به في حشدٍ عظيم في صحراء لا يخيم على الناس فيها إلاّ حر الشمس؟ أوليس هذا بعيداً عن بلاغة النبي ﷺ ورعاية مقتضى الحال؟

١٨ . *يقول: «والشيعة يستشهدون أيضاً بآثار أُخرى بعضها ضعيف والآخر موضوع»*.

مناقشتنا:

ماذا يريد بالآثار الموضوعة؟ فالشيعة تستدلّ بحديث الثقلين الذي مرّ في كلام الرسول في خطبة الغدير، وأخرجه الترمذي والنسائي في سننهما، وأحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه فلاحظ المصادر التالية:

الف ـ كنز العمال ١/ ٤٤.

---

١ . مسند الإمام أحمد: ٤/ ٣٧٤ و ٢٨١ وغير ذلك.

ب ـ مسند أحمد ٥/ ١٨٢ و ١٨٩ و ج ٣/ ١٧ و ٢٦.

ج ـ المستدرك للحاكم ٣/ ١٠٩.

إلى غيرها من المصادر المتوفرة التي يضيق المقام عن بيانها.

وقد ألف غير واحد من المحققين رسائل في أسانيد هذا الحديث.

وتستدل الشيعة بحديث السفينة وفيه يقول النبي ﷺ: إنّ مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق».

يرويه الحاكم بسنده إلى أبي ذر، لاحظ ج٣/ ١٥١، وبسنده إلى ابن عباس ج٣/ ١٤٩، ويرويه النبهاني في أربعينه ص ٢١٦، نقله عن الطبراني في الأوسط، ويرويه ابن حجر في صواعقه الباب الحادي عشر ص ٩١ و ١٤٩.

والشيعة تستدل بحديث الأئمّة الاثني عشر، فقد أخرج البخاري عن جابر ابن سمرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون اثنا عشر أميراً فقال كلمة لم أسمعها، فقال أبي: إنّه قال: كلهم من قريش»[1].

وأخرج مسلم عنه أيضاً، قال: دخلت مع أبي على النبي ﷺ فسمعته يقول: «انّ هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة» قال ثم تكلم بكلام خفي عليّ، قال: فقلت لأبي: ما قال؟ قال: «كلهم من قريش»[2] إلى غير ذلك من الأحاديث التي جاءت في المجاميع الحديثية. فما ظنك بحديث يرويه الشيخان؟ فهل ما يرويه الإمام البخاري موضوع فلو كان موضوعاً ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[3]؟!!

إنّ الأحاديث التي تنص على عدد خلفاء النبي ﷺ وتذكر سماتهم أكثر مما

١. صحيح البخاري: ٩/ ١٠١، كتاب الأحكام، الباب ٥١ (باب الاستخلاف).

٢. صحيح مسلم: ٦/ ٣. باب الناس تبع لقريش من كتاب الامارة.

٣. الأعراف: ١٨٥.

نقلناه ونقتصر في المقام على نقل السمات الواردة فيها حتى نتعرّف من خلالها على أصحابها فقد ورد فيها:

١ـ لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة.

٢ـ لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً.

٣ـ لا يزال الدين قائماً.

٤ـ لا يزال أمر أُمّتي صالحاً.

٥ـ لا يزال أمر هذه الأُمّة ظاهراً.

٦ـ حتى يمضي فيهم اثنا عشر.

٧ـ ما وليهم اثنا عشر خليفة كلّهم من قريش.

٨ ـ عددهم كعدد نقباء بني إسرائيل.

وهذه السمات والخصوصيات لا توجد مجتمعة إلاّ في الأئمّة الاثني عشر المعروفين عند الفريقين، وتلك الأحاديث من أنباء الغيب ومعجزات النبي ﷺ خصوصاً إذا ضُمّت إليها أحاديث الثقلين والسفينة وكون أهل بيت النبي ﷺ أماناً لِأهل الأرض كما أنّ النجوم أمان لِأهل السماء.

فالأئمّة الاثنا عشر المعروفون بين المسلمين، أوّلهم علي أمير المؤمنين عليه السلام، وآخرهم المهدي عليه السلام تنطبق عليهم تلك العلائم، ومن وقف على حياتهم العلمية والاجتماعية والسياسية يجزم أو يقطع بأنّهم هم المثل العليا في سماء الأخلاق والعلم والاحاطة بالقرآن والسنّة، وأنّه سبحانه بهم حفظ دينه عن التحريف وبهم اعتزّ الدين.

وأمّا ما ورد في بعض هذه الطرق: «كلّهم تجتمع عليهم الأُمّة» على فرض الصحّة، فالمراد تجتمع على الاقرار بإمامتهم جميعاً وقت ظهور آخرهم، و ـ على

فرض الإبهام ـ لا تمنع عن الأخذ بمضامين الحديث.

هلمّ معي نقرأ ماذا يقول غير الشيعة في حق هذه الأحاديث، وكيف يفسّرها بالخلفاء القائمين بالأمر بعد النبي ﷺ؟ ولننقل إليك شيئاً من كلامهم:

إنّ قوله اثنا عشر إشارة إلى عدد خلفاء بني أميّة وأوّل بني أميّة يزيد بن معاوية وآخرهم مروان الحمار وعدتهم اثنا عشر ولا يعد عثمان ومعاوية ولا ابن الزبير لكونهم صحابة، ولا مروان بن الحكم لكونه صحابياً أو لِأنّه كان متغلباً بعد أن اجتمع الناس على عبد الله بن الزبير، وليس على المدح بل على استقامة السلطنة وهم يزيد بن معاوية وابنه معاوية ثم عبد الملك ثم الوليد ثم سليمان ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ثم هشام بن عبد الملك ثم الوليد بن يزيد ثم يزيد بن الوليد، ثم إبراهيم بن الوليد ثم مروان بن محمّد [1].

يلاحظ عليه: إذا كان الرسول أراد هذا ولم يكن في مقام مدحهم فأي فائدة في الاخبار بذلك. ثم كيف يقول إنّها صدرت على غير سبيل المدح مع ما عرفت من السمات الواردة الصريحة في المدح فيقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً قائماً»، أو «أمر أُمّتي صالحاً» والعجب أنّه جعل أوّل الخلفاء يزيد بن معاوية بحجّة أنّه استقامت له السلطنة، إذ كيف استتبّت له السلطنة وقد ثار عليه أهل العراق في السنة الأولى وثار عليه أهل المدينة في السنة الثانية وكان مجموع أيّامه مؤلف من حروب دامية وقتل ونهب وتدمير.

١٩. *يقول: الإمامة عند الشيعة ركن وأصل من أُصول الدين ولكنها (أي الإمامة) أصل مذهبي في رأيهم فمن لم يعرف أمام زمانه ولم يبايعه عدّ*

١. فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ١٣/ ٢١٢ ط دار المعرفة. وفي المصدر: عدتهم ثلاثة عشر.

خارجاً عن المذهب ولكنّه في عامة المسلمين وربّما غلا بعضهم فكفره الخ».

مناقشتنا:

انّ الإمامة عند الشيعة من الأُصول ولكن انكارها لا يلازم الخروج عن الإسلام بل يوجب الخروج عن حظيرة التشيع ثم إنّ الكاتب يذكر في ذيل كلامه أنّ علياً لم يكفّر الخوارج الذين كفّروه وحاربوه» وليس لكلامه هذا صلة بعقائد الشيعة. فانّ الشيعة عن بكرة أبيهم يعدون أهل السنّة إخواناً وإن كانوا خاطئين في مسألة الإمامة.

٢٠. *قال: «ويزعم الاثنا عشرية أنّ أئمّتهم معصومون من الخطأ والمعصية، ولهم صفة المعرفة اللّدُنّية، دون حاجة إلى تلقين الرواة فيصح لهم أن يرووا عن رسول الله ﷺ مباشرة دون سند من الرجال، كما أنّهم يعلمون الغيب، ولا يموتون إلاّ باختيار منهم، ولذا يعتبرون عهد الوحي مستمراً إلى غيبة الإمام الثاني عشر، ولا يباح الاجتهاد في وجود الإمام، وإنّما يبدأ الاجتهاد الفقهي بعد تلك الغيبة»*.

مناقشتنا:

انّ هذه الفقرة تشتمل على أُمور صحيحة، وأُخرى خاطئة نشير إليها على وجه الاجمال لأنّ التفصيل يحوجنا إلى إفراد رسالة خاصة.

ألف ــ انّ الأئمّة الاثني عشر معصومون من الخطأ والمعصية بدليل انّهم عدل الكتاب وقرناؤه في قول النبي ﷺ: إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، إنّ اقتران العترة بالقرآن يدل:

أوّلاً: على أنّ عندهم علم القرآن وفهمه فهماً لائقاً بشأنه.

وثانياً: انّ التمسك بالكتاب والعترة يعصم من الضلالة.

وثالثاً: يحرم التقدم على العترة كما يحرم الابتعاد عنهم.

ورابعاً: انّ العترة لا تفارق الكتاب إلى يوم القيامة.

وخامساً: انّ الكتاب مصون من الخطأ وهكذا عدله.

مضافاً إلى قوله سبحانه: **﴿إنَّما يُريدُ اللهُ ليُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويُطِهِّرَكُمْ تَطْهِيرا﴾**.[1]

والمراد من الرِّجس هو العصيان والارادة ارادة كونية وهي التي لا تنفك فيها الارادة عن المراد والمراد من أهل البيت هم الذين أدخلهم رسول الله ﷺ تحت الكساء، وقال: اللهم انّ لكل نبي أهل بيت وهؤلاء أهل بيتي. ولما أرادت أُم سلمة أن تدخل تحت الكساء منعها وقال: أنت على خير ولست من أهل البيت.

ب ـ انّ علوم أئمّة أهل البيت عليهم السلام مستندة إلى مصادر مختلفة فتارة يروون الحديث عن آبائهم عن رسول الله ﷺ وما أكثر هذا القسم من الأحاديث في رواياتهم. وأُخرى يعتمدون على كتاب عليٍّ الذي أملاه الرسول وكتبه الوصي وهو في سبعين ذراعاً. وثالثة يعتمدون على تحديث الملك فهم محدَّثون والمحدَّث عبارة عمن يسمع كلام الملك ولا يرى عينه وقد عقد الإمام البخاري باباً للمحدَّث وعدّ منهم عمر بن الخطاب والمحدَّث غير الرسول والنبيّ ومن أراد الوقوف على واقع المحدَّث فعليه بشرح صحيح مسلم للإمام النووي فقد أسهب فيه الكلام.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال النبي ﷺ : لقد كان فيمن كان قبلكم من بني اسرائيل رجال يُكلّمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن

١. الأحزاب: ٣٣.

يكن من أُمتي منهم أحد، فعمر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من نبي ولا محدث[١].

وبذلك يعلم مدى صحّة كلمة الكاتب: من أنّ للأئمّة أن يرووا عن رسول الله مباشرة من دون سند من الرجال.

وذلك لما عرفت أنّ مصادر علومهم مختلفة فتارة يروون عن طريق آبائهم عن رسول الله ﷺ وأُخرى يروون عن كتاب عليّ وثالثة يروون عن طريق التحديث.

ج ـ قال: انّ الأئمّة يعلمون الغيب.

مناقشتنا:

انّ علم الغيب مختص بالله تبارك وتعالى، قال سبحانه: ﴿**قُلْ لا يَعْلَمُ مَن فِي السّمواتِ والأرضِ الغَيْبَ إلاّ الله**﴾ .[٢]

وأمّا تحديثهم عن الغيب فإنّما هو تعلم من ذي علم فلا مانع من أن يلهم الله سبحانه أولياءه أُموراً غيبية كما ألهم يوسف وهو شاب غير مبعوث ثم استمر الالهام إلى آخر عمره.

وليست أئمّة أهل البيت عليهم السلام بأقل شأناً من أُم موسى فقد أخبرها سبحانه عن مصير ولدها، وقد علم مصاحب موسى بمصير الغلام الذي قتله، وقال: ﴿**وأمّا الغُلامُ فَكانَ أبواهُ مُؤمِنَيْنِ فَخَشِينَا أن يُرْهِقَهُما طُغياناً وكُفْراً**﴾ [٣] إلى غير ذلك من الأُمور الغيبية التي أوقف الله سبحانه عباده الصالحين عليها من دون أن يكونوا أنبياء كرامة لهم، و إعظاماً لمقامهم.

د ـ يقول: ولذا يعتبرون عهد الوحي مستمراً إلى غيبة الإمام الثاني عشر.

---

١. صحيح البخاري: ٢/ ١٩٤ باب مناقب عمر بن الخطاب.

٢. النمل: ٦٥.

٣. الكهف: ٨٠.

مناقشتنا:

انّه خلط في كلامه الوحيَ التشريعي المختصَ بالأنبياء والرسل، بالتحديث الذي أطبقت الأُمّة على حصوله وعلى وجـود محدَّثين في الأُمة الإسلامية، فالأئمّة ملهمون، محدَّثون وليسوا أنبياء يوحى إليهم.

هـ ـ يقـول: ولا يبـاح الاجتهاد في وجود الإمام وإنّما يبـدأ الاجتهاد الفقهي بعد تلك الغيبة.

مناقشتنا:

أنّ الاجتهاد كان موجوداً بعد رحيل الرسول ﷺ إلى يومنا هذا ومفتوحاً بابه في وجـه الأُمة ولم يغلق أبـداً ويحرم تقليد المجتهـد لغيره وأمّا عـدم الاجتهاد عنـد وجود الإمام فـالمراد منه أن يكون الانسان في حضرة الإمام، وأمّـا البعيد عنه كمن يقطن خراسان والإمام في المدينة فله أن يجتهد على ضوء الكتاب والسنّة وأحاديث أئمّة أهل البيت وقد كان بين أصحاب أبي جعفر الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام مجتهدون كبار يعلم من رجع إلى أحوالهم.

٢١ . يقول: *«وفكـرة الإمامـة على هذا النحو تـرجع إلى آراء مغاليـة ظهرت في الفترات الأُولى من تـاريـخ المسلمين ثم ورثهـا الاثنا عشريـة واتخذوهـا أُصـولاً لهم وكـان مـن نتـائجهـا ايقـاع العـداوة والشقـاق بين جمهـور المسلمين»*.

مناقشتنا:

انّ فكـرة الإمامـة تـرجع إلى الكتـاب والسنّـة بشرط الفحص عن أسبـاب النزول، والتاريخ الصحيح، والروايات الواردة حول الآيات.

انّ النبي ﷺ هو الذي بذر فكرة الإمامة في حديث الدار عندما نزل قوله سبحانه:

﴿وأنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِين﴾ . [١]

ففي هذا اليوم قال النبي ﷺ في علي: «إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا» [٢].

ولما نزل قوله سبحانه: ﴿إنَّ الّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيرُ البَرِيّة﴾ قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيّين» [٣].

وفي رواية أُخرى، قال: «والذي نفسي بيده أنّ هذا (مشير إلى علي) وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة» [٤].

إنّ فكرة الإمامة تمخضت من حديث الثقلين وحديث السفينة وحديث الغدير إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ وإذا كان ثمّة اعتراض فانّما يتوجه إلى المعرضين عن هذه الأحاديث لا إلى المتمسكين بها.

انّ الذي أوقع العداوة والشقاق بين جمهور المسلمين هو معاوية وحزبه الأموي. فقد أصدر بياناً قاطعاً حاسماً بقتل الشيعة وقطع مِنَحهم وبذلك أغرى الحزب الأموي ومن والاه على الخوض في دماء شيعة أهل البيت.

---

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. مسند أحمد: ١/ ١١١، تاريخ الطبري: ٢/ ٦٢ ــ ٦٣، تاريخ الكامل: ٢/ ٤٠ ــ ٤١، إلى غير ذلك من المصادر المتوفرة يقف عليها من سبر كتب السيرة ــ عند سرد حوادث بدء الدعوة وكتب التفسير في تفسير الآية الآنفة في سورة الشعراء.

٣. الدر المنثور: ٦/ ٥٨٩. والآية ٧ من سورة البيّنة.

٤. نفس المصدر.

كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بدء عام الجماعة أن برئتُ الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته. فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليها زياد بن سمية وضمّ إليه البصرة، وكان تتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنّه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحتَ كل حجر ومدر ، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمَل العيونَ وصلَبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرّدهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق أن لا يجيزوا لأحد من شيعة عليّ وأهل بيته شهادة[1].

نسأل الكاتب، فمن الذي أوقع العداوة والشقاق بين جمهور المسلمين؟ ولو أردنا أن نسبر التاريخ لنرى قتلى الشيعة من صحابيهم إلى تابعيهم إلى تابعي التابعين لطال بنا المقام .

٢٢ . يقول: *«ومما يدل على بطلان مبدأ الإمامة بصيغته تلك عند الاثني عشرية فعل الإمام علي رضي الله عنه إذ بايع أبا بكر الصديق ونصره بنفسه وولده وكذلك بايع كلاً من عمر و عثمان بالخلافة الخ»* .

مناقشتنا:

العجب كل العجب أن نترك النصوص الواردة في الكتاب والسنّة والتاريخ الصحيح ونستدل بفعل عليّ وبيعته التي لم تثبت قط وإنّما يرويها رواة مدرسة الخلفاء وتكذبها رواة مدرسة أهل البيت. انّ الإمام لم يبايع قط، وإنّما تعاون مع

١ . ابن أبي الحديد، شرح النهج: ١١/ ٤٤ ـ ٤٦ .

الخلفاء لما رأى أنّ في ترك التعـاون معهم ضرراً أعظم من ذهاب ولايتـه وهو سلام الله عليه يشرح لنا سبب مساهمته وسكوته ورفقه.

إذ يقول عليه السلام: «فـوالله ما كـان يُلقى في روعي، ولا يخطـر ببالي، أنّ العـرب تزعج هذا الأمـر من بعده صلى الله عليه وآله عن أهـل بيته، ولا أنّهم مُنحُّـوه عني من بعـده. فما راعني إلاّ إنثيـال الناس على فلان يبـايعونه، فـأمسكت يدي حتى رأيـت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهلـه، أن أرى فيه ثلماً أو هـدماً تكـون المصيبة بـه عليّ أعظم من فـوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتقشع السحـاب، فنهضت في تلك الأحـداث حتى زاح الباطـل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه»[١].

فقد جـاء في كتاب الإمامـة والسياسة لابن قتيبـة الدينوري: الـذي ورد فيه ذكر حوادث حدثت في صـدر الإسلام والكتاب جدير بالمطالعـة لطالبي الحقيقة وقد جاء فيه أنّ أبا بكر أرسل عمر ومعـه جماعة إلى بيت فاطمة الذي كان فيه عليّ وجماعة من بني هاشم متخلفين عن البيعة فأزعجوا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله أيّما ازعاج حيـث نادت بأعلى صـوتها: يا أبتـا يا رسـول الله ماذا لقينـا بعدك مـن ابن الخطاب وابن أبي قحافة، فلما سمع القوم صـوتها وبكاءها انصرفوا باكين وكادت قلوبهم تتصدع وأكبادهم تتفطر وبقي عمر ومعـه قوم فأخرجوا علياً ومضوا به إلى أبي بكر فقالوا له بايع، قال: ان أنا لم أفعل فمه؟ قالوا: إذاً والله الذي لا إله إلاّ هو نضرب عنقك، قال: أتقتلـون عبد الله وأخا رسولـه؟ قال عمر: أمّـا عبد الله فنعم وأمّا أخا رسـوله فلا. وأبو بكر سـاكت لا يتكلم. فقال عمر: ألا تأمر فيـه بأمرك؟ فقال: لا أكرهه على شيء ما كانت فاطمة إلى جنبه[٢].

---

١. نهج البلاغة، الكتاب: ٦٢. ٢. الإمامة والسياسة: ١/ ١٣.

وهذا شاعر النيل حافظ إبراهيم المصري (المتوفّى ١٣٥١ هـ) يصف لنا كيف تم أخذ البيعة في قصيدته العمرية ويقول:

وقولة لعلي قالها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها

حرّقت دارك لا أبقي عليك بها إن لم تبايع وبنت المصطفى فيها

ما كان غير أبي حفص يفوه بها أمام فارسِ عدنان وحاميها [١]

أفبعد هذا يمكن أن يحتج بهذا الشكل من البيعة؟ والنار مؤججة تكاد أن تأكل الرطب واليابس وهذا هو الطبري (المتوفّى ٣١٠ هـ) يصف لنا كيفية أخذ البيعة ويقول: أتى عمر بن الخطاب منزل علي فقال لأحرقنّ عليكم أو لتخرجنّ إلى البيعة [٢].

وهذا ابن عبد ربه الأندلسي (المتوفّى ٤٩٥ هـ) يقول: بعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة وقال له: إن أبوا فقاتلهم. فأقبل بقبس من النار على أن يضرم عليهم الدار. فقالت: يا ابن الخطاب أجئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأُمة [٣].

٢٣. قال: *«ولو وجد هذا النص لأخذ به الصحابة رضوان الله عليهم الذين كانوا أشد حرصاً على طاعة الله ورسوله».*

مناقشتنا:

قد أخذ لفيف من الصحابة بنصوص الخلافة في حق علي عليه السلام من مشاهير بني هاشم وغيرهم.

١. ديوانه: ١/ ٨٤.

٢. تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٢ ط: دائرة المعارف.

٣. العقد الفريد: ٤/ ٢٦٠ ؛ولاحظ تاريخ أبي الفداء: ١/ ٣٥٦؛ وأعلام النساء: ٣/ ١٢٠٧.

و إليك فهرس أسماء خمسين صحابياً كانوا روّاد التشيع في عصر النبي وما بعده:

١ــ عبد الله بن عباس ٢ــ الفضل بن العباس ٣ـ عبيد الله بن العباس ٤ــ قثم بن العباس ٥ــ عبد الرحمان بن العباس ٦ـ تمام بن العباس ٧ـ عقيل بن أبي طالب ٨ ـ أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ٩ـ نوفل بن الحرث ١٠ـ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ١١ــ عون بن جعفر ١٢ــ محمد بن جعفر ١٣ـ ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ١٤ـ الطفيل بن الحرث ١٥ـ المغيرة ابن نوفل بن الحارث ١٦ـ عبد الله بن الحرث ابن نوفل ١٧ـ عبد الله بن أبي سفيان ابن الحرث ١٨ـ العباس بن ربيعة بن الحرث ١٩ـ العباس بن عتبة بن أبي لهب ٢٠ـ عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث ٢١ـ جعفر بن أبي سفيان بن الحرث.

هؤلاء من مشاهير بني هاشم، وأمّا غيرهم فإليك أسماء ثلة منهم:

٢٢ــ سلمان المحمدي ٢٣ــ المقداد بن الأسود الكندي ٢٤ـ أبو ذر الغفاري ٢٥ـ عمار بن ياسر ٢٦ـ حذيفة بن اليمان ٢٧ـ خزيمة بن ثابت ٢٨ــ أبو أيوب الأنصاري مضيِّف النبي ٢٩ــ أبو الهيثم مالك بن التيهان ٣٠ـ أُبي بن كعب ٣١ـ سعد بن عبادة ٣٢ـ قيس بن سعد بن عبادة ٣٣ـ عديّ ابن حاتم ٣٤ـ عبادة بن الصامت ٣٥ــ بلال بن رباح الحبشي ٣٦ــ أبو رافع مولى رسول الله ٣٧ــ هاشم بن عتبة ٣٨ـ عثمان بن حنيف ٣٩ـ سهل بن حنيف ٤٠ـ حكيم بن جبلة العبدي ٤١ـ خالد بن سعيد بن العاص ٤٢ـ ابن الحصيب الأسلمي ٤٣ــ هند بن أبي هالة التميمي ٤٤ـ جعدة بن هبيرة ٤٥ـ حجر بن عدي الكندي ٤٦ـ عمرو بن الحمق الخزاعي ٤٧ــ جابر بن عبد الله الأنصاري ٤٨ـ محمد بن الخليفة أبي بكر ٤٩ــ أبان بن سعيد بن العاص ٥٠ـ زيد بن صوحان العبدي.

هـؤلاء خمسـون صحابيـاً مـن الطبقة الأُولى للشيعـة، فمـن أراد التفصيل والوقوف على حياتهم وتشيّعهم فليرجع إلى الكتب المؤلفة في الرجال ولكن ببصيرة نافذة.

وأمّا الذين لم يأخذوا به فهؤلاء هـم الذين خالفوا الرسول ﷺ في غير واحد من المواقف. فقد خالفوه في المواقف التالية:

١ـ في الأنفال والأسرى في غزوة بدر.

٢ـ في أُحد حيث أعرضوا عن امتثال أمر النبي ﷺ في الوقوف في المضيق.

٣ـ في صلح الحديبية حيث نسبوا صلحه إلى الدنية في الدين.

٤ـ في تجهيـز جيش أُسامة حيث لم يخرجـوا معه و قاموا في معسكـر المدينة حتى أتى قبض النبي ﷺ فرجعوا إلى البلدة وفعلوا ما فعلوا.

٥ـ في احضار القلم والدواة في أُخريات عمره الشريف.

٦ـ زيادتهم في الأذان التثويب (أي الصلاة خير من النوم) حسب ما يرويه الإمام مالك في موطئه.

٧ـ حذف (حي على خير العمل) من فصول الأذان.

٨ـ الحيلولة بين فاطمة وميراثها.

٩ـ النهي عن متعة الحج.

١٠ـ اسقاط أسهم ذوي القربى من الخمس بعد وفاة الرسول.

تلك عشرة كاملة خالف فيها بعض الصحابة النبي ﷺ وكم لها من نظير.

والعجب أنّ الكاتـب ومن لفّ لفّه ألبسوا الصحـابة ثوب العصمـة فصار صمتهم وسكوتهم حجة إلهية فضلاً عن قولهم وكلامهم وفيهم المنافقون المندسون غير المعروفين حتى لدى النبي ﷺ.

قال سبحانه: ﴿ومِن أهلِ المدينةِ مَرَدُوا على النفاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[١].

انّه لا يرضى من الشيعة القول بعصمة اثني عشر إماماً، ولكنّه ومن لف لفه يرون أنّ الصحابة معصومون ولا يذكرون لهم أي ذنب ولا خطأ.

انّهم ينسبون في تواريخهم وتفاسيرهم أموراً إلى الأنبياء من الخطأ والعصيان بارتياح وبلا تحرّج فلاحظ كتب التفسير والتاريخ فانّها مليئة بنسبة الخطايا والذنوب إلى يوسف وداود وسليمان وغيرهم. وعند ما يذكر أحد شيئاً في حق الصحابة مما يعاب به عليهم، ثارت ثائرتهم وما هذا إلاّ لأنّ الصحابة بمنزلة الساتر الأوّل لهم ومنهم أخذوا دينهم، فإذا دبّ الجرح إليهم إنهار دينهم وفقههم، ولأجل صونهم عن أي ذنب وخطأ، حرّموا أي كلام حولهم واتفقوا على عدالتهم المساوية لعصمتهم.

٢٤. يقول: *«لو كانت الإمامة حُدِّدت في عليٍّ وأولاده كما يزعمون لعيَّن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ابنه الحسن رضي الله عنه خليفة للمسلمين من بعده»*.

مناقشتنا:

انّ ما ذكره تجاهل للواقع أو غفلة عن حقيقة الحال أو ناشىء عن قلة التتبّع. فقد تضافر النص من علي عليه السلام على وصيه وإمام المسلمين من بعده. وهو الحسن بن علي عليه السلام فمن أراد الوقوف على النصّ فليرجع إلى مظانه[٢].

---

١. التوبة: ١٠١.

٢. الكافي: ١/ ٢٩٧ باب النص على الحسن بن علي، واثبات الهداة: ٢/ ٥٤٣.

وأمّا ما نسب إلى علي من انّه سئل عمن يستخلفه من بعده، فقال: ولكن أتركُكم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ: فهو موضوع على لسانه. فرسول الله ﷺ لم يترك الأُمة سُدى وهو الذي يأمر الأُمة أن لا يموت واحد منهم بلا وصية فكيف يموت هو ﷺ بلا وصية؟

وقد كانت سيرة الخلفاء على الايصاء فقد أوصى أبو بكر إلى عمر بن الخطاب كما أنّ عمر بن الخطاب لم يترك الناس على أن يختاروا لأنفسهم خليفة باختيارهم فقام بتشكيل شورى سداسية أشبه بلُعبة سياسية منتهية إلى خلافة من كان يهوى خلافته.

وهذه هي السيدة عائشة حينما ضرب عمر في بطنه وأشرف على الموت قالت لعبد الله بن عمر: «أبلغ أباك سلامي وقل له لا تدع أُمّة محمد بلا راعٍ استخلف عليهم ولا تدعهم بعدك هملا»[1].

وهذا هو معاوية بن أبي سفيان قد أخذ البيعة لابنه يزيد في حياته بترغيب وارهاب.

فلو كانت السنّة الموروثة في الخلافة هي ترك الايصاء فلماذا خالفها الخلفاء حيث لم يتركوا الأُمّة سدى ونصبوا قائداً لها بأشكال مختلفة؟ أوليس الرسول ﷺ هو الأسوة كما قال سبحانه: **﴿لقد كانَ لَكُمْ فِي رسولِ اللهِ أُسوةٌ حَسنةٌ لِمَن كانَ يَرجُوَ اللهَ واليومَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرا﴾**[2]؟

وكل ذلك يشهد على أنّ الرواية موضوعة على لسان عليّ عليه السلام الذي لم يكن يتخلف عن الرسول ﷺ قيد شعرة.

---

١. ابن قتيبة الدينوري المتوفى: ٢٧٦ هـ، تاريخ الخلفاء الراشدين المعروف بالإمامة والسياسة: ١/ ٢٢.

٢. الأحزاب: ٢١.

٢٥ . يقول: *«بعدما بويع الحسن بالخلافة وتنازل لمعاوية عن الخلافة حقْناً لدماء المسلمين مما يسقط دعاوى القوم في بطلان ولاية أي إمام غير الاثنى عشر»*.

مناقشتنا:

انّ الإمام الحسن عليه السلام لم يتنازل عن الخلافة إلاّ بعد أن أتمّ الحجّة وأرسل كتائبه إلى ميادين الحرب فلما لم يجد في جيشه من يناصره وكادت الحرب تنتهي إلى إهراق دماء الصلحاء من شيعة علي عليه السلام بلا جدوى. اضافة إلى ما وصله من أخبار تهيُّؤ الروم للوثوب على بلاد الإسلام وعزمهم على سحق المسلمين بلا فرق بين أُموي وعلوي فلم يكن أمامه عليه السلام مناص إلاّ التنازل عن الخلافة لحفظ كيان الإسلام. كما تنازل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن كتابة «رسول الله» بعد اسمه الشريف في صلح الحديبية [1] فلم يكن التنازل حجة على أنّه ليس برسول الله.

٢٦ . يقول: *«ويعتقدون برجعة الإمام المهدي المنتظر قبل القيامة»* .

مناقشتنا:

انّ مسألة المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) مسألة إسلامية لا تختص بطائفة دون طائفة فقد أطبقت الأُمة على ظهور المهدي في آخر الزمان وليس حديث الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) حديثَ رواية واحدة أو اثنتين بل روايات متواترة ملأت الصحاح والمسانيد ومن أراد فليرجع إلى الكتب المؤلفة في هذا الصدد ولكن الإمام المهدي (عجل الله تعالى فرجه الشريف) عند الشيعة حيٌّ يُرزق وليس له رجوع وإنّما له ظهور بعد الغيبة

---

١ . السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٣١٧ ط الحلبي مصر، السيرة الحلبية: ٣/ ١٩ ط مصر.

الكبرى.

فليرجع الكاتب إلى الكتب التالية:

١ـ «البيان في أخبار صاحب الزمان» للكنجي الشافعي.

٢ـ «البرهان في علامات المهدي آخر الزمان»، لملا علي المتقي صاحب كنز العمال.

٣ـ «العرف الوردي في أخبار المهدي» للحافظ السيوطي.

٤ـ «القول المختصر في علامات المهدي المنتظر» لابن حجر.

٥ـ «عقد الدرر في أخبار الإمام المنتظر» للشيخ جمال الدين الدمشقي.

٦ـ وأخيراً «بين يدي الساعة» للدكتور عبد الباقي إلى غير ذلك من المؤلفات.

٢٧. ويقول: *«ويقول بعض غلاتهم برجوع الأئمّة الاثني عشر إلى الدنيا بعد أن يكون المهدي قد سبقهم إليها»*.

مناقشتنا:

القول بالرجعة عقيدة معروفة عند الشيعة ويعنون برجوع الأئمّة عليهم السلام أحد الأمرين إمّا رجوع دولتهم لا أنفسهم كما عليه جماعة من أعلامهم كالسيد المرتضى وغيره، أو رجوع أعيانهم وليس فيه أي بُعد وعجب فانّه سبحانه أحيى أُناساً من الأُمم السالفة.

يقول سبحانه: ﴿**أو كالّذي مَرَّ على قَرْيةٍ وهِيَ خَاويةٌ على عُرُوشها قَالَ أنّى يُحيي هذهِ اللهُ بعدَ مَوْتِها فأماتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثُمّ بَعَثَهُ ...**﴾[1].

١. البقرة: ٢٥٩.

وقد أحيى أصحاب الكهف بعد أن أنامهم نومة شبه الموت مئات السنين.

يقول سبحانه: ﴿وَكَذلِكَ بَعَثناهُمْ لِيَتَساءلُوا بَينَهُم ... ﴾[1].

إلى أن قال سبحانه: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِم ثَلاثَ مِائَةٍ سِنينَ وَٱزدادوا تِسعا﴾[2].

ومن أنكر امكان الرجعة فقد أنكر قدرة الله، وأمّا الوقوع فإن كانت الروايات متواترة نأخذ بها في مجال العقيدة و إلاّ فروايات الآحاد لا تفيد في مجالها ولا يؤخذ بها.

٢٨. يقول: *«وأوّل من قال بفكرة الرجعة ودعا إليها عبد الله بن سبأ اليهودي فأخذ يقول برجعة الرسول ﷺ مثل عيسى واستشهد بقول الله تعالى: ﴿انّ الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ »*.[3]

مناقشتنا:

انّ من المؤسف جداً أن ينسب فكرة الرجعة إلى شخصية اسطورية لم يثبت أي وجود لها بالوصف المذكور في التاريخ حيث إنّه يوصف فيه انّه بتجوّله في البلاد استطاع أن يقلب وضع المسلمين رأساً على عقب ويثيرهم ضد الخليفة عثمان بن عفان و ... ، انّ ذلك ممّا لا يقبله العقل السليم، ولا سيرة المسلمين أيام الخلفاء.

لم يكن ابن سبأ المزعوم بأعز من أبي ذر ـ ذلك الصحابي العظيم ـ عند عثمان فقد نفاه إلى الربذة فمات هناك وحيداً فلِمَ لم يقم به الخليفة في حق عدوه المزعوم حتى أفسد الجو وأثار الفتنة وانتهى الأمر إلى قتله في عقر داره كل ذلك

---

١. الكهف: ١٩.

٢. الكهف: ٢٥.

٣. القصص: ٨٥.

يؤكد أنّ ما ذكر له من الصفات مما صنعته يد الوضع ضد الشيعة، وانّ للمقال صلة موكولة إلى محلها.

إنّ أوّل من قال بالرجعة هو الذكر الحكيم.

يقول سبحانه: ﴿**ويَومَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمّةٍ فَوجاً مِمَّن يكَذِّبُ بآياتِنا فَهُم يُوزَعُون**﴾[١].

والآية لا علاقة لها بيوم القيامة فانّ الحشر هناك يتعلق بالجميع لا بالبعض على خلاف ما ورد في هذه الآية.

قال سبحانه: ﴿**ويَومَ نُسَيِّرُ الجِبالَ وتَرى الأرضَ بارزةً وحَشَرناهُم فَلَمْ نُغادِرْ مِنهُم أحداً**﴾[٢].

ثم إنّ من أنكر موت الرسول ﷺ وقال إنّه سيرجع ويقطع أيدي القائلين بموته هو عمر بن الخطاب.

فهذا ابن سعد يقول: «لما توفي رسول الله ﷺ بكى الناس فقام عمر بن الخطاب في المسجد خطيباً فقال: لا أسمعنّ أحداً يقول: إنّ محمداً مات ولكنه أرسل إليه كما أُرسل إلى موسى بن عمران فلبث عن قومه أربعين ليلة. والله انّي لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّه مات».

فقال العباس: ادفنوا صاحبكم، أيُميت أحدكم ميتةً واحدةً ويُميته إماتتين؟ وقد كان عمر بن الخطاب مصراً على انّه سيرجع حتى خطب أبو بكر فأمره بالسكوت فحمد الله وأثنى عليه ثم قرأ: ﴿**إنّكَ مَيّتٌ وإنّهُم مَيّتُون**﴾[٣] إلى آخر ما ذكر[٤].

وقد ذكر ذلك ابن هشام في السيرة النبوية أيضاً.

---

١. النمل: ٨٢ ـ ٨٣.

٢. الكهف: ٤٧.

٣. الزمر: ٣٠.

٤. طبقات ابن سعد: ٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

٢٩. يقول: *«انّ البابية فرقة دينية نشأت في إيران منشعبة عن الاثني عشرية أبان القرن الثالث عشر والميرزا حسن بهاء الله مؤسس البهائية وهي صورة متطوّرة من البابية اختلفت عنها في أهدافها وأساليبها»* .

مناقشتنا:

لم أزل أتعجب من الكاتب كيف ينسب البابية والبهائية إلى الشيعة الاثني عشرية!! وليست البابية والبهائية إلاّ حزبين سياسيين أُضفي عليهما طابعُ الدين أسسهما الاستعمار الغربي لايجاد الفوضى الدينية في الأوساط الشيعية كالحركة القاديانية في الأوساط السنية .

البهائية ـ بدّد الله شملهم ـ ينكرون الخاتمية ويدّعون النبوة بل الالوهية لزعيمهم حسين علي البهائي وقد ألف علماء الشيعة ردوداً عليهم واقصوهم عن مجامع المسلمين ومجالسهم أفهل يصح لنا أن ننسب إلى السنّة، المذهبَ القادياني وهو في حركته كحركة البابية والبهائية، غير أنّهما حدثا في إيران بين الشيعة، والقاديانية حدثت في الهند بين السنة.

٣٠. يقول: *«ويستبيح الاثنا عشرية سب بعض الصحابة وأزواج الرسول ﷺ وبخاصة السيدة حفصة والسيدة عائشة ـ رضي الله عنهما ـ ...»* .

مناقشتنا:

انّه من المستحيل أن يحبّ الانسان النبي ﷺ وفي الوقت نفسه يبغض من ضحّى بنفسه ونفيسه في طريق رسالته، والانسان العاقل لا يمكنه أن يجمع في قلبه حالتين متضادتين.

والذي دعا أهل السنّة إلى اتهام الشيعة بالسبّ هو اعتقادهم بعدالة

الصحابة كلّهم من أولهم إلى آخرهم، والشيعة الاثنا عشرية لا تعترف بذلك، بل أنّ الصحابة والتابعين وغيرهم من تابعي التابعين عندهم في صف واحد ولا ترى أي ملازمة بين كون الرجل صحابياً رأى النبي ﷺ، وبين كونه رجلاً مثالياً يكون القدوة والاسوة للمسلمين إلى يوم القيامة. بل تعتقد أنّ مصير الصحابة كمصير الآخرين فيهم الصالح والتقي والمخلص، وفيهم الطالح والمنافق ويدل على ذلك أُمور كثيرة نذكر منها ما يلي:

١ـ انّ المنافقين كانوا مندسّين بين الصحابة وحتى النبي ﷺ لم يكن يعلم بهم. قال سبحانه: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**﴾[1] ومع ذلك كيف يصح أخذ الدين والحكم الشرعي عن كل صحابي بمجرد أنّه رأى النبي ﷺ مع أنّه من المحتمل أن يكون منافقاً فلأجل ذلك يجب التمحيص والتفريق بين من ثبت إسلامه وإيمانه ومن ثبت نفاقه كعبد الله بن أُبي، والاجتناب عمن لم يعرف بأحد الأمرين: الايمان والنفاق.

٢ـ انّه سبحانه يقول: ﴿**إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾[2] فنسأل: من هذا الفاسق الذي جاء بخبر كاذب في عصر النبي ﷺ فهل كان واحداً من الصحابة أم كان من غيرهم؟

إننا إذا راجعنا أسباب النزول نرى أنّ الروايات متفقة على أنّ المراد بالفاسق هو الوليد بن عقبة الصحابي الذي كان عاملاً للخليفة عثمان في الكوفة وقد ألقى إليه زمام المسلمين من قبل الخليفة هناك.

ومن أراد أن يقف على رأي الشيعة في الصحابة فعليه بما يقوله إمام المسلمين علي عليه السلام في حقهم، يقول: «أين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على

---

١. التوبة: ١٠١.

٢. الحجرات: ٦.

الحق. أين عمار وأين ابن التيهان وأين ذو الشهادتين وأين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على المنية وأبردَ برؤوسهم إلى الفجرة. أوه على اخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه، وتدبّروا الفرض وأقاموه، أحيوا السنّة وأماتوا البدعة، دُعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد فاتبعوه»[١].

وهذا هو علي بن الحسين عليه السلام وهو الإمام الرابع للشيعة يذكر في بعض الأدعية صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويقول: اللّهم وأصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاءَ الحسَن في نصره وكانفوه، وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في اظهار كلمته وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته الخ»[٢].

أفهل يمكن بعد كل هذه التصريحات أن يُنسب سبَّ بعض الصحابة إلى عقائد الشيعة؟

نعم إذا كان للشيعة كلام حول بعض الصحابة فإنّما يذكرون أعمالهم ويصفون أفعالهم حسب ما ورد في القرآن والسنّة مثلاً السيدة عائشة مع ما لها من المكانة بين المسلمين ولكنهم لايمنعهم ذلك عن الحكم بخطئها في خروجها على عليّ عليه السلام لانّها كانت مأمورة بلزوم بيتها.

يقول سبحانه: ﴿... **وقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ولاَ تَبَرّجْنَ تَبرُّجَ الجاهليةِ الأُولى** ...﴾[٣] فما للنساء وقيادة الجيش الجرار ضد من أصفقت الأُمّة على خلافته وإمامته وبايعه وجوه الصحابة من الأنصار والمهاجرين إلاّ من شذ من الذين لا يعبأ بهم أمام غالبية المسلمين.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٨٢.

٢. الصحيفة السجادية، الدعاء الرابع.

٣. الأحزاب: ٣٣.

فتحليل حياة السيدة عائشة على ضوء الكتاب والسنّة والتاريخ الصحيح لا يعد سباً بل يعد فهماً للتاريخ وتعرفاً على الصحابيات عن كثب.

إنّ الذكر الحكيم قد تعرض إلى بعض أزواج النبي ﷺ وقال في حقهما: ﴿**إن تَتُوبا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما وإن تَظاهرا عليهِ فإنّ اللهَ هُو مولٰيهُ وجِبريلُ وصالِحُ المُؤْمِنِينَ والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظهِير**﴾[1].

فمن يُضفي على أُمهات المؤمنين ثوبَ العصمة فعليه دراسة هذه الآية بإمعانٍ بما لها من سببٍ للنزول.

إنّ أوّل من روّج سبَّ الصحابة هو معاوية بن أبي سفيان. فقد أمر بسبّ أوّل المؤمنين إسلاماً وإيماناً وأخا رسول الله علياً حتى سُبّ على صهوات المنابر بأمره قرابة ستين سنة ومع ذلك كلّه هو صحابي يدعى له كلما ذكر بـ ـ رضى الله عنه ـ. فما هذا التناقض في حياة الصحابة يا ترى؟!

وتبرير أفعال السابّين بالاجتهاد أشبه بالمهزلة، أفيصح الاجتهاد مع وجود الدليل القاطع؟ ما هذا الاجتهاد الذي يُبيح إراقة دماء آلاف من المسلمين في حروب الناكثين والقاسطين فما قيمة صحابي أو صحابية أثار أو أثارت فتنة قُتِل فيها الأبرار من الصحابة والتابعين.

والنبي الأعظم أعرف من كل الناس بصحابته ومكانتهم من الأمانة والديانة فها هو يحدثنا عن حالاتهم يوم القيامة:

روى أبو حازم عن سهل بن سعد قال: قال النبي ﷺ: «إنّي فُرَطُكم[2] على الحوض من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً وليردنّ علي أقوام أعرفهم ويعرفوني

---

١. التحريم: ٤.

٢. الفُرَط: المتقدم قومه إلى الماء ويستوي فيه الواحد والجمع.

ثـم يحال بيني وبينهـم ...» قـال أبـو حـازم: فسمع النعمان بـن أبي عيـاش وأنـا أُحدثهم بهذا الحديـث فقال: هكذا سمعت سهـلاً يقول، فقلت: نعم قـال: وأنا أشهد على أبي سعيـد الخدري لسمعته يـزيد فيقـول: «إنّهم مني» فقـال: إنّك لا تدري ما أحدثـوا بعدك فأقول: «سحقاً سحقاً لمن بدل بعـدي». أخرجه البخاري ومسلم [١].

وظـاهر الحديث أنّ المراد بقـرينة «بـدّل بعـدي» أصحابـه الذين عـاصروه وصحبوه وبقوا بعده مدة ثم مضوا. أخرج البخاري ومسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: يرد عليَّ يوم القيـامة رهط من أصحابي ـ أو قال من أُمّتـي ـ فيحلؤون عن الحوض فأقول: يا ربِّ أصحابي، فيقول: إنّـه لا علم لك بما أحدثوا بعدك انّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى [٢].

ثم قال: وللبخـاري: إنّ رسول الله ﷺ قال: «بينا أنـا قائم على الحوض إذا زمرة ، حتـى إذا عرفتهم خـرج رجل من بينـي وبينهم فقال: هلـم. فقلت: أين؟ فقال: إلى النار والله، فقلت: ما شأنهم؟ قـال: إنّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة أُخرى، حتى إذا عرفتهم خـرج رجل من بيني وبينهم فقال لهم: هلم. فقلت إلى أيـن؟ قـال: إلى النـار والله، قلت: مـا شأنهم؟ قـال: إنّهم ارتـدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلاّ همل النعم» [٣].

وظاهـر الحديث بقـرينة «حتى إذا عـرفتهم» وقولـه: «ارتدوا على أدبـارهم القهقرى» أنّ الذين أدركوا عصره وكانوا معه هـم الذين يرتدون بعده.

---

١. جامع الأُصول لابن الأثير: ١١/ ١٢٠، كتاب الحوض في ورود الناس عليه، رقم الحديث ٧٩٧٢ .

٢. جامع الأُصول: ١١/ ١٢٠ رقم الحديث ٧٩٧٣.

٣. جامـع الأُصول: ١١/ ١٢١، و «همل النعم» كنـاية عن أنّ النـاجي عـدد قليل، وقد اكتفينـا من الكثير بالقليل ومن أراد الوقوف على ما لم نذكره فليرجع إلى «جامع الأُصول».

٣١. يقول: *«يؤمن جمهور الاثني عشرية بالمصحف الذي بين يدي المسلمين ويعتقد بعض غلاتهم أنّ الإمام علياً كرم الله وجهه والسيدة فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ كان لهما مصحف يخالف هذا المصحف المتواتر بين المسلمين ...»*.

مناقشتنا:

انّ جمهور الشيعة الإمامية يعتقدون بصيانة القرآن عن التحريف كما اعترف به الكاتب وأمّا ما نَسب إلى بعضهم فقد أخطأ فيه من وجهين:

ألف ـ انّ القرآن الذي قام عليٌّ بجمعه هو نفس ذلك القرآن ولكن يختلف معه في ترتيب السور فقد جمع الإمام الذكر الحكيم حسبَ تاريخ النزول وهذا أمر مشهور بين المفسرين.

ب ـ وأمّا المصحف المنسوب إلى السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام فلا يراد به القرآن بل المصحف بمعنى الكتاب وهو ما حدّثتها به الملائكة من الحوادث المستقبلية وكتبه علي عن لسانها. فالمصحف بمعنى القرآن مصطلح متأخر وهو في عصر النزول بمعنى مطلق الكتاب، يقول سبحانه: ﴿**وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**﴾[1] والإمام الصادق عليه السلام يصف مصحف فاطمة ويقول: «والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد»[2].

ونحن بدورنا نتقدم بالشكر إلى الكاتب لأنّه لم ينسب التحريف إلى جمهور الإمامية كما فعله بعض المغفلين من الكُتّاب الجدد، ولكن يجب اضافة هذه النكتة انّه ليس كل من قال بالتحريف فهو غال وإنّما هو مخطئ في تلك الفكرة التي

---

١. التكوير: ١٠.

٢. الكافي: ١/ ٢٣٩ باب ذكر الصحيف ومصحف فاطمة.

تضاد الذكـر الحكيم حيث تكفل الله تعالى بحفظ القـرآن، وقال: ﴿إنّا نحنُ نَزّلنَا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لحافِظُون﴾ [١].

فليس القول بـالتحريف مـلازماً للغلو هـذا هو الإمام البخـاري ينقل عن عمر بن الخطـاب سقوط آية الـرجم من القرآن الكـريم [٢]. وقد روي انّ السيـدة عائشة تقول: إنّ سورة الأحزاب كانت مائتي آية [٣].

ولما كانت هذه الروايات تمس كرامة القائلين بالتحريف راحوا يؤوّلونها بأنّها من بـاب نسخ التـلاوة. فإذا كـان هذا التـأويل صحيحاً فليكـن صحيحاً في مـا يقولـه بعض الشواذ من الشيعة.

٣٢. يقـول: *«ويقصدون بالتقية أن يظهر الانسـان خلافَ ما يُبطن ... فالشيعي يتصرف بين خصومـه كما لو كان يـدين بعقيدتهم. وقد بـدأوا العمل بهذا المبـدأ منذ القـرن الـرابع الهجري، وقـد يصل العمـل بهذه التقية إلى حـد استبـاحة الكـذب والنفـاق ... ومع هـذا فـانّهم ينسبونها إلى أئمّتهـم بل يرفعونها إلى الرسول ﷺ فيما زعموا، مـع أنّه ﷺ ـ وأبنـاءه من علماء أهل البيت ـــ كانـوا أبعد النـاس عن التقيـة وكانـوا من الشجاعـة والاقـدام بحيث يتحملون المشاق الناجمة عن مواقفهم وآرائهم بلا خوف أو تردد»*.

مناقشتنا:

انّ الكاتب خلط بين النفاق والتقية، والنفاق اظهار الإيمان وابطان الكفر،

---

١. الحجر: ٩.

٢. صحيـح البخـاري: ٨/ ٢٠٨ ـــ ٢١١، بـاب رجـم الحبلى؛ وراجـع صحيح مسلـم: ٤/ ١٦٧ و ٥/ ١١٦، ومسند أحمد: ١/ ٢٣ و ٥/ ١٣٢ و ١٨٣، وسنن أبي داود، الحدود: ٢٣ و ....

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي في مقدمة تفسير سورة الأحزاب.

والتقيّة على خلافه فهي عبارة عن اظهار الكفر وابطان الإيمان. وشتان ما بينهما.

إنّ التقية سلاح الضعيف في مقابل القويّ الغاشم. سلاحُ من يبتلى بمن لا يحترم دمه وعرضه وماله، لا لشيء إلاّ لأنّه لا يتفق معه في بعض المبادئ والأفكار. انّما يمارس التقيّة من يعيش في بيئة صودرت فيها الحرية في القول والعمل والرأي والعقيدة فلا ينجو المخالف إلاّ بالصمت والسكوت مرغماً أو بالتظاهر بما يوافق هوى السلطة وأفكارها وربّما يتظاهر بموافقة السلطة لأجل أن ينجي مؤمناً كما كان عليه مؤمن آل فرعون.

فإذا كان هذا مفهوم التقيّة وعللها فهو مما يبرّره ويمضيه الشرع في غير واحد من آياته.

قال سبحانه: **﴿مَن كَفَرَ بالله من بعدِ إيمانِهِ إلاّ مَن أُكرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئنٌ بالإيمان﴾** [١].

وقال سبحانه: **﴿لا يَتَّخِذِ المؤمِنونَ الكافِرينَ أولياءَ من دونِ المُؤمِنينَ ومَن يفعلْ ذلكَ فليسَ مَن اللهِ فِي شَيءٍ إلاّ أن تتقوا مِنهُم تُقاة﴾** [٢].

وقد فسرت الآيتان بالتقية:

قال جمال الدين القاسمي: «استنبط الأئمة مشروعية التقية عند الخوف، وقد نقل الإجماع على جوازها عند ذلك الإمام مرتضى اليماني في كتابه ايثار الحق على الخلق» [٣].

ومورد الآيات وإن كان هو التقية في مقابل الكافر ولكن العلماء فهموا المعنى العام حتى في مقابل المسلم الظالم.

---

١. النحل: ١٠٦.

٢. آل عمران: ٢٨.

٣. جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل: ٤/ ٨٢.

قال الرازي ناقلاً عن الإمام الشافعي: «إنّ الحالة بين المسلمين، إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلت التقية محاماة عن النفس»[١].

انّ الشيعة والسنّة يتقون الكفار لصيانة النفس والنفيس غير أنّ الشيعي ربّما يتقي أخاه المسلم لا لتقصير أو قصور في الشيعي بل لخوفه بطش أخيه الذي دفعه إلى ذلك لأنّه يدرك أنّ الفتك والقتل مصيره إذا ما صرح بمعتقده الذي هو موافق عنده للدليل والبرهان.

إنّ الشيعي يتحاشى أن يقول: إنّ الله ليس له جهة، ولا يُرى يوم القيامة وانّ المرجعية العلمية والسياسية لأهل البيت بعد رحيل النبي ﷺ وأنّ حكم المتعة غير منسوخ وذلك لأنّه إذا صرح بمعتقده فقد عرّض نفسه ونفيسَه للمهالك والمخاطر.

قال جمال الدين القاسمي: «وزاد الحق غموضاً وخفاءً، خوف العارفين مع قلتهم من علماء السوء وسلاطين الجور، وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن واجماع أهل الإسلام. وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق وما برح المحقّ عدواً لأكثر الخلق وقد صح عن أبي هريرة، انّه قال: في ذلك العصر الأول: حفظتُ من رسول الله وعائين أمّا أحدَهما فبثثته في الناس وأمّا الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم»[٢].

ومن وقف على الظروف العصيبة التي مرّت بها الشيعة وجد المبرر الكافي لاعمالهم التقية صيانة لوجودهم وكيانهم فلو كان في التقية غضاضة فهي تتوجه على من حمَل الشيعة على التقية.

---

١. الرازي، مفاتيح الغيب: ٨/ ١٣ في تفسير الآية.

٢. جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل: ٤/ ٨٢.

٢٣. يقول: «*يقول بعض الغلاة بأنّ الله سبحانه يبدو له أحياناً غير الذي أراده فيرجع عن ارادته الأولى إلى الذي بدا له ... ولكن الاثني عشرية وإن قالوا بالبداء فهم يفسرونه بمثل ما قال به أهل السنّة من قضاء مبرم وقضاء معلق*».

مناقشتنا:

انّ مسألة البداء من المسائل التي كان يُتَحامل بها على الشيعة، وذلك لأنّ أهل السنّة يزعمون أنّ الشيعة يقولون بمقالة الغلاة (لو صحت النسبة إليهم) ولأجل ذلك ترى أنّ علماءهم يتحاملون على الشيعة في كتبهم الكلامية والتفسيرية بالبداء، ونحن نشكر الكاتب حيث خطا خطوة مباركة بتفسيره البداء تفسيراً صحيحاً.

وقد ورد البداء بهذا المعنى في كتب أهل السنّة حتى في صحيح البخاري في حديث الأبرص والأقرع والأعمى حيث ينقل عن النبي ﷺ، انّه قال: «بدا لله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً الخ» [1].

وواقع البداء هو عبارة عن تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة. وهو من ضروريات الإسلام والذكر الحكيم.

قال سبحانه: **﴿ولَو أنّ أهلَ القُرى آمَنُوا واتّقَوْا لَفَتَحنا عَلَيْهِم بَركاتٍ مِنَ السّماءِ والأرضِ ولكِن كَذّبُوا فأخذناهُم بِما كانُوا يَكْسِبُون﴾** [2].

فالقول بالبداء على طرف النقيض مما يزعم به اليهود قائلين: **﴿يدُ اللهِ مغلولةٌ غُلَّت أيدِيهِم﴾** [3] كما انّ الكاتب أمعن النظر ووصل إلى الحق في قضية

---

١. صحيح البخاري: ٤/ ١٧١، باب ما ذكر عن بني اسرائيل من كتاب بدء الخلق.
٢. الأعراف: ٩٦.
٣. المائدة: ٦٤.

البـداء، فالمرجـو أن يمعن النظر فيما نقـدمـه إليه في هـذا الكراس لكي يـرى أنّ وجهات نظرنا معه في أكثر مواضيع العقيدة والأحكام متقاربة.

٣٤. *ويقول في حق زواج المتعة: «هو الـزواج لمدة محدودة وكان الرسول ﷺ قد أباحه في بـدء البعثة ثم حرمـه تحريماً مؤبداً بعد ذلك وثبـت ذلك عنه كما حـرمه الإمـام علي بن أبي طالـب أيضاً وعمل الإمـام حجة ملـزمة عنـد الشيعة».*

مناقشتنا:

إنّ الكاتب لا يملك المعرفة التامـة حول زواج المتعة واكتفى بقوله «الزواج لمدة محدودة» وواقعه: عبارة عن تزويج المرأة الحرة الكاملة نفسها، إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع من نسب أو سبب أو رضاع أو احصان أو عدة أو غير ذلك من الموانع الشرعية بمهر مسمى إلى أجل مسمى بالموافقة والاتفاق. فإذا انتهى الأجل تبين الزوجة عنه من غير طلاق ويجب عليها مـع الدخول بها ـ إذا لم تكن يائسة ـ أن تعتـد عدة الطـلاق إذا كانت ممـن تحيض وإلاّ فبخمسة وأربعين يـوماً، وولـد المتعة ذكراً كان أو انثى يلحق بهما ويرثهما كما يرثـانه حسب ما أوصانا الله سبحانه به في كتـابه العزيـز وتشمله جميع العمومـات الواردة في الآباء والأبنـاء والأُمهات والإخوة والأخوات والأعمام والعمات.

وقد اتفق المسلمون على أنّ النبي ﷺ شرع زواج المتعة بعد الهجرة حتى أنّ مُعظم المفسرين قـالوا بنـزول قولـه سبحانـه: **﴿فَما ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾**[1] في متعة النساء.

---

١ ـ النساء: ٢٤.

وإنّما اختلفوا في نسخه وعدمه. فالشيعة الإمامية قالوا ببقائه على حكمه، وأهل السنّة ذهبوا إلى كونه منسوخاً وهذه مسألة فقهية لا تمس إلى العقائد بصلة، وإنّما أوردها الكاتب للازدراء بالشيعة، لكنه غفل عن النكات التالية:

الف ـ أنّ تشريع المتعة دليل على كمال الدين وتمام النعمة على الأُمة لأنّه حلٌّ شرعي لأزمةٍ جنسية تهدد دين الشباب والفتيات بالخطر. فلنفترض أنّ طالباً يدرس في الغرب وله من الشبق الجنسي ما لا يتركه ليلاً ونهاراً والذي يطلب غايته فأمامه طرق أربعة:

١ـ أن يتزوج نكاحاً دائماً وأنّى له ذلك إذ ليس له من المال والامكانيات ما تفي بذلك مضافاً إلى أنّه ربّما لا يرغب الاقامة في ذلك البلد وإنّما يريد الرجوع إلى وطنه والتزوج هناك من بنات بلده.

٢ـ أن يكبح جماح الشهوة وهو وإن كان أمراً حسناً وآية للتقوى لكنه لا يقوم به إلاّ الأمثل فالأمثل وليس كل طالب على تلك الدرجة من العفاف.

٣ـ أن يتردد إلى بيوت الدعارة وهذا ما تمنعه منه كرامته وعزة نفسه ودينه.

٤ـ أن يتزوج نكاحاً مؤقتاً على الشرائط المذكورة.

إذ ليس هناك طريق خامس حتى يكون حلاً للأزمة.

أو لسنا نقول إنّ التشريع الإسلامي أغنانا عن كل تشريع بشري، فعندئذ نسأل ما هو الحل الإسلامي لهذه المشكلة؟ ولا شك أنّ الحل منحصر بما قام به التشريع الإلهي في قرآنه وسنته.

ب ـ انّ أهل السنّة وإن كانوا ينكرون حلّية المتعة بقاءً ولكنهم يقولون بها بصورة أُخرى وقد أفتوا بصحة الزواج الدائم بنيّة الطلاق بعد مدّة وهذا نفس المتعة مادة ومعنى، وإن كان يختلف عنها صورة بل المتعة أفضل من هذا النوع من

الزواج. لأنّ فيه خداعاً وتزويراً لا يوجد في المتعة.

ج ـ والـذي لا ينقضي منه عجبي انّ الكاتـب يقول «وكان الـرسول ﷺ قد أباحه في بدء البعثة»، مع أنّ أقوالهم تنفي ذلك. لأنّهم يقولون:

أُبيحت ثم نهي عنها عام خيبر.

ما أُحلّت إلاّ في عمرة القضاء.

كانت مباحة ونهي عنها في عام الفتح.

أُبيحت عام أوطاس ثم نهي عنها.

ثم إنّ سورة النسـاء مدنية وحكم المتعة جاء في تلـك السورة فكيف يصح القول بأنّ النبي ﷺ أحلها في بـدء البعثة؟ على أنّ في بدء البعثـة لم يكن هناك أي تشريع مدني حتى تصل النوبة إلى زواج المتعة.

د ـ والعجب أيضـاً أنّه يقول إنّ الإمـام علياً عليه السلام حرّمه مـع أنّ المنقول عن الإمام عليه السلام انّه قـال: «لولا أنّ عمـر نهى عن المتعة ما زنـى إلاّ شقيّ» وقد أخـرجه الطبري بأسانيده[1].

نعم، أوّل من نهى عنه هو عمر بن الخطاب.

روى مسلم في صحيحـه عـن ابن أبي نضرة، قـال: كـان ابن عبـاس يأمـر بـالمتعة. وكـان ابن الـزبير ينهى عنهـا. فـذكـر ذلك لجابـر فقال: على يـدي دار الحديث، تمتعنا مع رسول الله ﷺ، فلما قام عمر، قال: إنّ الله كان يحل لـرسوله ما شاء بما شـاء، فاتموا الحجَ والعمرة وأبتوا نكـاح هذه النساء فلأن أوتي بـرجل نكح امرأة إلى أجلٍ إلاّ رجمته بالحجارة»[2].

---

١. تفسير الطبري: ٥/ ٩.

٢. صحيح مسلـم: ٤/ ١٣٠، باب نكـاح المتعـة، الحديث ٨، ط: محمـد علي صبيح؛ ومسنـد أحمد: ١/ ٥٢.

وهناك نصوص أُخرى طوينا الكلام عن نقلها وكفاك ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين. قال: «نزلت آية المتعة في كتاب الله ففعلناها مع رسول الله ﷺ ولم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء»(١).

وقد تضافر النقل عن عمر، انّه قال: متعتان كانتا في زمن النبي حلالاً وأنا أُحرمهما وأُعاقب عليهما.

٣٥ـ *يقول حول يوم عاشوراء: «يقوم عوام الشيعة بضرب ظهورهم بالسلاسل حتى يدموها، وضرب أجسادهم بالسيوف حتى يقطعوها حزناً على استشهاد الحسين، وفقده، وتطهراً من مسؤولية خذلانه»* .

مناقشتنا:

كان على الكاتب أن يشير إلى عظمة يوم عاشوراء وما كان عليه سيد أهل الإباء الذي علّم الناسَ الحميّة، والموتَ تحت ظلال السيوف اختياراً له على الدنية. وقد عُرِض عليه الأمان، فأبى الذل واختار الموت على ذلك.

إنّ ثورة الحسين منذ تفجرها صارت أُسوة وقدوة للمضطهدين على وجه البسيطة والمعذبين تحت نير الطغاة، وللمعانين من حكومات الجور والعسف في الأوساط الإسلامية وانحراف الدول والحكومات عن خط العدل والاقتصاد.

لقد لمس الثائرون أنّ ثورة الحسين كانت ثورة مبدئية إلهية، لأجل صيانة الدين عن التحريف والمجتمع عن الانحراف والاعتساف، فهذه الغاية دفعت

---

١. صحيح البخاري: ٦/ ٢٧، كتاب التفسير، تفسير قوله تعالى: ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج ...﴾ من سورة البقرة.

الإمام إلى الثورة والتضحيـة بشيخه وكهله وشابّه وطفلـه الرضيع حتى يتبين عمقُ الثورة فلما كانت ثورة الحسين ثورة منهجية نابضــة، فالشيعة بمواكبها ومظاهراتها يوم عاشوراء تريد أن يَبقى المنهج حيّاً غضّــاً مثمِراً عبر القرون.

نعم يجب أن تكون المواكـب والمظاهــرات موافقـة للأُصــول والموازيــن الشرعية. وهذا ما أهاب به غير واحد من علمائنا.

ولكن يـا للأسف أنّ بعض الجهلـة، أعداء أئمّة أهـل البيت، حَمَلَة النـزعة الأمويّة، شنوا هجوماً شنيعاً على المواكب الحسينية أسفر عنه قتل الأبرياء من محبي أئمة أهل البيت عليهم السلام وهـؤلاء هم أعـداء الرسـول وآله وبما أنّهم لا يتجـرّأون على إظهار العداوة والبغضاء لصـاحب الرسالة وأهل بيته لذا يـوجّهون سهام حقدهم إلى شيعتهم ومحبيهـم. وهنـاك من يجد في نفسـه الجرأة فيضيـف إلى سب الشيعـة وقتلهم، سب وقتل أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير اكتراث وقد قتل بنـوا أُمية السبط الحسين عليه السلام تشفياً لغليل قلوبهم من قتل آبائهم الكـافرين في بدر و أُحد وها هو يزيد الكافر يتشدق بهذه الأبيات ويقول:

ليـت أشيــاخـي ببــدر شهــدوا   جــزع الخــزرج مـن وقـع الأسـل
لأهلّـــوا واستهلّــــوا فرَحــــا   ثـم قالــوا يــا يزيــــد لا تشـــل

٣٦. يقول حول الخمس: *«يرى الاثنا عشرية وجوب دفع الخمس من دخل كل اثني عشري في كل عام إلى مراجع المذهب ... وهـم يرون ذلك بديلاً عن الزكـاة، وفي بعض المجتمعات التي فرضـت فيها الزكـاة الشرعية بحكم القانون ـ كباكستان ـ رفض الاثنا عشرية دفعها للدولة بسبب دفعهم هذا الخمس إلى مراجعهم الدينية الخاصة»* .

مناقشتنا:

الشيعة تعتقد بأنّ الغنيمة الواردة في قوله سبحانه: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [1]. عامة لكل ما يفوز به الانسان سواء كان في ساحة الحرب أو غيرها.

قال الأزهري: «الغنم، الفوز بالشيء والاغتنام، انتهاز الغنم» [2].

قال الراغب: الغنم معروف والغُنم اصابته والظفر به، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العدي وغيرهم. قال: ﴿**واعلموا أنّما غنمتم من شيء**﴾، ﴿**فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا**﴾ [3] المغنم: ما يغنم وجمعه مغانم. قال: ﴿**فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**﴾ [4].

إلى غير ذلك من النصوص لأهل اللغة المعربة عن كون المادة موضوعة لأوسع مما يفوز به الانسان في ساحات الحروب، حتى انّه سبحانه يستعمله في المغانم الاخروية قال تعالى: ﴿**فعند الله مغانم كثيرة**﴾ وقد استعملت المادة في الحديث النبوي في المعنى الأعم.

روى ابن ماجة في سننه، انّه جاء عن رسول الله: «اللهم اجعلها (الزكاة) مغنماً ولا تجعلها مغرماً» [5].

ونزول الآية في الغنائم الحربية لا يكون مخصصاً، ولأجل ذلك لا يختص الخمس عند أهل السنّة بما يفوز به الانسان في الحروب.

---

١. الأنفال: ٤١.
٢. تهذيب اللغة، مادة غنم.
٣. الأنفال: ٦٩.
٤. النساء: ٩٤.
٥. سنن ابن ماجة، كتاب الزكاة، باب ما يقال عند اخراج الزكاة، الحديث ١٧٩٧.

ففي مسند أحمد وسنن ابن ماجة، واللفظ للأوّل عن ابن عباس، قال: «قضى رسول الله ﷺ في الركاز الخمس»[١].

وقد تضافر هذا الحديث في غير واحد من المجاميع الحديثية.

وأمّا أرباح المكاسب فقد ذهبت الشيعة فيها إلى لزوم اخراج الخمس اقتداءً بأئمّة أهل البيت، وقد ورد اخراج الخمس فيها في روايات أهل السنّة، و إليك بعض ما ورد:

لما وفد عبد القيس إلى رسول الله ﷺ قالوا: إنّ بيننا وبينك المشركين و إنّا لا نصل إليك إلاّ في الأشهر الحرم فمرنا بجمل الأمر، ان عملنا به دخلنا الجنّة وندعوا إليه من ورائنا. فقال: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع:

آمركم بالإيمان بالله وهل تدرون ما الإيمان؟ شهادة أن لا إله إلاّ الله وأقام الصلاة وايتاء الزكاة وتؤتوا الخمس من المغنم»[٢].

ومن المعلوم أنّ النبي ﷺ لم يطلب من بني عبد القيس أن يدفعوا غنائم الحرب كيف وهم لا يستطيعون الخروج من أحيائهم في غير الأشهر الحرم خوفاً من المشركين فيكون المراد أن يدفعوا خمس ما يفوزون به و يربحونه.

وهناك روايات أُخرى تدلّ على لزوم دفع خمس كل ما يفوز به الانسان تركنا ذكرها للاختصار.

فمن أراد التوسع فليرجع إلى كتابنا «الاعتصام بالكتاب والسنّة» ص ١٠٠ ـ ١٠٥.

فما ذنب الشيعة إذا عملت بروايات رواها اخوانهم أهل السنّة، وتركهم

---

١. مسند أحمد: ١/ ٣٠٤، سنن ابن ماجه: ٢/ ٨٣٩ ط: ١٣٧٣.

٢. صحيح البخاري: ٩/ ١٦٠، باب ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ من كتاب التوحيد.

العمل بها لا يكون مبرراً لترك غيرهم الذين قامت الحجة عندهم على لزوم دفع الخمس.

فما ذكره من أنّ الشيعة يرون الخمس بديلاً عن الزكاة فهو كذب وافتراء وهذه مئات الكتب الفقهية التي جاء فيها الخمس تالياً للزكاة.

وما نقله عن بعض المجتمعات ـ على فرض الصحّة ـ لا يكون دليلاً على أنّ منعهم يمت إلى المذهب بصلة، وما علّلوا به من أنّهم يدفعون الخمس إلى مراجعهم الدينية غطاء وواجهة للمنع. والسبب الواقعي للمنع عبارة عن أنّ للزكاة مصارف معيّنة عند الشيعة وهم يعلمون أنّ الحكومات لا تصرفها في مصارفها الواقعية لعدم التزام أصحاب السلطة بالعمل بالواقع غالباً.

٣٧. يقول: *«وقد أحدثت الاثنا عشرية في الصلاة أُموراً منها «السجود على التربة الحسينية» ذلك لأنّهم يقدسون تراب مدينة كربلاء (النجف) التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما فلا يكاد يخلو بيت من بيوت الشيعة من تلك التربة. ومن مظاهر تقديسهم لها أنهم يقومون بالسجود عليها وتقبيلها والتبرك بها، بل وأكل قليل منها للشفاء على الرغم من أنّ الفقه الشيعي يحرم أكل التراب كما يصنعون من هذه التربة أشكالاً مختلفة يحملونها في سفرهم ويسجدون عليها في صلواتهم التماساً للقبول والبركة»*.

مناقشتنا:

انّه سبحانه هو المسجود له والأرض وما ينبت منها عند الشيعة هو المسجود عليه، فيشترط في فقه الشيعة أن يكون المسجود عليه هو مطلق الأرض أو ما أنبتته مما لا يؤكل ولا يلبس، ولا تشترط في صحة الصلاة، السجود على التربة الحسينية

أخذاً بالمتضافر عن النبي ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»[١].

وليس المراد من الأرض كل ما يداس حتى يعم الفرش والسجاد بل المراد هو التراب والحصى والحجر وما أشبهها وذلك لأجل قوله ﷺ «وطهوراً»، بمعنى مطهراً من الحدث ومن المعلوم أنّه لا يجوز التيمم إلاّ على الصعيد الطيب. كما قال سبحانه: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾[٢] وهو الأرض لا كل ما يُداس.

وهناك روايات تدل على أنّ السيرة في عصر الرسول ﷺ كانت جارية على السجود على التربة لا على الثياب ولا على الفرش.

روى جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: كنت أصلي مع النبي ﷺ الظهر فآخذ قبضة من الحصى فأجعلها في كفي ثم أحولها إلى الكف الأُخرى حتى تبرد ثم أضعها لجبيني حتى أسجد عليها من شدّة الحر[٣].

يقول البيهقي معلقاً على الحديث: قال الشيخ: ولو جاز السجود على ثوب متصل به لكان أسهل من تبريد الحصى بالكف ووضعها للسجود.

ونقول: لو جاز السجود على مطلق غير الأرض سواء أكان متصلاً أم منفصلاً كالمناديل لما وصلت النوبة إلى تبريد الحصى.

روى الحسن، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في شدّة الحر فيأخذ أحدنا الحصباء في يده، فإذا برد، وضعه وسجد عليه[٤].

وهناك روايات أُخرى تدل على هذا الأمر.

فعن خالد الجهني قال رأى النبي صُهيباً يسجد كأنّه يتقي التراب، فقال

---

١. صحيح البخاري: ١/ ١٩١، كتاب التيمم، الحديث ٢.

٢. المائدة: ٦.

٣. سنن البيهقي: ١/ ٤٣٩، مسند أحمد: ٣/ ٣٢٧.

٤. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٥، باب الكشف عن الجبهة.

له: تربّ وجهك يا صهيب [١].

روت أُم سلمة: رأى النبي غلاماً لنا يقال له أفلح ينفخ إذا سجد، فقال: يا أفلح، تربّ [٢].

وهناك قسم ثالث من الروايات نرى النبي ﷺ فيها يحسر العمامة عن جبهة المصلي لكي لا يسجد عليها.

روى صالح بن حيوان السباعي أنّ رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسجد بجنبه وقد اعتم على جبهته. فحسر رسول الله ﷺ عن جبهته [٣].

وما ذكرناه غيض من فيض.

إنّ الشيعة لا يلتزمون بكون التربة التي يسجد عليها لابد أن تكون من تربة كربلاء، بل يسوغون السجود على التربة من أي مكان كانت.

نعم يستحب أن يكون المسجود عليه من تربة كربلاء وذلك لأنّ تلك التربة عجنت بدم المجاهد الشهم أبي الشهداء الحسين بن علي عليه السلام الذي ضحى بنفسه ونفيسه من أجل كسر جبروت الطواغيت واحياء الإسلام.

وأمّا الالتزام باتخاذ تربة طاهرة طيبة في البيوت فسببه عدم تمكّن المصلي من السجود في جميع الأمكنة على الأرض الطيبة.

لأنّ البيوت والمساجد مفروشة غالباً فلا مناص من اتخاذ أقراص ترابية طاهرة يتمكن من السجود عليها.

وهذه القاعدة كانت ثابتة عند السلف الصالح وإن غفل التاريخ عن نقلها فقد روي: أنّ التابعي الفقيه مسروق بن الأجدع المتوفى عام ٦٢ كان

---

١. و ٢. كنز العمال: ٧/ ٤٦٥ و ٤٥٩.

٣. سنن البيهقي: ٢/ ١٠٥.

يصحب في أسفاره لبنة من المدينة يسجد عليها. كما أخرجه ابن أبي شيبة في كتابه المصنّف، باب من كان حمل في السفينة شيئاً يسجد عليه. فأخرج باسنادين أنّ مسروقاً كان إذا سافر حمل معه في السفينة لبنة يسجد عليها[١].

٣٨. *ثم إنّ الكاتب ختم المقال بالنشاط السياسي الأخير للشيعة وانتهى كلامه إلى القول بولاية الفقيه بمفهومه السياسي ونقل عمن يزعم أنّ ولاية الفقيه ليست من مسلمات المذهب وأنّ الأقرب إلى موقف الأئمّة هو تقديم وحدة الأُمّة على مسائل الإمامة ... .*

مناقشتنا:

انّ من مفاخر الشيعة الإمامية انّهم قاموا بتشكيل دولة إسلامية وسط أجواء سادها العداء السافر للدين واعلان انتهاء عصر الحياة الدينية.

فأثبتوا بعملهم هذا أنّ الإسلام دين صالح للماضي كما هو صالح للحال والمستقبل وانّه لم ينته عصر الدين وانّ الجوهر الديني له جذور راسخة لا يقهر أمام تلك التيارات المادية.

وأمّا مسألة ولاية الفقيه فالبحث عنها لا يناسب هذا الكراس واجمال القول فيها: أنّ الحكومة الإسلامية حكومية الهية منهجية لا يليق بادارتها إلاّ الحاكم الإلهي العارف بالكتاب والسنّة والواقف على حاجات الأُمّة والقادر على تطبيق الأحكام الشرعية على الساحة الاجتماعية وليس هو إلاّ المجتهد العارف بالإسلام، المعبر عنه بالفقيه ويعبر عن صلاحيته الشرعية لإدارة شؤون المجتمع، بولاية الفقيه، وليس ذلك بدعاً فانّ هناك جماعة من أهل السنّة يشترطون في الحاكم الاجتهاد والعرفان بالكتاب والسنّة.

---

١. ابن أبي شيبة، المصنف: ١/ ٤٠٠.

والعجب أنّ الكاتب زعـم أنّ ولاية الفقيه تزاحم وحدة الأُمّـة مع أنّ ولاية الفقيه سلطة في يد الفقيه يمكنه استخـدامها في سبيل تأليف الأُمّة وجمع كلمتهم ولمّ شملهم، فهـا نحن نرى أنّ قائد الجمهـورية الإسـلامية في إيران قـام بتأسيس المجمع العالمي للتقريـب بين المذاهب الإسلامية. والذي قام بـاصدار مجلة تحت عنوان: «رسالة التقريب».

فهل كانت ولاية الفقيه مضادّة لوحدة الأُمّة يا ترى؟!

هذا غيض من فيـض وقليل من كثير ذكرناه لإيقاف الكـاتب على الهفوات والأخطاء الواضحة في كـلامه وفيه عبرة لمن يأخذ بالقلم ويكتـب عن الشيعة بلا مراجعة مصادرهم.

هذه التعـاليق الموجزة ربما تثير حفـائظ من لا يحب وحدة الكلمـة واتفاق الأُمة لكنّها تقع موقع القبول ممن يحبّ تقريب الخُطى وتقارب المسلمين في الوقت الذي يئن المسجد الأقصى أُولى القبلتين ومسرى سيد الثقلين من وطأة الصهاينة.

وفي نهايـة المطاف نحن على استعـداد لإرسال مقـال حـول الفرقـة الاثني عشرية يتضمّـن تاريخ نشـوئها والأُصـول التي تتبنّاهـا، والفروع التي تـدين بها، والخدمات التي قدّمتها إلى الأُمّة و تُبيّـن مساهماتها في بناء الحضارة الإسلامية.

والحمد لله على ما هدانا.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١٠ صفر المظفّر عام ١٤١٧

الرسالة الثالثة

الدفاع عن الحقيقة

الغايـة من كتابة هـذا المقال هو الدفـاع عن حقيقة واضحة كتمهـا كاتب باسـم جبرين في السعودية في جـوابه على سؤال شخـص سأله عن حليـة ذبائح الشيعة وطعامهم، فأجاب بما تقرأونه في رسالته المختصرة.

ولما كانت الـرسالة قاسية بمكـان وبعيدة عن أدب الإسلام وروحـه معربة عن جهله بأُصول الإسلام وفروعـه وما أطبق عليه أئمّته في مجال الإسلام والإيمان، قمنـا بتأليـف هذه الـرسـالـة، وبعثنـا بها إلى السعـودية، لتنشر هنـاك كـي يقف المسلمون على الخطط التي يحيكها الاستعمار بغية زرع بذور التفرقة في أوساطهم.

❋ ❋ ❋

لا يشك أيّ ذي مسكـة إلى ضرورة توحيـد الصفوف ورصّهـا للحفاظ علىٰ كيان الإسلام والمسلمين ومواجهة المؤامرات الخطيرة في الوقت الذي يتحالف فيه أعداء الإسـلام، للقضاء علىٰ الصحـوة الإسلامية الصـاعدة ... من خـلال إثارة النعرات الطـائفية التي تهدف إلىٰ شـق العصا وتفـريق الصفوف، والحيلـولة دون تقارب طـوائف المسلمين لتحقيق الـوحدة المطلـوبة التي يخشـاها المستعمـرون، ويرهبها أعداء الإسلام من الصهاينة والصليبيّـن الجدد.

نرىٰ أنّ رجلاً يعد نفسه فقيهـاً مفتياً يقوم بتكفير طائفة كبيرة من المسلمين. لهم جذور في التاريخ، وخدمات جليلة في الحضارة الإسلامية. ويجيب علىٰ سؤال بعثه إليه رجلٌ مجهول الاسم والهوية، و إليك السؤال والجواب:

السؤال:

يوجد في بلدتنـا شخص رافضي يعمل قصاب [1]، ويحضره أهل السنّة كي يذبح ذبائحهم. وكذلك هناك بعض المطـاعم تتعامل مع هذا الشخص الرافضي وغيره من الـرافضة الـذين يعملـون في نفس المهنـة.. فما حكم التعـامل مع هـذا الرافضي وأمثاله؟ وما حكم ذبحه وهل ذبيحتـه حلال أم حرام؟ أفتونا مأجورين، والله ولي التوفيق.

الجـواب:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وبعد فلا يحل ذبح الرافضي، ولا أكل ذبيحته فـإنّ الرافضة غالباً مشركون، حيث يدعون علي بن أبي طالب دائماً في الشدة والرخاء، حتىٰ في عرفات والطواف والسعي، ويدعـون أبناءه وأئمتهم كما سمعناهم مـراراً. وهذا شرك أكبر، وردة عن الإسلام يستحقّون القتل عليها كما هم يغالون في وصف علي ـ رضي الله عنه ـ، ويصفونه بأوصـاف لاتصلح إلاّ لله، كما سمعناهم في عـرفات، وهم بـذلك مرتـدّون حيث جعلوه ربّاً وخـالقاً ومتصرّفاً في الكون ويعلم الغيـب ويملك الضر والنفع، ونحو ذلك كما أنّـهم يطعنون في القرآن الكريم، ويزعمـون أنّ الصحابة حرّفوه، وحذفوا منه أشياء كثيرة متعلّق بأهل البيت وأعدائهم. فلا يقتدون به ولا يرونه دليلاً.

١. هكذا وردت في نص سؤال السائل والصحيح (قصاباً) لكونها حال.

كما أنّهم يطعنون في أكابر الصحابة كـالخلفاء الثلاثة وبقية العشرة وأُمهات المؤمنين. فمشـاهير الصحابـة كأنـس وجابـر وأبي هـريـرة ونحوهـم فلا يقبلـون أحاديثهم لأنّهم كفّار في زعمهم، ولايعملون بأحاديث الصحيحين إلاّ ما كان عن أهل البيت ويتعلّقون بأحاديث مكذوبة ولا دليل فيها علىٰ ما يقولون، ولكنّهم مع ذلك يفتون فيقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

ويخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك. ويقولون من لا تقية له فلا دين له فلا تقبل دعواهم في الآخرة و ... الخ.

فالنفـاق عقيدة عنـدهم كفىٰ الله شرهـم وصلىٰ الله علىٰ محمد وآلـه وصحبه وسلم.

جبرين

١٤١٢/٢/٢٢

هذا هو نص السؤال والجواب وقبل أن نخوض في الإجابة علىٰ ما ساق من التهم علىٰ الشيعة. ننبه علىٰ أُمور:

١ ـ السنّة الـرائجة في الإجابة علىٰ الأسئلة الفقهيـة هو الاقتصار علىٰ نفس الفتـوىٰ. وكـان علىٰ المفتـي أن يقتصر علىٰ تحريم الأكـل مـن دون حـاجـة إلىٰ التفصيل. وما جاء به يعرب عن أنّ هناك مؤامرة، وأنّ السؤال والجواب دبِّرا بليل. فا لمقصود إيجاد القلق و إشاعة التهم ضـد الشيعة سواء أصحَّ السؤال أو لا، وهل كان هناك سائل أم لا ؟.

٢ ـ إنّ الكلمة التي يستخدمها العـوام في التعبير عن هذه الطائفة هو لفظ الشيعة، وأمّـا الرافضي وهـي كلمة يستخـدمها أصحـاب المقالات وكتّـاب الملل

والنحل. فاستخدام كلمة الرافضي بدل كلمة الشيعة يرشدنا إلىٰ أنّ السؤال كان مصطنعاً ممّن لهم ممارسة في تكفير الفرق.

٣ ـ سواء أصحت تلك التهم أم لا فقد أسماهم النبي ﷺ بشيعة علي بن أبي طالب وقال: إنّ هذا ـ علي عليه السلام ـ وشيعته لهم الفائزون، وهم اختاروا لأنفسهم تلك الكلمة. فاستخدام الرافضي في هذا المجال من قبيل التنابز بالألقاب، وهو أمر محرم علىٰ كل تقدير.

٤ ـ إنّ المجيب يقول: فإنّ الرافضة غالباً مشركون، وهذا يدل علىٰ أنّ فيهم موحدين، أو ليس من واجب المفتي أنّ يسأل السائل عن القصاب الذي يذبح ذبائحهم هل هو من الغالب أو من غيرهم، فلا يحكم علىٰ البريء بحكم المجرم. ومن أدراه أنّ الذي يذبح هو من المشركين؟!

كل ذلك يسوقنا إلىٰ أنّ الهدف لم يكن إرشاد العوام ولا الإجابة على السؤال وإنّما كان الهدف إيجاد البلوىٰ والشغب وضرب المسلمين بعضهم ببعض لتصفو المياه للمستعمرين.

إذا وقفت علىٰ ذلك فنرجع إلىٰ الإجابة عن التهم الباطلة التي أُجيب عنها عشرات المرات. ونحن نعلم أنّ خلافاً دام قروناً لا يرتفع بهذه الرسالة وأمثالها. غير أنّا نقوم بواجبنا الذي أدلىٰ به الرسول ﷺ في كلامه المشرق: «اذا ظهرت البدع في أُمتي فليُظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[1]. وأي بدعة أفظع من تكفير أُمة كبيرة تعد ربع المسلمين أو أكثر وليس لهم جريمة سوىٰ حب أهل البيت الذين أمر الله سبحانه بمودتهم وسوىٰ المشايعة للثقلين الذين أمر النبي ﷺ بالتمسك بهما ؟!!

١. الكافي: ١/ ٥٤، باب البدع والرأي، الحديث ١.

وحدة الأُمة أُمنية النبي ﷺ الكبرىٰ:

إنّ وحدة الكلمة كانت أُمنية النبي ﷺ العليا، فقد كان رسول الإسلام محمّد ابن عبد الله ﷺ يهدف دائماً إلىٰ توحيد المسلمين ويحافظ أبداً علىٰ وحدة صفوفهم، ويسعىٰ إلىٰ إطفاء أية نائرة أو ثائرة تهدد هذه الوحدة.

فيوم دخل شاب يهودي مجتمع الأوس والخزرج الذين جمعهم الإسلام بعد طول نزاع وتشاجر وتقاتل، وأخذ يذكّرهم بما وقع بينهم في عهد الجاهلية، من قتال، فأحيىٰ فيهم الحميّة الجاهليّة حتىٰ استعدّوا للنزاع والجدال، وكادت نيران الفتنة تثور من جديد بينهم بعد أن أشعلها ذلك اليهودي المتآمر، وتواثب رجلان من القبيلتين وتقاولا، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتىٰ جاءهم، فقال:

«يا معشر المسلمين! الله الله أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله بالإسلام وأكرمكم به وقطع عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر، وألّف بين قلوبكم» [١].

فإذا كانت هذه هي أهمية الوحدة في الأُمة الإسلامية فما جزاء من يرفع عقيرته يريد تفريق صفوف المسلمين بفتوىٰ ظالمة مخالفة لنصوص الكتاب العزيز والسنّة المحمدية الشريفة؟ وهو بذلك لا يخدم إلّا القوىٰ الاستعمارية الكافرة المعادية للإسلام والمسلمين إذ لا ينتفع من هذه الفتوىٰ المفرّقة، غيرهم.

ما جزاء هذا المتسمّي باسم أهل العلم المتصدّي لمقام الدعوة والإفتاء؟ ينبري في وقت أشد ما يكون فيه المسلمون إلىٰ التآخي والتقارب ينجّس ويكفر طائفة كبرىٰ من طوائف المسلمين. فيقول: «لايحل ذبح الرافضي ـ ويقصد به

---

١. السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٠.

شيعة الإمام علي عليه السلام من أتباع الإسلام ـ ولا أكل ذبيحته، فإنّ الرافضة غالباً مشركون حيث يدعون علي بن أبي طالب دائماً في الشدة والرخاء حتىٰ في عرفات والطواف والسعي ويدعون أبناءه وأئمتهم كما سمعناهم مراراً وهذا شرك أكبر وردّة عن الإسلام يستحقّون القتل عليها كما هم يغالون في وصف علي رضي الله عنه ويصفونه بأوصاف لا تصلح إلاّ لله كما سمعناهم في عرفات وهم بذلك مرتدّون حيث جعلوه ربّاً وخالقاً ومتصرّفاً في الكون»!!

إنّ هذا الرجل يتطاول علىٰ شيعة أهل البيت عليهم السلام ويذلقهم بلسان حادّ ويتّهمهم بالشرك والارتداد بينما هو يسكت ويخرس في قضية سلمان رشدي الذي تجرّأ علىٰ رسول الله وأُمّهات المؤمنين وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله وتجاسر عليهم ومسّ كرامتهم، ونال من شرفهم، ولا يشير إلىٰ ارتداد سلمان رشدي، وهو ينشر تلك الترّهات والإساءات إلىٰ المقدّسات الإسلامية. وما هذا السكوت إلاّ لأنّ أسيادهم يرفضون تكفير رشدي، بينما يتكلّفون خلق الشبهات الباطلة لإلصاقها بشيعة أهل البيت عليهم السلام وتكفيرهم ويغمضون عيونهم عن الحقائق الناصعة التي تحكي إيمانهم الصادق بالله ورسوله وكتابه وأحكامه وإنّهم صفوة الله ورسوله وأهل بيته في رفع شأن هذا الدين وحمل هموم المسلمين والدفاع عنهم والعمل علىٰ ترسيخ وحدتهم علىٰ مرّ العصور والأزمان.

كما أنّ الغاية من هذا التكفير هو التغطية علىٰ جريمة السماح باستيطان اليهود والنصارىٰ في أرض مكة والمدينة المقدسة، وبهذا أثبتوا صلتهم بالأجانب المستعمرين.

أجل للتغطية علىٰ هذا العار وتحريفاً لأذهان ومشاعر الشعوب الإسلامية الجريحة بسبب تدنيس الأمريكان وحلفاؤهم أرض المقدسات مكة والمدينة، عمد المدعو عبد الله بن عبد الرحمان الجبرين إلىٰ تكفير الشيعة ورميهم بالشرك، ليخفي

الحقيقة عن المسلمين غافلاً عن أنّ الشعوب الإسلامية قد أصبحت اليوم واعية تميّز بين الحق والباطل ولم تعد تخفىٰ عليها حقيقة المدعو «جبرين» ونظرائه من مفرّقي الصفوف الإسلامية، تحت غطاء الدفاع عن التوحيد.

وإلاّ فما ذنب الشيعة إلاّ كونهم موالين لأئمة أهل البيت الذين «أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً». كما فرض في الكتاب مودّتهم وجعلها أجراً للرسالة المحمدية؟!

ما ذنب الشيعة إلاّ كونهم أُمة مقاومة للاستعمار البغيض رافضة لخططه الجهنمية، أُمة مجاهدة امتزجت حياتهم بالجهاد والدفاع عن حياض الإسلام الحنيف ... والنبي وآله الكرام. وهو رمز معاداة الكفر لهم.

ما هو ميزان التوحيد والشرك ؟

لقد كان رسول الله ﷺ يكتفي في قبول الإسلام من الذين يريدون الانضواء تحت رايته بمجرّد الشهادة بالوحدانية واستقبال القبلة والصلاة.

قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلاّ الله واستقبل قبلتنا وصلىٰ صلاتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم، له ما للمسلم وعليه ما علىٰ المسلم» [1]. وقال ﷺ: «أُمِرت أن أُقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، فإذا شهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلّوا صلاتنا حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلاّ بحقّها» [2].

بهذا كان يكتفي رسول الله ﷺ لإطلاق وصف الإسلام علىٰ الأشخاص من

١. جامع الأُصول: ١ /١٥٨.
٢. جامع الأُصول: ١ /١٥٨ ـ ١٥٩.

دون أن ينبش في أعرافهم الاجتماعية وممارساتهم التقليدية، عند احترام شخصياتهم وتكريمهم. فما بال المدعو «جبرين» وأضرابه يكفّرون بسهولة أُمة كبيرة من الموحدين المؤمنين بالرسالة المحمدية، التابعين للعترة الطاهرة المجاهدين للكفار والمستعمرين؟ مع أنّهم يشهدون بالوحدانية والرسالة والمعاد ويصلّون ويصومون ويحجّون ويزكّون.

وهل يحق لهم التكفير وقد نهاهم رسول الإسلام ﷺ عن ذلك في أكثر من حديث صحيح تنقله مصادر السنّة والشيعة:

«كفّوا عن أهل لا إله إلاّ الله لا تكفّروهم بذنب، فمن كفّر أهل لا إله إلاّ الله فهو إلىٰ الكفر أقرب».

«من قذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله، ومن قتل نفساً بشيء عذّبه الله بما قتل».

«إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقتله، ولعن المؤمن كقتله»[1].

هل دعاء الصالحين عبادة لهم وشرك؟

يقول صاحب هذه الفتوىٰ الظالمة الباطلة: إنّ الرافضة مشركون حيث يدعون علي بن أبي طالب دائماً في الشدة والرخاء.

إنّه يتمسّك بهذه الحجة (أي دعاء الأولياء الصالحين في الشدة والرخاء) لرمي الشيعة المسلمين المؤمنين بالكفر والشرك. وهو أكبر حججهم لتكفير عامة المسلمين وليس خصوص الشيعة وهو لا يدرك أن دعاء الأولياء يقع علىٰ وجهين:

الأوّل: دعاء الوليّ ونداؤه بما أنّه عبد صالح تستجاب دعوته عند الله إذا طلب منه تعالىٰ شيئاً، وهو شيء أباحه القرآن بل أمر به إذ قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ

---

١. راجع جامع الأُصول: ١ و ١٠ و ١١، وكنز العمال للمتقي الهندي١.

ظَلَمُـوا أنفُسَهُمْ جَـاءُوكَ فَٱستَغْفَـرُوا اللهَ وٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ الـرَّسُولُ لَـوَجَـدُوا اللهَ تَوّابـاً رَحِيماً﴾[١].

عن يعقوب عليه السلام أنّه لما طلـب منه أبنـاؤه أن يدعـو لهم ويستغفر لـذنبهم قال:

﴿سَوفَ أستغفِرُ لَكُم﴾ وهو أمر جائز وجار في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته وحـال مماتـه، إذ الموت لا يغيّر الموضـوع كما أنّه ليس دخيـلاً في مفهـوم التوحيـد والشرك، ما دام الـداعي يؤمن بالله الـواحد ويعتبره الرب الخالـق والمدبر المستقل دون سواه.

روىٰ الطبراني عن أبي أُمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف: أنّ رجلاً كان يختلـف إلىٰ عثمان بن عفان في حاجة له، فكـان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكـا ذلك إليه، فقال له عثمان بن حنيف: إئت الميضأة فتوضـأ ثم ائت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثم قـل: اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة يـا محمد إنّي أتوجـه بك إلىٰ ربي فتقضي لي حاجتي، فتذكر حاجتك ورح حتىٰ أروح معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثم أتىٰ باب عثمان بن عفان (رض) فجاء البـوّاب حتىٰ أخـذ بيده فـأدخله علىٰ عثمان بـن عفان (رض) فـأجلسه معـه علىٰ الطنفسـة، فقال: حـاجتك؟ فذكـر حاجتـه فقضـاها لـه ثم قال لـه: ما ذكـرتُ حاجتك حتىٰ كان الساعة، وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها. ثم إنّ الرجل خرج مـن عنده فلقي عثمان بن حنيـف فقال له: جـزاك الله خيراً ما كـان ينظر في حـاجتي ولا يلتفت إليّ حتـىٰ كلمته فيّ. فقـال عثمان بن حنيـف: والله ما كلّمتُـه ولكنّي شهدت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد أتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي

١. النساء: ٦٤.

ﷺ : فتصبّر، فقال: يارسول الله ليس لي قائد، فقد شق عليّ، فقال النبي ﷺ: «إئت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات».

قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتىٰ دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قط [١].

إنّ هذه الرواية ونظائرها تكشف عن أنّ الصحابة كانوا يدعون رسول الله ﷺ ويتوسّلون به حتىٰ بعد وفاته ﷺ من دون أن يعتبروا ذلك محرّماً بل ولا مكروهاً.

الثاني: لا شك أنّ دعاء النبي أو الصالح ونداءهما والتوسّل بهما باعتقاد أنّه إله أو ربّ أو خالق أو مستقلّ في التأثير أو ملك للشفاعة والمغفرة شرك وكفر، ولكنّه لا يقوم به أيّ مسلم في أقطار الأرض، بل ولا يخطر ببال أحد وهو يقرأ آيات الكتاب العزيز آناء الليل وأطراف النهار، ويتلو قوله سبحانه:

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ [٢].

﴿أَ ءِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعالَىٰ اللهُ عَمّا يُشْرِكُون﴾ [٣].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً...﴾ [٤].

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَراً ولا نَفْعاً إلاّ مَا شَاءَ اللهُ﴾ [٥].

إنّ المسلمين لا يعتقدون في النبي ﷺ وأهل بيته المطهرين: (فاطمة وعلي والحسن والحسين ﷺ) إلاّ كونهم عباداً صالحين مقرَّبين عند الله مستجابة

---

١. الحافظ الطبراني: المعجم الكبير: ٩ /١٦ و ١٧.

٢. فاطر: ٣.

٣. النمل: ٦٣.

٤. الأنعام: ١٦٤.

٥. يونس: ٤٩.

دعوتُهم. ولا يعتقدون بغير ذلك من ربوبية أو إلوهيـة أو مالكية للشفاعة والمغفرة أبداً.

ولكنّ القوم الـذين عمدوا إلىٰ تكفير الشيعة وغيرهم من المسلمين لم يفـرّقوا بين الدعاءين والنداءين، فرموهما بسهم واحد.

ثم يقـول المدعـو جبرين: «حيـث جعلوه ــ أي عليـاً عليه السلام ـ ربـاً وخـالقاً ومتصرفـاً في الكون» ويـالها من كذبـة وقحة، وفـرية فـاضحة، وتهمـة للمسلمين الموحدين. فما الرب عند المسلمين شيعـة وسنّة، وما الخالق وما المتصرف الحقيقي في الكـون إلاّ الله سبحـانـه دون سـواه ... وهـذه كتبهم ومصنفـاتهم في العقـائد والحديث والتفسير، فهي طافحة بالاعتراف والإقرار بـوحدانية الله تعالىٰ في الذات والصفات والخالقية والتـدبير والحاكمية والتشريع والطاعة، والعبوديـة والشفاعة والمغفرة.

وكيف تـرىٰ يحق لجبرين ونظـرائه أن يكفّروا المسلمين شيعـة وسنّة الـذين يوحّدون الله، بشيء لم يعتقدوا به ولم يقولوا به؟

ولو صحّ أنّ دعاء أحد يستلزم القول بإلوهيتـه أو ربوبيته ويعدّ هذا الدعاء والنداء شركاً وكفـراً فكيف نادىٰ ودعا إخوة يـوسف، أخاهم يوسـف وقالوا: ﴿**يَا أَيُّهَا الْعَزِيـزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّـرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـاعَةٍ مُزْجَـاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْـلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَـجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾[1]؟ ولم يعتبر القرآن هذا شركاً.

فهل النبـي الأكرم محمـد صلى الله عليه وآله أقل شـأناً ودرجـة من عـزيـز مصر يـوسف الصديق عليه السلام؟!

وأمّا كون النبي محمد صلى الله عليه وآله يختلف عن العزيز بأنّه ميت فهو عذر تافه وكلام

١. يوسف: ٨٨.

باطل، إذ حيـاة النبي وأهل بيته الشهداء في سبيل الله في البرزخ أمـر مسلّم، كيف والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرزَقُونَ﴾ [١] وقال: ﴿وَلاتَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَموَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لا تَشْعُرُونَ﴾ [٢].

مع العلم أنّ الشهـداء يأتون في المرتبة الثـالثة في قولـه تعالىٰ: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ﴾ [٣].

لو كان رسول الله ﷺ ميتاً فما معنىٰ قوله ﷺ: «ما من أحد يسلّم عليَّ إلاّ ردّ الله عزّ وجلّ عليّ روحي حتـىٰ أرد عليه السلام » [٤]؟ وقوله ﷺ : «صلّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» [٥].

إنّ النبي ﷺ، والأئمة الطـاهرين من أهل بيته الـذين يشاركونـه في الطهر والقداسـة لآية التطهير والمبـاهلة والمودة، والـذين قُتِلـوا في سبيل الله ودفاعـاً عن حياض الشريعة المحمـدية المقدسة، متماثلون في الحيـاة بعد الموت، فكيف يكون نداؤهم ودعاؤهم دعاء للميت الذي لا يسمع؟

العلم بالغيب علىٰ نوعين:

ويقول جبرين في فتواه: «وجعلوه ـ يعني علياً ـ يعلم الغيب».

إنّ صـاحـب هـذه الفتـوىٰ البـاطلـة جـاهـل حتـىٰ بـاللغـة العـربيـة

١. آل عمران: ١٦٩.

٢. البقرة: ١٥٤.

٣. النساء: ٦٩.

٤. سنن أبي داود: ٢ / ٢١٨، وكنز العمال: ١٠ / ٣٨١، وغيرهما من كتب الحديث.

٥. نفس المصدر.

والمصطلح الديني، فإنّ العلم بالغيب في الكتاب العزيز هو العلم النابع من الذات (أي من ذات العالم) غير المكتسب من آخر وهذا يختص بالله الواحد الأحد، وإليه يشير قوله سبحانه: **﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَواتِ والأرضِ الغَيْبَ إلاّ اللهُ﴾** [١]، وأمّا الإخبار بالغيب بتعليم من الله فالكتاب العزيز والسنّة الشريفة مليئان منه.

فهذه سورة يوسف تخبرنا بأنّ يعقوب وابنه يوسف قد أخبرا عن حوادث مستقبلية كثيرة.. أي أخبرا بالغيب:

١ ــ لمّا أخبر يوسف والده بأنّه رأىٰ أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له، قال يعقوب عليه السلام: **﴿يا بُنَيّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً﴾** [٢] وبذلك أخبر ضمناً عن مستقبله المشرق الذي لو عرف به إخوته لثارت عليه حفائظهم.

٢ ـ لمّا أخبر صاحبا يوسف في السجن يوسفَ برؤياهما قال عليه السلام لمن أخبره بأنّه يعصر خمراً: **﴿أمّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمراً﴾** وقال للثاني ـ الذي قال إنّه رأىٰ يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ـ: **﴿وأمّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيرُ مِن رَأسِهِ﴾** [٣].

٣ ـ لما فصلت العير قال أبوهم «يعقوب»: **﴿إنّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أن تُفَنِّدُون﴾** [٤].

٤ ـ قال النبي عيسىٰ عليه السلام لقومه في معرض بيان معاجزه وبيّناته:

---

١. النمل: ٦٥.
٢. يوسف: ٥.
٣. يوسف: ٤١.
٤. يوسف: ٩٤.

﴿وأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم﴾[1].

أليست كل هذه إخبارات بالغيب، ومغيبات أنبأ بها الرسلُ؟

و إذا هي ثبتت لنبيّ جاز نسبتها إلىٰ العترة الطاهرة لما لهم من المنزلة والمكانة العليا، وهل عليٌّ عليه السلام أقلّ شأناً من هارون عليه السلام وقد قال النبي صلى الله عليه وآله في شأنه: «ياعلي أمّا ترضىٰ أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسىٰ إلاّ أنّه لا نبي بعدي»؟[2] الذي يعني أنّه له ما للرسول إلاّ أنّه ليس نبياً، لختم النبوة برسول الله محمد صلى الله عليه وآله.

كيف لا، وعلي عليه السلام وارث علم رسول الله بإجماع الأُمة الإسلامية، وهل عليٌّ عليه السلام أقل من كعب الأحبار الذي أخبر الخليفة الثاني بأنّه سيموت بعد ثلاثة أيام وتحقّقت هذه النبوءة فعلاً[3].

وهلاّ علم «جبرين» ما أخرجه قومه في أئمتهم من العلم بالغيب ففي مسند أحمد: أن عمر بن الخطاب أخبر بموته بسبب رؤيا رآها وكان بين رؤياه وبين يوم مصرعه اسبوع واحد[4]؟

الشيعة وصيانة القرآن عن التحريف:

ويقول جبرين في فتواه الجائرة علىٰ شيعة أهل البيت: «كما أنّهم يطعنون في القرآن الكريم..».

إنّ الشيعة أيّها الشيخ لا يطعنون في القرآن ولا يقولون بوقوع التحريف فيه.

---

١. آل عمران: ٤٩.

٢. جامع الأُصول: ٨ / ٦٥٠.

٣. الرياض النضرة: ٢ / ٧٥.

٤. مسند أحمد: ١ /٤٨ و ٥١.

ولكن غيرهم قال بهذا، راجع تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وكانت هذه السورة (أي سورة الأحزاب) تعدل سورة البقرة وكانت فيها آية الرجم (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) . ذكره أبو بكر الأنباري عن أُبي بن كعب.

ثم قال: وقد حدثنا أحمد بن الهيثم بن خالد قال: حدثنا أبو عبيد القاسم ابن سلام قال: حدثنا ابن أبي مريم عن أبي لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة، قالت: كانت سورة الأحزاب تعدل علىٰ عهد رسول الله ﷺ مائتي آية، فلما كُتِبَ المصحف لم يقدر منها إلاّ علىٰ ما هي الآن [1].

وروي أيضاً عن أُبي بن كعب قوله: «فو الذي يحلف به أُبي بن كعب إنّها كانت لتعدل سورة البقرة أو أطول ولقد قرأنا منها آية الرجم: (والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم) .

وفي موطأ مالك قال عمر بن الخطاب: والذي نفسي بيده، لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله تعالىٰ لكتبتُها: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة فإنّا قد قرأناها» [2].

إذن فأين ذهبت هذه الآية؟!

وجاء في صحيح البخاري ومسند أحمد: قال عمر بن الخطاب: ... ثم إنّا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: (أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو إنَّ كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم) [3].

فهذا هو الخليفة يصرّح بسقوط آية من القرآن الحكيم!

---

١. تفسير الجامع لأحكام القرآن: ١٤ /١١٣.

٢. الموطأ، كتاب الحدود: ٧١٤، الحديث ٩.

٣. صحيح البخاري: ٨/ ١٦٩ باب رجم الحبلى من الزنا من كتاب الفرائض، مسند أحمد: ١/ ٥٥.

أمّا ما يقوله الشيعة حول القرآن الكريم فإليك طائفة من أقوال أبرز شخصياتهم القدامىٰ والمتأخّرين نذكرها علىٰ سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ قال الشيخ الصدوق (المتوفىٰ ٣٨١هـ) في رسالته التي وضعها لبيان معتقدات الشيعة الإمامية: اعتقادنا أنّ القرآن الذي أنزله الله تعالىٰ علىٰ نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين وهو ما بأيدي الناس ليس بأكثر من ذلك.

ثم قال: ومن نسب إلينا أنا نقول إنّه أكثر من ذلك فهو كاذب [١].

٢ ـ قال الشريف المرتضىٰ (المتوفىٰ عام ٤٣٦هـ) : إنّ العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة، فإنّ العناية اشتدّت والدواعي توفّرت علىٰ نقله وحراسته، وبلغت إلىٰ حدٍّ لم يبلغه فيما ذكرناه، لأنّ القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية حتىٰ عرفوا كل شيء اختلف فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيّراً ومنقوصاً مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟ [٢]

٣ ـ وقال الشيخ الطوسي (المتوفىٰ ٤٦٠هـ) : وأمّا الكلام في زيادته ونقصانه فمماّ لا يليق بهذا الكتاب المقصود منه العلم بمعاني القرآن، لأنّ الزيادة مجمع علىٰ بطلانها، والنقصان منه فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا [٣].

٤ ـ قال العلاّمة الحلّي (المتوفىٰ ٧٢٦هـ) في أحد مؤلفاته: الحق أنّه لا تبديل ولا تأخير ولا تقديم فيه (أي القرآن) وأنّه لم يزد ولم ينقص ونعوذ بالله تعالىٰ من أن

---

١. اعتقادات الإمامية المطبوعة مع شرح الباب الحادي عشر.

٢. مجمع البيان: ١ / ١٥.

٣. مقدّمة تفسير التبيان.

يعتقد مثل ذلك وأمثال ذلك، فإنّه يوجب التطرّق إلىٰ معجزة الرسول ﷺ المنقولة بالتواتر[١].

٥ ـ وقال السيد محسن الأمين العاملي (المتوفىٰ عام ١٣٧١هـ) : لا يقول أحد من الإمامية لا قديماً ولا حديثاً أنّ القرآن مزيد فيه قليل أو كثير فضلاً عن كلّهم، بل كلّهم متفقون علىٰ عدم الزيادة ومن يعتدّ بقوله من محقّقيهم متفقون علىٰ أنّه لم ينقص منه، ومن نسب إليهم خلاف ذلك فهو كاذب مفتر مجترئ علىٰ الله ورسوله[٢].

٦ ـ وقال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (المتوفىٰ عام ١٣٧٣هـ) : إنّ الكتاب الموجود في أيدي المسلمين هو الكتاب الذي أنزله الله إليه ﷺ للإعجاز والتحدي ولتعليم الأحكام ولتمييز الحلال والحرام، وانّه لا نقص فيه ولا تحريف ولا زيادة وعلىٰ هذا إجماعهم (أي إجماع الشيعة الإمامية)[٣].

٧ ـ وقال الإمام شرف الدين العاملي (المتوفىٰ عام ١٣٧٧هـ) : كل من نسب إليهم تحريف القرآن فإنّه مفتر ظالم لهم، لأنّ قداسة القرآن الحكيم من ضروريات الدين الإسلامي ومذهبهم الإمامي ـ إلىٰ أن قال: ـ وتلك كتبهم في الحديث والفقه والأُصول صريحة بما نقول: والقرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنّما هو ما بين الدفتين وهو ما في أيدي الناس لا يزيد حرفاً ولا ينقص حرفاً ولاتبديل لكلمة بكلمة ولا لحرف بحرف، وكل حرف من حروفه متواتر في كل جيل تواتراً قطعياً إلىٰ عهد الوحي والنبوة[٤].

---

١. أجوبة المسائل المهنّائية: ١٢١، المسألة ١٣.

٢. أعيان الشيعة: ١ /٤١.

٣. أصل الشيعة وأُصولها: ١٣٣.

٤. الفصول المهمة: ١٦٣.

٨ ـ وقال السيد الإمام الخميني ﷺ: إنّ الواقف علىٰ عناية المسلمين بجمع الكتاب وحفظه وضبطه قراءة وكتابة يقف علىٰ بطلان تلك المزعمة. وما ورد فيه من أخبار ـ حسبما تمسّكوا ـ إمّا ضعيف لا يصلح للاستدلال به أو مجعول تلوح عليه امارات الجعل، أو غريب يقضي بالعجب، أمّا الصحيح منها فيرمي إلىٰ مسألة التأويل والتفسير وأنّ التحريف إنما حصل في ذلك لا في لفظه وعباراته.

وتفصيل ذلك يحتاج إلىٰ تأليف كتاب حافل ببيان تاريخ القرآن والمراحل التي قضاها طيلة قرون ويتلخّص في أنّ الكتاب العزيز هو عين ما بين الدفتين لا زيادة فيه ولانقصان، وأنّ الاختلاف في القراءات أمر حادث ناشئ عن اختلاف في الاجتهادات من غير أن يمس جانب الوحي الذي نزل به الروح الأمين علىٰ قلب سيد المرسلين [١].

٩ ـ وقال السيد الإمام الگلبايگاني ﷺ: الصحيح من مذهبنا أنّ كتاب الله الكريم الذي بأيدينا بين الدفتين هو ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه من لدن عزيز حكيم، المجموع المرتّب في زمانه (أي النبي ﷺ وعصره) بأمره بلا تحريف وتغيير وزيادة ونقصان والدليل علىٰ ذلك تواتره بين المسلمين، كلاًّ وبعضاً، ترتيباً وقراءة... [٢]

١٠ ـ وللسيد الإمام الخوئي ﷺ: بحث مفصل يؤكد فيه علىٰ خلو القرآن الكريم من أيّة زيادة أو نقيصة في مقدمة تفسيره البيان [٣].

هذه هي نماذج صريحة تعكس عقيدة الشيعة الإمامية منذ القديم وإلىٰ الآن حول القرآن الكريم، وكلّها تؤكد علىٰ صيانة الكتاب العزيز من أيّة زيادة أو

---

١. تهذيب الأصول: ٢ / ١٦٥.

٢. البرهان للبروجردي: ١٥٦ ـ ١٥٨.

٣. ارتحل الإمام الخوئي (قدّس سرّه) إلى بارئه في ٨ صفر ١٤١٣ هـ ق. لاحظ مقدمة تفسير البيان.

نقيصة وخلوّه من كل تغيير أو تبديل، فكيف يتّهم «جبرين» الشيعة الإمامية بأنهم يطعنون في القرآن؟!

وأمّا الروايات فهي مضافاً إلىٰ كونها ضعيفة شاذة، أو مجعولة موضوعة لا يأبه بها الشيعة الإمامية ـ لاتشكل عقيدة الشيعة الإمامية، إذ ليس كل ما في الروايات يعكس عقيدتهم، حتىٰ يؤاخذون عليها، حتىٰ لو افترضت صحة بعضها سنداً ـ فكيف يؤاخذون عليها والحال أنّها ـ كما قلناه ـ ليست بصحيحة.

إنّ القرآن الكريم حسب عقيدة المسلمين سنّة وشيعة الذي بأيدي الناس هو ما نزل علىٰ رسول الله ﷺ في جميع خصوصياته الحاضرة.

وكما لا يعبأ أعلام السنّة بروايات التحريف الواردة في مصادرهم، كذلك لا يأبه علماء الشيعة أيضاً بما ورد في بعض مصادرهم لضعفها وشذوذها، وظهور آثار الاختلاق عليها.

الصحابة من منظار القرآن والحديث:

وأمّا قول «جبرين»: حول موقف الشيعة الإمامية من الصحابة ففيه مغالطة وتغطية للحق إذ لا تجد علىٰ أديم الأرض مسلماً يعتنق الإسلام ويحب النبي الأكرم، يبغض أصحاب النبي الأكرم بما أنّهم أصحابه وأنصاره، بل الكل ينظر إليهم في هذا المجال بنظر التكريم والتبجيل، ومن أبغضهم أو سبَّهم بهذا المنظار، فهو كافر، أبعده الله. ولكن إذا صدر منهم فعل لا يوافق الكتاب والسنّة فقام أحد بذكر فعله وتوصيف حاله حسب دلالة عمله وفعله عليه وقال: إنّه صدرت منه المعصية، أو قتل نفساً بغير نفس، إلىٰ غير ذلك من المحرّمات والموبقات، فقد تبع القرآن الكريم والسنّة والنبوية والسلف الصالح.

فحب الصحابي بما هو صحابي أمر، وتوصيف أعماله وأفعاله ـ إن خيراً فخير وإن شراً فشر ـ أمر آخر يهدف إلىٰ الموضوعية في البحث، والقضاء والابتعاد عن العشوائية في الاعتقاد، «وجبرين» لا يفرّق بين الأمرين ويضربهما بسهم واحد لغايات سياسية.

إنّ صحبة الصحابة لم تكن بأكثر ولا أقوىٰ من صحبة امرأة نوح وامرأة لوط فما أغنتهما من الله شيئاً، قال سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وامْرَأَةَ لُوطٍ كانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النارَ مَعَ الدّاخِلِينَ﴾[١].

إنّ التشرّف بصحبة النبي لم يكن أكثر امتيازاً وتأثيراً من التشرّف بالزواج من النبي، وقد قال سبحانه في شأن أزواجه: ﴿يانِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا العَذَابُ ضِعْفَيْنِ وكانَ ذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرا﴾[٢].

وكما أنّهم كانوا مختلفين في السن عند الانقياد للإسلام، كذلك كانوا مختلفين أيضاً في مقدار الصحبة، فبعضهم صحب النبي ﷺ من بدء البعثة إلىٰ لحظة الرحلة، وبعضهم أسلم بعد البعثة وقبل الهجرة، وكثير منهم أسلموا بعد الهجرة وربما أدركوا من الصحبة سنة أو شهراً أو أياماً أو ساعات.

فهل يصح أن نقول: إنّ صحبةً مّا قلعت ما في نفوسهم جميعاً من جذور غير صالحة وملكات رديئة وكوّنت منهم شخصيات ممتازة أعلىٰ وأجل من أن يقعوا في إطار التعديل والجرح؟

إن تأثير الصحبة عند من يعتقد بعدالة الصحابة كلّهم أشبه شيء بمادة كيمياوية تستعمل في تحويل عنصر كالنحاس إلىٰ عنصر آخر كالذهب، فكأن

١. التحريم: ١٠.

٢. الأحزاب: ٣٠.

الصحبة قلبت كل مصاحب إلىٰ إنسان مثاليّ يتحلّىٰ بالعدالة، وهذا ممّا يردّه المنطق والبرهان السليم، وذلك لأنّ الرسول الأعظم ﷺ لم يقم بتربية الناس وتعليمهم عن طريق الإعجاز ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أجْمَعِين﴾ [١].

بل قام بإرشاد الناس ودعوتهم إلىٰ الحق وصبهم في بوتقة الكمال مستعيناً بالأساليب الطبيعية والإمكانات الموجودة كتلاوة القرآن الكريم، والنصيحة بكلماته النافذة، وسلوكه القويم وبعث رسله ودعاة دينه إلىٰ الأقطار، ونحو ذلك. والدعوة القائمة علىٰ هذا الأساس، يختلف أثرها في النفوس حسب اختلاف استعدادها وقابلياتها فلا يصح لنا أن نرمي الجميع بسهم واحد.

الصحابة في الذّكر الحكيم:

نرىٰ أنّ الذكر الحكيم يصنّف صحابة النبي ﷺ ويمدحهم ضمن أصناف نأتي ببعضها:

١ ـ السابقون الأوّلون:

يصف الذكر الحكيم السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان بأنّ الله رضي عنهم وهم رضوا عنه.

قال عزّ من قائل: ﴿والسّابِقُونَ الأَوّلُونَ مِنَ المُهاجِرِينَ والأنصَارِ وَالّذينَ اتّبَعُوهُم بِإحسانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي تَحتَها الأنهارُ خَالِدِينَ فِيها أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيم﴾ [٢].

٢ ـ المبايعون تحت الشجرة:

ويصف سبحانه الصحابة الذين بايعوا الرسول ﷺ تحت الشجرة بنزول

١. الأنعام: ١٤٩.

٢. التوبة: ١٠٠.

السكينة عليهم قائلاً في محكم كتابه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ [١].

٣ـ المهاجرون:

وهؤلاء هم الذين يصفهم تعالىٰ ذكره بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [٢].

٤ ـ أصحاب الفتح:

وهؤلاء هم الذين وصفهم الله سبحانه وتعالىٰ في آخر سورة الفتح بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [٣].

٥ ـ الأصناف الأُخرىٰ للصحابة:

فالناظر المخلص المتجرّد عن كل رأي مسبق يجد في نفسه تكريماً لهؤلاء الصحابة.

غير أنّ الرأي الحاسم في عامّة الصحابة يستوجب النظر إلىٰ كل الآيات

---

١. الفتح: ١٨.

٢. الحشر: ٨.

٣. الفتح: ٢٩.

القرآنية الواردة في حقّهم، فعندئذ يتبيّن لنا أنّ هناك أصنافاً أُخرىٰ من الصحابة غير ما سبق ذكرها، تمنعنا من أن نضرب الكلّ بسهم واحد، ونصف الكل بالرضا والرضوان. وهذا الصنف من الآيات يدل بوضوح علىٰ وجود مجموعات من الصحابة تضاد الأصناف السابقة في الخلقيات والملكات والسلوك والعمل، وهم:

أ ـ المنافقون المعروفون:

المنافقون المعروفون بالنفاق الذين نزلت في حقّهم سورة «المنافقون» قال سبحانه:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنّ الْمُنَافِقِينَ لَكاذِبُون...﴾ إلىٰ آخر السورة [١].

فهذه الآيات تعرب بوضوح عن وجود كتلة قويّة من المنافقين بين الصحابة آنذاك، وكان لهم شأنٌ ودورٌ في المجتمع الإسلامي فنزلت سورة قرآنية كاملة في حقهم.

ب ـ المنافقون المختفون:

تدل بعض الآيات علىٰ أنّه كانت بين الأعراب القاطنين خارج المدينة ومن نفس أهل المدينة جماعة مردوا علىٰ النفاق وكان النبي الأعظم لا يعرف بعضهم ومن تلك الآيات قوله سبحانه: **﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِنَ الأَعْرابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ [٢] لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُم﴾** [٣].

---

١. المنافقون: ١.

٢. مردوا علىٰ النفاق: تمرّنوا عليه ومارسوه.

٣. التوبة: ١٠١.

لقد بذل القرآن الكريم عناية خاصة بعصبة المنافقين وأعرب عن نواياهم وندّد بهم في السور التالية: البقرة، آل عمران، المائدة، التوبة، العنكبوت، الأحزاب، محمد، الفتح، الحديد، المجادلة، الحشر، والمنافقون.

وهذا إن دلّ علىٰ شيء فإنّما يدلّ علىٰ أنّ المنافقين كانوا جماعة هائلة في المجتمع الإسلامي بين معروف، عرف بسمة النفاق ووسمة الكذب، وغير معروف بذلك مقنَّع بقناع التظاهر بالإيمان والحبّ للنبي ﷺ، فلو كان المنافقون جماعة قليلة غير مؤثرة لما رأيت هذه العناية البالغة في القرآن الكريم. وهناك ثلّة من المحقّقين كتبوا حول النفاق والمنافقين رسائل وكتابات وقد قام بعضهم بإحصاء ما يرجع إليهم فبلغ مقداراً يقرب من عشر القرآن الكريم [1]، وهذا يدل علىٰ كثرة أصحاب النفاق وتأثيرهم يوم ذاك في المجتمع الإسلامي، وعلىٰ ذلك لا يصح لنا الحكم بعدالة كل من صحب الرسول ﷺ مع غض النظر عن تلك العصابة، المتظاهرة بالنفاق والمختفية في أصحاب النبي ﷺ.

ج ـ مرضىٰ القلوب:

وهذه المجموعة من الصحابة لم يكونوا من زمرة المنافقين بل كانوا يتلونهم في الروحيات والملكات مع ضعف في الإيمان والثقة بالله ورسوله ﷺ قال سبحانه بحقّهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ والّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاّ غُرُورا﴾ [2].

فأنّىٰ لنا أن نصف مرضىٰ القلوب الذين ينسبون خُلف الوعد إلىٰ الله سبحانه وإلىٰ الرسول ﷺ بالتقوىٰ والعدالة؟

---

١. النفاق والمنافقون: تأليف الأستاذ: إبراهيم علي سالم المصري.

٢. الأحزاب: ١٢.

د ـ السمّاعون:

تلك المجموعة كانت قلوبهم كالريشة في مهبّ الريح تميل إلىٰ هؤلاء تارة وإلىٰ أُولئك أُخرىٰ، وذلك بسبب ضعف إيمانهم وقد حذّر الباري عزّ وجلّ المسلمين منهم حيث قال عزّ من قائل، واصفاً إيّاهم بالسمّاعين لأهل الريب: ﴿إنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِـنْ كَرِهَ اللهُ انبعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ القَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فيكُمْ ما زَادُوكُمْ إلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ واللهُ عَلِيمٌ بِالظّالِمِين﴾ [١] وذيل الآية دليل علىٰ كون السمّاعين من الظالمين لا من العدول.

هـ ـ خالطوا العمل الصالح بالسيّء:

وهؤلاء هم الذين يقومون بالصلاح والفلاح تارة، والفساد والعبث أُخرى، فلأجل ذلك خلطوا عملاً صالحاً بعمل سيّء، قال سبحانه: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيّئاً﴾ [٢].

و ـ المشرفون علىٰ الارتداد:

إنّ بعض الآيات تدل علىٰ أنّ مجموعة من الصحابة كانت قد أشرفت علىٰ الارتداد يوم دارت عليهم الدوائر، وكانت الحرب بينهم وبين قريش طاحنة فأحسّوا بالضعف، وقد أشرفوا علىٰ الارتداد وقد عرّفهم الحق سبحانه بقوله: ﴿وطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الحَقِّ ظَنَّ الجَاهِلِيّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا

---

١. التوبة: ٤٥ ـ ٤٧.

٢. التوبة: ١٠٢.

مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيَءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنا﴾[١].

ز ـ الفاسق:

إنّ القرآن الكـريم يحثُّ المؤمنين وفي مقدّمتهـم الصحابة، علىٰ التحـرّز من خبر الفاسق حتىٰ يتحقّق التبيّن. فمَن هذا الفاسق الـذي أمر القرآن بالتحرّز من خبره؟ إقـرأ أنت مـاورد حـول الآية مـن شأن النـزول واحكم بها هـو الحق، قـال سبحانه: ﴿يَا أَيُّها الّذِينَ آمَنُـوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَـوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[٢].

فإنّ من المجمع عليه بين أهل العلم أنّه نـزل في حق الوليد بن عقبة بن أبي معيط وذكره المفسّرون في تفسير الآية فلا نحتاج إلىٰ ذكر المصادر.

كما نـزل في حقه قـولـه تعـالىٰ: ﴿أَفَمَن كَـانَ مُـؤْمِناً كَمَـن كَـانَ فَاسِقـاً لا يَسْتَوُون﴾[٣].

نقل الطبري في تفسيره باسناده أنّه كان بين الوليد وعليّ، كلام فقال الوليد: أنـا أسلـط منك لســانـاً، وأحـدُّ منـك سنـانـاً وأردُّ منـك للكتيبـة. فقـال علي: اسكت فـانّـك فاسـق، فأنـزل الله فيهما: ﴿أَفَمَن كـانَ مُؤْمِنـاً كَمَن كَـانَ فَاسِقـاً لا يَسْتَوُون﴾[٤].

وقد نظم الحديث حسانُ بن ثابت (شاعر عصر الرسالة) وقال:

---

١. آل عمران: ١٥٤.

٢. الحجرات: ٦.

٣. السجدة: ١٨.

٤. تفسير الطبري: ٢١ / ٦٠، وتفسير ابن كثير: ٣ / ٤٦٢.

أنـزل الله والكتـاب عـزيـز في علي وفي الـوليـد قـرآنـا
فتبـوّأ الـوليـد إذ ذاك فسقـاً وعليٌّ مبـوءٌ إيمانـا
سـوف يـدعىٰ الـوليـدُ بعـد قليـل وعليٌّ إلىٰ الحسـاب عيـانـا
فعليٌّ يجزىٰ بـذاك جنـانـا ووليـدٌ يجزىٰ بـذاك هـوانـا [1]

أفهل يمكن لباحث حرّ التصديقُ بما ذكره ابن عبد البر وابن الأثير وابن حجر، وفي مقدّمتهم أبو زرعة الرازي الذي هاجم المتفحّصين المحقّقين في أحوال الصحابة واتّهمهم بالزندقة؟

ح ـ المسلمون غير المؤمنين:

إنّ القرآن يعد جماعة من الأعراب الذين رأوا النبي ﷺ وشاهدوه وتكلّموا معه، مسلمين غير مؤمنين وأنّهم بعدُ لم يدخل الإيمان في قلوبهم، قال سبحانه: **﴿قَالَت الأعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلمّا يَدْخُلِ الإِيمانُ في قُلُوبِكُمْ وَإن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لايَلتكُم مِنْ أعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم﴾** [2].

أفهل يصح عدُّ عصابة غير مؤمنة من العدول الأتقياء؟!

ط ـ المؤلّفة قلوبهم:

اتّفق الفقهاء علىٰ أنّ المؤلّفة قلوبهم ممّن تصرف عليهم الصدقات، قال سبحانه: **﴿إِنَّما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَراءِ وَالمَسَاكِينِ والعَامِلِينَ عَلَيْها وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفي الرِّقَابِ والغَارِمِينَ وفي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ**

١. تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي: ١٥؛ كفاية الكنجي: ٥٥؛ مطالب السؤول لابن طليحة: ٢٠؛ شرح النهج، الطبعة القديمة: ٢ /١٠٣؛ جمهرة الخطب لأحمد زكي: ٢ /٢٢؛ لاحظ الغدير: ٢ /٤٣.

٢. الحجرات: ١٤.

حَكِيم﴾ (١).

و «المؤلّفة قلـوبهم»: هم قـوم كانـوا في صدر الإسـلام ممّن يظهر الإسـلام، يتألَّفون بـدفع سهم من الصدقـة إليهم لضعف يقينهم. وهناك أقـوال أُخر فيهم متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لايتمكن إسلامُه حقيقةً إلاّ بالعطاء (٢).

ي ـ المولُّون أمام الكفّار:

إنّ التولّي عن الجهاد والفـرار منه، من الكبائر الموبقة التي نـدّد بها سبحانه بقوله:

﴿يَا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الّذِينَ كَفَـرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُـمُ الأدْبار * وَمَنْ يُوَلِّـهِمْ يَـوْمَئِذٍ دُبُـرَهُ إلاّ مُتَحَرِّفـاً لِقِتَالٍ أو مُتَحَيِّـزاً إِلىٰ فِئَةٍ فَقَـدْ بَاءَ بِغَضَـبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْواهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصيـرِ﴾ (٣).

إنّ التحذير من التوليّ والفرار من الزحف، والحث علىٰ الصمود أمام العدو، لم يصـدر من القرآن إلاّ بعـد فرار مجمـوعة كبيرة مـن صحابـة النبي ﷺ في غزوة «أُحد» و «حنين».

أمّا الأوّل: فيكفيك قول ابن هشـام في تفسير الآيات النازلة في أُحـد، قال: «ثم أنّبهم بالفـرار عن نبيهم وهم يُدعون، لا يعطفـون عليه لدعائه إيّـاهم فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُم﴾ (٤).

وأمّا الثاني: فقد قال ابن هشام فيه أيضاً: فلمّا انهزم الناس ورأىٰ من كان مع رسول الله ﷺ من جفـاة أهل مكة الهزيمـة، تكلّم رجالٌ منهـم بما في أنفسهم من

---

١. التوبة: ٦٠.

٢. تفسير القرطبي: ٨ /١٧٨، المغني لابن قدامة: ٢ /٥٥٦.

٣. الأنفال: ١٥ ـ ١٦.

٤. آل عمران: ١٥٣.

الضغن فقال أبو سفيان بن حرب: لاتنتهي هزيمتهم دون البحر، وصرخ جبلة بن حنبل: ألا بَطَلَ السحرُ اليوم... [١].

أفبعد هذا يصح أن يعدّ جميع الصحابة، بحجة أنّهم رأوا نور النبوة، عدولاً أتقياء؟

قال القرطبي في تفسيره: قد فرّ الناس يوم «أُحد» وعفا الله عنهم وقال الله فيهم يوم حنين: ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ ثم ذكر فرار عدّة من أصحاب النبي من بعض السرايا [٢].

هذه هي الأصناف العشرة من صحابة النبي ﷺ ممّن لايمكن توصيفهم بالعدالة والتقوىٰ، أتينا بها في هذه العجالة .

ولكن نلفت نظر القارئ الكريم إلىٰ الآيات الواردة في أوائل سورة البقرة وسورة النساء وغيرها من الآيات القرآنية فيرىٰ فيها أنّ الإيمان بعدالة الصحابة بأجمعهم خطأ في القول، وزلّة في الرأي، يضاد نصوص الذكر الحكيم، ولم يكن الصحابة إلّا كسائر الناس فيهم صالح تقي بلغ القمة في التقىٰ والنزاهة، وفيهم طالح شقي سقط إلىٰ هوّة الشقاء والدناءة. ولكن الذي يميّز الصحابة عن غيرهم أنّهم رأوا نور النبوّة وتشرّفوا بصحبة النبي ﷺ وشاهدوا معجزاته في حلبة المباراة بأمّ أعينهم، ولأجل ذلك تحمّلوا مسؤُولية كبيرة أمام الله وأمام رسوله وأمام الأجيال المعاصرة لهم واللاحقة بهم، فإنّهم ليسوا كسائر الناس، فزيغهم وميلهم عن الحق أشد ولا يعادل زيغ أكثر الناس وانحرافهم. وقد قال سبحانه في حق أزواج النبي ﷺ: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساء﴾ [٣] فإن انحرف هؤلاء فقد انحرفوا في حال شهدوا النور، ولمسوا الحقيقة، وشتان بينهم وبين غيرهم.

---

١. سيرة ابن هشام: ٣/ ١١ و ٤/ ٤٤٤، ولاحظ التفاسير.

٢. تفسير القرطبي: ٧/ ٣٨٣.

٣. الأحزاب: ٣٢.

الصحابة في السنّة النبوية :

ونذكر في المقام بعض ماورد في مصادر أهل السنّة أنفسهم حول بعض الصحابة.

ففي صحيح البخاري: في تفسير سورة المائدة بسنده عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ... ـ إلىٰ أن قال: ــ ويجاء برجال من أُمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: يارب أصيحابي، فيقال إنّك لا تدري ما أحدَثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِم شَهيداً مَادُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِم﴾ [١]. فيقال إنّ هؤلاء لم يزالوا مرتدّين علىٰ أعقابهم منذ فارقتهم[٢].

ورواه الترمذي في تفسير سورة الأنبياء أيضاً .

وجاء في موطأ مالك: عن أبي النضر أنّه بلغه أنّ رسول الله ﷺ قال لشهداء أُحد: هؤلاء أشهد عليهم، فقال أبو بكر: ألسنا يارسول الله إخوانهم، أسلمنا كما أسلموا، وجاهدنا كما جاهدوا؟

فقال رسول الله ﷺ: بلىٰ ولكن لا أدري ما تحدثون بعدي.

فبكىٰ أبو بكر ثم قال: أئنّا لكائنون بعدك؟ [٣].

وهل أتىٰ الشيعة الإمامية بجديد إذا كانوا يفرّقون في الحب والمودة بين جماعة وأُخرىٰ، وقد أمر القرآن بذلك في أكثر من آية؟

ثم إنّ «جبرين» وأمثاله لماذا يغمضون عيونهم عن حقائق القرآن ولا يصارحون الناس بها فهم بدل اتّخاذ مواقف شريفة يمليها الحق والإنصاف يعمدون إلىٰ تكفير طائفة كبرىٰ من طوائف المسلمين وهم الشيعة الإمامية

---

١. المائدة: ١١٧.

٢. صحيح البخاري: ٦/ ٥٥، تفسير سورة المائدة .

٣. الموطأ: ١ /٣٠٧، كتاب الجهاد ، الشهداء في سبيل الله.

ويرونهم مستحقّين للقتل والإبادة، ولا يوجّه مثل هذه الفتوىٰ ضد الصهاينة في فلسطين، والأمريكان الذين يدنسون أرض المقدّسات؟

لماذا لا يحارب الفساد الأخلاقي والسياسي في مشرق الإسلام ومهجر الرسول، ولا يفكر في تسيّب الشباب هناك وتسرّب اللاّدينية، والانحراف العقائدي إلىٰ قلوبهم البريئة؟!

لماذا تصدر هذه الفتوىٰ في هذا الظرف الذي انهارت فيه الشيوعية، واعترف «غورباتشوف» بأن السبب الرئيسي وراء هذا المصير الذي آل إليه الاتحاد السوفيتي هو نسيان الله وتجاهل الفطرة التي فطر الناس عليها كما قال في خطاب الاستقالة مؤخراً؟! وهو الأمر الذي ذكَّرَه به الإمامُ الراحلُ الخميني في رسالَتِهِ التاريخية إليه.

لماذا في مثل هذا الظرف الهامّ الذي يتوجّه العالم إلىٰ الإسلام ويتطلَّع المستضعفون إلىٰ المسلمين، وهو أمر يفرض العمل الجاد لتوحيد صفوف المسلمين وإظهارهم في مظهر الأُمة الواحدة القوية علىٰ اختلاف مذاهبها ومسالكها التي تتمحور حول أُصول الإيمان وتتّفق فيها وإن اختلفت في بعض الاجتهادات الفرعية العلمية؟!

أقول: لماذا ينبري مجلسُ الإفتاء السعودي متمثّلاً بالمدعوّ «جبرين» وبعض زملائه إلىٰ شق عصا المسلمين وإثارة النعرات الطائفية، وعزل أكبر قطعة من جسم الأُمّة الإسلامية التي هي الآن صخرة صمّاء أمام تلاطم أمواج الكفر والاستكبار رافعة راية لا إلٰه إلاّ الله، كلمةً وعملاً وظهرها ومتكأها هو الباري صاحب الكلمة، فأين يا ترى موقفه أمام أعداء الإسلام اليوم وكيف سيواجه خالقه وقد أفرح بفعلته هذه قلوب المستكبرين والظلمة والمنافقين؟!!

وهل أذنب الشيعةُ إذا هم اتّبعوا وأحبوا مَن أمرَ القرآن باتّباعهم ومحبّتهم

من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً والذين فرض محبتهم ومودتهم بقوله: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَىٰ﴾[1]؟

المطلوب مؤتمر للحوار العلمي الديني :

نحن ندعو علماء الوهابية إلىٰ حوار علمي صريح وبنّاءٍ يحضره علماء المسلمين لمناقشة ما يعتقدونه، أوّلاً، وما يرمون به المسلمين ويكفّرونهم بسببه ثانياً، إنهاءً لهذه المواقف المضرّة بالمسلمين وقطعاً لدابر الفتنة والاختلاف.

نحن نهيب بمفكري الأُمّة الإسلامية وبالشباب في البلاد الإسلامية أن يضغطوا علىٰ مجلس الإفتاء السعودي بغية الدخول في مناظرة مع علماء الشيعة الإمامية بصورة خاصة، وعلماء الطوائف الإسلامية الأُخرىٰ بصورة عامة في حوار علمي جادّ... لوضع حدٍّ لمُسلسل التكفيرات والمذابح الناشئة عنها، ونحن نحمّل المسلمين كلّ الجرائم التي ستنشأ من هذه التكفيرات التي تعكس أهداف الاستعمار الحاقد، لو سكتوا وتركوا الأمر.

وإنّنا لنحذّر المسلمين بأنّ هذا الموقف الصادر من «الجبرين» ونظرائه الذين لايهمّهم إلاّ تكفير المسلمين ورميهم بالشرك تاركين الصهاينة والصليبيّين يسرحون ويمرحون في بلاد الإسلام، لن يقتصر علىٰ الشيعة الإمامية بل سيشمل الطوائف الأُخرىٰ، لأنّ الوهابيين الذين يرفعون شعار التوحيد يكفرّون عامة المسلمين إلاّ أنفسهم، فهل من مدّكر؟!.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الرسالة الرابعة

المسلمون وتكفير أهل القبلة

الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه المنتجبين

إلى إخواننا المسلمين في اليابان وفقهم الله لمرضاته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وصلتنا بعض المنشورات التي تتبنىٰ إيجاد الفرقة بين المسلمين مكان الدعوة إلى الاعتصام بحبل الله والتمسك بالكتاب والسنّة، والعيش تحت ظلال الإيمان بالله تبارك وتعالى، ورسالة نبيه ﷺ اللّذين يربطان عامّة المسلمين بعضهم ببعض.

في العصر الذي ترزح فيه أُولى القبلتين تحت وطأة الصهاينة، وأصبحت بلاد الوحي والرسالة مركزاً لجيوش الغزو الغربي، و تجري في البوسنة والهرسك مذابح عامة للمسلمين، نسائهم وأطفالهم.

وفي هذا العصر الذي يهاجم فيه الغرب المسلمين ويقتل مفكريهم وشبابهم ويفسد أخلاقهم ويدمر كيانهم قامت عدة من العملاء بفصل طائفةٍ كبيرةٍ من المسلمين عن كيان الأُمّة الإسلامية وكأنّ الهجوم على أتباع أئمّة أهل البيت وتكفيرهم ورميهم بالابتداع هو الدواء الناجع .

إنّ المسلمين اليوم بحاجة ماسة إلى التماسك والوحدة ورصِّ الصفوف أمام

الهجوم الثقافي والفكري، فمن دعا إلى الوحدة والاعتصام فقد اقتفى الذكر الحكيم، قال سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعاً ولا تَفرّقُوا﴾ [١] ومن دعا إلى الفرقة فقد ابتعد عمّا دعا إليه الكتاب واقتفى سنّة المشركين قال سبحانه: ﴿ ... ولاَ تكُونُوا مِن المُشْرِكِينَ * مِنَ الّذِينَ فَرّقوا دِينَهُم وكانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُون﴾ [٢] ولكنا نمرّ على كلماتهم وأعمالهم مرور الكرام ونركز على تحليل مسألتين في ضوء الكتاب والسنّة حتى يتبين المبتدع من المتمسك بهما وهما:

١ـ الاحتفال بمولد النبي ﷺ.

٢ـ تكفير أهل القبلة.

فقد استعرض الأُولى الشيخ صالح بن غانم السدلان وزميله الدكتور فهد السنيدي فتكريم النبي ﷺ يوم ميلاده وتعزيره عندهم بدعة وقد نَشرت مجلة الشرق الأوسط ما أدليا به، وليس في كلاميهما شيء جديد سوى ما في كلام شيخهما ابن تيمية ومجدد مذهبه محمد بن عبد الوهاب وقد عاد المحاضران يجترّان نفس ما ورثاه من إماميهما.

ومن العجب جداً انّ اقامة الاحتفال لميلاد الملوك والرؤساء تكريماً لهم أمرٌ غير محظور ولكن تكريم ميلاد النبي الأكرم ﷺ أمر مبتَدع حرام وكأنّهم لم يسمعوا قوله سبحانه: ﴿فالّذِينَ آمنُوا بِهِ وعَزّرُوهُ ونَصرُوه﴾ [٣]. فتعزيره غير نصره، وغير الإيمان به فكما أنّ الإيمان به لا يختص بوقت دون وقت فكذلك تكريمه وتعظيمه، فهذه الآية الداعية إلى تكريم النبي ﷺ مطلقة غير محددة بزمان خاص من حيث الدعوة وتخصيصه بيوم الميلاد من جهة ملابسات تُسهِل للمسلمين تجسيد الآية في ذلك اليوم.

١. آل عمران: ١٠٣.

٢. الروم: ٣١ـ ٣٢.

٣. الأعراف: ١٥٧.

إنّه سبحانه يصف النبي ﷺ ويقول: ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾ [1] فالمحتفلون يوم ميلاده يجسدون ذلك الترفيع.. أفيمكن أن يكون ترفيعه اتباعاً للذكر الحكيم حراماً؟!

وأمّا الثانية: فإنّ القائلين بتكفير بعض الطوائف الإسلامية هم الذين لا يرغبون في وحدة المسلمين، وهم لا يكفّرون الشيعة فحسب بل يكفّرون قاطبة المسلمين سوى أتباع محمد بن عبد الوهاب غير أنّهم كانوا يجهرون بتكفير جميع المسلمين في الأزمنة السابقة ويغزونهم ويقتلونهم وينهبون أموالهم ولكنهم اليوم يتقون ولا يبدون كل ما يضمرون غير تكفير الشيعة فهذا «موسى بايكي» أحد العملاء للوهابية أخذ يكفر الشيعة ويحرم ذبائحهم، فهل درس القرآن الكريم والسنّة النبوية في تحديد الإيمان والكفر أو أنّه أخذ مقياساً من عندِ نفسه دعماً لمبدئه فصار يكفر شيعة آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ؟ وها نحن ندرس في هذه الرسالة المتواضعة حدود الكفر والإيمان، حتىٰ يقف القارئ على أنّ الطوائف الإسلامية المشهورة بين السنّة والشيعة كلّهم مسلمون مؤمنون حسب الضابطة التي نص عليها النبي ﷺ وجرى عليها السلف الصالح طيلة القرون الماضية وإليك البيان:

١

الاحتفال بمولد النبيّ ﷺ

الاحتفال بمولد النبي ﷺ، من مظاهر حب النبي الأكرم الذي حبّه وتكريمه وتعزيره أصل في الكتاب والسنّة.

إنّ لحب نبي الإسلام مظاهر ومجالي، إذ ليس الحب شيئاً يستقر في صقع النفس من دون أن يكون له انعكاس خارجي على أعمال الإنسان وتصرفاته، بل انّ من خصائص الحب أن يظهر أثره على جسم الإنسان وملامحه، وعلى قوله وفعله، بصورة مشهورة وملموسة.

فحب الله ورسوله الكريم لا ينفك عن اتّباع دينه، والاستنان بسنّته، والإتيان بأوامره والانتهاء عن نواهيه، ولا يعقل أبداً أن يكون المرء محباً لرسول الله ﷺ أشدَّ الحب، ومع ذلك يخالفه فيما يبغضه ولا يرضيه، فمن ادّعى حباً في نفسه وخالفه في عمله فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين.

ولنعم ما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في هذا الصدد موجهاً كلامه إلى مدّعي الحب الإلهي كذباً:

تعصي الإله وأنتَ تظهر حبَّه ... هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعتَه ... إنّ المحب لمن يحب مطيع [1]

---

١. سفينة البحار: مادة «حب».

للحبِّ مظاهر وراء الاتباع:

نعم لا يقتصر أثر الحب على هـذا، بل له آثار أُخرى في حيـاة المحب، فهو يزور محبوبه ويكرمـه ويعظمه ويزيل حاجته، ويذبّ عنه، ويـدفع عنه كل كارثة ويهيئ له ما يريحه ويسره إذا كان حياً.

و إذا كان المحبوب ميتاً أو مفقوداً حزن عليه أشد الحزن، وأجرى له الدموع كما فعل النبي يعقـوب عليه السلام عندمـا افتقد ولده الحبيب يـوسف عليه السلام فبكاه حتىٰ ابيضّت عينـاه من الحزن، وبقي كظيماً حتىٰ إذا هبّ عليـه نسيم من جانـب ولده الحبيب المفقود، هشَّ له وبشَّ، وهفا إليه شوقاً وحبّاً.

بل يتعدّى أثر الحب عند فقد الحبيب وموته هذا الحد، فنجد المحب يحفظ آثار محبوبه، وكـل ما يتصل به، من لباسه وأشيائه كقلمـه ودفتره وعصاه ونظارته. كما ويحترم أبناءه وأولاده، ويحترم جنازتـه ومثواه، ويحتفل كل عام بميـلاده وذكرى موته، ويكرمه ويعظمه حباً به ومودة له.

إلى هنا ثبـت، أنّ حب النبي وتكـريمه أصل مـن أُصول الإسـلام لا يصح لأحد إنكاره، ومن المعلوم أنّ المطلـوب ليس الحب الكامن في القلب من دون أن يُرىٰ أثـره على الحياة الواقعية، وعلى هـذا يجوز للمسلم القيام بكل ما يعـد مظهراً لحب النبي شريطـة أن يكون عملاً حـلالاً بالـذات ولا يكون منكـراً في الشريعة، نظير:

١ـ **تنظيـم السنّـة النبويـــة**، وإعراب أحاديثهـا وطبعهـا ونشرها بالصـور المختلفـــة، والأساليـب الحديثة، وفعل مثـل هذا بـالنسبة إلى أقـوال أهل البيت وأحاديثهم.

٢ـ **نشر المقالات والكلمات**، وتأليف الكتب المختصرة والمطولة حول حياة

النبي ﷺ وعترتـه، و إنشاء القصـائد بشتى اللغـات والألسن في حقّهم، كما كـان يفعله المسلمون الأوائل.

فالأدب العربي بعد ظهور الإسـلام يكشف عن أنّ إنشاء القصائد في مدح رسول الله ﷺ كان ممّا يعبّـر به أصحابها عن حبهم لرسول الله ﷺ.

فهذا هو كعب بن زهير ينشئ قصيدة مطولة في مدح رسول الله ﷺ منطلقاً من إعجابه وحبه له ﷺ فيقول في جملة ما يقول:

بـانـت سعـاد فقلبـي اليـوم متبـول ... متيّـم إثــرهـــا لم يُفــد مكبـــول

نُبِّئــتُ أنّ رســــول الله أوعـــــدني ... والعفــو عنــد رســول الله مـأمــول

ويقول:

مهــلاً هــداك الـذي أعطــاك نــــا ... فلـة القـرآن فيهـا مـواعيظ وتفصيـل

إنّ الــرســول لنــور يستضـــاء بــه ... مهنّــد مـن سيـوف الله مسلــول[1]

وقد ألقـى هذه القصيدة في مجلـس رسول الله ﷺ وأصحابه، ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ.

وهذا هو حسّان بن ثابت الأنصاري يرثي النبي ﷺ، ويذكر فيه مدائحه، ويقول:

بطيبــة رســم للــرســول ومَعْهَـد ... مُنير وقــد تعفــو الـرســومُ وتهمــدُ

إلى أن قال:

يــدل علىٰ الــرحمان من يقتــدي بــه ... وينقـذ مـن هـول الخزايـا ويـرشـد

إمـــام لهم يهديهم الحق جـاهـــداً ... معلّم صـدقٍ إن يطيعـوه يَسْعـدُوا[2]

---

١. ابن هشام: السيرة النبوية: ٢/ ٥١٣.

٢. المصدر نفسه: ٢/ ٦٦٦.

وهذا هو عبد الله بن رواحة ينشئ أبياتاً في هذا السياق فيقول فيها:

خلّوا بني الكفار عن سبيله خلّوا فكل الخير في رسوله
يا رب إنّي مؤمن بقيله أعرف حق الله في قبوله[1]

هذه نماذج ممّا أنشأها الشعراء المعاصرون لعهد الرسالة في النبي ﷺ ونكتفي بها لدلالتها على ما ذكرنا.

ولو قام باحث بجمع ما قيل من الأشعار والقصائد في حق النبي ﷺ لاحتاج في تأليفه إلى عشرات المجلدات.

إنّ مدح النبي كان الشغلَ الشاغل للمخلصين والمؤمنين منذ أن لبّى الرسول دعوة ربّه، ولا أظن أنّ أحداً عاش في هذه البسيطة نال من المدح بمقدار ما ناله الرسول ﷺ من المدح بمختلف الأساليب والنظم.

وهناك شعراء مخلصون أفرغوا فضائل النبي ومناقبه في قصائد رائعة وخالدة مستلهمين ما جاء في الذكر الحكيم والسنّة المطهرة في هذا المجال، فشكر الله مساعيهم الحميدة وجهودهم المخلصة.

٣ـ تقبيل كل ما يمت إلى النبي بصلة كباب داره، وضريحه وأستار قبره انطلاقاً من مبدأ الحب الذي عرفت أدلّته.

وهذا أمر طبيعي وفطري فبما أنّ الإنسان المؤمن لا يتمكّن بعد رحلة النبي ﷺ من تقبيل الرسول ﷺ[2] فيقبّل ما يتصل به بنوع من الاتصال، وهو كما

١. ابن هشام: السيرة النبوية: ٢/ ٣٧١.

٢. دخل أبو بكر حجرة النبي ﷺ بعد رحيله وهو مسجّى ببرد حبرة فكشف عن وجهه ثم أكبّ عليه فقبَّله ثم بكىٰ فقال: بأبي أنت يا نبي الله لايجمع الله عليك موتتين، أمّا الموتة التي كتبت عليك فقد مُتَّها. لاحظ صحيح البخاري: ٢/ ١٧ كتاب الجنائز.

أسلفنا، أمر طبيعي في حياة البشر حيث يلثمون ما يرتبط بحبيبهم ويقصدون بذلك نفسه. فهذا هو المجنون العامري كان يقبّل جدار بيت ليلى ويصرّح بأنّه لا يقبّل الجدار، بل يقصد تقبيل صاحب الجدار ، يقول:

أمرّ على الديار ديار ليلى — أُقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

فما حب الديار شغفن قلبي — ولكن حب من سكن الديارا

٤ـ **إقامة الاحتفالات** في مواليدهم وإلقاء الخطب والقصائد في مدحهم وذكر جهودهم ودرجاتهم في الكتاب والسنّة، شريطة أن لا تقترن تلك الاحتفالات بالمنهيات والمحرمات.

ومن دعا إلى الاحتفال بمولد النبي في أيّ قرن من القرون، فقد انطلق من هذا المبدأ أي حب النبي الذي أمر به القرآن والسنّة بهذا العمل.

هذا هو مؤلف تاريخ الخميس يقول في هذا الصدد: لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده، ويعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرّات، ويعتنون بقراءة مولده الشريف، ويظهر عليهم من كراماته كل فضل عظيم [1].

وقال أبو شامة المقدسي في كتابه: ومن أحسن ما يفعل في اليوم الموافق ليوم مولده ﷺ من الصدقات والمعروف بإظهار الزينة والسرور، فإنّ في ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء شعاراً لمحبته [2].

وقال القسطلاني: ولا زال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده عليه السلام، ويعملون الولائم، ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور، ويزيدون في

---

١. الديار بكري: تاريخ الخميس: ١/ ٣٢٣ .

٢. الحلبي: السيرة: ١/ ٨٣ـ ٨٤.

المبرّات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم ... فرحم الله امرءاً اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً، ليكون أشد علّة على من في قلبه مرض وأعيا داء [١].

إذا عرفت ما ذكرناه فلا تظن أن يشك أحد في جواز الاحتفال بمولد النبي ﷺ، احتفالاً دينياً فيه رضى الله ورسوله، ولا تصح تسميته بدعة، إذ البدعة هي التي ليس لها أصل في الكتاب والسنّة، وليس المراد من الأصل؛ الدليل الخاص، بل يكفي الدليل العام في ذلك.

ويرشدك إلى أنّ هذه الاحتفالات تجسيد لتكريم النبي؛ وجدانك الحر، فانّه يقضي ـ بلا مرية ـ على أنّها إعلاء لمقام النبي وإشادة بكرامته وعظمته، بل يتلقاها كل من شاهدها عن كثب على أنّ المحتفلين يعزّون نبيّهم ويكرمونه ويرفعون مقامه اقتداءً بقوله سبحانه: ﴿ورَفَعنا لكَ ذِكْرَكَ﴾ [٢].

السنّة النبوية وكرامة يوم مولده ﷺ :

١ـ أخرج مسلم في صحيحه، عن أبي قتادة أنّ رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين فقال: «فيه ولدت، وفيه أُنزل عليّ» [٣].

يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي ـ عند الكلام في استحباب صيام الأيام التي تتجدّد فيها نعم الله على عباده ـ ما هذا لفظه: إنّ من أعظم نعم الله علىٰ هذه الأُمّة إظهار محمد ﷺ وبعثته وإرساله إليهم، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ علَى المؤمنينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنْفُسِهِمْ﴾ [٤] فصيام يوم تجدّدت فيه هذه النعمة

---

١. المواهب اللدنية: ١/ ١٤٨.
٢. الانشراح: ٤.
٣. مسلم: الصحيح: ٣/ ١٦٨ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر من كتاب الصيام.
٤. آل عمران: ١٦٤.

من الله سبحـانه على عباده المؤمنين حسـن جميل، وهو مـن باب مقابلـة النعم في أوقات تجدّدها بالشكر [١].

٢ـ رویٰ مسلم في صحيحـه عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: لمّا قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشـوراء، فسُئلوا عن ذلك، فقالوا: هو اليوم الذي أظفـر الله موسى وبنـي إسرائيل على فرعـون، ونحن نصوم تعظيماً لـه، فقال رسول الله ﷺ: «نحن أولى بموسى» وأمر بصومه [٢].

وقـد استدل ابـن حجر العسقـلاني بهذا الحديـث على مشروعية الاحتفـال بالمولـد النبوي على ما نقله الحافظ السيـوطي، فقال: فيستفاد منـه فعل الشكر لله تعالىٰ على ما منّ به في يوم معين من إسداء نعمة، أو دفع نقمة ويعاد ذلك في نظير ذلك اليـوم من كل سنة. والشكـر لله يحصل بأنـواع العبادة، كـالسجود والصيام والصدقة والتلاوة، وأي نعمة أعظم من نعمة بروز هذا النبي نبي الرحمة في ذلك اليوم [٣].

٣ـ وللسيوطي أيضـاً كلام آخر نأتي بنصه، يقول: وقـد ظهر لي تخريج عمل المولد على أصل آخر، وهو ما أخرجه البيهقي عن أنس انّ النبي ﷺ عقّ عن نفسه بعد النبوة مع أنّـه قد ورد أنّ جده عبد المطلب عقّ عنه في سـابع ولادته، والعقيقة لا تعاد مـرة ثانية، فيحمل ذلك على أنّ الـذي فعله النبي ﷺ إظهار للشكر على إيجاد الله إيّـاه رحمة للعـالمين وتشريفـاً لأُمتـه كما كـان يصلّي على نفسـه، لـذلـك فيستحب لنا أيضاً إظهار الشكر بمولـده بالاجتماع، و إطعام الطعام، ونحو ذلك من وجوه القربات و إظهار المسرّات [٤].

---

١. ابن رجب الحنبلي: لطائف المعارف: ٩٨.

٢. مسلم: الصحيح: ٣/ ١٥٠ باب صوم يوم عاشوراء من كتاب الصيام.

٣. السيوطي: الحاوي للفتاوي: ١/ ١٩٦.

٤. السيوطي: الحاوي للفتاوي: ١/ ١٩٦.

٤ـ أخرج البخاري عن عمر بن الخطاب أنّ رجلاً من اليهود، قال له: يا أمير المؤمنين! آية في كتابكم تقرؤنها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً. فقال: أيّ آية؟ قال: **﴿اليومَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وأتْمَمْتُ عَلَيكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإسلامَ دِيناً﴾**[١].

قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة[٢].

وأخرج الترمذي عن ابن عباس نحوه وقال: فيه نزلت في يوم عيد من يوم جمعة ويوم عرفة، وقال الترمذي: وهو صحيح[٣].

وفي هذا الأثر موافقة عمر بن الخطاب على اتخاذ اليوم الذي حدثت فيه نعمة عظيمة، عيداً لأنّ الزمان ظرف للحدث العظيم، فعند عود اليوم الذي وقعت فيه الحادثة كان موسماً لشكر تلك النعمة، وفرصة لإظهار الفرح والسرور[٤].

نرىٰ أنّ المسيح عندما دعا ربه أن ينزل مائدة عليه وعلى حوارييه قال: **﴿اللّهمَّ ربَّنا أنْزِلْ عَلَينا مائِدَةً مَن السَّماءِ تَكُونُ لَنا عِيدَاً لأوّلِنا وَآخِرِنا وآيَةً مِنْكَ وارْزُقْنا وأَنْتَ خَيرُ الرّازِقينَ﴾**[٥].

فقد اتّخذ يوم نزول النعمة المادية التي تشبع البطون عيداً، والرسول ﷺ نعمة عظيمة منّ بها الله على المسلمين بميلاده، فلم لا نتّخذه يوم فرح وسرور؟

---

١. المائدة: ٣.

٢ و ٣. البخاري: الصحيح: ١/ ١٤ باب زيادة الإيمان ونقصانه من كتاب الإيمان ـ ٦/ ٥٠ تفسير سورة المائدة، وكما أخرجه الترمذي في ٥/ ٢٥٠، وفي الروايات المتضافرة أنّها نزلت في الثامن عشر من ذي الحجة في حجة الوداع.

٤. عيسى الحميري: بلوغ المأمول: ٢٩.

٥. المائدة: ١١٤.

إجماع المسلمين على تكريم مولده ﷺ :

ذكروا أنّ أوّل من أقام المولد هو الملك المظفر صاحب اربل، وقد توفي عام ٦٣٠ هـ وربّما يقال: أوّل من أحدثه بالقاهرة الخلفاء الفاطميون؛ أوّلهم المعز لدين الله، توجّه من المغرب إلى مصر في شوال ٣٦١ هـ وقيل في ذلك غيره، وعلى أيّ تقدير فقد احتفل المسلمون حقباً وأعواماً من دون أن يعترض عليهم أيّ ابن أُنثى، وعلى أيّ حال فقد تحقّق الإجماع على جوازه وتسويغه واستحبابه قبل أن يولد باذر هذه الشكوك، فلماذا لم يكن هذا الإجماع حجة؟! مع أنّ اتفاق الأُمّة بنفسه أحد الأدلّة، وكانت السيرة قائمة على تبجيل مولد النبي ﷺ إلى أن جاء ابن تيمية، وعبد العزيز بن عبد السلام [١]، والشاطبي فناقشوا فيه ووصفوه بالبدعة، مع أنّ الإجماع فيه انعقد قبل هؤلاء بقرنين أو قرون، أو ليس انعقاد الإجماع في عصر من العصور حجة بنفسه؟

إلى هنا وقفت على أنّ شرعية الاحتفال بمولد النبي ﷺ يثبتها القرآن الكريم والسنّة النبوية واتفاق المسلمين ومن فارقهم فقد فارق الطريق المستقيم ألذي لا عوج فيه، قال سبحانه: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمِنينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ [٢].

و إليك الكلام في المسألة الثانية:

---

١. هو عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي (٥٧٧ ـ ٦٦٠ هـ): فقيه شافعي، له من الكتب «التفسير الكبير» و«مسائل الطريقة» وغيرها. انظر أعلام الزركلي: ٤/ ٢١.

٢. النساء: ١١٥.

٢

تكفير أهل القبلة

لا يصح تكفير فرقـة من الفرق الإسـلامية ما دامت تعترف بـالشهادتين ولا تنكر ما يعد من ضروريات الدين التي يعرفها كل من له أدنىٰ إلمام بالشريعة و إن لم تكن له مخالطة كثيرة مع المسلمين. وعلىٰ ذلك فـالبلاء الذي حاق با لمسلمين في القرون الماضية وامتد إلىٰ عصرنـا الحاضر بلاء مبدِّد لشمل المسلمين أوّلاً، ومحرّم في نفس الكتاب والسنّة و إجماع المسلمين ثانياً، ومن المؤسف أنّ التعصّبات المذهبيّة الكلامية صارت أساساً لتكفير المعتزلـة أصحاب الحديث والأشاعرة وبالعكس، وربما عمّ البلاء شيعة أئمة أهـل البيت، فترىٰ أنّ بعض المتعصبين أخذوا يكفّرون الشيعة بـأُمور لو ثبتت لا تكـون سبباً للتكفير، فضلاً عن كـون أكثرها تهماً بـاطلة كالقول بتحريف القرآن ونظيره وأنّ الثابت منهـا، مدعم بالكتاب والسنّة، ولأجل أن يقف القارئ على مدىٰ البلاء في العصور السابقة، نذكر ما يلي:

١ ـ قال ابن حزم عندما تكلم فيمـن يُكفَّر ولا يكفَّر: وذهبت طائفة إلىٰ أنّه لا يُكفَّر ولا يُفسَّق مسلم بقول قال في اعتقاد، أو فتيا، و إنّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأىٰ أنّه الحق فإنّه مأجور علىٰ كل حال إن أصاب فأجران، و إن أخطأ فأجر واحد.

قال وهذا قول ابن أبي ليلىٰ وأبي حنيفـة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن

علي، وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة (رضي الله عنهم) لا نعلم منهم خلافاً في ذلك أصلاً [١].

٢ ـ وقال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي: إنّ الإقدام علىٰ تكفير المؤمنين عسر جداً، وكل من كان في قلبه إيمان يستعظم القول بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله، فإنّ التكفير أمر هائل عظيم الخطر (إلى آخر كلامه وقد أطال في تعظيم التكفير وتعظيم خطره) [٢].

٣ ـ وكان أحمد بن زاهر السرخسي الأشعري يقول: لمّا حضرت الشيخَ أبا الحسن الأشعريّ الوفاةُ بداري في بغداد أمرني بجمع أصحابه فجمعتهم له، فقال: اشهدوا علىٰ أنّني لا أُكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب، لأنّي رأيتهم كلّهم يشيرون إلىٰ معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمّهم [٣].

٤ ـ وقال القاضي الإيجي: جمهور المتكلّمين والفقهاء علىٰ أنّه لا يكفَّر أحد من أهل القبلة واستدل علىٰ مختاره بقوله: إنّ المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة من كون الله تعالىٰ عالماً بعلم زائد على ذاته أو موجداً لفعل العبد، أو غير متحيز ولا في جهة ونحوها لم يبحث النبي عن اعتقاد من حكم بإسلامه فيها ولا الصحابة ولا التابعون، فعلم أنّ الخطأ فيها ليس قادحاً في حقيقة الإسلام.

ثم إنّ الإيجي ذكر الأسباب الستة التي بها كفّرتِ الأشاعرةُ المعتزلةَ، ثم ناقش في جميع تلك الأسباب وأنّها لا تكون دليلاً للكفر.

ثم ذكر الأسباب الأربعة التي بها كفّرتِ المعتزلةُ الأشاعرةَ وناقش فيها وأنّها لا تكون سبباً للتكفير.

ثم ذكر الأسباب الثلاثة التي بها تكفّر شيعة أهل البيت وناقش فيها وأنّها

١. ابن حزم: الفصل: ٣/ ٢٤٧.

٢ و ٣. الشعراني: اليواقيت والجواهر: ٥٨.

لاتكون سبباً للكفر(١).

والحقّ أنّ القاضي قد نظر إلىٰ المسألة بعين التحقيق وأصاب الحقّ إلاّ في بعض المسائل. فقد ناقش في أسباب تكفير المجسمة وهو في غير محلّه والتفصيل لايناسب المقام.

٥ ـ وقال التفتازاني: إنّ مخالف الحق من أهل القبلة ليس بكافر مالم يخالف ما هو من ضروريات الدين كحدوث العالم وحشر الأجساد، واستدلّ بقوله: إنّ النبي ومن بعده لم يكونوا يفتشون عن العقائد وينبّهون علىٰ ما هو الحق.

فإن قيل: فكذا في الأُصول المتفق عليها.

قلنا: لاشتهارها وظهور أدلّتها علىٰ ما يليق بأصحاب الجمل.

ثم أجاب بجواب آخر وقال:

قد يقال ترك البيان إنّما كان اكتفاءً بالتصديق الإجمالي إذ التفصيل إنّما يجب عند ملاحظة التفاصيل، وإلاّ فكم مؤمن لا يعرف معنىٰ القديم والحادث.

فقد ذهب الشيخ الأشعري إلىٰ أنّ المخالف في غير ما ثبت كونه من ضروريات الدين ليس بكافر، وبه يُشعر ما قاله الشافعي ـ رحمه الله ـ: لا أرد شهادة أهل الأهواء إلاّ الخطابية لاستحلالهم الكذب.

وفي المنتقىٰ عن أبي حنيفة أنّه لم يكفِّر واحداً من أهل القبلة وعليه أكثر الفقهاء، ثم ذكر بعض الأقوال من الأشاعرة والمعتزلة الذين كانوا يكفّرون مخالفيهم في المسألة(٢).

قال ابن عابدين: نعم يقع في كلام أهل المذهب تكفير كثير، لكن ليس من

---

١. الإيجي: المواقف: ٣٩٢ ـ ٣٩٤.

٢. التفتازاني، شرح المقاصد: ٥ /٢٢٧ـ٢٢٨.

كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون، بل من غيرهم ولا عبرة بغير الفقهاء، والمنقول عن المجتهدين ما ذكرنا [١].

ولعل بعض البسطاء يتصوّر أنّ العاطفة والمرونة الخارجة عن إطار الإسلام هي التي صارت مصدراً لهذه الفتيا، ولكنّه سرعان ما يرجع عن قضائه إذا وقف علىٰ الأحاديث المتوفرة الواردة في المقام الناهية عن تكفير أهل القبلة، وإليك سردها:

السنّة النبوية وتكفير المسلم :

قد وردت أحاديث كثيرة تنهى عن تكفير المسلم الذي أقرّ بالشهادتين فضلاً عمّن يمارس الفرائض الدينية، وإليك طائفة من هذه الأحاديث:

١ـ «بُني الإسلام علىٰ خصال: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، والجهاد ماض منذ بعث رسله إلىٰ آخر عصابة تكون من المسلمين ... فلا تكفّروهم بذنب ولاتشهدوا عليهم بشرك».

٢ـ «لاتكفّروا أهل ملّتكم وإن عملوا الكبائر» [٢].

٣ـ «لاتكفّروا أحداً من أهل القبلة بذنب وإن عملوا الكبائر».

٤ـ «بُني الإسلام علىٰ ثلاث: ... أهل لا إله إلاّ الله لا تكفّروهم بذنب ولا تشهدوا لهم بشرك».

٥ـ عن أبي ذر: أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أو بالكفر إلاّ ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك».

---

١. ابن عابدين: رد المختار: ٤ /٢٣٧.

٢. نعم الكبائر توجب العقاب لا الكفر.

٦ـ عن ابن عمر: إنّ رسول الله ﷺ قال: «من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما».

٧ـ «من قذف مؤمناً بكفر فهو كقاتله، ومن قتل نفساً بشيء عذّبه الله بما قتل».

٨ ـ «من كفّر أخاه فقد باء بها أحدهما».

٩ـ «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقتله، ولعن المؤمن كقتله».

١٠ـ «أيّما رجل مسلم كفّر رجلاً مسلماً فإن كان كافراً وإلاّ كان هو الكافر».

١١ـ «كفّوا عن أهل لا إله إلاّ الله لا تكفّروهم بذنب، فمن كفّر أهل لا إله إلاّ الله فهو إلىٰ الكفر أقرب».

١٢ـ «أيّما امرئ قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال وإلاّ رجعت عليه».

١٣ـ «ما أكفر رجل رجلاً قط إلاّ باء بها أحدهما».

١٤ـ «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء به أحدهما إن كان الذي قيل له كافراً فهو كافر، وإلاّ رجع إلىٰ من قال».

١٥ـ «ما شهد رجل علىٰ رجل بكفر إلاّ باء بها أحدهما، إن كان كافراً فهو كما قال، وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إيّاه».

١٦ـعن علي عليه السلام: في الرجل يقول للرجل: يا كافر ياخبيث يافاسق ياحمار؟ قال: «ليس عليه حد معلوم، يعزر الوالي بما رأىٰ»[1].

---

١. هذه الأحاديث مبثوثة في جامع الأُصول: ١، و ١٠، ١١ كما أنّها مجموعة بأسرها في كنز العمال للمتقي الهندي: ج١.

١٧ـ حدثنا أُسامة بن زيد قال: بعثنا رسول الله ﷺ سرية إلىٰ الحُرَقات، فنذروا بنا فهربوا فأدركنا رجلاً فلما غشيناه قال: لا إله إلاّ الله، فضربناه حتىٰ قتلناه فعرض في نفسي من ذلك شيء فذكرته لرسول الله ﷺ فقال: «مَنْ لَكَ بِلا إلٰه إلاّ الله يوم القيامة؟» قال: قلت: يارسول الله، إنّما قالها مخافة السلاح والقتل، فقال: «ألا شققت عن قلبه حتىٰ تعلم من أجل ذلك أم لا ؟ مَنْ لَكَ بِلا إلٰه إلاّ الله يوم القيامة؟» قال: فما زال يقول ذلك حتىٰ وددت أنّي لم أُسلم إلاّ يومئذ[١].

١٨ـ لما خاطب ذو الخويصرة الرسول الأعظم ﷺ بقوله اعدل، ثارت ثائرة من كان في المجلس ومنهم خالد بن الوليد قال: يارسول الله! ألا أضرب عنقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «فلعله يكون يصلّي»، فقال: إنّه ربّ مصلٍّ يقول بلسانه ماليس في قلبه، فقال رسول الله ﷺ: «إنّي لم أُؤمر أن أُنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم»[٢].

ما هو المقوّم للإسلام:

إنّ دخول الإنسان في حظيرة الإسلام رهن الإقرار بالشهادتين والتصديق بالتوحيد والرسالة وفي بعض الروايات يضاف إليهما إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان ، و إليك الصنفين:

---

١. صحيح مسلم: ١/ ٦٧، باب تحريم قتل الكافر من كتاب الإيمان؛ سنن أبي داود: ٣/ ٤٥ برقم ٢٦٤٣؛ مسند أحمد: ٥/ ٢٠٧؛ سنن ابن ماجة: ٢/ ١٢٩٦ برقم ٣٩٣٠.

٢. صحيح مسلم: ٣/ ١١١ باب ذكر الخوارج وصفاتهم من كتاب الزكاة مسند أحمد: ٣/ ٤.

الصنف الأوّل، وهو ما اقتصر على إظهار الشهادتين:

١ ـ أخرج البخاري عن عمر بـن الخطاب أنّ علياً صرخ: «يا رسول الله علىٰ ماذا أُقاتل الناس؟» قال ﷺ: «قاتلهـم حتىٰ يشهدوا أنّ لا إلـه إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منـك دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم علىٰ الله» (١).

٢ ـ مـا أخرجه الإمام الشـافعي عن أبي هريرة أنّ رسـول الله قال: «لا أزال أُقاتل النّـاسَ حتىٰ يقولُوا: لا إلـه إلاّ الله، فإذا قالـوها فقد عصموا منّـي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم علىٰ الله» (٢).

٣ ـ روىٰ التميمـي عن الإمام الـرضا عليه‌السلام عن آبـائه عن عليّ، قال: «قـال النبي: أُمـرت أن أُقاتل النّـاس حتىٰ يقولـوا لا إله إلاّ الله، فإذا قـالوا حـرمت عليّ دماؤهم وأموالهم» (٣).

٤ ـ روىٰ البرقي مسنداً عن الإمام الصادق عليه‌السلام أنّه قال: «الإسلام يحقن به الدم، وتؤدّىٰ به الأمانة، ويستحلّ به الفرج، والثواب علىٰ الإيمان» (٤).

٥ ـ وقال الإمام الصادق عليه‌السلام: «الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله والتصديق برسول الله، به حقنت الدماء، وعليه جرت المناكح والمواريث» (٥).

٦ ـ قال الإمـام الشافعي: فأعْلَمَ رسـولُ الله أنّه سبحانه فـرض أن يقاتلهم

---

١. البخاري: الصحيح: ١ / ١٠، باب ﴿فإن تابوا وأقامـوا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ من كتـاب الإيمان؛ وصحيح مسلم: ٧ / ١٢١، باب فضائل علي بن أبي طالب عليه‌السلام.

٢. الشافعي: الأم: ٦ / ١٥٧، ١٥٨.

٣. المجلسي: البحار: ٦٨ / ٢٤٢.

٤ و ٥. المجلسي: البحار: ٦٨ / ٢٤٣ ح٣ و ٢٤٨ ح٨.

حتىٰ يُظهِرُوا أنّ لا إله إلاّ الله، فإذا فعلوا منعوا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها[١].

٧ ـ قال القاضي عياض: اختصاص عصم النفس والمال بمن قال: لا إله إلاّ الله، تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، أو أنّ المراد بهذا مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحّد، وهم كانوا أوّل من دُعي إلىٰ الإسلام وقوتل عليه، فأمّا غيرهم ممّن يقرّ بالتوحيد فلا يكتفي في عصمته بقوله لا إله الإ الله إذا كان يقولها في كفره وهي من اعتقاده، ولذلك جاء في الحديث الآخر: وأنّي رسول الله، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة[٢].

وأمّا الصنف الثاني فنأتي ببعض نصوصه:

٨ ـ ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: «بُني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم شهر رمضان»[٣].

٩ ـ ما تضافر عن رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلاّ الله، واستقبل قبلتنا وصلّىٰ صلاتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، له ما للمسلم وعليه ما علىٰ المسلم»[٤].

١٠ ـ روىٰ أنس بن مالك عن رسول الله قال: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله، فإذا شهدوا ألاّ إله إلاّ الله و أنّ محمّداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا، وأكلوا ذبيحتنا، وصلّوا صلاتنا، حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلاّ بحقّها»[٥].

---

١. الشافعي: الأُم: ٧/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
٢. المجلسي: البحار: ٦٨/ ٢٤٣.
٣. البخاري: الصحيح: ١/ ١٦، باب أداء الخمس، من كتاب الإيمان.
٤ و ٥. ابن الأثير: جامع الأُصول: ١/ ١٥٨ ـ ١٥٩.

وهذه النصوص ـ وما أكثرها ـ تُصرِّح بأنّ ما تُحقَن به الدماء وتُصان به الأعراض ويدخل به الإنسان في عداد المسلمين ويتخيّم بخيمة الإسلام، هو الاعتقاد بتوحيده سبحانه ورسالة الرسول ﷺ، وهذا ما نعبر عنه ببساطة العقيدة وسهولة التكاليف الإسلامية.

إذا عرفت هذين الصنفين من الروايات فاعلم أنّ الجميع يهدف إلىٰ أمر واحد وهو أنّ الدخول في الإسلام والدخول تحت مظلّته ليس بأمر عسير بل سهل جداً، وليس في الإسلام ما هو معقّد في المعارف، ولا معسور في الأحكام، وشتان بين بساطة العقيدة فيه، والتعقيد الموجود في المسيحية من القول بالتثليث وفي الوقت نفسه الاعتقاد بكونه سبحانه إلهاًواحداً.

وعلىٰ ضوء هذا البحث فالمسلمون في أقطار العالم إخوة بكل طوائفهم تربطهم شهادة التوحيد والرسالة فتحرم دماؤهم ونواميسهم وأموالهم وتحل ذبائحهم، وبالجملة فالكل مسلمون مؤمنون لهم من الأحكام ما للمسلم والمؤمن.

فهذه المنشورات التي تهدف إلى فصل طائفة من المسلمين باتهامهم بالشرك أوراق ضالة مضلة يُضرب بها عرض الجدار ولا يقام لها في سوق الدين قيمة.

اللّهمّ إنّا نرغب إليك في دولةٍ كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله.

جعفر السبحاني

قم المشرفة

تحريراً في ٤ جمادى الأُولى

عام ١٤١٦ هـ

الرسالة الخامسة

موقف الشيعة الإمامية

من حديث الإفك

إنّ السيدة عائشة من زوجات النبي وأُمّهات المؤمنين لها من الشرف والكرامة ما لسائر نسائه ﷺ غير خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقد رأت النور في بيتها، وعاشت معه فترة طويلة، ولم يشك أحد من المسلمين القدامى والجُدد في براءتها من الافك الذي صنعته يد النفاق، ونشره عميد المنافقين وأذنابه «عبد الله بن أبي سلول» في عصر النبي ﷺ وحدّث عنه القرآن في آيات، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

﴿وَلَولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذا سُبْحانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[2].

وكفى في براءتها أنّه سبحانه سمّى النسبة إفكاً وبهتاناً عظيماً وأوعد من

تولّـى كبره بعذاب أليم.

ولأجل إيقاف إخواننـا أهل السنّة على موقف الشيعة من هـذه المسألة نأتي بنص أحـد أقطاب التفسير من علماء الإماميـة في القرن السـادس، أعني: الشيخ الطبرسي (٤٧١ ــ ٥٤٨هـ) مـؤلف «مجمع البيـان في علـوم القرآن»، الـذي طبق اسمه وكتابه أقطار العالم الإسلامي، يعرفه كل من له صلة بالتفسير وعلومه.

يقول رحمه الله بعد نقل آيات من سورة النور فيها لها صلة با لموضوع:

«روى الزهري، عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وغيرهما، عن عائشة أنّها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فـأيتهنّ خرج سهمها خرج بها، فـأقرع بيننـا في غزوة غـزاها، فخـرج فيها سهمي، وذلـك بعد مـا أنزل الحجاب، فخرجت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى فرغ من غزوه وقفل.

وروي أنّها كانت غزوة بني المصطلق من خزاعـة قالت: ودنونا من المدينة، فقمت حين أذنـوا بـالرحيـل، فمشيت حتى جـاوزت الجيش، فلما قضيـت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صـدرتي فإذا عِقد من جِزْع ظفار قـد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط الـذين كانوا يرحلونني فحملوا هودجي على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنّي فيه، وكانت النساء إذ ذاك خفافـاً لم يهبلهنّ اللحم ولم يغشهن اللحم إنّما يـأكلن العُلقة من الطعـام، فبعثوا الجمـل وسـاروا، ووجـدت عِقــدي، وجئت منـازلهم وليس بها داع ولا مجيـب، فسموت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنّ القـوم سيفقدوني فيرجعون إليّ، فبينا أنا جالسـة إذ غلبتني عيناي فنمـت، وكان صفـوان، المعطل السلمي قد عـرّس من وراء الجيش فـأصبح عنـد منـزلي، فـرأى سـواد إنسـان نـائم فعـرفني حين رآني، فخمـرت وجهي بجلبـابي ووالله ما كلّمنـي بكلمة حتى أنـاخ راحلتـه، فركبتهـا، فانطلق يقود الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين في حر الظهيرة فهلك من هلك فيَّ.

وكـان الـذي تولّـى كبره منهـم عبد الله بـن أبي سلـول، فقدمنـا المدينـة، فاشتكيت حين قدمتها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك وهو يرثيني في وجعي، غير أنّي لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى مـن حين اشتكي إنّما يـدخل فيسلـم ثم يقـول: كيف تيكـم؟ فـذلك يحزنني ولا أشعر بالسرّ ـ إلى أن قالـت: ـ استأذنت رسول الله إلى بيت أبي فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي وقلت لأُمي: يا أُمّاه ماذا يتحدث الناس؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقلّ ما كـانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلاّ أكثرن عليها، قلت: سبحان الله أوقد يحدث الناس بهذا؟ قالت: نعم، فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا اكتحل بنوم.

ثمّ أصبحت أبكي، ودعا رسول الله أُسامة بن زيد وعلي بن أبي طالب عليه السلام حين استلبث الوحـي يستشيرهما في فراق أهله، فأمّـا أُسامة فأشـار على رسول الله ﷺبالذي علم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود فقال: يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلاّ خيراً، فأمّا علي بن أبي طالب ـ عليه أفضل الصلوات ـ فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثيرة، وإن تسأل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقـال: يا بريرة! هـل رأيت شيئاً يريبك من عـائشة؟ قالت بريـرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قطّ أغمضـه عليها أكثر من أنّها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها.

قالت: وأنا والله أعلم أنّي بريئة، وما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولكنّي كنت أرجو أن يـرى رسول الله رؤيا يبرئني الله بها، فأنـزل الله تعالى على نبيه وأخذه ما كان يأخذه من برحاء الوحي حتّى أنّه لينحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الثاني مـن ثقل القول الذي أنزل عليـه، فلما سري عن رسول الله ﷺقال: أبشري يا عائشة أما الله فقد برّأك، فقـالت لي أُمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم

إليـه ولا أحمد إلاّ الله، فهو الـذي أنزل بـراءتي فأنزل الله تعـالى: ﴿إنّ الّذينَ جَاءُوا بالإِفْكِ﴾ الآيات العشر [١].

هذه مقالة الشيعة ولو كان لهم ولغيرهم من سائر الطوائف الإسلامية كلام في حقّ السيـدة فإنّما يـرجع إلى وقعـة الجمل وهـي ذي شجون ولأعـلام المسلمين ومحققي التاريخ كلمات حولها ومن أراد فليرجع إليها.

اللّهم ارزق المسلمين توحيد الكلمة، كما رزقتهم كلمة التوحيد

جعفر السبحاني

قم المقدسة

٨ جمادى الآخرة عام ١٤١٥هـ

الرسالة السادسة

مبدأ حي وتعاليم قيّمة

كانت مجلة «مكتب إسلام» [1] قد نشرت في عددها الخاص [2] مقالاً ضافياً حول مذهب الشيعة باللغات العالمية الحية: العربية والانكليزية والفارسية.

ولما كان المقال على منهج جديد، تجاوب مع شعور كثير من القراء والمفكّرين في العالم الإسلامي وقد ألحّوا علينا أن نفرد المقال بالطبع والنشر.

وممّا لا يشكّ أي ذي مسكة فيه، أنّ السلطات الجائرة في غابر الزمان والدعايات المسمومة من جانب أعداء الإسلام أوجدت ستاراً وألقت أسدالاً على وجه الحقيقة، حالت دون وقوف المسلمين على مذهب الشيعة.

فلأجل هذا وذاك قامت الهيئة التحريرية للمجلة بتلبية نداء هذا الصنف من القرّاء بإفراد المقال بالطبع وتوزيعه في مختلف الأقطار على نطاق واسع بعد إعادة النظر فيه .

فها نحن نقدم للأُمّة الإسلامية وسائر الأُمم أُمّهات عقائد الشيعة ولباب أُصولها بغية تقريب الخطى، وحفظاً للوحدة والوئام بين الأُمّة جمعاء.

قم: ايران ـ مجلة «مكتب اسلام»

---

١. مجلة شهرية، علمية، دينية، ثقافية، تصدر عن الجامعة الإسلامية بقم المقدسة تهدف إلى بث روح الإيمان والعمل ومعالجة المعضلات الخلقية والاجتماعية ، أُسّست عام ١٣٧٨هـ. ق وما زال عطاؤها العلمي مستمرّاً إلى سنتنا هذه ١٤١٩هـ.ق.

٢. العدد السابع سنة ١٣٨٦هـ .ق.

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس الغـرض من وضع هـذا المقال سرد عقائد الشيعـة وما لها مـن أُصول ومبـادئ وأفكار، لأنّ ذلك يـدفعنـا إلى تأليف كتـاب مفرد، وإنّما الهدف إيقـاف القارئ على مبـادئ التشيّع وأُسسه على وجه الإجمال بأوضح العبـارات وأخصرها كي يـرجع إليه من ليـس له إلمام صحيح ومعرفـة وافية بـأُصول تلك الطـائفة ولا يكون من الذين أخذوا مبادئ التشيّع عن كُتّاب مغرضين .

ولمّا كان هـذا المقال يصدر عن معهـد علميّ له تاريخه الحافل بين معـاهد الشّيعة الكبيرة، فسيجده القـارئ كافياً في ازاحة الستـار عن كثير من المختلقات والمبهمات التي حامت حول مذهب الشيعة وفيه أجوبة لكثير من الأسئلة الّتي قد تتبادر إلى الأذهان.

وإليك الإشارة إلى العناوين المطروحة في المقال:

* الشيعة في الوقت الحاضر
* الجامعات العلمية للشيعة
* نشوء مذهب الشيعة
* مكانة القرآن الكريم عند الشيعة
* الشيعة وسائر الفرق الإسلامية
* عقائد الشيعة
* مميزات الشيعة
* المصادر الدينية للشيعة
* نماذج من الوظائف الأخلاقية والاجتماعية عند الشيعة

وذلك ضمن فصول:

١

الشيعة في الماضي و الحاضر

تدلّنا الإحصاءات الدقيقة على أنّ التشيّع في الوقت الحاضر يدين به أكثر من مائتين وخمسين مليون نسمة وهم متفرّقون في أقطار العالم وأرجاء الدُّنيا يقطنون غالباً في إيران والعراق وباكستان والهند واندونسيا وسوريا ولبنان و المملكة السعوديّة و أفغانستان وتركيا والقفقاس ومصر وأمارات الخليج وإفريقية الشرقية والمركزية والأمريكتين والصين، إلى غيرها من البلاد،وتشكّل الشيعة رُبع فرق المسلمين .

ولهذه الطائفة مساهمة فعالة في تأسيس الحضارة الإسلامية، فانّهم حازوا قصب السبق على غيرهم في حفظ التراث الإسلامي.

ومع الأسف الشديد لم تُعْرف الشيعة حقّ المعرفة حتّى أنّ إخواننا أهل السنّة على الرغم من تعايشهم مع الشيعة لا يعرفون عن مذهب الشيعة إلاّ النزر اليسير.

وليس ذلك جديداً فانّ المستعمرين وأذنابهم وجدوا أهدافهم وتحقّق مآربهم في فصل السنّة عن الشيعة وتأجيج نار الشحناء والبغضاء بينهما، ولم يقتصروا على ذلك فحسب بل استعانوا بتشويه الحقائق وتحويرها بغية ترسيخ ذلك التعصّب البغيض.

وقد خلّفت تلك العوامل مضاعفات سيّئة ، أعقبها حروب طاحنة بين الفئتين غير أنّ تلك القلاقل والفتن لم تُنتج سوى وهن الإسلام وضرب المسلم أخاه المسلم.

لكن الله أبطل سعيهم وأفسد كيدهم بيقظة المسلمين بعد طول سبات، وتقدُّمهم في معترك الحياة فتعارفوا بعد ما تناكروا وتآلفوا بعدما تباغضوا.

وقد قام عدد كبير من أساتذة جامعة الأزهر بمعاضدة بعض مفكّري الشيعة بتأسيس دار للتقريب بين المذاهب الإسلاميّة والهدف الاسمى لتلك الجمعيّة الثقافيّة كما ينبئ عنه عنوان «دار التقريب بين المذاهب الإسلامية» هوالتقريب بين فرق المسلمين والقيام على جمع كلمة الطوائف الإسلاميّة الّذين فرّقتهم آراء لا تتّصل بالعقائد الّتي يجب الإيمان بها وقد تألّفت الجمعيّة من أعلام السنّة والشيعة، والسكرتير العامّ للجماعة هو شيعيّ إيرانيّ.

كما قامت الجمعيّة بإصدار مجلّة علميّة سمتها «رسالة الإسلام» لنشر دعوتها ورسالتها، وهي صحيفة حافلة بالمواضيع العلميّة الحيّة الّتي تلائم روح دعوتها ويساهم في كتابتها عدّة من كتاب علماء السنّة والشيعة وقد قطعت في ذلك المضمار شوطاً كبيراً.

ومن نتائج دعوتها الفتوى التاريخية الّتي أصدرها فضيلة الأُستاذ الأكبر الفقيد الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر فقال:

إنّ مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الاثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعاً كسائر مذاهب أهل السنّة فينبغي للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلّصوا من العصبية بغير الحقّ. [1]

---

١. راجع العدد الثالث من رسالة الإسلام السنة الحادية عشرة .

ولم يكن شيخ الأزهر الفقيد وحيداً في فتواه فقد سبقه إلى هذا الأُستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، شيخ الأزهر في وقته و إن لم يكن مجاهراً مثله.

وقد كان لتلك الفتوى التاريخيّة صدى واسع في المجتمع الإسلاميّ حيث أحكمت أواصر الأُخوّة و كرست روح التفاهم بين الطائفتين وتلقاها أعلام السنّة والشيعة بصدور رحبة.

الجامعات العلمية للشيعة

للشيعة الإماميّة جامعات علميّة مكتظّة بالأساتذة وروّاد العلم والتحقيق وأخصّ بالذكرجامعتين كبيرتين لهما منزلة ومكانة عظيمة:

١. **جامعة النجف الأشرف** ذلك المركز العلميّ العريق الّذي أُسّس منذ قرابة ألف عام عند مرقد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

٢. **جامعة قم** وهي جامعة كبيرة لها الأثر الكبير في نشر المذهب الشيعي إضافة إلى جامعة مشهد الّتي تأسّست عند مرقد الإمام الطاهر عليّ بن موسى الرضا عليه السلام وتضمُّ الجامعات المذكورة أكابر مراجع الشيعة وأعاظم زعمائها الدينيّين وقادتها الروحيّين ومهمّتهم تحمّل أعباء الزعامة والمرجعيّة الروحيّة العامّة مع بذل جهدهم في صيانة الجامعة وتربية طلاّبها بإلقاء الدروس في أندية البحث والتدريس وراء ما يقومون به من مهمّة الإفتاء.

وقد اكتظت الجامعات منذ تأسيسها بآلاف من روّاد العلم والمعرفة في كافة الاختصاصات، كلّ حسب استعداده وكفاءته إلى أن يقضي وطره وينال من التحصيل بغيته فتخوّله المرجعيّة الدينية مهمّة من المهمّات إمّا بالتخصّص في الوعظ والارشاد، وإمّا بتمثيل الزعيم الدينيّ في بلد أو قطر، وإمّا بإقامة الجماعة في مسجد، أو بالتدريس في نفس الجامعة إلى غير ذلك من الصلاحيات.

ومن مفاخر الشيعة أنّهم حازوا قصب السبق في تأسيس فنون الإسلام وتدوينها يقف على ذلك كلُّ من سبر تاريخ العلوم الإسلاميّة وأمعن النظر في نشوئها وتكاملها ففي طيات التاريخ والمعاجم دلائل واضحة على أنّ جُلّ العلوم الإسلاميّة أُسّست بيد الفطاحل من الشيعة والأعلام من أقدميهم. [١]

وللشيعة منهج خاصٌ في تربية الخطيب والمبلّغ فترى الخطيب واقفاً أمام حشد عظيم يلقي خطابة حماسية أوكلمة اجتماعيّة ارتجالاً بأحسن العبارات وأفصحها.

كان الزعيم الديني الأكبر الإمام البروجردي قدّس الله سرّه (١٢٩٢ـ ١٣٨٠هـ.ق) باذلاً تمام جهده في تعريف الشيعة على وجهها الصحيح ساعياً في هذا الطريق بكلّ ما أُوتي من حول وقوّة، لإيمانه بأنّ التشيّع قائم على أُسس منطقية وأنّه الملجأ الوحيد لحلّ المشاكل الاجتماعيّة والأخلاقيّة الّتي حاقت بالغرب.

كان الإمام المغفور له على إيمان بأنّه لو وقف العالم الغربيّ والشبيبة المتربيّة في أحضانه على مبادئ التشيّع وأُصوله ومعتقداته للجؤوا إليه بخاطر رحب وصدر منشرح.

وقد نجح ﷺ بعض النجاح في أهدافه فقام بإزاحة العقبات والعراقيل الّتي وضعت امامه ببعث رجال العلم إلى البلاد النائية مثل «واشنطن» و«هامبورغ» في أمريكا و ألمانيا، فقاموا بأعباء التبليغ والإشادة بمذهب الشيعة وتشكيل أندية الوعظ والإرشاد، و إقامة المؤتمرات حتّى وفّق لبناء مسجد عامر في ساحل بحيرة «الستر» في هامبورغ، وقد قام البناء على مزيج من الفنون المعمارية الشرقيّة

---

١. تجد تلك الدلائل والشواهد في كتاب «تأسيس الشيعة لفنون الإسلام» تأليف المرجع الديني الأكبر السيد حسن الصدر.

الإسلاميّة والغربيّة على أرض تربو مساحتها على أربعة آلاف متر تقام فيه الصلاة وتعقد فيه المؤتمرات والندوات يحضرها العديد من الجامعيين والتجّار ومن أسلم من الغربيّين من غير فرق بين الشيعيّ والسنّي والأبيض والأسود بل الجميع يقفون في صفّ واحد.

وللشيعة مكتبات عامرة ذات عظمة وشأن وفي طليعتها مكتبات النجف الأشرف وقم ومشهد وطهران تحفظ فيها النفائس والمخطوطات والآثار الإسلاميّة.

وممّا هو جدير بالذكر أنّ جامعتي الأزهر والقرويين في القاهرة والمغرب من أقدم الجامعات الّتي أُسّست بيد الشيعة، فقد قام المعزّ لدين الله أحد الخلفاء الفاطميّين المجاهرين بالتشيّع بتأسيس الأزهر الشريف في أواسط القرن الرابع كما أنّ جامعة القرويّين من آثار «الأدارسة» الحسنيّين ملوك مراكش.

نشوء مذهب الشيعة

لقد فسح المجال لذوي الأقلام المستأجرة لتشويه سمعة الشيعة ورمي التشيّع بأنّه فكرة خاصّة لطائفة انطوت على نفسها لاتمتُّ إلى المسلمين والإسلام بصلة، وإن اتّسمَت بطابع الإسلام مع أنّها هي الإسلام نفسه.

إذ ليس التشيّع مبدأ خاصاً وراء الإسلام، ولا الإسلام مبدأ يغاير التشيع، إنّما التشيّع هو نفس الإسلام الذي جاء به نبيّنا الأعظم ﷺ، والشيعة تدّعي أنّ أحسن الطرق وأبعدها عن الريب إلى معرفة الإسلام وما فيه من تعاليم إنّما هو أوصياؤه وأهل بيته الّذين تربّوا في مهبط الوحي فصاروا أقرب الناس إلى رسول الله من غيرهم، فالإسلام والتشيع حقيقة واحدة حدثا وتكوّنا في آن واحد.

مكانة القرآن الكريم عند الشيعة

إنّ القرآن الكريم هو المصدر الأوّل لدىٰ الشيعة كما هو عند المسلمين كافّة ولم يتطرّق إليه تحريف أو تشويه، وهو عندهم المقياس الوحيد لتمييز الموضوع من الصحيح في الأحاديث الإسلاميّة، وأنّ كلّ حديث خالف كتاب الله فهو زخرف يضرب به عرض الحائط.

الشيعة وسائر الفرق الإسلامية

لعلّك تقول: لماذا افترقت السنّة عن الشيعة؟ وما هي أسباب ذلك ؟ فنقول: إنّ الفارق الأساسيّ إنّما هو موضوع الإمامة، فانّ الخلافة الإسلاميّة عند الشيعة منصب إلهيٌّ خطير لا يقوم به إلاّ الأمثل فالأمثل من الأُمّة، وليس تشخيص ذلك إلاّ لله ولرسوله من بعده، فلأجله ذهبت الشيعة إلىٰ أنّ الإمامة كالنبوّة لا تنعقد إلاّ بتنصيص وتعيين من الله.

اتّفقت الشيعة على أنّ الأئمّة الاثني عشر خلفاء الرسول ﷺ وأنّهم منصوبون من الله لقيادة الأُمّة وزعامتها وقد نصَّ الرسول على عددهم وأسمائهم ونصَّ كلُّ خليفة سابق منهم على الخليفة من بعده، ودونك أسماءهم:

الإمام عليُّ بن أبي طالب عليه السلام ابن عمِّ الرسول وصهره تربّى في حجره ولم يزل يقفو أثره طول حياته، وهو أوّل النّاس إسلاماً، وأشدّهم استقامة في مصالح الدين الإسلامي وتفانياً في تثبيته وتركيزه، بلغ في علمه وتقواه رتبة تقاصر عنها الأقران وتراجع عنها الأكفاء.

نصَّ النبيُّ الأعظم ﷺ في حشد عظيم على خلافته وولايته، عند منصرفه من مكّة عام حجّة الوداع في موضع يقال له «غدير خم» و لم تكن أوّل مرّة شاد

فيها الرسول بمقام وصيّه فقد كان طول حياته ينوّه بوصايته وخلافته، من بدء إظهار الدعوة إلى مرضه الّذي توفّي فيه.

كان الإمام أفضل الناس وأمثلهم بعد رسول الله ﷺ لا يبلغ شأوه أحد من الصحابة، ولم يكن يوم ذاك رجل أليق بزعامة الأُمّة وقيادتها منه.

غير أنّ قريشاً قد تمالأت على تداول الخلافة في قبائلها، واشرأبّت إلى ذلك أطماعها فتصافق الأغلب منهم على تناسي النصّ، وأجمعوا على صرف الخلافة من أوّل أيّامها عن وليّها المنصوص عليه.

نعم تصافقت مع عليّ عليه السلام ثلة جليلة من الشخصيّات البارزة من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان فبقوا على منهاج نبيّهم ولم يرضوا إلاّ بولايته وخلافته الّتي صدع بها نبيّهم ﷺ في حياته، ولم يبايعوا غيره ونصروا إمامهم بتضحية نفوسهم وبذل أموالهم وقد حفظ التاريخ أسماءهم وما لهم من مواقف، غير أنّ شيعة عليّ تحفّظاً للوحدة والوئام خطوا خطوة إمامهم من ترك التعرُّض لمتقمصي الخلافة، والمماشاة معهم في مهامّ الأُمور ومصالح الدين والمسلمين.

ولم ير الإمام بدّاً لحفظ مصالح الدين من تسليم الأمر إلى المجلبين على الخلافة فلزم عقر داره مدَّة تربو على خمسة وعشرين عاماً إلى أن رجعت إليه الخلافة، فتصافقت على قيادته وزعامته جبهة الأنصار والمهاجرين وألقوا إليه مقاليد الخلافة، فأحيا الإمام عليه السلام سنّة النبيّ الأعظم ﷺ في عدله وإنصافه ومساواته بين الناس ولم يكن لأحد فيه مطمع، ولا عنده هوادة، ولم يكن يُقيم وزناً لغير الحق ، ولم يحكم بين الأُمّة إلاّ بالحقّ والعدالة ، وهذه الحكومة الإلهيّة وإن لم تطل أيّامها ولم تتجاوز خمسة أعوام، وانتهت باغتياله عليه السلام إلاّ أنّها كانت مثالاً نموذجياً لحكومة الحقّ والعدالة والمثل الراقية، وهذه خطبه ورسائله توقفنا على أصالة رأيه وسداد منطقه وعدله.

والإمام مفخرة من مفاخر المسلمين على الإطلاق، لا بل الإنسانيّة جمعاء، وليست الشيعة إلاّ من تابع الإمام وشايعه في أقواله وأفعاله، وما أُطلق لفظ الشيعة على هذه الفئة إلاّ لمشايعتهم الإمام فيما كان يأخذ ويذر.

فالإمام عليٌّ أوّل الأئمّة الاثني عشر، ويليه **الحسن** بن عليّ، **فالحسين** بن عليّ، **فعلي** بن الحسين، **فمحمد** بن عليّ، **فجعفر** بن محمد، **فموسى** بن جعفر، **فعليُّ** بن موسى، **فمحمد** بن عليّ، **فعلي** بن محمّد، **فالحسن** بن عليّ، **فمحمد** بن الحسن عليهم السلام هؤلاء أئمّة الشيعة وقادتهم، نقتبس من أنوارهم، ونهتدي بهداهم، وقد حُفظت تواريخهم وآثارهم ودوّنت أحاديثهم وما روي عنهم.

اتّفقت الشيعة على أنّ الأرض لا تخلو من قائم لله بحجة، إمّا ظاهراً مشهوراً أو غائباً مستوراً يسلك بالمجتمع طريق المكارم، ويرفع لهم أعلام الهداية، ويربّيهم ويرشدهم إلى صراط الحقّ، وتلكم الحجج في عامّة الأدوار تمثّل إمّا في نبيٍّ أو وصيّ نبيّ، هذا منهج الشيعة تسير عليه في أبحاثها الكلامية، وتبرهن عليه بالوجوه العقليّة والنصوص المتضافرة، كما وتعتقد أنّ الإمام الثاني عشر عليه السلام آخر الأئمّة حيٌّ يرزق، منحه الله من العمر أطوله، وليس ذلك في عقيدة الشيعة بجديد، فقد قالت جمهرة المسلمين بأنّ المسيح حيّ يُرزق بعد مرور عشرين قرناً على ميلاده لحدِّ الساعة هذه، وليس على الله بعسير فهو القادر على كلِّ شيء فله أن يمنح عبداً من عباده أيَّ قدر شاء من العمر، فلا قُدرة الله متناهية ولا طول العمر محال في نفسه، ولا الأُصول المحرَّرة في علم الحياة تعانده وما جاء العلم لحياة البشر بحدٍّ لا يتجاوزه.

وقد ادَّخره الله ليوم يتظاهر فيه الزمان بالجور والعدوان، ويشاع فيه القتل وسفك الدماء والفساد ويحيق بالمجتمع ألوان العذاب والبلاء حتّى تضيق بهم الحياة.

غير أنّ هذه المصـائب والمكاره تهيّئ المجتمع وتدفعـه إلى ثورة عارمـة ضدّ الظلم والعدوان تقلع وتقطع جذور الجبابـرة عن أديم الأرض إلى أن ترفرف أعلام العـدل والسـلام في شرق الأرض وغربها وهـذه الثـورة الإلهيّـة الموعـودة الّتي تغير الزمـان وأهله ستتحقّق بإذن الله بقيادة آخـر الخلفاء من أئمّة الشيعة فيمـلأ الله به الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً.

وعقيدة الشيعـة في الإسلام أنّـه ليس دين رهبـانيّة وتـزمّت ولا دينـاً يصب اهتمامـه على النفعيّة والانتهـازيّة والعمل غير المشروع وإنّما هـو دين انطـلاق مع المثل الراقية وأُصول الحياة. ودونك بيان عصارة عقائد الشيعة تحت أُصول ثلاثة:

٢

عقايد الشيعة

الأصل الأوّل: التوحيد

أقامت الشيعة براهين قيّمة على أنّه تعالى واحد لا شريك له ولا نظير ولا شبيه له لم يلد ولم يولد وهي تكافح كلَّ لون من ألوان الشرك وأيَّ انحراف عن صراط التوحيد.

أجمعت الشيعة على أنّ العالم مخلوق لله ومصنوع له لم يشاركه فيه أحد من خلقه، ولم ينازعه أحد في ملكه ولا خالق إلاّ الله. وهذا الأصل هو الّذي أرشدهم إلى القول بأنّ كلَّ ما في الكون من حقير وخطير ليس فيه إلاّ الخير و الصلاح وأنّ كلَّ انحراف وفساد فهو من فعل الإنسان .

اتّفقت الشيعة على تنزيه الله تبارك وتعالى عن الجسم ولوازم الجسمانيّات وأنّه تعالى فوق المادّة والمادّيات، فليس هو في حيّز ولا يحيط به شيء، و علمه قد أحاط بكلّ شيء، و هو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، بصير سميع لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وهو محيط بكلّ الأزمنة والأمكنة، فالماضي والمستقبل والعالي والداني عنده سواء، والموجودات بهويّاتها وحقائقها الخارجيّة حاضرة لديه منكشفة له أتمَّ الانكشاف، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

الشيعة توحّد الله أتمَّ التوحيد، فالله جلّ وعلا عندهم بسيط لا جزء له؛

حتّى أنّ صفاته الجماليّـة كعلمه وقدرته عين ذاته لا زائدة عليهـا، فليست هاهنا ذات وراء الصفات حتّـى تكون معروضـة لها كما في غيره من الممكنـات، وهذا لا يعني خلوّ ذاته سبحـانه عن العلم والقدرة كما عليه بعض الفـرق الإسلامية، بل يعني انّ الـذات بلغ في الكمال بمكان صار نفـس العلم والقدرة. كما انّـه لا حدّ لوجوده فهو أزليٌّ أبديٌّ غير متناه من جميع الجهات.

وهو جـلَّ وعلا لا يجانس أحـداً من مخلوقـاته في صفـاته وأوصـافه، إذ لا سنخيّة بينه وبين مصنوعاته ولا تشابه بين المتناهي وغير المتناهي.

اتّفقت الشيعـة على أنّ الله هو الغافـر لذنـوب عباده وزلاّت خـلائقه دون غيره، ولا يشاركه في ذلك أحد، ولا يشفع أحد من أنبيائه وأوليائه إلاّ بإذنه.

الأصل الثاني: النبوة وبعثة الرسل

اتّفقت الشيعـة على أنّ الله تعالى بعث رسلـه وأنبياءه إلى عباده وهـم خيار خلائقه ليهـدوهم إلى صراطه ويخرجوهم من ظـلام الجهل إلى نور العلم والإيمان، لأنّه لم يخلقهـم إلاّ للفوز بـالسعادة، وقد جبلهـم على مؤهّـلات في أنفسهم تحبّب إليهم الخير والسعادة وتبعثهم إلى الابتعاد عن الظلم والانحـراف وما شابه ذلك من مساوي الأخلاق.

ثمّ إنّه تعـالى عزّز الفطرة وكمّلهـا ببعث رسله وقـادة هداه، وأمرهم بـإبلاغ أحكامـه ونصح خلائقه حتّـى يتسنّى لهم الارتقاء إلى قمة الكمال الممكـن، وهذا يعني انّ الشرائع السماويّة لا تفارق الفطرة قط بل تماشيها ، وكلُّ ما يطرق سمعك ممّا هو منسوب للدين و تتجافى عنه الفطـرة فاعلم أنّه ليس من الدين وأنّه مختلق مصنوع.

أجمعت الشيعة على أنّ ما تحمّلته الرسـل من المحن والمكاره وما أصابهم في

جنب الله من الأذى لم يكن لفداء أُمتهم وتأمين أتباعهم ممّا اقترفوا من ذنب وارتكبوا من خطيئة، بل كان لمرضاة الله وخدمة المجتمع، وقد نوّه القرآن على ذلك غير مرَّة.

تعتقد الشيعة أنّ الأنبياء والرسل صفوة الناس وخيرتهم وأفضلهم وأنّه يجب على كلِّ إنسان تكريمهم، غير أنّ أيدي السوء عبثت بالكتب السماوية ما سوى القرآن، فحرَّفت منها ما كان حقّاً لا شائبة فيه، وثبّتت فيها خرافات هي أشبه بقصص القصاصين لا تنسجم مع المنطق السليم.

والعصمة عند الشيعة أصل مبرهن عليه، والأنبياء عندهم معصومون من الذنوب نزيهون عن الخطأ والنسيان.

أجمعت الأُمّة الإسلاميّة على أنّ نبيَّ الإسلام أعظم الأنبياء منزلة، وهو خاتمهم، ودينه خاتمة الشرائع.

الأصل الثالث: المعاد

وهو أصل إسلاميّ خطير، وقد اتّفقت السنّة والشيعة على أنّ الله يحيي الناس يوم القيامة ويضع الموازين القسط فلا يُظلم أحد مثقال ذرة، ووفيت كلّ نفس ما عملت، فإمّا إلى النعيم الدائم وإمّا إلى العذاب المقيم.

ميزات الشيعة

هذه الأُصول الثلاثة تشترك فيها عامّة فرق المسلمين غير أنّ للشيعة أُصولاً اختصّت وانفردت بها عن سائر الفرق وهي:

١. **الإمامة و الخلافة:** الإمامة كما قلنا منصب إلهيّ يمنحه الله لخاصّة عباده وهم الأئمّة الاثنا عشر خلفاء الله وخلفاء نبيّه ﷺ.

٢. **العدل**: اتّفقت الشيعة على عدله تعالى فلا يظلم عباده مثقال ذرّة لأنّ الظلم ينشأ إمّا عن الجهل بقبحه وإمّا عن الحاجة إليه وكلاهما آية النقص وهو تعالى منزَّه عن كلِّ ذلك لكماله المطلق وعلى هذا الأساس قالت الشيعة ببطلان الجبر في أفعال العباد وأنّ المكلّفين غير مجبورين في أفعالهم وأقوالهم، خلقهم الله مختارين في ما يفعلون ويتركون غير مضطرّين في طاعة أو معصية، وجعل الإنسان تامّ التصرُّف في ما يسعد به ويشقى، وأنّه ﴿**لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى**﴾ [١] و ﴿**وَأَنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاّ ما سَعىٰ**﴾ [٢] و ﴿**فَمَنْ شاء فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شاءَ فَلْيَكْفُر**﴾ [٣].

لكن إخواننا أبناء السنّة لمّا لم يعترفوا بالحسن والقبح العقليّين ولم يعتقدوا بأنّ النفس تدرك حسن العدل وقبح الظلم، قالوا بأنّ ما حسّنه الشرع فهو حسن، حتّى لو أمر بالظلم والعدوان، وكلّ ما قبّحه الشرع فهو قبيح حتّى لو نهى عن العدل والإحسان، وآلت النتيجة أنّه لا مفهوم للحسن والقبح ولا للعدل والظلم بالنسبة إليه تعالى.

المصادر الدينية للشيعة

الشيعة كسائر الفرق الإسلاميّة تعتمد على كتاب الله العزيز، الذي هو مقياس يوزن به الحقُّ والباطل، وتعتمد على السنّة المأثورة عن النبيّ ﷺ عن طريق الثقات وعلى ما اتّفق عليه المسلمون في الأجيال السالفة والحاضرة، وعلى الأحاديث المأثورة عن الأئمّة الاثني عشر الّذين هم أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وعنه أخذوا علومهم ومعارفهم بلا واسطة أو بواسطة آبائهم.

والمصدر الأخير عند الشيعة من أهمّ مصادر التشريع تعتمد عليه في غالب شؤونها، وهم يتمسّكون في حجّيّة هذا المصدر بقول الرسول الأعظم ـ : «إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ

---

١. الأنعام: ١٦٤. ٢. النجم: ٣٩. ٣. الكهف: ٢٩.

الحوض» فجعل أئمّة الشيعة أعدال الكتاب وقرناءه، والشيعة تتمسّك بأهداب ولائهم ويروون أقوالهم وأفعالهم كقول نبيّهم ﷺ وفعله وتقريره.

والشيعة تعتمد على ما يحكم به العقل حكماً باتّاً وهذه المصادر الأربعة: (كتاب الله، وسنة رسوله، وما أجمع عليه المسلمون وما حكم به العقل) هي مدارك الشيعة ومصادر أحكامها ولا تعتمد على الأقيسة والاستحسانات وغيرها من الوجوه الظنية.

كما يجب على من تصدّى للإفتاء والقضاء استنفاد وسعه في استنباط الحكم الشرعيّ من الأدلّة المذكورة، ولا يجوز له أن يرتجل الأحكام ارتجالاً خارجاً عن المصادر المذكورة.

إنّ باب الاجتهاد عند الشيعة مفتوح على مصراعيه إلى يوم القيامة، ولا يختصُّ بفرد دون فرد أوجمع دون جمع، والشيعة لا تسلب العقول المستنيرة حرِّيّتها ولا تلزمها بالرجوع إلى مجتهد خاصّ، ومن بلغ رتبة الاجتهاد عندهم حرُم عليه العمل بالتقليد ولزمه العمل وفق رأيه سواء وافق سائر المذاهب أم خالفها، والشيعة في هذا الجانب تخالف السنّة في انسداد باب الاجتهاد بعد الأئمّة الأربعة.

بيد أنّ السنّة والشيعة و إن اختلفوا فيما تقدّم من الأُمور فانّهم لا يختلفون في أُصول الأحكام الإسلاميّة وأُمّهاتها وهذه الفوارق لا تخرجهما عن كونهما أُمّة واحدة وذات دين واحد.

الإسلام عند الشيعة شريعة سهلة سمحة تحقّق سعادة الإنسان في جميع نواحيه وفي كافّة أدوار حياته وفيه مرونة تماشي جميع الأزمنة والأجيال.

دوّنت الشيعة أُصول الإسلام وفروعه وما يرجع إلى المسؤوليات الفرديّة والاجتماعيّة وتحمّلوا في سبيل ذلك جهوداً مضنية وقد اضطرُّوا في هذا المضمار (الاجتهاد في الأحكام الفرعيّة) إلى تأسيس علوم تعدُّ مبادئ له حيث لا يتمُّ

الاجتهاد إلاّ بها.

وها نحن نشير إلى قليل من كثير من الفروع الّتي تعدُّ أُسساً وأركاناً للإسلام:

١ . **الصّلاة**: وهو ركن عظيم إسلاميٌّ، فيجب على كلِّ مسلم أن يقيم الصلوات اليوميّة في أوقاتها الخاصّة إلى الجهة (القبلة) الّتي نصّ عليها القرآن وأطبق المسلمون عليها.

٢ . **الصوم**: يجب على كلِّ مسلم أن يصوم شهر رمضان كلّه بادئاً برؤية الهلال وخاتماً بهلال شوّال.

٣ . **الحجّ**: يجب على كلِّ مسلم مستطيع أن يحجَّ بيت الله الحرام ويجتمع مع سائر إخوانه في ذلك المشهد العظيم الّذي ينعقد كلَّ سنة مرَّة واحدة.

٤ . **الزكاة**: وهي عند الشيعة ركن اجتماعيٌّ بارز، لها صلة وثيقة بسياسة المال في الإسلام، وهي حقُّ الجماعة في عنق الفرد وضريبة إسلامية على عاتق المكلّفين ـ وقد حدَّد لها الإسلام نصاباً وجعل لها شرائط، وأوضح مواضع صرفها، التي منها الفقراء والمساكين وفي «سبيل الله» وهو مصرف عامٌّ تحدِّده الظروف، ومنها تجهيز المجاهدين وعلاج المرضى وكلّ ما يمت لصالح الإسلام والمسلمين بصلة.

٥ . **الخمس**: وهو ضريبة إسلاميّة أُخرى تتعلّق بأموال المسلمين وله شرائط وحدود محرَّرة في مواضعها.

٦ . **الجهاد**: وهو ركن من أركان الإسلام، فيجب على كلّ مسلم جهاد العدوّ وطرده إذا حاول القضاء على الإسلام بتضحية النفوس والأموال.

٧ و ٨ . **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: هما لدى الشيعة من أفضل القربات أساسهما الدعوة إلى الحقّ ونبذ الباطل ومكافحة الفساد بألوانه المختلفة الفرديّة والاجتماعيّة على ضوء العلم والمنطق الصحيح وهو وظيفة الشعب المسلم كلّه ولا يختصّ بطائفة دون أُخرى.

٣

نماذج من الوظائف الأخلاقية والاجتماعية عند الشيعة

المسلم من يكون متذكّراً لخالقه، صادقاً في أقواله، أميناً في أفعاله، محبّاً لإخوانه، مستطلعاً عن أحوالهم، معيناً لهم بما في وسعه بنفسه وماله، معتقداً بأنّ المسلم أخو المسلم وأنّ لكلّ أخ على أخيه حقوقاً متقابلة متساوية و الأُخوّة من أوثق الوشائج بين أفراد الإنسان، و لذلك أسماهم كتاب الله إخوة، كما قال تعالى : ﴿**إنّما المؤمنونَ إِخْوَة**﴾ [١].

الإنسان عند الشيعة يرجع بجميع ألوانه وأنسابه إلى أصل واحد لا فضل لفرد على آخر بلون أو نسب أو جنس إلاّ بالتقوى والإيمان، وأنّ الناس جميعاً كأسنان المشط سواسية في ما لهم و ما عليهم.

وقد أفرد غير واحد من علماء الشيعة كتباً فيما يرجع إلى الوظائف الفرديّة والاجتماعيّة وبحثوا في دقائق الحقوق صغيرها وكبيرها، وقد توسّعوا في التحقيق، فلم يدعوا في القوس منزعاً حتّى حرّروا حقوق الحيوان على مقتنيه، حين لم يكن لهذه البحوث في الجوامع الغربيّة وزن ولا قيمة، وقد احتذوا في ذلك حذو صاحب الرسالة ﷺ وأهل بيته عليهم السلام .

---

١. الحجرات: ١٠.

يجب على كلِّ مسلم عند الشيعة أن يعوِّل نفسه و عياله، ويسعى لتأمين قوته ولا يجوز له ترك السعي، نعم يجب عليه في سعيه مراعاة أُصول الفضيلة والأخلاق ولا يجوز له الاسعاف والركض إلى كلّ مظنّة ولو كانت ساقطة، فانّ شرف النفس فوق شرف الترفّه في المعاش.

اتّفقت الشيعة على أنّ المسكرات ولحم الخنزير والميسر والربا وكلَّ ما يمسُّ بكرامة الإنسان حرام إلاّ أنّ المحرَّمات غير منحصرة فيما مرّ.

***

المواسات والتعاون من أهمّ الأُصول الاجتماعيّة لدى الشيعة، إذ بالتعاون يقوم صرح الاجتماع، وقد ندب إليه الإسلام لما قال ﷺ: «**من أصبح ولم يهتمّ بأُمور المسلمين فليس بمسلم**».

إنّ الشيعة كسائر الفرق الإسلاميّة يجعلون للإنسان و كلّ ما يمت إليه وزناً وقيمة وبالأخص لدمه، فمن قتل نفساً أو سفك دماً أو جرح إنساناً، فقد جعل الله لوليّه سلطاناً إمّا أن يقتصَّ منه أو يأخذ الدية المقرَّرة.

ويهتم المذهب الشيعيّ بفرض نظم خاصّة بالنسبة إلى الأدب البيتي والعائليّ فقد فرض على الرجل المسلم القيام بتربية أولاده وتهذيبهم وأوصى المسلمين بمواصلة الأقارب و الأرحام سواء القريب منهم أو البعيد، وعدَّ تجافي القريب عن قريبه من قطع الرحم والانحراف عن الجادّة المنشودة للإسلام، كما ركّز على حقوق الجار وآداب الجوار وتوثيق الصلة بين أفراد المجتمع بالدعوة للأُلفة والوئام.

اتّفقت الشيعة والسنّة على أنّ الإسلام نهى عن الاسترسال في الشهوات، غير أنّه أباح لكلِّ مسلم أن يتزوَّج بأكثر من واحدة ﴿**مَثْنى وَثُلاث وَرُباع**﴾ لكن

مشروطاً بشروط كثيرة لا يتسنّى لكلّ إنسان تحمّلها.

وتتصوّر الدواعي الدّافعة للإنسان إلى تعدُّد الزوجات في عدّة أُمور، فربّما يكون الرجل شبقاً فلا تقوم الزوجة الواحدة بحاجته، أو تكون الزوجة خامدة الشهوة، أو تكون ناحلة الجسم ، أو تكون عقيماً ، إلى غير ذلك من العوامل الدافعة إلى تعدُّد الزوجات.

ولا نزال نلمس من الغربيّين روح استنكار للشرقيّين في تزوُّجهم لأكثر من زوجة واحدة ظناً منهم أنّ ذلك إرخاص لحقوق المرأة في حين أنّ الواقع خلافه .

فالمسلم لثقته بنفسه في إقامة العدل والمساواة يقدم على التزوُّج بأكثر من واحدة، على أنّ الروابط المشروعة لا تقاس بالسفاح ومطاردة النساء كما تلوح على الجيل المائع في عصرنا الحاضر.

اتّفقت الشيعة على أنّه يلزم على كلّ مسلم أن يساهم مع سائر الأُمّة في المسائل الاجتماعية والسياسية فانّ الإسلام ليس دين رهبانية.

الرسالة السابعة

الشيعة وعلم الكلام عبر القرون السبعة

إنّ الذي أكّد عزمي على الكتابة في هذا الموضوع، ما وقفتُ عليه في كلام المستشرق «آدم متز» مؤلف كتاب «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع» [1]، وقد خصّ الفصل الخامس من كتابه بالشيعة، ولم يكن عنده من كتبهم إلاّ مخطوط علل الشرائع للصدوق (٣٠٦ـ ٣٨١هـ) و قد عثر عليه في مكتبة برلين، ولم يذكر في هذا الفصل شيئاً مهماً عن هذه الطائفة سوى المعارضاتِ والفتنِ التي دارت بين السنّة و الشيعة في القرن الثالث والرابع في عاصمة الخلافة «بغداد» و غيرها، وقد جمع تلك المعارضات بجد وحماس، وكأنّه يريد أن يلخِّص الشيعة في إثارة الفتنة والفساد، كأنّهم لم يلعبوا دوراً كبيراً في الدين و الأدب، ولم يشاركوا المسلمين في بناء الحضارة الإسلامية، وإن أشار في ثنايا كتابه إلى بعض الشخصيات اللامعة منهم كنصير الدين الطوسي، وليته يقتنع في ترسيم تلك الطائفة بما ذكر، ولم يتّهمهم بكونهم تبعاً للمعتزلة في الأُصول والآراء، وأنّه لم يكن لهم في القرن الرابع مذهب كلاميّ مدوّن،وإليك نصّ كلامه:

---

١. نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، وله طبعات، منها الطبعة الثالثة التي ننقل منها، وحاول المؤلف أن يسجّل حضارة الإسلام في القرنين الثالث والرابع مع العناية الخاصة بالقرن الرابع ليكون كتابه مقابلاً و مشابهاً لما كتب عن حضارة عصر النهضة في اوربا،(لاحظ مقدمة المترجم، ص ١).

«إنّ الشيعة هم ورثة المعتـزلة، ولا بدّ أن تكون قلّة اعتداد المعتـزلة بالأخبار المأثورة ممّـا لائم أغراض الشيعة، ولم يكن للشيعة في القـرن الرابع(٣٠٠ـ ٤٠٠) مذهب كلاميّ خاصّ بهم، فتجـد مثلاً أنّ عضد الدولة(المتوفّى٣٧٢هـ) وهو من الأُمراء المتشيّعين يعمل على حسب مذهب المعتزلة، ولم يكن هناك مذهب شيعي للفـاطميين، ويصرّح المقـدسيّ بأنّهم يـوافقـون المعتـزلة في أكثـر الأُصـول، وعلى العكس من هذا نجد الشيعـة الزيديّة يرتقون بسند مـذهب المعتزلة حتى ينتهي إلى علي بن أبي طالب «رضي الله عنه»، ويقولون: إنّ واصلاً أخذ عن محمّد بن علي ابن أبي طالب،وأنّ محمّـداً أخذ عن أبيه، و الزيـديّة، يوافقون المعتـزلة في أُصولهم إلاّ في مسألة الإمـامة، ويدلّ على العلاقـة الوثيقة بين المعتزلـة والشيعة أنّ الخليفة القـادر جمع بينهما حينما نهى في عـام (٤٠٨) عن الكـلام و المناظـرة في الاعتـزال والرفض (مذهب الشيعة)، والمقالات المخالفة للإسلام. ثمّ إنّ الطريقة التي سار عليهـا ابن بـابويـه القمّي أكبر علماء الشيعـة في القرن الـرابع الهجـري في كتابـه المسمّى بكتـاب «العلل» تذكّـرنا بطريقـة علماء المعتزلـة الذين يبحثـون عن علل كلّ شيء.[١]

إنّ في كلام الأُستاذ موارد للتأمل والنقاش:

١. اتّهام الشيعة بقلّة الاعتداد بالأخبار المأثورة كقلّة اعتداد المعتزلة بها.

يلاحظ عليه: أنّ الشيعة أوّل من اهتمّ بتدوين الحديث ودراسته ونقله حينما كانـت كتابـة الحديث ممنوعـة ونقلها أمـراً مكروهاً يعـرف ذلك من درس تـاريخ الحديث عند الشيعـة، ولهم في كلّ قرن من القـرون الأربعة ـ التي يكتـب هو عن القرن الأخير منهـا ـ محدّثون كبار، منهـم: الشيخ الصدوق الذي وقف على كتـابه

١. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري:١/ ١٠٦، ١٠٧.

«علل الشرائع»، فقد ألّف عشرات الكتب والرسائل في الحديث[1]، وقد ألّفت الشيعة في عصر الإمام علي عليه السلام إلى عصر الإمام العسكري عليه السلام (المتوفّى ٢٦٠هـ) في حقل الحديث ما يتجاوز الأُلوف يقف عليها من سبر الكتب الرجالية[2]، وبما أنّ الموضوع واضح جداً لا نطيل الكلام فيه.

٢. إنّ عضد الدولة وهو من الأُمراء المتشيعين يعمل على حسب مذهب المعتزلة.

يلاحظ عليه: أنّه لم يكن للمعتزلة آنذاك مذهب فقهي حتى يعمل على وفقه أمير الشيعة في عصره، و الاعتزال مذهب كلاميّ لا مذهب فقهي. فلا صلة له بالعمل، وتفسيره بالاعتقاد بمذهب المعتزلة يناقض كونه من المتشيّعين، لأنّ الطائفتين تفترقان في مسألة الإمامة افتراقاً و اضحاً، وتخصيصه بالاعتقاد بسائر الأُصول غير الإمامة كما ترى.

٣. إنّ الزيدية يرتقون بسند مذهب المعتزلة إلى علي بن أبي طالب، ويقولون: إنّ واصلاً أخذ عن محمّد بن الحنفيّة.

يلاحظ عليه: أنّ واصلاً ولد عام ٨٠هـ ـ أو بعده بقليل ـ و تُوفّيَ محمّد بن الحنفيّة ذلك العام أو بعده بسنة، فكيف يصحّ له أن يأخذ عنه واصل بن عطاء؟! والصحيح أن يقول: إنّ واصلاً أخذ عن أبي هاشم: عبد الله بن محمّد ابن الحنفيّة وهو عن أبيه محمّد، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام.[3]

---

١. رجال النجاشي: ٢/ ٣٢٥ برقم ١٠٦٦. ٢. راجع الوسائل: ٢/ ٤٩، الفائدة الرابعة.

٣. لاحظ ذكر المعتزلة للبلخي٦٨ ،طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار: ٢٣٤، وطبقات المعتزلة لابن المرتضى في ما نقله عن الحاكم، وأمّا ما ذكره هو نفسه أوّلاً فقد تخبّط فيه كتخبّط ذلك المستشرق، قال الحاكم: إنّ واصلاً وعمرو بن عبيد أخذا عن عبد الله بن محمد، وعبد الله أخذه عن أبيه محمد ابن علي ابن الحنفية، ومحمد أخذه عن أبيه علي عليه السلام وعلي أخذ عنه صلى الله عليه وآله وسلم.

٤. إنّ الخليفة القادر منع الطائفتين عن الكلام عام ٤٠٨هـ.

يلاحظ عليه: أنّ الشيعة والمعتزلة يتوافقان في التمسك بالعقل وتحليل العقائد عن طريق الدليل العلمي، ويخالفون الحنابلة والأشاعرة بالجمود على ظواهر النصوص، وكانوا يناظرون القشريّين،ولأجل ذلك منعهما الخليفة عن الكلام والجدل، وهذا لا يكون دليلاً على اتّفاقهما في جميع الأُصول سوى الإمامة ، بل الجامع بينهما هو التعويل على العقل في مجال العقيدة.

٥. إنّ الطريقة التي سار عليها ابن بابويه القمّي في كتابه«العلل» تذكّرنا بطريقة علماء المعتزلة.

يلاحظ عليه: أنّ المؤلّف وقف على كتاب الصدوق وقوفاً عابراً. فإنّ الصدوق جمع فيه الأحاديث الواردة عن النبي ﷺوآله حول علل الأحكام ومصالحها الواردة عن طريق الشرع، وأين ذلك من صُنع المعتزلة الذين قاموا بتحليل الأُصول الاعتقادية عن طريق العقل وحكّموه فيما لا مجال فيه؟ ولأجل ذلك عادوا إلى تأويل كثير من ظواهر الكتاب و السنّة التي لا تلائم عقائدهم وأُصولهم.

وعلى أية حال، فلنعد إلى كلامه الذي لأجله عقدنا هذا المقال وهو : «إنّ الشيعة ورثة المعتزلة وإنّه لم يكن للشيعة في القرن الرابع مذهب كلاميّ خاص بهم».

وقد اغترّ بكلامه هذا بعض من تأخّر عنه من الكتّاب، كأحمد أمين المصري في «فجر الإسلام» وغيره وهو الذي وقف على كتاب «الحضارة الإسلامية» باللغة الألمانية، واختار هذا الكتاب للترجمة وشجّع محمّد عبد الهادي أبو ريدة على ترجمته.[1]

---

١. لاحظ مقدّمة المترجم.

ففي هذا المقال نعالج المواضيع التالية:

١. المنهج الصحيح في تفسير المعارف القرآنية.

٢. علم الكلام وعوامل نشأته الداخلية والخارجية.

٣. بدايات المسائل الكلاميّة في القرنين الأوّل والثاني.

٤. الدفاع عن العقيدة والشريعة، وفهرس أسماء متكلّمي الشيعة في القرون الأربعة.

٥. الجدل المستمر بين الشيعة والمعتزلة.

٦. الفوارق الفكرية بين الشيعة والمعتزلة.

فيقع الكلام في فصول ستة:

الفصل الأوّل:

المنهج الصحيح
في تفسير المعارف القرآنية

يتميّز الإنسـان عن كلّ ذي روح وشعور، بقـوّة التفكير والتعقّل، والجوهرة الفريدة التي بها يهتدي في ظلمات الحياة. فتنظيم المقدمات البديهيّة لغاية الاهتداء إلى حلِّ المجاهيـل من خصائصه وميـزاته، فلو كـرّمه ربّه، وحملـه في البر والبحر وفضّله على كثير ممّن خلق[1]، فإنّما هو بفضل تلك القوّة التي لها الـرئاسة التامة على سائر القوى الجزئية الكامنة فيه.

إنّ الإنسـان مهما أَسَفَّ إلى الأُمور الـدنيّـة، فلا يستطيـع إخلاء نفسـه عن التعقّل والاستـدلال حتى أنّ الطغمة المنكرة للبرهنـة، والداعيـة إلى الاقتصار على الحسّ والتجربـة، تراهم يبرهنـون على ذلك بالدليـل وبالتالي يبطلـون الاستدلال بالاستدلال. وهـذا يعرب عن انّ التفكير وحلّ المجهولات في ظلّ المعلـومات من الأُمور الفطرية التي لا تنفكّ عن الإنسان في حيـاته أبداً وإن تظاهر برفض القيم العقلية، والاقتصار في الحياة العلمية على مجال الحواس.

---

١ . اقتباس من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِـي البَرِّ وَالبَحْر وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّبات وَفَضّلناهُمْ عَلىٰ كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء/ ٧٠).

جاء القرآن يدعو الإنسان إلى التفكير والاستدلال المنطقي، ويصدّه عن تقليد الآباء ويحرّر عقله عن الأغلال التي خلّفتها له الأجيال الغابرة حتى يكون على بصيرة في حياته وأمر دينه وأُخراه، ونسمع هتافه وصراخه ودويّه في آيات كثيرة نقتصر منها على ما يلي:

قال سبحانه: ﴿**ادْعُ إِلىٰ سَبيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالّتي هِيَ أَحَسَن**﴾ [١].

وقال عزّ وجلّ: ﴿**واللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [٢]، فإذا كان الشكر هو صرف النعمة في موضعها، فشكر السمع والبصر هو إدراك المسموعات و المبصرات بهما. وشكر الفؤاد، درك المعقولات غير المشهودة الخارجة عن إطار الحسّ به، فمن فتح عينه على الكون الفسيح وتدبّر أسراره ودقائقه فقد شكره، و من أقفل عقله وفؤاده، فقدكفر بنعمته. فلوح نفس كلّ إنسان يوم خلقت، خالٍ عن كلّ علم وإدراك، ثمّ تنتقش فيها الأشياء والمعلومات شيئاً فشيئاً عن طريق الحسّ والعقل.

وقال سبحانه حاكياً عن المشركين: ﴿ **إِنّا وَجَدْنا آباءَنا عَلىٰ أُمَّةٍ وَإِنّا عَلىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ* قُلْ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدىٰ مِمّا وَجَدتُّم عَلَيهِ آباءكُمْ قالُوا إِنّا بِما أُرْسِلْتُمْ بهِ كافِرُونَ**﴾ .[٣]

وهذا ديدنه في غير واحد من الآيات، اكتفينا بما ذكر، روماً للاختصار.

---

١. النحل:١٢٥.

٢. النحل:٧٨.

٣. الزخرف:٢٣ـ ٢٤.

إنّ القرآن يخاطب العقل ويدعوه إلى التأمّل والتفكّر، ويخاطب القلب والضمير ويدعوه إلى التدبّر في ما حوله من الأدلة الناطقة، ولأجل ذلك ترى أنّ يستعمل مادة العقل بصور مختلفة «٤٧» مرّة،والتفكّر كذلك «١٨» مرّة، و اللبّ «١٦»مرّة، والتدبّر «٨»مرات، والنهىٰ مرتين،وبذلك يرفع الإنسان من حضيض الجهل إلى أوج العلم والمعرفة.

إنّ القرآن لم يقتصر على الدعوة إلى التفكّر والبرهنة بل طبّقها في غير واحدمن مجالات العقيدة والتشريع، فأثبت مقاصده بناصع بيانه، وساطع برهانه نأتي بنموذجين منها.

الأوّل: قال سبحانه: **﴿أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُون * ءَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُون * نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ المَوتَ وَما نَحْنُ بِمَسْبُوقِين * عَلىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنشأكُمْ فِي ما لا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَشْأَةَ الأُولىٰ فَلَولاٰ تَذَكَّرُونَ * أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ * ءَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ * لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ الماءَ الّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلولاٰ تَشْكُرُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ النّارَ الّتي تُورونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُون﴾**.[١]

فالله سبحانه يذكر في هذه الآيات شواهد ربوبيّته،وأنّه هو الخالق والمدبّر، ولا خالق ولا مدبّر سواه، وأنّ من يزعم أنّ هناك خالقاً أومدبّراً غيره، فقد قصر فهمه أو قصّر في تفكيره.

فما أروع بيانه وأتقن برهانه، يذكر فيها أمر الخلق والزرع و الماء و النار ويذكر دور الإنسان فيها، فأمره في الأوّل، لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمني، رحمَ امرأة ثمّ ينقطع عمله وعملها، فالعقل يحكم بأنّ هناك قدرة غيبية تأخذ في

---

١. الواقعة:٥٨ـ ٧٢.

العمل، تعمل في هذا الماء المهين، في تنميته وبناء هيكله ونفخ الروح فيه.

وأمره في الثاني لا يزيد على الحرث و إلقاء الحبّ والبذر الذي هو من صنعه سبحانه ثمّ ينتهي دوره فلا محيص عن وجود قدرة تحميه تحت التراب والطين وتجعله سنبلاً أو سنابل فيها حبّات كثيرة.

وأمّا الماء فليس للإنسان فيه أيّ دور لكنّه أصل الحياة وعنصرها، لا تقوم إلّا به، فمن الذي خلقه وأنزله من المزن وأسكنه في الأرض، ومثله النار فليس له فيها شأن سوى أنّه يوقدها، ولكن من الذي خلق وقودها وانشأ شجرها الذي توقد.

فقد عرض الذكر الحكيم هذه الأُمور لغاية الاهتداء بها إلى الحقيقة التي تنتهي إليها كافة الحقائق و التي ينحصر بها التأثير في هذه الظواهر الكونية ولأجل ذلك ختم الآيات بقوله:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيم﴾.

فكأنّ عالم الكون عُمْلَة لها وجهان: صورة حسيّة لامعة تخدع البسطاء الذين يقفون عليها ولا يتجاوزون عنها إلى غيرها، وصورة غيبية التي هي روحها وبها قوامها، وهي التي خلقها واتقنها، ﴿صُنعَ الله الّذي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبيرٌ بِما تَفْعَلُون﴾.[١]

الثاني: قال سبحانه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُونَ* أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالأَرض بَل لا يُوقِنُون﴾.[٢] فلو فسّرنا «الشيء» في الآية بالسبب والعلة فالجزء الأوّل من الآية يشير إلى برهان الإمكان الذي يقوم على لزوم سبب موجب

١. النمل:٨٨.

٢. الطور:٣٥ـ٣٦.

لخروج الشيء من العدم إلى الوجود،والجزء الثاني منها يشير إلى بطلان كونهم خالقين أنفسهم، الذي يستقلّ العقل ببطلانه قبل أن يستقلّ ببطلان الدور اللازم عليه.

ومن سبر هذه الآيات وتدبّر فيها يقف على مدى صحّة قوله سبحانه: **﴿سَنُرِيهِمْ آياتُنا فِي الآفاقِ وَ في أَنْفُسِهِمْ حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنّهُ عَلىٰ كُلّ شَيْءٍ شَهيد﴾**.[1]

فيتخلّص لنا من عرض هذه الآيات، أنّ القرآن، يحثّ على المعرفة من طريق الحسّ و العقل، ويدعو إلى استغلالهما في مجاليهما، فالاقتصار على الحسّ، بُخس وخسران، كما أنّ الاكتفاء بالعقل و إلغاء الحسّ، مغالاة في حقّ العقل. فاليمين والشمال مضلّة، والطريق الوسطى هي الجادة[2]. فيُستهدى إلى ما في القرآن من العلوم والمعارف القرآنية الباحثة عن ذاته سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله، بالحسّ والعقل، فهما جناحا الإنسان في سماء العلم والمعرفة ومجال التدبّر والتفكّر قال سبحانه: **﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدّبّروا آياتِهِ وَلِيَتَذَكّرَ أُولُوا الأَلْباب﴾**.[3]

المعارف القرآنية بين التعطيل والتشبيه

إنّ هناك من حبسوا أنفسهم في اطار المادة والماديات وجدران الزمان والمكان فتجدهم لا يأنسون بالمعارف العقلية إلّا عن طريق التشبيه والمحاكات، فصعب عليهم فهم المعارف القرآنية، وعسر عليهم تصوّر أنّ في صحيفة الوجود

---

١. فصّلت:٥٣.

٢. لاحظ نهج البلاغة: الخطبة ١٦.

٣. ص:٢٩.

موجوداً ليس له جسم ولا جهة ولا مكـان، ولا يحويه زمان ولا مكان، ولا يوصف بالكيف والكم، وما هذا إلاّ لأنّهم أُسراء المادة والجسمانية، فـوقعوا فريسة لمخالب التجسيم، وتورّطـوا في مخاطر التشبيه، فصـاروا من المشبّهة والمجسّمة لا يتـورّعون عن وصفه سبحانه بكلّ ما تـوحي إليهم القوّة الخيالية الأسيرة لعالم الحسّ والمادة، فأثبتوا لله سبحانه يداً ورجلاً وعينـاً وغير ذلك ممّا جاء في الذكر الحكيم، وفسّروها بـالمعـاني الافـراديـة الملازمـة للتجسيم، وكـأنّهم لم يسمعـوا قـول الله سبحـانـه: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء**﴾[1]، أو لم يسمعوا قول الله سبحانه: ﴿**مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيز**﴾.[2]

وفي مقابل هـؤلاء، المعطّلة[3]، وهم وإن تـورّعـوا عن التجسيم والتشبيـه ولكنّهم عطّلوا العقول عن المعارف بحجّة أنّ البشر أعطي العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الربـوبية، فمن شغل ما أعطي لإقـامة العبوديـة بإدراك الربوبية فـاتته العبودية ولم يدرك الربوبية.[4]

وكأنّ القائل يفسّر العبـودية بالقيام والقعود، والإمسـاك والصيام التي هي من واجبات الأعضاء، وغفل عن أنّ لها ركناً آخر يرجع إلى العقل واللبّ، فتعطيل العقول عن معـرفة المعبود، بالمقدار المستطـاع تعطيل لإقامة العبـودية أو لجزئها، فلو اقتصر الإنسان في إقـامة العبودية على الجزء الأوّل مـن دون إدراك ما للمعبود من صفات الجمال والجلال، لكانت عبوديّته كعبودية الحيوان والنبات والجماد، بل تكون أنزل منها. قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتفجّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها**

---

١. الشورى: ١١.

٢. الحج: ٧٤.

٣. المعطّلة في مصطلح الأشاعرة هم المعتزلة لتعطيلهم الذات عن التوصيف بالصفات. و المقصود في المقام غير هؤلاء بل الذين عطّلوا العقول عن المعرفة على النحو الذي جاء في المتن.

٤. رضا نعسان: علاقة الإثبات والتفويض: ٣٣، نقلاً عن الحجّة في بيان المحجّة.

لَما يَشّقّقُ فَيخـرُجُ مِنْهُ الماءُ وَإِنَّ مِنْها لَمـا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغـافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾ .(١)

فالحجر يستشعر بعظمته سبحانه حسب قابليّته، ولكن الإنسان تُفْرض عليه تلاوة كتاب الله سبحانه ثمّ السكوت عليه.

قد ورد في الذكر الحكيم مسائل، لا يحيط بها الحسّ، ولا تقع في إطار الطبيعة، وليست الغاية من طرحها، هو التلاوة و السكوت حتى تصبح تلاوة الآيات لقلقة لسان، لا تخرج عن تراقي القارئ بدل أن تتسرّب إلى صميم الذهن وأعماق الروح.

و إن كنت في ريب من وجودها، فلاحظ الآيات التالية:

١. ﴿فَأَيْنما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله﴾ .(٢)

٢. ﴿هُوَ الأَوّلُ وَالآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم﴾ .(٣)

٣. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ ما كُنْتُمْ﴾ .(٤)

٤. ﴿هُوَ اللهُ الّذي لا إِلـهَ إِلاّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّـلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزيزُ الجَبّارُ الْمُتَكبِّرُ سُبْحانَ اللهِ عَمّا يُشْرِكُون﴾ .(٥)

٥. ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَـدٍ وَما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَـبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ سُبْحانَ اللهِ عَمّا يَصِفُونَ﴾ .(٦)

---

١. البقرة: ٧٤.

٢. البقرة: ١١٥.

٣. الحديد: ٣.

٤. الحديد: ٤.

٥. الحشر: ٢٣.

٦. المؤمنون: ٩١.

٦. ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ العَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ﴾.[١]

إلى غير ذلك من الآيات الواردة حول ذاته وصفاته وأفعاله، التي هي من أُمّهات المعارف القرآنية.

فلروادّ العلم و المعرفة التدبّر والتفكّر فيها من خلال الاستعانة بالقضايا البديهيّة والنظريّة المعتبرة والتدبّر في الآيات الواردة في هذا الشأن، وبما أنّ المقدمات بديهية الصدق أو قطعية لدى العقل، و الآيات الواردة حول موضوع واحد خالية عن التناقض والاختلاف، تكون النتيجة أمراً قطعياً وحجّة بين الإنسان وربّه.

إنّ تعطيل العقول عن التدبّر فيها إسدال الستار على المعارف القرآنية، وخسارة عظمى للعلم وأهله، وعدم خوض السلف من الصحابة والتابعين، لا يكون دليلاً على حرمة الخوض، وليس السلف قدوة في التروك لو سلّمنا كونهم قدوة في الأفعال، كما ليس الخلف بأقل منهم في صحّة الاقتداء.

القول الحاسم في المقام

إنّ هؤلاء أي الذين يحرّمون الخوض في المعارف العقلية، ويقولون: إنّ واجبنا هو الإيمان والإقرار أو التلاوة والسكوت، خلطوا مرحلة الإيمان القلبي المطلوب من جميع الناس، بمرحلة الفهم والنظر العقلي الذي لا يقوم به إلاّ الأماثل من الناس، وصاحب المواهب والمؤهلات الفكرية الخاصة، وما ذكروه راجع إلى المرحلة الأُولى فإنّ الإيمان المنقذ من الضلال والعذاب، هو الاعتقاد بصحّة ما جاء في الكتاب العزيز حول أسمائه وصفاته وأفعاله، حتى في مجالات

١. الأنبياء:٢٢.

الصفات الخبرية من اليدو الوجـه والعين والاستواء على العرش، وبما أنّ الأكثرية الساحقـة لا يستطيعون فهـم ما فيهـا من الدقـائق والمعارف وربما يكـون الخوض منتهياً إلى ما لا يحمد، كفى لهم الإيمان والإقـرار و الإمرار والسكوت، وما نقل عن الإمام مالك (المتوفّى١٧٩هـ): إيّاكم والبدع، قيـل: يا أبا عبد الله ما البدع؟ قال: أصحاب البدع هم الذين يتكلّمون في أسمائه وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته، و لا يسكتون عمّا سكت عنه الصحابـة و التابعون لهم بإحسان[1]. لعلّه ناظر إلى هذه الطائفة الذين لو خاضوا فيها، فسدوا وأفسدوا، ولم يأتوا بشيء.

وأمّا إذا انتُقل إلى المرحلة الثانية أي مـرحلة الفهم والدراية والبحث والنظر وصياغة العقائد في ضـوء الكتاب والسنّة والعقل، فلا يصحّ له الاكتفـاء بالإقرار والإمرار، فإنّ الاستطلاع أمـر طبيعيّ للبشر، وهو أحد الأبعاد الأربعة الـروحية له، فلا يمكن كبح جماح فهمه ونظره بحجّة أنّ الصحابة و التابعين سكتوا عنه، وكأنّ السلف هم القدوة دون الذكر الحكيم، ودون النبي ﷺ وعترته الذين تكلّموا فيها، وأضاءوا الطريق لسالكيه، وكـأنّ قوّة التفكير والنظر والمواهب العقلية المودعة في الإنسان خلقت سدىً وبلا غاية.

وهل يمكـن أن يفرض على عمالقـة الفكر وأصحـاب المواهب العقليـة أن يقفوا دون هذه المعارف ويُطفئوا نور عقلهم وفي التالي يكونوا كأجلاف البيداء لا همّ لهم سوى الأكل والشرب والسير طلباً للماء والعشب؟!

وعلى هـذا فيجب تصنيف النـاس على صنفين؛ قابـل وغير قابل، مستعـدٌ وغير مستعد، فلو صحّ الحرمان فإنّما للسوقـة من الناس دون من أُوتي تفكيراً قوياً واستعداداً وقّاداً.

---

١. الدكتور أحمد محمـود صبحي، في علم الكلام:١/ ٢١ نقلاً عـن تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسـلامية، لمصطفى عبد الرزاق:١٥٥، طبعة ١٩٤٤م.

ثـمّ إنّـه كما يجب تصنيف النـاس يجب تصنيـف المسـائل بين مـا يمكـن للإنسان الخوض فيه والرجوع بفكر صحيح، وما لا يمكن للإنسان دركه وفهمه، فإنّ البحـث عن ذاتـه سبحانـه أمـر غير ممكن إذ ليس كمثلـه شيء حتى يعـرف الـذات به، ولأجـل ذلك ورد النهي الأكيـد عن البحـث والجدال في ذاته، ومثلـه البحث عن حقيقة الـوحي و النبوة، أو عن حقيقة الجنـة والنار، إلى غير ذلك من الأُمور الغيبيـة التي لا يلمسها ولا يدركها إلاّ نبـي يوحىٰ إليه أو إنسـان خرج من الدنيا ودخـل الآخرة والواجب فيها الإيمان فقط، قـال سبحانه: ﴿**الّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْب**﴾[1]. فإنّ الإنسان المحبوس في سجـن المادة، لا يمكن له درك حقيقتها، وإن كان له البحث عن آثار الوحي والنبوة وخصائصهما.

ثمّ إنّه لا محيـص للمانعين عن الخوض في المعارف القرآنيـة بل العقلية على الإطلاق، عن سلوك أحد طريقين:

١. التلاوة والسكوت والإمرار والإقرار وتفويض معانيها إلى مُنزِّلها.

٢. الأخذ بظواهر الآيات الحرفية وتفسيرها بظواهرها الحرفية.

أمّا الأوّل فينتهي إلى تعطيل العقول عن المعارف وبالتالي يتنزّل الإنسان إلى حـدّ الحيوان ويكـون وظيفـة الحكيم العـارف المقتـدر على درك دقـائق التوحيـد ورقائقها نفس وظيفة الجاهل البائل على عقبه، في مجال العقيدة والتفكير، وهو كما ترى.

وأمّا الثاني فهو ينتهي إلى التشبيه والتجسيم، وأقصـى ما عند هؤلاء الذين يأخـذون بالظـواهـر الحرفية هـو ضمّ كلمـة «بلا كيـف ولا تمثيل» إلى مفاد هـذه الآيـات، فيقولـون: إنّ لله يـداً ورجلاً و عينـاً واستـواءً على العرش بنفـس المعنى اللغوي، ولكن بلا كيف ولا تمثيل.

---

١. البقرة:٣.

يلاحظ عليه أوّلاً: أنّه لم ترد تلك الجملة في نصّ قرآني ولا سنّة نبوية، فمن أين لهم هذه الجملة وتفسير الآيات على ضوئها، أليس الواجب هو تعطيل الفهم، وا لجمود على ما ورد في النصوص؟ والمفروض أنّه لم يرد فيها هذه الجملة.

وثانياً: أنّ اليد وأضرابها موضوعة حسب اللغة للأعضاء المحسوسة، التي لها هيئات ومواصفات وهي مقوّماتها، فإجراؤها على الله سبحانه مع حفظ المقوّمات، يستلزم التشبيه والتمثيل، ومع عدمها، يستلزم التأويل، فاليد في ﴿يَدُاللهِ فَوْقَ أَيديهِمْ﴾[1] إمّا مستعملة في اليد المحسوسة فهو مثار التشبيه، وإمّا في غيرها فهو مثار التأويل الذي يفرّون منه فرار المزكوم من المسك.

وهذه المضاعفات ناشئةٍ عن الجمود على الظواهر الحرفية والأخذ بالظهور التصوّري، دون الظهور التصديقي الذي لا يخالف العقل قيد شعرة في آية من الآيات.

إنّ الدعوة السلفية التي أحدثت ضجة هذه الأيام قد طرحت الصفات الخبرية على صعيد البحث في الآونة الأخيرة، وتصرّ على الأخذ بمعانيها الحرفية، وقد عرفت أنّها تنتهي إلى التجسيم أو التأويل.

ومن المؤسف جدّاً إنّ أكثر السلفيين كانوا يصرّون على الأخذ بحرفية الصفات، وإليك بعض نصوصهم:

١. قيل لعبد الله بن مبارك: كيف يعرف ربّنا؟ قال: بأنّه فوق السماء السابعة وعلى العرش بائن من خلقه.

٢. وقال الأوزاعي: إنّ الله على عرشه، و نؤمن بما وردت به السنّة من صفاته.

---

١. الفتح: ١٠.

٣. وقال الدارمي في مقدمة كتابه «الردّ على الجهمية» استوى على عرشه فبان من خلقه.

٤. وقال القرطبي في تفسير قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[١] وقد كان السلف لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم، والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله ولم ينكر أحد من السلف الصالح أنّه استوى على عرشه حقيقة.[٢]

﴿ذٰلِكَ مَبلغُهُم مِنَ العِلْمِ إِنَّ رَبّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدىٰ﴾.[٣]

شبهات عقيمة

إنّ للمانعين عن الخوض في المسائل العقلية شبهات طرحوها أمام السالكين، نذكرها مع التحليل:

١. إذا كان الإنسان قادراً على فهم المسائل، فما معنى قوله سبحانه: ﴿وَمٰا أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً﴾[٤]. وقوله سبحانه: ﴿فَأَمّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زيغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ﴾.[٥]

٢. إنّ البحث والحوار في المسائل الغيبية يورث الشقاق والتخاصم بين

---

١. الأعراف: ٥٤.

٢. لاحظ في الوقوف على مصادر هذه الأقوال كتاب «علاقة الإثبات والتفويض»: ٤٨، ٤١، ٦٨، ١١٥.

٣. النجم: ٣٠.

٤. الإسراء: ٨٥.

٥. آل عمران: ٧.

المسلمين، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾.[1]

والإجابة عن هذه الشبه واضحة، أمّا الآية الأُولى فإنّ الإنسان مهما بلغ من العلم فعلمه بالنسبة إلى الأسرار الكامنة في صحيفة الكون والوجود، ضئيل جداً، فأين عقله المحدود من العالم اللا محدود؟ فإنّ نسبة ما يعلمه إلى ما لا يعلمه كنسبة الذرة إلى المجرّة، فهو لم يعرج من سلّم العلم و المعرفة إلاّ درجات معدودة لا يعتدّ بها.

وأمّا الآية الناهية عن اتّباع المتشابه: فهي على عكس المقصود أدلّ، فإنّ الأخذ بحرفية الظواهر فيما يرجع إلى الله سبحانه وصفاته وأفعاله اتّباع للمتشابه و إن لم يكن ابتغاءً للفتنة، بخلاف ما إذا قلنا بجواز الخوض فإنّ الواجب عندئذٍ هو إرجاع المتشابهات إلى المحكمات وتفسيرها بها، لأنّها أُمّ الكتاب كما قال سبحانه: ﴿هُنَّ أُمّ الكِتاب﴾.

وأمّا الدليل الثاني؛ أعني كون البحث عن المعارف القرآنية مورثاً للشقاق فهو تجاهل بقيمة ذلك العلم، فإنّ الذي يورث الشقاق هي العوامل النفسية الكامنة في ذات المجادل التي تصدّه عن اتّباع الحقّ فيلقي أشواكاً في طريق الحقيقة. ولو سَلَمَتْ نفسه عن الأهواء لحسم الخلاف وانعدم الشقاق.

إنّ الجدال إذا انتهى إلى المراء في الدين، يحرم بلا إشكال، ولكن إذا كانت المجادلة على أساس علمي، ودافع موضوعيّ، وقصد منها كشف المجاهيل في ظلّ تلاقي الأفكار، فليس بحرام قطعاً، وعليها بنيت الحضارة العلميّة فإنّه من قبيل دراسة العلم ومذاكرته التي أمر بها الإسلام.

إنّ الله سبحانه، أمر نبيّه بالمجادلة بالتي هي أحسن، وقال: ﴿وَجادِلْهُمْ

---

١. الأنعام:١٥٩.

بِالّتي هِيَ أَحْسَن﴾ .[١]

وقال عزّ وجلّ: **﴿ولاَ تُجادِلُوا أَهْلَ الكِتابِ إلاّ بِالّتي هِيَ أَحْسَن﴾** .[٢]

وقال تعالى: **﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَى الّذي حاجَّ إِبْـراهيم فِي رَبّهِ أَنْ آتـاهُ اللهُ المُلكَ إِذ قالَ إِبْـراهيمُ رَبّيَ الّذي يحيـي و يُميتُ قالَ أَنَا أُحْيـي وأُميتُ قالَ إِبْراهيـمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتي بِالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ فَأتِ بِها مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي القومَ الظّالِمين﴾** .[٣]

وقد نقل سبحـانه احتجاج إبـراهيم على عبدة الأجرام السماويـة والأصنام الأرضيـة وقـال: **﴿وكَـذلِـكَ نُـري إِبْـراهيـم مَلَكُـوتَ السَّمـاواتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنينَ* فَلَمّا جَنّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأىٰ كَوكباً﴾** ـ إلى أن قال: ـ **﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنـا آتَيْنـاهـا إِبْـراهيمَ عَلـىٰ قَومِـهِ نَـرْفَـعُ دَرَجـاتٍ مَنْ نَشـاءُ إِنَّ رَبَّـكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾**.[٤] و قد تضمّنت تلك الآيات أروع البراهين وأتقن الأدلّة في إبطال ربوبية الأجـرام والأصنام وحصرهـا في الله سبحـانـه. إلى غير ذلك من الحجـاج والحوار الوارد في الذكر الحكيم.

إنّ «أهل السنّة» نسبوا إلى النبي ﷺ، النهي عن الخوض في موضوعات عالم الغيب، ولكنّـه يعـارض سيرة النبي ﷺ وجدالـه مع الوثنيين والأحبار والـرهبان بوحي مـن الله سبحانه، ويكفي في ذلـك دراسة الآيات الـواردة في ذلك المجال، وقد جمعنا احتجاجات النبي ﷺ وحواره مع المشركين وأهل الكتاب في مـوسوعتنا «مفاهيم القرآن»[٥] وهي مبثوثة في السور القرآنية.

---

١. النحل:١٢٥.

٢ . العنكبوت:٤٦.

٣. البقرة:٢٥٨.

٤ . الأنعام/ ٧٥ـ٨٣.

٥ . جعفر السبحاني، مفاهيم القرآن: الجزء السابع.

وحصيلة البحث؛ انّ النهي عن الخوض في المعارف الإلهية التي للعقل فيها مجال النظر، تجميد للعلم والمعرفة، و إيقاف للركب الحضاري عن المسير في طريق التكامل الفكري، و إنّ الصراع العلمي إذا كان بدافع كشف الحقيقة فهو من أدوات المعرفة، وعليه جرت سيرة العلماء المحقّقين.

و إذا أردت أن تلمس ذلك بوضوح قارن بين ما يدرسه السلفيون في مجال العقائد في عصرنا هذا، مع ما كتبه الشيخ الرئيس في الشفاء، أو المحقق الطوسي في التجريد ترى البساطة والسذاجة في الأوّل، والعمق والتحقيق في الاخرين.

إنّ كتب العقائد عند السلفية لا تتجاوز عن نقول عن ذلك الصحابي، وهذا التابعي، بلا تحليل و مثل هذه لا تفيد إلّا للطبقة الساذجة المثقّفون الجامعيّون الذين يريدون تحليل العقائد وتبيينها على أسس منطقية فلا تفيدهم تلك الكتب أصلاً لو لم نقل أنّها تنفّرهم عن الإسلام.

ولو كان ما ذكره صحيحاً، لعمّ البلاء جميع الشرائع السماوية، فانّ نزول شريعة تلو الأُخرى، أورث ذلك الخلاف والجدل.

زلّة لا تستقال

إلى هنا تبيّن أنّ الخوض في المسائل العقلية لمن له أهلية أمر معقول وكمال للنفس وعمل بالقرآن.

ثمّ إنّ بعض رواد التفكير الحنبلي والسلفي زعم صحّة نهي الرسول والصحابة عن الخوض في موضوعات عالم الغيب وقال: وكان أحرى بالمتكلّمين أن ينتهجوا نفس النهج إلاّ أنّ الحقّ أن يقال: ما كان ذلك منهم عن زيغ في القلوب أو ابتغاء فتنة و إنّما أُكرهوا على ذلك إكراهاً واضطرّوا إلى ذلك اضطراراً

أحلّ المحظور.[١]

يلاحظ عليه: أنّ الكتاب العزيز هو الذي فتح باب التفكير في المعارف الإلهية، فكيف يمكن للنبيّ ﷺ النهي عنه، وأين هذا النهي، ومن نقله وأين يوجد؟ وأمّا الصحابة والتابعون لهم بإحسان كانوا على صنفين: فعليٌّ عليه السلام وعترته وشيعته، فقد فتحوا أبواب المعارف في وجوه المسلمين، ومن سبر خطب الإمام عليّ عليه السلام ورسائله وكلمه القصار، أو رجع إلى أدعية الإمام زين العابدين والأحاديث المرويّة عن الصادقين يجد فيها كميّة هائلة من البحوث القيّمة حول المبدأ و المعاد، وأفعال العباد، وأمّا غيرهم فكانوا يمرون على المعارف ويرون انّ الفريضة تلاوتها وقراءتها لا الخوض في معانيها وحقائقها، وعند ذلك فالاستدلال بسكوت قسم من السلف و إسدال الستار على تكلّم الآخرين خروج عن طور الانصاف.

ثمّ إذا كان خوض السابقين في هاتيك المسائل من باب الاضطرار والضرورة المبيحة للمحظور، فقد ارتفع المسوّغ في هذه الأيام بعد تأليف مئات الكتب في الكلام والعقائد، فما هو المسوّغ لارتكاب المؤلف للمحظور، ومخالفة النهي الصريح عن النبي ﷺ ؟!!! و التمرّد على سيرة السلف الصالح، بوضع كتاب في علم الكلام في عدّة أجزاء.

١. الدكتور أحمد محمود صبحي: في علم الكلام:٢٩٨.

الفصل الثاني

علم الكلام وعوامل نشأته

إنّ علم الكلام كسائر العلوم الإنسانية، ظاهرة علمية نشأت بين المسلمين في ظلّ أسباب سيوافيك بيانها، ولايقتصر هذا العلم على المسلمين فحسب بل كانت للأُمم السابقة مذاهب كلامية ومدارس دينية يُبحث فيها عن اللاهوت والناسوت، وقد ألّف غير واحد من علماء اليهود والنصارى كتباً كلامية يرجع تاريخها إلى القرنين الخامس والسادس. وأمّا عوامل نشأته بين المسلمين فتتلخّص في عامل داخلي وآخر خارجي، وإليك البيان:

١. القرآن هو المنطلق الأوّل لنشوء علم الكلام:

إنّ القرآن المجيد هو المنطلق الأوّل لنشوء علم الكلام ونضجه وارتقائه عند المسلمين، وإليه يرجع كل متكلّم إسلاميّ باحث عن المبدأ وأسمائه وصفاته وأفعاله، وقد تضمّن القرآن إشارات فلسفية وعقلية قامت على أُسسٍ منطقيةٍ مذكورة في نفس الآيات أو معلومة من القرائن. فمن سبر القرآن الكريم فيما يرجع إلى التوحيد بأنواعه يجد الحجج الملزمة، والبيّنات المسلّمة التي لا تدع لباحث الشك فيها. كما أنّه أرفق الدعوة إلى المعاد والحياة الأُخروية بالبراهين المشرقة، والدلائل الواضحة التي لا تقبل الخدش.

إنّ القصص الواردة في القرآن الكريم تتضمّن احتجاجات الأنبياء وصراعهم الفكري مع الوثنيين والمعاندين من أهل اللجاج، فهي ممّا يستند إليها المتكلّم في آرائه الكلامية. كما تتضمن بحوثاً في الإنسان وأفعاله ومسيره ومصيره، وغير ذلك ممّا جعل القرآن الكريم المنطلق الأوّل لنشأة علم الكلام في الإسلام.

٢. السنّة هي المنطلق الثاني:

إنّ النبيّ ﷺ ناظر المشركين وأهل الكتاب بمرأىً ومسمع من المسلمين، وهذه احتجاجاته مع نصارى نجران في العام العاشر من الهجرة، حتى أنّه ﷺ بعدما أفحمهم دعاهم إلى المباهلة، وقد حفل التاريخ وكتب السير والتفسير بما دار بين الرسول وبطارقة نجران وقساوستهم، وقد استدلّوا على أُلوهيّة المسيح بقولهم: هل رأيت ولداً من غير ذكر؟ فأفحمهم رسول الله ﷺ بإيحاء من الله: إنّ مثل عيسى في عالم الخلقة كمثل آدم، وقد خُلِق من غير أبٍ ولا أُمّ، فليس هو أبدع ولا أعجب منه[١].

إنّ النهي عن كتابة الحديث نجم عنه خسارة فادحة أدت إلى ضياع الكثير من احتجاجات النبي ﷺ ومناظراته مع المشركين وأهل الكتاب، فقد ذهبت كذهاب سائر خطبه، ولكن الشيعة اقتداءً بالعترة احتفظت بكثير من هذه المناظرات في كتبهم الحديثية، فمن سبرها يرى فيها بحوثاً ومناظرات تصلح لأن تكون هي المنطلق في الصدر الأوّل لأهل الكلام من الشيعة وغيرهم[٢].

---

١. لاحظ تفسير قوله سبحانه: ﴿**إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من ترابٍ ثمّ قال له كن فيكون**﴾ (آل عمران/ ٥٩).

٢. لاحظ احتجاجات النبي في كتاب الاحتجاج للشيخ أحمد بن علي بن أبي طالب المعروف بالطبرسي المتوفّى حدود عام (٥٥٠ هـ).

٣. خطب الإمام علي عليه السلام هي المنطلق الثالث:

إنّ خطب الإمام ورسائله وكلمه القصار، التي حفظها التاريخ عن العصف والضياع لأوضح دليل على أنّ الإمام كان هو المؤسس للأُصول الكلامية خصوصاً فيما يرجع إلى التوحيد والعدل، وبين يديك نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي ممّا وصل إليه من خطبه، تجد فيه من الأُصول الكلامية ما لا تجده في غيره، و إلى ذلك يشير السيد المرتضى في أماليه فيقول: «اعلم أنّ أُصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين ـ صلوات الله عليه ـ وخطبه، فإنّها تتضمّن من ذلك ما لا زيادة عليه ولا غاية وراءه. ومن تأمّل المأثور في ذلك من كلامه، علم أنّ جميع ما أسهب المتكلّمون من بعدُ في تصنيفه وجمعه إنّما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأُصول، وروي عن الأئمّة من أبنائه عليهم السلام في ذلك ما لا يكاد يحاط به كثرة، ومن أحبّ الوقوف عليه فطلبه من مظانّه أصاب منه الكثير الغزير الذي في بعضه شفاء للصدور السقيمة ولقاح للعقول العقيمة» [١].

وقال ابن أبي الحديد: «إنّ أشرف العلوم هو العلم الإلٰهي، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف الموجودات، فكان هو أشرف، ومن كلامه عليه السلام اقتبس، وعنه نقل، ومنه ابتدئ و إليه انتهي، فإنّ المعتزلة ـ الذين هم أصل التوحيد والعدل وأرباب النظر ومنهم من تعلّم الناس هذا الفن ـ تلامذته وأصحابه، لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمّد بن الحنفية وأبو هاشم تلميذ أبيه وأبوه تلميذه، وأمّا الأشعرية فإنّهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وأبو

---

١. الشريف المرتضى: الأمالي: ١/ ١٤٨.

علي أحد مشايخ المعتزلة فالأشعرية ينتهون بالآخرة [١] إلى أُستاذ المعتزلة ومعلّمهم، وهو علي بن أبي طالب» [٢].

٤. العترة الطاهرة ودورهم في نشوء هذا العلم:

إنّ العترة الطاهرة وإن أُقصيت عن القيادة الإسلامية، إلاّ أنّه أُتيحت لهم الفرصة في آخر عهد الأمويين وأوائل حكومة العباسيين، في شرح المعارف وتوضيح الحقائق وتربية رواد الفكر، وارشاد الحكيم إلى دلائل وبراهين لا يقف عليها إلاّ الأوحدي من الناس والتلميح إلى نكات عرفانية، لا يدركها إلاّ العارف المتألّه. ففي أدعية الإمام زين العابدين إشارات كلامية وتلميحات عرفانية، كما أنّ في الأحاديث المرويّة عن الصادقين والكاظمين كميّة هائلة من البحوث الكلامية، والمناظرات العلمية التي أدّت إلى نضوج علم الكلام الإسلامي بوجه واضح، وها نحن نذكر احتجاجين قصيرين للإمامين الصادق والرضا عليهما السلام ليكونا نموذجين لما لم نذكره:

مناظرة الإمام الصادق عليه السلام مع أحد القدرية:

روى العياشي: أنّه طلب عبد الملك بن مروان من عامله بالمدينة أن يوجه إليه محمّد بن علي بن الحسين (الباقر) عليه السلام حتى يناظر رجلاً من القدرية وقد أعيا الجميع، فبعث أبو جعفر ولده مكانه، فقدم الشام وتسامع الناس بقدومه لمخاصمة القدرية، فقال عبد الملك لأبي عبد الله: إنّه قد أعيانا أمر هذا القدري،

---

١. والصحيح أن يقول: أخيراً، وقد تسرّب هذا اللحن إلى الكتب العربية حتى استعمله سعد الدين التفتازاني في مطوّله.

٢. شرح ابن أبي الحديد: ١/ ١٧.

فقال الإمام: «إنّ الله يكفيناه» فلما اجتمعوا، قال القدري لأبي عبد الله عليه السلام : سل عمّا شئت؟ فقال له: «اقرأ سورة الحمد». قال: فقرأها، فلمّا بلغ قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**﴾ فقال جعفر: «قف! من تستعين؟ وما حاجتك إلى المؤونة أنّ الأمر إليك»، فبهت الرجل [١].

إنّ القدرية هم أسلاف المعتزلة، وقد تبنّت فكرة استغناء الممكن في فعله (لا في ذاته) في عصر خلافة عبد الملك (٦٥ ـ ٨٦ هـ) وكان لها دويّ في عصره، وقد أخذتها المعتزلة عنهم وصقلتها وجعلتها من توابع القول بالعدل وغفلت عن أنّ القول بالحرية إلى حدّ الاستغناء عن الواجب ينسجم مع التنزيه لكنه يهدم التوحيد الذاتي، فيكون الممكن مثل الواجب في الاستغناء عن غيره في مقام الإيجاد، ولأجل ذلك تضافرت عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

«لا جبر ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين» [٢].

احتجاج الإمام الرضا عليه السلام مع أبي قرّة:

قال أبو قرّة للإمام الرضا عليه السلام : إنّا روينا أنّ الله عزّ وجلّ قسّم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسّم لموسى عليه السلام الكلام، ولمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم الرؤية. فقال أبو الحسن عليه السلام : «فمن المبلّغ عن الله عزّ وجلّ إلى الثقلين: الجن والإنس ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ وهو يُدرِكُ الأبصار**﴾ [٣] و ﴿**ولا يُحيطونَ بهِ علماً**﴾ [٤] و ﴿**ليسَ كمثلهِ شيء**﴾ [٥] أليس محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم ؟ !»قال: بلى. قال: «فكيف يجيئ رجل إلى الخلق

---

١. المجلسي: البحار: ٥/ ٥٥ ـ ٥٦.

٢. الصدوق: التوحيد: ٣٦٢.

٣. الأنعام: ١٠٣.

٤. طه: ١١٠.

٥. الشورى: ١١.

جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند الله، وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله، ويقول: ﴿**لا تدركهُ الأبصارُ وهو يدركُ الأبصار**﴾ و ﴿**ولا يحيطونَ بِهِ علماً**﴾ و ﴿**ليسَ كمثلِهِ شيء**﴾ ثم يقول: أنا رأيته بعيني وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر ! أمّا تستحيون، ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا: أن يكون يأتي عن الله بشيء، ثم يأتي بخلافه من وجه آخر» [١].

ومن وقف على كتب أهل الحديث والأشاعرة، يقف على أنّ لهم في إثبات الرؤية، إصراراً عجيباً، وترى أنّ الإمام كيف قطع الطريق على أبي قرّة الذي اغترّ بأحاديث مدسوسة اختلقتها اليهود وأنصارهم وبثّوها بين المسلمين، ولولا ضيق المجال لنقلت قسماً وافراً من خطبهم ومناظراتهم عليهم السلام في مجال العقائد حتى تقف على أنّ حديثهم هو المنطلق الرابع لنشوء علم الكلام ونضوجه وتكامله.

فمن المؤسف جداً أن يتّهم شيعة العترة الطاهرة بما في كلام المستشرق (آدم متز) فقد وصفهم بأنّه لم يكن للشيعة مذهب كلامي إلى القرن الرابع، مع أنّ فيهم أئمّة المسلمين وقادة الأُمّة الذين يصدق فيهم قول الشاعر:

من تلق منهم، تلق كهلاً أو فتىً   علم الهدى بحر الندى الموردا

إلى هنا، تبيّن أنّ أحد الأسباب لنشوء علم الكلام هو العامل الداخلي الذي لا يتجاوز عن إطار القرآن والسنّة النبوية وكلمات العترة الطاهرة، وهناك عامل خارجي صار سبباً لنموّ الأفكار الكلامية المأخوذة عن الأُصول الموجودة في الكتاب والسنّة وهو وجود الصراع الفكري بين المسلمين وغيرهم، وإليك بيانه:

---

١. الصدوق: التوحيد: ١١٠ ـ ١١١ ح٩.

الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري:

إذا كان الكتاب والسنّة وحديث العترة الطاهرة هو المنطلق لنشوء علم الكلام وظهوره بين المسلمين، فقد كان للاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري دور خاص في ذلك المجال، وهو أنّه دفع عجلة علم الكلام إلى الأمام، وصار سبباً لنموه ونضوجه بين المسلمين، ولولا هذا الصراع الفكري لما نمت تلك البذور الطيبة الكامنة في الكتاب والسنّة، وما استوت على سوقها، وهذان العاملان (الداخلي والخارجي) وإن صارا سبباً لنشوء هذا العلم وتكامله إلاّ أنّ دور الأوّل، يخالف دور الثاني، فالأوّل يعد مصادر علم الكلام ومنابعه ومناشئه، وأمّا الثاني، فهو الذي أيقظ المفكرين من المسلمين حتّى ينمّوا ما تعلموه في مدرسة الدين من الأُصول والعقائد، وإليك بيان ذلك العامل الخارجي.

بُعِثَ النبي ﷺ بدين عالمي، ونبوة خاتمة، وكتاب خاتم للكتب، والمهيمن عليها، وبثّ شريعته الغراء في ربوع الجزيرة العربية في بضع سنين، إلى أن مضى إلى جوار ربّه، وراية الإسلام خفّاقة عالية، تدين أهلها بالتوحيد، وتكافح الثنوية، وتُؤمن بالحياة الأُخروية وتعمل بسنن الإسلام وطقوسه.

وقد أحسّ المسلمون بواجبهم ـ بعد رحلته ـ وهو نشر الإسلام وبسطه في العالم كلِّهِ ودعوة جميع البشر على مختلف قومياتهم إلى الانضواء تحت راية الإسلام، بالحكمة والموعظة الحسنة، ثم كسر الأصنام والأوثان بالجهاد المتواصل، وبذل النفس والنفيس في سبيله، حتى تُصْبح الأجواء صافية، والظروف حرّة، وترتفع العوائق والموانع بغية دخول الناس في دين الله زرافات ووحداناً عن طوع ورغبة، بلا خوف ولا رهبة من طواغيت العصر .

قام المسلمون بواجبهم ففتحوا البلاد، ونشروا الثقافة الإسلامية بين الأُمم المتحضرة والتي كانت تتمتّع ـ وراء الآداب والفنون والعلوم والصناعات ـ

بمناهج فلسفية، وآراء كلامية لا يذعن بها الإسلام .

وقد كان في ذلك الاحتكاك الثقافي واللقاء الحضاري تأثير بالغ عاد على الإسلام والمسلمين بالخير الكثير إلاّ أنّ هذا الاحتكاك لا يخلو عن مضاعفات، وهي انتقال تلك الآراء والأفكار إلى الأوساط الإسلامية وهم غير متدرّعين تجاه تلك الشبهات والمشاكل.

وأعان على ذلك أمر ثان وهو انتقال عدة من الأسرى إلى العواصم الإسلامية فانتقلوا إليها بآرائهم وأفكارهم وعقائدهم المضادّة للإسلام وأُسِسِه، وكان بين المسلمين من لم يتورّع في أخذ هاتيك العقائد الفاسدة، نظراء: عبد الكريم ابن أبي العوجاء، وحماد بن عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن اياس، وعبد الله بن المقفّع إلى غير ذلك بين غير متدرّع أو غير متورّع، فأوجد ذلك بلبلة في الأفكار والعقائد بين المسلمين.

أضف إلى ذلك أمراً ثالثاً كان له التأثير الحاسم في بسط الإلحاد والزندقة وهو نقل الكتب الرومانية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية من دون نظارة ورقابة وجعلها في متناول أيدي الناس، وقد ذكر ابن النديم تاريخ ترجمة تلك الكتب فقال:

«كان خالد بن يزيد بن معاوية محِبّاً للعلوم، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونان ممّن كان ينزل مدينة مصر، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي، وهذا أوّل نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة، ثم نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية في أيام الحجاج، وكان أمر الترجمة يتقدم ببطء، إلى أن ظهر المأمون في ساحة الخلافة، فراسل ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة، المدّخرة في بلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فبعث المأمون جماعة، منهم: الحجاج بن مطر، وابن

بطريـق، ومحمد بن أحمد و الحسين بنـو شاكـر المنجّم، فجاءوا بطـرائف الكتب، وغرائب المصنّفات في الفلسفة والهندسة وغيرهما»، ثم ذكر ابن النديم أسماء النقلة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية، وجاء بأسماء كميّة هائلة [1] فأخذوا يصبون مـا وجدوه مـن غث وسمين في كتب الـوثنيين والمسيحيين على رؤوس المسلمين، وهم غير متدرّعين وغير واقفين على جذور هذه الشبه، مع أنّها كانت تزعزع أركان الإسلام.

فقد أثـار انتقال هـذه الشبه والعقـائد والآراء إلى أوساط المسلمين ضجّـة كبرى بينهم، فافترقوا إلى فرقتين:

فـرقـة اقتصرت في الـذب عن حيـاض الإسـلام بتضليلهـم وتكفيرهـم وتوصيفهم بـالزندقة وتحذير المسلمين من الالتقـاء بهم وقراءة كتبهم والاستماع إلى كـلامهم، إلى غير ذلك ممـا كان يعـدّ مكافحـة سلبيةوالتـي لا تصمد أمـام ذلك السيل الجارف.

وفرقـة قد أحسّوا بخطورة الموقف وأنّ المكـافحة السلبية لها أثـرها المؤقت، وإنّ ذلك الـداء لو لم يعـالج بالـدواء الناجع سـوف يعمّ المجتمع كلّـه أو أكثره، فقامـوا بمكافحـة إيجابية أي الـدعوة بـالحكمة والموعظـة الحسنة والجدال الـذي يستحسنه الإسـلام، فأزالوا شبهاتهم، ونقـدوا أفكارهم في ضـوء العقل والبرهان، وقد نجحوا في ذلك نجـاحاً باهراً، وهؤلاء هم الشيعة خـرّيجو مدرسة أهل البيت أوّلاً، والمعتزلة أتبـاع واصل بن عطاء ثانيـاً الذين أخذوا أُصـول مذهبهم عن علي عليه السلام بواسطتين:

١ . أبي هاشم ابن محمد بن الحنفية.

٢ . محمّد ابن الحنفية ابن علي بن أبي طالب.

---

١ . ابن النديم: الفهرست: ٣٥٢، ٣٥٦.

ففي تلـك الأجواء المشحـونة بـالبحث والجدل استفحـل أمر الكـلام، أي العلم الباحث عن المبدأ وأسمائه وصفاته وأفعاله لغاية الذب عن الإسلام، فكان علم الكلام وليـد الحاجة، ورهن الصراع الفكري مع التيارات الإلحاديـة المتحدّية للإسلام والمسلمين، وفي هذه الظـروف العصيبة قام أهل البيت عليهم السلام بتربية جموع غفيرة من أصحاب المواهب للذب عن الإسلام وأُصوله أوّلاً، وحريم الولاية ثانياً، في ضوء العقل والبرهان، فصاروا يناظرون كل فرقة ونحلة بأمتن البراهين وأسلمها، وقد حفظ التـاريخ أسماء لفيف من الرافلين في حلل الفضـائل والمعارف، وسوف يوافيك أسماؤهم لاحقاً.

الفصل الثالث

بدايات المسائل الكلامية في القرنين الأوّلين

قد عرفت أنّ القرآن والسنّة، وأحاديث العترة الطاهرة هي المنطلق الحقيقي لنشوء علم الكلام وأنّ المسلمين بطوائفهم المختلفة كانوا يصدرون عنها، نعم كان للّقاء الحضاري والاحتكاك الثقافي دور هام في تكامل علم الكلام وكثرة مسائله، فالكتاب والسنّة كانا مرجعين للاهتداء إلى موقف الإسلام فيها، واللّقاء الحضاري كان سبباً لطرح المسائل في الأوساط، وانتقال الأذهان إليها، وعلى كل حال أصبح الأمران سبباً لنشوء علم الكلام ونضوجه بين المسلمين على نزعاتهم المختلفة.

إنّ كتّاب الملل والنحل يصرّون على أنّ الاختلاف في الإمامة كان أوّل اختلاف ديني وأعظم خلاف بين الأُمّة.

يقول الإمام أبو الحسن الأشعري: أوّل ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد وفاة نبيّهم اختلافهم في الإمامة [1].

ويقول الشهرستاني: إنّ الاختلاف في الإمامة أعظم خلاف بين الأُمّة، إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سلّ على الإمامة في كل زمان [2].

---

١. مقالات الاسلاميين واختلاف المصلّين: ١/ ٣٤، نشر محيي الدين عبد الحميد.

٢. الملل والنحل: ١/ ٢٤.

يلاحظ عليه: أنّ الاختلاف في الإمامة بعد أيام الخلفاء وإن أصبح اختلافاً كلامياً، فذهبت الشيعة إلى أنّها تنصيصية والسنّة إلى غيرها، لكن الاختلاف يوم ارتحل الرسول لم يكن اختلافاً في قاعدة دينية، وجدالاً في مسألة كلامية بل كان جدالاً سياسياً محضاً، لم يكن مبنياً على قاعدة دينية، إذ كان علي عليه السلام وأهل بيت النبي ولفيف من شيعة الإمام بعيدين عن السقيفة وما جرى فيها، مشغولين بتجهيز النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأمّا الأنصار فكانوا يرون أنفسهم أولى بإدارة الأُمور لأنّهم آووا النبي ونصروه، وكان المهاجرون يرون أنفسهم أولى بها لأنّهم أصل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعشيرته، من دون أن يبحث أحد من الفئتين عن القاعدة الدينية في مجال الإمامة، وأنّها هل هي التنصيص، أو الشورى أو غيرهما، وما هو الملاك فيها؟ بل كانت هذه الأُمور مغفولاً عنها يوم ذاك، وكان الهدف هو تسنّم منصّة الخلافة وتداول كرتها بين أبنائهم وعشيرتهم، حتى لو لم تكن حكومة الرسول حكومة دينية وكان الرسول قائداً بشرياً مات عنها، لقام المهاجرون والأنصار بنفس ذلك الجدال، وكلٌّ سعى إلى جرّ النار إلى قرصه.

فما في أكثر الكتب الكلامية من تصوير الاختلاف في مسألة الإمامة، اختلافاً كلامياً ناشئ عن النظر إليها فيما بعد السقيفة، وأمّا إذا نظرنا إليها من منظار المهاجرين والأنصار، فالاختلاف بينهم لم يكن نزاعاً كلامياً ودينياً بل سياسياً بحتاً، مبنياً على تناسي النص، وتصوير الخلافة الإسلامية كخلافة موروثة من القائد لأُمّته، وإلاّ فلو كان النزاع على أساس دينيّ، لما كان للاختلاف مجال، وكفتهم هتافات الرسول في بدء الدعوة، ويوم ترك المدينة لغزوة تبوك، ويوم الغدير وغيرها.

وإليك نماذج من بدايات المسائل الكلامية في القرنين الأوّلين:

١. مسألة التحكيم:

إنّ أوّل خلاف ظهر بين المسلمين، وصيّرهم فرقتين، هو مسألة التحكيم في وقعة صفين، والمسألة يوم ذاك وإن اصطبغت بصبغة سياسية لكن كان لها أساس دينيّ، وهو أنّ الخوارج خالفوا علياً عليه السلام وانعزلوا عن جنده بحجّة أنّ حكم الله في الباغي، هو مواصلة الحرب والجهاد حتى يفيئ إلى حكم الله لا التصالح وإيقاف الحرب، وحجّتهم وإن كانت مردودة لأجل أنّ التحكيم إنّما فُرِض على الإمام، لا أنّه قبله عن اختيار وحرية، والخوارج هم الذين فرضوه عليه، ولم يكتفوا بذلك حتى فرضوا عليه صيغة التحكيم ووثيقته، وحتى المُحكِّم الذي يشارك فيه مع مندوب معاوية، إلاّ أنّ هذا الاعوجاج الفكري صار سبباً لتشكّل فرقتين متخاصمتين إلى عهود وقرون.

وبذلك يفترق اختلافهم مع اختلاف أمثال طلحة والزبير ومعاوية إذ لم يكن اختلافهم حول المبادئ وإنّما طمعوا أن يكونوا خلفاء و ... ولذلك لم يثيروا إلاّ مشاكل سياسية دموية، بخلاف اختلاف الخوارج فإنّ اختلافهم كان حول المبادئ وكانوا يردّدون كلمة «لا حكم إلاّ لله» وكان علي عليه السلام وحواريّه ابن عباس يحتجّان عليهم بالقرآن والسنّة.

وبظهور الخوارج على الصعيد الإسلامي، ورفضهم التحكيم، طرحت مسائل أُخرى بين المسلمين شكّلت مسائل كلامية عبر القرون، وهي:

٢. حكم مرتكب الكبيرة:

إنّ الخوارج كانوا يحبّون الشيخين ويبغضون الصهرين، بمعنى أنّهم كانوا يوافقون عثمان في سني خلافته إلى ستّ سنين، ولمّا ظهر منه التطرّف والجنوح إلى

النزعة الأموية، واستئثار الأموال أبغضوه، وأمّا علي عليه السلام فقد كانوا مصدّقيه إلى قضية التحكيم، فلما فُرض عليه التحكيم وقبل هو ذلك المخطط عن ضرورة واضطرار، خالفوه ووصفوه باقتراف الكبيرة، ـ فعند ذاك ـ نجمت مسألة كلامية وهي ما هو حكم مرتكب الكبيرة؟ وقد استفحل أمرها أيام محاربة الخوارج مع الأمويين الذين كانوا معروفين بالفسق والفجور، وسفك الدماء وغصب الأموال، فكان الخوارج يحاربونهم بحجّة أنّهم كفرة لا حرمة لدمائهم ولا أعراضهم ولا نفوسهم لاقترافهم الكبائر .

وعلى أي تقدير ففي المسألة أقوال:

ألف . مرتكب الكبيرة كافر.

ب . مرتكب الكبيرة فاسق منافق.

ج . مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق.

د. مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا فاسق بل منزلة بين المنزلتين.

فالأوّل خيرة الخوارج، والثاني مختار الحسن البصري، والثالث مختار الإمامية والأشاعرة، والرابع نظرية المعتزلة.

٣. تحديد مفهوم الإيمان:

وقد انبثق من هذا النزاع، نزاع كلامي آخر وهو: تحديد مفهوم الإيمان، وإنّ العمل داخل في حقيقة الإيمان أو لا ؟ فعلى قول الخوارج والمعتزلة، فالعمل مقوّم للإيمان، بخلافه على القول الآخر، وقد صارت تلك المسألة ذات أهميّة في الأوساط الإسلامية وانتهت إلى مسألة أُخرى، وهي زيادة الإيمان ونقصه بصالح الأعمال وعدمها.

٤. الإرجاء والمرجئة:

انّ فكرة إرجاء حكم مرتكب الكبيرة إلى الله سبحانه تعالى، أو إرجاء حكم الصهريـن إلى الله سبحانه، حتى لا ينبس فيهما المسلم ببنت شفة، أخـذت تنمو حتى تحوّلت إلى الإباحية التي تنزع التقوى من المسلم وتفتح أمامه أبواب المعاصي، وهو تقديم الإيمان وتأخير العمل، وإنّ المهم هو الاعتقاد القلبي والعمل ليس شيئاً يعتدّ به، و إنّ التعذيب إنّما يكون على الكفر، و إمّا التعذيب على اقتراف المعاصي فغير معلوم، وقد اشتهر عنهم قولهم: لا تضرّ مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

٥. مسألة القضاء والقدر:

إنّ مسألة القضاء والقدر و إن كان لها جذور قبل بزوغ نجم الإسلام وبعده، لكنّها أخذت لنفسها أهميّة خاصة في عصر الأمويين حيث كانوا يبرّرون استئثارهم وأعمالهم الإجرامية بالقضاء والقدر، فصار ذلك سبباً، لوقوع المسألة مثاراً للبحث والنقاش بين المفكرين المسلمين.

فالمسألة و إن كانت مطروحة بين المسلمين قبل الأمويين لكنها لم تشكّل تيّاراً فكرياً ولا مذهباً كلامياً.

روى الواقدي في مغازيه عن أُمّ الحارث الأنصارية وهي تحدّث عن فرار المسلمين يوم حنين قالت: مرّ بي عمر بن الخطاب (منهزماً) فقلت: ما هذا؟ فقال عمر: أمر الله [1].

١. الواقدي: المغازي: ٣/ ٩٠٤.

وقد كانت تلك الفكرة سائدة حتى بعد رحلة النبي ﷺ روى عبد الله بن عمر أنّه جاء رجل إلى أبي بكر فقال: أرأيت الزنا بقدر؟ قال: نعم. قال: الله قدّره عليّ ثم يعذّبني؟ قال: نعم يابن اللخناء، أما والله لو كان عندي انسان أمرته أن يجأ أنفك [١].

استغلال الأمويين للقدر:

لقد اتخذ الأمويّون مسألة القدر أداة تبريرية لأعمالهم السيّئة وكانوا ينسبون وضعهم الراهن بما فيه من شتى ضروب العيث والفساد إلى القدر. قال أبو هلال العسكري: إنّ معاوية أوّل من زعم أنّ الله يريد أفعال العباد كلّها [٢].

ولأجل ذلك لما سألت أُمّ المؤمنين عائشة، معاوية عن سبب تنصيب ولده يزيد للخلافة والإمامة أجابها: أنّ أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم [٣].

وبهذا أيضاً أجاب معاوية عبد الله بن عمر عندما استفسر معاوية عن تنصيبه يزيد فقال: إنّي أُحذّرك أن تشقّ عصا المسلمين وتسعى في تفريق ملئهم وأن تسفك دماءهم وأنّ أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة من أمرهم [٤].

وقد كانت الحكومة الأموية الجائرة متحمّسة إلى تثبيت هذه الفكرة في المجتمع الإسلامي وكانت تواجه المخالف بالشتم والضرب والإبعاد.

---

١. السيوطي: تاريخ الخلفاء: ٩٥.

٢. الأوائل: ٢٢/ ١٢٥.

٣. الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١/ ١٦٧.

٤. الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١/ ١٧١، طبعة مصر.

قال الدكتـور أحمد محمود صبحي في كتابـه «نظرية الإمامـة»: إنّ معاوية لم يكن يدعم ملكـه بالقوّة فحسب، ولكن بـايديولوجيـة تمسّ العقيدة في الصميم، فلقد كان يعلن في النـاس أنّ الخلافة بينه وبين علي عليه السلام قد احتكما فيهـا إلى الله، وقضى الله لـه على عليٍّ، وكذلـك حين أراد أن يطلب البيعـة لابنه يـزيد مـن أهل الحجاز أعلن أنّ اختيار يزيد للخلافة كان قضاء من القضاء وليس للعباد خيرة في أمرهم، وهكذا كـاد يستقرّ في أذهان المسلمين، أنّ كل ما يأمر بـه الخليفة حتى لو كانت طاعة الله في خلافه (فهو) قضاء من الله قد قدر على العباد [1].

وقد سرت هذه الفكرة إلى غير الأمويين من الذين كانوا في خدمة خلفائهم وأُمرائهم فهذا عمـر بن سعد بن أبي وقاص قاتـل الإمام الشهيد الحسين عليه السلام لما اعترض عليه عبد الله بن مطيع العدوي، بقوله: اخترت همدان والري على قتل ابن عمك، فقال عمر: كانت أُمـور قضيت من السماء، وقد اعذرت إلى ابن عمّي قبل الوقعة فأبى إلاّ ما أبى [2].

ويظهر أيضـاً ممّا رواه الخطيـب عن أبي قتادة عنـدما ذكـر قصة الخوارج في النهـروان لعائشـة، فقالـت عائشـة: ما يمنعنـي ما بيني وبين علي أن أقـول الحق سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «تفترق أُمّتي على فرقتين تمرق بينهما فرقة محلّقون رؤوسهم، يحفّـون شواربهم، أُزُرهم إلى أَنصـاف سوقهـم يقرأون القـرآن لا يتجاوز تـراقيهم، يقتلهم أحبّهم إليّ، وأحبّهم إلى الله». قال فقلت: يا أُمّ المؤمنين فأنت تعلمين هذا، فلم كـان الذي منك؟! قـالت: يـا أبا قتـادة وكان أمـر الله قدراً مقـدوراً وللقدر أسباب [3].

---

١. نظرية الإمامة: ٣٣٤.

٢. طبقات ابن سعد: ٥/ ١٤٨، طبع بيروت.

٣. تاريخ بغداد: ١/ ١٦٠.

وقد كان حماس الأمويين في هذه المسألة إلى حدّ قد كبح ألسن الخطباء عن الإصحار بالحقيقة، فهذا الحسن البصري الذي كان من مشاهير الخطباء ووجوه التابعين وكان يسكت أمام أعمالهم الإجرامية، ولكن كان يخالفهم في القول بالقدر بالمعنى الذي كانت تعتمد عليه السلطة آنذاك. فلما خوّفه بعض أصدقائه من السلطان، فوعد أن لايعود، روى ابن سعد في طبقاته عن أيوب قال: نازلت الحسن في القدر غير مرّة حتى خوّفته من السلطان، فقال: لا أعود بعد اليوم[١].

كيف وقد جُلد محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية المعروفة في مخالفته في القدر قال ابن حجر في تهذيب التهذيب: إنّ محمد بن إسحاق أُتّهم بالقدر، وقال الزبير عن الدراوردي: وجلد ابن إسحاق يعني في القدر[٢].

إذا كانت العوامل الداخلية سبباً لإثارة المسائل السابقة، فقد أثار العامل الخارجي أي الاحتكاك والصراع الفكري بين المسلمين وأهل الكتاب مسائل أُخرى نشير إلى أهمّها:

٦. مسألة التشبيه والتنزيه:

تلتقي اليهودية مع الإسلام في التوحيد والنبوة، لكنها تفارقها في أوصاف الربّ، فالتوراة تصف الإله بصورة بشر وله صورة، ويقول: خلق الله آدم على صورته[٣]، وإذا عمل يتعب فيحتاج إلى الاستراحة، يقول: وفرغ الله في اليوم السادس في عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع[٤] وأنّه يمشي بين رياض الجنة وله نداء[٥] إلى غير ذلك ممّا ورد في العهد القديم من التشبيه والتجسيم

---

١. طبقات ابن سعد: ٧/ ١٦٧، طبع بيروت.

٢. تهذيب التهذيب: ٩/ ٣٨ـ ٤٦.

٣ و ٤ و ٥. العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح الأوّل.

والتمثيل، وقد دسّت الأحبار كثيراً من البدع بين الأحاديث لاعتماد الرواة على أُناس نظراء: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وتميم الداري وغيرهم.

فأصبحت مسألة التشبيه وحديث الصفات الخبرية الواردة ذات أهمّيّة كبرى فرّقت المسلمين إلى طوائف واستفحل أمرها بوجود روايات التشبيه والتجسيم في الصحاح والمسانيد التي عكف على روايتها المحدّثون السُذّج، غير العارفين بدسائس اليهود ومكرهم. فحسبوها حقائق راهنة، والخلاف في تفسير الصفات الخبرية بعدُ باق إلى يومنا هذا.

٧. النسخ في الشريعة:

إنّ مسألة إمكان النسخ في مجال التشريع اكتسبت لنفسها مكانة بين المسائل الكلامية، وبما أنّ طائفة اليهود كانت منكرة لنبوة المسيح والنبي الخاتم ﷺ، عادت إلى انكار إمكان النسخ متمسّكة بما جاء في التوراة: «إنّ هذه الشريعة مؤبدة عليكم ولازمة لكم ما دامت السموات لا نسخ لها ولا تبديل» ومستدلة بأنّ النسخ مستلزم للبداء أي الظهور بعد الخفاء.

فصارت تلك الفكرة سبباً لطرحها في المحافل الإسلامية، فأخذ المتكلّمون بالبحث والنقد وأنّ النص في التوراة إمّا منحول أو مؤوّل، وإنّ النسخ لايستلزم البداء المستحيل وإنّما هو إظهار بعد إخفاء، وإنّه من قبيل الدفع لاالرفع.

٨. عصمة الأنبياء:

إنّ أبرز ما يفترق فيه القرآن عن العهدين هو مسألة حياة رجال الوحي والهداية الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿**وإنّهم عِندنا لَمِنَ المُصطفينَ**

الأخيار﴾[١] وقد ذكر من قصصهم الشيء الكثير فلا تجد فيه شيئاً يمسّ كرامتهم أو يحطّ من مقامهم وأمّا التوراة والإنجيل (المحرّفتان) فقد جاءا بإساطير خيالية تمسّ كرامة الله أوّلاً، وكرامة أنبيائه ثانياً، فالأنبياء فيها يشربون الخمر[٢] يمكرون[٣] ويقترفون الزنا[٤] إلى غير ذلك ممّا يخجل القلم عن بيانه.

فصار ذلك سبباً لطرح مسألة العصمة بين المسلمين، فهم بين مثبت وناف ومفصّل، وإن كان النافي بينهم أقل.

٩. حدوث القرآن وقدمه:

كان أهل الحديث ملتزمين بعدم اتخاذ موقف خاص فيما لم يرد فيه نص عن رسول الله ﷺ أو عهد من الصحابة إلاّ أنّهم خالفوا منهجهم في هذه المسألة وقد كانت تلعب وراءها يد الأجانب، فقد طرحها يوحنّا الدمشقي في كتابه فعلّم أتباعه المسيحيّين أن يسألوا المسلمين عن السيد المسيح فإذا أجابوهم بنصّ قرآنهم: ﴿**إنّما المسيحُ عيسى ابنُ مريمَ رسولُ اللهِ وكَلمتُهُ ألقاها إلى مريمَ وروحٌ مِنه**﴾[٥] فيقولوا هل كلمة الله وروحه مخلوقة أم غير مخلوقة؟ فإن قالوا مخلوقة، فإلزموهم بأنّ معناه أنّ الله كان ولم تكن له كلمة ولا روح وإن قالوا قديمة يثبت قدم المسيح، وكونه ابن الله وأحد الثلاثة[٦].

وقد كان للتخطيط المسيحي أثره الخاص فأوجدت تلك المسألة ضجّة

١. ص: ٤٧.
٢. العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح التاسع، الجملات ٢٠ـ ٢٥.
٣. العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح التاسع والعشرون ١٨ ـ ٣٨.
٤. العهد القديم، صموئيل الثاني، الاصحاح الحادي عشر ٤٩٧.
٥. النساء: ١٧١.
٦. تاريخ المذاهب الإسلامية: ٢/ ٣٩٤.

كبرى بين المسلمين، فالمحدثون على عدم كونه مخلوقاً والمتفكّرون كالشيعة والمعتزلة على الحدوث.

فهذه المسائل الأربع، دخلت أوساط المسلمين وتناولها المفكّرون بالبحث والنقاش، لدافع خارجي، كما عرفت.

هذه نماذج من المسائل الكلامية التي طرحت في القرن الأوّل والثاني، ولم تزل المسائل تطرح واحدة بعد الأُخرى حسب امتداد الصراع الفكري بين المسلمين وسائر الشعوب من مسيحية ويهودية ومجوسية وبوذية، فقد دفع هذا الاحتكاك الثقافي عجلة علم الكلام إلى الأمام، فأصبح المتكلّمون يبحثون عن مسائل أُخرى ربّما تقع ذريعة للردّ على الإسلام، إلى أن صار علم الكلام، علماً متكامل الأركان متشعّب الفنون ناضج الثمار داني القطوف.

الفصل الرابع

متكلّمو الشيعة عبر القرون

قد تعرفت على رؤوس المسائل الكلامية التي شغلت بال المفكّرين المسلمين عبر القرنين: الأوّل والثاني، ومن حسن الحظّ أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، أخذوها بالبحث والتحليل في خطبهم ورسائلهم وقصار كلمهم، وإنّهم وإن أُقْصوا عن سدة الحكم والخلافة لكن الأُمّة عكفت على بابهم فيما يتعلق بالعقيدة والشريعة، واعترفت بمرجعيتهم فيهما حتى المتقمّصين للخلافة.

ولو أنّك سبرت ما أُثر عن أمير المؤمنين عليه السلام وولديه السبطين، وما ورد في أدعية السجاد عليه السلام لوجدت في كلامهم إشارات لتلك المسائل، نذكر بعض النماذج منها.

كان لمسألة القضاء والقدر دويٌّ في العقد الثالث والرابع من الهجرة وكان القدر بمعنى السالب عن الاختيار متفشّياً بين المسلمين، وقد سأل الإمام علياً عليه السلام أحد أصحابه عند منصرفه من صفين ـ وكان انطباعه عن التقدير أنّه لا دور للإنسان في محاسن أفعاله ومساويها ـ وقال:

أخبرنا عن خروجنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : «أجل يا شيخ، فوالله ما علوتم تلعة ولا هبطتم بطن وادٍ إلاّ بقضاء

من الله وقـدر». فقال الشيخ: عند الله أحتسـب عنائي [١] يا أمير المؤمنين، فقـال: «مهلاً يا شيخ: لعلّـك تظنّ قضاءً حتماً وقدراً لازماً، لو كان كـذلك لبطل الثواب والعقـاب، والأمر والنهي والـزجـر، ولسقط معنى الـوعيد والـوعـد، ولم يكن على مسيئٍ لائمـة ولا لمحسـنٍ مَحْمَدة، ولكـان المحسـن أولى بـاللائمـة مـن المذنب، والمذنب أولى بالإحسان من المحسن ، تلك مقـالة عبدة الأوثان، وخصماء الرحمن وقدريـة هذه الأُمّة ومجوسهـا، يا شيخ إنّ الله عزّ وجـلّ كلّف تخييراً، ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلـوباً، ولم يطع مكرهـاً، ولم يخلق السموات والأرض ومـا بينهما بـاطـلاً ﴿ذَلِكَ ظَـنُّ الّذِيـنَ كَفَـرُوا فَوَيـلٌ لّلِذيَـن كَفَـروا مِنَ النّار﴾ [٢]».

قال: فنهض الشيخ وهو يقول:

أنت الإمـام الـذي نـرجـو بطاعتـــه ... يوم النجـــــاة من الـرحمن غفـرانـا

أوضحت مـن ديننـا مـا كـان ملتبسـاً ... جزاك ربّـــك عنّـا فيـه إحسـانـا [٣]

وفي كـلام آخر لـه ينهـى فيه البسطـاء عن الخوض في القـدر فقـال عليه السلام : «طريق مظلم فلا تسلكوه، وبحر عميق فلا تلجوه، وسرّ الله فلا تتكلّفوه» [٤].

إنّ خطب الإمام أو رسائله وقصار كلمه، مملـوءة با لمعارف الالٰهية، والأجوبة

---

١ . أي إن كان خروجنا وجهادنا بقضائه تعالى وقـدره لم نستحق أجراً، فرجائي أن يكون عنائي عند الله محسوباً في عداد أعمال من يتفضّل عليهم بفضله يوم القيامة.

٢ . سورة ص: ٢٧ .

٣. الصدوق: التوحيد: ٣٨٠؛ الـرضي: نهج البلاغة: قسم الحكم برقم ٧٨، وقـد حذف الرضي سؤال السائل ولخّص الجواب، ونقلـه غيره من المحدّثين على وجـه التفصيل، ونقلناه عـن تحف العقول للحرّاني: ١٦٦ .

٤ . الرضي: نهج البلاغة: قسم الحكم برقم ٢٨٧ .

على هـذه المسائل وأشباهها، وقـد عرفت كـلام الشارح الحديـدي أنّ المتكلّمين أخذوا أُصولهم عن خطبه.

استشهـد الإمام بسيـف الجور والظلم، وجاء دور السبـط الأكبر، فقد قـام بنفس الدور، وكان مرجعاً للمسائل والأحكام، نذكر نموذجاً ممّا أثر عنه.

رسالة الحسن البصري إلى السبط الأكبر :

كـان الحسن البصري خطيب القـوم ومتكلّمهم، وكـان يشار إليـه بالبنـان خصوصـاً في أواخر القـرن الأوّل، ووقع كثير من أهل الحديـث في ورطة الجبر زعماً منهم أنّ القـول بـالقضاء والقـدر، يسلب الحريـة عن الإنسـان، ويجعله مكتـوف الأيدي في الحياة؛ هذا، ومن جانب آخر، فـانّ تلك الفكرة تضادّ الفطرة الإنسانية وتجعل جهود الأنبياء والأولياء وعلماء التربية تذهب سدى.

فكتب الحسن البصري إلى السبط يسأله عن تلك المعضلة، وإليك السؤال والجواب:

أمّـا بعد: فـانّكم معشر بنـي هاشم، الفلـك الجارية في اللّجـج الغامـرة، والأعلام النيّـرة الشاهـرة، أو كسفينة نـوح عليه السلام التي نـزلها المؤمنـون، ونجا فيهـا المسلمـون، كتبت إليـك يـا ابن رسـول الله عنـد اختـلافنـا في القـدر وحيرتنـا في الاستطاعـة، فأخبرنـا بالـذي عليه رأيك ورأي آبـائك عليهم السلام ، فـإنّ مـن عِلْـم الله علمكم، وأنتم شهداء على النـاس والله الشاهد عليكم **﴿ذريّةً بَعضُها مِن بعضٍ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾** [1].

فأجابه الحسن عليه السلام : «بسم الله الرحمن الـرحيم، وصل إليّ كتابك، ولـولا ما

---

١. آل عمران: ٣٤.

ذكرته من حيرتـك وحيرة من مضى قبلك إذاً ما أخبرتك، أما بعـد: فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشرّه و إنّ الله يعلمه فقد كفـر، ومن أحال المعاصي على الله فقد فجر، إنّ الله لم يُطَعْ مكرهاً، ولم يُعْصَ مغلوباً، ولم يهمل العباد سدى من المملكة، بل هو المالك لما ملّكهم والقادر على مـا عليه أقدرهم، بل أمـرهم تخييراً، ونهاهم تحذيراً، فإن ائتمـروا بالطـاعة لم يجدوا عنهـا صادّاً، و إن انتهـوا إلى معصية فشـاء أن يمنّ عليهم بأن يحول بينهـم وبينها، فعل، و إن لم يفعل فليـس هو الذي حملهـم عليها جبراً، ولا أُلزمـوها كـرهاً، بل منَّ عليهـم بأن بصَّـرهم وعـرّفهم وحذّرهم وأمـرهم ونهاهم، لا جَبْـلاً لهم على ما أمـرهم به فيكـونوا كـا لملائكة، ولا جبراً لهم على مـا نهاهم عنـه، ولله الحجة البـالغة، فلو شـاء لهداكم أجمعين، والسـلام على من اتّبع الهدى»[١].

مكافحة السبطين للتشبيه:

قد كان للأحبار والرهبان دور مهم في بثّ أحاديث التجسيم بين المسلمين، فكـان القـول بـه متفشيـاً بين أهـل الحديـث ولكن السبطين كـافحـاه بخطبهـم وكلامهم.

وقد خطـب الحسن بن علي عليه السلام وقـال: «الحمد لله الـذي لم يكن فيـه أوّل معلوم، ولا آخر متناه، ولا قبل مدرك، ولا بعـد محدود، فلا تدرك العقول أوهامها، ولا الفكر وخطـراتها، ولا الألباب وأذهـانها صفته فتقـول: متى ولا بـدئ ممّا، ولا ظاهر على ما، ولا باطن فيما»[٢].

---

١. ابن شعبة الحرّاني: تحف العقول: ٢٣٢؛ المجلسي: بحار الأنوار: ٥/ ٤٠ ح ٦٣؛ الكراجكي: كنز الفوائد: ١١٧، ط ١.

٢. نور الثقلين: ٥/ ٢٣٦.

سؤال نافع بن الأزرق عن الإلٰه الذي يُعبد:

كان نـافع بن الأزرق من رؤوس الخوارج ومتطـرفيهم، وكان يتعلّـم من ابن عباس ما يجهله من مفاهيم القرآن، نقل عكرمة عن ابن عباس أنّه بينما كان يحدّث الناس إذ قام إليـه نافع بن الأزرق، فقال لـه: يا ابن عباس تفتي النـاس في النملة والقمّلة، صـف لي إلٰهك الذي تعبـد؟! فأطرق ابن عبـاس إعظامـاً لقولـه، وكان الحسين بن علي جالسـاً ناحية فقال: «إليّ يا ابـن الأزرق»، قال ابن الأزرق: لست إيّاك أسـأل. قال ابن عبـاس: يا ابـن الأزرق، إنّه من أهـل بيت النبوة وهـم ورثة العلم، فأقبل نافع نحو الحسين عليه السلام، فقال له الحسين عليه السلام: «يا نافع إنّ من وضع دينه على القيـاس لم يزل الـدهر في الالتبـاس، سائلاً نـاكباً عـن المنهاج، ظـاعناً بالاعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل.

يا ابن الأزرق أصف إلٰهي بما وصـف به نفسه، وأُعرِّفه بما عـرّف به نفسه: لا يُدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، قريب غير ملتصق، وبعيد غير منقص، يوحّد ولا يتبعّض، معـروف بـالآيـات، مـوصـوف بـالعلامـات، لا إلٰـه إلاّ هـو الكبير المتعال».

فبكى ابن الأزرق، وقال: يا حسين ما أحسن كلامك! قال له الحسين عليه السلام: «بلغني أنك تشهـد على أبي وعلى أخي بالكفـر وعليّ؟» قال ابـن الأزرق: أما والله يـا حسين لئن كـان ذلـك لقـد كنتم منـار الإسـلام ونجـوم الأحكـام، فقـال لـه الحسين عليه السلام: «إني سائلك عن مسألة»، قال: اسأل، فسأله عن هذه الآية: ﴿**وأمّا الجِدارُ فكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَة**﴾ [1].

يـا ابن الأزرق مـن حفظ في الغـلامين؟» قـال ابـن الأزرق: أبـوهما. قـال

١. الكهف: ٨٢.

الحسين: «فأبـوهما خيرٌ أم رسول الله ﷺ؟» قال ابـن الأزرق: قد أنبأنـا الله تعالى أنّكم قوم خصمون [١].

دور الإمام السجاد في الدفاع عن العقيدة:

قام الإمام السجاد بنفس الأمر الذي قام به جدّه وأبوه وعمّه، فقال لما سئل عن التوحيد: إنّ الله عـزّ وجلّ علم أنّه يكون في آخر الزمان أقـوام متعمّقون فأنزل الله تعالى: ﴿**قل هو الله أحد**﴾ والآيات الست من أوّل سورة الحديد وهي:

بسم الله الرحمن الـرحيم ﴿سَبّحَ للهِ ما في السمٰواتِ والأرضِ وهُـوَ العزيزُ الحكيمُ * لَهُ مُلْكُ السمٰواتِ والأرضِ يُحيِي ويُمِيتُ وهُـوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ * هُـوَ الأوّلُ والآخِرُ والظـاهِـرُ والباطِنُ وهُـوَ بكلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ * هُـوَ الـذي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأرضَ في سِتَّـةِ أيّامٍ ثُمَّ آستـوَى على العرشِ يَعْلمُ مـا يَلِجُ فِي الأرضِ وما يخرجُ مِنها وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ ومَا يَعْرُجُ فِيها وهُوَ مَعَكُمْ أينَ ما كُنْتُمْ واللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ ملكُ السمٰواتِ والأرضِ و إلى اللهِ تُرجَعُ الأُمورُ * يُولِجُ الليلَ فِي النهارِ ويُولِجُ النّهارَ فِي الليلِ وهُوَ عَلِيمٌ بذاتِ الصُّدُور ﴾ [٢].

روى الشيخ المفيـد أنّ عليّ بن الحسين عليه السلام كان في مسجـد رسول الله ذات يوم إذ سمع قوماً يشبّهون الله بخلقه، ففـزع لذلك وارتاع له، ونهض حتى أتى قبر رسول الله ﷺ فوقف عنده، ورفع صوته يناجي ربّه، فقال في مناجاته له:

«إلٰهي بدت قدرتك، ولم تبدُ هيئة جلالك، فجهلوك، وقدّروك بالتقدير على غير ما أنت به، شبّهوك وأنا بريءٌ يا إلٰهي من الذين بالتشبيه طلبوك، ليس كمثلك

---

١. ابن عساكر: تـاريخ مدينة دمشق، قسم حياة الإمام الحسين: ١٥٨، تحقيق محمـد باقر المحمودي؛ والمجلسي: بحار الأنوار: ٤/ ٢٩٧ (وذيل الحديث يحتاج إلى توضيح).

٢. نور الثقلين: ٥/ ٢٣١.

شيء إلٰهي ولم يُدركوك، وظاهر ما بهم من نعمة دليلهم عليك لو عرفوك، وفي خلقك يا إلٰهي مندوحة عن أن ينالوك، بل سوّوك بخلقك، فمن ثَمّ لم يعرفوك واتخذوا بعض آياتك ربّاً، فبذلك وصفوك، فتعاليت يا إلٰهي عمّا به المشبّهون نعتوك»[1].

وقد ضاق المجال على الإمام، وكانت السلطة لا تسمح له بالكلام والخطابة، فتفرّغ إلى العبادة ومناجاة ربّه، وخلّف أدعية ضمّت في طيّاتها، بحراً من المعرفة ودقايق العرفان.

هذا دور أئمّة الشيعة الأربعة في القرن الأوّل وقد تربّى في مدرستهم رجال ذبّوا عن حياض العقيدة، بكلّ ما يملكون من حول وقوة، وإليك أسماء بعضهم:

١. سلمان الفارسي:

وله مشاهد ومواقف جليلة لا سيما بعد انتزاع الخلافة من أهل بيت النبي الأكرم، وقد خطب بعد رحلة النبي ﷺ خطبة مطوّلة قال فيها:

ألا إنّ لكم منايا تتبعها بلايا، فإنّ عند عليّ علم المنايا وعلم الوصايا وفصل الخطاب على منهاج هارون بن عمران، قال رسول الله ﷺ: «أنت وصيّي وخليفتي في أهلي بمنزلة هارون من موسى»، ولكنّكم أصبتم سنّة الأوّلين، وأخطأتم سبيلكم، والذي نفس سلمان بيده لتركبنّ طبقاً عن طبق سنّة بني إسرائيل، القذة بالقذة، أما والله لو ولّيتموهما عليّاً لأكلتم من فوقكم ومن تحت أرجلكم فابشروا بالبلاء، واقنطوا من الرخاء، ونابذتكم على سواء وانقطعت العصمة فيما بيني وبينكم من الولاء ...[2].

---

١. المفيد: الإرشاد: ٢٦٠، طبعة النجف.

٢. المامقاني: تنقيح المقال: ٢/ ٤٧ رقم ٥٠٥٩.

٢. أبو ذر الغفاري جندب بن جنادة:

جندب بن جنادة ذلك الصحابيّ الجليل الذي كانت له مواقف مشهودة بعد رحلة النبي ﷺ وأيّام خلافة عثمان، حتى لفظ نفسه في صحراء لا ماء فيها ولا كلاء لأجل تلك المواقف، وقد قال في حقّه النبي ﷺ: «ما أضلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر»، وهو الذي أخذ بحلقة باب الكعبة ونادى بأعلى صوته: «أنا جندب بن جنادة لمن عرفني، وأبو ذر لمن لم يعرفني، إنّي سمعت رسول الله يقول: «إنّ مثل أهل بيتي في هذه الأُمّة مثل سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق»، ألا هل بلّغت؟»[١].

وله مواقف حاسمة مع كعب الأحبار في مجلس الخليفة في تفسير آية الكنز وغيرها، وقد حفظتها كتب التاريخ والتفسير.

٣. عبد الله بن عباس:

حبر الأُمّة وعالم الشريعة، تلميذ الوصي المعروف بحجاجه ومناظراته مع الخوارج وغيرهم، وقد حفلت كتب التفسير بآرائه وأفكاره في العقائد والتفسير، وقد ذكر السيوطي في إتقانه مناظرة الخوارج معه في لغات قرآنية[٢].

٤. حجر بن عديّ الكندي:

من أصحاب عليّ عليه السلام ويصفه الإمام أبو عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بقوله مندّداً بعمل معاوية حيث قتله بشهادة مزوّرة حاكها زياد بن أبيه، «ألست القاتل

---

١. المامقاني: تنقيح المقال: ١/ ٢٣٥ رقم ١٩٠٠.

٢. السيوطي: الاتقان: ١/ ٣٨٣ ـ ٤١٦، تحقيق الدكتور مصطفى ديب البُغا، ولو صحّ النقل يدل على سعة اطّلاع ابن عباس على ديوان العرب.

حجراً أخـا كندة، والمصلّين الذين كـانوا ينكرون الظلم ويستعظمـون البدع، ولا يخافون في الله لـومة لائم، قتلتهم ظلماً وعدوانـاً من بعد مـا كنت أعطيتهم الأيمان المغلّظة والمواثيق المؤكّدة»[١] وقد استشهد في مرج عذراء عام ٥١ هـ.

قال ابن الأثير في أُسـد الغابة بعد عـدّه من الصحابة: هو المعـروف بحجر الخير، شهد القـادسية وكان من فضـلاء الصحابة، وكـان على كندة بصفين، وعلى الميسرة يوم النهروان، وشهد الجمل أيضاً مع عليّ عليه السلام وكان من أعيان صحابته[٢].

٥. كُميل بن زياد النخعي:

الـذي يعرّفـه ابن حجـر وغيره بقولـه: كميل بن زيـاد بن نهيك بـن الهيثم النخعي، حـدّث عن عليّ وغيره، شهد صفين مع عليّ، وكـان شريفاً مطاعـاً، ثقة عابداً على تشيّعه، قليل الحديث قتله الحجاج ووثّقه ابن سعد وابن معن[٣].

أقول: كان كميـل من خيار الشيعـة وخاصّـة أمير المؤمنين، طلبه الحجـاج فهرب منه، فحرم قـومه عطاءهم، فلمّـا رأى كميل ذلك قـال: أنا شيخ كبير وقد نفذ عمري، ولا ينبغي أن أكون سبباً في حرمان قومي، فاستسلم للحجاج، فلما رآه قال لـه: كنت أحبّ أن أجـد عليك سبيلاً، فقـال له كميل: لا تبرق ولا تـرعد! ، فوالله مـا بقي من عمـري إلاّ مثل الغبار، فـاقض فإنّ الموعـد الله عزّ وجـلّ، وبعد القتل الحسـاب، ولقـد أخبرني أمير المؤمنين أنّك قـاتلي، فقـال الحجاج: الحجّـة عليك إذاً!، فقال: ذلك إن كان القضاء لك، قال: اضربوا عنقه[٤].

---

١. ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ١/ ١٦٤ ـ ١٦٥، ط مصر.

٢. ابن الأثير: أُسد الغابة : ١/ ٣٨٥.

٣. الذهبي: ميزان الاعتدال: ٣/ ٤١٥؛ ابن حجر: تهذيب التهذيب: ٨/ ٤٤٧ برقم ٨١١.

٤. الخوئي: معجم رجال الحديث: ١٤/ ١٢٨ برقم ٩٧٥٣.

كفى في وعيه ومعرفتـه وعرفانه أنّ الإمام علّمه دعاءه المعـروف باسمه، وفيه من النكات البديعة والإشارات اللطيفة التي لا يتحمّلها إلاّ الأوحديّ.

٦. الأصبغ بن نباتة:

التميميّ الحنظّلي المجاشعـيّ الكوفيّ من خاصّة أمير المؤمنين وعمّـر بعده. روى عنه عليه السلام عهد الأشتر ووصيّته إلى ابنه، قـال المفيد: كان رحمه الله من خواصّ أصحابه عليه السلام، وكثير الحبّ له، وكان رجـلاً فاضلاً، كثير الرواية، متّفقـاً في حديثه من كبار التابعين، وكان أكثـر رواياته عن أمير المؤمنين عليه السلام وله روايات كثيرة في فنون العلم، وأبواب الفقه والتفسير والحكم وغيرها [١].

٧. زيد بن صوحان العبدي:

عدّه الشيخ الطوسي من أصحاب أمير المؤمنين قائلاً: كان من الأبدال، قتل يوم الجمل، وقيل استرجعت عائشة حين سمعت أنّه قتل [٢] ولما صرع يوم الجمل جلس عليّ عند رأسـه فقال: «رحمك الله يا زيـد، لقد كنت خفيف المؤنـة، عظيم المعونة»، فـرفع زيد رأسه ثم قال: وأنـت فجزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين ... والله مـا قـاتلت معـك على جهـالة، ولكـن سمعت أُمّ سلمـة زوج رسـول الله تقـول: سمعت رسـول الله يقول: «من كنت مـولاه فعليّ مولاه، اللّهم وال مـن والاه وعاد من عـاداه وانصر من نصره واخذل مـن خذلـه»، فكرهت أن أخـذلك فيخـذلني الله.

---

١. النجـاشي: الـرجـال: ١/ ٦٠ بـرقـم ٥، وابـن سعـد في الطبقـات الكبرى: ٦/ ٢٥٥، والمفيـد في الاختصاص: ٦٥، والكشي في الرجال برقم ٤٢.

٢. الطوسي: الرجال: ٦٤ برقم ٥٦٦، أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام.

وكتبت عائشة من البصرة إلى زيد بن صوحان: من عائشة زوج النبي إلى ابنها زيد بن صوحان أما بعد: فإذا أتاك كتابي هذا فاجلس في بيتك وخذِّل الناس عن علي بن أبي طالب، حتى يأتيك أمري، فلما قرأ كتابها قال: أُمرْتِ بأمر وأُمرْنا بغيره، فركبتِ ما أُمرْنا به، وأمرتِنا أنْ نركب ما أُمرْتِ به، أُمرْتِ أن تقرَّ في بيتكِ وأمرْنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة [١].

٨. صعصعة بن صوحان:

صعصعة بن صوحان العبدي روى عهد مالك بن الحارث الأشتر [٢]. وقال ابن عبد البرّ: أسلم في عهد رسول الله ولم يره [٣].

وقال ابن الأثير: إنّ صعصعة كان من سادات قومه «عبد القيس» وكان فصيحاً خطيباً ديّناً فاضلاً يعدّ في أصحاب عليّ وشهد معه حروبه، وهو القائل لعمر بن الخطاب حتى قسّم المال الذي بعث إليه أبو موسى وكان ألف ألف درهم وفضلت فضلة فاختلفوا أين يضعها، فخطب عمر الناس وقال: أيّها الناس قد بقيت لكم فضلة بعد حقوق الناس، فقام صعصعة وهو غلام شاب وقال: إنّما نشاور الناس فيما لم ينزل فيه قرآن، فأما ما نزل به القرآن فضعه في مواضعه التي وضعها الله عزّ وجلّ فيها، فقال: صدقتَ أنت منيّ وأنا منك، فقسّمه بين المسلمين، وهو من سيّره عثمان إلى الشام وتوفى أيّام معاوية وكان ثقة، جليل الحديث، أخرجه الثلاثة [٤].

١. الكشي: الرجال: ٦٣ ـ ٦٤.

٢. النجاشي: ١/ ٤٤٨ برقم ٥٤٠.

٣. الاستيعاب: ٢/ ١٨٥.

٤. ابن الأثير: أُسد الغابة: ٣/ ٢٠.

٩. سعيد بن جبير:

التابعيّ المعروف بـالعفّة والزهد والعبادة، وكان يصلّـي خلف الإمام زين العابدين. وذكر أنّه لمّا دخل على الحجاج قال له: أنت شقيّ بن كسير، فقال: أُمّي أعرف باسمي منك، ثم بعد ردّ وبدل أمر الحجاج بقتلـه، فقال سعيد: ﴿**وَجّهْتُ وَجهي لِلّـذي فَطَرَ السمٰـواتِ والأرضَ حَنِيفـاً ومَا أنـا مِنَ المُشْـرِكين**﴾[١]، فقال الحجاج: شدّوه إلى غير القبلة، فقال: ﴿**فأين ما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجهُ اللهِ**﴾[٢] فقال: كبّوه على وجهه، قال: ﴿**مِنْها خَلَقناكُمْ وفِيها نُعِيدُكُم ومِنها نُخْرِجُكُم تارةً أُخْرى**﴾[٣]، ثم ضربت عنقه[٤].

١٠. قنبر مولى أمير المؤمنين:

صاحب سرّه ومستودع علمه. قال الحجاج لبعض جلاوزته: أحبّ أن أُصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب، فقال: ما نعلم أحداً كان أطول صحبة له من مولاه قنبر، فبعث في طلبه فقال: أنت قنبر؟ قال: نعم. قال له: إبرأ من دين عليّ. فقال له: هل تدلّني على دين أفضل من دينه؟ قال: إنّي قاتلك فاختر أيّ قتلة أحبّ إليك؟ قال: أخبرني أمير المؤمنين: أنّ ميتتي تكون ذبحاً بغير حق، فأُمر به فذبح كما تذبح الشاة[٥].

---

١. الأنعام: ٧٩.

٢. البقرة: ١١٥.

٣. طه: ٥٥.

٤. الكشي: الرجال: ١١٠، برقم ٥٥؛ ابن حجر، تهذيب التهذيب: ٤/ ١٢.

٥. الكشي: الرجال: ٦٧ ـ ٧٠ برقم ٢١.

١١. ميثم التمّار:

هو صاحب أمير المؤمنين وأمره في الجلالة، ورفعة المنزلة وعلوّ الشأن مستغن عن البيان، كان عبداً لامرأة فاشتراه عليّ فأعتقه، قال: «ما اسمك؟» قال: له سالم. قال: «حدّثني رسول الله أنّ اسمك الذي سمّاك أبوك في العجم: ميثم؟» قال: صدق الله ورسوله فرجع إلى ميثم واكتنّ بأبي سالم، وقد أخبره عليّ بأنّه يصلب على باب عمرو بن حريث عاشر عشرة هو أقصرهم خشبة، وأراه النخلة التي يصلب على جذعها، وكان ميثم يأتي ويصلّي عندها.

وقال لابن عباس: سلني عمّا شئت من تفسير القرآن فإنّي قرأت تنزيله عند أمير المؤمنين وعلّمني تأويله، فقال: يا جارية هات الدواة والقلم، فأقبل يكتب[١].

١٢. مالك بن الحارث الأشتر النخعي:

عدّه الشيخ الطوسي في رجاله من أصحاب الإمام أمير المؤمنين وقائد قوّاته في حرب الجمل وصفين، أمره في الجلالة والوثاقة والشجاعة والمناظرة أظهر من أن يبيّن، ولمّا بلغ عليّاً عليه السلام موته، قال: «رحم الله مالكاً، لو كان صخراً لكان صلداً، ولو كان جبلاً لكان فنداً».

لم يزل يكافح النزعات الأموية، من عصر الخليفة عثمان إلى أن استشهد في مصر بيد أحد عملاء معاوية[٢].

ومن نماذج كلامه ما ذكره عند تجهيز أبي ذر، حيث خرج مع رهط إلى الحج

---

١. الكشي: الرجال: ٤٧، برقم ٢٤.

٢. المامقاني: تنقيح المقال: ٣/ ٢٦٢ برقم ١٢٣٤٤.

فإذا امرأة على قارعة الطريق تقول: يا عباد الله، هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ قد هلك غريباً ليس لي أحد يعينني عليه، فنزل ونزل الرهط، فلما جهّزوه، وصلّى عليه الأشتر قام على قبره وقال: اللّهم هذا أبو ذر صاحب رسول الله عبدك في العابدين، وجاهد فيك المشركين، لم يغيّر ولم يبدّل، لكنه رأى منكراً فغيّره بلسانه وقلبه، حتى جُفِيَ ونُفِيَ وجُرّم واحتُقِر ثم مات وحيداً، اللهم فاقصم من حرّمه ونفاه من حرم رسولك. فقال الناس: آمين (١).

❋ ❋ ❋

هؤلاء اثنا عشر رجلاً من رجال الدعوة والإصلاح والذبّ والدفاع عن حريم العقيدة، المعروفون بنفسيّاتهم الكريمة، وملكاتهم الفاضلة، وسعيهم وراء الدعوة إلى الحق، ومع ذلك نراهم ما بين قتيل وشريد وسجين، إلى غير ذلك من ألوان العذاب التي عمّت هؤلاء الذابّين عن حريم العقيدة.

وما نقموا منهم، سوى الاصحار بالحقيقة، والإجهار بالولاية، والسعي وراء العقيدة الحقّة.

فبعض هؤلاء إن لم يكونوا متكلّمين بالمعنى المصطلح، لكن كانوا ذابّين عن حريم العقيدة بالكتاب والسنّة، والبعض الآخر كان من أكبر متكلّمي عصرهم لا يشقّ غبارهم ولا يدرك شأوهم.

متكلّمو الشيعة في القرن الثاني:

١. زرارة بن أعين بن سنسن:

مولى (بني عبد الله بن عمرو السمين بن أسعد بن همام بن مرّة بن ذهل بن شيبان)، أبو الحسن، شيخ أصحابنا في زمانه، ومتقدّمهم، وكان قارئاً فقيهاً متكلّماً شاعراً، أديباً، قد اجتمعت فيه خلال الفضل والدين، صادقاً في ما يرويه.

قال أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه: رأيت له كتاباً في الاستطاعة والجبر[١]. وقال ابن النديم: وزرارة أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفةً بالكلام والتشيع. [٢] وهو من الشخصيّات البارزة للشيعة التي اجتمعت العصابة على تصديقهم، هو غنيّ عن التعريف والتوصيف.

٢. محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البجلي:

يُعرِّفه النجاشي بقوله: مولى، الأحول «أبو جعفر» كوفيّ، صيرفيّ، يلقب مؤمن الطاق و «صاحب الطاق» ويلقبه المخالفون «شيطان الطاق» ... وكان دكّانه في طاق المحامل بالكوفة، فيرجع إليه في النقد فيردّ ردّاً فيخرج كما يقول فيقال «شيطان الطاق»، فأمّا منزلته في العلم وحسن الخاطر، فأشهر، وقد نسب إليه أشياء لم تثبت عندنا وله كتاب «افعل لا تفعل» رأيته عند أحمد بن الحسين بن عبيد الله رحمه الله، كتاب حسن كبير وقد أدخل فيه بعض المتأخرين أحاديث تدلّ على فساد، ويذكر تباين أقاويل الصحابة، وله كتاب «الاحتجاج في إمامة أمير

---

١. النجاشي: الرجال ١/ ٣٩٧ برقم ٤٦١؛ الطوسي: الفهرست: برقم ٣١٤؛ الكشي: الرجال: برقم ٦٢؛ الذهبي: ميزان الاعتدال: ٢/ برقم ٢٨٥٣.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٣٢٣.

المؤمنين عليه السلام »، وكتاب كلامه على الخوارج، وكتاب مجالسه مع أبي حنيفة والمرجئة ...»[١]، وقد توفي الإمام الصادق عليه السلام عام ١٤٨، وأبو حنيفة عام ١٥٠، فالرجل من متكلّمي القرن الثاني.

وقال ابن النديم: وكان متكلّماً حاذقاً، وله من الكتب كتاب الإمامة، كتاب المعرفة، كتاب الردّ على المعتزلة في إمامة المفضول، كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة[٢].

٣. هشام بن الحكم:

قال ابن النديم: هو من متكلّمي الشيعة الإمامية وبطانتهم، وممّن دعا له الصادق عليه السلام ، فقال: «أقول لك ما قال رسول الله لحسّان: لا تزال مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»، وهو الذي فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب، وسهّل طريق الحجاج فيه، وكان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب[٣].

يقول الشهرستاني: وهذا هشام بن الحكم، صاحب غور في الأُصول لا ينبغي أن يغفل عن إلزاماته على المعتزلة، فإنّ الرجل وراء ما يلزم به على الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه وذلك أنّه ألزم العلاّف ...[٤].

وقال النجاشي: هشام بن الحكم، أبو محمد مولى كندة، وكان ينزل بني شيبان بالكوفة، انتقل إلى بغداد سنة ١٩٩، ويقال أنّ في هذه السنة مات، له كتاب يرويه جماعة. ثم ذكر أسماء كتبه على النحو التالي:

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٠٣ برقم ٨٧٨؛ الطوسي: الرجال: أصحاب الكاظم برقم ١٨؛ الفهرست للطوسي: برقم ٥٩٤؛ الكشي: الرجال: برقم ٧٧.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٤، وأيضاً ص ٢٥٨.

٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٥٧.

٤. الشهرستاني: الملل والنحل: ١/ ١٨٥.

١. علل التحريم ٢. الإمامة ٣. الـدلالة على حدوث الأجسام ٤. الردّ على الزنادقـة ٥. الردّ على أصحاب الاثنين ٦. الردّ على هشـام الجواليقي ٧. الردّ على أصحاب الطبائع ٨. الشيخ والغلام في التوحيد ٩. التدبير في الإمامة ١٠. الميزان ١١. إمامـة المفضول ١٢. الوصيّـة والردّ على منكريها ١٣. الميـدان ١٤. اختلاف الناس في الإمامـة ١٥. الجبر والقدر ١٦. الحكمين ١٧. الردّ على المعتزلـة وطلحة والزبير ١٨. القدر ١٩. الألفاظ ٢٠. الاستطاعـة ٢١. المعرفة ٢٢. الثمانية أبواب ٢٣. الأخبـار ٢٤. الردّ على المعتـزلـة ٢٥. الـردّ على ارسطاطـاليـس في التوحيـد ٢٦. المجالس في التوحيد ٢٧. المجالس في الإمامة [١].

يقول أحمد أمين: أكبر شخصية شيعية في الكلام، وكان جدلاً قويّ الحجّة، ناظر المعتزلـة وناظروه، ونقلت له في كتب الأدب مناظـرات كثيرة متفرّقة تدلّ على حضور بديهته وقوّة حجته [٢].

ثم إنّه كان في بـداية أمره من تلاميـذ أبي شاكر الديصاني، صـاحب النزعة الإلحادية في الإسـلام، ثم تبع الجهم بن صفـوان، الجبري المتطرّف المقتـول بترمذ، عام ١٢٨ هـ ثمّ لحق بالإمام الصادق عليه السلام ودان بمذهب الإمامية، وما تنقل منه من الآراء التي لا توافق أُصول الإمامية، فإنّما هي راجعة إلى العصرين اللّذين كان فيهما على النزعة الإلحادية أو الجهمية، وأمّا بعدما لحق بالإمام الصادق عليه السلام ، فقد انطبعت عقليّته بمعـارف أهل البيت إلى حدّ كبير، حتى صـار أحد المدافعين عن عقائد الشيعة الإمامية [٣].

---

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٩٧ برقم ١١٦٥.

٢. عبد الله نعمة: هشام بن الحكم: ٧٥.

٣. إنّ للعلامة الحجة الشيخ عبد الله نعمة كتاباً في حيـاة هشام بن الحكم، فقد أغرق نزعاً في التحقيق وأغنانا عن كل بحث وتنقيب.

٤. قيس بن الماصر:

أحد أعلام المتكلّمين، تعلّم الكلام من عليّ بن الحسين عليه السلام، روى الكليني أنّه أتى شامي إلى أبي عبد الله الصادق ليناظر أصحابه، فقال عليه السلام ليونس بن يعقوب: انظر من ترى بالباب من المتكلّمين ... إلى أن قال يونس: فأدخلت زرارة بن أعين وكان يحسن الكلام، وأدخلت الأحول وكان يحسن الكلام، وأدخلت هشام بن الحكم وهو يحسن الكلام، وأدخلت قيس بن الماصر، وكان عندي أحسنهم كلاماً وقد تعلّم الكلام من عليّ بن الحسين عليهما السلام[١].

٥. عيسى بن روضة حاجب المنصور:

كان متكلّماً، جيّد الكلام، وله كتاب في الإمامة وقد وصفه أحمد بن أبي طاهر في كتاب بغداد، وذكر أنّه رأى الكتاب وقال بعض أصحابنا رحمهم الله: إنّه رأى هذا الكتاب، وقرأت في بعض الكتب: أنّ المنصور لما كان بالحيرة، تسمّع على عيسى بن روضة، وكان مولاه وهو يتكلّم في الإمامة، فأعجب به واستجاد كلامه[٢] وبما أنّ المنصور توفي عام ١٥٨، فالرجل من متكلّمي القرن الثاني.

٦. الضحّاك، أبو مالك الحضرمي:

كوفيّ، عربيّ، أدرك أبا عبد الله عليه السلام، وقال قوم من أصحابنا: روى عنه، وقال آخرون: لم يرو عنه، روى عن أبي الحسن، وكان متكلّماً، ثقة ثقة في الحديث، وله كتاب في التوحيد رواه عنه علي بن الحسين الطاطري[٣]، فالرجل من متكلّمي

---

١. الكليني: الكافي: ١/ ١٧١.
٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ١٤٥ برقم ٧٩٤.
٣. النجاشي: الرجال: ١/ ٤٥١ برقم ٥٤٤.

القرن الثاني، وقال ابن النديم: من متكلّمي الشيعة، وله مع أبي عليّ الجبائي مجلس في الإمامة وتثبيتها بحضرة أبي محمّد القاسم بن محمّد الكرخي، وله من الكتب: كتاب الإمامة، نقض الإمامة على أبي عليّ ولم يتمّه [١].

٧. علي بن الحسن بن محمّد الطائي:

المعروف بـ «الطاطري» كان فقيهاً، ثقة في حديثه، له كتب، منها: التوحيد، الإمامة، الفطرة، المعرفة، الولاية [٢] وغيرها. وعدّه ابن النديم من متكلّمي الإمامية وقال: «ومن القدماء: الطاطري وكان شيعيّاً واسمه ... وتنقّل في التشيّع وله من الكتب كتاب الإمامة حسن. [٣] وبما أنّه من أصحاب الإمام الكاظم فهو من متكلّمي القرن الثاني.

٨. الحسن بن عليّ بن يقطين بن موسى:

مولى بني هاشم، وقيل مولى بني أسد، كان فقيهاً متكلّماً روى عن أبي الحسن والرضا عليه السلام، وله كتاب مسائل أبي الحسن موسى عليه السلام [٤] وبما أنّ أبا الحسن الأوّل توفي عام ١٨٣، والثاني توفي عام ٢٠٣، فالرجل من متكلّمي القرن الثاني وأوائل القرن الثالث؛ وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الرضا [٥] وهو الذي سأل الإمام الرضا عليه السلام بأنّه لا يقدر على لقائه في كل وقت فعمّن يأخذ معالم دينه؟ فأجاب الإمام عليه السلام : «خذ عن يونس بن عبد الرحمن» [٦].

---

١. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦.
٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٧٧ برقم ٦٦٥.
٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦.
٤. النجاشي: الرجال: ١/ ١٤٨ برقم ٩.
٥. الشيخ الطوسي: الرجال: برقم ٧.
٦. النجاشي: ٢/ ٤٢١ برقم ١٢٠٩.

٩. حديد بن حكيم:

أبـو علي الأزدي المدائني، ثقة، وجـه، متكلّم، روى عن أبي عبـد الله، وأبي الحسن عليهما السلام ، له كتاب يرويه محمد بن خالد [١].

وبما أنّه من تلاميذ الصادق والكاظم عليهما السلام فالرجل من متكلّمي الشيعة في القرن الثاني.

١٠. فضال بن الحسن بن فضال:

وهو من متكلّمي عصر الصادق عليه السلام ، وذكر الطبرسي في احتجاجه مناظرته مع أبي حنيفة، فلاحظ [٢].

وما ذكرناه نماذج من مشاهير المتكلّمين في عصر الصادقين والكاظم عليهم السلام ، وهناك من لم نذكـرهم ولهم مناظرات واحتجاجات احتفلـت بها الكتب التاريخية والكـلاميـة، كحمران بـن أعين الشيبـاني، وهشـام بن سـالم الجواليقي، والسيّـد الحميري، والكميت الأسدي [٣].

متكلّمو الشيعة في القرن الثالث:

١. الفضل بن شاذان بن الخليل أبو محمد الأزدي النيشابوري:

كان أبوه من أصحاب يونس، وروى عن أبي جعفر الثاني وقيل الرضا عليه السلام ، وكان ثقة، أحد أصحابنا الفقهاء، والمتكلّمين، وله جلالة في هذه الطائفة، وهو في

---

١. النجاشي: الرجال: ١/ ٣٧٧ برقم ٣٨٣، وذكره الخطيب في تاريخه: ج٨ برقم ٤٣٧٧.

٢. التستري: قاموس الرجال: ٤/ ٣١٣.

٣. لاحظ أعيان الشيعة: ١/ ١٣٤ ـ ١٣٥.

قدره أشهر من أن نصفه، وذكر الكنجي أنّه صنّف مائة وثمانين كتاباً.

وذكره الشيخ في رجاله في أصحاب الإمام الهادي والعسكري عليهما السلام، وقد توفي عام ٢٦٠ هـ، فهو من متكلّمي القرن الثالث، وقد ذكر النجاشي فهرس كتبه نقتبس منه ما يلي:

النقض على الاسكافي في تقوية الجسم، الوعيد، الردّ على أهل التعطيل، الاستطاعة، مسائل في العلم، الاعراض والجواهر، العلل، الإيمان، الردّ على الثنوية، إثبات الرجعة، الردّ على الغالية المحمدية، تبيان أصل الضلالة، الردّ على محمد بن كرام، التوحيد في كتب الله، الردّ على أحمد بن الحسين، الردّ على الأصم، كتاب في الوعد والوعيد آخر، الردّ على بيان (يمان) بن رباب (الخارجي)، الردّ على الفلاسفة، محنة الإسلام، أربع مسائل في الإمامة، الردّ على المنّانية، الردّ على المرجئة، الردّ على القرامطة، الردّ على البائسة، اللطيف، القائم عليه السلام، كتاب الإمامة الكبير، كتاب حذو النعل بالنعل، فضل أمير المؤمنين عليه السلام، معرفة الهدى والضلالة، التعرّي والحاصل، الخصال في الإمامة، المعيار والموازنة، الردّ على الحشوية، الردّ على الحسن البصري في التفضيل، النسبة بين الجبرية والبترية [١].

٢. حكم بن هشام بن الحكم:

أبو محمّد، مولى كندة، سكن البصرة، وكان مشهوراً بالكلام، كلّم الناس، وحكي عنه مجالس كثيرة، ذكر بعض أصحابنا أنّه رأى له كتاباً في الإمامة [٢]، وقد توفّي والده ٢٠٠ أو ١٩٩، فهو من متكلّمي أواخر القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث.

---

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ١٦٨ برقم ٨٣٨، والطوسي: الرجال: برقم ١ و ٢ في أصحاب الهادي والعسكري، والكشي: الرجال: برقم ٤١٦.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٢٨ برقم ٣٤٩.

٣. داود بن أسد بن أعفر:

أبو الأحـوص البصري (رحمه الله) شيخ جليل، فقيه متكلّم، مـن أصحاب الحديث، ثقـة ثقة، وأبـوه من شيوخ أصحـاب الحديث الثقـات، له كتب، منهـا: كتاب في الإمامة على سائر من خـالفه من الأُمم، والآخر مجرّد الدلائل والبراهين، وذكره الشيخ الطـوسي في الفهرست في بـاب الكنى، وقال: إنّه مـن جملة متكلّمي الإمامية، لقيه الحسن بن موسى النوبختي، وأخذ عنه، واجتمع معه في الحائر على ساكنه السلام، وكـان ورد للزيارة فبما أنّه من مشايخ الحسن بـن موسى النوبختي المعاصر للجبائي (المتوفّـى ٣٠٣ هـ) فهو من متكلّمي القرن الثالث [١].

٤. محمّد بن عبد الله بن مملك الاصبهاني:

أصلـه من جـرجان، وسكـن اصبهان، جليـل في أصحابنـا، عظيم القـدر والمنزلة كـان معتزلياً ورجع على يد عبد الرحمن بـن أحمد بن جبرويه (رحمه الله)، له كتب منها: كتاب الجامع في سائر أبـواب الكلام كبير، وكتاب المسائل والجوابات في الإمامة، كتاب مواليد الأئمّة عليهم السلام، كتاب مجالسه مع أبي علي الجبائي (٢٣٥ - ٣٠٣ هـ) [٢].

٥. ثبيت بن محمّد، أبو محمّد العسكري:

صاحب أبي عيسى الوراق (محمّد بن هـارون) متكلّم حاذق، من أصحابنا العسكريين، وكان أيضاً له اطّلاع بالحديث والرواية، والفقه، له كتب:

---

١. النجاشي: الرجال: ١/ ٣٦٤، وفهرست الشيخ: ٢٢١.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٩٧ برقم ١٠٣٤.

١. كتاب توليدات بني أُميّة في الحديث، وذكر الأحاديث الموضوعة.

٢. الكتاب الذي يعزى إلى أبي عيسى الوراق في نقض العثمانية له.

٣. كتاب الأسفار.

٤. دلائل الأئمّة عليهم السلام [1].

وبما أنّه من أصحاب أبي عيسى الوراق، وقد توفّي هو في ٢٤٧، فالرجل من متكلّمي القرن الثالث.

٦. إسماعيل بن محمّد بن إسماعيل بن هلال المخزومي:

أبو محمّد، أحد أصحابنا، ثقة فيما يرويه، قدم العراق، وسمع أصحابنا منه، مثل أيوب بن نوح، والحسن بن معاوية، ومحمّد بن الحسين، وعلي بن حسن بن فضال، له كتاب التوحيد، كتاب المعرفة، كتاب الإمامة.

وبما أنّ الراوي عنه كعليّ بن حسن بن فضال من أصحاب الهادي والعسكري عليهما السلام، وقد توفي الإمام العسكري عام ٢٦٠، فهو في رتبة حسن بن علي ابن فضال، الذي هو من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام فيكون من متكلّمي القرن الثالث [2].

٧. محمّد بن هارون:

أبو عيسى الورّاق: له كتاب الإمامة، وكتاب السقيفة، وكتاب الحكم على سورة لم يكن، وكتاب اختلاف الشيعة والمقالات. وقال ابن حجر: له تصانيف

---

١. النجاشي: الرجال: ١/ ٢٩٣ برقم ٢٩٨، وثبيت على وزان زبير.

٢. النجاشي: الرجال: ١/ ١٢٠ برقم ٦٦.

على مـذهب المعتزلـة. وقال المسعـودي: له مصنّفـات حسان في الإمـامة وغيرهـا وكانت وفاته سنة ٢٤٧ (١).

٨. إبراهيم بن سليمان بن أبي داحة المزني، مولى آل طلحة بن عبيد الله:

أبـو إسحاق، وكـان وجـه أصحـابنا البصريّين في الفقـه والكـلام والأدب والشعر، والجاحظ يحكي عنه، وقال الجاحظ (في البيان والتبيين): حدّثني إبراهيم ابن داحة عن محمد بن أبي عمير(٢).

وبما أنّ استاذه ابن أبي عمير توفي عام ٢١٧، والجاحـظ، الراوي عنه توفّـي عام ٢٥٥، فهو من متكلّمي القرن الثالث.

٩. الشّكّال:

قال ابـن النديم: صـاحب هشام بن الحكـم وخالفه في أشيـاء إلاّ في أصل الإمامة، وله من الكتب: كتاب المعرفة، كتاب في الاستطاعة، كتاب الإمامة، كتاب على من أبى وجوبَ الإمامة بالنص(٣)، وبما أنّ هشاماً توفّـي عـام ١٩٩، فالرجل من متكلّمي أوائل القرن الثالث.

١٠. الحسين بن اشكيب:

شيخ لنا، خراساني ثقة مقدّم، ذكره أبو عمرو في كتاب الرجال في أصحاب

---

١. النجاشي: الـرجال: ٢/ ٢٨٠ بـرقم ١٠١٧، ابن حجر: لسـان الميزان: ج٥ بـرقم ١٣٦٠، المحقق الدامـاد: الرواشح السماويـة: ٥٥ ومرّ ذكره في تـرجمة ثبيت، وما في كـلام ابن حجر من عـدّه من المعتزلة، ناش عن الخلط بين المعتزلة والإمامية.

٢. النجاشي: الرجال: ١/ ٨٧ برقم ١٣؛ و٢/ ٢٠٥ برقم ٨٨٨؛ البيان والتبيين: ١/ ٦١.

٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٤.

أبي الحسن، صاحب العسكر عليه السلام، وصفه بأنّه عالم متكلّم مؤلف للكتب، المقيم بسمرقند وكش، وله من الكتب: كتاب الردّ على من زعم أنّ النبي كان على دين قومه، والردّ على الزيدية، وبما أنّه من أصحاب أبي الحسن المتوفى عام ٢٦٠، فهو من متكلّمي القرن الثالث [1].

وعدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام [2].

١١. عبد الرحمن بن أحمد بن جبرويه، أبو محمّد العسكري:

متكلّم من أصحابنا، حسن التصنيف، جيّد الكلام، وعلى يده رجع محمد ابن عبد الله بن مملك الاصبهاني عن مذهب المعتزلة، وقد كلّم عباد بن سليمان ومن كان في طبقته، وقع إلينا من كتبه: كتاب الكامل في الإمامة، كتاب حسن [3].

وبما أنّ محمد بن عبد الله معاصر للجبائي (٢٣٥ ـ ٣٠٣ هـ) وله مجالس معه [4]، فالرجل من متكلّمي القرن الثالث، ولعله أدرك أوائل القرن الرابع.

١٢. علي بن منصور:

أبو الحسن، كوفي سكن بغداد، متكلّم من أصحاب هشام، له كتب، منها: كتاب التدبير في التوحيد والإمامة [5]، وقال النجاشي في ترجمة هشام بن الحكم، كتاب التدبير في الإمامة، وهو جمع علي بن منصور من كلامه [6]، وبما أنّ هشام توفّي عام ١٩٩، فالرجل من متكلّمي القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث.

---

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٤٦ برقم ٨٧.

٢. الشيخ الطوسي: الرجال: برقم ١٨.

٣. النجاشي: الرجال: ٢/ ٤٧ برقم ٦٢٣.

٤. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٩٧ برقم ١٠٣٤.

٥. النجاشي: الرجال: ٢/ ٧١ برقم ٦٥٦.

٦. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٩٧ برقم ١١٦٥.

١٣. علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمّـار:

أبـو الحسـن، مـولى بني أسـد، كوفـــي، سكن البصرة، وكـان مـن وجـوه المتكلّمين من أصحـابنـا، كلّم أبـا الهذيـل (١٣٥ ـ ٢٣٥ هــ) والنظـام (١٦٠ ـ ٢٣١هـ) له مجالس وكتب، منها: كتاب الإمـامة، كتاب مجالس هشام بن الحكم، وكتاب المتعة.[1] وعدّه الشيخ في رجـاله من أصحاب الـرضا برقـم ٥٢، فهو من متكلّمي القرن الثالث.

وقال ابن النديم: أوّل من تكلّم في مذهب الإمامة علي بن إسماعيل بن ميثم التمّـار، وميثـم (جدّه) من جلّـة أصحاب علي رضي الله عنـه، ولعليّ من الكتب: كتاب الإمامة، كتاب الاستحقاق[2].

متكلّمو الشيعة في القرن الرابع:

١. الحسن بن عليّ بن أبي عقيل:

أبو محمد العماني، الحذاء، فقيه متكلّم ثقة، لـه كتب في الفقه والكلام منها: كتاب «المتمسّك بحبل آل الـرسول»، قال النجاشي: وقرأت كتـابه المسمّى: الكرّ والفـرّ، على شيخنا أبي عبـد الله المفيد (رحمه الله)، وهـو كتـاب في الإمامـة، مليح الوضع.

وذكره الشيخ في الفهرسـت والرجال[3]، وبما أنّه مـن مشايخ أبي القـاسم جعفر بن محمد المتوفّــى عام ٣٦٨ هــ، فالرجل من أعيان القـرن الرابع، المعاصر للكليني، المتوفّـى عام ٣٢٩ هــ.

---

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٧٢ برقم ٦٥٩.

٢. الفهرست لابن النديم: ٢٦٣.

٣. النجاشي: الرجال: ١/ ١٥٣ برقم ٩٩، ولاحظ فهـرست الشيخ: رقم ٢٠٤، ورجاله في باب من لم يرو عنهم عليهم السلام برقم ٥٣.

٢. إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت:

كان شيخ المتكلّمين من أصحابنا وغيرهم، له جلالة في الدنيا والدين، يجري مجرى الوزراء في جلالة الكتاب، صنّف كتباً كثيرة، منها: كتاب الاستيفاء في الإمامة، التنبيه في الإمامة ـ قال النجاشي: قرأته على شيخنا أبي عبد الله المفيد (رحمه الله) ـ كتاب الجمل في الإمامة، كتاب الردّ على محمد بن الأزهر في الإمامة، كتاب الردّ على اليهود، كتاب في الصفات للردّ على أبي العتاهية (١٣٠ ـ ٢١١هـ) في التوحيد في شعره، كتاب الخصوص والعموم والأسماء والأحكام، كتاب الإنسان والردّ على ابن الراوندي، كتاب التوحيد، كتاب الارجاء، كتاب النفي والإثبات، مجالسه مع أبي علي الجبائي (٢٣٥ ـ ٣٠٣هـ) بالأهواز، كتاب في استحالة رؤية القديم، كتاب الردّ على المجبرة في المخلوق، مجالس ثابت بن أبي قرّة (٢٢١ ـ ٢٨٨هـ)، كتاب النقض على عيسى بن أبان في الاجتهاد، نقض مسألة أبي عيسى الوراق في قدم الأجسام، كتاب الاحتجاج لنبوة النبي ﷺ، كتاب حدوث العالم[١].

وقال ابن النديم: أبو سهل إسماعيل بن علي بن نوبخت من كبار الشيعة وكان أبو الحسن الناشئ يقول: إنّه أُستاذه وكان فاضلاً، عالماً، متكلّماً، وله مجالس بحضرة جماعةمن المتكلّمين ... وذكر فهرس كتبه[٢].

٣. الحسين بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه:

أخو الصدوق القمي أبو عبد الله، ثقة روى عن أبيه إجازة، وله كتب، منها: كتاب التوحيد ونفي التشبيه، وكتاب عمله للصاحب أبي القاسم بن عبّاد (٣٢٦

---

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٢١ برقم ٦٧ (وهو خال الحسن بن موسى مؤلف فرق الشيعة).

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٥.

ـ ٣٨٥هـ) وقد توفّي أخوه عام ٣٨١ هـ، فهو من أعيان القرن الرابع، وهو وأخوه ولدا بدعوة صاحب الأمر، ترجمه ابن حجر في لسان الميزان [١].

٤. محمّد بن بشر الحمدوني «أبو الحسن السوسنجردي»:

متكلّم جيّد الكلام، صحيح الاعتقاد، كان يقول بالوعيد، له كتب منها: كتاب المقنع في الإمامة، كتاب المنقذ في الإمامة [٢].

وقال ابن النديم: السوسنجردي من غلمان أبي سهل النوبختي، يكنّى أبا الحسن، ويعرف بالحمدوني منسوباً إلى آل حمدون، وله من الكتب: كتاب الإنقاذ في الإمامة [٣].

وقال ابن حجر: كان زاهداً ورعاً متكلّماً، على مذهب الإمامية، وله مصنّفات في نصرة مذهبه [٤].

٥. يحيى أبو محمّد العلويّ من بني زيارة:

علويّ، سيّد، متكلّم، فقيه، من أهل نيشابور، قال الشيخ الطوسي: جليل القدر، عظيم الرياسة، متكلّم، حاذق، زاهد، ورع، لقيت جماعة ممّن لقوه وقرأوا عليه، له كتاب إبطال القياس، وكتاب في التوحيد [٥]، وعلى هذا فالرجل في درجة شيخ مشايخ الطوسي، فهو من متكلّمي القرن الرابع.

---

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٨٩ برقم ١٦١، ابن حجر: لسان الميزان: ٢/ ٣٠٦ برقم ١٢٦٠.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٩٧ برقم ١٠٣٧.

٣. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦.

٤. ابن حجر: لسان الميزان: ٥/ ٩٣ برقم ٣٠٤.

٥. النجاشي: الرجال: ٢/ ٤١٣ برقم ١١٩٢، وقد جاءت ترجمته أيضاً برقم ١١٩٥؛ الشيخ الطوسي: الفهرست: برقم ٨٠٣.

٦. محمّد بن القاسم، أبو بكر:

بغداديّ، متكلّم، عاصر ابن همام، له كتاب في الغيبة، كلام [١] وابن همام هو محمّد بن أبي بكر بن سهيل الكاتب الاسكافي الذي ترجم له النجاشي في رجاله برقم ١٠٣٣.

وذكره الخطيب في تاريخه (٣/ ٣٦٥)، وقال: أحد شيوخ الشيعة، ولد عام ٢٥٨ هـ، وتوفّي عام ٣٣٨. وعلى هذا فالمترجم من متكلّمي أوائل القرن الرابع.

٧. محمّد بن عبد الملك بن محمّد التبّان:

يكنّى أبا عبد الله، كان معتزلياً، ثم أظهر الانتقال، ولم يكن ساكناً له كتاب في تكليف من علم الله أنّه يكفر، وله كتاب في المعدوم، ومات لثلاث بقين من ذي القعدة سنة ٤١٩ هـ [٢]. وعلى هذا فهو من متكلّمي القرن الرابع وأوائل الخامس.

٨. محمد بن عبد الرحمن بن قبة الرازي أبو جعفر:

متكلّم، عظم القدرة، حسن العقيدة، قويّ في الكلام، كان قديماً من المعتزلة، وتبصّر وانتقل، له كتب في الكلام، وقد سمع الحديث، وأخذ عنه ابن بطّة وذكره في فهرسته الذي يذكر فيه من سمع منه فقال: وسمعت من محمّد بن عبد الرحمن بن قبة.

له كتاب الانصاف في الإمامة، وكتاب المستثبت نقض كتاب أبي القاسم البلخي (المتوفّى ٣١٩هـ)، وكتاب الرد على الزيدية، وكتاب الردّ على أبي علي الجبائي، المسألة المفردة في الإمامة.

---

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٩٨ برقم ١٠٣٦.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٣٣ برقم ١٠٧٠.

قال النجاشي: سمعت أبا الحسين السوسنجردي (رحمه الله) وكان من عيون أصحابنا وصالحيهم المتكلّمين، وله كتاب في الإمامة معروف به، وقد كان حجّ على قدميه خمسين حجّة، يقول: مضيت إلى أبي القاسم البلخي إلى بلخ بعد زيارتي الرضا عليه السلام بطوس فسلّمت عليه وكان عارفاً بي ومعي كتاب أبي جعفر بن قبة في الإمامة المعروف بالانصاف، فوقف ونقضه با لمسترشد في الإمامة فعدت إلى الريّ، فدفعت الكتاب إلى ابن قبة فنقضه با لمستثبت في الإمامة، فحملته إلى أبي القاسم فنقضه بنقض المستثبت، فعدت إلى الريّ فوجدت أبا جعفر قد مات رحمه الله[1].

وقال ابن النديم: أبو جعفر بن محمد بن قبة من متكلّمي الشيعة وحذاقهم، وله من الكتب: كتاب الانصاف في الإمامة، كتاب الإمامة[2].

وقال العلامة: وكان حاذقاً شيخ الإمامية في عصره[3].

٩. عليّ بن وصيف، أبو الحسن الناشئ (٢٧١ ـ ٣٦٥ هـ):

الشاعر المتكلّم، ذكر شيخنا (رضي الله عنه) أنّ له كتاباً في الإمامة[4].

قال الطوسي: كان متكلّماً شاعراً مجوّداً، وله كتب ...[5].

قال ابن خلّكان: من الشعراء المحبّين، وله في أهل البيت قصائد كثيرة، وكان متكلّماً بارعاً، أخذ علم الكلام عن أبي سهل إسماعيل بن عليّ بن نوبخت

---

١. النجاشي: الرجال: ٢/ ٢٨٨ برقم ١٠٢٤.
٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٢.
٣. العلامة: الخلاصة: ١٦٣، القسم الأوّل.
٤. النجاشي: الرجال: ٢/ ١٠٥ برقم ٧٠٧.
٥. الطوسي: الفهرست: ١١٥، ط النجف.

المتكلّم، وكـان من كبـار الشيعة، ولـه تصـانيف كثيرة، وقال ابـن كثير: إنّه كـان متكلّماً، بارعاً، من كبار الشيعة، فهو من متكلّمي القرن الرابع [١].

١٠. الحسن بن موسى، أبو محمد النوبختي:

شيخنا المبرّز على نظـرائه في زمانه قبـل الثلاثمائة وبعدهـا، له على الأوائل كتب كثيرة، منهـا: ١. كتـاب الآراء والديـانـات، يقـول النجاشي: كتـاب كبير حسن يحتـوي على علوم كثيرة قـرأت هذا الكتـاب على شيخنا أبي عبـد الله المفيد ـ رحمه الله ـ ٢. كتاب فرق الشيعة ٣. كتاب الردّ على فرق الشيعة ما خلا الإمامية ٤. كتاب الجامع في الإمامة ٥. كتاب الموضح في حروب أمير المؤمنين ٦. كتاب التـوحيد الكبير ٧. كتـاب التـوحيـد الصغير ٨. كتاب الخصـوص والعمـوم ٩. كتـاب الأرزاق والآجـال والأسعـار ١٠. كتـاب كبير في الجبر ١١. مختصر الكـلام في الجبر ١٢. كتـاب الردّ على المنجمين ١٣. كتـاب الـردّ على أبي علي الجبائي في ردّه على المنجّمين ١٤. كتـاب النكت على ابن الراونـدي ١٥. كتاب الردّ على مـن أكثر المنـازلة ١٦. كتـاب الردّ على أبي الهذيل العـلاّف في أنّ نعيم أهل الجنّـة منقطع ١٧. كتاب الانسان غير هـذه الجملة ١٨. كتـاب الردّ على الواقفـة ١٩. كتاب الـردّ على أهل المنطق ٢٠. كتـاب الردّ على ثـابت بن قـرّة ٢١. الـردّ على يحيى بن أصفـح في الإمامـة ٢٢. جـوابـاته لأبي جعفـر بن قبـة ٢٣. جـوابـات أُخر لأبي جعفـر ٢٤. شرح مجالسـه مع أبي عبـد الله بـن مملك ٢٥. حجج طبيعيـة مستخرجـة من كتب ارسطاطـاليس في الـردّ على من زعم أنّ الفلك حيّ ناطـق ٢٦. كتاب في المرايا وجهة الرؤيـة فيها ٢٧. كتاب في خبر الواحد والعمـل به ٢٨. كتاب في الاستطاعـة على مذهب هشام وكان يقـول به

---

١. المامقاني: تنقيح المقال: ٢/ ٣١٣ برقم ٨٥٤٩.

٢٩. كتاب في الـردّ على من قال بـالرؤية للبـاري عزّ وجلّ ٣٠. كتـاب الاعتبار والتمييز والانتصـار ٣١. كتاب النقض على أبي الهذيل في المعرفـة ٣٢. كتاب الردّ على أهل التعجيـز، وهو نقض كتاب أبي عيسى الـوراق ٣٣. كتاب الحجج في الإمامة ٣٤. كتاب النقض على جعفر بن حرب (١٧٧ـ ٢٣٦ هـ) في الإمامة ٣٥. مجالسه مـع أبي القاسم البلخي (المتوفّـى ٣١٩ هـ) ٣٦. كتاب التنـزيه وذكـر متشابـه القـرآن ٣٧. الردّ على أصحـاب المنزلـة بين المنـزلتين في الوعيـد ٣٨. الردّ على أصحاب التناسخ ٣٩. الـردّ على المجسّمة ٤٠. الردّ على الغلاة ٤١. مسائله للجبائي في مسائل شتّى [١].

والـرجل من أكـابـر متكلّمي الشيعـة، عـاصر الجبائي (المتوفّـى ٣٠٣)، والبلخي (المتوفّـى ٣١٩)، وأبا جعفر بن قبة المتوفّـى قبل البلخي، فهو من أعيان متكلّمي الشيعة في أواخر القرن الثالث، وأوائل القرن الرابع.

وقـال ابن النـديم: أبـو محمد الحسـن بن مـوسى ابـن أُخت بن سهـل بن نوبخت، متكلّم، فيلسوف كان يجتمع إليه جماعة من النقلة لكتب الفلسفة، مثل: أبي عثمان الدمشقي، وإسحاق، وثـابت وغيرهم وكانت المعتزلة تـدعيه، والشيعة تدعيه، ولكنـه إلى حيّز الشيعة ما هـو (كذا) لأنّ آل نوبخت معروفـون بولاية عليّ وولده عليهم السلام في الظاهر، فلـذلك ذكرناه في هذا الموضع ... ولـه مصنّفات وتأليفات في الكلام والفلسفة وغيرها، ثم ذكر فهرس كتبه ولم يذكر إلاّ القليل من الكثير [٢].

إنّ بيـت «نـوبخت» مـن أرفـع البيـوتـات الشيعيـة خـرج منـه فـلاسفـة كبـار، ومتكلّمـون عظـام، ومن أراد التفصيل فليرجـع إلى الكتب المؤلفـة في هـذا الصدد.

---

١. النجاشي: الرجال: ١/ ١٧٩ برقم ١٤٦، تـرجمه ابن حجر في لسان الميزان: ٢/ ٢٥٨ برقم ١٠٧٥، وترجمه هبة الدين الشهرستاني في مقدمة فرق الشيعة.

٢. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٥ ـ ٢٦٦: الفن الثاني من المقالة الخامسة.

متكلّمو الشيعة في القرن الخامس:

بلغ علم الكلام في أوائل القرن الخامس إلى ذروة الكمال، و ظهر في الأوساط الشيعية روّاد كبار، نشير إلى ثلة منهم:

١. الشيخ المفيد (٣٣٦ـ٤١٣هـ)

الشيخ المفيد من الشخصيات البارزة في العالم الإسلامي، الذي احتفلت بذكره وذكر آثاره كتب التاريخ والتراجم والذي لا يضن بمثله الدهر إلاّ في فترات يسيرة، فهو في حقل الكلام متكلم بارع له آراء ونظريات جعلته صاحب منهج فيه،وفي حَقْل الفقه سيد الفقهاء وأُستاذهم والذي هذّبه وأشاد بنيانه ورفع قواعده بكتبه ورسائله الفقهيّة التي من أبرزها كتاب المقنعة، وفي مجال الحديث والتاريخ أُستاذ بلا منازع، إلى غير ذلك من صلاحيات ممّا تعرب أنّه من أصحاب المواهب الكبيرة والمؤهّلات العظيمة التي منحها الله له في مجال العلم والكمال.

وقد سارت بذكره الركبان في حياته من قبل معاصريه فعطروا كتبهم بذكره الجميل وسطرت أقلامهم له أنصع الصفحات.

١. هذا هو ابن النديم معاصره يعرفه في الفهرست بقوله: «ابن المعلّم، أبو عبد الله، في عصرنا انتهت رئاسة متكلّمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماضي الخاطرة شاهدته، فرأيته بارعاً ...»[١].

والمعروف أنّ ابن النديم ألّف الفهرست عام ٣٧٧ هـ، وعلى ضوء هذا فالمفيد انتهت إليه رئاسة متكلّمي الشيعة وله من العمر ما لا يجاوز الخمسين.

٢. وقال الحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي (المتوفّى ٤٦٣ هـ):

«أبو عبد الله المعروف بابن المعلّم، شيخ الرافضة، والمتعلّم على مذهبهم،

---

١. ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦، في فصل أخبار متكلمي الشيعة.

صنّف كتباً كثيرة» [١].

٣. وقال عبد الرحمن ابن الجوزي (المتوفّى ٥٩٧ هـ):

«شيخ الإمامية وعالمها، صنّف على مذهبه، ومن أصحابه المرتضى، كان لابن المعلّم مجلس نظر بداره، بدرب رياح، يحضره كافة العلماء، له منزلة عند أُمراء الأطراف، لميلهم إلى مذهبهم» [٢].

٤. وقال أبو السعادات عبد الله بن أسعد اليافعي (المتوفّى ٧٦٨ هـ):

«وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة توفي عالم الشيعة، وإمام الرافضة صاحب التصانيف الكثيرة، شيخهم المعروف بالمفيد، وابن المعلّم أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقه، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية، قال ابن أبي طيّ: وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، خشن اللباس، وقال غيره: كان عضد الدولة ربّما زار الشيخ المفيد، وكان شيخاً ربعة نحيفاً أسمر، عاش ستاً وسبعين سنة وله أكثر من مائتي مصنّف وكانت جنازته مشهودة وشيّعه ثمانون ألفاً من الرافضة والشيعة» [٣].

٥. ووصفه أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (المتوفّى ٧٧٤ هـ) بقوله:

«شيخ الإمامية الروافض، والمصنّف لهم، والمحامي عن حوزتهم، وكان يحضر مجلسه خلق كثير من العلماء وسائر الطوائف» [٤].

٦. وقال الذهبي (المتوفّى ٧٤٨ هـ):

«محمد بن محمد بن النعمان، الشيخ المفيد، عالم الرافضة، أبو عبد الله ابن

---

١. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: ٣/ ٣٣١ برقم ١٧٩٩.

٢. ابن الجوزي: المنتظم: ١٥/ ١٥٧.

٣. اليافعي: مرآة الجنان: ٣/ ٢٨، طبع الهند.

٤. ابن كثير: البداية والنهاية: ١١/ ١٥.

المعلّم، صاحب التصانيف، وهي مائتا مصنّف»[١]. ويعرّفه في كتاب آخر بقوله:

عالم الشيعة، وإمام الرافضة وصاحب التصانيف الكثيرة، قال ابن أبي طيّ في تاريخه (تاريخ الإمامية): هو شيخ مشايخ الطائفة، ولسان الإمامية، ورئيس الكلام والفقه والجدل، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية[٢].

٧. وقال ابن حجر (المتوفّى ٨٥٢ هـ) ـ بعد نقل ما ذكره الذهبي:

«كان كثير التعقيب والتخشّع والاكباب على العلم، تخرّج به جماعة، وبرع في المقالة الإمامية حتى يقال: له على كل إمام منّة، وكان أبوه معلّماً بواسط، وما كان المفيد ينام من الليل إلاّ هجعة، ثم يقوم يصلّي أو يطالع أو يدرس أو يتلو القرآن»[٣].

٨. وقال ابن العماد الحنبلي (المتوفّى ١٠٨٩هـ) في حوادث سنة٤١٣هـ:

«وفيها (توفّي) المفيد، ابن المعلّم، عالم الشيعة، إمام الرافضة، وصاحب التصانيف الكثيرة، قال ابن أبي طيّ في تاريخ الإمامية: هو شيخ مشايخ الطائفة ولسان الإمامية، رئيس في الكلام، والفقه والجدل، وكان يناظر أهل كل عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية»[٤].

هذا ما قاله علماء السنّة، وأمّا الشيعة فنقتصر على كلام تلميذيه: الطوسي والنجاشي، ونترك الباقي لمترجمي حياته:

١. يقول الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) في الفهرست:

«المفيد يكنّى أبا عبد الله، المعروف بابن المعلّم، من أجلّة متكلّمي الإمامية،

---

١. الذهبي: ميزان الاعتدال: ٤/ ٣٠ برقم ٨١٤٣.
٢. الذهبي: العبر: ٢/ ٢٢٥.
٣. ابن حجر: لسان الميزان: ٥/ ٣٦٨ برقم ١١٩٦.
٤. عماد الدين الحنبلي: شذرات الذهب: ٣/ ١٩٩، وفي مكان الطائفة الصوفية وهو لحن. وقد نقل ما ذكره في كتابه مما ذكره الذهبي حرفياً.

انتهت إليه رئاسة الإمامية في وقته في العلم، وكان مقدّماً في صناعة الكلام، وكان فقيهاً متقدماً فيه، حسن الخاطر، دقيق الفطنة، حاضر الجواب، وله قريب من مائتي مصنّف كبار وصغار، وفهرست كتبه معروف ولد سنة ٣٣٨، وتوفي لليلتين خلتا من شهر رمضان سنة ٤١٣، وكان يوم وفاته يوماً لم ير أعظم منه من كثرة الناس للصلاة عليه وكثرة البكاء من المخالف والموالف»[١].

٢. ويقول تلميذه الآخر النجاشي (٣٧٢ ـ ٤٥٠ هـ):

«شيخنا واستاذنا (رضي الله عنه) فضله أشهر من أن يوصف في الفقه والكلام والرواية والوثاقة والعلم» ثم ذكر تصانيفه[٢].

وهذه الكلمات توقفنا على حقيقة الحال، وأنّه لم يكن يومذاك للشيعة متكلّم أكبر منه، وكفى في ذلك أنّه تخرج على يديه لفيف من متكلّمي الشيعة نظير السيد المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ)، والشيخ الطوسي، وهما كوكبان في سماء الكلام، وحاميان عظيمان عن حياض التشيّع، بالبيان والبنان.

٢. علي بن الحسين الشريف المرتضى (٣٥٥ـ٤٣٦هـ)

تلميذ الشيخ المفيد، عرّفه تلميذه النجاشي بقوله: حاز من العلوم ما لم يدانه فيه أحد في زمانه، وسمع من الحديث فأكثر، وكان متكلماً شاعراً، أديباً، عظيم المنزلة في العلم و الدين و الدنيا، و من كتبه الكلامية: «الشافي» في نقض المغني للقاضي عبد الجبار في قسم الإمامة، وكتاب «تنزيه الأنبياء والأئمّة» و«الذخيرة» في علم الكلام، وغيرها من الرسائل[٣] و شرح جمل العلم و العمل.

---

١. الشيخ الطوسي: الفهرست: برقم ٧١٠.

٢. النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٢٧ برقم ١٠٦٨.

٣. النجاشي: الرجال، برقم ٧٠٦.

٣. **أبو الصلاح التقي بن الحلبي** (٣٧٤ـ ٤٤٧هـ)

مؤلف «تقريب المعارف» في الكلام مطبوع.

٤. وأخيرهم لا آخرهم **محمد بن الحسن الطوسي** (٣٨٥ـ ٤٦٠هـ)

يعرّفه زميله النجاشي بقوله: جليل من أصحابنا، ثقة، عين، من تلاميذ شيخنا أبي عبد الله.

ويعرفه العلاّمة بقوله: شيخ الإمامية ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارف بالأخبار والرجال و الفقه و الأُصول، و الكلام والأدب، وجميع الفضائل تنتسب إليه، وله في الكلام كتب كثيرة منها:

الجمل والعقود، تلخيص الشافي في الإمامة، ومقدمة في المدخل إلى علم الكلام[1]، والاقتصاد، والرسائل العشر.

متكلّمو الشيعة في القرن السادس

ما إنْ أطلّ القرن السادس إلاّ و قد أفل نجم المعتزلة حيث وُضِع فيهم السيف من قبل الخلافة العباسية، وكان غيابهم عن المسرح الفكري خسارة جسيمة للمنهج العقلي، وقد بلغ التعصب بمكان انّه أحرقت كتبهم، وقتل اعلامهم، وشُرِّد لفيف منهم، و الحديث ذو شجون.[2]

ومع إطلالة هذا القرن بدأت تلوح علامات الضغط والكبت على الشيعة، وقد وضع صلاح الدين الأيوبي السيف على عنق الشيعة في حلب وغيرها، وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر في هذا القرن أفذاذ في علم الكلام، نذكر منهم على سبيل المثال:

١. النجاشي: الرجال، برقم ١٠٦٩، و الخلاصة:١٤٨.

٢. لاحظ الجزء الثالث من كتابنا بحوث في الملل والنحل.

١. محمد بن أحمد بن علي الفتال النيسابوري (المتوفّى ٥١٣هـ)

المعروف بابن الفارسي، عرّفه ابن داود في رجاله بقوله: متكلم جليل القدر، فقيه، عالم، زاهد، ورع، قتله أبو المحاسن عبد الرزاق رئيس نيشابور الملقب بشهاب الإسلام.[1]

اشتهر في أيام شبابه و ارتفع شأنه فاستفتي، و سئل عن مسائل في الكلام، و صنّف كتاب «التنوير في معاني التفسير» و كتاب «روضة الواعظين وبصيرة المتعظين» في علم الكلام و الأخلاق والآداب، وهو كتاب قيّم، طبع أكثر من مرّة.

استشهد في أيام وزارة أبي المحاسن عبد الرزاق بن عبد الله بن أخي نظام الملك سنة ٥١٣ أو ٥١٥هـ.

٢. قطب الدين المقري النيسابوري

من مشايخ السيد ضياء الدين أبي الرضا فضل الله الراوندي (المتوفّى حدود ٥٤٧هـ) مؤلف كتاب الحدود (المعجم الموضوعي للمصطلحات الكلامية) وقد طبع، وله كتاب كلامي قيم مخطوط عسى أن نقوم بنشره بإذن الله سبحانه.

٣. الفضل بن الحسن الطبرسي

مؤلف مجمع البيان (المتوفّى ٥٤٨هـ) و له في تفسيره بحوث كلامية مهمة.

---

١. رجال أبي داود، ص ٢٩٥ برقم ١٢٧٤.

٤. الحسين بن علي بن محمد بن أحمد (المتوفّى ٥٥٢هـ)

المعروف بـ «أبي الفتوح الرازي» وكتابه المعروف بـ«روض الجنان» مشحون بالبحوث الكلامية.

٥. قطب الدين سعيد بن هبة الله الراوندي (المتوفّى ٥٧٣هـ)

مؤلف كتاب «تهافت الفلاسفة» و جواهر الكلام في شرح مقدمة الكلام.

٦. سديد الدين الشيخ محمود الحمصي (المتوفّى في أواخر القرن السادس)

مؤلف «المنقذ من التقليد» مطبوع.

٧. أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي

صاحب «الاحتجاج» توفي في أواسط القرن السادس.

٨. السيد حمزة بن علي بن زهرة الحلبي (٥١١ـ٥٨٥هـ)

له كتاب «غنية النزوع في علمي الأُصول والفروع» يقع في جزءين، والكتاب يشتمل على علوم ثلاثة : الكلام والفقه و أُصوله، و قد طبع الكتاب أخيراً بتحقيق الشيخ إبراهيم البهادري شكر الله مساعيه، و ترجمنا المؤلف في الجزء الأوّل ترجمة وافية.

٩. محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني (المتوفّى ٥٨٨هـ)

أخذ عن المتكلم أبي سعيد عبد الجليل بن أبي الفتح الرازي .

قال الصفدي: أحد شيوخ الشيعة، حفظ القرآن و له ثمان سنين، وبلغ النهاية في أُصول الشيعة، كان يرحل إليه في البلاد، توفي عام ٥٨٨هـ. [١]

---

١. الوافي بالوفيات: ٤/ ١٦٤ برقم ١٧٠٣.

متكلّمو الشيعة في القرن السابع:

لقد تـزامن طلوع القرن السابـع مع اضطراب الأوضاع السياسيّـة الحاكمة على معظم الأمصار الإسـلامية لا سيما الحروب الصليبية التي تركـت مضاعفات خطيرة في الحواضر الإسلاميـة ، وقد تزامن هـذا الوضع مع هجـوم شرس من قبل الـوثنيين مـن المشرق الـذيـن جرّوا الـويل و الـدمـار على المسلمين في المشرق الإسلامي، وامتدَّ سلطانهم إلى بغداد وأعقبها انقراض الدولة العباسية.

وعلى الرغم من تلك الأوضاع العصيبة، كان للعلوم العقلية نشاط ملموس في الأوساط الشيعيّة، نذكر من متكلميهم ما يلي:

١. سديد الدين بن عزيزة الحلي (المتوفّى حوالي ٦٣٠هـ)

سـالم بن محفـوظ بـن عزيـزة بـن وشـاح، شيخ المتكلمين، سـديـد الـدين السوراوي الحلي، و يقال له: سالم بن عزيزة.

كان من كبار متكلمي الشيعـة، صنف كتاب «التبصرة» وكتاب «المنهاج» في علم الكلام، وأخـذ عنه المحقّق جعفر بن الحسن الحلي(المتـوفّى ٦٧٦هـ) علم الكلام و شيئاً من الفلسفة وقرأ عليه المنهاج.

٢. الشيخ كمال الدين علي بن سليمان البحراني (المتوفى حوالي ٦٥٦هـ)

أُستاذ الشيخ ميثم البحراني، له كتاب الإشارات في الكلام والحكمة.

وصفـه السيد الصـدر بقولـه: كان وحيـد عصره، و فريـد دهره في العلـوم العقليـة و النقليـة، صنّف الإشـارات في الكـلام، وشرحها تلميـذه المحقّـق ميثم البحراني، وله رسـالة العلم التي شرحها المحقّق نصير الـدين الطوسي [1] (المتوفّى عام٦٧٢هـ).

---

١. الذريعة: ٢/ ٩٦ وتأسيس الشيعة، ص ٣٩٥.

٣. نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ـ٦٧٢هـ)

وهو شخصية فذة يعجز القلم عن وصفه، فقد كان علامة عصره في الكلام والحكمة والعلوم الرياضية والفلكية.

له «شرح الإشارات» الذي فرغ منه عام ٦٤٤هـ، و هو شرح لإشارات الشيخ الرئيس ابن سينا، و قد فنّد فيها أكثر ما أورده الرازي من الشكوك التي أُثيرت حول آراء الشيخ.

ويعد كتاب شرح الإشارات من أفضل الكتب الدراسية في الحكمة إلى يومنا هذا، و يكفي في حقّ مترجمنا ما قاله العلاّمة في هذا المضمار.

قال: كان هذا الشيخ أفضل أهل عصره في العلوم العقلية والنقلية، و له مصنفات كثيرة في العلوم الحكمية والأحكام الشرعية علىٰ مذهب الإمامية، و كان أشرف من شاهدناه في الأخلاق ـ نضر الله مضجعه ـ قرأت عليه إلهيات الشفاء لأبي علي بن سينا، وبعض التذكرة في الهيئة .

٤ . كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني

المعروف بالعالم الرباني المبرز في جميع الفنون الإسلامية لا سيما في الحكمة والكلام والأسرار العرفانية، اتفقت كلمة الجميع على إمامته ولد عام ٦٣٦هـ وتوفي عام ٦٩٦هـ، له كتاب «قواعد المرام في علم الكلام» المطبوع وله «شرح نهج البلاغة» الذي صنّفه للصاحب خواجة عطاء الملك الجويني، وهو شرح مشحون بالمباحث الكلامية و الحكمية والعرفانية، فرغ منه عام ٦٧٦هـ.

٥. الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر الأسدي (٦٤٨ـ٧٢٦هـ)

شيخ الإسلام، المجتهد الأكبر، المتكلم الفذ، الباحث الكبير، جمال الدين

أبو منصور المعروف بالعلاّمة الحلي، وبآية الله على الإطلاق، و بابن المطهّر، ولد في شهر رمضان سنــة ٦٤٨ هـ و أخذ عن والــده الفقيه المتكلم البارع سديـد الدين يـوسف، و عن خـالـه شيخ الإمـامية المحقّـق الحلي الذي كـان لـه بمنزلـة الأب الشفيق، فحظا بـاهتمامه ورعايتـه، ولازم الفيلسوف الكبير نصير الديـن الطوسي مدة و اشتغل عليه في العلوم العقلية وبرع فيها وهو لا يزال في مقتبل عمره.

يعرفه معاصره أبو داود الحلي، بقوله: شيخ الطائفة، وعلاّمة وقته، وصاحب التحقيق و التـدقيق، كثير التصـانيف، انتهـت رئاسة الإمـاميـة إليه في المعقـول والمنقول.[١]

وقال الصفدي: الإمام العلاّمة ذو الفنـون، عالم الشيعة وفقيههم، صاحب التصانيف التي اشتهرت في حياتـه... و كان يصنف و هو راكب... و كان ريّض الأخلاق، مشتهر الذكر... وكان إماماً في الكلام والمعقولات.[٢]

وقال ابن حجر في لسان الميزان: عالم الشيعة و إمامهم ومصنفهم، وكان آية في الذكاء...و كان مشتهر الذكر، حسن الأخلاق.[٣]

إنّ شخصيـة كلّ إنسـان زهن الآثـار التـي خلفها على الصعيـد التربـوي والعلمي.

أمّـا الجانب الأوّل فكفـى انّـه ربّىٰ جيـلاً كبيراً مـن روّاد العلم في المنقـول والمعقول، و يشهد على ذلك كثرة المتخرّجين على يديه في كلا الحقلين.

ففي حقل الفقـه و الأُصول تخرّج عليه: ولده فخـر المحقّقين، وزوج أُخته مجد الدين أبـو الفوارس محمد بـن علي بن الأعرج الحسيني، وولـدا أبي الفوارس:

١. رجال أبي داود: ١١٩ برقم ٤٦١.

٢. الوافي بالوفيات: ١٣/ ٨٥ برقم ٧٩.

٣. لسان الميزان: ٢/ ٣١٧.

عميد الدين عبد المطلب وأخوه ضياء الدين، و مهنّا بن سنان بن عبد الوهاب الحسيني المدني، وقد ألّف كتاب باسمه أسماه «المسائل المهنائية»، وتاج الدين محمد بن القاسم بن معية الحسني، وركن الدين محمد بن علي بن محمد الجرجاني، والحسين بن إبراهيم بن يحيى الاسترابادي، والحسين بن علي بن إبراهيم بن زهرة الحسيني الحلبي، وأبو المحاسن يونس بن ناصر الحسيني الغروي المشهدي، وعلي ابن محمد بن رشيد الآوي.

وفي حقل المعقول ربّى جيلاً كثيراً في طليعتهم: محمد بن محمد قطب الدين أبو عبد الله الرازي (٦٩٤ـ ٧٦٦هـ) مصنف كتاب «تحرير القواعد المنطقية في شرح الشمسية» و «لوامع الأسرار في شرح مطالع الأنوار»، «تحقيق معنى التصور والتصديق»و «المحاكمات بين الإمام والنصير»، كلّها مطبوعة.

هذا كلّه في الجانب التربوي، وأمّا الجانب العلمي فالآثار والمصنّفات التي خلفها وبقيت خالدة على جبين الدهر كثيرة يضيق المجال عن ذكر جميعها.

ولا نبالغ لو قلنا بأنّ آثاره تعد موسوعة كبيرة في جل العلوم الإسلامية، فقد ألّف في الفقه عدة دورات كـ«تبصرة المتعلمين»و «إرشاد الأذهان»، و«تحرير الأحكام الشرعية» و«قواعد الأحكام»، و«تذكرة الفقهاء»، و «منتهى المطلب» فالكتب الأربعة الأُولى تعد دورة فقهية كاملة، ولكنّه ﷺ لم يُتم الكتابين الأخيرين.

وأمّا في حقل المعقول والكلام فكفى في حقّه انّه ألف قرابة عشرين كتاباً ورسالة في ذلك المضمار، وبما انّا بصدد التقديم لموسوعته الكلامية المسماة «نهاية المرام» نشير إلى أسماء كتبه التي ألّفها في حقل الكلام والعقائد وإليك بيانها.

الثروة العلمية الكلامية للعلاّمة الحلّي

قد وقفت على مكانة العلاّمة الحلّي في علم الكلام، و انّه أحد الروّاد الأفذاذ في ذلك المضمار فقد خلّف تراثاً كلامياً ضخماً أثرى المكتبة الإسلامية حيث ألّف كتباً كلامية علىٰ مستويات مختلفة، بين موجز اقتصر فيه علىٰ بيان رؤوس المسائل، ومتوسط أردف المسائل الكلامية بنوع من البرهان، ومسهب بسط الكلام في نقل الآراء ونقدها والبرهنة علىٰ مذهبه ومختاره.

وهانحن نستعرض أسماء كتبه الكلامية:

١. الأبحاث المفيدة في تحصيل العقيدة

رسالة موجزة أورد فيها المباحث الكلامية في ثمانية فصول، وقد عبّر عنها بنفس ذلك الاسم في رجاله [١] وفي الوقت نفسه عبّر عنها في أجوبة المسائل المهنائية بـ«الأبحاث المفيدة في تحقيق العقيدة» وشرحها الشيخ ناصر بن إبراهيم البويهي الإحسائي (المتوفّى٨٥٣هـ) والحكيم السبزواري (المتوفّى١٢٨٩هـ) وتوجد النسختان مع الشرح في المكتبة الرضوية [٢] وقمنا بنشر هذه الرسالة بتحقيق العلاّمة الشيخ يعقوب الجعفري علىٰ صفحات مجلة علم الكلام. [٣]

٢. استقصاء النظر في البحث عن القضاء و القدر

رسالة موجزة أورد فيها مباحث القضاء والقدر، وطرح فيها المذاهب

---

١. الخلاصة للعلاّمة الحلّي: ٤٥.

٢. لاحظ فهرس المكتبة الرضوية في مشهد: ٣٢٠.

٣. مجلة علم الكلام، السنة الأُولى، العدد الثالث، مجلّة فصلية تصدرها مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام للبحوث والدراسات العليا وهى في سنتها السابعة.

المختلفة في أفعال العباد، ثمّ أقام البراهين العقليةعلى مذهب العدلية، كما أردف براهينه بما ورد في الكتاب العزيز.

وقد طبعت الرسالة عام ١٣٥٤هـ بتحقيق الشيخ علي الخاقاني في النجف الأشرف، ووقفنا على نسخة خطية في مكتبة مدرسة الطالبية بتبريز، فقوبلت النسختان المطبوعة والمخطوطة، وطبعت بتحقيق شيخنا يعقوب الجعفري على صفحات مجلة الكلام الإسلامي السنة الثانية، العدد الثاني .

٣. الألفين الفارق بين الصدق والمين

وقد ألّفه لولده محمد المعروف بفخر المحقّقين (المتوفّى٧٧٢هـ)، ذكر في مقدمته انّ الكتاب يشتمل على ألف دليل على إمامة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وألف دليل على إبطال شبهات الطاعنين.

وقد طبع غير مرّة وطبع أخيراً ببيروت بطبعة منقحة رشيقة والنسخة الخطية متوفرة، بيد انّ المطبوع منه طبع تحت عنوان الألفين في إمامة أمير المؤمنين، ولكن العلاّمة الحلّي عبّر عنه في فهرس مصنفاته ومقدمة الكتاب بما ذكرنا.

٤ . أنوار الملكوت في شرح الياقوت

أمّا الياقوت فهو تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن نوبخت(المتوفّى٣١٠هـ) كما ذكره العلاّمة في مقدمة الكتاب [١] و الشرح للعلاّمة الحليّ، وقد طبع بتحقيق محمد النجمي الزنجاني عام ١٣٧٨هـ ولا يخلو المطبوع من هن و هنات، لا سيما و انّه حذف الفصل الأخير من الكتاب ممّا يرجع إلى أحكام المخالفين

١. وقيل انّه تأليف إسماعيل بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت كما عليه التبريزي في رياض العلماء:٦/ ٣٨.

والبغاة.

ولما كان الكتاب المطبوع مبتوراً حاول الشيخ يعقوب الجعفري نشر الفصل الأخير منه في مجلة الكلام الإسلامي [1] في ضمن عددين.

وقد أوعز العلاّمة في كتابه هذا، إلىٰ كتاب «مناهج اليقين» وكتاب «معارج الفهم» و«نهاية المرام» و الجميع من تآليفه.

٥. الباب الحادي عشر

وهو رسالة مختصرة في العقائد الإمامية كتبه حينما اختصر «مصباح المتهجد» للشيخ الطوسي التي ألّفها في الأدعية والعبادات، اختصره العلامة في أبواب عشرة وأضاف إليها «الباب الحادي عشر »في العقائد.وأسمى الجميع «منهاج الصلاح في مختصر المصباح»، وهذه الرسالة لم تزل مطمحاً للأنظار فكتب عليها شروح وتعليقات، أشهرها ما كتبه الفاضل المقداد الذي أسماه بـ«النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر» و هي رسالة دراسية في الحوزات الشيعية إلى يومنا هذا.

وقد قام الفاضل المقداد (المتوفّى٨٢٨هـ) بشرحها في سبعة فصول.

٦. تسليك النفس إلى حظيرة القدس

وهذا الكتاب كما حكاه المحقّق الطهراني (المتوفّى١٣٨٩هـ) يحتوى على نكات في علم الكلام، وهي في مراصد، والمرصد الأوّل في الأُمور العامة، وتوجد نسخة منه في الخزانة الغروية بخط تلميذ العلاّمة الشيخ حسن بن علي المزيدي استنسخه عام (٧٠٧هـ) وعلى النسخة خط العلاّمة الحلي، كما شرحها نظام الدين

١. مجلة الكلام الإسلامي، السنة الثانية، العدد الثاني و الثالث.

الأعرجي ابن أُخت العلاّمة (المتوفّى ٧٤٥هـ) أسماه «إيضاح اللبس في شرح تسليك النفس». [١]

٧. الرسالة السعدية

وهي رسالة بين الإيجاز والإطناب، ألّفها العلاّمة الحلّي لسعد الحقّ و الملّة والدين المعروف بـ«المستوفي الساوجي» الذي كان وزيراً لـ«غازان خان» و قد ساهم في عهد «اولجايتو» مع رشيد الدين فضل الله في إدارة أُمور البلد إلىٰ أن قتل عام ٧١١هـ. [٢]

والرسالة تحتوي علىٰ مقدمة وفصول، وقد استوفىٰ فيها حقّ مسائل ثلاث:

أ. استحالة رؤية الله سبحانه.

ب. كلامه سبحانه حادث.

ج. صفاته عين ذاته.

وقد طبعت الرسالة عام ١٣١٥هـ ضمن مجموعة باسم «كلمات المحقّقين»،و«الرسالة السعدية» هي الرسالة العاشرة.

٨. كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد

الكتاب شرح لكتاب قواعد العقائد للمحقّق الطوسي، شرحه نزولاً عند رغبة ولده فخر المحقّقين وقد طبع عام ١٣٠٥هـ، كما طبع أخيراً بتحقيق المحقّق الشيخ حسن مكي العاملي عام ١٤١٣هـ نشرته دار الصفوة في بيروت، والكتاب مع اختصاره مشتمل علىٰ مجموع المسائل الكلامية، نظير الكتاب الآتي.

١. الذريعة: ٤/ ١٨٠.

٢. انظر تاريخ أدبيات إيران: ٣/ ١٥٠، للدكتور ذبيح الله صفاء.

٩. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد

وهذا الكتاب شرح لكتاب تجريد الاعتقـاد للمحقّق نصير الدين محمد بن الحسن الطوسي (٥٩٧ ـ ٦٧٢هـ) وهو مـن أوجـز المتـون الكلاميـة وفق العقائد الإماميـة ويكفي في رفعة منـزلته، قول شـارحه عـلاء الدين القوشجـي الأشعري حيث وصفه، بقوله: «تصنيف مخزون بالعجائب، وتأليف مشحون بالغرائب، فهو وإن كـان صغير الحجم، وجيـز النظم، لكنـه كثير العلـم، عظيم الاسـم، جليل البيـان، رفيع المكان، حسـن النظام، مقبـول الأئمّة العظـام، لم يظفر بمثلـه علماء الأعصـار، ولم يأت بمثلـه الفضلاء في القـرون والأدوار، مشتمل على إشـارات إلىٰ مطالب هي الأُمّهات، مشحون بتنبيهات علىٰ مباحث هي المهمات، مملوء بجواهر كلهـا كـالفصوص، ومحتـو علىٰ كلمات يجري أكثـرهـا مجرى النصـوص، متضمن لبيانات معجزة، في عبارات موجزة » إلى آخر ما ذكره.[١]

وقـد شرحه جمع غفير مـن المحقّقين منذ تـأليفـه إلى يومنـا هـذا، وأوّل من شرحه: تلميـذه المشهور بـالعلاّمـة الحلّي (٦٤٨ـ ٧٢٦هـ) الـذي أسماه «كشف المراد في شرح تجريـد الاعتقاد»، ثمّ تـوالت الشروح بعـده، فشرحـه ثانيـاً: شمس الدين محمد الاسفرائيني البيهقـي وأسماه «تعريد الاعتماد في شرح تجريد الاعتقاد» وثـالثـاً: الشيخ شمـس الـديـن محمـود بـن عبـد الـرحمان بـن أحمد الإصفهـاني (المتوفّى٧٤٦هـ) وأسماه «تسـديد القواعـد في شرح تجريد العقائد» ورابعـاً: علاء الدين علي بن محمد المعروف بالفاضل القوشجي (المتوفّى ٨٧٩هـ) ألّفه للسلطان أبي سعيد كوركان.

ويسمّى الشرح الثالث بالشرح القديم، والرابع بالشرح الجديد، وقد كتب على الشرحين تعاليق وحواشٍ كثيرة، يقف عليها من تتبع المعاجم.

---

١. علاء الدين القوشجي، شرح التجريد: ١.

ثمّ توالت الشروح بعد هذه الشروح الأربعة إلى عصرنا هذا.

إنّ كتاب كشف المراد تبعاً لمتنه يدور علىٰ محاور ثلاثة:

الأوّل: في الأُمور العامة التي تطلق عليها الإلهيات بالمعنى الأعم، ويبحث فيه عن الوجود والعدم وأحكام الماهيات، والمواد الثلاث: الوجود والإمكان والامتناع، والقدم والحدوث، و العلّة والمعلول، وغيرها من المسائل التي تبحث عن أحكام الوجود بما هوهو.

الثاني: في الجواهر والأعراض التي يطلق عليها الطبيعيات، ويبحث فيه عن الأجسام الفلكية و العنصرية والأعراض التسعة، علىٰ وجه التفصيل.

الثالث: في الإلهيات بالمعنى الأخص، ويبحث فيه عن الأُصول الخمسة.

وبما أنّ المحور الأوّل هو المقصد الأهم للحكماء من المشائين والإشراقيين، وقد بحثوا عنه في الأُمور العامة علىٰ وجه التفصيل والاستيعاب، حتىٰ خصّص صدر المتألهين ثلاثة أجزاء من كتابه «الأسفار» بمباحث هذا المحور ـ لأجل ذلك ـ استغنى الطلاب عن دراسة هذا المقصد من كتاب كشف المراد.

وبما أنّ العلوم الجديدة الباحثة عن الطبيعة وأحكامها قد قطعت أشواطاً كبيرة، وأبطلت كثيراً من الفروض العلمية في الفلكيات والأكوان، فأصبح ما يبحث في الكتب الكلامية والفلسفية في هذا القسم تاريخاً للعلم الطبيعي لا نفسه، ولأجل ذلك تركت دراسة المحور الثاني في الكتب الكلامية والفلسفية في أعصارنا.

فلم يبق إلاّ المحور الثالث الموسوم بالإلهيات بالمعنى الأخص الذي يبحث فيه عن ذاته سبحانه وصفاته وأفعاله، ولأجل ذلك عكف المحصلون علىٰ دراسة هذا المحور الذي يتضمن البحث عن إثبات الصانع وصفاته وأفعاله، ويدخل في

البحث عن صفاته: البحث عن عدله، كما يدخل في البحث عن أفعاله: البحث عن النبوة والإمامة والمعاد.

وقد طبع الكتاب غير مرّة أحسنها طبعة مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في قم المقدسة، ولنا تعليقات علىٰ قسم الإلهيات أفرزناها من سائر المباحث، وطبع الكتاب علىٰ حدة، وصار مادة دراسية في مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام للبحوث والدراسات العليا.

١٠. معارج الفهم في شرح النظم

وهي رسالة معدة لبيان أُصول الدين و قد صرح به في كتابه «خلاصة الأقوال» وفي أجوبة المسائل المهنائية ونسخته الخطية متوفرة في المكتبة الرضوية ومكتبة السيد المرعشي وغيرهما.

١١. مقصد الواصلين في أُصول الدين

واسمه حاك عن معناه، ولكن لم نقف علىٰ نسخة منه، و جاء اسمه في «خلاصة الأقوال» و أجوبة المسائل المهنائية وعبّر عنه في إجازات البحار بمعتقد الواصلين.

١٢. منهاج الكرامة في معرفة الإمامة

هذا الكتاب كتاب كلامي يشير إلىٰ جميع المسائل الكلامية لاسيما مسائل الإمامة التي استأثرت باهتمام واسع، ويثبت فيه بأدلة رصينة إمامة الأئمّة الاثني عشر ألّفه للسلطان «محمد خدا بنده اولجايتو» الذي تشيع على يد العلاّمة، وقد آثار الكتاب حفيظة أهل السنة كابن تيمية، فكتب عليه رداً أسماه «منهاج السنة

في ردّ منهاج الكرامة».

وأيمن الله! الاسم لا يوافق مسماه، فلو قام أحد بجمع شتائمه وسبابه لعاد برسالة في ذلك المجال.

وأمّا أكاذيبه و إنكاره المسائل المسلّمة، فحدث عنه ولا حرج، ولذلك ردّ عليه غير واحد من علماء الشيعة، كسراج الدين بن عيسى الحلي ألف كتاباً باسم «إكمال الملة» والسيد مهدي الكاظمي حيث رد علىٰ ابن تيمية بكتاب أسماه «منهاج الشريعة» و لشيخنا المحقّق الأميني بحث مسهب حول الكتاب وأكاذيبه، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى الغدير الجزء الثالث.

١٣. مناهج اليقين

وهو أبسط كتاب في علم الكلام بعد نهاية المرام، وقد أوعز إليه في كتاب كشف المراد، والكتاب إلى الآن لم ير النور عسى الله أن يشحذ همم بعض الباحثين لنشره، وتوجد منه نسخة في المكتبة الرضوية ومكتبة المسجد الأعظم في قم المقدسة.

١٤. نظم البراهين في أُصول الدين

رسالة موجزة في أُصول الدين، وقد شرحها العلاّمة بنفسه وأسماها «معارج الفهم»، وقد جاء اسمها في كتاب خلاصة الأقوال وأجوبة المسائل المهنائية.

١٥. نهج الحقّ وكشف الصدق

رسالة كلامية و في الوقت نفسه تشتمل على رؤوس المسائل الأُصولية

والفقهية ألّفها للسلطان «محمد خدا بنده».

والرسالة تركز على المسائل الكلامية، لا سيما المسائل الخلافية وقد أثار الكتاب حفيظة الآخرين وقد ردّ عليه الفضل بن روزبهان وأسماه «إبطال الباطل وإهمال كشف العاطل».

وقد ردّ على ردّه ثلة من علماء الشيعة منهم:

١. القاضي نور الله التستري (المتوفّى ١٠١٩هـ) في كتاب أسماه «إحقاق الحقّ و إزهاق الباطل» فقد ذكر أوّلاً كلام العلاّمة في نهج الحقّ، ثمّ أردفه بما ذكره ابن روزبهان في ردّه، ثمّ ذكر ما جاد به ذهنه في إحقاق الحقّ و المحاكمة بين الطرفين.

وهذا الكتاب يضم في الحقيقة ثلاثة كتب وطبع مرّات عديدة.

٢. الشيخ محمد حسن المظفر (١٣٠١ـ ١٣٧٥هـ) في كتاب أسماه «دلائل الصدق» وهو يذكر كلام العلاّمة أوّلاً ثمّ يتبعه بنقل كلام ابن روزبهان بعينه، ثمّ يتحاكم بينهما. وقد استفاد في رده هذا من كتاب «إحقاق الحقّ» المتقدم ذكره ، وقد ألمع إليه في مقدمة الكتاب.

وطبع الكتاب في طهران والنجف والقاهرة وبما انّ كتاب «نهج الحقّ وكشف الصدق» من الكتب المفيدة، فقد قام بتحقيقه الشيخ عين الله الحسني الأرموي فطبعه مستقلاً بتقديم الأُستاذ آية الله السيد رضا الصدر ﷺ في بيروت.

١٦ . نهج المسترشدين في أُصول الدين

ألّفه العلاّمة باستدعاء ولده فخر المحقّقين، وحرر فيه القواعد الكلامية وقد شرحه الفاضل المقداد (المتوفّى ٨٢٨هـ) وقد طبع الكتاب أيضاً بتحقيق السيد أحمد الحسيني والشيخ هادي اليوسفي، وعرّفه الفاضل المقداد بقوله:

إنّ الكتاب الموسوم بـ «نهج المسترشدين في أُصول الدين» من تصانيف شيخنا و إمامنا الإمام الأعظم علاّمة العلماء في العالم، وارث الأنبياء وخليفة الأوصياء، بل آية الله في العالمين، جمال الملّة و الحقّ و الدين، أبي منصور الحسن ابن المطهر (طهر الله رمسه وقدس وكرم، وشرف نفسه وبجل وعظم) قد احتوى من المباحث الكلامية علىٰ أشرفها و أبهاها، وجمع من الفوائد الحكمية أحسنها وأسناها، حتى شغف بالاشتغال به معظم الطلاب وعول على تقرير مباحثه جماعة الأصحاب.

وكنت ممن جدّ في تحرير مباحثه بالتحصيل، وإن لم أحصل منه إلاّ على القليل، حتىٰ جمعت من مباحث المشايخ وفوائدهم ممّا يتعلق به نبذة، بحيث صار منها بين الطلبة ممّا يعد على نعمة. [1]

١٧. واجب الاعتقاد على جميع العباد

وقد بيّن العلاّمة فيه ما يجب معرفته على العباد من العقائد الدينية، والمسائل الفرعية ما عدا المعاد فلم يذكره و انتهىٰ في الفروع إلىٰ آخر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول في أوّله: بيّنت في هذه المقالة واجب الاعتقاد على جميع العباد ولخّصت فيه مايجب معرفته من المسائل الأُصولية علىٰ جميع الأعيان وألحقت به بيان الواجب في أُصول العبادات.

والرسالة لم تر النور ولكن توجد منها نسخة خطية في المكتبة الرضوية وفي مكتبة جامعة طهران.

وشرحه الفاضل المقداد وأسماه «الاعتماد في شرح واجب الاعتقاد» طبع

١. إرشاد الطالبين إلى نهج المسترشدين، ص ٤.

ضمن كلمات المحقّقين.

وعلىٰ ذلك فقد طبع الكتاب في ضمن شرح الفاضل المقداد.

وما ذكرناه من الكتب هي التي ثبتت نسبتها إلى العلاّمة الحلّي، و قد عزي إليه كتب أُخرى لم تثبت نسبتها ولذا ضربنا عنها صفحاً، ونأتي بذكر كتاب آخر له ينبغي أن يحتفل به تاريخ علم الكلام ومتكلّميه وهو بيت القصيد لكتب العلاّمة الكلامية المتوفرة.

١٨. نهاية المرام في علم الكلام

وهذا الكتاب هو الذي يزفّه الطبع إلى القرّاء الكرام بعد تحقيقه وتقويم نصه وتبيين إشاراته ضمن جهد متواصل.

وهو أبسط وأعمق كتاب ظهر للكلام الشيعي في القرن الثامن إلىٰ يومنا هذا، وهو ﷺ يعرّف الكتاب في مقدمته بقوله:

وقد أجمع رأينا في هذا الكتاب الموسوم بـ«نهاية المرام في علم الكلام» علىٰ جمع تلك الفوائد التي استنبطناها، والنكت التي استخرجناها، مع زيادات نستخرجها في هذا الكتاب لطيفة، ومعان حسنة شريفة لم يسبقنا إليها المتقدمون ولا سطّرها المصنفون.

ثمّ نذكر على الاستقصاء ما بلغنا من كلام القدماء، ونحكم بالانصاف بين المتكلمين والحكماء، وجمعت فيه بين القوانين الكلامية والقواعد الحكمية المشتملة عليهما المباحث والنهاية. فكان في هذا الفن قد بلغ الغاية، لأجل أعزّ الناس عليَّ وأحبّهم إليّ وهو الولد العزيز محمد، رزقه الله تعالى الوصول إلى أقصى نهايات الكمال، و الارتقاء إلىٰ أعلىٰ ذُرى الجلال، وأيّده بالعنايات الأزلية، وأمدّه بالسعادات الأبدية، وأحياه الله تعالىٰ في عيش رغيد وعمر مديد بمحمد وآله

الطاهرين.

وقد رتبت هذا الكتاب علىٰ مقدمة وقواعد مستعيناً بالله لا غير، فانّه الموفق لكلّ خير ودافع كلّ شر.[١]

ويظهر من إرجاعات المؤلف إلىٰ هذا الكتاب في غير واحد من تآليفه انّه أكمل الكتاب حيث نرى إرجاعات كثيرة في كشف المراد إلىٰ ذلك الكتاب نذكر منها ما يلي:

١. قال في مبحث الألم ووجه حسنه: «ويمكن الجواب هنا لأبي علي بما ذكرناه في كتاب نهاية المرام».[٢]

٢. قال عند البحث في الأصلح: «ذكرناها في كتاب نهاية المرام على الاستقصاء».[٣]

٣. وقال في مبحث النبوة الخاصة: «وقد أوردنا معجزات أُخرى منقولة في كتاب نهاية المرام».[٤]

٤. كما يقول في مبحث تفضيل النبي ﷺ على الملائكة: «وهاهنا وجوه أُخرى من الطرفين ذكرناها في كتاب نهاية المرام».

كما انّه أحال إلى ذلك الكتاب في كشف الفوائد، وقال عند البحث في كونه تعالى عالماً: «ولنا على هذا البرهان إيرادات ذكرناها في كتاب النهاية.[٥] كما ألمح إليه أيضاً عند البحث في صفات الإمام علي عليه السلام، قال: والأدلة كثيرة ذكرناها في

١. نهاية المرام في علم الكلام: ١/ ٥ـ٦.

٢. كشف المراد، المسألة الثالثة عشرة في الألم و وجه حسنه، ص ٣٣٠.

٣. كشف المراد، المسألة الثامنة عشرة في الأصلح، ص ٣٤٤.

٤. كشف المراد، المسألة السابعة في نبوة نبينا، ص ٣٥٧.

٥. كشف الفوائد، ص ١٦٨، طبعة بيروت، تحقيق حسن مكي العاملي.

كتاب النهاية. [١]

كما انّه يشير إليه في كتابه نهج المسترشدين في غير مورد :

١. قال في مبحث الإدراك: «والحقّ ما اخترناه نحن في " نهاية المرام " ». [٢]

٢. وقال في البحث الثاني، في أنّه قادر خلافاً للفلاسفة: «وقد أوضحنا هذا الكلام في كتاب النهاية». [٣]

٣. وقال في البحث الرابع، في انّه تعالى حيّ: «وقد بيّنا ضعف هذا القول في كتاب نهاية المرام». [٤]

٤. وقال في البحث الخامس، في أنّه تعالى مريد: «وقد بيّنا توجيه الكلامين والاعتراض عليها في كتاب النهاية. [٥]

٥. قال في البحث الثاني، في نفي المعاني والأحوال: «وقد أشبعنا القول في هذه المسألة في كتاب نهاية المرام في علم الكلام وكتاب المناهج». [٦]

٦. قال في الفصل الحادي عشر في الإمامة: «...وهو كثير لا يعد ولا يحصىٰ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في كتاب نهاية المرام». [٧]

٧. وقال في الفصل الثالث عشر في المعاد (البحث الأوّل في حقيقة الإنسان): «...وقد بيّنا أكثر حججهم في كتاب المناهج، واستقصينا ما بلغ من أقاويل العلماء في ذلك في كتاب النهاية». [٨]

---

١. كشف الفوائد، ص ٣٠٨.
٢. نهج المسترشدين في أصول الدين، ص ٣٠.
٣. المصدر السابق، ص ٣٨.
٤. المصدر السابق، ص ٤٠.
٥. المصدر السابق، ص ٤١.
٦. المصدر السابق، ص ٤٣.
٧. المصدر السابق، ص ٧٠.
٨. المصدر السابق، ص ٧٤.

٨. وقد ذكر في آخر الكتاب الذي انتهىٰ فيه إلى البحث في الإيمان والكفر، ما هذا لفظه: «ومن أراد التطويل فعليه بكتابنا الكبير المسمى بـ «نهاية المرام في علم الكلام» ومن أراد التوسط فعليه بكتابنا «منتهى الوصول » و «المناهج» وغيرهما من كتبنا. [١]

كلّ ذلك يعرب عن انّ المصنف أتمّ الكتاب إلى نهايته.

ولكن الموجود فيما بأيدينا أقلّ من ذلك، فقد انتهى الجزء الثالث وهو بعد في الطبيعيات وآخر مسألة جاءت فيه قوله «المسألة السابعة في الآن أي الزمان وختمها بقوله: «قال الشيخ :»، فأين الباقي؟ فالله سبحانه وحده أعلم، ويظهر من هذه العبارة انّه ﷺ كتب مقالة الشيخ ومابعدها ولكنّها ما وصلت إلى النُسّاخ.

والذي يدل علىٰ أنّه أكمل الكتاب ولو إكمالاً نسبياً أزيد ممّا بأيدينا الأمران التاليان:

أ. انّه فرغ من الجزء الأوّل كتابة وتصنيفاً في الرابع عشر من شهر ربيع الأوّل من سنة اثنتي عشرة وسبعمائة بالسلطانية. [٢]

كما فرغ من الجزء الثاني في سلخ شهر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وسبعمائة بالسلطانية. [٣]

وهذا يعرب انّه ألف الجزء الثاني في مدة شهر و نصف، وليس هو ببعيد عن العلاّمة الحلّي لإحاطته بالمسائل الكلامية واجتماع ثلة من الأفاضل حوله في السلطانية ربما يستعين ببعضهم في نقل المطالب.

وقد عاش بعد الفراغ من الجزء الثاني ١٤ سنة ومن البعيد أن يترك هذا

---

١. المصدر السابق، ص ٨٥.

٢. لاحظ الجزء الأوّل من كتاب نهاية المرام في علم الكلام، ص ٢٢٩.

٣. لاحظ الجزء الثاني من كتاب نهاية المرام، ص ٦٠٧.

الكتاب في بوتقة الإهمال.

ب. انّ الجزء الثالث الذي بأيدينا مبتور غير مؤرخ، ولكنّه ﷺ صرح في إجازته للسيد مهنا بن سنان المدني: خرج منه أربع مجلدات. [١]

وقد كتب الاجازة عام ٧٢١، ومن البعيد أن لا يهتم باكمال الموسوعة، وأبعد منه أن يسمّي الأجزاء الثلاثة الموجودة أربعة أجزاء.

إلى هنا تبين انّ ما خرج من قلمه أزيد ممّا بأيدينا قطعاً، ولا يبعد انّه أتم الكتاب وفرغ من تأليفه.

ولعلّه سبحانه يوفق روّاد العلم للعثور على الأجزاء الباقية.

مشكلة الارجاعات

ثمّ إنّ هنا مشكلة أُخرى وهي انّ العلاّمة الحلّي فرغ من الجزء الأوّل من نهاية المرام في سلطانية زنجان عام ٧١٢ هـ ولكنّه أحال إلى ذلك الكتاب في كشف المراد الذي فرغ من تأليفه في الخامس عشر من ربيع الأوّل عام ٦٩٦هـ. [٢]

فكيف أحال في كتاب ألّفه قبل نهاية المرام بـ ١٦ عاماً، كما انّه أحال في «كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد» إلى هذا الكتاب في مواضع وقد فرغ منه نهار الأربعاء في ثالث ذي الحجة عام ٧٠٣هـ ، فكيف أحال إلى ذلك الكتاب في كتاب ألفه قبل ذلك بتسع سنين؟!

هناك فروض لحلّ هذه المشكلة أوضحها، انّه أدخل هذه الإرجاعات في هذه الكتب، بعد الفراغ عن تأليفها، وليس ببعيد عن دأب المؤلفين الذين كانت

---

١. أجوبة المسائل المهنائيّة: ١٥٦ .

٢. الذريعة: ١٨/ ٦٠ برقم ٦٦٨.

كتبهم تستنسخ عـاماً بعد عام، في الأزمنـة السابقة، أو تطبع، طبعة بعـد طبعة، على ما عليه الحال فيقوم المؤلف بإكمال الكتاب، بإضـافة أُمور لم يخطر بباله حين التأليف.

وعلى ذلك يحمـل ذكـر «النهايـة في خـلاصـة الـرجـال» الذي ألّفـه سنـة ٦٩٣هـ.[١]

مواصفات هذا الكتاب

يتميز هذا الكتاب عن سائر الكتب بميزات مهمة:

١. تفصيل المباحث والاستقصاء لآراء المذاهب والفِرَق المختلفة مروراً بآراء الثنويـة، و المجوس، والصابئة، واليهـود،والنصارىٰ، وانتهاءً بـآراء كبار متكلّمي الإسـلام من الأشاعـرة، والمعتـزلة، والشيعـة (العدليـة)، وكبار فـلاسفة الإسـلام كالفارابي، وابن سينا وغيرهم.

فيقوم باستعـراض الآراء بأفضل صورة ممكنة، ثمّ يبدأ بطـرح رأيه و نقض تلك الآراء و تفنيـدهـا بمجموعـة كبيرة من الأدلـة، تربـو في بعض الأحيـان علىٰ عشرين دليلاً.

ولا نبالغ إن قلنا: إنّ هـذا الكتاب يعد أوسع كتاب كـلامي للشيعة في هذا المضمار، فلا يضاهيه في السعة والشمول أيّ كتاب كلامي آخر.

٢. بذلَ العلاّمة في كتبه لا سيما في هذا الكتاب جهده لنقل آراء الآخرين، حيث يعرض الآراء بأمانـة وصدق دون أي تصرف، بل يحاول أحياناً كثيرة أن يجد وسيلة لتبرير رأي باطل يخرجه من مدحرة البطلان.

٣. يتّسم الكتاب بطابع المقارنة، وهـونوع من النشاط العلمي الذي خبرته

---

١. خلاصة الرجال:٤٧ برقم ٥٢.

ضروب المعرفة الإنسانية في حقول التربية، والنفس، والاجتماع، والاقتصاد.

وهذه المقارنة تُسهم مساهمة فعّالة في بلورة المفهوم الذي يستهدفه الباحث وتعميقه، يقول العلاّمة في معرض الإشارة إلى تلك الحقيقة: «ثمّ نذكر على الاستقصاءما بلغنا من كلام القدماء ، ونحكم بالانصاف بين المتكلمين والحكماء وجمعت فيه بين القوانين الكلامية والقواعد الحكمية».

٤. انّ منهجه المقارن يتسم بسمة أُخرى، وهي انّه يفترض إشكالاً ونقضاً من قبل مخالفيه، حيث يتكّهن المؤلف أن يردّ مخالفوه علىٰ ردوده بذلك، ومن الواضح انّ هذه الخطوة لها أثر ملموس في تطور الكلام الإسلامي الإمامي من حيث السعة والإحاطة والشمول والمقارنة وتطور مناهج البحث العلمي. كما انّها تعد من الخطوات المهمة بالنسبة إلى متطلبات المنهج المقارن، نظراً لإمكانية إيراد إشكالات أُخرىٰ علىٰ ردوده .

ويعبّر عن هذه الخطوة بعبارة «لا يقال» وعبارة «لو قيل» وما شاكل ذلك ويجيب علىٰ هذه الردود و الإشكالات الافتراضية تارة، ويقرّبها أُخرى على أنّها أُمور افتراضية فحسب، وهذا في الحقيقة أُسلوب آخر في الردّ على الفرضية، نلاحظ هذا من خلال استخدامه عبارة «سلمنا»حيث تناسب هذه العبارة طبيعة «الفرضية» التي لم يقتنع بها.

وأهمية هذا الأُسلوب (فرضية الإشكال والنقض) تتمثل في شمولية الممارسة لكلّ الاحتمالات التي يمكن أن يتقدم بها المخالف، حتى تصبح «المقارنة» مستكملة لجميع شروطها.

ولقد امتاز الكتاب بهذا الأُسلوب الرائع وهذا ما يمكن ملاحظته من بداية الكتاب إلى نهايته.

٥. نقل العلاّمة في هذا الكتاب أسئلة فلسفية وكلامية، سألها العلاّمة

أُستاذه المحقّق الطوسي وأجاب عليها الأُستاذ شفهياً، وقد جرى طرح كثير من تلك الأسئلة في الطريق، وفي سفر العلاّمة من الحلة إلى بغداد وهو في ركاب الأُستاذ.[١]

٦. يحتوى الكتاب على نظريات الإمامية و آرائهم النهائية حول المسائل الكلامية والحكمية تفصيلاً والتي قلما توجد في كتبه الأُخرى، إمّا لأنّها شروح لم يتعرض فيها لرأيه الخاص إلاّ ما قلّ وندر، و إمّا لأنّها مختصرة ولا مجال فيها لطرح آرائه التي لها شجون و تفصيل.

٧. يتسم الكتاب بالموضوعية والابتعاد عن العصبية ورعاية الأُصول الدقيقة للبحث العلمي والانفراج على سائر الآراء والفرق .

فتارة يوافق رأي المتكلّمين وأُخرى يخالفهم ويختار رأي الفلاسفة ولا يلتزم بمنهج واحد كما يستعرض ردود المحقق الطوسي على الرازي وربما يدافع عن الثاني.

فالحقّ هو بغيته سواء أكان في جانب أُستاذه أو في جانب خصومه.

٨. الكتاب مشحون بالاستنتاجات العقلية والاستدلال بالقضايا البرهانية، كما انّه ربما يستدل بالقضايا المشهورة (الجدل) إلى غير ذلك من أنواع الاستدلال كالاستدلال بالتمثيل والاستقراء و التجربة.

وقد استفاد من الأخير في قسم الطبيعيات بشكل واضح.

---

١. راجع أعيان الشيعة: ٥/ ٣٩٦.

الفصل الخامس:

المنازلة المستمرّة بين الشيعة والمعتزلة

لا شكّ أنّ الشيعة والمعتزلة يلتقون في كثير من الأُصول، كما يفترقون في كثير منها أيضاً؛ نظير الأشاعرة وأهل الحديث من الحنابلة، فهم يلتقون في كثير من الأُصول كما يفترقون في قسم منها.

ووجه ذلك أنّ الطائفتين الأُولتين يقولون: بأمرين تتفرّع عليهما مسائل كثيرة:

الف. التحسين والتقبيح العقليان.

ب. حجّية العقل في مجال العقائد.

ويترتّب على الأصل الأوّل ثمرات نشير إليها:

١. وجوب معرفة الله عقلاً قبل وجوبها شرعاً.

٢. وجوب تنزيه فعله سبحانه عن العبث.

٣. لزوم تكليف العباد وإيصالهم إلى الغاية التي خُلقوا لها.

٤. لزوم بعث الأنبياء لهداية الإنسان.

٥. لزوم النظر في برهان مدّعي النبوة.

٦. الإعجاز دليل قطعي على صدق صاحبه لقبح إعطاء البيّنة للكاذب.

٧. لزوم استمرار أُصول أحكام الإسلام إلى يوم القيامة.

٨. ثبات الأُصول الأخلاقية وعدم تغيّرها.

٩. كون البلايا والمصائب غير خالية من الحكمة والغاية.

١٠. سيادة عدله سبحانه في التشريع والتكوين، فلا يجوز التكليف بغير المقدور. إلى غير ذلك من الأُصول المستنتجة من القول بالتحسين والتقبيح العقليين.

كما أنّه تترتب على القول بحجّية العقل في مجال العقائد المسائل التالية:

١. صفاته سبحانه عين ذاته، لاستلزام الزيادة التركيب الملازم للإمكان.

٢. أنّ القرآن حادث غير قديم، لامتناع تعدّد القديم المستلزم لتعدّد الواجب.

٣. امتناع رؤيته سبحانه بالبصر في الدنيا والآخرة، لأنّ الرؤية إمّا تقع على كلّه أو على جزئه، فعلى الأوّل يلزم أن يكون محاطاً، وعلى الثاني يلزم أن يكون مركّباً.

٤. امتناع الواسطة بين الوجود و العدم، فالحال الذي تعتقد به المعتزلة غير معقول.

إلى غير ذلك من الأُصول التي يستثمرها العقل من المقدمات الواضحة.

كما أنّ رفض الحنابلة و الأشاعرة، استطاعة العقل على التحسين والتقبيح، أو عدم حجّيته في مجال العقائد بحجّة أنّها موضوعات غيبية لا سبيل للعقل إليها، جعلهما في صفّ مخالف للمعتزلة والشيعة فيما مضى من المسائل.

فعلى ضوء ذلك فلا يصحّ لنا أن نعتبر طائفة فرعاً لطائفة أُخرى أومشتقّة منها، إلاّ إذا دلّ الدليل على ذلك. نعم إنّ بعض المتكلّمين وبعض أصحاب

المقالات يبخسون الشيعة ويصوّرونهم فرعاً للمعتزلة، بحجّة التقائهم معهم في الأُصول المتقدّمة، حتى أنّ أحمد أمين يقول: وقد قرأت كتاب الياقوت لأبي إسحاق إبراهيم من قدماء متكلّمي الشيعة الإمامية ، فكنت كأنّي أقرأ كتاباً من كتب أُصول المعتزلة، إلاّ في مسائل معدودة كالفصل الأخير من الإمامة، وإمامة عليّ وإمامة الأحد عشر بعده، ولكن أيّهما أخذ من الآخر؟

أمّا بعض الشيعة فيزعم أنّ المعتزلة أخذوا عنهم، وأنّ واصل بن عطاء تتلمذ لجعفر الصادق، وأنا أُرجّح أنّ الشيعة هم الذين أخذوا من المعتزلة تعاليمهم، ونشوء مذهب الاعتزال يدلّ على ذلك، وزيد بن عليّ زعيم الفرقة الشيعية الزيدية تتلمذ لواصل، وكان جعفر الصادق يتّصل بعمّه زيد، ويقول أبو الفرج في مقاتل الطالبيين: كان جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالركاب ويسوّي ثيابه على السرج، فإذا صحّ ما ذكره الشهرستاني وغيره من تتلمذ زيد لواصل فلا يعقل كثيراً أن يتتلمذ واصل لجعفر، وكثير من المعتزلة يتشيّع، فالظاهر أنّه عن طريق هؤلاء تسرّبت أُصول المعتزلة إلى الشيعة.[1]

يلاحظ عليه: بأنّ في هذا الكلام ما لا يدعمه العقل ولا النقل:

١ . نفترض صحّة ما ذكره أبو الفرج من أنّ الإمام الصادق كان يمسك لزيد ابن علي بالركاب، لكنّه لا يصحّ أن يكون دليلاً على أنّ الإمام تتلمذ لعمّه زيد، وبما أنّ زيداً ولد عام (٧٩هـ) و على الأصح عام (٦٧هـ)وولد الإمام الصادق عليه السلام (٨٣) وكان عمّاً له أكبر منه بأربع سنين أو أكثر كان الإمام يكرمه عملاً بما نقل: «وقرّوا كباركم».

٢ . إنّ ما ذكره أنّ زيد بن علي تتلمذ لواصل من غرائب الأُمور، فإنّ واصل ولد بالمدينة عام (٨٠) وقد عرفت أنّ زيد بن علي ولد بسنة أو سنين قبله، وقد

١ . أحمد أمين: ضحى الإسلام: ٢٦٧ـ٢٦٨.

تتلمذ واصل لأبي هاشم: عبد الله بن محمد بن علي بن الحنفية وغادر المدينة متوجهاً إلى البصرة أوائل القرن الثاني، فكيف يصحّ أن يتتلمذ زيد لواصل وهو أكبر منه سناً وقد تربّى في نفس البيت الذي تتلمذ واصل فيه لأبي هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية، ولو صحّ لنا الرجم بالغيب يجب أن نقول إنّ كليهما تتلمذا لأبي هاشم، لا أنّ زيداً تتلمذ لواصل، و من هو واصل؟! و هو في العقد الثاني من عمره، وما علمه بالعقائد و المعارف وهو في ذلك السنّ المبكّر؟! حتى يتتلمذ عليه زيد بن علي ولأجله لم يذكره مشاهير الزيدية.

إنّ زيد بن علي ولد في بيت رفيع، وأبوه زين العابدين إمام الأُمّة وعالمها الذي عكف على أخذ العلم منه الموافق و المخالف، فهل يصحّ له ترك أبيه والعكوف على شابّ لم يرتقِ في سُلّم العلم شيئاً؟!

٣. إنّ اشتراك المعتزلة والشيعة في مسائل كثيرة، لا يدل على أنّ إحدى الطائفتين عيال على الأُخرى، بل هناك احتمال ثالث وهو أنّ كلتا الطائفتين أخذتا عن مصدر واحد، وصدرتا عن منبع فارد، وقد تقدم أنّ المعتزلة أخذت أُصول مذهبهم في التوحيد و العدل عن الإمام أمير المؤمنين ، والشيعة عن بكرة أبيهم أخذوا أُصولهم وفروعهم عن أئمّة أهل البيت وفي طليعتهم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

وإنّما ذهب أحمد أمين إلى ما ذهب بدافع من هواه المعروف عنه، فإنّه يريد أن يسلب كلّ فضل وفضيلة عن أئمّة أهل البيت وشيعتهم، لكن بصورة دراسة علمية حتى لا يُتّهم بالتعصب. وآية تعصّبه أنّه في نفس الوقت ينكر انتساب علم النحو إلى علي بن أبي طالب مع أنّ انتسابه إليه كالنار على المنار.[1]

١. لاحظ ابن النديم: الفهرست وغيره.

وقد تأثر المصريون الجدد بأفكار أحمد أمين، فنرى أنّ الأُستاذ عبد الرحمان الشرقاوي يقول: «إنّ الشيعة التقطوا كثيراً من أفكار المعتزلة».[1]

الجدل المستمر بين الشيعة والمعتزلة

إنّ من تتبّع تاريخ علم الكلام وتاريخ كلام الشيعة يقف على أنّ المناظرة بين الطائفتين كانت مستمرة ومحتدمة من عصر الإمام الصادق عليه السلام إلى عصر المفيد وتلامذته، كالسيد المرتضى (٣٥٥ـ٤٣٦هـ) و الشيخ الكراجكي (٤٤٩هـ) مؤلّف كنز الفوائد، والشيخ الطوسي(٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) إلى غير ذلك من أكابر الشيعة فكيف يمكن عدّ إحدى الطائفتين تبعاً للأُخرى؟

إنّ الشيعة والمعتزلة كانا يتصاولان تصاول الفحلين في غير موضع من المجالس وقد حفظ التاريخ قسماً من تلك المناظرات بنصّها، نذكر منها ما يلي:

مناظرات الشيعة مع المعتزلة:

١. إنّ علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم من وجوه متكلّمي الشيعة، وكان معاصراً لأبي الهذيل (١٣٥ــ ٢٣٥هـ)، والنظام (١٦٠ــ ٢٣١هـ) وعدّه الشيخ في رجاله من أصحاب الرضا وقد مضت ترجمته، فقد ناظر أبا الهذيل العلاّف مرّات عديدة، وضراراً غير مرّة.[2]

٢. إنّ هشام بن الحكم من شيوخ الشيعة في الكلام ناظر ضراراً وغيره.[3]

---

١. مجلة الغد: العدد الثاني سنة ١٩٥٣م.

٢. المرتضى، العيون والمحاسن: ٥ـ٩.

٣. المصدر نفسه: ٩.

٣. إنّ الشيخ المفيد وهو من أعاظم متكلّمي الشيعة ناظر مشايخ المعتزلة، فقد ذكر تلميذه الشريف المرتضى مناظراته مع الشيخ عزالة[١] وأبي عمر الشطوي[٢] و أبي الحسن الخيّاط[٣] في تفسير الشفاعة، كما أنّه نقد مقالة أبي القاسم الكعبي في مسألة الاجتهاد، ونقل الشريف قسماً من مناظراته مع بعض المعتزلة ولم يسمّ أسماء المناظرين.[٤]

وهذا تلميذه محمد الكراجكي، فقد أورد في كتابه كنز الفوائد مناظرته مع بعض المعتزلة في مسألة البداء[٥] و اتّهامهم للشيعة بالقول بالإرجاء[٦]، وأدرج رسالته الخاصة في أغلاط المعتزلة في نفس الكتاب وهي رسالة ممتعة[٧]، وقال في تلك الرسالة: واعلم أنّ المعتزلة لها من الأغلاط القبيحة والزلّات الفضيحة ما يكثر تعداده. وقد صنّف ابن الراوندي كتاباً في فضائحهم، فأورد فيه جملاً من اعتقاداتهم وآراء شيوخهم مما ينافر العقول ويضادّ شريعة الرسول ﷺ وقد وردت الأخبار بذمّهم من أهل البيت، ولعنهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام بقوله: «لعن الله المعتزلة أرادت أن توحّد فألحدت، ورامت أن ترفع التشبيه فأثبتت» فمن أقبح ما تعتقده المعتزلة، وتضاهي فيه قول الملاحدة، قولهم: إنّ الأشياء كلّها كانت قبل حدوثها أشياء ثمّ لم يقنعهم ذلك حتى قالوا: إنّ الجواهر في حال عدمها جواهر، وأنّ الأعراض قبل أن توجد كانت أعراضاً، حتى أنّ السواد عندهم قد كان في عدمه سواداً. وكذلك الحركة قد كانت قبل وجودها حركة، وسائر الأعراض يقولون فيها هذا المقال... الخ.[٨]

١و٢و٣. المصدرنفسه: ٧و ٨ و ٤٥.

٤. لاحظ الصفحات ٤٩، ٧٠, ٧٨، ٨٨، ٩٤، ١٠٣، من المصدر نفسه ط. النجف.

٥و٦و٧. الكراجكي: كنز الفوائد: ٢٢٧، ١٢٤، ١٣٢.

٨. الكراجكي، كنز الفوائد: ١/ ١٢٥ـ١٢٧.

الردود والنقوض المتبادلة

إذا كان الشيعي في كلامـه تبعاً للمعتزلة فيما سوى الإمـامة ، فما معنى هذه الردود و النقوض التـي لم تزل تتبادل بين الطائفتين في الإمامـة وغيرها وربما وضع عـالم واحد، سبعـة كتب في ردّ مقـالات المعتـزلـة، وإليك نماذج منهـا. ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الفهارس.

١ . محمد بن علي بن النعمان مـؤمن الطاق من متكلّمي القـرن الثاني، يقول ابن النـديم: «وكان متكلّماً حاذقـاً، وله من الكتـب : كتاب الردّ على المعتـزلة، في إمامـة المفضول، كتـاب في أمر طلحـة والزبير وعـائشة»[1] ولعلّ الثـاني أيضـاً ردّ عليهم.

٢ . هشام بن الحكم ألّف كتباً منها الردّ على المعتزلة.[2]

٣ . الضحّـاك أبو مـالك من متكلّمـي القرن الثـاني ناظـر أبا علي الجبـائي ونقض كتاب الإمامة له.[3]

٤ . الفضل بن شاذان(المتوفّى٢٦٠هـ) له كتاب النقض على الاسكافي في تقوية الجسم، له كتاب الردّ على الأصم، كتاب في الوعد والوعيد.[4]

٥ . محمد بن عبـد الله بن مملك الاصفهاني مـن متكلّمي القرن الثالـث، له كتاب مجالسه مع أبي علي الجبائي، والنقض على ابن عبّاد في الإمامة.[5]

٦ . ثبيت بن محمد، أبو محمد العسكري (نقض العثمانية لأبي عيسى الوراق

---

١ . ابن النديم: الفهرست: ٢٦، وأيضاً ص ٢٥٨.

٢ . النجاشي: الرجال: ٢/ ٣٩٧ برقم ١١٦٥.

٣ . ابن النديم: الفهرست: ٢٦٦.

٤ . النجاشي: الرجال: ٢/ ١٦٨ برقم ٨٣٨.

٥ . النجاشي: الرجال:٢/ ٢٩٧ برقم ١٠٣٤.

محمد بن هارون) «المتوفّى ٢٤٧هـ» الذي كان معتزلياً في برهة من عمره.[١]

٧. عبد الرحمان بن أحمد بن جبرويه كلّم عباد بن سليمان و غيره.[٢]

٨. إسماعيل بن علي بن إسحاق بن أبي سهل بن نوبخت من متكلّمي الشيعة في القرن الرابع له كتاب: مجالسه مع أبي علي الجبائي بالأهواز.[٣]

٩. محمد بن عبد الرحمان بن قبة، له كتاب «المستثبت نقض كتاب أبي القاسم البلخي»، والردّ على أبي علي الجبائي.[٤]

١٠. الحسن بن موسى أبو محمد النوبختي ألّف ردوداً سبعة على المعتزلة، منها: ١. كتاب الردّ على أبي علي الجبائي؛ ٢. كتاب الردّ على أبي الهذيل العلاّف القائل بأنّ نعيم الجنة منقطع؛ ٣. كتاب النقض على أبي الهذيل العلاّف في المعرفة؛ ٤. مجالسه مع أبي جعفر البلخي؛ ٥. كتاب الردّ على أصحاب المنزلة بين المنزلتين، في الوعيد؛ ٦. مسائله للجبائي في مسائل شتّى؛ ٧. النقض على كتاب جعفر بن حرب (١٧٧ ــ ٢٣٦هـ) من شيوخ المعتزلة و من تلاميذ أبي الهذيل العلاّف.[٥]

١١. أبو الجيش المظفر البلخي المتكلّم (المتوفّى ٣٦٧هـ) ردّ على الجاحظ في كتابه العثمانية وأسماه نقض العثمانية.[٦]

١٢. وضع الشيخ المفيد كتباً رديّة، نقض بها كتب المعتزلة، نذكر منها ما

---

١. النجاشي: الرجال: ١/ ٢٩٣برقم ٢٩٨؛ الذريعة: ١٠/ ٢٨٨.

٢. النجاشي: الرجال:٢/ ٤٧ برقم ٦٢٣.

٣. النجاشي: الرجال:١/ ١٢١ برقم ٦٧.

٤. النجاشي: الرجال:٢/ ٢٨٨ برقم ١٠٢٤.

٥. النجاشي: الرجال: ١/ ١٧٩ برقم١٤٦.

٦. الطهراني: الذريعة: ج٢٤ برقم ١٤٨٩.

يلي: ١. الردّ على الجاحظ العثمانية؛ ٢. نقض فضيلة المعتزلة؛ ٣. النقض على علي ابن عيسى الرماني (المتوفّى ٣٨٥هـ)؛ ٤. النقض على أبي عبد الله البصري؛ ٥. نقض الخمس عشرة مسألة على البلخي؛ ٦. نقض الإمامة على جعفر بن حرب؛ ٧. الكلام على الجبائي في المعدوم؛ ٨. جوابات مقاتل بن عبد الرحمان عمّا استخرجه من كتب الجاحظ؛ ٩. نقض كتاب الأصم في الإمامة؛ ١٠. الردّ على أبي علي الجبائي في التفسير؛ ١١. عمد مختصرة على المعتزلة في الوعيد. إلى غير ذلك من الردود والنقوض الوافرة في تآليفه.[١]

والشيخ المفيد هو النجم اللامع في سماء علم الكلام في القرن الرابع، وهو ومن سبقه من أعلام الإمامية ردّوا على المعتزلة بجدّ وحماس، ومعه كيف يصحّ عدّهم تبعاً لهم؟!

و نقض المرتضى (٣٥٥ــ ٤٣٦هـ) الجزء العشرين لكتاب المغني تأليف القاضي عبد الجبار، وأسماه «الشافي» وهو مطبوع ببيروت في أربعة أجزاء.

كما ردّ الشيخ الطوسي (٣٨٥ ـ ٤٦٠هـ) على المعتزلة في تفسيره الكبير «التبيان»، في مواضع كثيرة، ومثله تلميذه الآخر الكراجكي (المتوفّى ٤٤٩هـ) وأدرج الردود في كتاب «كنز الفوائد».

ولما نقض أبو الحسن البصري كتاب الشافي للسيد المرتضى كتب سلّار بن عبد العزيز الديلمي صاحب المراسم، ردّاً عليه بأمر السيد الشريف.[٢]

١. النجاشي، الرجال: ٢/ ٣٢٩ برقم ١٠٦٨.

٢. الطهراني، الذريعة: ١٠/ ١٧٩.

الفصل السادس

الفوارق الفكرية بين الشيعة والمعتزلة

إنّ بين المنهجين الكلاميين مشتركات و مفترقات، وقد تعرّفت على قسم من المشتركات، فها نحن نلمّح إلى الفوارق بينهما، التي جعلتهما منهجين كلاميّين مختلفين لكلّ ميزة وخصوصيّة، و إليك رؤوسها على وجه الإجمال:

١. عينيّة الصفات مع الذات

اتّفقت الطائفتان على أنّ صفاته الذاتية ليست زائدة على الذات، بمعنى أن يكون هناك ذات وصفة وراءها، كما في الممكنات فإنّ الإنسان له ذات و له علم و قدرة، هذا ممّا اتّفقا عليه، ولكنّهما اختلفا في تفسير ذلك، فالشيعة الإمامية ذهبت إلى أنّ الوجود في مقام الواجب بالغ من الكمال على حدّ يعدّ نفس العلم والقدرة، وكون الصفة في الموجودات الإمكانية زائداً على الذات لا يكون دليلاً على الضابطة الكليّة حتى في مقام الواجب بل الوجود هناك لأجل الكمال المفرط نفس الصفة، ولا مانع في كون العلم في درجة قائماً بالذات، وفي أُخرى نفس الذات،وما هذا إلاّ لأنّ زيادة الوصف على الذات توجب حاجتها إلى شيء وراءها، وهو ينافي وجوب الوجود والغنى المطلق. هذه هي نظرية الشيعة مقرونة بالدليل الإجمالي، وقد اقتفوا في ذلك ما رسمه عليّ عليه السلام فقال: «وكمال الاخلاص

له نفي الصفات (الزائدة) عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف الله (بوصف زائد على ذاته) فقد قرنه (قرن ذاته بشيء غيرها) و من قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله».[١]

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لم يزل الله جلّ وعزّ، ربّنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، القدرة ذاته ولا مقدور».[٢]

هذا ما لدى الشيعة، وأمّا المعتزلة فقد اضطرب كلامهم في المقام، فالقول المشهور عندهم هي نظرية نيابة الذات عن الصفات، من دون أن تكون هناك صفة، وذلك لأنّهم رأوا أنّ الأمر في أوصافه سبحانه يدور بين محذورين:

١. انّ القول بأنّ له سبحانه صفات كالعلم، يوجب الاعتراف بالتعدّد والاثنينية، لأنّ واقع الصفات هو مغايرة للموصوف.

٢. إنّ نفي العلم والقدرة وسائر الصفات الكمالية يستلزم النقص في ذاته أوّلاً ويكذبه إتقان آثاره وأفعاله ثانياً.

فالمخلَص والمفر من هذين المحذورين يتلخّص في انتخاب نظرية النيابة، وهي القول بأنّ الذات نائبة مناب الصفات، وإن لم تكن هناك واقعية للصفات وراء الذات، فما يترتّب من الذات المقرونة بالصفة، يترتّب على تلك الذات النائبة مقامها، هذا هو المشهور عن المعتزلة، وإليك نصّ كلام عبّاد بن سليمان في ذلك المجال قال: هو عالمٌ قادرٌ حيٌّ، ولا أثبت له علماً، ولا قدرة، ولا حياة، ولا أثبت سمعاً، ولا أثبت بصراً، وأقول هو عالم لا بعلم، قادر لا بقدرة، حيّ لا بحياة،

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ١.

٢. الصدوق: التوحيد: ١٣٩.

وسميع لا بسمع، وكذلك سائر ما يسمّى من الأسماء التي يسمّى بها.[١]

يلاحظ عليه: أنّ نظرية النيابة المشهورة عن المعتزلة، مبنيّة على تخيّل كون الشيء وصفاً، ملازم للزيادة دائماً، فوقعوا بين المحذورين وتخلّصوا بالنيابة، ومن المعلوم أنّ مرجع النيابة إلى خلوّ الذات عن الكمال أوّلاً، وكون الذات الفاقدة للعلم، نائبة عن الذات المقرونة بها، أشبه باللغز.

نعم بعض المعتزلة كأبي هذيل العلاّف (١٣٥ـ ٢٣٥هـ) ذهب إلى نفس ما ذهبت الشيعة إليه، وقد ذكرنا كلامهم في موسوعتنا بحوث في الملل و النحل.[٢]

٢. إحباط الأعمال الصالحة بالطالحة

الإحباط في عرف المتكلّمين عبارة عن بطلان الحسنة، وعدم ترتّب ما يتوقع منها عليها، ويقابله التكفير وهو إسقاط السيّئة بعدم جريان مقتضاها عليها فهو في المعصية نقيض الإحباط في الطاعة، و المعروف عن الإمامية والأشاعرة هو أنّه لا تحابط بين المعاصي والطاعات والثواب والعقاب، و المعروف من المعتزلة هو التحابط[٣]، ثمّ إنهّم اختلفوا في كيفيّته، فمنهم من قال: إنّ الإساءة الكثيرة تُسْقِط الحسنات القليلة وتمحوها بالكلية من دون أن يكون لها تأثير في تقليل الإساءة وهو المحكيّ عن أبي علي الجبائيّ.

ومنهم من قال: إنّ الإحسان القليل يسقط بالإساءة الكثيرة ولكنّه يقلّل في تأثير الإساءة فينقص الإحسان من الإساءة فيُجزي العبد با لمقدار الباقي بعد

---

١. الأشعري: مقالات الإسلاميين: ١/ ٢٢٥.

٢. لاحظ بحوث في الملل والنحل: ٢/ ٨٤، نقلاً عن شرح الأُصول الخمسة للقاضي عبد الجبار: ١٨٣، ومقالات الإسلاميين: ٢٢٥.

٣. المفيد: أوائل المقالات: ٥٧.

التنقيص، وهو المنسوب إلى أبي هاشم.

ومنهم من قال: إنّ الإساءة المتأخرة تحبط جميع الطاعات وإن كانت الإساءة أقلّ منها، حتى قيل: إنّ الجمهور من المعتزلة ذهبوا إلى أنّ الكبيرة الواحدة، تحبط ثواب جميع العبادات.[١]

هذا على قول المعتزلة وأمّا على قول نفاة الإحباط فالمطيع والعاصي يستحقّ الثواب والعقاب معاً فيعاقب مدّة ثمّ يخرج من النار فيثاب بالجنة.

نعم ثبت الإحباط في موارد نادرة، كالارتداد بعد الإسلام، والشرك المقارن للعمل، والصدّ عن سبيل الله، ومجادلة الرسول ومشاقّته، وقتل الأنبياء، وقتل الآمرين بالقسط، وإساءة الأدب مع النبيّ ﷺ، والنفاق وغير ذلك ممّا شرحناه في الإلهيّات.[٢]

٣. خلود مرتكب الكبيرة في النار

اتّفقت الإمامية على أنّ الوعيد بالخلود في النار متوجّه إلى الكفّار خاصة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة ووافقهم على هذا القول كافة المرجئة سوى محمّد بن شبيب وأصحاب الحديث قاطبة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك، وزعموا أنّ الوعيد بالخلود في النار عامٌّ في الكفّار وجميع فسّاق أهل الصلاة.

ويظهر من العلاّمة الحلّي أنّ الخلود ليس هو مذهب جميع المعتزلة حيث قال: أجمع المسلمون كافة على أنّ عذاب الكافر مؤبّد لا ينقطع، وأمّا أصحاب الكبائر من المسلمين، فالوعيدية على أنّه كذلك. وذهبت الإمامية وطائفة كثيرة

---

١. التفتازاني: شرح المقاصد: ٢/ ٢٣٢، والقاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٦٢٥.

٢. حسن مكي العاملي، الإلهيات: ١/ ٨٧٠ ـ ٨٧٤.

من المعتزلة والأشاعرة إلى أنّ عذابه منقطع.[١]

والظاهر من القاضي عبد الجبار هو الخلود، واستدل بقوله سبحانه: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتعدَّ حُدُودَهُ يُدخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها**﴾.[٢] فالله تعالى أخبر أنّ العصاة يعذّبون بالنار ويخلّدون فيها، والعاصي اسم يتناول الفاسق والكافر جميعاً، فيجب حمله عليهما، لأنّه تعالى لو أراد أحدهما دون الآخر لبيّنه، فلمّا لم يبيّنه دلّ على ما ذكرناه.

فإن قيل: إنّما أراد الله تعالى بالآية الكافر دون الفاسق، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿**وَيتعدّ حُدودهُ**﴾ وذلك لا يتصوّر إلاّ في الكفرة وإلاّ فالفاسق لا يتعدّ حدود الله تعالى أجمع، ثمّ أجاب عنه فلاحظ كلامه.[٣]

٤. لزوم العمل بالوعيد وعدمه

المشهور عن المعتزلة أنّهم لا يجوّزون العفو عن المسيء لاستلزامه الخلف، وأنّه يجب العمل بالوعيد كالعمل بالوعد، والظاهر من القاضي أنّها نظرية البغداديين من المعتزلة، قال: اعلم أنّ البغدادية من أصحابنا أوجبت على الله أن يفعل بالعصاة ما يستحقّونه لا محالة، وقالت: لا يجوز أن يعفو عنهم، فصار العقاب عندهم أعلى حالاً في الوجوب من الثواب، فإنّ الثواب عندهم لا يجب إلاّ من حيث الجود، وليس هذا قولهم في العقاب فإنّه يجب فعله بكلّ حال.[٤]

وذهبت الإمامية إلى جواز العفو عن المسيء إذا مات بلا توبة، واستدل

---

١. كشف المراد: ٢٦١.

٢. النساء: ١٤.

٣. القاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٦٥٧.

٤. القاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٦٤٤.

الشريف المرتضى بقوله سبحانه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.[١] وقال: في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة، لأنّه سبحانه دلّنا على أنّه يغفر لهم مع كونهم ظالمين، لأنّ قوله: ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ جملة حالية إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين، ويجري ذلك مجرى قول القائل: «أنا أودّ فلاناً على غدره» و«وأصلُهُ على هجره» .[٢]

وقد أوضحنا الحال في دلالة الآية وأجبنا عن إشكال القاضي على دلالتها في الإلهيّات.[٣]

٥. الشفاعة حطّ الذنوب أو ترفيع الدرجة

لمّا ذهبت المعتزلة إلى خلود مرتكب الكبيرة في النار، وإلى لزوم العمل بالوعيد، ورأت أنّ آيات الشفاعة، تضادّ تلك الفكرة، التجأت إلى تفسيرها بغير ما هو المعروف والمتبادر منها، فقالوا: إنّ شفاعة الفسّاق الذين ماتوا على الفسوق ولم يتوبوا تتنزّل منزلة الشفاعة لمن قتل ولد الغير وترصّد للآخر حتى يقتله، فكما أنّ ذلك يقبح فكذلك هاهنا.[٤]

فالشفاعة عندهم عبارة عن ترفيع الدرجة، فخصّوها بالتائبين من المؤمنين وصار أثرها عندهم ترفيع المقام لا الانقاذ من العذاب أو الخروج منه، قال القاضي: إنّ فائدة الشفاعة رفع مرتبة الشفيع والدلالة على منزلة من المشفوع.[٥]

---

١. الرعد:٦.
٢. الطبرسي: مجمع البيان: ٣/ ٢٧٨.
٣. حسن مكي العاملي: الإلهيات: ١/ ٩١٠.
٤. القاضي عبد الجبار:شرح الأُصول الخمسة: ٦٨٨.
٥. القاضي عبد الجبار:شرح الأُصول الخمسة: ٦٨٩.

وأمّا عند الشيعة الإمامية فهو عبارة عن إسقاط العذاب، قال الشيخ المفيد: اتّفقت الإمامية على أنّ رسول الله ﷺ يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أُمّته، وأنّ أمير المؤمنين عليه السلام يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته وأنّ أئمّة آل محمّد ﷺ يشفعون كذلك و ينجّي الله بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين، ووافقهم على شفاعة الرسول ﷺ المرجئة سوى ابن شبيب وجماعة من أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك و زعمت أنّ شفاعة رسول الله ﷺ للمطيعين دون العاصين، وأنّه لا يشفع في مستحقّي العقاب من الخلق أجمعين.[1]

٦. مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر

إنّ مقترف الكبيرة عند الشيعة والأشاعرة مؤمن فاسق خرج عن طاعة الله. وهو عند الخوارج، كافر كفر الملّة عند جميع فرقهم إلاّ الأباضية فهو عندهم كافر كفر النعمة، وأمّا المعتزلة فهو عندهم في منزلة بين المنزلتين قال القاضي: إنّ صاحب الكبيرة له اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين لا يكون اسمه اسم الكافر، ولا اسمه اسم المؤمن فلا يكون حكمه، حكم الكافر ولا حكم المؤمن بل يفرد له حكم ثالث، وهذا الحكم الذي ذكرناه هو سبب تلقيب المسألة با لمنزلة بين المنزلتين، قال: صاحب الكبيرة له منزلة تتجاذبها هاتان المنزلتان.[2]

وهذا أحد الأُصول الخمسة التي عليها يدور رَحى الاعتزال و من أنكر واحداً منها فليس بمعتزليّ.[3]

---

١. المفيد: أوائل المقالات: ١٤ـ١٥.

٢. القاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٦٩٧.

٣. الخياط: الانتصار: ١٢٦، و مروج الذهب: ٣/ ٢٢٢.

٧. النسخ جائز، والبداء ممتنع أو لا ؟

اتّفق المسلمون على جواز النسخ خلافاً لليهود، و اختلفوا في البداء، ذهبت الشيعة إلى إمكانه ووقوعه، خلافاً لغيرهم فقالوا بالامتناع.

ثمّ إنّ الذي صار سبباً للتفريق بين الأمرين عند القاضي هو أنّه اشترط في النسخ أُموراً أهمّها: أنّ النسخ لا يتعلّق بعين ما كان ثابتاً، بل يتعلّق بمثل ما كان ثابتاً أشار إليها بقوله: «النسخ إزالة مثل الحكم الثابت بدلالة شرعية بدليل آخر شرعيّ على وجه لولاه لثبت ، ولم يزل مع تراخيه عنه».

قال: فاعتبرنا أن يكون إزالة مثل الحكم الثابت لأنّه لو زال عين ما كان ثابتاً من قبل لم يكن نسخاً بل كان نقضاً، وهذا بخلاف البداء فإنّه يتعلّق بعين ما كان ثابتاً، ومثاله أن يقول أحدنا لغلامه: إذا زالت الشمس ودخلت السوق فاشتر اللحم. ثمّ يقول له: إذا زالت الشمس ودخلت السوق فلا تشتر اللحم، وهذا هو البداء ، وإنّما سمّي به لأنّه يقتضي أنّه قد ظهر له من حال اشتراء اللحم ما كان خافياً عليه من قبل.[١]

وقال أيضاً: الذي يدل على البداء، أن يأمر الله جلّ وعزّ بنفس ما نهى عنه في وقت واحد على وجه واحد وهذا محال لا نجيزه البتة.[٢]

نحن لا نحوم حول البداء وما هو الفرق بينه و بين النسخ، فقد أشبعنا الكلام فيه في بحوثنا الكلامية[٣] غير أنّ الذي يتوجّه على كلام القاضي أنّ ما أحاله هو أيضاً من أقسام النسخ لا من أقسام البداء المصطلح فإنّه على قسمين:

---

١. القاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٥٨٤ـ ٥٨٥.

٢. رسائل العدل والتوحيد: ١، رسالة القاضي عبد الجبار: ٢٤١.

٣. لاحظ الإلهيات: ١/ ٥٦٥.

١. النسخ بعد حضور وقت العمل.

٢. النسخ قبل حضور وقت العمل.

والذي أحاله هو القسم الثاني، وأمّا الوجه الذي اعتمد عليه فموهون بأنّه ربّما تترتّب المصلحة على نفس انشاء الحكم و إن لم يكن العمل به مراداً جديّاً كما هو الحال في أمر إبراهيم بذبح ولده، و الأوامر الامتحانية كلّها من هذا القبيل، فإذا شوهد من المكلّف القيام بمقدمات الواجب، ينسخ الحكم وعلى كلّ تقدير فما سمّاه بداءً، ليس هو محلّ النزاع بين الإمامية وغيرهم.

والبداء عندهم عبارة عن تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة وهو شيء اتّفق عليه المسلمون، وورد به النصّ في القرآن والسنّة.

هذا هو حقيقة البداء في عالم الثبوت، وله أثر في عالم الإثبات، وهو أنّه ربما يقف النبي على مقتضى المصير ولا يقف على ما يغيّره، فيخبر به على حسب العلم بالمقتضي ولكن لا يتحقّق لأجل تحقّق مايغيّره، فيقال هنا: بدا لله والمقصود بداء من الله للعباد كما هو الحال في إخبار يونس عن تعذيب القوم وغير ذلك، وقد وردت جملة «بدا لله» في صحيح البخاري.[1]

قال الشيخ المفيد: أقول في معنى البداء ما يقوله المسلمون بأجمعهم في النسخ وأمثاله من الإفقار بعد الإغناء، والإمراض بعد الإعفاء، وما يذهب إليه أهل العدل خاصة من الزيادة في الآجال و الأرزاق والنقصان منها بالأعمال، وأمّا إطلاق لفظ البداء فإنّما صرت إليه لأجل السمع الوارد عن الوسائط بين العباد وبين الله عزّ وجلّ و ليس بيني و بين كافة المسلمين في هذا الباب خلاف، و إنّما خالف من خالفهم في اللفظ دون ما سواه.[2]

---

١. البخاري، الصحيح: ٤/ ١٧٢، باب حديث «أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل».

٢. المفيد: أوائل المقالات: ٥٣.

وهـذا يعرب عـن أنّ القـوم لم يقفوا على مصطلـح الإماميـة في البـداء وإلاّ صفقوا على جوازه.

٨. الواسطة بين الوجود والعدم

اتّفق المفكّـرون من الفـلاسفة والمتكلّمين على أنّـه لا واسطـة بين الوجـود والعـدم كما لا واسطة بين الموجـود والعدم، وأنّ الماهيّـات قبل وصفها بـالوجـود معدومـات حقيقة غير أنّ المعتزلـة ذهبت إلى أنّها في حال العدم غير مـوجودة ولا معدومة، بل متوسطة بينهما وهذا هو المعروف منهم بالقول بالأحوال.

قال الشيخ المفيد: المعدوم هو المنفيّ العين، الخارج عن صفة الموجود، ولا أقول: إنّه جسم ولا جوهر ولا عرض، ولا شيء على الحقيقة وإن سمّيته بشيء من هـذه الأسماء فإنّما تسمّيـه به مجازاً، وهـذا مـذهب جماعـة من بغـداديّـة المعتزلـة وأصحاب المخلوق [كذا] والبلخي يزعم أنّه شيء ولا يسمّيه بجسم ولا جوهر ولا عرض والجبـائي وابنه يزعمان أنّ المعدوم شيء وجـوهر وعرض، والخيّاط يـزعم أنّه شيء وعرض وجسم.[1]

وبما أنّ المسألة واضحة جداً لا نحوم حولها.

٩. التفويض في الأفعال

ذهبت المعتزلـة إلاّ من شذّ كـالنجّار وأبي الحسن البصري[2] إلى أنّ أفعال العباد واقعة بقدرتهم وحدها على سبيل الاستقلال بلا ايجاب[3] بل باختيار.

---

١. المفيد: أوائل المقالات: ٧٩.

٢. لاحظ حاشية شرح المواقف لعبد الحليم السيالكوتي: ٢/ ١٤٦.

٣. ولعلّ قولهم: «بلا إيجاب» إشـارة إلى أنّ الفعل حال الصدور لا يتّصف بالوجـوب أيضاً،والقاعدة الفلسفية: الشيء ما لم يجب لم يوجد، غير مقبولة عندهم.

قال القاضي: أفعال العباد لا يجوز أن توصف بأنّها من الله تعالى و مِنْ عِنْده ومِنْ قبله....[١]

قال السيد الشريف الجرجاني(المتوفّى٨٨٦هـ): إنّ المعتزلة استدلّوا بوجوه كثيرة مرجعها إلى أمر واحد وهو أنّه لولا استقلال العبد بالفعل على سبيل الاختيار لبطل التكليف وبطل التأديب الذي ورد به الشرع وارتفع المدح والذم إذ ليس للفعل استناد إلى العبد أصلاً، ولم يبق للبعثة فائدة لأنّ العباد ليسوا موجدين أفعالهم، فمن أين لهم استحقاق الثواب والعقاب؟[٢]

ثمّ إنّ نظريّتهم في استقلال العبد في الفعل مبنيّة على مسألة فلسفية، وهو أنّ حاجة الممكن إلى العلّة تنحصر في حدوثه، لا فيه وفي بقائه، وعلى ضوء ذلك قالوا باستقلال العبد في مقام الايجاد.

والمبنىٰ والبناء كلاهما باطلان. أمّا الافتقار حدوثاً فقط فهو لا يجتمع مع كون الإمكان من لوازم الماهيّة وهي محفوظة حدوثاً وبقاءً، فكيف يجوز الغناء عن الفاعل بقاء؟

قال الحكيم الشيخ محمد حسين الاصفهاني:

والافتقار لازم الإمكان   من دون حاجة إلى البرهان

لا فرق مابين الحدوث والبقا   في لازم الذات ولن يفترقا

هذا كلّه حول المبنى، وأمّا البناء فالتخلّص عن الجبر يكفي في استناد الفعل إلى الفاعل والخالق معاً، لكن يكون قدرة المخلوق في طول قدرة الخالق، ومنشعبة عنها، وهذا يكفي في الاستناد وصحّة الأمر والنهي و التأديب والتثويب،

---

١. القاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٧٧٨، وفي ذيله ما ربما يوهم خلاف ما هو المشهور عنهم.

٢. شرح المواقف: ٨/ ١٥٦.

فالجبر والتفـويض باطلان، والأمر بين الأمـرين هو الحقّ الصراح، وقد تـواتر عن أئمّة أهل البيت قولهم: لا جبر وتفويض لكن أمر بين الأمرين.[١]

ثمّ إنّ الـدافع إلى القـول بالتفـويض هـو صيانـة عدلـه سبحانـه فزعمـوا أنّ الصيانـة لها رهن القـول بالتفويـض واستقلال العبـد بالفعل، وغفلـوا عن أنّ هناك طريقاً آخر وهو ما ذهبت إليـه الإمامية، ثمّ إنّهم وإن نزّهوا الله سبحانه عن الظلم ولكن صـوّروا له شريكـاً في الايجاد، ولأجل ذلك قـال الإمام الـرضا عليه السلام: «مسـاكين القدريـة أرادوا أن يصفوا الله عـزّ وجلّ بعـدله فأخـرجـوه من قدرتـه وسلطانه».[٢]

١٠. قبول التوبة واجب على الله أو تفضّل منه؟

اتّفق المسلمون على أنّ التوبة تسقط العقاب، وإنّما الخلاف في أنّه هل يجب على الله قبـولها فلو عـاقب بعد التـوبة كـان ظـالماً، أو هو تفضّل منـه سبحانـه؟ فالمعتزلة على الأوّل، والأشاعرة والإمامية على الثاني.[٣]

قال المفيد:

«اتّفقت الإمامية على أنّ قبول التوبة بفضل من الله عزّوجلّ، وليس بواجب في العقـول إسقـاطهـا لما سلـف من استحقـاق العقـاب، ولـولا أنّ السمـع ورد بإسقاطها لجاز في العقول بقـاء التائبين على شرط الاستحقاق، ووافقهم على ذلك أصحاب الحديـث، وأجمعت المعتزلـة على خلافهم وزعمـوا أنّ التوبـة مسقطة لما سلف من العقاب على الوجوب.[٤]

---

١. الصدوق: التوحيد: ٣٦٢، الحديث ٨، ولاحظ الأحاديث الأُخرى.

٢. نفس المصدر: ص ٥٤، الحديث ٩٣.

٣. لاحظ: التفتـازاني: شرح المقـاصد: ٢/ ٢٤٢؛ العـلاّمة الحلي: كشـف المراد: ٢٦٨؛ القاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٧٩٨.

٤. المفيد: أوائل المقالات: ١٥.

ولقد أحسن قدّس الله سرّه حيث جعل محور المسألة قبول التوبة وعدمه بما هوهو لا بلحاظ آخر كما إذا أخبر سبحانه أنّه : ﴿يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبادِهِ﴾ [1] فعندئذٍ يجب قبول التوبة عقلاً و إلاّلزم الخلف في الوعد. قال الطبرسي في تفسير قوله سبحانه: ﴿إلاّ الَّذينَ تابُوا وَأَصلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوّابُ الرَّحِيمُ﴾[2]: «ووصفه بالرحيم عقيب التوّاب يدلّ على أنّ إسقاط العقاب بعد التوبة تفضّل منه سبحانه ورحمة من جهته، على ما قاله أصحابنا، وأنّه غير واجب عقلاً على خلاف ما ذهب إليه المعتزلة».[3]

و من أراد أن يقف على دلائل المعتزلة في المقام فليرجع إلى كشف المراد وشرح المقاصد.

١١. عصمة الأنبياء قبل البعثة وبعدها

اتّفقت الإمامية على أنّ جميع أنبياء الله عليهم السلام معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها، وممّا يستخف فاعله من الصغائر وأمّا ما كان من صغير لا يستخف فاعله فجائز وقوعه منهم قبل النبوة وعلى غير تعمّد وممتنع منهم بعدها على كلّ حال هذا مذهب جمهور الإمامية، والمعتزلة بأسرها تخالف فيه.[4]

والمنقول عن أبي علي الجبائي التفصيل في الكبائر بين ما قبل البعثة وبعدها فيجوز في الأوّل دون الثاني، و المختار عند القاضي في الكبائر عدم الجواز مطلقاً وأمّا المنفرات فاتّفقوا على عدم جوازه.[5]

---

١. التوبة: ١٠٤.

٢. البقرة: ١٦٠.

٣. الطبرسي: مجمع البيان: ١/ ٢٤٢.

٤. المفيد: أوائل المقالات: ٣٠.

٥. القاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٥٧٣.

١٢. وجوب الأمر بالمعروف عقلاً وعدمه

اتّفقت الأُمّة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا استثناء، غير أنهّم اختلفوا في وجوبه عقلاً وسمعاً، أو سمعاً فقط، فالمعتزلة على الأوّل، والإمامية على الثاني.

قال المفيد: إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باللسان فرض على الكفاية لشرط الحاجة إليه لقيام الحجّة على من لا علم لديه إلاّ بذكره أو حصول العلم بالمصلحة به أو غلبة الظنّ بذلك.[1]

ثمّ إنّ المحقّق الطوسي ذكر في متن التجريد دلائل المعتزلة على وجوبها عقلاً، ثمّ عقّب عليها بنقد و تحليل.[2]

١٣. آباء رسول الله كلّهم موحّدون

اتّفقت الإمامية على أنّ آباء رسول الله من لدن آدم إلى عبد الله بن عبد المطلب مؤمنون بالله عزّ وجلّ موحّدون له، وخالفهم على هذا القول جميع الفرق.[3]

١٤. تفضيل الأنبياء على الملائكة

اتّفقت الإمامية على أنّ أنبياء الله عزّوجلّ ورسله من البشر أفضل من الملائكة، ووافقهم على ذلك أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعم الجمهور منهم أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء والرسل.[4]

---

١. المفيد: أوائل المقالات: ٩٨. وبذلك يظهر وهن ما ذكره القاضي في شرح الأُصول الخمسة من نسبة عدم الوجوب على الإطلاق إلى الإمامية، لاحظ ص ٧٤١.

٢. العلاّمة :كشف المراد: ٢٧١، ط صيدا.

٣. المفيد، أوائل المقالات: ١٢.

٤. المفيد: أوائل المقالات: ١٦.

١٥. الرجعة: إمكانها ووقوعها

قضية الرجعة التي تحدّثت عنها بعض الآيات القرآنية والأحاديث المرويّة عن أهل بيت الرسالة ممّا تعتقد به الشيعة من بين الأُمّة الإسلامية.

قال الشيخ المفيد: إنّ الله يحيّر قوماً من أُمّة محمّد ﷺ بعد موتهم قبل يوم القيامة وهذا مذهب يختص به آل محمّد ﷺ والقرآن شاهد به.[1]

وخالفت المعتزلة و الأشاعرة وأهل الحديث في ذلك.

١٦. الجنّة والنار مخلوقتان أو لا ؟

إنّ الله سبحانه وعد المتقين بالجنة وأوعد العصاة بالنار فهل هما مخلوقتان أو لا؟ والمسألة نقلية محضة فالإمامية إلاّ من شذّ ذهبت إلى أنّ الجنّة والنار في هذا الوقت مخلوقتان.

قال الشيخ المفيد: وبذلك جاءت الأخبار وعليه إجماع أهل الشرع والآثار.[2]

وقال التفتازاني: جمهور المسلمين على أنّ الجنّة والنار مخلوقتان الآن خلافاً لأبي هاشم والقاضي عبد الجبار، ومن يجري مجراهما من المعتزلة حيث زعموا أنّهما إنّما يخلقان يوم الجزاء.[3]

والظاهر من السيد الرضي من الشيعة (٣٥٩ـ٤٠٦هـ) أنّهما غير مخلوقتين الآن حيث قال: الصحيح أنّهما إنّما تخلقان بعدُ.[4]

---

١. المجلسي: البحار:٥٣/ ٣٦، نقلاً عن المسائل المروية للشيخ المفيد.

٢. المفيد: أوائل المقالات: ١٠٢.

٣. التفتازاني:شرح المقاصد: ٢/ ٣١٨؛ ولاحظ شرح التجريد للقوشجي: ٥٠٧، وعبارة الأخيرين واحدة.

٤. الرضي: حقائق التأويل: ٥/ ٢٤٥.

١٧. تأويل النصوص اعتماداً على القواعد العقلية

إنّ الأُصول الخمسة عند المعتزلة توصف بالصحة والإتقان على درجة تقدم على النصوص الشرعية الواردة في القرآن والسنّة، فقد أعطوا للعقل أكثر ممّا يستحقه، ولذلك نرى أنّهم لما بنوا على أنّ مرتكب الكبيرة مخلّد في النار أوّلوا النصوص القرآنية، فقالوا: إنّ المرادمن الشفاعة هو ترفيع الدرجة لا رفع العقاب، وقس على ذلك سائر تأويلاتهم في الكتاب والسنّة.

إنّ النصّ الوارد في القرآن الكريم دليل قطعيّ لا يعادله شيء، فعند ذلك تجب تخطئة العقل لا تأويل القرآن، والتعارض بين القطعيين غير معقول، وتأويل النصّ القطعي كرفضه، نعم لو كان النصّ ظنّي السند أو كان الدليل الشرعيّ ظنّي الدلالة فللتأويل مجال، هذا وللبحث صلة تطلب في محاله.

١٨. الإمامة بالتنصيص أو بالشورى

اتّفقت الإمامية على أنّ الإمامة بالتنصيص خلافاً للأشاعرة والمعتزلة وقالوا بالشورى وغيرها، ويتفرّع على ذلك أمر آخر، وهو أنّ النبي نصّ على علي عليه السلام خليفته بالذات عند الإمامية، وقال الآخرون سكت وترك الأمر شورى بين المسلمين.

قال القاضي عند البحث عن طرق الإمامة (عند المعتزلة): إنّها العقد والاختيار.[1]

١٩. هل يشترط في الإمام كونه معصوماً ؟

اتّفقت الإمامية على أنّ الإمام يجب أن يكون معصوماً عن الخطأ والمعصية

---

١. القاضي عبد الجبار: شرح الأُصول الخمسة: ٧٥٣.

خلافاً للمعتزلة حيث اكتفت أنّه يجب أن يكون مبرّزاً في العلم مجتهداً، ذا ورع شديد، يوثق بقوله ويؤمن منه ويعتمد عليه.[١]

قال المفيد: إنّ الأئمّة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام، معصومون كعصمة الأنبياء وأنّهم لا يجوز منهم صغيرة إلاّ ما قدّمتُ ذكر جوازه على الأنبياء وأنّه لا يجوز منهم سهو في شيء في الدين ولا ينسون شيئاً من الأحكام، وعلى هذا مذهب سائر الإمامية، إلاّ من شذّ منهم وتعلّق بظاهر روايات، لها تأويلات على خلاف ظنّه الفاسد من هذا الباب، والمعتزلة بأسرها تخالف في ذلك ويجوّزون من الأئمّة وقوع الكبائر والردّة عن الإسلام.[٢]

٢٠. حكم محارب الإمام عليّ أمير المؤمنين

اتّفقت الإمامية على أنّ الناكثين والقاسطين من أهل البصرة والشام أجمعين كفّار ضُلاّل ملعونون بحربهم أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّهم بذلك في النار مخلّدون، وأجمعت المعتزلة سوى الغزّال منهم و ابن باب، والمرجئة والحشوية من أصحاب الحديث على خلاف ذلك، فزعمت المعتزلة كافة إلاّ من سمّيناه وجماعة من المرجئة وطائفة من أصحاب الحديث، أنّهم فُسّاق ليسوا بكفّار، وقطعت المعتزلة من بينهم على أنّهم لفسقهم في النار خالدون.[٣]

هذه جملة من الأُصول التي يختلف فيها المنهجان وبقيت هناك أُصول أُخرى تضاربت فيها آراء الفريقين، لم نذكرها روماً للاختصار.

١. شرح الأُصول الخمسة: ٧٥٤.

٢. الشيخ المفيد: أوائل المقالات: ٣٥.

٣. نفس المصدر: ١٠.

الآن حصحص الحقّ

إنّ القارئ الكريم إذا أمعن فيما أوردناه في هذه الفصول الستّة يقف على ضالّتنا المنشودة وهي:

١. إنّ الشيعة عن بكرة أبيهم كانوا مستقلّين في التفكير، وقد اقتفوا في الأُصول والفروع أئمّة أهل البيت، ولم يكونوا في عصر من الأعصار تبعاً للمعتزلة، وأنّهم لو اتّفقوا معهم في أُصول، اختلفوا في أُخرى، ولو كان الاتّفاق فيها دليلاً على التبعية فلماذا لا يكون دليلاً على العكس؟ والحقّ أنّ الطائفتين يصدران عن معين عذب وهي خطب الإمام أمير المؤمنين في التوحيد والعدل، و الرجوع إلى العقل في مجال العقائد، وأنّ من زعم أنّ الشيعة كانت تبعاً للمعتزلة فقد ظنّ ظنّاً خاطئاً بلا تحقيق ولا إمعان.

هذا و إنّ شيخ الأُمّة المفيد عقد باباً خاصاً في كتابه أوائل المقالات بيّن فيه الفوارق الفكرية بين الشيعة والمعتزلة.[١]

٢. إنّ الشيعة كانت تتمتّع في القرون السبعة بمنهج كلاميّ تام متشعّب الفنون، وقد نضج المنهج في ظلّ الأُصول السمعية والدراسات العقلية، وهاهم علماؤهم، ومتكلّموهم فيها، وهذه كتبهم ورسائلهم،وهذه أُصولهم وعقائدهم، وهذه مناظراتهم مع المخالفين.

ومهما يكن من أمر فإنّ الشيعة قد خلفت تراثاً كلامياً ضخماً إلاّ أنّ ثمة من يلمح إلى معنى فيه ظلم كثير للكلام الشيعي فها هو آدم متز يقول: لم يكن للشيعة في القرن الرابع منهج كلامي مع أنّ ابن النديم يصف المفيد بأنّه: «في عصرنا انتهت رئاسة متكلّمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، بادئ الخاطر، شاهدته فرأيته بارعاً»[٢]؟!

---

١. أوائل المقالات: ٧ـ١٦.

٢. ابن النديم، الفهرست: ٢٦٦.

نحمده سبحانه على انعامـه وافضاله،ونشكره على آلائه، ونصلّي على محمّد أفضل سفرائه،وعلى آله الأطهار أفضل بـريّته، صلاة دائمة ما دامت السماء ذات أبراج، والأرض ذات فجاج.

جعفر السبحاني

قم، مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

صفر المظفر/ ١٤١٣ هـ

الرسالة الثامنة

دراسة إيمان أبي طالب

في ضوء الكتاب والسنّة

كُتبت هذه الرسالة جواباً لمحاضرة الشيخ يوسف القرضاوي في قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأُستاذ الجليل الشيخ يوسف القرضاوي حفظه الله ورعاه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نسأل الله لكم دوام الصحّة والتوفيق لخدمة الإسلام والمسلمين.

أما بعد؛ فقد وقفنا في إحدى المجلات الإسلامية على مقالة رثائية قيّمة لكم بمناسبة رحيل المفكِّر الإسلامي القدير الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ تحت عنوان: «**النجم الساطع**».

ولقد كان الشيخ الغزالي حقاً ـ كما وصفتموه ـ العقل الذكي، والقلب النقي، وصاحب الرشد في الفكر والشجاعة في الحق، والغيرة على الدين فقد صدع بما يرى انّه الحق غير آبهٍ بما يُثيره رأيه الصريح، من انتقادات واعتراضات،

لأنّـه كان ــ كما قلتم ــ حرَّ الفكـر والضمير، حرَّ اللسـان والقلم، و لأنّـه رفض الخضوع لأهواء العوام كما فعل أدعياء العلم الذين يحسبهم الناس دعاةً !!

ولقد طالعنا في نفس الوقت رسالتكم القيمة إلى الندوة الثانية للتقريب بين المذاهب الإسلامية بـالرباط (١٢ ـ ١٤ ربيع الثـاني ١٤١٧هـ) التي انطلقت من روح متوقّدة متطلّعة إلى عزّة المسلمين وفهم عميق ومنطقي للقرآن والسنّة.

وقـد أعجبتنا فيهـا رؤيتكم الصـائبـة حـولَ ما يحول دون تحقيـق الوحـدة الإسلاميـة الكبرى والتقريـب بين فصائل المسلمين وطـوائفهم، وأبرز ذلـك فراغ نفـوس المسلمين من الهمـوم الكبيرة والآمـال العظيمـة، واعتراكهم على المسـائل الصغيرة والهامشية مـن فروع العقيدة أو الفقـه، وقد كـان من الواجب ــ كما قلتم فيها ـ على الدعاة والمفكـرين الإسلاميين أن يشغلوا جماهير المسلمين بهموم أُمتهم الكبرى وليلفتـوا أنظـارهم وقلـوبهم وعقـولهم إلى ضرورة التركيز عليهـا والتنبيـه لها.

والحق كما تفضلتم: مشكلـة المسلمين اليـوم ليست في الـذي يـؤوّل آيـات الصفات وأحـاديثها بـل في من ينكر الـذات والصفات الإلهيـة جميعاً ويـدعو إلى العلمانية والإلحاد، ومشكلة المسلمين ليست في من يجهـر بالبسملة أو يخفضها أو لا يقرؤُهـا في الصلاة، ولا في من يرسـل يديه في الصـلاة أو يقبضهما، انّما مشكلة المسلمين في من لا ينحني يـوماً لله راكعاً ولا يخفـض جبهته لله ساجـداً ولا يعرف المسجد ولا يعرفه ...

ولا ... ولا ... انّما انّما .....

وبالتالي انّ المشكلـة حقاً هي: وهن العقيدة في النفـوس، وتعطيل الشريعة في الحياة، وانهيار الأخلاق في المجتمع، وإضاعة الصلوات، ومنع الزكوات واتّباع الشهوات، وشيوع الفاحشة، وانتشار الـرشوة، وخراب الذمم، وسوء الإدارة، وترك

الفرائض الأصلية، وارتكاب المحرمات القطعية، وموالاة أعداء الله ورسوله والمؤمنين.

إنّ مشكلة المسلمين ـ كما تفضّلتم فيها ـ تتمثل في إلغاء العقل وتجميد الفكر وتخدير الإرادة، وقتل الحرية، و إماتة الحقوق، ونسيان الواجبات، وفشوّ الأنانية، و إهمال سنن الله في الكون والمجتمع.

وهي بالضبط وعلى التحديد كل هذا، وبخاصة ما ذكرتموه في أرقام سبعة تحت عنوان هموم سبعة أساسية.

ولقد أعجبتنا كل هذه الرؤى جملةً وتفصيلاً، وتمنينا لو كان مثل هذه الرؤية والبصيرة شائعة بين مفكري الإسلام وعلمائه اليوم سنةً وشيعةً ومن جميع الفرق والمذاهب، وكان هناك تعاون صادق وعميق ومتواصل لحلّ هذه المشكلات ما دامت كل هذه الفرق والمذاهب متفقة على وحدانية الله، ورسالة النبي الخاتم محمّد بن عبد الله ﷺ، وأركان الإسلام العملية، ومكارم الأخلاق، وأُمور كثيرة أُخرى تفوق الحصر، وتستعصى على العدّ والإحصاء.

وتمنّينا لو كان المسلمون يكفون ـ إلى جانب ذلك ـ عن التراشق بسهام الاتهام فيما بينهم، ويتحرّرون من عقدة الطائفية وأساليبها الجاهلية، ويقوموا ـ بدل ذلك ـ بدراسة نقاط الخلاف والاختلاف بروحٍ أخوية ونهجٍ علميٍ، واسلوب رصين، ويفسحون للجميع فرصة التعبير عن مذهبه، والإدلاء بأدلّته، وبراهينه في جوٍ ملؤُه رحابة الصدر واتساع الفكر والسماحة، ويتركون إثارة ما يبعد القلوب بعضها عن بعضها، ويكدر الصفو، ويفسد المودة.

❀❀❀

غير أنّه بلغنا أنّكم في محاضرة لكم في «قطر» تعرضتم بسوء لشيخ الأباطح ناصر الإسلام وحامي نبيه الأكبر أبي طالب ـ رضوان الله تعالى عليه ـ الذي تكفّل رسولَ الله ﷺ وآواه، وحامىٰ عنه بعد ابتعاثه بالرسالة، وضحى في سبيل دعوته براحته، ونفسه، وبأولاده وأفلاذ كبده، كاتماً إيمانه، ومتّقياً قومه العتاة ليبقى على منصبه، من أجل أن يخدم في ظلِّه الرسولَ والرسالة، ويدفع به عنهما أذى معارضيهما، وكيدهم كما فعل مؤمن آل فرعون طوال أربعين سنة، بلا انقطاع.

فهل ترى كان حقيقاً بأن يُنكر فضله، وتُتجاهل خدمته؟ وهو الذي صرّح بصحة الرسالة المحمدية وصدق الدعوة النبوية الخاتمة في قصائده، وأشعاره وترجم إيمانه، بالوقوف الصريح ـ هو وأبناؤه الغرّ ـ إلى جانب رسول الله ﷺ حيث يقول:

كَذَبتُم وبيتِ الله نُبْزَى محمّداً ... ولما نُطاعِن دونَهُ ونناضل [١]

ونُسلِمُه حتّى نُصرَّعَ حولَهُ ... وَنَذهَل عن أبنائنا والحلائِل

لَعمري لقد كلِّفتُ وجداً بأحمد ... وإخوته دأبَ المحبِّ المواصل

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها ... وزَيناً لمن والاه ربُّ المشاكل [٢]

فَمنْ مثلُه في الناس أيُّ مؤمَّل ... إذا قاسَهُ الحُكّام عند التفاضل

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائش ... يُوالي إلاهاً ليس عنه بغافِلِ

لقد علِمُوا أنَّ ابْننا لا مكذَّبٌ ... لدينا ولا يُعنى بقولِ الأباطِل

١. أي نُغلَبَ عليه.

٢. المشاكل: العظيمات من الأُمور.

فـأصبَـحَ فينـا أحمدٌ في أُرومـة ... تقصّـر عنـه سَـورةُ المتطـاول [١]

حَـدِبْـتُ بنفسي دونَـه وحميتـه ... ودافعتُ عنـه بالـذُّرا والكـلاكل [٢]

فَـأيّـدَهُ ربُّ العبـاد بنصره ... وأظهـرَ دينـاً حقُّـه غير بـاطـل [٣]

نقل ابن هشام في سيرته أربعة وتسعين بيتاً من هذه القصيدة، فيما أورد ابن كثير الشامي في تاريخه «اثنين وتسعين بيتاً» وأورد أبو هفان العبدي الجامع لديوان «أبي طالب» مائة وواحد وعشرين بيتاً منهـا في ذلك الديوان ولعلّها تمام القصيدة وهي في غاية العذوبة والروعـة، وفي منتهى القوة والجمال، وتفوقُ في هذه الجهات كلَّ المعلّقات السبع التـي كان عرب الجاهلية يفتخرون بها ويعـدّونها من أرقى ما قيل في مجال الشعر.

وله وراء هذه اللاميـة، قصيدة أُخرى ميمّية» فهو ـ سـلام الله عليه ـ يصرح فيها بنبوة ابن أخيه وأنّه نبي كموسى وعيسى عليهما السلام إذ يقول:

لِيعلـم خيـارُ النـاس أنَّ محمّـداً ... نبـيٌّ كمـوسـى والمسيح بـن مـريـم

أتـانـا بهديٍ مثـل مـا أتيـا بـه ... فكـلٌّ بـأمـرِ اللهِ يهدي ويعصـم [٤]

ونظيرها قصيدته البائيّة وفيها:

ألم تعلمـوا أنّـا وجـدنـا محمـداً ... نبيـاً كموسى خـط في أوّل الكتب [٥]

---

١. السَورة: الشدة والبطش.

٢. الذرا: جمع ذروة وهي أعلى ظهر البعير.

٣. راجع السيرة النبوية: ١/ ٢٧٢ ـ ٢٨٠.

٤. مجمع البيان: ٧/ ٣٧، الحجة: ٥٦، مستدرك الحاكم: ٢/ ٦٢٣.

٥. مجمع البيان: ٧/ ٣٦، وقد نقل ابن هشام في سيرته: ١/ ٣٥٢ خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة.

أفبعد هذه البلاغات والتصريحات يصحّ لإنسان واع أن يكفّر سيد الأباطح أو يشك في إيمانه؟

وعلى فرض التسليم، **فهل هذه هي واقعاً مشكلة الأُمّة الإسلامية اليوم وأنتم الأدرى بمشاكل الأمّة، وهل التنكيل بحامي الرسول، والإيقاع فيه من ما يخدم الأُمّة؟!**

هل يكون أبو طالب مع كل تلكم المواقف المشرفة ومع كل تلك الإثارة الصريحة الكاشفة عن عمق إيمانه بالرسالة المحمديّة مشركاً، وأبو سفيان الذي أشعل حروباً وقام بمؤامرات مدة عشرين سنة وأبناؤه الذين كانوا أساس المشكلة ومبدأ الانحراف في المسار الإسلامي، مسلمين موحدين يستحقون كل تقدير وكل احترام منا؟!

وهل ترى لو كان أبو طالب والداً لغير علي عليه السلام كان يرى هذا الحيف من قِبَل أبناء الإسلام؟!

هلاّ كنتم يا فضلية الأُستاذ ـ وأنتم على ما أنتم عليه من مستوى رفيع ومرموق في الرؤية والبصيرة ـ على نهج زميلكم الراحل الفقيد الشيخ الغزالي ـ رحمه الله ـ من الصدع بالحق، وعدم الخضوع للمرويّات الباطلة.

نحن ـ وقد وقفنا على قسم من مؤلفاتكم القيمة الزاخرة بالفكر المشرق ـ كنا ولا نزال نأمل أن تنصفوا الحقيقة ولا تقعوا فيما وقع فيه الأوّلون من غمطها وتجاهلها والجناية عليها، وأن تكونوا المرجعَ الأمينَ لشباب هذا العصر في تصحيح التاريخ، وتنقيته من الأباطيل، ورفع الضيم والظلم عن المظلومين.

ورحم الله ابن أبي الحديد القائل:

ولـولا أبـــو طـالب وابنــــه	لما مثـل الـديـن شخصـا وقــامـا
فهـــذا بمكـــة أوى وحـــامـى	وذاك بيثـــرب ذاق الحمامـــا

كل ذلك لـو كان النبأ الـواصل إلينا عـن محاضرتكم صادقـاً، وأرجو أن لا يكون كذلك.

❀❀❀

هذا ونرسل إليكـم ما قمنا به من دراسة لإيمان أبي طـالـب في ضوء الكتاب والسنّة والتاريخ، وقد طبع ضمن دراستنا لحياة وتاريخ سيد المرسلين ﷺ.

ثم إنّنا انطلاقاً من ضرورة السعي لإيجاد المزيد من التفاهم والتقارب نرسل إليكم كتاب: الاعتصـام بالكتاب والسنّة، و حكم الأرجـل في الوضوء، و الأسماء الثلاثـة ، وأملنا أن تكـون هذه الكتـب خطوات على سبيل تحصيـل التقارب بين الفقهين.

وختاماً نقول: إنّكم في رسالتكم للمؤتمر رجحتم قول الإمام أحمد في مسألة خلق القرآن، وما قوله إلاّ «قدم القـرآن» ، وكيف يكون هذا القول، القول الأرجح وليس القـديم إلاّ الله سبحانه، فيكـون القرآن عندئذٍ إلهاً ثـانياً، وهو يضـاد أصل التوحيد ؟!

ولو أُريد من قِدم القرآن قدمُ علمه سبحانه فهذا أمر لا سترة عليه ولا نزاع فيه.

والجدير بالإمام أحمد الذي يأخـذ العقائد من الكتاب والسنّة أن لا يخوض في هذا الموضوع بحجة أنّ الكتاب والسنّة لم يذكرا شيئاً حول قدم القرآن و حدوثه

لو لم نقل انّه تبنّى حدوثه.

وتقبلوا في الختام أسمى تحياتنا، وأفضل تمنياتنا، وفقكم الله لصالح العلم والعمل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

جعفر السبحاني

قم ـ الجامعة الإسلامية

تحريراً في ١٥/ ١١/ ١٤١٧ هـ ق

الرسالة التاسعة

جواب رسالة حول الشيعة

أُصولها وعقائدها

١

قد وجهت إليّ دعوة من الأُردن عام ١٤١٩هـ لإلقاء المحاضرات في جامعاتها، وكان لها صدىً واسع النطاق لا سيما في التعريف بالشيعة وأُصولها وفروعها وتاريخها.

ودارت المحاضرات حول الوحدة الإسلامية والأُصول المشتركة بين الفريقين، ونالت اهتمام الصحف والمجلات الأُردنية، كما نالت إعجاب الحاضرين.

ولما أقفلت راجعاً إلى إيران انهالت عليَّ رسائل عديدة من الأُردن تستفسر فيها عن الشيعة وأُصولها وعقائدها.

وممن كتب إليَّ في ذلك أُخت جامعية فاضلة تدعى ابتسام سالم زبن العطيات.

فقد كتبت رسالة مسهبة سألتني فيها عن مسائل تتعلق بالشيعة وعقائدها، وقد بعثت إليها بالرسالة التالية جواباً لاستفساراتها.

وبالإمعان فيها تعلم الأسئلة التي وجهتها إليَّ، وهي رسالتان ننشرهما تباعاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

أُختي في الله: ابتسام سالم زبن العطيات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد:

فقد وافتني رسالتكم الكريمة معربة عن أخلاقكم السامية وأعراقكم الزاكية، ووقفت على ما تنطوون عليه من حبّ للوحدة الإسلامية ورصّ الصفوف، و قد كتبتم في صدر رسالتكم أُموراً أوافقكم في جميع ما حررتموه، غير انّي أقوم برفع بعض الشبهات العالقة بأذهانكم بالنسبة إلى الشيعة.

١. انّ الشيعة ليست فرقة حادثة بعد النبي ﷺ بل ترجع جذورها إلى أماثل من المهاجرين و الأنصار الذين بقوا على ما كانوا عليه في عصر الرسالة من الاعتقاد بمبدأ التنصيص على الإمام بعد الرسول ﷺ، فبقوا على تلك العقيدة بعد رحيل النبي ﷺ فتلك الثلّة من المهاجرين والأنصار هم روّاد التشيّع، وقد ذكرنا أسماء كثير منهم في الجزء السادس من كتابنا «بحوث في الملل و النحل»، وفي طليعتهم: أبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، والمقداد بن الأسود الكندي، وقيس بن سعد بن عبادة، وسلمان الفارسي، والعباس عمّ النبي ﷺ

وأبو أيّوب الأنصاري، وذو الشهادتين خزيمة بن ثابت الأنصارى، وقد انتشر التشيع عن طريق هؤلاء في الحجاز أوّلاً ومنها إلى سائر الأمصار عبر القرون.

إنّ اختلاف الشيعة مع السنة ليس اختلافاً فيما أوحي إلى الرسول ﷺ بل هو اختلاف في بعض ما روي عنه، و الشيعة على أنّ الرسول ﷺ نصّ على الخليفة بعده في مواقف عديدة، مثل:

أ. حديث الدار

بعد أن مضت ثلاثُ سنوات على بعثة النبيّ ﷺ كلّفه الله تعالى بأن يبلّغ لأبناء عشيرته وقبيلته، وذلك عندما نزل قوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1].

فجمع النبي ﷺ رؤوس بني هاشم وقال: «يا بني عبد المطّلب إنّي والله ما أعلمُ شابّاً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا قد جئتكم به، إنّي قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم».

ولقد كرّر النبي ﷺ العبارة الأخيرة ثلاث مرّات، ولم يقم في كلّ مرّة إلاّ الإمام علي عليه السلام ، الّذي أعلن عن استعداده لمؤازرة النبي ﷺ ونصرته، وفي المرّة الثالثة قال النبيّ ﷺ: «إنّ هذا أخي ووصيِّي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا».[2]

---

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. مسند أحمد: ١/ ١٥٩؛ تاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٦؛ تفسير الطبري (جامع البيان: ١٩/ ٧٤ـ ٧٥).

ب. حديث الغدير

و من جملة التنصيص على الخليفة نصّ النبيّ ﷺ علىٰ عليّ عليه السلام في محتشد عظيم في منصرفه من حجّة الوداع في أرض تعرف بغدير خم، حيث قال: «ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله وانّ الساعة آتية لا ريب فيها؟».

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال ﷺ: «فإنّي فرطٌ (أي أسبقكم) على الحوض (أي الكوثر)، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين؟».

فنادىٰ منادٍ: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال ﷺ: «الثَقَلُ الأكبر كتابُ الله طرف بيد الله عزّ وجلّ وطرف بأيديكم فتمسَّكوا به لا تضلُّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصّروا عنهم فتهلكوا».

ثمّ أخذ بيد «عليّ» فرفعها حتى رؤي بياضُ آباطهما فعرفه القوم أجمعون فقال ﷺ: «أيُّها الناس من أولى النّاس بالمؤمنين من أنفسهم؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال ﷺ: «إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه».

ثمّ قال ﷺ: «اللّهمّ والِ من والاه، وعاد من عاداهُ، وأحِب من أحبَّهُ وأبغضْ من أبْغَضَهُ، وانُصر مَنْ نَصَرَهُ، واخْذُل مَنْ خَذَلَه، وأدر الحقَّ معه حيث ما دار، ألا فليُبَلِّغ الشّاهد الغائبَ».

حديث الغدير من الأحاديث المتواترة

إنّ حديث الغـدير من الأحاديث المتواتـرة، وقد رواه العديد مـن الصحابة والتابعين والمحدثين في كلّ قرنٍ بصور متواترة.

فقد نقل حديثَ الغدير ورواه (١١٠) من الصحابة، و(٨٩) من التابعين، و(٣٥٠) من العلماء والمحدّثين، وفي ضوء هـذا التواتر لا يبقى أيُّ مجالٍ للشكِ في أصالة وصحّة هذا الحديث.

كما أنّ فريقاً من العلماء ألّفـوا كتباً مستقلّة حولَ حديث «الغـدير» أشملُها وأكثرُها استيعابـاً لطرق وأسناد هذا الحديث كتابُ «الغدير» للعـلاّمة الشيخ عبد الحسين الأميني (١٣٢٠ـ ١٣٩٠هـ).

***

٢. تسمية هـؤلاء بالشيعة تـرجع إلى نفس النبي ﷺ فلاحظـوا تفسير الدر المنثور في سـورة البيّنة في تفسير قولـه تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ**﴾ ، حيث قال النبي ﷺ: هم علي وشيعته.

هـؤلاء نـواة التشيّع وقـد نمت بعـد رحيل الـرسـول ﷺ بفضل الصحـابة والتابعين وتابعي التـابعين إلى يومنا هذا. ولهم دول وحكومات وجـامعات علميّة ومساهمات كثيرة في الحضـارة الإسلامية وكتـب و آثار عظيمة ومكتبـات ضخمة وقد خدموا الإسلام والمسلمين في كافة الحقول.

هذه لمحة إجمالية للشيعة ولنجب الآن عن ما طلبتموه من إعطاء المعلومات حول الأُمور التالية:

١. كتبتم : «لديّ بعض المعلومات والنصـوص التي قرأتها من خلال كتب الشيعة».

كنت أود أن أتعرف على تلك الكتب التي قرأتموها لأقف على مدى معلوماتكم الصحيحة بالنسبة إلى الشيعة الإمامية.

٢. كتبتم: «**أن تكون الاجابة لكم صريحة بدون اللجوء إلى مبدأ التقية**».

نوضح لكم انّ مبدأ التقية عند الشيعة هو في حالة الخوف على النفس والنفيس، وهو أمر يتحقق عند الضعف، وأمّا في الحالات الطبيعية واستتباب الأمن فلا معنىً للتقية، وأنا اقسم بالله تبارك و تعالى ﴿**وانّه لقسم لو تعلمون عظيم**﴾ انّه لم يكتب كتاب عبر القرون على نمط التقية بل كلّ من كتب من علمائنا الشيعة سواء أصاب أم أخطأ فإنّما كتب فيما يراه واعتقده.

٣. **ذكرتم وقرأتم في إحدى الكتب: «انّ الإمام آية الله الخميني ﵀ كفّر صاحبي رسول الله ﷺ وهذا واضح في كتابه كشف الأسرار، ص١١١ و ١١٤ و١١٧ ويسميهما صنمي قريش...الخ»**.

إنّ التعتيم الاعلامي لم يزل سائداً على الشيعة إلى يومنا هذا، وقد نسبوا إليهم أُموراً لا حقيقة لها، و من هذه الأُمور ما نقلتموه عن أحد الكتب.

إنّ الإمام الخميني ﵀ كتب كتابه كشف الأسرار (عام ١٣٦٣هـ.ق/ ١٩٤٤م) وهو كان ممن يحمل هموم المسلمين منذ شبابه حتى لقاء ربه، وقد قام بعض أصحاب الأقلام المشبوهة بترجمة كتابه (كشف الأسرار) ترجمة مزوّرة ومحرفة ولم يراع الأمانة العلمية، فأدخل فيه أشياء لتشويه سمعة الثورة الإسلامية التي فجّرها الإمام الخميني ولم تزل تشع وتدعو الأُمة إلى الوحدة ورصّ الصفوف، فالترجمة التي اعتمدتم عليها، ترجمة مزوّرة ومحرفة، فلأجل أن تثقوا بما ذكرت أودّ أن ترسلوا إلي تلك الصفحات حتى أرسل إليكم ما كتبه السيد في تلك المواضيع باللغة الفارسية المطبوعة، وبإمكانكم التطابق بين النسختين عن طريق من يجيد، اللغتين العربية و الفارسية في جامعة أهل البيت في الأُردن الهاشمي وغيرها كي

تصدقوا بأنّ التعتيم الإعلامي لم يزل قائماً بين المسلمين للحيلولة دون الوقوف على عقائد هذه الطائفة الكبيرة والمظلومة.

٤. قلتم: «تعتقد الشيعة الإمامية انّ حكام أهل السنة وقضاتهم طواغيت...».

تعتقد الشيعة بأنّ القضاة المنصوبين من قبل السلطة الظالمة لا يجوز التحاكم إليهم من غير فرق بين كون القاضي شيعياً أو سنياً أو غير ذلك، و المنصوب من قبل الحكومات الغاشمة كالأمويين والعباسيين، لا يصحّ التحاكم إليهم لأنّهم ليسوا بعدول.

٥. ذكرتم: «تكفير الشيعة للسنّة...».

هذه النسبة غير صحيحة، وهذه كتب الشيعة في تفسير معنى الإسلام والإيمان، وقد اتّفقوا على أنّ أركانهما عبارة عن الإيمان بالله تبارك و تعالى ورسالة النبي ﷺ والإيمان بيوم المعاد، وعلى ذلك جروا في كتبهم العقائدية والفقهية. والمسلمون ـ بحمد الله ـ كلّهم شيعيّهم وسنّيهم متظلّلون تحت ظلال الإسلام والإيمان.

هذا هو الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام يروى عن النبي ﷺ قال: أمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فإذا قالوا حرمت عليّ دماؤهم وأموالهم.[1]

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «الإسلام شهادة أن لا إله إلاّ الله والتصديق برسول الله، به حقنت الدماء...».[2] وقد كتبنا كتاباً مستقلاً حول الإيمان و الكفر في الكتاب والسنة وبيّنا حدودهما.

---

١. بحار الأنوار:٦٨/ ٢٤٢.

٢. بحار الأنوار:٦٨/ ٢٤٣.

٦. كتبتم: «حول سبّ صحابة رسول الله ﷺ على منابر المساجد...».

إنّ الصحابة تطلق على كلّ من رأى النبي ﷺ مرة أو مرات، أو عاشره ولو لفترة قليلة، وهم علىٰ طوائف.

منهم: من قضى نحبه في العهد المكّي مثل ياسر و سميّة.

ومنهم: من استشهد بعد الهجرة في بدر و أُحد والأحزاب ومؤتة، مثل: عبيدة بن الحارث في بدر، وحمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله في أُحد، وسعد بن معاذ في الأحزاب، وجعفر الطيار وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة في مؤتة.

ومنهم: من بقي بعد رحيل الرسول شاركوا في نشر الإسلام والجهاد في سبيل الله.

فهل يتصور انّ أحداً يمتلك شيئاً من العقل يسبّ هؤلاء الأماثل وقد انتشر الإسلام بفضلهم وجهودهم، وفيهم روّاد التشيع الحاملون رسالة التنصيص.

إنّ مسألة سبّ الصحابة تحوير لمسألة كلامية أُخرى، وهي كون كلّ صحابي عادلاً، والشيعة تعتقد بأنّ حكم الصحابة كحكم التابعين من غير فرق بينهما، إلاّ من جهة التشرف برؤية النور النبوي والانتهال من نمير علوم المصطفى ﷺ، وليس هنا أيّ دليل على أنّ صحابة النبي ﷺ الذين يتجاوز عددهم مائة ألف، كلّهم عدول، مع انّا لا نعرف أسماء أكثرهم فضلاً عن أعيانهم، والمسجّل من أسمائهم لا يتجاوز عن خمسة عشر ألف صحابي، والإمعان في القرآن يثبت نظرية الشيعة، فلاحظوا سورة الحجرات الآية ٦ وغيرها.

٧. كتبتم: «انّ الشيعة تعتقد بتحريف القرآن المجيد».

أقول: إنّ أعيان الشيعة الإمامية الذين يؤخذ بقولهم ورأيهم في مجال العقيدة الإسلامية قالوا بصيانة القرآن عن التحريف وعلى سبيل المثال: الفضل بن

شاذان (٢٦٠هـ)، و الشيخ محمد الصدوق (٣٨١هـ) في كتابه «عقائد الإمامية»، والشيخ المفيد (٤١٣هـ) في أجوبة المسائل السروية، والسيد المرتضى (٤٣٦هـ) في كتبه، والشيخ أبو جعفر الطوسي (٤٦٠هـ) في كتابه التبيان في تفسير القرآن، والشيخ أبو علي الطبرسي (٥٤٨هـ) في تفسيره مجمع البيان، إلى غير ذلك....

نعم وردت روايات في كتب الحديث عند الشيعة والسنة على حدّ سواء تتحدث عن طروء التحريف على القرآن الكريم. وهي أخبار آحاد ليست حجّة في مجال العقائد، وما أشرتم إليه من كتاب للشيخ الحسين الطبرسي تنتهي رواياته إلى أشخاص ضعفاء في الرواية لا يعتمد على رواياتهم كالسيّاري وعلي بن أحمد الكوفي... وقد كتبت الشيعة ردوداً على هذا الكتاب منذ طبعه إلى الآن، أخص بالذكر كتاب «صيانة القرآن الكريم من التحريف» للعلاّمة الحجّة محمد هادي معرفة ـ مدّ ظله ـ و لنا أيضاً رسالة في نقد هذا الكتاب طبعت في مقدمة طبقات الفقهاء.

إنّ وجود الرواية في كتاب الكافي للكليني ليس دليلاً على العقيدة، وإلاّ فانّ روايات التحريف موجودة حتى في صحيح البخاري كحديث عمر عن الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما نكالاً من الله....[1]

قد نقل القرطبي في تفسير سورة الأحزاب عن السيدة عائشة أُمّ المؤمنين انّ سورة الأحزاب كانت أكبر من سورة البقرة، لاحظو ذلك التفسير.

وقد ألّف أحد علماء الأزهر كتاباً باسم «الفرقان في تحريف القرآن» وقد طبع وانتشر ولدي نسخة منه.

والمحقّقون من علماء السنة والشيعة لا يقيمون لهذه الكتب وزناً ولا قيمة.

---

١. راجع : صحيح البخاري:٨/ ٢٠٨ـ ٢١١، باب رجم الحبلى؛ صحيح مسلم: ٤/ ١٦٧ و ج٥/ ١١٦، طبعة محمد علي صبيح ؛ مسند أحمد: ١/ ٢٣ و ج٥/ ١٣٢ و١٨٢، طبعة دار الفكر.

وفرض القول بالتحريف على السنة والشيعة ليس لصلاح الأُمة، وإنّما هو لصالح الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين.

اعتذر إليكم من عدم التفصيل في بعض المجالات، لأنّ بعض هذه المواضيع رهن كتاب مستقل. وأرجو أن تكون رسالتي لكم مزيلة لبعض الابهامات والشبهات ونحن أيضاً على استعداد على أن نجيب مرّة ثانية لو كانت عندكم استفسارات.

٨. ذكرتم: «انّ لكم اهتماماً بالشعر...».

إنّ الشعر الهادف أمنية كلّ مفكر إسلامي، يوقظ به الأُمّة، ويدعم الصحوة الإسلامية، ويندد بالظالمين، ويصوّر الوقائع على ما كان، لا على ما يريد، و لهذه الغاية أبعث إليكم قصيدة حول حديث الطفّ لشاعر إيراني أرجو قراءتها بالدقة و الإمعان، وتوضيح لغاتها، وشقِّ مفاهيمها وقد جرى في قريضه على نهج الشعر الجاهلي.

وقياماً وعملاً بما قاله الإمام الصادق عليه السلام «أحبّ إخواني إلي من أهدىٰ إليَّ عيوبي». انبِّه على بعض ما جاء في رسالتكم من بعض الكلمات وليس ذلك إلاّ من هفوات القلم.

ص ١، س٨ «ولدي اهتماماً شديداً» والصحيح: اهتمام شديد.

ص ٢، س ١٦ «عن أبوه محمد الباقر» والصحيح: عن أبيه.

وفي الختام أتمنىٰ لكم التوفيق والسعادة، وللمسلمين وحدة الكلمة وقد بني الإسلام على كلمتين: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة.

والسّلام عليكم ورحمة الله

جعفر السبحاني

إيران ـ قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الرسالة العاشرة

جواب رسالة حول الشيعة
أُصولها وعقائدها
٢



أُختي في الله ابتسام سالم زبن العطيات

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقد وافتنـي رسالتك المؤرخـة ١٥ جمادى الأُولى ١٤١٩هـ، وهـي تكشف عن عنايتك بالبحث عن الحقيقة ، وتجردك عن التعصب، ولا شكّ انّ الموضوعية هي مفتاح كشف الحقيقة، وقد طرحتِ فيها عـدة أسئلة أقوم بالإجابة عليها بنحو موجـز وأُحيل التفصيل إلى الكتب التي سـأُشير إليها في آخـر الرسالـة أو أرسلها إليك مرفقة بها.

١. جاء في رسالتك انّ الدكتور موسى الموسوي نقل انّ الإمام الخميني أدخل اسمه في الأذان....

الجواب: انّ الدكتور المذكور قد انتقل إلى الدار الآخرة ولا أقول في حقّه شيئاً عملاً بالحديث المعروف: «اذكروا موتاكم بخير» ولكنّه ـ سامحه الله ـ قد افتعل و افترى وبإمكانكم الاستماع إلى أذان إذاعة الجمهورية الإسلامية ليلاً ونهاراً.

نعم الشعار الثوري للأُمّة المسلمة الإيرانية في غير الأذان والإقامة هو«الله أكبر، خميني رهبر» ولا صلة لهذا الشعار بهما و إنّما يهتفون بها في ساحات الوغى وفي التظاهرات الشعبية، والعجب انّ الملك خالد عاهل المملكة السعودية آنذاك طرح هذا السؤال على الإمام الخميني ﷺ فأجاب بقوله: معاذ الله أن يدخل مسلم في الشريعة ما ليس منها فانها بدعة محرمة لا يخضع لها الشعب المسلم.

٢. صلاة الجمعة تقام في حضور الإمام وفي غيبته، وهي صلاة عبادية سياسية مقرونة ولا يقام إلاّ بإذن الإمام المعصوم أو الفقيه العادل الجامع للشرائط، ولذلك فالشيعة في عصر الغيبة تقيم صلاة الجمعة في جميع المدن والقرى، ومن قال بأنّ الشيعة عطلت صلاة الجمعة فهو مفتر لا يقام لكلامه وزن ولا قيمة.

وبإمكانكِ الرجوع إلى مبحث الأذان وصلاة الجمعة من كتاب «تحرير الوسيلة» ، وهو كتاب فقهي للإمام الخميني في جزءين كبيرين يوجدان في الملحق الثقافي للسفارة الإيرانية في الأُردن .

أُختي في الله لقد وظّف الجهاز الحاكم في عصر الأمويين والعباسيين ومن والاهم إلى يومنا هذا وسائل الأعلام بغية الافتراء على الشيعة وتشويه سمعتها بما لا يسع المجال لذكر معشار ما ارتكبوه من الأعمال في حقّ الشيعة، ونعم الحكم الله.

٣. مسألة الإمام المهدي عليه السلام أصل اعتقـادي اتّفق عليها المسلمـون، وانّه يظهر في آخـر الزمان ليملأ الأرض قسطـاً وعدلاً بعدمـا مُلئت جوراً وظلماً، وإنّما الاختـلاف بين الشيعة والسنـة في أمر آخـر، وهو انّ الشيعـة تعتقد بـولادته عـام ٢٥٥هـ في سامـراء و عـاش في أحضان والـده ووالدتـه خمس سنين وغـاب عن الأبصار بعد وفاة أبيه عام ٢٦٠ بأمر من الله سبحانه وهو حيّ يرزق في هذا العالم، وليس هذا ببعيد عن قدرته تبارك و تعالى .

وقد أرشـدنا القـرآن الكريم إلى أنّ لله سبحـانه حجّتين ظـاهرة وغـائبة في عصر واحد، أمّا الظاهرة فكموسى عليه السلام ، وأمّا الغائبـة فكمصاحبه الخضر عليه السلام الذي لم يكن مـوسى يعرفه و إنّما تعرّف عليـه بتعريف من الله سبحانـه، وقد نهل من معين علمه على ما ورد في سورة الكهف الآيـة (٦٠ـ ٨٢) فقد كان مصاحب موسى وليّاً من أوليائه سبحانه متصرفاً في أُمور الناس و لم يكن الناس يعرفونه.

فالإمام المهدي عليه السلام من تلك الفئة إمام غائب عن الأبصار متصرف في أُمور الناس قـائم بوظائف الإمـامة وإن كان النـاس لا يعرفـونه وسيظهر بأمـر من الله سبحانه، و هومصلح كبير وعد الله بـه الأُمم وأخباره متفشية في العهدين وغيرهما، مضافاً إلى الأحاديث النبوية المتواترة التي نقلها علماء الفريقين .

٤. مدينة قـم مدينة مقدسـة فيها مدفن كريمـة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة بنت الإمام موسى بن جعفر بن محمد الباقر بن الإمام زين العابدين بن الحسين بن علي ابن أبي طالب عليهم السلام و في تلك البلدة الطيّبـة ضريحها وضريح العديـد من أعلام الشيعـة من القرن الثـاني إلى يومنـا هـذا من المحدّثين الكبـار والفقهاء العظـام، وقامت فيها جامعـة إسلامية كبيرة زهت بالعديد من طلاّب العلم والمعـرفة يربو عددهم إلى ثلاثين ألف طالب.

وتُدرس في هذه الجامعة مختلف العلوم الإسلامية وفيها أيضاً جامعة أُخرى

للبنات تدعىٰ جامعة الزهراء عليها السلام تتقاطر إليها الطالبات من مختلف الأمصار الإسلامية.

ومؤسسة الإمام الصادق عليه السلام فرع من تلك الجامعة الكبيرة الأُولى التي تختص بالدراسات الكلامية حيث تزوّد خريجيها بشهادات عليا مضافاً إلى ما تقوم به من نشر التراث الإسلامي وسدّ الفراغ بتأليف الكتب الدراسية ، والتبليغية .

٥. الزواج بين المذاهب الإسلامية جائز والمسلم كفء المسلم بلا فرق بين فرقة وأُخرى فما دام الجميع يتمسكون بأهداب الإسلام و يشهدون بتوحيده سبحانه ورسالة نبيّه الخاتم ويوم جزائه فالجميع على حد سواء.

٦. ذكرتم شيئاً من الاحتفالات التي تُقام في الأُردن حول ضريح سيدنا جعفر بن أبي طالب عليه السلام في مدينة الكرك الأُردنية، ولكنّها نموذج صغير بالنسبة إلى ما يقام في العراق وإيران من الاحتفالات، فهو فوق أن يذكر، والهدف من ورائها إحياء المنهج الذي رسمه السبط الأطهر حسين العظمة، حسين الإباء والشهادة، حسين التضحية، فهو منهج حي ومبدأ قيّم يجب الحفاظ عليه ليشبّ عليه الصغير ويهرم عليه الكبير، وليترنّم الجميع بكلامه عليه السلام الخالد «انّ الحياة عقيدة وجهاد» فالاستسلام أمام العدو الغاشم على النقيض من منهج الحسين الثوري .

ولو كان منهج الحسين سائداً بين أوساط المسلمين لما عمّهم الذل والهوان ولما اغتُصِبت أراضيهم من قِبَل شُذّاذ الآفاق.

وقد بعثنا إليكم مع الرسالة السابقة قصيدة حول ثورة الحسين عليه السلام وطلبنا منك تفسيرها وتشقيق معانيها والتي كانت مطلعها.

أناخت على قلبي الكآبة والكرب	عشية زمّ العيسَ للظَّعنِ الركبُ

إلى أن قال:

رزّيةٌ قوم يمّموا أرض كربلا   فعاد عبيراً منهم ذلك التُّربُ

٧. غسل الرجلين أو مسحهما في الوضوء مسألة فقهية اختلفت فيها آراء السنة و الشيعة، فأغلب السنّة على الغسل والشيعة على المسح وكتاب الله معهم والمستفاد من ظاهره انّ الوضوء «غسلتان » و «مسحتان» كما قاله ابن عباس، وصبّه بحر العلوم في قالبٍ شعري في منظومته المسماة بالدرة النجفية حيث قال:

انّ الوضوء غسلتان عندنا   ومسحتان والكتاب معنا

قال سبحانه:

﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [١].

وقال:

﴿فَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ﴾ [٢].

فالشيعة تقول بانّ لفظ الأرجل معطوف على الرؤوس سواء قُرئ بالجر فيكون معطوفاً على اللفظ، أو بالنصب فيكون معطوفاً على المحل، لأنّ الرؤوس مفعول ومحلّه النصب، فكلتا القراءتين مطابقتان للقواعد العربية، وعلى ذلك فيجب المسح على كلتا القراءتين.

وأمّا السنة القائلون بالغسل فقد وقعوا في ورطة عجيبة في تفسير القراءتين حتى اعترف قسم كبير منهم بأنّ ظاهر الآية هو المسح وذلك:

بما انّهم يقولون بغسل الأرجل فقد مالوا يميناً و شمالاً في تفسير قرائتي الجرّ والنصب فقالوا:

على قراءة الجرّ ـ فهومجرور بالجوار ـ مكان القول بأنّه معطوف على لفظ

---

١ و ٢. المائدة: ٦.

الرؤوس ـ نظير قول الشاعر: «جحر ضبّ خرب» فلفظ «خرب» خبر يجب أن يرفع لكنّه صار مجروراً لوقوعه في جوار «ضب» المجرور، وعلى قراءة النصب فهو منصوب لانّه معطوف على «أيديكم» في الجملة المتقدّمة.

والتأمل في التفسير يثبت بطلان النظرين.

أمّا الجرّ: فالتفسير الصحيح انّه معطوف على الرؤوس، لا الجرّ بالجوار وذلك انّ الجر بالجوار أمر شاذ في لغة العرب وربما تدعوا الضرورة إلى هذا النوع من الجرّ، ولا يصحّ لنا تفسير كلام الله على ضوء تلك القاعدة الشاذة، مضافاً إلى انّ الجرّ بالجوار إنّما يصحّ إذا لم يكن هناك التباس كما في البيت إذ من المعلوم انّ الخرب وصف لجحر لا لضبّ. بخلاف الآية فانّ الجر بالجوار يوجب الالتباس إذ القارئ يتصور انّه معطوف واقعاً على الرؤوس فتكون النتيجة هو المسح عليها مع أنّ الفرض أنّها معطوفة على الأيدي.

وأمّا قراءة النصب فالإشكال أوضح، فأهل السنة تذهب إلى أنّها معطوفة على الأيدي الواردة من الجملة المتقدمة مكان العطف على الرؤوس التي هي بجنب «أرجلكم» وهذا شيء لا يرضى به الخبير بأساليب اللغة العربية فمثلاً إذا قال:

أكرمت زيداً وعمراً.

ثمّ قال:

ضربت بكراً وخالداً.

فهل يخطر ببال أحد انّ «خالداً» عطف على «عمراً» بل الجميع يقولون إنّه عطف على «بكراً».

وفي الآية فعلان: أحدهما: ﴿اغسلوا﴾ و له مفعولان : الوجوه والأيدي.

والثاني: ﴿فامسحوا﴾ وقد جاء بعده أمران: الرؤوس والأرجل.

أفيصح أن نقول بأنّ الأرجل ليست معطوفة على الرؤوس بل معطوفة على الأيدي مع أنّه وقع بين المعطوف والمعطوف عليه جملة معترضة يغاير فعلها ﴿فامسحوا﴾ مع فعل الجملة الأُولى ﴿اغسلوا﴾.

والعجب انّكِ طرقتِ كلّ باب إلاّ باب القرآن فما رجعتِ إليه حتى تأخذ حكم الله من الآية المباركة.

وأمّا حديث عبد الله بن عمر فهو على خلاف الغَسْل أدل إذ جاء فيه قول ابن عمر «نتوضأ ونمسح على أرجلنا» أفيمكن أن يتوضأ ابن عمر ويمسح رجليه ـ و هو في أحضان النبي ﷺ وبمرأى ومسمع منه ﷺ ـ من جانب نفسه، وهذا يدل على انّ عمل الصحابة كان على المسح.

وأمّا الجملة الأخيرة «ويل للأعقاب من النار» فليس فيها دلالة على وجوب الغسل عند الوضوء، بل الويل، لأجل انّ الأعراب كانوا عراة حفاة بوالين على أعقابهم من دون مبالاة بإصابة البول لها، فكانوا يمسحون على الأرجل النجسة، فناداهم النبي ﷺ بقوله: «ويل للأعقاب من النار». إذ كان عليهم أن يغسلوا أعقابهم أوّلاً ثمّ يمسحوا عليها.

ولعمر الحق لو كان النبي ﷺ بصدد بيان الحكم الشرعي وهو انّ الواجب في الأرجل هو الغسل لا المسح كان عليه أن يعبّر عن تلك الحقيقة بعبارة واضحة وينادي بقوله: أيّها المسلمون اغسلوا أرجلكم ولا تمسحوا بها، من دون أن يتفوّه بكلمة لا يفهم منها الغسل إلاّ بتفسير النووي وغيره.

كلّ ذلك يدل على أنّ الحديث على فرض صحته يعني أمراً آخر كما ذكرنا، وعلى تقدير دلالته على الغسل فما قيمة حديث يعارض الذكر الحكيم ولا يصحّ

نسخ الكتاب بخبر الواحد لا سيما انّ الآية في سورة المائدة وهي آخر سورة نزلت في المدينة.

٨. مسألة الخلافة عن رسول الله ﷺ مسألة عصيبة إذ ما سُلّ سيف بين المسلمين مثلما سُلّ في أمر الإمامة، فلنترك هذا البحث إلى ذمّة التاريخ والحديث وعلم الكلام.

ويكفيك في ذلك مراجعة كتاب «العقيدة الإسلامية» ففيه من الدلائل المشرقة على انّ الخلافة بعد رسول الله ﷺ منصب تنصيبي لا اختياري ولا انتخابي، وقد قام النبي ﷺ بنصب خليفته تارة في بدء الدعوة، وأُخرى في غزوة خيبر حيث شبه علياً بهارون وأثبت له جميع المناصب إلّا النبوة، وثالثة عند منصرفه عن حجّة الوداع حيث قام في غدير خم بتنصيب علي عليه السلام للخلافة والقيادة بأمر من الله سبحانه الواردة في الآية التالية:

﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَإِنْ لَمْ تَفعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾ [1] و قد نقل غير واحد من أعلام السنة نزولها في غدير خمّ.

أنشدكِ بالله ما هذا الموضوع الذي كان عدم تبليغه بمنزلة عدم تبليغ الرسالة بأجمعها؟! وهل يصح تفسير الآية بابلاغ الأحكام الشرعية؟ كلاّ ،لا، بل لابدّ من تفسيرها بأمر خطير يعد دعامة للإسلام ، ورمزاً لبقائه وليس هو إلاّ تعيين الخليفة والوصيّ من بعده وان أثار حفيظة الآخرين وقد قال سبحانه: **﴿والله يعصمك من الناس﴾**.

وبما انّ الموضوع ذو شجون أكتفي بهذا المقدار وألفت نظرك إلى موضوع التقريب ونقول:

---

١. المائدة: ٦٧.

لقد قرأت مقالك في صحيفة الدستور وأعجبني اهتمامك بمسألة التقريب التي هي أهمّ الأُمور في هذه الأعصار.

كيف والمسلمون يد واحدة وما يجمعهم أكثر مما يفرّقهم، ونحن كما يقول شاعر الأهرام:

انا لتجمعنا العقيدة أُمّة ويَضمُنا دينُ الهدى أتباعا

ويؤلّف الإسلام بين قلوبنا مهما ذهبنا في الهواء أشياعا

كما وكتبت في رسالتك الأُولى بأنّ الإمام الخميني سمّى الخليفتين بصنمي قريش في كتابه كشف الأسرار، ص ١١١، ١١٤، ١١٧ ولم أجد في الصفحات المستنسخة التي أرسلتِها إليّ شيئاً من تلك الكلمات.

نعم جاء في التعليقة للمترجم، ص ١٢٦ «انّ الخميني وشيعته ينعتان الخليفتين بصنمي قريش» والتعليقة لا يحتج بها لا سيما و انّ كاتبها قد ملأ كتابه بالسب و الشتم على المجاهد الذي أفنى عمره في الذبّ عن حياض الإسلام، ومكافحة الاستعمار والصهيونية وتأسيس دولة إسلامية متكاملة الجوانب.

وانّي بما أنا شيعي وقد ناهزت من العمر ٧٣ عاماً وألّفت ما يفوق المائة كتاب لم أجد تلك الكلمة في كتاب وإنّما سمعته من شيخ سعودي كان ينسبه إلى الشيعة.

وأمّا الأمر الثاني الذي طلبتِ منّا وهو مصدر قول الخليفة ــ حينما طلب رسول الله ﷺ القلم والدواة ـ قال الخليفة: لقد هجر رسول الله ﷺ وقد ذكرتِ في ظهر الصفحة المستنسخة ما رواه البخاري في باب مرض النبي ﷺ وفيها قوله، فقال بعضهم: انّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله. [1].

---

١. البخاري: ٥/ ١٣٨.

ثمّ كتبتِ : لا نـرى إشارة إلى انّ سيدنا عمـر بن الخطاب (رضي الله عنه) قـال ما ورد في كتاب كشف الأسرار.

أقول:انّ البخـاري نقل الحديث في غير مـوضع من كتـابه و إليك الصـور الأُخرى.

٢. روى البخـاري في الجزء الأوّل، بـاب كتـابـة العلم مـن كتـاب العلم، ص٣٠، مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي، مصر، الحديث التالي:

عن ابن عباس، قال: لما اشتدّ بالنبيّ ﷺ وجَعُه، قال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتـاباً لا تضلّـوا بعـده، قال عمـر: انّ النبي غلبه الـوجع وعنـدنا كتـاب الله حسبنا، فاختلفوا وكثر اللغط.

قال ﷺ: قوموا عني .

تجد انّ الحديث ينص على انّ القائل بانّ النبي ﷺ غلبه الوجع هو عمر بن الخطاب.

وبذلك يعلـم انّ المراد من البعض فيما رواه البخاري في بـاب مرض النبي ﷺ هو نفـس عمر بن الخطاب غير انّـه صرح باسم القـائل في باب كتابـة العلم وكنىٰ عنه بـ «البعض» في باب مرض النبي ﷺ كما نقلتِ.

٣. روى البخاري في الجزء الرابـع، باب جوائز الوفد من كتـاب باب فضل الجهاد و السير، ص ٦٩ و٧٠، الحديث بالنحو التالي.

عن ابن عبـاس انّه قـال: اشتدّ بـرسول الله ﷺ وجعه يـوم الخميس فقال: ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً.

فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبي ﷺ تنازع، فقالوا: هجر رسول الله ﷺ .

وعلى ذلك فالبخـاري نقل الحديث بهذه الصور الثلاثـة التي يفسر بعضها بعضاً.

ففي باب كتابة العلم قال عمر: انّ النبي غلبه الوجع

وفي باب مرض النبي ﷺ قال بعضهم: انّ رسول الله قد غلبه الوجع.

وفي باب جوائز الوفد، فقالوا: هجر رسول الله.

فقد صرح البخاري باسم القائل في الأوّل دون الثاني والثالث، ومنه يعلم انّ القائل واحد.

والظاهر انّ اللفظ الصادر هو: «هجر رسول الله» ولكن البخاري غيّره إلى قوله :«قد غلبه الوجع» تهذيباً للعبارة وتقليلاً للاستهجان.

ولأجل ذلك لما رواه أبو بكر الجوهري في كتاب السقيفة أشار إلىٰ تلك النكتة في نقله، وقال: لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب، قال رسول الله : ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده، قال: فقال عمر كلمة معناها «انّ الوجع قد غلب علىٰ رسول الله ثمّ قال: عندنا القرآن حسبنا كتاب الله».

هذا ما في البخاري.

وأمّا مسلم فقد رواه في صحيحه بصور ثلاث:

الصورة الأُولى: ... اشتد برسول الله ﷺ وجعه فقال: ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي فتنازعوا وما ينبغي عند نبي التنازع.

وقالوا: ما شأنه؟ أهجر؟ استفهموه؟، قال: دعوني.

الصورة الثانية: قال رسول الله ﷺ: ائتوني بالكتف والدواة أو اللوح والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً.

فقالوا: انّ رسول الله يهجر.

الصورة الثالثة: فقال النبي ﷺ: هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلون بعده.

فقال عمر: إنّ رسول الله قد غلب عليه الوجع و عندكم القرآن حسبنا كتاب الله.

(صحيح مسلم، الجزء الرابع، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له

شيء يوصي فيه، ص ٧٥ـ٧٦، طبعة مصر، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده).

فبمقارنة هـذه الأحاديث بعضها ببعض يعلـم انّ القائل في الحديث الأوّل (ما شأنه أهجـر، استفهموه) و الحديث الثاني (انّ رسول الله يهجـر) هو القائل في الحديث الثالـث الذي صرح مسلم باسمـه(انّ رسول الله قد غلب عليـه الوجع، وعندكم القرآن).

ويعلم أيضاً انّه عنـدما كان التعبير مستهجناً كنوا بالقـائل، و عندما كان خفيف الـوطأة صرحوا بـاسمه، وإن كـان التعبير الثاني (قـد غلبه الـوجع) نفس التعبير بانّه (هجر) نظير قول القائل: (أنت أو ابن أُخت خالتك).

ثمّ إنّ هنا سؤالاً يطـرح نفسه وهو، لما ذا حال الصحابـة العدول بين النبي ﷺو أُمنيّته، ولماذا منعوه من كتابة، كتابه، وما هو السر وراء ذلك؟!

والجواب يفهمـه كلّ مـن لـه إلمام بالحوادث الـواقعـة قبـل وفـاة النبي ﷺ وبعده.

فدع عنك نهباً صيح في حجراته ولكن حديثاً ما حديث الرواحل

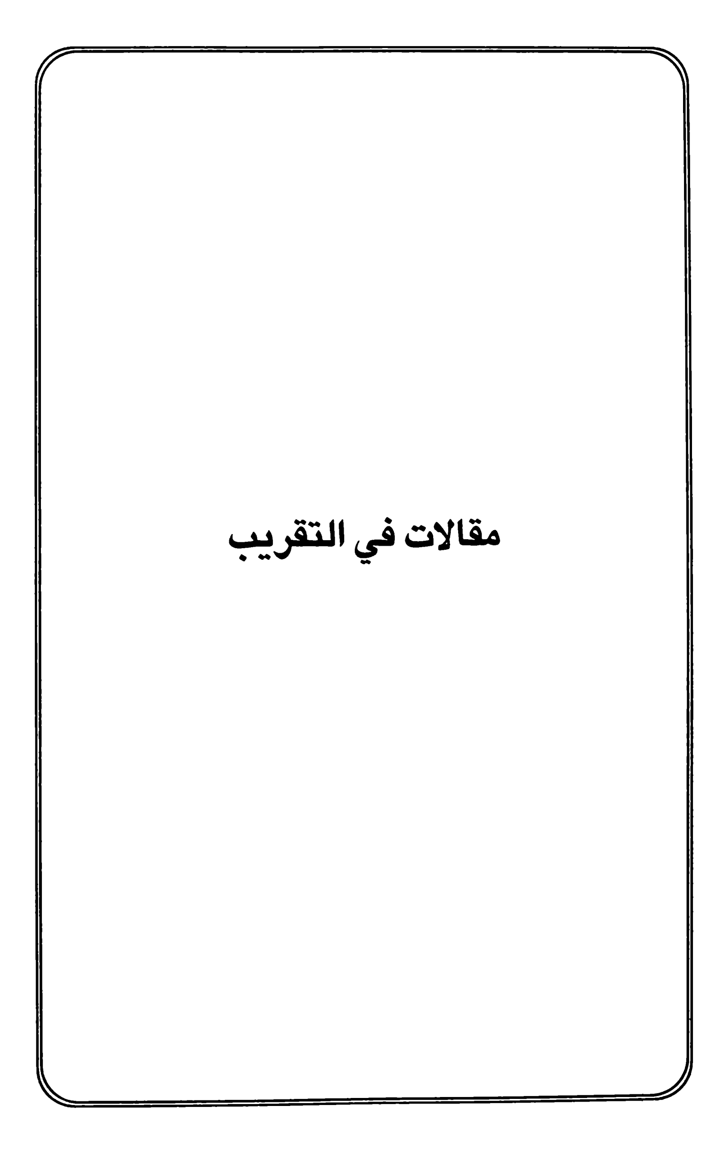
ثمّ هل يصحّ لمسلم واع أن يقول: حسبنا كتاب الله، وهل كتاب الله الأعظم واف بتفاصيل التشريع؟!

هـذا قليل من كثير قـدمته إليـكِ نزولاً عنـه رغبتكِ، وإن كـان إثارة هـذه المسائل تـوجب الخدشة في العـواطف وتشتت الصفوف، ولكـن إصرارك الأكيد دفعني إلى كتابة هذه السطور.

رزقنا الله توحيد الكلمة كما رزقنا كلمة التوحيد

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام



مقالات في التقريب

المقالة الأولى

التقريب ضرورة دينية وخطوة مباركة [1]

التقريب بين الطوائف الإسلامية من الأماني العزيزة، التي يتمنّاها كلّ مسلم واع بصير، خصوصاً في الأوضاع الراهنة، والأجواء السائدة على المسلمين،والظروف المحيطة بهم في شتى النواحي والأقطار، ولا يشك في ضرورته إلاّ اثنان: جاهل مغفّل، وجاحد معاند ماكر. إذ لا يمرّ على المسلمين يوم إلاّ وفيه مجازر رهيبة،وحروب دامية طاحنة، فرضتها عليهم القوى الكافرة، التي تخاف من سيادة الإسلام في ربوع العالم، وانتشاره فيها، فعادتْ تؤجّج نار الحرب بين آونة وأُخرى، فتضرب المسلم بالمسلم تارة، وبالكافر أُخرى فَتحقّق امنيتها الكبرى.

وليس ببعيد عنّا المجازر التي يرتكبها اليوم، الكفار «الأرمن» ضد المسلمين الآذريين في القفقاس، والتي أبرزت ما تكنّه صدورهم من العداء والبغض لهم طوال القرون، فمن أجل السيطرة والتسلّط يقتل الأرمنُ الرجالَ والنساءَ والأطفالَ، ويمثلون بهم، ويجهزون على الجريح، وليس هناك دولة تحمي المسلمين، ولا مغيثُ

---

١. أُلقيت في المؤتمر الدولي الرابع للتقريب بين المذاهب الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة رابع شهر ذي الحجة الحرام، عام ١٤١٢ هـ.

يغيثهم، ولا قوة تـدفع عنهم كارثة الحرب، وتجزي المسيئ بـالجزاء الذي يستحقّه، وغـاية مـا نسمعه من وسـائل الأعلام هـو الاستنكار والمفـاوضات والمذاكـرات (إلى غير ذلك من الأساليب الـدبلوماسية غير الناجعة) التي لا تفيـد شيئاً سوى إعطاء الفرص للعدو وزيادة جرأته.

وأعطف النظـر على المجازر التي ترتكبهـا القوى الكـافرة في «يوغسـلافيا» ضـد المسلمين في «البـوسنـة» و «الهرسـك» فقـد أججّـت نـاراً ضـد المواطنين بحجّة انّهم مسلمون، وراحـت تقتلهم وتبعدهم عن أوطانهم، وتَـذبحهم في عقر دارهم، وتـدمّر مدنهم، إلى غير ذلـك من الأعمال الإجرامية التـي كانت تـرتكبها القـوى الشريرة في القـرون الوسطى، وليـس هناك من يـداوى جروحهـم، ولا من يسعفهم بشيء سـوى الاستنكـارات والخطب الـرنّانـة في وسـائل الإعلام وفـوق المنابر.

ناهيـك عن المجازر الـدامية في فلسطين المحتلة التي يـرتكبها الصهـاينة، لأنّها بمرأى و مسمع من عامة المسلمين.

إنّ هذه الحوادث والـوقائع الأليمة وعشرات من أمثالها، تـدفع المسلمَ الحرّ الـذي يجري في عروقـه دمُ الغيرة والحمية، إلى التفكير في داء مجتمعـه ودوائه، وفي إعادة مجده التالد، وكيانه السابق، فلا يجدْ دواءً ناجعاً سوى التمسك بالإسلام في مجالي العقيـدة والشريعة ومـن أبرز أُصـوله مـا دعـا إليه الـذكر الحكيـم في قولـه سبحانه: ﴿**وَٱعْتَصِمُـوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعـاً ولاٰ تَفَرَّقُـوا**﴾ [١] و قـوله تعـالى: ﴿**إِنّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [٢] إلى غير ذلـك من الآيـات إلى تَحُثّ على الـوحـدة والـوئام، والابتعاد عن التمزّق والتفرّق، وقـد أكد الرسولُ الكريم ما دعا إليـه القرآن بقوله:

---

١. آل عمران: ١٠٣.

٢. الحجرات: ١٠.

«مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». [١]

وقال الإمام علي عليه السلام:

«وألزموا السواد الأعظم، فانّ يد الله مع الجماعة وإيّاكم و الفرقة، فانّ الشاذّ من الناس للشيطان كما أنّ الشاذ من الغنم للذئب، ألا مَنْ دعا إلى هذاالشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه». [٢]

وفي ضوء الوضع الراهن نخاطب المسلمين وفي مقدمتهم الرُؤساء والمشايخ وقادة الفكر وأرباب القلم بقولنا: قاربوا الخطىٰ أيّها المسلمون، وقلّلوا الخلافَ، وأكثروا الوئام، وتمسّكوا بالأُصول المشتركة المتوفرة في مجالي العقيدة والشريعة، ابتعدوا عن التنافر والتناكر، حتى تكونوا صفاً واحداً في وجه الأعداء لا يزعزعكم مكرُ الشياطين وحيلة أعدائهم في المناطق كلّها.

ويطيب لي في المقام أن أُركز على أُمور، ربما يكون لها أثر بارز في حصول التقريب وهي:

١. ما هو المراد من التقريب؟

ليس المراد من التقريب بين المذاهب والطوائف الإسلامية، هو ذوب طائفة في أُخرى، أو جعل جميع المذاهب مذهباً واحداً حتى لا يبقى من المذاهب المختلفة عين ولا أثر ويُصبح المسلمون على مذهب واحد، فانّ ذلك أمر عسير جداً إن لم يكن محالاً عادة، ولا يتفوّه به ذو مسكة، ولا يدعو إليه أحد من القادة، أعني: الذين يحملون لواءَ التقريب، فإنّ معنى ذلك أن يصير الأشعري معتزليّاً أو

١. مسند أحمد: ٤/ ٢٧٠.

٢. نهج البلاغة: ٢٦١، طبعة عبده.

بالعكس ويصبح السني شيعياً أو بالعكس، ومثله المذاهب الفقهية المتوفرة السائدة في العالم الإسلامي.

و إنّما المراد هو التقريب بين القادة للمذاهب وبالتالي بين القادة وأتباعهم، وذلك من خلال رسم الخطوط العريضة المشتركة التي تجمع المذاهب الإسلامية في مجالي العقيدة والشريعة، وانّه لو كان هناك خلاف فيهما فهو بالنسبة إلى الأُمور المتفق عليها قليل جداً. فالله سبحانه ربّنا، والقرآن كتابنا، ومحمد نبيّنا، والكعبة قبلتنا، وسنّة الرسول قدوتنا، وأئمّة أهل البيت خيارنا، إلى غير ذلك من الخطوط التي لا يحيد عنها أيّ مسلم قيدَ شعرة، ومَن أنكر أحدها خرج عن ربقة الإسلام وهذا هو الذي يوحّد المسلمين ويجمعهم تحت راية واحدة، ويجعل شعار الجميع قول الشاعر المخلص (محمد حسن عبد الغني المصري) الداعي إلى تقريب الخطى: الذي يقول:

انا لتجمعنا العقيدة أُمة ... ويضمنا دين الهدى أتباعاً

ويؤلّف الإسلام بين قلوبنا ... مهما ذهبنا في الهوى أشياعاً

فإذا كان النبي ﷺ يقبل إسلامَ من نطق بالشهادتين، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وصامَ شهر رمضان وحجّ البيت [1] ويتلّقاه أخاً لعامة المسلمين، ويجعلهم صفاً واحداً في مقابل المشركين والطغاة من اليهود والنصارى، فلماذا لا نقبل إيمانَ من آمن بأزيد ممّا جاء في تلك الرواية؟ ولو كان هناك اختلافات فإنّما هي اختلافات كلامية أوجدها الجدلُ وصقلها البحث طوال القرون، مثلاً الاختلاف في كون التكلم والإرادة من صفات الذات أو من صفات الفعل و إن كان اختلافاً حقيقياً وجدّياً لكنّه اختلاف كلاميّ لا يتوقف عليه الإسلام و الإيمان

---

١. لاحظ جامع الأُصول لابن الأثير: ١/ ١٥٨ـ ١٥٩ فقد جمع ما رواه البخاري ومسلم في ذلك المجال.

ومثله سائر البحوث الكلامية التي أوجدت الانشقاق بين علماء المسلمين من حدوث كلامه وقدمه، وخلود مرتكب الكبيرة وعدمه.

ومثل ذلك الاختلاف في الفروع الفقهية من الطهارة إلى الديات، فانّها اختلافات أوجدها البحث والاجتهاد من خلال الاستنباط من الكتاب والسنّة، والغاية هي الوصول إلى واقع الكتاب والسنّة وإن كان المصيب واحداً والمخطئ متعدداً.

فاللازم على المسلمين في هذه اللحظات الحاسمة، التمسكُ بالعروة الوثقى وبحبل الله المتين والانطواء تحت المشتركات وإرجاع الاختلافات إلى المدارس والمحافل العلمية التي يكثر فيها البحث و الجدال، وفي النهاية يخرجون منها إخوة متحابّين.

هذا هو الذي يدعو إليه دعاة التقريب، وهو عدم إفناء مذهب في مذهب، بل إلفات أنظار القادة إلى المشتركات المتوفرة بين المذاهب، وترك الاختلافات إلى المدارس ومراكز البحث التي لا يضر الخلاف فيها بالوحدة وجمع الشمل.

٢. التعرّف الصحيح على المذاهب

إنّ من عوامل التقريب هو التعرف الصحيح على المذاهب الإسلامية عقيدة وشريعة حيث إنّ التعرف الموضوعي على عقائد كلّ طائفة من الطوائف، يُصيِّر البعيد قريباً، والعدوَّ صديقاً، ويزيل الافتراءات والدعايات الباطلة التي أُلْصقت بطائفة وأُخرى، فعندئذٍ يُصبح المخالف موافقاًويحلّ الوئام محل الشقاق.

ومثل هذا، مثل من يرى شبحاً بعيداً فيظن أنّه حيوان ضار، لو اقترب إليه لفتك به، كلّما اقترب منه ظهر له بصورة أفضل حتى تبين انّه انسان، فمواطن، فأخ حميم.

وكلما ازداد التعرّف على المذاهب في مجالي العقيدة والشريعة ازداد التعارف واضمحل التنافر واشتد الصفاء بينهم.

ولأجل ذلك يجب على دعاة التقريب عقد المؤتمرات المتوالية للتعرف على ما تملكه الطوائف من ثقافة فكرية وعقيدة راسخة وثروة فقهية وأدبية فانّ التقريب رهن ذلك التعرف.

فإذا كان البحث على ضوء الكتاب والسنة وتحلّى الباحثون بالإخلاص والوفاء للدين وكان الجو السائد على المؤتمرات هو الوقوف على الحقيقة، فعند ذلك تقف كلّ طائفة على ما لدى الأُخرى من أفكار و آراء، وإلاّ فالتقريب يُصبح شيئاً صوريّاً ولا تُحقق الفائدة المرجوّة منه.

٣. الرجوع إلى أحاديث أئمّة أهل البيت

الرجوع إلى أئمّة أهل البيت في مجالي العقيدة والشريعة يؤدي إلى جمع شمل المسلمين وتقليل الخلاف، وهذا ليس بمعنى ترك ما رواه أهل السنة من الصحابة والتابعين عن النبي ﷺ بل بمعنى عدم إقصاء أئمّة أهل البيت عن ساحة العقيدة والشريعة، والأخذ بأحاديثهم كالأخذ بمرويات الصحابة، فإنّ كلّ ما يرويه أئمّة أهل البيت فإنّما يسندونه إلى جدهم النبي ﷺ وبالتالي تصل أقوالهم إليه بسند عالٍ والمسلمون وإن اختلفوا في مسألة الخلافة والقيادة إلى طائفتين معروفتين، ولكنّهم لم يختلفوا في أنّ أئمّة أهل البيت هم ممن يُرجع إليهم في أخذ العلم والفتوى، لحديث الثقلين الذي لا يشك في صحّته وتواتره كلّ من له أدنى إلمام بالحديث والدراية.

فقد قال النبي ﷺ: إنيّ تارك فيكم الثقلين كتابَ الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا من بعدي». [1]

---

١. حديث متواتر له مصادر متوفرة.

إنّ القرآن الكريم يُلفتُ أنظار المسلمين إلى أئمة أهل البيت بأساليب مختلفة فتارة يقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصالِ﴾ (١).

فقد سأل أبو بكر النبي ﷺ عن هذه البيوت، وأنّ بيت علي وفاطمة هل هو من تلك البيوت؟ فقال النبي: نعم، هو من أفاضلها (٢).

وأُخرى يعرفهم مطهرين عن الرجس، قال سبحانه: ﴿إِنَّما يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْس أَهْل البَيْت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (٣).

وثالثة: يجعل ودّهم أجراً للرسالة، قال سبحانه: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبىٰ﴾ (٤).

ورابعة: يأمر النبي الأعظم المسلمين أن يصلوا على آل محمّد في صلواتهم في فرائضهم ونوافلهم، كلّ ذلك يعرب عن أنّ لآل محمّدمكانة خاصة في الشريعة الإسلامية ليس لغيرهم، وإلاّ لم يكن لهذا الاهتمام مبرّر ولا مسوغ، ولم تكن الغاية من هذه الهتافات هو الحب المجرّد عن كلّ شيء، وإنّما الحبّ الحقيقي هو الاتباع في الحياة الدنيوية، فإذا كانت الواقعية تتجلّى في الاتباع فهو فرع كون أئمّة أهل البيت علماء بمواقف الشريعة وأُصولها وفروعها.

وعلى هذا فلو صار المسلمون متمسكين بهذا الحبل الممدود من السماء إلى الأرض لقلَّ الخلاف وحصل الوئام، وسد الفراغ.هذا، مع أنّ المسلمين بجميع طوائفهم ـ إلاّ النواصب ـ يحملون حب النبي و الآل، ويضحّون في سبيلهم بكلّ غال ونفيس، حتى أنّ الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ يفتخر بحبّهم ويرد عن نفسه عادية المعترضين، ويقول:

---

١. النور: ٣٦.

٢. الدر المنثور: ٦/ ٢٠٣.

٣. الأحزاب: ٣٣.

٤. الشورى: ٢٣.

إن كان رفضاً حبّ آل محمّد فليشهد الثقلان انّي رافضيّ[١]

فإذا كانت الظروف حملت قادة الفقه إلى رفض حصر المذاهب في أربعة، وعاد المحقّقون يفكّرون بالاجتهاد الحرّ، سواء أوافق مذهباً من المذاهب السالفة أم خالف، كان من المتحتم الرجوع إلى أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام وفتحِ باب الاجتهاد المطلَق في ضوء الكتاب والسنة بمصراعيه على وجه الأُمّة، فالإعراض عن أحاديثهم يزعزع أركانَ الاجتهاد المطلق ، ويتسم الاجتهاد عندئذٍ بالاجتهاد النسبي.

إنّ الاجتهاد المطلق لا يتمّ إلاّ بالرجوع إلى كلّ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا تحتوى الصحاح والمسانيد على كلّ ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم و حدّث عنه، بل هناك أحاديث تحمّلها أهلُ بيته عليهم السلام عن جدهم في مختلف المجالات، ومن الظلم على العلم وأهله الاعراض عنهم، وإسدال الستار على تلك الثروة الهائلة.

ولعلّ من يسمع هذه الكلمة من إخواننا أهل السنة يقترح علينا أيضاً الرجوع إلى أحاديث الصحابة والتابعين المجتمعة في الصحاح والمسانيد، وانّ الاجتهاد المطلق لا يتم إلاّ بالرجوع إليها مثل الرجوع إلى أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

غير انّي ألفت نظر المقترح إلى أنّه أمر محقّق في فقه الشيعة، فالآثار النبوية الواردة عن الطرق الموثوقة يعمل بها علماء الشيعة من غير فرق بين ما يرويه الشيعي عن أئمّة أهل البيت أو السني عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

أضف إليه انّ هناك مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية رواها علماء الشيعة عن الصادع بالحق عن طرق الصحابة من دون أن يتوسط فيها أئمّة أهل البيت، فليس الأمر دائراً بين الرجوع إلى أئمّة أهل البيت أو الصحابة، فإنّ الكل طرق

---

١. ابن الصباغ المالكي: الفصول المهمة: ٢٢، ط النجف.

ووسائل إلى الوصول إلى الحقّ وماجاء به نبي الإسلام في حقّ المكلّفين في العقيدة والشريعة، فالواجب هو العمل بالسنة الصحيحة من أيّ طريق وصلت إلينا.

إنّ الاختلاف بين الشيعة والسنّة ليس في مسألة الرجوع إلى الصحابة فيما يروونه عن النبي ﷺ، فانّه قضية متفقة بين الفريقين كالرجوع إلى أئمّة أهل البيت، بل الاختلاف بينهم في أمر آخر، وهو تعديل الصحابة كلّهم، والحكم بعدالة كلّ من رأى النبي ﷺ ولو مرّة أو مرّتين أو يوماً أو يومين، وهذا ما يتبنّاه أهل السنّة حيث يحكمون بعدالة كلّ صحابي، بينما لا تعتقد الشيعة عمومية القضية، وانّ مجرد الرؤية لا تعطي لكلّ راء وصف الوثاقة والعدالة، وهاتان النظريتان لا تمنعان من الرجوع إلى الأحاديث الصحيحة المروية عن النبي عن طرق الصحابة والتابعين إذا كانوا ثقات.

وهناك كلمة قيمة للإمام الطاهر علي بن الحسين عليه السلام تعرب عن موقف الشيعة بالنسبة إلى الصحابة نذكرها بنصها، وفيها كفاية.

«اللّهم وأصحاب محمد ﷺ خاصة الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء و الأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به، و من كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور في مودته والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القرابات، إذ سكنوا في ظل قرابته، فلا تنس لهم اللّهمّ ماتركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الخلق عليك، وكانوا مع رسولك، دعاة لك إليك واشكرهم على هجرهم فيك، ديار قومهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومن كثرت في اعزاز دينك من مظلومهم، اللّهمّ وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا...». [١]

١. الصحيفة السجادية، الدعاء الرابع مع شرحه: في ظلال الصحيفة السجادية، ص ٥٥ـ٥٦.

وإذا كـان هذا مـوقف الإمـام بالنسبـة إلى الصحـابة، فكيـف يمكن اتهام الشيعة بأنّـهم لا يقيمون للصحابة وزناً ولا قيمة؟ ولا يعملون بأحاديثهم.

فقد حان موعد اللقاء بين اعلام السنة والشيعة والاجتماع لدراسة الأوضاع المؤسفة السائدة على المسلمين في أقطار العالم.

وفي ختام المقـال نرجـع إلى ما بدأنـا به وهـو ضرورة توحيـد الكلمة ورص الصفوف ونقول: إنّ أحمد أمين المصري ـ الكاتب الشهير ـ قد أقام الدنيا في كتبه : فجر الإسلام وضحاه وظهره على الشيعة الإمامية، وأحلّ الخيال محلّ الواقع، وأجّج نار الخلاف بين الطائفتين بما أُوتي من قـوة وقدرة، ولكنّه ندم في أُخريـات حياته، فقال في آخر كتاب ألفه وأسماه «يوم الإسلام»:

هل للمسلمين أن يشتد وعيهم الديني ، ويفهموا بعد طول هذه التجارب انّه لم يعد هناك وجه للخلاف بين سني وشيعي وزيدي، وغير ذلك من المذاهب، لأنّـهم لو رجعـوا إلى أصل دينهـم ما وجـدوا لهذا الخلاف محلاً، ولـوجدوا انّـه خلاف مصطنع لا خـلاف أصيل، وانّ الأُمم الإسلامية في مـوقفها الحاضر أحوج مـاتكون إلى لمّ شعثهـا، وإصلاح ذات بينهـا، وتـوحيدكلمتهـا، وهي تـرىٰ كيف تهاجم من كلّ جـانب، وكيف يتخذ إسـلامها وسيلة من وسـائل الكيد لها، وإذا اتحد أهل الباطل على باطلهم فأولى أن يتحد أهل الحقّ على حقّهم. [١]

وفيما ذكره «عبرة لأُولى الأَلباب».

أسأل الله سبحـانه أن يلم شعثنـا،ويجمع شملنـا ويرفع كلمـة التوحيـد في العالم في ظل توحيد الكلمة انّه على ذلك قدير.

جعفر السبحاني ـ مكة المكرمة

سادس ذي الحجة الحرام١٤١٢هـ

---

١. أحمد أمين: يوم الإسلام: ١٨٧، طبعة ١٩٥٨ م.

المقالة الثانية

الوحدة الإسلامية في الكتاب والسنّة [1]

إنّ التشريع الإسلامي ينظر إلى المسلمين على أنّهم أُمّة واحدة يجب أن يسود فيهم الوئام والتآلف بدل الفرقة والاختلاف، ويؤكّد على وحدة المسلمين ونبذ كلّ ما يهدم هذه الوحدة من النميمة والغيبة والتهمة وغير ذلك، وهذا أمر ملموس لمن راجع الكتاب العزيز والسنة النبوية، وإليك بعض ما ورد في ذلك المجال:

أ. **﴿إِنّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَة﴾** [2].

ب. **﴿والمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِناتُ بَعْضهُمْ أَولياءُ بَعْض﴾** [3].

ج. **﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشدّاء عَلى الكُفّار رُحَماء بَيْنهم﴾** [4].

د. **﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّنات وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظيم﴾** [5].

هـ. **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾** [6].

و. **﴿إِنَّ الّذينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهمْ في شَيْءٍ﴾** [7].

---

١. المؤتمر الدولي الخامس للوحدة الإسلامية.

٢. الحجرات: ١٠.

٣. التوبة: ٧١.

٤. الفتح: ٢٩.

٥. آل عمران: ١٠٥.

٦. آل عمران: ١٠٣.

٧. الأنعام: ١٥٩.

ز. ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدةً وَأَنا ربّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ [1] وفي سورة المؤمنين الآية ٢٢ : ﴿فاتّقُونَ﴾ مكان ﴿فَاعْبُدُون﴾.

إلى غير ذلك من الآيات الحاثّة على التمسك بحبل الله والناهية عن التفرّق.

وفي السنة النبوية تصريحات على حفظ الوئام والوداد نأتي ببعضها:

١. مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم بمنزلة الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. [2]

٢. المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعىٰ بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على من سواهم. [3]

٣. إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، وبلدكم هذا، وشهركم هذا. [4]

إلى غير ذلك من الكلمات المضيئة الواردة حول الأُخوة والوحدة الإسلامية التي تزخر بها الصحاح والمسانيد.

ولقد كان النبي ﷺ يراقب أمر الأُمّة كي لا يشق عصاها منازعٌ جاهل أو عدوٌ غاشم، وكان يقودها إلى الأمام برعايته الحكيمة، وكلّما واجه خلافاً أو شقاقاً ونزاعاً، بادر إلى ترميم صدعِها بحزم عظيم وتدبير وثيق، ولقد شهد التاريخ له بمواقف في هذا المجال ننتخب منها ما يلي:

١. انتصر المسلمون على قبيلة بني المصطلق، وقتل من قتل من العدو،

---

١. الأنبياء: ٩٣.

٢. مسند أحمد : ٤/ ٢٧٠.

٣. الواقدي: المغازي: ٢/ ٨٣٦؛ و الحرّ العاملي، وسائل الشيعة: ١٩، الباب ٣١ من أبواب القصاص برقم ١ و٢ و٣.

٤. السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ٦٠٥.

وأُسر من أُسِر منهم، فبينا رسول الله ﷺ على مائِهِمْ، نشب النزاعُ بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين، فصرخ الأنصاري فقال: يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر وقال: يا معشر المهاجرين،فلما سمعها النبي، قال: دعوها فانّها منتنة... يعني انهّا كلمة خبيثة، لأنهّا من دعوى الجاهلية والله سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيرهم حزباً واحداً، فينبغي أن تكون الدعوة في كلّ مكان و زمان لصالح الإسلام والمسلمين عامة لا لصالح قوم ضدّ الآخرين،فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية يعزر. (١)

فالنبي ﷺ يصف كلّ دعوة تشقّ عصا المسلمين وتمزّق وحدتهم بأنّها دعوة منتنة، فكيف لا تكون كذلك وهي توجب انهدام دعامة الكيان الإسلامي وبالتالي انقضاض صرح الإسلام.

٢. نزل النبي ﷺ دار هجرته والتفَّ حوله قبيلتا: الأوس و الخزرج، فمر شاس بن قيس اليهودي، وكان شيخاً قد عسا، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم ـ على نفر من أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه مارأى من أُلْفَتهم،وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملأ بني قَيْلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع مَلَؤهم من قرار، فأمر فتى شاباًمن يهود كان معهم فقال: إعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم «بعاث» ... وكان يوم بعاث يوماً اقتتلت فيه الأوس و الخزرج، وكان الظفر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذٍ حضير بن سماك الأشهري وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي فقتلا جميعاً.

---

١. السيرة النبوية: ٣/ ٣٠٣، غزوة بني المصطلق ولاحظ التعليقة للسهيلي وراجع مجمع البيان: ٥/ ٢٩٣ وغيره من التفاسير.

دخل الشاب اليهـودي مجتمع القوم فأخـذ يذكر مقاتلتهـم ومضاربتهم في عصر الجاهلية، فأحيا فيهم حميتها حتـى استعدوا للنزاع والجدال بحجّة أنّهم قتل بعضهم بعضـاً في العصر الجاهلي يـوم بعـاث، وأخذ الشـابُ يـؤجج نـار الفتنـة ويصب الزيت على النار حتى تواثب رجلان من الحيين فتقاولا.

فبلغ ذلك رسول الله فخـرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهـاجرين حتى جاءهم فقال: يا معشر المسلمين! الله، الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله بالإسلام وأكرمكم به وقطـع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر وألّف به بين قلوبكم؟!

لقد كانـت كلمة النبي ﷺ كالماء المصبـوب على النار بشدة وقـوة، حيث عرف القـوم انّها نزعة مـن الشيطان وكيد مـن عدوهم، فبكـوا وعانق الرجـال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثمّ انصرفوا مع رسول الله ﷺ مذعنين، متسالمين، مطيعين قد دفع الله عنهم كيد عدو الله: شاس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شاس وما صنع.... [1]

٣. كان لقضيـة الإفك في عصر الرسـالة دويٌّ بين أعدائه، فكـان عدو الله «عبد الله بـن أبي» يشيع الفاحشة ويـؤذي النبي ﷺ، فقـام رسول الله في النـاس يخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه ـ ثمّ قال: ـ «أيّـها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولـون عليهم غير الحقّ؟ والله ما علمـت منهم إلاّ خيراً، ويقولـون ذلك الرجل والله ما علمت منه إلاّ خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلاّ و هو معي ـ وكان كبر ذلك الإفك على عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج.

فلما قال رسول الله تلك المقالة، قال «أسيد بن حضير» وكان أوسياً: يا رسول الله! إنْ يكونـوا من الأوس نكفكهم، وإن يكـونوا مـن إخوانـنـا من الخزرج فمرنـا

١. السيرة النبوية: ١/ ٥٥٥ ـ ٥٥٦.

بأمرك، فوالله انّهم لأهل أن تضرب أعناقهم، فقال سعد بن عبادة وكان خزرجياً: كـذبت لعمر الله لا تضرب أعنـاقهم، أمـا والله ما قلـتَ هذه المقـالة إلاّ انّك قـد عرفت أنّهم من الخزرج، ولـو كانوا من قـومك ما قلتَ هذا. فقـال أُسيد: ولكنّك منافقٌ تجادل عن المنـافقين، وعندئذٍ تساور الناس حتى كاد أن يكـون بين هذين الحيين من الأوس و الخزرج شر. وفي لفظ البخاري: فصار الحيان الأوس و الخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل يُخَفِّضُهم حتى سكتوا وسكت. (١)

هذه نماذج مـن مواقف النبي الأعظم حيـال الخلافات التي كـانت تنشب أحياناً بين أُمّته، وهو ﷺ كان يصنع من الخلاف وئاماً و من النـزاع وفاقاً، ويدفع الشر بقيادتـه الحكيمة، ومـا هذا إلاّ لأنّ صرح الإسـلام قائم على كلمتين: كلمـة التوحيد وتوحيد الكلمة.

وهذا صنو النبي ﷺ ووصيّه وخليفتـه إذ حُرِم من حقّه المشروع، وبـدلت الخلافة التنصيصية إلى تـداول الخلافة بين تيم وعديّ ثمّ إلى أُميـة، قد بقي حليف بيته وأليـف كتاب الله وهو يـرى المفضول يمارس الخلافـة مع وجود الفـاضل، بل يرى تراثه نهبـاً ومع ذلك كلّه لم ينبس ببنت شفة إلاّ في موارد خـاصة، حفاظاً على الوفاق والوئام وهو عليه السلام يشرح لنا تلـك الواقعـة بقوله: «فـوالله ما كـان يُلقىٰ في روعي، ولا يخطر ببالي، أنّ العرب تـزعج هذا الأمر من بعده ﷺ عن أهل بيته، ولا انّهم مُنحّـوه عني مـن بعـده، فما راعني إلاّ إنثيـال النـاس على فـلان يبـايعـونـه فامسكت يديَ حتى رأيت راجعة النـاس قد رجعت عن الإسلام يدعون إلى محق دين محمّـد، فخشيت إن لم أنصر الإسـلام وأهله أن أرى فيـه ثلماً أو هـدماً تكـون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي إنّما هي متاع أيّام قلائل...». (٢)

---

١. السيرة النبوية: ٣/ ٣١٢ـ٣١٣؛ وصحيح البخاري:٥/ ١١٩،باب غزوة بني المصطلق.

٢. نهج البلاغة، الرسالة ٦٢، طبعة محمد عبده.

وعندما تسنم منصة الخلافة ورجع الحقّ إلى مداره قام خطيباً فقال: «والزموا السواد الأعظم، فـانّ يدالله مع الجماعة، و إيّاكـم و الفرقة، فانّ الشـاذّ من الناس للشيطان كما انّ الشاذ من الغنـم للذئب، ألا من دعا إلى هذا الشعار فـاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه». [١]

هذه هـي سيرة النبي ﷺ وسيرة وصيـه وتلميذه وهما تعـربان عـن أنّ حفظ الوحدة مـن أهم الواجبات وأوجب الفـرائض، وقد اتبع السنة النبويـة المحنكون من الأُمة فجاءوا يوصون بحفظ الوئام ونبذ الخلاف في الظروف العصيبة.

وهذا هو الشيخ الإمام أبو الحسن الأشعري لما حضرته الوفاة، قال: اشهدوا عليّ أنّني لا أكفّر أحداً من أهل القبلة بذنب، لأنّي رأيتهم كلّهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمهم. [٢]

وقـال الشيـخ تقـي الـديـن السبكـي: إنّ الاقــدام على تكفير المسلمين عسر جـداً وكـلّ مـن كـان في قلبـه إيمان يستعظـم القـول بتكفير أهـل الأهـواء والبـدع مع قولهم: لا إلـه إلاّ الله محمّد رسـول الله، فـانّ التكفير أمر هـائل عظيم الخطر. [٣]

وقال ابن حزم: وذهبت طائفة إلى أنّه لا يكفَّر ولا يفسَّق مسلم بقولٍ فاسدٍ في اعتقاد أو فتيا وانّ كلّ من اجتهد في شيء من ذلـك فدان لما رأى أنّه الحق فانّه مأجور على كلّ حال إن أصاب فأجران، و إن أخطأ فأجر واحد.

قال: وهذا قول ابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن علي وهو قول كلّ من عَرَفنا له قولاً في هذه المسألة من أصحابه رضي الله عنهم، لا

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.

٢. الشعراني: اليواقيت والجواهر: ٥٨.

٣. نفس المصدر.

نعلم منهم خلافاً في ذلك أصلاً. [١]

وقال السيد محمد رشيد رضا: إنّ من أعظم ما بليت به الفرق الإسلامية رمي بعضهم بعضاً بالفسق والكفر مع أنّ قصد الكل الوصولُ للحق بما بذلوا جدهم لتأييده واعتقاده والدعوة إليه والمجتهد و إن أخطأ معذور. [٢]

ولو أضفنا إليه كلمات المفكّرين الشيعة لجئنا برسالة خاصة، ويكفي في ذلك قول المصلح الكبير الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء: بني الإسلام على دعامتين : كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.

وقد قام العلاّمة السيد شرف الدين العاملي بتأليف رسالة في هذا المجال أسماها: الفصول المهمة في تأليف الأُمّة.

إلى غير ذلك من الكلم المنثورة والمنظومة من الأعلام.

وقال بعض الأعاظم و المصلحين: لنتحد على الرغم من أخطائنا، فانّ الوحدة لا تعني في يوم ما، عصمة المنتسبين إليها. [٣]

وهؤلاء يؤكدون على ذلك، لأنّهم لمسوا و رأوا بأُم اعينهم ما يحكيه الشهرستاني في ملله حيث يقول: ما سُلّ سيف على قاعدة من قواعد الدين مثل ما سل على الإمامة في كل زمان [٤].

وهذا هو السبكي يحكي لنا عن الفتن الكبيرة التي وقعت بين الأحناف والشوافع وهما غصنان من شجرة واحدة حيث يقول: وقد وقعت فتنة بين الحنفية والشافعية في نيسابور ذهب تحت هياجها خلق كثير، وأُحرقت الأسواق والمدارس

---

١. ابن حزم الظاهري الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٣/ ٢٤٧.

٢. السيدمحمد رشيد رضا، المنار:٧/ ٤٤.

٣. وهو السيد محمود البغدادي.

٤. الشهرستاني: الملل والنحل:١/ ٢٤، دار المعرفة ، بيروت ـ ١٤٠٢ هـ .

وكثر القتل في الشافعية، فانتصروا بعد ذلك على الحنفية وأسرفوا في أخذ الثار منهم في سنة ٥٥٤ هـ، ووقعت حوادث وفتن مشابهة بين الشافعية والحنابلة، واضطرت السلطات إلى التدخل بالقوة لحسم النزاع في سنة ٧١٦، وكثر القتل وأُحرقت المساكن والأسواق في إصبهان، ووقعت حوادث مشابهة بين أصحاب هذه المذاهب وأشياعها في بغداد و دمشق، وذهب كلّ واحد منها إلى تكفير الآخر، فهذا يقول من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم، وذاك يضرب الجهلة بالطرف الآخر، فتقع منهم الساءة على العلماء والفضلاء منهم وتقع الجرائم الفضيعة.[1]

هذا حال سلفنا وليست حال الخلف في هذه الأيام بأحسن من حالهم، فقد رأى أنّ أُناساً تحالفوا على إيجاد البغضاء وتأجيج نار الشحناء وطار شررها في الآفاق حتى احترق الحرث والنسل كلّ ذلك جهلاً أو تجاهلاً لواجبهم في تلك الظروف العصيبة.

وهنا كلمة أُخاطب بها أعضاء المؤتمر وهي:

إنّ الوحدة الإسلامية لا تتحقق ولاتتجسّد بهذه المؤتمرات، ولا بالخطب الرنّانة الملقاة فيها، ولا بالشعارات الموجهة إلى الأُمّة الإسلامية.

فإنّ هذه الكلمات لا تتجاوز عن أثر الوخزة في البدن، فما لم تكن هناك اجراءات وقرارات عملية لتحقيق الوحدة لا تؤثر هذه المؤتمرات تأثيراً بالغاً، ولأجل أن نخرج عن هذه الدوامة ولا نكتفي بالشعار مكان الشعور، نشير إلى بعض السبل العملية:

١. السبكي طبقات الشافعية: ٣/ ١٠٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ١٤/ ٧٦ واليافعي: مرآة الجنان: ٣/ ٣٤٣، إلى غير ذلك من المصادر.

السبل العملية للتقريب

لا شكّ انّ للتقريب مقومات وعناصر يقوم بها، و انّ له سبلاً وطرقاً يتوسّل بها للوصول إليه، ولسنا في مقام تبيين مقوّماته وعناصره و إن كان أقوم عناصره هو «وجود الإخلاص والإيمان في دعاته، والتضحية بالنفس والنفيس في طريقه» ولكن نشير إلى إحدى الطرق التي لها أثرها الخاص في تقارب الخطى وهي ما يأتي.

إنّ الإنسان مهما جهل أو تجاهل لا يصحّ له التجاهل بأنّ هناك فرقاً بين الطائفتين السنة والشيعة، ومهما صفا الجو وتم الإخلاص في دعاة الوحدة وحملة مشعل التوحيد، ففي النفوس لدى كلتا الطائفتين شيء بالنسبة إلى بعض الأُصول والأحكام التي تتبنّاها الطائفتان في مجالي العقيدة والتشريع، وربما نشير إلى رؤوس بعض هذه الأُمور من كلّ مذهب.

ومن السبل العملية تسليط الضوء على هذه الفوارق التي مزّقت الأُمة وجعلتها متشتتة. وذلك لا لغاية جمع العقول والقلوب على نقطة واحدة و إزالة الاختلاف من رأس و إذابة الطوائف الإسلامية في طائفة خاصة، فانّ ذلك من المستحيلات العادية والمنازع فيها مكابر بلا شبهة.

أقول: لا لهذه الغاية بل لغاية أُخرى، وهي إيجاد التعارف بين الطائفتين وتقليل التناكر، وبالتالي تتعرف كلّ طائفة على ما عند الطائفة الأُخرى من العقائد والأسس التي تبتني عليها تلك الآراء حتى تكون كلّ طائفة على ثقة من الأُخرى، وانّهم لم يتبنوها اعتباطاً و إنّما ساقتهم إليها الحجج الشرعية سواء كانوا مصيبين أم مخطئين وأقلّ ما يترتب على هذا النوع من الدراسات ــ وراء التعرف على العقائد والمباني ـ إعذار أصحاب العقيدة وعدم التشدد عليهم وعندئذٍ تذوب العصبيات، إلى حدّ كثير و يرتفع سوء الظنّ، وتحترم كلّ طائفة عقيدة الطائفة الأُخرى ومنهجها إذا لمست منها الجهد والسعي وراء الكتاب والسنة، و إن كانت

الطائفة الساعية في نظر الأُخرى ربما تصرفها ولم تدرك بغيتها. ونحن إنّما نؤكد على ذلك، لأنّ أكثر أصحاب المقالات وكتاب تاريخ العقائد استقوا معلوماتهم عن الطوائف الأُخرى من الأفواه دون تحقيق ولا تثبُّت إلى أن مضى جيل وأجيال على هذه الكتابات فأصبحت حقائق راهنة، وبالتالي اتسع الشقاق وصارت مثاراً للمطاعن.

وها نحن نشير إلى بعض هذه المسائل التي نود أن يبحث عنها المؤتمر في المناسبات الآتية بشرط أن تسود الموضوعية عليه،فعندئذٍ يتخطى المؤتمر كثيراً من العقبات الواقعة في طريق التقريب وهذه المسائل تتراوح بين ما صحت نسبتها إلى الطائفة و بينما افتريت عليهم وهم براء منها براءة يوسف وأخيه من السرقة، و إليك البيان:

١. البداء

القول بالبداء من عقائد الشيعة، وقد رووا عن أئمتهم: ما عُبِدَ الله بشيء مثل البداء. [١]

وغير خفيّ على العارف باللغة العربية انّ البداء هو الظهور بعد الخفاء، والعلم بعد الجهل، وعند ذاك كيف تصح نسبة البداء إليه سبحانه مع سعة علمه؟ وانّه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، و من المعلوم انّ البداء بهذا المعنى باطل بالضرورة ـ و مع ذلك ـ فكيف يعد البداء من صميم عقائد تلك الفرقة التي بذلت جهودها في تنزيه الحقّ عن كلّ مالا يليق به؟ ويزيد العطش لدراسة هذه المسألة إذا وقفنا على وجود توصيف الله سبحانه بالبداء في الصحاح.

وقد روى البخاري: عن أبي هريرة انّه سمع رسول الله ﷺ يقول: إنّ ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى

---

١. الكليني : الكافي: ١/ ١٤٦، باب البداء، الحديث ١٠.

الأبـرص فقال: أيّ شيء أحبّ إليـك؟ قال: لـون حسن وجلـد حسن قد قـذّرني الناس قـال: فمسحه فـذهب عنه، فأُعطـي لوناً حسنـاً وجلداً حسنـاً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قـال: الإبل أو قال: البقـر، هو شك في ذلك الأبـرص والأقرع قال أحدهما: الإبل، وقـال الآخر: البقر، فأُعطى ناقـة عشراء فقال: يبارك الله لك فيها. و أتى الأقرع فقال: أي شيء أحبّ إليك؟ قـال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس قال:فمسحـه فذهب وأُعطي شعراً حسناً، قال: فأي المال أحبّ إليك؟ قال: البقـر، قال: فأعطاه بقـرة حاملاً، وقال: يبـارك لك فيها. وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحـبّ إليك؟ قال : يرد الله إليّ بصري، فأبصر بـه الناس قال: فمسحه، فرد الله إليه بصره قال: فأي المال أحبّ إليك ؟ قال: الغنم فأعطاه شاة والـداً، فانتج هذان وولـد هذا، فكان لهذا واد من إبـل ولهذا واد من بقر ولهذا واد من الغنم. ثمّ إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال رجل مسكين تقطعت بي الحبال في سفـري فلا بـلاغ اليوم إلاّ بـالله ثمّ بك، أسـألك بالـذي أعطاك اللـون الحسن والجلـد الحسـن والمال بعيراً أتبلّغ عليـه في سفـري، فقال لـه: إنّ الحقـوق كثيرة، فقال لـه: كانّي أعـرفك، ألم تكن أبـرص يقذّرك الناس فقيراً فـأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت لكابر عن كابـر، فقال: إن كنت كاذباً فصيّـرك الله إلى ما كنت. وأتى الأقـرع في صورته وهيئتـه فقال لـه مثلما قال لهذا، فـردّ عليه مثل مـا ردّ عليه هـذا، فقال: إن كنت كـاذبـاً فصيّـرك الله إلى مـا كنت. وأتى الأعمـى في صورتـه فقال: رجل مسكين و ابن سبيـل، و تقطعت بي الحبال في سفري، فلا بـلاغ اليوم إلاّ بالله ثمّ بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلّغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله بصري، و فقيراً فقـد أغناني، فخذ ما شئـت، فوالله لا أجحدك اليـوم بشيء أخذتـه لله، فقال : امسـك مالـك، فإنّما ابتليتم، فقـد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك. [1]

---

١. البخاري: ٤/ ١٧١، كتاب الأنبياء، حديث أبرص وأعمى وأقرع، ط ١٣١٤ هـ.

فما هو المقصود من «بدا لله» في هذا الحديث هو المقصود،من روايات البداء في روايات أهل البيت.

٢. عصمة الأئمة

القول بعصمة الأئمّة الاثني عشر من أُسس مذهب الشيعة، وقد دانت بها منذ تمسكت بعرى ولائهم ومودتهم وذهبت إلى أنّهم معصومون من المخالفة والعصيان بل السهو والخطأ في القول والعمل بينما نرى انّه ثقيل على الطائفة الأُخرى، وقد حلّ القول بها ـ في زعم بعضهم ـ محل اضفاء وصف النبوة عليهم. فدراسة الموضوع وتبيين أُسسه ومبانيه تقلع ما في بعض النفوس من سيئ الظن، ويتبين انّها عقيدة دينية تبنّاها أصحابها متخذين من الكتاب و السنة سواء أكانوا مصيبين أم مخطئين.

٣. الرجعة

الرجعة بمفهومها الواضح من المشهورات لدى الشيعة وإن كان التشيع لا يناط بها، وقد وردت فيها روايات متضافرة أدت إلى القول بأنّه سبحانه سوف يحشر فوجاً من المؤمنين والكافرين قبيل الساعة ﴿ويومَ نَحشرُ مِن كُلِّ أُمّةٍ فَوْجاً﴾ [١] فيما تعد الرجعة من المشهورات لديهم، تلقتها الطائفة الأُخرى بأنّه أمر محال وجعلتها مرادفة للتناسخ الباطل الذي أجمعت الأُمّة الإسلامية على بطلانه ، فعند ذلك يتحير الإنسان الواعي ما بين هذين؛ فدراسة الموضوع لا لإحقاق الحقّ بل لتبيين دلائله، تقرِّب الخطى وتجلب الوئام.

٤. تحريف الكتاب

إنّ الشيعة الإمامية مرميّة بالقول بالتحريف في غير واحد من الكتب

١. النمل: ٨٣.

أكانت كتباً موضوعية أم كـانت من الكتب المهرجة، غير أنّا نرى انّ المحققين من الشيعـة كالفضـل بـن شـاذان (٢٦٠هـ) والشيـخ الصدوق (٣٠٦ـ ٣٨١هـ) والشيخ المفيـد (٣٣٦ـ ٤١٣) في الـرسالـة الصاغـانية والسيـد المرتضى (٣٥٥ـ ٤٣٦هـ) والشيخ الطـوسي (٣٨٥ـ ٤٦٠هـ) والشيخ الطبرسي (٤٧٠ـ ٥٤٨هـ) إلى غير ذلك مـن الأعلام في الأجيـال المتأخـرة، وهكذا المحـدّثون الـواعـون من الشيعة يتبرّأون من هذه النسبة، ويصرّحون بأنّ ما بين الدفتين هو كتاب الله العزيز لم ينقص منه شيءٌ ومـازاد عليه شيء، وفي الوقـت نفسه هناك قسمٌ مـن المحدّثين غير الواعين المعروفين بالاخبارية يرجّحون التحريف.

فما هو حـقّ المقال في هـذه النسبة؟ هل الشيعـة بعامـة طبقاتها ذهبـوا إلى التحـريف أو قسم خـاص منهم؟ وإذا أمعنـا النظر، رأينـا نفس تلك الفكـرة في السنة فالمحقّقون منهـم وهم الأكثرية يذهبون إلى نفي التحـريف ولكن الحشوية منهم يروّجون التحريف يظهر ذلك بالرجوع إلى الصحاح والمسانيد.

فالسنـة تطعن على إخـوانهم الشيعة بكتـاب «فصل الخطاب» للمحـدّث النـوري،وهو يطعنـون على إخـوانهم السنة بكتـاب «الفرقـان» الـذي كتبه أحـد المصريين وصادره الأزهر، ومع ذلك نشرته يد العدوان بين المسلمين.

فما هو الموقف الحقّ في تلك المسألة للطائفتين؟

٥. رؤية الله سبحانه

إنّ رؤية الله سبحانه من صميم عقـائد الأشاعرة وأهل الحديث جميعاً حتى أنّ إنكار جـواز الرؤيـة يلازم الكفر عنـد بعضهـم، وهـم يفسرون الرؤيـة بالـرؤية الحسية لا الرؤية بالقلب، وعندئذٍ يقع السؤال كيف تصح تلك العقيدة مع أنّـها تستلزم ثبوت الجهة والمقابلة والجسمية لـه تعالى؟ والقول إنّه يرى لا في مكان ولا

على جهة من مقابله واتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي وبين الله تعالى، إنكار للرؤية والتجاء إلى الرؤية بالقلب، فدراسة الموضوع يوجب تقارب الخطى، وإن كان صاحب جوهرة التوحيد التي تدرس في الأزهر يقول:

وكلّ نص أوهم التشبيها أوّله أو فوض ورم تنزيها

٦. الصفات الخبرية

إنّ الأشاعرة وأهل الحديث يتفقون على تفسير الصفات الخبرية وحملها على الله سبحانه وتعالى بمعانيها الحرفية كاليد والوجه وغير ذلك، وينكرون التأويل ويصفونه بعمل الجهمية كما ينكرون التفويض إلاّ قليل منهم. ومن طرف آخر يدعون انّه سبحانه ليس بجسم ولا جسماني وانّه منزه عن كلّ ذلك. ودراسة الموضوع ربما تجمع الشمل أو ربما تقرب النظرتين.

وهناك فروع وأحكام شرعية لا تقصر عن آثارة الطعن من الأُصول العقائدية الماضية.

٧. المتعة

المتعة من المسائل المسلمة لدى الشيعة، وهم يدّعون أنّ الكتاب والسنّة أباحها وهي باقية عليها إلى يومنا هذا، ولكن السنّة مع ذهابهم إلى ثبوت تشريعها في زمن النبي الأكرم قائلة بالتحريم إمّا من جهة النسخ أو من جهة النهي الحكومي عنها، و مع ذلك فانّ كثيراً منهم يفقدون التصور الصحيح عن المتعة وربما يجعلونها في عداد السفاح، وهذا هو أحمد زكي باشا القاضي الشرعي بمصر كتب إلى الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء بعد ما قرأ كتابه «أصل الشيعة» وفيه بحث عن المتعة وحدودها، وقال: مع دفاعه المتين المؤيد بالحجج الوافية الكافية

فانّه لم يقتلع من نفسي ما يخالجها من حيث النظام الشرعي والعمراني، فماذا نصنع بالولد إن جاء من طريق المتعة وكان أبوه قد سافر بعد انتهاء العقد وجاء الولد بعد هذا السفر. [١]

وهذا يعرب عن أنّ السائل لم يتصور المتعة إلاّ تمتعاً جنسياً بالنساء المطروحات في الطريق مع أنّ النقض لو صحّ فهو متوجه إلى الدائم أيضاً، فإذا تزوج الرجل بالعقد الدائم ثمّ طلق وسافر وهي حامل فما تصنع بالولد؟ ثمّ إنّ زواج المتعة لا ينتهي بمجرد انتهاء الوقت إلاّ من جهة الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة، وامّا من حيث الولد فانّه يلحق بالأب الذي تزوج أُمّه موقتاً كلحوقه بها، وعلى هذا اتفاق الشيعة جميعاً مضافاً إلى الشؤون الأُخرى كالنفقة عليه للولد إلى الحدّ المعين وكلّ ذلك يستلزم وجود الصلة بين الولد والوالد.

٨. غسل الرجلين ومسحها

هذه المسألة أوجدت هوّة سحيقة بين العلماء وحتى العوام من الطائفتين، وكلّ يطعن في الآخر، وكأنّ لأحد الأمرين أساساً اجتهادياً دون الآخر، مع أنّ لكلّ طائفتين دليله واجتهاده، وكان ابن عباس يقول: «الوضوء غسلتان ومسحتان إلاّ أنّ الناس أبوا إلاّ الغسل». [٢]

٩. السجود على التربة

إنّ الشيعة تسجد على الأرض أو ما أنبتت إلاّ ما يؤكل أو يلبس، وعلى ذلك عملهم من عصر الأئمّة إلى يومنا هذا، وبما انّ من شرائط المسجود عليه الطهارة

---

١. أصل الشيعة وأُصولها: ٣٤، الطبعة العاشرة، القاهرة ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٨ م.

٢. الطبري: التفسير: ٦/ ٨٢ ـ ٨٣.

وهي غير متوفرة بسهولة في كـلّ مكان اتخذوا لأنفسهم قطعاً من التراب يسجدون عليهـا، فالتراب والأحجـار الطبيعـة عندهـم ممـا يسجد عليـه، وكـذا الحصى و الحصير ونحو ذلك لا تكون مسجـوداً لها بل المسجود له هو الله سبحـانه وتعالى، ومع ذلك نرى انّ بعض المرجفين يتّهمون الشيعـة بأنّـهم يعبدون الصنم والحجر والحصى، فدراسة الموضوع تزيل أغشية الجهل عن محيّا الواقع، ويتبيّـن انّ الحجر مسجودٌ عليـه، لا مسجود له، كما انّ الرخـام والفرش المنسوجـة يسجد عليهما لا لهما.

١٠. الطلاق في المحيض

إنّ جمهور الفقهاء من أهل السنة قالوا بمضيّ طلاق الحائض، وقالت عدّة قليلـة لا ينفـذ ولا يقع، و من القـائلين بـالمضيّ: أبـو حنيفة وأصحـابـه ومـالك والأوزاعي والثـوري والشـافعي وإن كـانوا يعـدّونـه أمراً محظـوراً ولكنّهم يفتـون بصحتـه، والشيعة الإمـامية قـائلة بفسـاد الطـلاق، وانّه لا يصحّ الطـلاق إلاّ في الطهـر، فأيّ القـولين هو الأوفـق بالكتـاب والسنّـة قـال سبحانـه: ﴿**فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ**﴾[1].

فـالغايـة من الطـلاق هو الاعتـداد وهـو لا يحصل إلاّ إذا وقع الطـلاق في الطهر، وأمّا إذا وقع في الحيضة فبما انّ تلك الحيضة لا تحسب من الأقراء عند أهل السنة جميعاً، فيلزم الفصل بين الطلاق والاعتداد وهو خلاف ظاهر النص.

نعم هنـاك رواية عبد الله بـن عمر المرويّة في السنن و المسـانيد، وقـد نقلها البيهقي بصورها المختلفة المتشتتة المضطربة.[2]

---

١. الطلاق: ١.

٢. البيهقي، السنن الكبرى: ج ٧، كتاب الخلع و الطلاق.

١١. الطلاق ثلاثاً في مجلس واحد

من المسائل التي أوجبت انغلاقاً في الحياة بين أهل السنة إمضاء الطلاق الثلاث في مجلس واحد، وانّه تحسب ثلاث طلقات فتحرم الزوجة حتى تنكح زوجاً آخر، مع أنّ الكتاب يقول: **﴿الطّلاق مَرّتان فَإمساكٌ بِمَعْروفٍ أَوْ تسريحٌ بإِحْسان﴾**[١] وصريح الآية وقوع الطلاق مرّة بعد أُخرى، فكيف تقع المرّتان واحدة ؟!

١٢. الإشهاد على الطلاق والرجعة

إنّ الاشهاد على الطلاق غير معتبر عند أهل السنة إلاّ القليل من بعض المعاصرين[٢] مع أنّ صريح الكتاب وجوب الإشهاد. يقول سبحانه: **﴿فَإذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَي عَدلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادَةَ للهِ﴾**[٣]. سواء قلنا برجوع الاشهاد إلى الطلاق والرجعة أو بخصوص الأوّل فالطلاق بلا اشهاد على خلاف الكتاب فكيف يمضى بلا إشهاد؟

هذه اثنتا عشرة مسألة خلافية أوجدت شقة فكرية بين المسلمين في مجالي العقائد والأحكام، فعلى رواد التقريب ودعاة التوحيد، التأكيد على عناصر الوحدة في منشوراتهم ومجلاتهم العلمية لتقريب الخطى وسحق العصبية .

---

١. البقرة: ٢٢٩.

٢. أحمد محمد شاكر في كتابه نظام الطلاق في الإسلام، ط ١٣٨٩ ، الطبعة الثانية.

٣. الطلاق: ٢.

ختامه مسك

الدارج بين الشيعة هو ضمّ الآل إلى النبي ﷺ عند الصلاة عليه، عملاً بما رواه أصحاب الصحاح وهو انّ الصحابة سألوا النبي كيف يصلّون عليه؟ فقال: قولوا: اللّهمّ صلّ على محمدٍ وَعلى آل محمّد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد. [١]

وقد أكد ابن تيمية على تلك الكيفية في كتابه «حقوق آل البيت» [٢] ولكن الرائج عند أهل السنّة هو ذكر النبي وحدة ورفض الآخرين.

أوما آن لدعاة الوحدة دراسة المسألة حتى يصلوا في هذا الموضوع البسيط إلى وحدة الكلمة والنظر،ويضيقوا الخلاف؟! والله من وراء القصد.

جعفر السبحاني

مكة المكرمة

سادس شهر ذي الحجة الحرام

من شهور عام ١٤١٢هـ

---

١. أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، الباب ١٠،وفي الدعوات الباب ٣١ و٣٢ ؛ مسلم في كتاب الصلاة، الحديث ٦٦، ٦٥.

٢. حقوق آل البيت: ٢٨.

المقالة الثالثة

عناصر الوحدة الإسلامية وموانعها [1]

الوحدة الإسلامية أمنية يتمنّاها كلّ مخلص له أدنى إلمام بالأوضاع المحدقة بالإسلام والمسلمين ولا يشكّ في أنّ المسلمين في أمسَّ الحاجة إلى الوحدة وتقريب الخطىٰ، لأنّ فيه عزّ الإسلام ورفع شوكة المسلمين وتقوية أواصر الاخوّة بينهم، وانّ في التفرقة اضمحلال الإسلام وتشتت شمل المسلمين وتكتلهم إلى فرق وطوائف متناحرة.

وقد حثّ سبحانه على الوحدة بقوله: **﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾** [2].

ويقول أيضاً: **﴿وَأَنَّ هٰذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾** [3].

وفي الوقت نفسه يذم التفرقة ويشجبها ويقول: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ﴾** [4].

---

١. أُلقيت في جامعة الأُردن شهر محرم الحرام عام ١٤١٩ هـ، عند رحلة المحاضر إليها في ذلك العام.

٢. آل عمران: ١٠٣.

٣. الأنعام: ١٥٣.

٤. الأنعام: ١٥٩.

ويقول سبحانه: ﴿وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكينَ* مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً﴾ [١].

انّه سبحانه يعدُّ التفرقة والتشتت من أنواع البلايا والمحن التي تجابه الأُمم ويقول: ﴿قُلْ هُوَ القادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجلكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذيقَ بَعْضكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أُنْظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [٢].

فانطلاقاً من وحي تلك الآيات تجب على كلّ مسلم واع، الدعوةُ إلى توحيد الكلمة للحيلولة دون التشتّت والتفرّق.

إنّ الوضع الراهن للأُمّة الإسلامية يبعث على القلق، واستمرار هذا الوضع يجعلهم ضحيّة للخطط الاستعمارية التي تستهدف الإجهاز على المسلمين واستئصال شأفتهم.

إلاّ أنّ الذي يبعث النشاط في قلوبنا ويزيدنا أملاً بالغد المشرق هي الآيات الدالة على أنّ المستقبل للصالحين من عباده، قال سبحانه: ﴿انَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ﴾ [٣]. وقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْض وَنَجْعَلهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الوارِثين﴾ [٤].

هذه سنّة الله تبارك وتعالى لكنّها رهن شروط وخصوصيات كفيلة بتحقيق ذلك الوعد.

انّه سبحانه يصف المسلمين بأنّهم أُمّة واحدة ويقول: ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَة وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُون﴾ [٥].

---

١. الروم: ٣١ ـ ٣٢.
٢. الأنعام: ٦٥.
٣. الأنعام: ١٠٥.
٤. القصص: ٥.
٥. الأنبياء: ٩٢.

والأُمّة مشتق من أمَ مَ والمادة تحكي عن القصد والهدف والقيادة والزعامة، وعلى ضوء ذلك فلا يكون المسلمون أُمّة حتى يكون لهم هدف ومقصد أسنىٰ وقيادة وزعامة حكيمة، فالأُمّة الواحدة لها ربّ واحد وكتاب واحد وشريعة واحدة وقيادة وهدف واحد. وهو نيل السعادة الدنيوية والأُخروية.

وثمة سؤال يطرح نفسه، ما هي العناصر الكفيلة لتحقيق الوحدة إذ تحققها مع وجود التفرقة والاختلاف أمر متعذر.

هذه العناصر تكمن في التوحيد في العقيدة والشريعة لا في الوطن ولا في الجنس ولا في اللون ولا في اللغة ولا في الطائفية ولا في القومية، والإسلام قد شطب بخط عريض علىٰ تلك الأفكار، ولم يعر لها أهمية تذكر بل حذّر المسلمين من الانخراط تحت لوائها والانجراف معها، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [1].

وقال الرسول ﷺ: «إنّ العربية ليست بأبٍ والد ولكنّها لسان ناطق، فمن قصر به عمله لم يبلغه حسبه» [2] فعلىٰ ذلك يجب الإلماع إلى العناصر التي تكمن فيها الوحدة وتبتني عليها أواصر الاخوة.

فالعناصر العقائدية هي:

١. التوحيد ومراتبه

التوحيد ـ بمعنى الاعتقاد بوجود إله واحد لا شريك له، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، عالم قادر، حي لا يموت، إلى غير ذلك من صفات الجمال والجلال، وليس في صحيفة الوجود خالق، مدبّر ومعبود، سواه ـ من العناصر

١. الحجرات: ٣.

٢. الكافي: ٨/ ٢٤٦ برقم ٣٤٢.

البنّاءة للوحدة.

وقد تثار بحوث كلامية حول صفاته تبارك وتعالى، لكنّها بحوث لا تمت إلى صميم الإسلام بصلة.

فهل صفاته سبحانه عين ذاته أو زائدة عليها، فلكلّ من الرأيين دليله ومنطقه إلاّ انّ هذه البحوث ـ مع تثمين جهود باحثيها ـ يجب أن لا تثير الريبة في غرضنا الذي نرمي إليه ألا وهو الوحدة الإسلامية الكبرى.

لا أنسى وأنتم أيضاً لا تنسون انّ مسألة خلق القرآن وحدوثه أو قدمه قد شغلت بال المسلمين أيّام الخلافة العباسيّة سنين طوال، وقد شقّ عصا الوحدة وشتّتهم إلى طوائف وأُريقت دماء ونهبت أموال وما ذلك إلاّ لأنّ طائفة منهم كانوا يقولون بقدم القرآن والطائفة الأُخرى بحدوثه مع أنّها بحوث كلامية لاتمت إلى صميم الإسلام بصلة، فالبحث و الحوار العلمي والانصياع للدليل شيء، وكون هذا الاختلاف يثير كامن العداء والشقاق ويصبح ـ لاسمح الله ـ هدفاً لسهام اللوم والتكفير شيء آخر، فلنفسح المجال للبحث العلمي دون أن يمسّ بالوحدة الإسلامية الكبرىٰ.

٢. النبوة العامة والخاصة

إنّ من عناصر الوحدة الإيمان بأنّه سبحانه تبارك و تعالى بعث أنبياءً ورسلاً لترسيخ التوحيد بين الناس وشجب أيّ عبادة سواه.

قال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطّاغُوت**﴾ [١].

---

١. النحل: ٣٦.

وهـذه هي العقيـدة المشتركـة بين الأُمّـة الإسـلاميـة جميعـاً، كما انّ الإيمان بخاتمية الرسـول و انّه لا نبي ولا رسول بعده من صميم العقيـدة الإسلامية، ومن أنكر الخاتمية وادعىٰ استمرار الوحي بعد النبي ﷺ أو إمكان ظهور نبي جديد مع شريعة جـديدة ، فقـد خرج عـن ربقة الإسـلام، لأنّ ذلك متعارض مـع العقيدة الإسلامية قال سبحانه: ﴿ما كـانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَـدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلٰكِـنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيينَ وَكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [1].

٣. الإيمان بالمعاد

الإيمان بالمعاد وانّ الـدنيا قنطرة الآخرة، وليس الموت بمعنـىٰ فناء الإنسان من العقائد المشتركـة بين المسلمين ويعدُّ أصلاً من الأُصول التـي جاء بها الأنبياء قاطبة، ولولاه لما قام للدين عمـود، ولذلك نجد انّ القرآن يعطف الإيمان بالمعاد، على الإيمان بالتوحيـد، ويقول: ﴿مَنْ آمَنَ بِـاللهِ وَاليَومِ الآخر وَعَمِلَ صـالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [2] وفي آية أُخرى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخر ذٰلكَ خَيرٌ﴾ [3].

فهذه الأُصـول الثلاثة، تشكّـل حجر الزاويـة للعقيدة الإسلاميـة، ويدور عليها رحى الإيمان والكفر، وقد صبّ النبي ﷺ اهتمامه علىٰ هذه الأُصول وجعلها حـداً فاصـلاً بين الإيمان والكفر، فمـن آمن بها فقـد دخل في زمـرة المسلمين ومن أنكر واحداً منها فقـد خرج عن ربقة الإسلام، وها نحن نـذكر بعض ما روى عن النبي ﷺ في هـذا المضمار لتُعلم مـن خـلالها العنـاصر الكفيلـة بتحقيق الأُخـوة الإسلامية.

---

١. الأحزاب: ٤٠.

٢. البقرة: ٦٢.

٣. النساء: ٥٩.

روى البخـاري عن عمر بـن الخطاب: انّ عليّـاً صرخ ، يا رسـول الله: على ماذا أُقاتل، فقال ﷺ: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله. [١]

روى الإمام الشافعي عن أبي هـريرة، انّ رسول اللهﷺ قال: لا أزال أُقـاتل الناس حتى يقـولوا لا إله إلاّ الله فـإذا قالوا، فقـد عصموا مني دماءهـم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم عليهم. [٢]

وروى الإمام الرضا عليه السلام وهو أحد أئمّة أهل البيت عن آبائه عن علي عليه السلام ، قال النبي ﷺ: أُمرت أن أُقاتل النـاس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله فإذا قـالوا حرمت عليّ دماؤهم وأموالهم. [٣]

وحدة الشريعة

إذا كانت العقيـدة بعناصرها الثـلاثة هي الركيـزة الأُولى للوحدة، فـوحدة الشريعة عامل آخر لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم وصفوفهم.

فالمسلمون عامة في مجال العبادة يقيمون شعائرهم الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد، فلا تجد مسلماً ينكر واحداً من تلك الأُمور.

نعم بين المذاهـب الفقهيـة اختـلاف في جزئيـات المسـائل ولكنّهـا شروط وآداب لا تمسُّ بجـوهـر الإسـلام، فـالمسلم من يـؤمـن بـالشريعـة التي جـاء بها النبي ﷺ ويقيمها حسـب الفقه الذي يقلـده، واختلاف العلماء لا يمس جـوهر الشريعة لانّه اختلاف سطحي في جزئياتها وخصوصياتها.

---

١. رواه البخاري في صحيحه: ١/ ١٠، كتاب الإيمان.

٢. الشافعي، الأُم: ٦/ ١٥٧.

٣. المجلسي، البحار: ٦٨/ ٢٤٢.

فكما انّ العبادات جزء من الشريعة فالمعـاملات بمعناها الأخص أو الأعم جزء من الشريعـة أيضاً فالبيع والاجـارة والوكالـة، والمضاربة والمساقـاة والمزارعة معاملات بالمعنى الأخص، كما انّ النكاح والطلاق والـوصايا ونظائرها معاملات بالمعنى الأعم، فالمسلمون متحدون في هذا المجال من الشريعة يبيحون ما أباحت الشريعة ويحرمون ما حرّمت الشريعة.

وعلى ضوء ذلك فـالشريعة هي الركيزة الثـانية للوحدة، واختـلاف الفقهاء فيها لا يخل بها.

وحدة القيادة

إنّ التوحيد في القيادة هـي الركيزة الثالثة لوحدة الأُمم، فـالجميع يؤمن بأنّ القيادة لله سبحانه ولرسوله ولأُولي الأمر مستلهمين من قوله سبحانه: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [1].

فالقيادة الإسلامية ليست قيادة سياسية بحتة، بل قيادة دينية تقود المجتمع إلى السعادة والرفاه تحت ظل تعاليم الإسـلام، وحيث إنّ إطاعة أُولي الأمر جاءت مباشرة بعد إطاعة الرسول في الآية فيلـزم أن تكون طاعتهم شبه إطاعة الرسول في علمهم وسياستهـم وتقواهم، ولأجل ذلك يجب أن يتـوفر فيهم شروط كثيرة تخوّل لهم صلاحية الزعامة.

وحدة الهدف

تقع على عاتق الأُمّـة الإسلامية مسؤوليـة خاصة وهي سـوق المجتمع نحو المثُل الأخلاقية والمكارم الإنسانية ، قال سبحانه: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ**

١. النساء: ٥٩.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ (١).

فالطوائف الإسلامية برمتها لها رؤية مشتركة في الهدف الذي جاء به الإسلام ودعا إليه.

والهدف هو سيادة الدين في الأرض لتكون السيادة لله وحده ويكون الدين ظاهراً على سائر الأديان، قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٢).

هذه الوحدات الأربع، أي: وحدة العقيدة، وحدة الشريعة، وحدة القيادة، ووحدة الهدف إذا تمسك المسلمون بأهدابها تعود إليهم السعادة المسلوبة والكرامة المنشودة. قال رسول الإسلام ﷺ: «إنّما مثل المسلمين كالرجل الواحد إذا وجع منه شيء تداعىٰ له سائر جسده». (٣)

تكفير أهل القبلة

إنّ تكفير أهل القبلة ما لم يُنكر أحد منهم شيئاً من تلك الأُصول الثلاثة ممّا لم يجوزه أحد من أئمة المسلمين.

قال ابن حزم نقلاً عن أبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري: إنّه لا يُكفَّر ولا يُفسَّق مسلم. (٤)

وقال السرخسي: لما حضرت الشيخ أبا الحسن الأشعري الوفاة بداري ببغداد أمرني بجمع أصحابه فجمعتهم له، فقال: اشهدوا عليّ إنّي لا أكفر أحداً

١. آل عمران: ١١٠.

٢. التوبة: ٣٣.

٣. مسند أحمد بن حنبل: ٤/ ٢٧٨.

٤. ابن حزم: الفصل: ٣/ ٢٤٧.

من أهل القبلة بذنب لأنّي رأيتهم كلّهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمّهم.[١]

ولقد أحسن الإمام الأشعري حيث أسمى كتابه بمقالات الإسلاميين واختلاف المصلين فأضفىٰ على جميع الطوائف لفظ الإسلاميين وجعل اختلافهم اختلافَ أهل القبلة كما يشعر بذلك قوله اختلاف المصلين.

وقال القاضي الإيجي: جمهور المتكلمين والفقهاء على انّه لا يكفَّر أحد من أهل القبلة، واستدل على مختاره بقوله: إنّ المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة من كون الله تعالى عالماً يعلم أو موجداً لفعل العبد أو غير متحيّز ولا في جهة ونحوها لم يبحث النبي عن اعتقاد من حكم باسلامه فيها ولا الصحابة ولا التابعون، فعلم أنّ الخطأ فيها ليس قادحاً في حقيقة الإسلام.[٢]

إلى غير ذلك من كلمات لعلمائنا الأبرار تبعاً للسنة النبوية المنكرة لتكفير المسلم.



موانع الوحدة

قد عرفت عناصر الوحدة وما يمكن أن يجمع به شمل المسلمين، ولكن مع ذلك ثمة عوامل أُخرىٰ تُعرقل خطا الوحدة، فعلى المعنيّين بوحدة المسلمين دراسة عوامل التفرقة ليعالجوها كي لا تكون سداً أمام تلك الأمنية، وإليك دراسة هذه العوامل.

---

١. الشعراني: اليواقيت والجواهر: ٥٨.

٢. الإيجي: المواقف: ٣٩٢.

١ . المذاهب الكلامية والفقهية

إنّ المسلمين ينقسمون في المذاهب الكلامية إلىٰ طوائف كالأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والشيعة.

والشيعة تنقسم بدورها إلىٰ زيدية وإسماعيلية واثني عشرية، فكيف يمكن توحيد الكلمة مع سيادة هذه المناهج الكلامية عليهم؟!

والحقّ انّ هذه المذاهب تتراءىٰ في النظر البدئي سداً منيعاً بوجه الوحدة، ولكن بالنظر إلى أواصر الوحدة تبدو وكأنّها موانع وهنة لاتصد المسلمين عن التمسك بأهداب الوحدة على كافة الأصعدة .

أمّا المناهج الكلامية فجوهر الاختلاف فيها يرجع إلى مسائل كلامية لا عقائدية مثلاً انّ الأشاعرة والمعتزلة يختلفون في المسائل التالية:

١ . هل صفاته عين ذاته أو زائدة عليها؟

٢ . هل القرآن الكريم قديم أو حادث؟

٣. هل أفعال العباد مخلوقة لله أو للعباد؟

٤ . هل يمكن رؤية الله في الآخرة أو هي ممتنعة؟

إلى غير ذلك من أمثال هذه المسائل، ومع تثمين جهود الطائفتين فالاختلاف فيها اختلاف في مسائل عقلية لا يناط بها الإسلام ولا الكفر فالمطلوب من المسلم اعتقاده بكونه سبحانه عالماً وقادراً، وأمّا كيفية العلم والقدرة بالزيادة أو العينية فليس من صميم الإسلام، فلكلّ مجتهد دليله ومذهبه، كذلك القرآن هو معجزة النبي ﷺ وكتابه سبحانه، فليس الحدوث والقدم من صميم العقيدة وقس على ذلك ما تلوناه عليك من المسائل، حتى أنّ مسألة رؤية الله في الآخرة وإن أصبحت عقيدة ضرورية لأجل روايات وردت في صحيح

البخاري ولكنها من ضروريات المذهب الكلامي الخاص لا من ضروريات الإسلام، فهناك فرق بين ضروريات المذهب الأشعري وضروريات الإسلام، فكلّ أشعري يقول بالرؤية تبعاً لإمامه وهو تبعاً للدليل الذي قام عنده ولا يقول به كلّ مسلم.

وقس علىٰ ذلك سائر الوجوه المفرقة التي ترجع كلّها إلىٰ فروق كلامية.

وأمّا المناهج الفقهية فالمشهور هي المذاهب الأربعة مضافاً إلى الزيدية والجعفرية فهذه المذاهب الستة مذاهب فقهية والاختلاف يرجع إلى الاختلاف في فهم الآية والرواية فلو اختلفوا فإنّما يختلفون في فهم الكتاب والسنّة وهذا إن دلّ علىٰ شيء فإنّما يدلّ على اهتمامهم بهما وإمعانهم في فهمهما والاختلاف أمر طبيعي خصوصاً بعد مضي ١٤ قرناً من عصر الإسلام.

ولكن اختلافهم في المناهج الفقهية لا يمس بصميم الفقه الإسلامي فهل هناك من يرى صلاة الفجر ثلاث ركعات أو يرى صلاة الظهر والعصر غير أربع ركعات؟

وليس الاختلاف وليد اليوم، بل بدأ الاختلاف بعد رحيل رسول الله ﷺ في أبسط المسائل الفقهية كعدد التكبيرات على الميت إلىٰ أعمقها، فالاختلاف الموروث إنّما هو اختلاف في فهم النصوص لا في رفض النصوص وردها.

ولا شكّ انّ الشيعة ترى جواز الجمع بين الصلاتين مع القول بأنّ التفريق هو الأفضل، والسنّة تخص جواز الجمع بالسفر ومواقف خاصة، ولكلّ دليله، وقد ورد في الصحاح والمسانيد قرابة عشرين رواية بأنّ رسول الله ﷺ جمع بين الصلاتين من غير سفر ولا مطر ولا مرض ليوسّع بذلك الأمر على الأُمّة.

وقس على ذلك سائر الاختلافات الفقهية حتى الاختلاف في متعة النكاح، فذهب جمهور السنة إلى النسخ والشيعة إلىٰ بقاء الجواز، فالاختلاف فيها كالاختلاف في سائر المسائل الناشئة من الاختلاف في النسخ وعدمه.

٢. الاختلافات القومية

يتشكل المسلمون من قوميات متعددة من عرب وعجم وترك وبربر إلى غير ذلك من الشعوب والقبائل ولكن هذا الاختلاف، اختلاف تكويني لا يصلح لأن يكون مانعاً عن وحدة الكلمة وقد عالج سبحانه هذا النوع من الاختلاف وقال: ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ [١].

فالاختلاف في اللون واللسان والدم والوطن وإن كانت عوامل توحد طائفة كبيرة لكنّها عوامل عرضيّة لا تمت إلى جوهر الإنسان بصلة، وأمّا الإيمان بالأُصول الثلاثة فهو عامل باطني ذاتي أقوى من جميع العناصر المتقدمة.

فالمسلم الشرقي إذا تعارف مع المسلم الغربي مع ما بينهما من الهوة السحيقة يتآخيان، لما بينهما من وحدة المبدأ والمعاد والقيادة والهدف وأمّا الاخوان من أُمّ وأب واحد إذا كان أحدهما إلهياً والآخر مادياً يتناكران.

أظن انّ هذين المانعين ليسا من موانع الوحدة وقد عالجها الإسلام بشكل واضح، وإنّما هناك عوامل واقعية تعرقل مسير الوحدة وهي بحاجة إلى الدراسة والوقوف عليها بنحو مسهب.

٣. الجهل بمعتقدات الطوائف:

الحقيقة انّ جهل كلّ طائفة بمعتقدات الطائفة الأُخرى يعد من أهمّ الموانع التي تشكل حاجزاً منيعاً عن الوحدة وهذا ليس بالأمر المستسهل، وإليك هذا المثال:

---

١. الحجرات: ١٣.

كان لي صديق في مكة المكرمة كنت أزوره عند تشرفي إلى زيارة بيت الله الحرام وكان يزاول حرفة بيع الأقمشة، سألني يوماً ما تقولون أنتم معاشر الشيعة في آخر الصلاة بعد رفع الأيدي إلى الأُذن؟ قلت: يقولون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، فعاد يعتذر ويقول: كنت أعتقد انّكم تقولون: خان الأمين، خان الأمين، خان الأمين!!

فإذا كان هذا مبلغ علم المسلم بعقيدة أخيه الشيعي في قبة الإسلام، فما ظنك بمسلم يسود بينهما آلاف الفراسخ؟! وقد سألني عالم مكي من قضاة مكة المكرمة ومدرسي الحرم عندما نزلت بيته ضيفاً مع أصدقائي، فقال: شيخنا السبحاني!! هل للشيعة تأليف؟ قلت: سبحان الله ليست الشيعة طائفة لا تاريخ لها ولا جذور، وإنّما هي طائفة إسلامية منذ عصر النبي إلى يومنا هذا قد شاركوا المسلمين في تأسيس الحضارة الإسلامية العريقة.

ونأتي بمثال ثالث: انّ الشيعة الإمامية اقتداءً بالنبي وأئمّة أهل البيت لا يسجدون في الصلاة إلاّ على الأرض أو ما ينبت منها، بشرط أن لا يكون مأكولاً ولا ملبوساً، فبما انّ السجود على الأرض في المنازل وحتى المساجد المفروشة غير ميسّرة يتخذون أقراصاً من التربة يسجدون عليها، فعند ذلك نرى أنّ بعض إخواننا من السنّة يرمون الشيعة بالسجود للحجر والتراب كسجود عُبّاد الوثن له مع أنّهم لا يفرّقون بين المسجود عليه والمسجود له، فالتراب هو المسجود عليه وأمّا المسجود له هو الله سبحانه.

وعلى ذلك فلو وقف فقهاء المذاهب على ما لدى الطوائف الأُخرى من الفقه و الأُصول والاستدلال والاجتهاد لما عاب أحدهم الآخر، وإنّما الخلاف في كيفية الاستدلال وحقيقة البرهان لا في الأخذ بالبرهان ولو أردنا أن نمثل في المقام لطال بنا الكلام وطال مقامنا مع الحضار.

وهناك نكتة أود أن أذكرها هي انّ أكثـر من كتب عن الشيعة فإنّما أخذ عن كتّاب ليسـوا شيعة كابن خلـدون أو من المستشرقين الحاقدين على الإسلام عـامة وعلى التشيع خاصة، أمثال جولدزيهر.

فعلى من يريد نسبة شيء إلى أي طائفـة من الطوائف الرجوع إلى مصادرهم الأصلية المؤلفة من قبل علمائهم.

٤. الجهل بالمصطلحات

انّ لكلّ طـائفة مصطلحات خـاصة في العقيـدة والشريعة يجب أن تـؤخذ مفاهيمها من كتبهم وليس لنا تفسيره من جانبنا، ولنذكر هنا مثالين.

أ. البداء

البداء عقيـدة إسلاميـة دلّ الكتاب والسنّـة عليها، وهـي لا تعني إلاّ تغيّر مصير الإنسان بـالأعمال الصالحة والطالحة، فـالإنسان بما انّه مسـؤول عن أعماله بيده تغيير مصيره، فيجعل نفسه من السعداء أو مـن الأشقياء، وهذا أمر دلّ عليه الكتاب والسنّة. وهـذا هو البداء عند الشيعـة فقوم يونس بـدّلوا مصيرهم السّيئ إلى الحسن بالأعمال الصالحة والإنابـة . قال سبحانه: **﴿فَلَولا كانَتْ قَريَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمـانُها إِلاّ قَوْمَ يُـونُسَ لَمّا آمَنُوا كَشَفْنـا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِـزْيِ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلىٰ حِينٍ﴾** [1]. فيقال عندئذ «بدا الله في قـوم يونس» أي ظهر لهم ما خفـي عليهم ، لا ظهر لـه ـ نعـوذ بالله ـ بعـد ما خفي عليـه، وهذا النـوع من الاستعمال المجازي شايع علىٰ لسان النبي ﷺ حتى في صحيح البخاري في قضية الأبرص والأعمىٰ والأقرع. [2]

---

١. يونس: ٩٨.

٢. صحيح البخاري: ٤/ ١٧١، حيث جاء فيه: بدا الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً... الخ.

ولكن يُفسر عند من لا يعرف عقائد الشيعة بتغير إرادة الله سبحانه وتعالى وظهور الشيء له بعد خفائه ومن المعلوم انّ الأُولى عقيدة إسلامية والثانية عقيدة إلحادية لا يتفوه بها أحد من المسلمين.

ب. التقية

التقية من المفاهيم الإسلامية، وهي سلاح الضعيف أمام القوي، فإذا خاف المسلم علىٰ ماله وعرضه ودمه من أيّ إنسان سواء أكان كافراً أو مسلماً وأراد شخص قوي سلب حرياته فلا محيص له إلاّ كتمان عقيدته وقد أمر به سبحانه وقال: ﴿إلاّ مَنْ أُكره وَقَلْبهُ مُطْمَئِنٌّ بالإيمان﴾ [1] وقد نزلت في حقّ عمّار بن ياسر حيث أظهر الكفر وأخفى الإيمان وجاء إلى النبي ﷺ باكياً فقال ﷺ: لا شيء عليك، فنزلت الآية، ولكنّ التقية يُفسر عند بعض المخالفين بالنفاق، مع أنّ بين التقية والنفاق بوناً شاسعاً، فالتقية إظهار الكفر و إبطان الإيمان، والنفاق على العكس هو إظهار الإسلام و إبطان الكفر.

هذه بعض الموانع الماثلة أمام وحدة المسلمين وهناك عوامل أُخرى لا مجال للبحث فيها علىٰ هذه العجالة.

نسأله سبحانه أن يرزق المسلمين توحيد الكلمة

كما رزقهم كلمة التوحيد

المقالة الرابعة

الحج عمل عبادي، وملتقى سياسي

الإمعان والدقة في الآيات الواردة حول الحجّ ومناسكه وما رويت حوله من النبي الأكرم والعترة الطاهرة من الروايات وما استقرت عليه سيرة المسلمين في القرون الأُولى الإسلامية يعرب عن أمرين مهمين، يعرفان ماهية الحجّ وحقيقته وأهدافه وهما: انّ الحجّ عمل عبادي وفي الوقت نفسه ملتقى سياسي للمسلمين، ويطيب لي أن أذكر كلا الأمرين بعبارات موجزة مستشهداً بآيات الذكر الحكيم، وما أثر في ذلك المجال، والذي يدل على أنّ الحجّ عمل عبادي هو:

١. انّ الحجّ عمل يقصد به الإنسان كسب رضاه سبحانه تلبية لنداء الخليل عليه السلام حيث قام بدعوة الناس إلى الحجّ الذي أقامه بعد انهيار، وعمّره بعد خراب، كما قال سبحانه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتينَ مِنْ كُلِّ فجّ عَميق ... ﴾[1].

٢. الحجّ تذكار وذكر لله سبحانه في كافة مراحله ومواقفه ومراسمه ومشاهده وقد أمر سبحانه في غير واحدمن الآيات حجّاج بيته أن يذكروه في جميع المواقف، قال سبحانه: ﴿فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فَاذْكُروا الله عِنْدَ الْمَشْعَرِ الحَرامِ وَاذْكُرُوه كَما هَداكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضّالّين*ثُمَّ أَفيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ

---

١. الحج: ٢٧.

النّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيمٌ* فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً ﴾ [(١)] و يقول سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا اللهَ في أَيّامٍ مَعْدُوداتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ في يومَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقىٰ وَٱتَّقُوا اللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [(٢)].

٣. الحجّ تطهير للنفس عن دنس الأقذار الخلقية وتوجيهها إلى المثل العليا وكبح للنفس عن اللذائذ الدانية النفسانية . قال سبحانه: ﴿الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ فَمَنْ فَرَضَ فيهِنَّ الحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدالَ فِي الحَجِّ وَماتَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ... ﴾ [(٣)] .

ولأجل انّ الحجّ تطهير للنفوس سميت أعماله مناسكاً وهو من نسك ثوبه أو غسله، فكأنّ تلك الأعمال تغسل ما عليها من صدأ الذنوب ودرن الآثام، قال سبحانه: ﴿فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ [(٤)].

٤. الحجّ تدريب وتربية للنفس للغلبة على الهوى وتحصيل التقوى الذي هو خير الزاد للإنسان، قال سبحانه في ثنايا آيات الحجّ: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوىٰ وَٱتَّقُونِ يا أُولي الأَلْبابِ﴾ [(٥)].

٥. قد كان الهدف الأسمى من تجديد بناء البيت بيد بطل التوحيد، دعوة الناس إلى عبادة الله وحده ورفض عبادة الأنداد والشرك بألوانه، قال سبحانه: ﴿وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهيمَ وَإِسماعيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِي لِلْطائفينَ وَالعاكِفينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [(٦)]،وقال سبحانه: ﴿إِنّ أَوّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلّذي بِبَكَّةَ مُباركاً وهُدىً لِلْعالَمين﴾ [(٧)] ولأجل ذلك كان شعار الخليل عليه السلام عند بناء البيت ورفع قواعده

---

١. البقرة: ١٩٨ـ٢٠٠.
٢. البقرة: ٢٠٣.
٣. البقرة: ١٩٧.
٤. البقرة: ٢٠٠.
٥. البقرة: ١٩٧.
٦. البقرة: ١٢٥.
٧. آل عمران: ٩٦.

هو الطلب من الله سبحانه أن يجعل ذرّيته أُمّة مسلمة ويريهم مناسكهم ويتوب عليهم بالرحمة. قال سبحانه حاكياً عنه عليه السلام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهيمُ القَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ الْعَليمُ﴾ [1].

٦. انّ الخليل أنزل أُسرته بأرض قاحلة عند البيت المحرم لغاية إقامة الصلاة، وفي الوقت نفسه طلب من الله سبحانه أن يوجه أفئدة الناس إلى هذا البيت لتلك الغاية السامية، قال سبحانه حاكياً عن الخليل: ﴿رَبَّنا إِنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقيمُوا الصَّلاةَ فَاجعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوي إِلَيْهِمْ﴾ [2].

٧. الحجّ تزهيد عن الدنيا واكتفاء من زخرفها وزبرجها بثوبين يرتدي بأحدهما ويتزر بالآخر ويردد في جميع الحالات الشكر والثناء امتثالاً لأمره سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [3].

٨. الحجّ عمل رمزي لكثير من العبادات والطقوس الواردة في الشريعة المفروضة في ظروف خاصة، فصار الحجّ بمفرده مظهراً لها و مجسداً لكثير منها حيث نجد فيه الأعمال التالية المعربة عن جانبه العبادي، أعني: النية، الطهارة من الحدث والخبث، الصلاة، الصوم، الطواف بالبيت، الذبح لله، إطعام القانع والمعتر من اللحوم، الاعتكاف الذي يجسده الوقوف في المشاعر، ورجم الشيطان العدو الوحيد للإنسان الذي يوسوس في صدور الناس.

كلّ ذلك يعرب عن أنّ الحجّ عبادة لله وتقرب إليه يصل به الإنسان إلى مدارج الكمال.

غير انّ كون الحجّ أمراً عبادياً أو مجسداً لأكثر العبادات لا ينافي أن يشتمل على بعد آخر فيه حياة للمسلمين وقوام لعيشهم وإقامة لشؤونهم الاقتصادية

---

١. البقرة: ١٢٧. ٢. إبراهيم: ٣٧. ٣. إبراهيم : ٣٧.

والاجتماعية والسياسية والعسكرية والحكومية، وهذا ما نعبر عنه بكون الحجّ ملتقى سياسياً تجتمع فيه هذه الآثار الحيوية، وهذا ما يدعمه أيضاً الذكر الحكيم وتؤيده السنة النبوية وعمل المسلمين في القرون الإسلامية الأُولى.

أمّا الآيات التي ترمز إلى تلك الأبعاد فنكتفي منها بما يلي:

الف. قال سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثابَةً لِلّناسِ وَأَمْناً﴾ [1] والمراد من كونه مثابة كونه مرجعاً للناس والمسلمين عامة، ولأجل انّ الحجّ عمل اجتماعي يجب أن يخيم عليه الأمن ويسيطر عليه السلام، حتى يقوم الناس بعمل اجتماعي لأهداف اجتماعية، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً﴾ [2]، وقال تعالى حاكياً عن خليله: ﴿رَبِّ اجْعَل هٰذَا بَلَداً آمِناً﴾ [3].

فالحجّ بما انّه أمر اجتماعي و ملتقى للشعوب المختلفة، بحاجة إلى استتباب الأمن والهدوء حتى يقوم كلّ إنسان وشعب ببيان فكرته ونظريته ولا يخاف من إنسان ولا دولة، ويتجلّى الحجّ كمنبر حرّ للمسلمين كلّهم، وهذا ما نعبر عنه بكونه عملاً اجتماعياً.

وفي جانب ذلك فالحجّ ملتقى ثقافي يلتقي فيه المفكرون الكبار والعلماء في شتى الحقول، فيقومون بعرض الاطروحات والتجارب على الصعيد الثقافي والعلمي والاقتصادي كي تتعرف كلّ طائفة على ما عند الأُخرى من الأفكار القيمة والنظريات المفيدة فيؤدي ذلك إلى التقاء الأفكار والاحتكاك بينها.

إذاً الحجّ عمل اجتماعي وملتقى ثقافي وفي الوقت نفسه مؤتمر سياسي سنوي يجتمع فيه قادة المسلمين فيتشاورون في مهام الأُمور بغية التنسيق والتعاون فيما بينهم ولعلّ إلى تلك الجوانب الثلاثة يشير قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنّاسِ﴾ [4].

---

١. البقرة: ١٢٥.
٢. آل عمران: ٦٧.
٣. البقرة: ١٢٦.
٤. المائدة: ٩٧.

فسواء كان القيام بمعنى القوام وما به حياة المسلمين، أو كان بمعنى ضدّ القعود، فالآية تتضمن نكتة مهمة وهي انّ كيان المسلمين معقود بناصية الحجّ فبه يقومون وفي ظلّه قوام حياتهم، فالآية نظير قوله سبحانه: ﴿**وَلا تُؤتُوا السُّفَهاء أَمْوالكُمُ الَّتي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً**﴾[1].

فوصف سبحانه أموال الناس بكونها قياماً لهم أي بها يقومون في الحياة، أو بها قوام حياتهم الاجتماعية، فاقتران الآيتين يعرب عن كون الحجّ ركناً في حياة المسلمين وبقاء كيانهم. ويشير أيضاً إلى تلك الجوانب قوله سبحانه: ﴿**لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ في أَيّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعامِ**﴾[2] فكانت الغاية من دعوة كلّ راجل وراكب إلى الاجتماع في أيّام الحجّ خصوصاً في المواقف و المشاهد، حيازة المنافع الكبيرة التي يحتوى عليها الحجّ. فما جاء في الآية تعبير جامع يتضمن كلّ نفع يرجع إلى المسلمين في ذلك الملتقى، ولا يصحّ لنا تخصيصه بالنفع المعنوي بإخراج النفع المادي، أو تخصيصه بنفع دون نفع، ففي ذلك الوفود إلى الله سبحانه منافع كثيرة يصطادها المسلمون حسب قابلياتهم وصلاحياتهم.

هذا ما لخصناه للقارئ الكريم من الذكر الحكيم،وأمّا السنّة الشريفة فيكفي في ذلك انّ النبي ﷺ أمر الإمام علياً عليه السلام بأن يتلو آيات البراءة في يوم الحجّ الأكبر. قال سبحانه: ﴿**وَأَذانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكينَ وَرَسُولُهُ ...**﴾[3] وهل يشك ذو مسكة في أنّ البراءة ورفع الأمان عن المشركين و إمهالهم أربعة أشهر عمل سياسي قام به قائد الإسلام أيّام رسالته وازدهار دعوته، حتى يكون ذلك قوّة للمسلمين في الأجيال اللاحقة؟

هذا هو الإمام الطاهر الحسين بن علي عليهما السلام أطاح بطاغية عصره ففضحه

---

١. النساء: ٥. ٢. الحج: ٢٨. ٣. التوبة: ٣.

بعرض جنـاياته وأعمالـه المخزية على الصحـابة الكرام والتـابعين لهم بإحسان في مـوسم الحجّ في أرض منىٰ، وقـد اجتمع تحت منبره قـرابة ثمانمائة منهم، وأبـان في خطـابه مـوقف أهل البيت مـن الإسلام، ثـمّ ذكر مظـالم الجهاز الأمـوي الحاكم، وطلب من الجميع أن يحملوا خطابه وهتـافه إلى إخوانهم وأوطانهم حتى يقفوا على فداحة الكـارثة التي ألمّت بهم من جـراء تسلـم بني أُميـة لمنصـة الحكم، وقـد جاءت خطبته في كتب السير و التاريخ، فمن أراد فليرجع إليها.

وبعد ذلك انّ في سيرة المسلمين لدليلاً واضحاً على أنّ الحجّ ملتقى سياسي وراء كونه عملاً عبادياً، فانّ الاصلاحات الجذرية التي قام بها المفكرون المسلمون قـد انعقدت نطفهـا في الأراضي المقدسـة وفي موسـم الحجّ، فحملوا الفكـرة التي تبنّـوها في جـواربيت الله الحرام وفي ذلك المحتشـد العظيم، ثمّ غـذّوها بفكـرتهم وتجاربهم إلى أن أُتيحت لهم الفرص لبنـاء مجتمع طاهر أو حكـومة عادلـة أو ثورة عارمـة في وجه الطغاة والظـالمين، وبذلك يتضح انّ الحجّ الإبـراهيمي ليس مجرد طقوس وسنن يقوم بها الفرد أو الجمع في أيّام معلـومات، بل فيه آية العبادة وشارة السيـاسـة وفيـه منـافع للمسلمين في عـاجلهـم وآجلهم، فيجـب على المسلمين احيـاء هذه السنـة الكريمـة الحجّ الحقيقي الـذي وضع حجـره الأساس إبـراهيم الخليل عليه السلام. كلّ ذلك بفضل الحجّ وببركة ذلك المحتشد العظيم. هذا ما سمح به الوقت، غير انّ للبحث صلة ربما نستوفيه في فرصة أُخرى.

جعفر السبحاني

مكة المكرمة ـ الخامس من شهر ذي الحجة

من شهور عام ١٤١١ هـ

المقالة الخامسة

بين الحقائق والأوهام

اتّفق المسلمون قاطبة ـ إلاّ من شذّ منهم ـ على أنّه يظهر في برهة من الزمن قائد يقوم باصلاح المجتمع الإنساني قاطبة، وينشر راية العدل في رُبوع الأرض بعد ما مُلئتْ بالجور والطغيان.

وهذا القائد المثالي العظيم من سلالة النبي ﷺ وقد جاء نبؤه وثورته العارمة على الفساد في الكتب السماوية، قال سبحانه: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُور مِنْ بَعْدِ الذِّكْر أَنَّ الأَرضَ يَرِثُها عِبادي الصّالِحُون**﴾[1].

ومن حسنِ الحظِّ أنّ زبور داود عليه السلام الموجود في العهد العتيق يحتوي على مضمون هذه الآية بصراحة.[2]

هذا ما اتّفق عليه المسلمون وأهل الكتاب جميعاً، غير انّ هنا نكتة لا محيص من إلفات نظر القارئ إليها.

إنّ الإمام وإن كان يظهر ويجابه الفسادَ بمنطق الشدة والعنف، ولكن هذا المنطق ليس العمادَ الوحيد لثورته وسلطته، بل هناك عماد آخر وهو بلوغ الإنسان

---

١. الأنبياء: ١٠٥.

٢. مزامير: المزمور السابع والثلاثون، الاصحاح ٢٢: «لأنّ المباركين منه يرثون الأرض، والملعونين منه يقطعون».

عبر القرون إلى ذروة الكمال من حيث الصناعات والعلوم وتقدمه في معترك العلوم والفنون والثقـافة على حدّ يُؤمـن إيماناً كاملاً بـأنّ الظروف الحاضرة لا تستطيع أن تلبِّي حاجـاته، وتُعْطي له حيـاة طيّبة و إنّ المنظمات البشرية مع دويّها وعنـاوينها الفخمة، لا تُسْعِده أو تُنقذه من محنته ومشكلته. ولأجل ذلك ظلّ يتربص بصيصاً من الأمل حتى تُـمدّه عناية غيبيّة في اصلاح المجتمع و إسعاده.

ولأجل هـذا الأمل والتفتح العقلي لقبول الـدعوة الغيبية ، إذا ظهـر القائد، الذي وعد الله به الأُمم لبّاه كثير من الناس بالإيمان والبيعة، والتضحية والفداء بلا شك وتردد و يستقبلونه بصدور رحيبة.

إنّ هذا التهيّؤ النابع من صميم الإنسـان، هو الذي يُسهِّل لقائد الإصلاح أن يصل إلى الغـايـة التي أُمـر بتحقيقها بسرعـة، وإلى ذلك العـامل المؤثـر يشير الإمام أبو جعفـر الباقر عليه السلام : إذا قـام قـائمنـا وضع الله يَـده على رؤوس العبـاد، فجمع به عقولَهم وكملت به أحلامهم. [1]

إنّ الشيعة قاطبة وكثيراً من أهل السنّة يرون انّ ذلك القائد هو الإمام الثاني عشر ومن ذريّـة الحسين عليـه الصـلاة والسـلام ونجـل الإمـام الحسن بـن علي العسكري عليه السلام وقد ولـد عام ٢٥٥ هـ ،وظلّ في أحضـان والده خمسَ سنين حتى تُوفي الإمام العسكري عليه السلام فتعلقت مشيئة الله تعالى بغيبته عن أعين الناس لا عن بيئاتهم، بل يحيى حياة إنسـانية كاملة من غير أن يعرفونـه إلى أن يأذن له الله تبارك وتعالى بالظهور.

والناظـر في حياة الأُمم يقف على أنّ ليس ذلك بـأمر بديع، فقـدكانت بين الأُمم غيبـة للأنبيـاء والأولياء حتى انّـه سبحانـه يأتي بـأُنموذج واضح في سـورة الكهف، ويُعرِّف إنساناً كان وليّاً راشداً من أوليائه يحيى بين الناس، لم يكن الناس

---

١. الكليني: الكافي، الجزء ١، كتاب العقل والجهل، الحديث ٢١.

يعرفونـه حتى النبي موسى عليه السلام . قال سبحـانه: ﴿فَوَجَدا عَبداً مِـنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلّمناهُ مِنْ لَدُنّا عِلماً﴾ . [١]

غـاب الإمـام الثـاني عشر على إثـر وفاة أبيـه وقـد شـاع بين النـاس على انّ المهدي المصلح نجل الإمام العسكري عليه السلام وهو الذي يقوّض عروش الجبابرة والطواغيت، فـلأجل ذلك لما انتشر نبأ وفاة أبيه تقـاطرت لجانُ التفتيش على بيت الإمام العسكري حتى يعثروا على الوارث الوحيد لإمامته، ولكنّهم رجعوا خائبين، فقد حـالت مشيئـة الله تعالى بينهم و بين مـا وعد الله بـه الأُمم في كتب السـابقين واللاحقين.

ما عشت أراك الدهر عجباً

إنّ هناك مـن ينقض ويبرم في أحاديث الإمـام المهدي عليه السلام وبالأخص ما يرجع إلى ميلاده وحيـاته وسفرائه وهو ليس في حلّ ولا مُرْتَحَلٍ ، ممّـا يرجع إلى علم الحديث وأُصوله وأحكامه وأقسامـه. فيا ليت شعري ماذا جرى على عالم الحديث حتى أخذ الصبيان في الكتاتيب يحلـون ويعقدون من دون أن يتلمذوا عند عالم أو يتفقهوا عند محقق.

إذا ما فصلت عليا قريش   فلا في العير أنت ولا النفير

إلى الله المشتكى من أقـلام مأجـورة أو أوراق، لا تهدف إلاّ تكديـر الصفو، وتغطية الـوقائع المسلّمـة، وإنكار الأحـداث الواضحـة وجحدوا بها واستيقنتهـا أنفسهم، فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى.

نعم إنّ هذا النوع من الخصوم، يقدّم لنا أكبر خدمة و هي استقطاب نظر المحققين إلى الفحص عن الروايات الواردة حول المهـدي بشتّى عناوينه فيخرجوا

---

١. الكهف: ٦٥.

عن الدراسة أكثر صلابة ، وأكبر رصيداً، مرفوعي الرأس عند أصحاب التحقيق، وحماة الحقائق.

غاب الإمام الثاني عشر عن أعين النـاس، ولكن لم تنقطع صلته بهم، وكان بينـه وبين شيعتـه صلـة وثيقـة عـن طـريـق سفـرائه طيلـة سبعين سنـة (٢٦٠ـ ٣٢٩هـ)، وكـان سفراؤه هـم الذين يتصلـون بالإمـام، ويبلغونـه رسائل شيعتـه وحوائجهم، فيجيبهم الإمـام عن طريقهم ويُرْشدهم، وهـؤلاء السفراء هم أكارم جيله، وأصفياء عصره ، قـد حَمل كل واحد منهم على عاتقـه رسالة هدايـة الناس ورفع حوائجهم، ومجابهة الدعايات الضالة. وهؤلاء عبارة عن:

١. عثمان بن سعيد العمري، وكانت سفارته ما بين ٢٦٠ـ ٢٦٥هـ.
٢. محمد بن عثمان العمري، و كانت سفارته مابين ٢٦٥ـ ٣٠٥هـ.
٣. الحسين بن روح النوبختي، وكانت سفارته ما بين ٣٠٥ـ ٣٢٦هـ.
٤. علي بن محمد السمري، وكانت ما سفارته بين ٣٢٦ـ ٣٢٩ هـ.

لقد مهدت الغيبة الصغرى الناس إلى الإيمان بالغيبة الكبرى التي انقطعت فيها الصلـة بين الإمام والناس، ولولا الغيبـة الأُولى لكان تحمل الغيبة الثانيـة أمراً شديداً على المجتمع، إلاّ أنّ الله تعـالى بلطفه، جعل الغيبة الصغرى طـريقاً للغيبة الكبرى، وسبباً لمزيد الإيمان بها.

الإمام المهـدي هو شمس الحياة الطـالعة التي لا يُمكن أن تستر بـالأوهام والافتراءات ولا بالـدعايات الفـارغة ولا بالتحليـلات الخاطئة.ولا تجد موضـوعاً كهـذا الموضوع ــ مـوضوع المهـدي ـ تـواتـرت فيه الـروايـات، وألّفت فيـه كتب وموسوعات منذ بدء حياته إلى يومنا هذا.

نعم تغمرني مـن الأحاسيس ماتـراها متجلية في الأبيـات التالية وهي بـاقة زهور عطرة نقدمها إلى القرّاء جـادت بها قريحة بعض المخلصين المجاهرين بولاء

أئمّة أهل البيت عليهم.[١]

لئن غبت عنا هيكلاً متجسداً فما غاب منك الروح يشرق و الفكر

إلى أن قال:

ءألتاع بالأشواق جهراً وخفيةً وأنت الذي عني تصدُّ وتزورُّ

أما آن أن ألقاك يا حبُّ ساعةً فقد ملّني حتى التجلد والصبرُ

أسير غرام لجَّ في قلبي الهوىٰ طويلاً ـ وهل إلاّ الهوىٰ للهوى أجرُ

لكل أسيرٍ مدة ثمّ تنقضي ولكنّ من يهوىٰ يدوم له الأسرُ

جعفر السبحاني

قم. مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

غرة ذي الحجة الحرام من شهور عام ١٤١٦هـ

---

١. للعلاّمة المحقق والشاعر المفلق: السيد محمود البغدادي.

المقالة السادسة

دراسة علم الكلام حاجة ملحّة

الحمد لله الأوّل فلا شيء قبله، والآخر فلا شيء بعده، والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه. والصلاة والسلام علىٰ ذي المقام الأجلّ، الحائز لقصبات السبق في مضمار كلّ فضل، سيدنا ونبينا محمّد مصباح الهدى وملاذ أهل التقىٰ، وآله الطاهرين الذين مستقرهم خير مستقر ومنبتهم أشرف منبت، سلاماً لا بداية له ولا نهاية.

أمّا بعد:

فإنّ التفكير هو العامل المميّز للإنسان عن سائر الحيوانات، فهو يشاركهم في الغرائز والميول، ولكن يفارقهم بأنّه موجود مفكّر، وفي ظل التفكير بسط نفوذه، وبلغ حدّاً حيّر فيها العقول، وأدهش فيه الألباب، ولم يزل دؤوباً في تسخير ما خُلِق له.

وقد حاز الفكر علىٰ عناية كبيرة في القرآن الكريم حتى نوّه عليه ثماني عشرة مرة بصور مختلفة، إلى أن عاد وجعله من سمات أولي الألباب، وقال: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ**

اللهَ قِياماً وَقُعُوداً وَ عَلىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّارِ﴾ (١).

كما أنّه سبحانه قد أمر بالتعقّل في غير واحد من الآيات الكونية وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتي تَجْري فِي البَحْرِ بِما يَنْفَعُ النّاسَ وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْريفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

والدعوة إلى التفكير والتعقّل في آياته سبحانه ليست لهدف الوقوف على النظام السائد في الكون الذي تتكفّل ببيانه العلوم الطبيعية والفلكية، بل ثمّة غاية قصوىٰ هي أشرف من الأُولىٰ وهي الوقوف علىٰ باطن الكون الذي يعبّر عنه سبحانه بملكوت السماوات والأرض، وهو عبارة عن جهة تعلقه بخالقه، وقيامه به قيام المعلول بالعلّة، والمعنى الحرفي بالمعنى الاسمي، وهذا النمط من التفكير يصنع من الإنسان عارفاً موحداً لا يرى شيئاً إلاّ ويرى الله معه و قبله وبعده، قال سبحانه: ﴿وَكَذلِكَ نُري إِبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنينَ﴾ (٣). وقال سبحانه: ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٤).

إنّه سبحانه جهز الإنسان بالتفكير والتعقّل، وأعطىٰ له الأدوات المطلوبة، ومن أفضلها السمع والبصر، كما أشار إليه في قوله سبحانه: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ

---

١. آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

٢. البقرة: ١٦٤.

٣. الأنعام: ٧٥.

٤. الأعراف: ١٨٥.

بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

والمراد من الشكر في ذيل الآية هو صرف النعمة في مواضعها، فشكر السمع والبصر هو إدراك المسموعات والمبصرات بهما، وشكر الفؤاد هو إدراك المعقولات وغير المشهودات به، فالآية كما تحرّض على إعمال السمع والبصر في درك ظواهر الكون، تحرّض أيضاً علىٰ استعمال الفؤاد والقلب والعقل فيما هو خارج عن إطار الحس وغير واقع تحت متناول أدواته، فمَن أراد قصر التعليم والتفكير علىٰ ظواهر الكون وحرمان الإنسان عن التفكّر خارج نطاق الحس فقد خالف القرآن الكريم.

كما وانّ من اقتصر على المعرفة الحسية هو أشبه بالطفل الذي لا يتمكن من التحليق في سماء المعرفة، بل يقتصر بما حوله من الأشباه والصور، كما أنّ من اقتصر على المعرفة العقلية فقد أفرط، وربّما حُرِم من بعض المعارف التي يكون الحس وسيلة إليها فالإنسان يستخدم الحس والعقل ويحُلِّق بكلا جناحيه في سماء العلم والعرفان، فالقرآن الكريم يُعطي للحس منزلة ومكانة ، كما ينمّي القابليات الفكرية في الإنسان عن طريق طرح قضايا حسّية ملموسة وعقلية.

قال سبحانه: ﴿نَحْنُ خَلَقْناكُمْ فَلَولا تُصَدِّقُونَ* أَفَرَأَيْتُمْ ما تُمْنُونَ* ءَ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخالِقُونَ* ... أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ * ءَ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعُونَ* لَوْ نَشاءُ لَجَعَلْناهُ حُطاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ* إِنّا لَمُغْرَمُونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ الماءَ الّذِي تَشْرَبُونَ* ءَ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ* لَوْ نَشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فَلَولا تَشْكُرُونَ* أَفَرَأَيْتُمُ النّارَ الّتي تُورُونَ*

---

١. النحل: ٧٨.

﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾[١].

انظر إلى هـذا البيان الـرفيع والكلام الـرصين كيف يطـرح أُسلوب التفكير الصحيح؟ وفي نفس الـدعوة إلىٰ ظواهر الكـون والنظام السائد فيه، دعـوة أُخرى للارتقـاء إلى معرفة عقليـة بحتة، وهو أنّ للنظام صلـة بخالق عـالم قادر في وضع الكون على أحسن نظام.

يذكر فيها أمر الخلق، والزرع، والماء، والنار، ويذكر دور الإنسان فيها، فأمره في الأوّل لا يزيـد على أن يُودع الـرجل مـا يمني في رحم امـرأته، ثمّ ينقطـع عمله وعملها، فالعقل يحكم بأنّ هناك قدرة غيبية تأخذ بزمام الأُمور، تعمل في هذا الماء المهين، في تنميته وبناء هيكله، ونفخ الروح فيه.

وأمره في الثـاني لا يزيد على الحرث وإلقـاء الحب والبذر، الذي هـو صنعه سبحانه، ثـمّ ينتهي دوره، فلا محيص عن وجود قـدرة تنميه تحت التراب، وتجعله سنبلاً أو سنابل فيها حبٌّ كثير.

وأمّا الماء فليس لـلإنسان فيه أيّ دور، لكنّه أصل الحيـاة وعنصرها، لا تقوم إلاّ به، فمَنْ الذي خلقه وأنزلـه من المزن، وأسكنه في الأرض؟ ومثله النار فليس له فيها شأن سـوى أنّه يوقدها، ولكـن مَن الذي خلق وقودهـا، وأنشأ شجرتها التي توقد؟

إنّ الذكـر الحكيم عـرض هذه الأُمـور لغايـة الاهتداء بها إلى الحقيقـة التي تنتهي إليها هذه الحقـائق، والتي تمسك بزمام هذه الظواهـر الكونية، ولأجل ذلك ختم الآيات بقوله :﴿فَسَبِّح بِٱسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيم﴾ .

---

١. الواقعة: ٥٧ ـ ٧٢.

القرآن هو المنطلق لتنمية الفكر الإنساني

ما مرّ من الآيات يُعرب عن أنّ القرآن هو المنطلق الأوّل لتنمية الفكر الإنساني، وحثّ الإنسان إلى التعقل والتفكير، فمن أراد أن يخلص لله في العبودية بلا تحليق العقل في سماء المعرفة فقد تغافل عن هذه الآيات ونظائرها التي تأخذ بيد العقل من حضيضه وتقوده إلى أوج المعرفة، قال سبحانه: ﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّماوات وَالأَرض بَل لا يُوقِنُون**﴾ [1]. فلو فسرنا (الشيء) في الآية بالسبب والعلّة فالجزء الأوّل من الآية يشير إلىٰ برهان الإمكان الذي يقوم علىٰ لزوم سبب موجب لخروج الشيء من العدم إلى الوجود، والجزء الثاني منها يشير إلى بطلان كونهم خالقي أنفسهم، الذي يستقل العقل ببطلانه قبل أن يستقل ببطلان الدور اللازم عليه.

ومَن سبر هذه الآيات وتدبّر فيها يقف على عظمة قوله سبحانه: ﴿**سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ**﴾ [2].

أئمّة أهل البيت روّاد الفكر

إنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام ـ تبعاً للذكر الحكيم ـ فتحوا أمام الأُمّة باب التفكير الصحيح في المعارف الإلهية والمسائل العقلية، وأوّل من ولج ذلك النهج هو الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام رائد الفكر، فانّه صلوات الله عليه يذكر في خطبه ورسائله وكلماته القصار كثيراً ممّا يرجع إلى أسمائه وصفاته، والعوالم الغيبية مقروناً بالبرهان والدليل، وكفاك في هذا الباب ما ذكره في كيفيّة وصفه سبحانه التي شغلت بال التابعين والمتكلّمين على مر العصور، يقول سلام الله عليه:

---

١. الطور: ٣٥ ـ ٣٦.

٢. فصلت: ٥٣.

«أوّل الـدين معـرفتـه، وكمال معرفتـه التصـديق بـه، وكمال التصـديق بـه توحيـده، وكمال توحيـده الإخلاص لـه، وكمال الإخلاص لـه نفي الصفـات عنه لشهادة كلّ صفـة انها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّـه غير الصفة، فمَن وصف الله سبحانه فقـد قرنه، ومن قرنـه فقد ثنّاه، ومَن ثنّاه فقد جـزّأه، ومن جزّأه فقد جهله، ومـن جهله فقد أشار إليه، ومـن أشار إليه فقد حدّه، ومـن حدّه فقد عدّه، ومن قـال: فِيمَ، فقد ضمنه، ومن قـال: عَلام، فقد أخلىٰ منـه، كائن لا عن حدث، مـوجود لا عن عدم، مع كـل شيء لا بمقارنة، وغير كلّ شيء لا بمـزايلة فاعل لا بمعنـى الحركات والآلة، بصير إذ لا منظـور إليه من خلقه،متـوحِّد إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده...». [1]

فهو عليه السلام في كلامه هذا يبيّن لنا كيفيّة وصفـه سبحانه وتعالى بالعلم والقدرة أوّلاً، كما يبيّن لنا مكانـة الممكنات بالنسبة إليه سبحـانه ثانياً، ثمّ يبيّن معنـى كونه فاعلاً وخالقاً إلى غير ذلك من النكات البديعة في كلامه.

وقـد تبعه الأئمّـة المعصومـون فسلكوا سبيلـه في تبيين المعارف والعقـائد، وإقامة البراهين الصحيحة المأخوذة مـن الكتاب والسنة أو العقل السليم، وكفىٰ في ذلك ما ألّفه شيخنـا الصدوق في كتابه «التوحيد» فإنّـه نسخة عقليّة، أو رشح من فيض، جمعه ذلك المحدّث في القرن الرابع.

ويكفيك في الـوقـوف على بُعـد المنهجين (منهـج الإمـام علي عليه السلام والأئمّة المعصـومين، ومنهج أهل الحديث) مقـارنـة هذا الكتـاب بكتاب التـوحيـد لابن خزيمة (المتوفّـى ٣١١هـ) [2] الـذي ألّفه قـريبـاً من عصر الصـدوق في توحيـد

---

١. نهج البلاغة: الخطبة الأُولى.

٢. هو محمد بن إسحاق بن خزيمة بن مغيرة بن صالـح النيسابوري مؤلّف كتاب التوحيد والصفات وفقه الحديث، توفّي عام ٣١١هـ عن عمر ناهز ٨٨عاماً.

الصحابة والتابعين، وأسماه «التوحيد و الصفات» فتجد أنّ الكاتبين سلكا مسلكين مختلفين أحدهما يعتمد على الكتاب والسنّة الصحيحة، والعقل الصريح، وتحليل العقائد والمعارف تحليلاً عقلياً رائعاً، معتمداً على الفكر، وأمّا الآخر فهو يعجّ بروايات أكثرها ترجع إلى مستسلمة أهل الكتاب في العصور الأُولىٰ ككعب الأحبار، ووهب بن منبه اليماني، وتميم بن أوس الداري، إلى غير هؤلاء ممّن تلقوا القصص والحكايات الخرافية من أساتذتهم وبثوها بين المسلمين.

وأنت إذا تفحّصت ما انطوىٰ عليه تفسير الطبري، و الدر المنثور للشيخ السيوطي، تراها عاجّة بروايات منتهية إلى الصحابة و التابعين، وليس فيها شيء يرجع إلىٰ تحليل العقائد والمعارف، وعلىٰ ذلك درج الخلف، فصار التعطيل شعاراً لأهل الحديث ومن تبعهم.

تدوين علم الكلام حاجة ملحّة

فتح المسلمون البلاد المعمورة بإيمانهم وعزيمتهم الراسخة، فاعتنق الإسلام أُمم كثيرة كانت لهم حضارات عريقة وديانات مختلفة، فأدّى ذلك إلى احتكاك المسلمين بهم، وكانت نتيجته انتقال الفلسفة اليونانية والفارسية إلى العواصم الإسلامية، ونشطت من خلالها حركة الترجمة والتعريب، فتُرجمت كتب فلسفية كثيرة تحمل طابع الفلسفة اليونانية والرومانيةوالفارسية في طياتها، وهذه الحركة قد تركت خيراً كثيراً، حيث اطّلع المسلمون من خلالها على العلوم الطبيعية والرياضية، والفلكية، وماوراء الطبيعة، وشكّل ماورثوه عن طريق الترجمة فيما بعد النواة الأُولى لإرساء قواعد هذه العلوم و إكمالها، حتى تألق نجم العلم في المشرق الإسلامي، وصار مركزاً ومحطاً يقصده روّاد العلم والمعرفة من كلّ حدب وصوب.

إلاّ أنّ تلك الحركة قد تركت آثاراً سلبية حيث بذرت شبهاً كثيرة في حقل

العقائد والأحكام بين المسلمين، خصوصاً غير المتدرّعين منهم بسلاح العلم والبرهان، فاشتدّ حمى الجدال بين المسلمين وروّاد الأفكار الدخيلة.

كما أنّه كان لوجود الأسرى أثرٌ فعالٌ في طلي الشبه وسوقها في بوتقة البرهان ردّاً على العقائد الإسلامية، نظراء ابن أبي العوجاء وحماد بن عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع بن أياس، وعبد الله بن المقفع، الذين كان لهم نشاطٌ ملموس في زعزعة عقائد العامة.

وكان لظاهرة الترجمة، وانتشار الشُبه بين المسلمين، تأثيرٌ مهم في شحذ همم المفكرين من المسلمين بغية الوقوف أمامها، وبذلك نشأ علم الكلام ودونت رسائل في الذّب عن العقيدة والتدرّع بنفس السلاح الذي تدرّع به المخالف، فلم يمض القرن الأوّل إلاّ وتجد حلقات شكلت لهذا العلم طرحت فيها المسائل الكلامية علىٰ طاولة البحث لتفنيد حجج المخالفين وإبطالها.

نعم قام بعض السذّج من أهل الحديث بتحريم علم الكلام، والوقوف أمامه، ودعوا إلى نبذه، بزعم أنّهم بذلك يقدمون أفضل خدمة للإسلام وعقيدته، غافلين عن أنّ سلب هذا السلاح من يد المفكرين من المسلمين يوجب استيلاء الإلحاد على الربوع الإسلامية.

كلّ هذا وذاك دعا المفكرين إلى تأسيس علم الكلام، وقد استلهموا في ذلك من الكتاب العزيز، وخطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ومدرسة الأئمّة من بعده التي تركت بصمات واضحة علىٰ زعزعة الحركة الإلحادية، وجعل الشبه والردود في مدحرة البطلان، ولذلك كان تدوين علم الكلام حاجة ملحّة لا ترفيهية، وقد أخذ علم الكلام علىٰ عاتقه الذب عن حياض العقيدة الإسلامية، باستعراض البراهين العقلية تارة، وبإعمال أساليب الجدل والمناظرة تارة أُخرىٰ، وقد بلغ هذا العلم ذروته وظهرت مناهج كلامية مختلفة تنتهي جذورها إلىٰ ما ورثوه من الكتاب، وخطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام.

دعاة التفكير في المعارف

كان لأهل الحديث صيت واسعٌ في أرجاء العالم الإسلامي، وكانت الأكثرية تبعاً لهم، وقد وُجِد في صفوف المسلمين من نادىٰ بالتفكير وإقامة البرهنة على المعارف و تحليلها علىٰ ضوء الدليل العقلي، كلّ ذلك استلهاماً من الذكر الحكيم وخطب الإمام أمير المؤمنين وما آثر من أهل بيته المعصومين.

قال ابن أبي الحديد [1]: إنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهي، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم، ومعلومه أشرف المعلومات، ومن كلامه عليه السلام اقتُبِس وعنه نُقِل، وإليه انتهى. [2]

وما ذكره ابن أبي الحديد هو الذي يدعمه تاريخ علم الكلام، فإنّ المناهج المعروفة في علم الكلام لا تتجاوز عن أربعة وهي:

الأوّل: الإمامية.

الثاني: المعتزلة.

الثالث: الأشاعرة.

الرابع: الماتريدية.

وهذه المدارس الكلامية على الاختلاف السائد بينها تنتهي جذورها إلى الإمام علي عليه السلام.

أمّا الإمامية فهم شيعة علي عليه السلام في عامّة المجالات، وأمّا المعتزلة فمؤسّسها واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١ هـ) وعمرو بن عبيد (٨٠ ـ ١٤٣ هـ) وقد أخذ واصل

---

١. هو عز الدين أبوحامد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني، توفي عام ٦٥٥هـ.

٢. شرح نهج البلاغة: ١/ ١٧.

وعمرو عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية، وأخذ أبو هاشم عن أبيه محمد بن الحنفية، وأخذ محمد عن أبيه علي بن أبي طالب. [١]

وأمّا المنهج الأشعري فمؤسسه هو الإمام أبو الحسن الأشعري (٢٦٠ــ٣٣٠هـ) فقد اتّفقت كلمتهم على أنّه خريج مدرسة أبي علي الجبّائي (٢٣٥ــ٣٣٠هـ) وإمام المعتزلة، و إن عدل عن ذلك المنهج وأسّس منهجاً معتدلاً بين أهل الحديث والإعتزال، ولكنّه تبحّر في إقامة البرهان والاستدلال على المعارف في منهج الاعتزال، فهو عيال على المعتزلة.

وأمّا الماتريدية فمشيّد أركانها هو الإمام محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي (٢٦٠ــ٣٣٣هـ) وقد عاصر الماتريدي الإمام الأشعري و كانا يعملان علىٰ صعيد واحد، وكلٌّ يكافح الاعتزال، ويدعو إلى منهج متوسط بين المنهجين، ولكن المنهج الماتريدي أقرب إلى الاعتزال من المنهج الأشعري، والمنهج الذي اختاره الماتريدي وأوضح براهينه، هو المنهج الموروث عن أبي حنيفة (٨٠ـ١٥٠هـ) في العقائد والكلام والفقه ومبادئه، والتاريخ يحدثنا أنّ أبا حنيفة كان صاحب حلقة في الكلام قبل تفرغه لعلم الفقه، وقبل اتصاله بحمّاد بن أبي سليمان، الذي أخذ عنه الفقه.

هؤلاء هم دعاة التفكير في المعارف على اختلاف وجهات نظرهم.

المعطّلة خصوم العقل

ارتحل النبي ﷺ إلى دار البقاء، وترك شريعة بيضاء، وكتاباً هو خزانة المعارف، وأمر الأُمّة بالتدبّر والتفكّر فيه دون فرق بين ما يرجع إلى آيات الأحكام، أو قصص الأقوام، والأنبياء، أو المعارف والعقليات، فقال سبحانه: ﴿كِتابٌ

١. طبقات المعتزلة: ١٦٤.

أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبابِ﴾[1].

ومع هـذه الدعـوة المؤكدة التي نـادىٰ بها القرآن ظهـرت فرقـة في العصور الأُولى صـارت سمتهم وشعـارهـم إعدام العقـل وتعطيلـه عن التفكّـر فيما وراء الحس، ممّـا يرجع إلى أسمائه سبحـانـه وصفاتـه وغير ذلك، وقـالوا معتـذرين في تعطيل العقل «إنّ ما أُعطينـا من العقل لإقامة العبودية لا لإدراك الـربوبية، فمن شغل مـا أُعطـي لإقامـة العبـوديـة بإدراك الـربوبيـة فـاتتـه العبوديـة ولم يـدرك الربوبية».[2]

وكأنّ العبـوديـة عند القـائل هي القيـام والقعود والإمسـاك، التي هـي من واجبات الأعضـاء، وغاب عنـه أنّ العبودية تقـوم علىٰ ركنين، ركن منه يـرجع إلى الأعضاء والجوارح، وركن آخر إلى العقل واللّب، فتعطيل العقل عن معرفة المعبود بالمقدار الميسور تعطيل للعبودية.

فالاقتصار في معرفـة الربّ بالعبودية الظاهريـة من القيام والقعود من دون التعرّف على ما للمعبود من جمال وجلال، يؤدي إلى كون عبودية الإنسان أدون من عبـوديـة الجماد، إذ الجماد ربّما يستشعـر عظمـة الخالـق، حسـب مقـدرتـه، قـال سبحانه: **﴿وَإِنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ﴾**[3].

والعجب انّ هـذا النمط من الجمـود قد عـاد إلى السـاحة الفكـرية بـاسم السلفية، وأخذ لنفسـه طابعاً جديـداً، وصار الجهل بالمعـارف وإعدام العقل عن التفكير مفخرة نادىٰ بها أصحابها، وبذلك انقـادوا لما في الصحاح والمسانيد، من

---

١. ص: ٢٩.

٢. علاقة الإثبات والتفويض: ٣٣.

٣. البقرة: ٧٤.

التشبيه، والتجسيم، وإثبات الجهة بلا اكتراث.

قال ابن تيمية ـ مثير الدعوة السلفية بعد اندراسها ـ : إنّ لله يدين مختصتين به ذاتيتين له كما يليق بجماله، وانّه سبحانه خلق آدم بيده دون الملائكة، وإبليس، وانّه سبحانه يقبض الأرض ويطوي السماء بيده اليمنىٰ. [١]

وهذه العبارة ونظائرها التي طفحت بها كتب السلفية ترمي إلى أحد أمرين إمّا التجسيم والتشبيه، أو تعطيل العقول عن معرفة الكتاب العزيز.

فإنّ اليد والوجه والرجل موضوعات في اللّغة العربية للأعضاء خاصة، فلو أُريد المعنى الحقيقي يلزم منه التشبيه، وإن أُريد المعنى الكنائي فهذا هو التأويل عندهم، وهم يفرّون منه فلم يبق هناك معنى ثالث حتى يتبعه السلفية.

وقد بلغ بهم التزمّت بمكان حدا بهم أن لا يقيموا للبحوث العقلية وزناً.

يقول ابن أبي يعلىٰ في طبقات الحنابلة، عن طريق الأهوازي: قرأت عن علي القومسي، عن الحسن الأهوازي، قال: سمعت أبا عبدالله الحمراني يقول: لما دخل الأشعري بغداد جاء إلى البربهاري فجعل يقول: رددت علىٰ الجبائي وعلىٰ أبي هاشم ونقضت عليهم وعلى اليهود والنصارى والمجوس وقلت وقالوا، وأكثر الكلام، فلمّا سكت، قال البربهاري: وما أدري ممّا قلت لا قليلاً ولا كثيراً، ولا نعرف إلاّ ما قاله أبو عبد الله أحمد بن حنبل، فخرج من عنده وصنّف كتاب «الإبانة» فلم يقبله منه. [٢]

---

١. مجموعة الفتاوىٰ: ٦/ ٣٦٢.

٢. ابن عساكر الدمشقي: تبيين كذب المفتري: ٣٩١، قسم التعليقة.

علم الكلام في القرن الخامس

بلغ علم الكلام ذروته في الكمال، وظهر في المنهج الأشعري لفيف من الأعلام منهم:

١. القاضي أبو بكر الباقلاني (المتوفّى ٤٠٣هـ) مؤلّف كتاب «التمهيد» في الرّد على الملاحدة، وهو كتاب كلامي يعرف منه آراؤه الكلامية في مختلف الأبواب.

٢. أبو منصور عبد القاهر البغدادي (المتوفّى ٤٢٩هـ) مؤلّف كتاب «الفرق بين الفرق» في الملل والنحل و«أُصول الدين» طبع غير مرّة.

٣. إمام الحرمين الجويني (المتوفّى ٤٧٨هـ) مؤلّف كتاب «الإرشاد» في أُصول الدين، وقد طبع غير مرّة.

كما ظهر في المنهج المعتزلي روّاد فطاحل منهم:

١. قاضي القضاة عبد الجبار المعتزلي (المتوفّى ٤١٥هـ)مؤلف كتاب «المغني» في عشرين جزءاً، وهو أبسط كتاب كلامي أُلّف في هذا المضمار.

٢. أبو الحسين البصري (المتوفّى ٤٣٦هـ) مؤلّف كتاب «شرح الأُصول الخمسة» التي بني الإسلام عليها.

كما برع في المنهج الإمامي نوابغ الكلام، منهم:

١. شيخ الأُمّة شيخنا المفيد (٣٣٦ـ٤١٣هـ) يعرّفه ابن النديم: أبو عبد الله، في عصرنا انتهت رئاسة متكلّمي الشيعة إليه، مقدّم في صناعة الكلام على مذهب أصحابه، دقيق الفطنة، ماضي الخاطرة، شاهدته فرأيته بارعاً.[1] وله كتب كثيرة في علم الكلام مذكورة في فهرس كتبه.[2]

---

١. فهرست ابن النديم: ٢٦٦ .

٢. النجاشي، الرجال: ٢/ ١٠٤ برقم ٧٠٦.

٢. علي بن الحسين الشريف المرتضى (٣٥٥ ـ ٤٣٦هـ) تلميذ الشيخ المفيد.

عرّفه تلميذه النجاشي بقوله: حاز من العلوم مالم يدانه فيه أحد في زمانه، وسمع من الحديث فأكثر، وكان متكلماً شاعراً أديباً، عظيم المنزلة في العلم والدين والدنيا، ومن كتبه الكلامية: «الشافي» في نقض المغني للقاضي عبد الجبار في قسم الإمامة، وكتاب «تنزيه الأنبياء والأئمّة» و«الذخيرة» في علم الكلام، وغيرها من الرسائل [١] وشرح جمل العلم والعمل.

٣. أبو الصلاح التقي بن الحلبي (٣٧٤ـ٤٤٧هـ)مؤلف «تقريب المعارف» في الكلام، مطبوع.

٤. وأخيرهم لا آخرهم محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ـ٤٦٠هـ).

يعرّفه زميله النجاشي بقوله: جليل من أصحابنا، ثقة، عين، من تلاميذ شيخنا أبي عبد الله.

ويعرّفه العلاّمة بقوله: شيخ الإمامية ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارف بالأخبار والرجال والفقه والأُصول والكلام والأدب، وجميع الفضائل تنتسب إليه، وله في الكلام كتب كثيرة منها: الجمل والعقود، تلخيص الشافي في الإمامة، ومقدّمة في المدخل إلى علم الكلام [٢]، والاقتصاد، والرسائل العشر.

---

١. النجاشي: الرجال، برقم ٧٠٦.

٢. النجاشي: الرجال، برقم ١٠٦٩، والخلاصة: ١٤٨.

علم الكلام في القرن السادس

ما أن أطل القرن السادس إلاّ وقد أفل نجم المعتزلة، حيث وضع فيهم السيف، من قبل الخلافة العباسية فلا نجد لهم أثراً وذكراً إلاّ أنّ الزمخشري مؤلّف الكشاف قد أورد آراءهم في تفسيره، وكان غياب المعتزلة عن المسرح الفكري خسارة جسيمة للمنهج العقلي، وقد بلغ التعصّب بمكان حتى أن أُحرقت كتبهم، وقتل أعلامهم وشرّدوا، والحديث ذو شجون. [١]

وأمّا المنهج الأشعري فقد نبغ فيه أعلام في الكلام، منهم:

١. حجّة الإسلام الغزالي(٤٥٠ـ٥٠٥هـ)و من كتبه «قواعد العقائد» فقد اقتفىٰ أثر إمامه الأشعري، ويلتقي معه في كثير من الآراء والمباني، وقد أوضحنا حال الكتاب والمؤلّف في كتابنا «بحوث في الملل والنحل». [٢]

٢. أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٣٧ـ٥٤٨هـ) مؤلّف كتاب «الملل والنحل» و«نهاية الإقدام» في علم الكلام، إلى غير ذلك من الكتب.

كما واحتفل المنهج الإمامي في القرن السادس في حقل الكلام بمتكلّمين بارعين، بلغوا القمّة في تحقيق الأُصول الكلامية، وقد عجنوا ما ورثوه عن مشايخهم وأسلافهم في القرون السالفة، وما جادت به قريحتهم العلمية، ونذكر المشاهير منهم:

١. قطب الدين المقري النيسابوري من مشايخ السيد ضياء الدين أبي الرضا فضل الله الراوندي (المتوفّى حدود ٥٤٧) مؤلف كتاب الحدود (المعجم الموضوعي للمصطلحات الكلامية وغيره) وقد طبع.

٢. الفضل بن الحسن الطبرسي، مؤلّف مجمع البيان (المتوفّى ٥٤٨هـ) وله في تفسيره بحوث كلاميّة مهمة.

---

١. لاحظ الجزء الثاني من كتابنا «بحوث في الملل والنحل».

٢. بحوث في الملل و النحل: ٢/ ٣٢٥ـ ٣٣٩.

٣. الحسين بن علي بـن محمـد بن أحمد المعـروف بـ«أبي الفتـوح الـرازي » (المتوفّـى ٥٥٢هـ) وكتابه مشحون بالبحوث الكلامية.

٤. محمـد بن علي بن شهـر آشوب المازنـدراني (المتوفّـى ٥٥٨هـ)وقد ذكر فهرس كتبه المختلفة في معالم العلماء.

٥. قطب الـدين سعيـد بن هبـة الله الراونـدي (المتوفّـى ٥٧٣هـ) مؤلف كتاب تهافت الفلاسفة، وجواهر الكلام في شرح مقدمة الكلام.

٦. سديد الدين الشيخ محمود الحمصي المتوفّـى في أواخر القرن السادس، مؤلّف «المنقذ من التقليد» مطبوع.

٧. أبو منصـور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي صـاحب «الاحتجاج» توفي في أواسط القرن السادس.

٨. مؤلّفنا الجليل السيد حمزة بن علي بن زهرة الحلبي (٥١١ ـ ٥٨٥هـ).

ومن أشهر كتبه غنية النزوع إلى علمي الأُصول والفروع.

يقع المؤلَّف في جـزءين أحدهما في علـم الكلام، والآخر في علـم الأُصول، فكـان مشتملاً علىٰ علـوم ثـلاثـة، والناظـر في الكتـاب يلمس انّ المؤلـف يتمتع بموهبة كبيرة في التفكير الكـلامي، والأُصولي، فله هنـاك آراء وأفكار وعلىٰ صعيد آخر فقد استفـاد من كتب «شرح جمل العلم والعمل» للسيد المرتضـى و«تقريب المعـارف» لأبي الصلاح الحلبـي و«الاقتصاد» و«الـرسائل العشر» لشيـخ الطائفـة الطوسي، ومن كتب المعتزلة «شرح الأُصول الخمسة» للقاضي عبد الجبار، وأضاف إليها ما جادت بـه قريحته، وذهنه الوقّاد، فرحم الله مـؤلّفنا الجليل حيث استوعب البحث في العلوم الثلاثة، وأتىٰ بكتاب بديع قلّ نظيره.

جعفر السبحاني

قم المقدسة

المقالة السابعة

واقع التشريع الإسلامي

معالمه وملامحه [1]

التشريع أحد أركان الحضارة فلا تجد مجتمعاً حضارياً إلاّ وعنده قوة التشريع والتقنين وهذا ممّا لا كلام فيه.

وإنّما الكلام في الأصل الذي يعتمد عليه التشريع ويستمد منه. فهناك منهجان:

منهج يعتمد في التحليل والتحريم على رأي الأكثرية فما صوبته الأكثرية يُصبح قانوناً محترماً لدى الكل ومالم تصوّبه الأكثرية يكون مرفوضاً.

ومنهج يعتمد في التشريع على الواقعيات والمصالح والمفاسد فما كان واقعياً وصالحاً للبشرية فهو القانون السائد، وما لم يكن كذلك لا يعتبر أبداً.

والإسلام في تشريعه يتبع المنهج الثاني، لأنّ التشريع بيد الله سبحانه وتعالى وحده، فلا حاجة إذاً إلى رعاية التصويت والتصويب، وتتجلى واقعية التشريع الإسلامي في ملامحه ومعالمه.

فالتشريع الإسلامي يتميز بملامح بينما هي ملامح ثبوتية ترجع إلى مادة التشريع وروحه، وبينما هي ملامح إثباتية ترجع إلى دلالة التشريع.

---

١. أُلقيت في المؤتمر العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية المنعقد في طهران عام ١٤١٩هـ.

فما يرجع إلى القسم الأوّل يتلخص في أُمور ستة:

١ . الفطرة الإنسانية هي المقياس في التقنين.

٢ . التشريع حسب المصالح و المفاسد الواقعية.

٣. النظر إلى المادة والروح على حدّ سواء.

٤ . النظر إلى الحقائق دون الظواهر.

٥. المرونة في التشريع .

٦ . العدالة في التقنين.

فلنأخذ كلّ منها بالبحث واحداً تلو الآخر ثمّ نرجع إلى بيان ملامح التشريع الإسلامي في مقام الدلالة والإثبات .

أمّا الملامح الثبوتيّة فهي عبارة:

١ . الفطرة هي المقياس

إنّ للإنسان مع قطع النظر عن الظروف الموضوعية المحيطة به شخصية تكوينية ثابتة لا تنفك عنه عبر الزمان، فالغرائز السِّفْلية والعلويّة هي التي تكوّن شخصيته ولا تنفك عنه مادام الإنسان إنساناً، فجعل الإسلام الفطرة معياراً للتشريع، فكلّ عمل يتجاوب وينساق مع الفطرة فقد أحلّه، وما هو علىٰ موضع الضدّ منها فقد حرّمه.

فقد ندب إلى الروابط العائلية وتنسيق الروابط الاجتماعية، كرابطة الولد بوالديه، والأخ بأخيه، والإنسان المؤمن بمثله، كما قد حذّر عمّا ينافي خلقه وإدراكه العقلي، كتحريمه الخمر والميسر والسفاح، لما فيها من إفساد للعقل الفطري والنسل والحرث.

فالأحكام الثابتة في التشريع القرآني تشريع وفق الفطرة.

٢. التشريع حسب المصالح

نعم ثمة ميزة أُخرى للتشريع القرآني، وهـو أنّه مبني على المصالح والمفاسد الواقعيـة. فلا واجـب إلاّ لمصلحة في فعلـه، ولا حرام إلاّ لمصلحـة في تركـه، قال سبحانه: ﴿إِنَّمـا يُرِيـدُ الشَّيْطـانُ أَنْ يُـوقِعَ بَيْنَكُمُ العَـداوَةَ وَالْبَغْضـاءَ فِي الْخَمْـرِ وَالْمَيْسِـرِ وَيَصُـدَّكُمْ عَنْ ذِكْـرِاللهِ وَ عَـنِ الصَّلاةِ فَهَـلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُـون﴾ .[١] وقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ .[٢]

وعلى هذا الأساس فقد عقد فقهاء الشيعة باباً خاصاً باسم تزاحم الأحكام في ملاكـاتها حيث يقدّم الأهـم على المهم، ويتوصل في تمييـزهما بالقـرائن المفيدة للاطمئنان.

٣. النظر إلى المادة والروح على حد سواء

آلف القرآن بتعاليمه القيّمة بينهما مؤالفة تفي بحقّ كلّ منهما حيث يفسح للإنسان أن يأخذ قسطه من كلّ منهما بقدر ما يصلحه.

لقد غالت المسيحية (الغابرة) بالاهتمام بالجانب الروحي من الإنسان حتى كادت أن تجعـل كلّ مظهر مـن مظاهـر الحياة الماديـة خطيئة كبرى، فـدعت إلى الرهبانية و التعزب، وترك مـلاذّ الحياة، والانعزال عن المجتمع، والعيش في الأديرة وقلل الجبال والتسامح مع المعتدين.

كما غالـت اليهودية في الانكبـاب على المادة حتى نسيت كلّ قيمـة روحية، وجعلـت الحصـول على المادة بأي وسيلـة كـانـت، المقصـد الأسنى، ودعـت إلى القومية الغاشمة.

---

١. المائدة: ٩١.

٢. العنكبوت: ٤٥.

لكن الإسلام أخذ ينظـر إلى واقع الإنسان بما هو كائن ذو بعـدين، فبالبعد المادي لا يستغني عـن المادة، وبالبعـد الروحـي لا يستغني عن الحيـاة الروحيـة، فأولاهما عنايته، فدعا إلى المادة والالتذاذ بها بشكل لا يُـؤثرها علىٰ حياته الروحية، كما دعا إلى الحيـاة الروحية بشكل لا يصادم فطـرته وطبيعته؛ وهكذا فقـد قرن بين عبادة الله وطلب الرزق وترفيه النفس، فندب إلى القيام بالليل و إقامة النوافل، وفي الوقت نفسه ندب إلى طلب المعاش وتوخّي اللّذة، قال سبحانه:

﴿وَالّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً﴾ [1] وقال أيضاً: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الّتي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ . [2]

وقال علي أمير المؤمنين عليه السلام: «للمؤمن ثلاث ساعات: فسـاعة يناجي فيها ربه، وساعة يرمُّ معاشه، وساعة يُخلّـي بين نفسه وبين لذّتها». [3]

٤. النظر إلى المعاني لا الظواهر

إنّ التشريع القـرآني ينظـر إلى الحقـائق لا إلى القشور، فـلا تجد في الإسـلام مظهراً خاصاً من مظـاهر الحياة يكون له من القداسـة ما يمنع من تغييره ويوجب حفظـه إلى الأبـد بشكلـه الخاص، فليس هنـاك تنـاقـض بين تعـاليمـه والتقـدّم العلمي.

فلو كان التشريع الإسلامي مصـرّاً على صورة خاصة من متطلبات الحياة لما انسجم مع الحياة، فمثـلاً ينهىٰ الإسلام عن أكل الأموال بالبـاطل، وعلى هذا فرّع الفقهاء حرمة بيع الدم لعدم وجود منفعة محلّلة له في تلك الأعصار الغابرة بيد انّ

١. الفرقان: ٦٤.

٢. الأعراف: ٣٢.

٣. نهج البلاغة: باب الحكم، الحكمة ٣٩٠، طبعة صبحي الصالح.

تقدّم العلوم والحضارة أتاح للبشر أن يستخدم الدم في منافع محلّلة لم يكن لها نظير من قبل، فعادت المعاملة بالدم في هذه الأعصار معاملة صحيحة لا بأس بها، وليس هذا من قبيل نسخ الحكم، بل من باب تبدّل الحكم بتبدّل موضوعه كانقلاب الخمر خلاً.

فالإسلام حرّم أكل المال بالباطل، فما دام بيع الدم مصداقاً لتلك الآية كان محكوماً بالحرمة، فلمّا أُتيح للبشر أن يستفيد منه في علاج المرضى خرج عن كونه مصداقاً للآية، وهذا هو الذي عبّرنا عنه في عنوان البحث بأنّ الإسلام ينظر إلى المعاني لا إلى القشور.

٥. المرونة في التشريع

إنّ من ملامح التشريع القرآني مرونته وقابليته للانطباق على جميع الحضارات الإنسانية، وما ذلك إلاّ لأنّه جاء بتشريعات خاصة لها دور التحديد والرقابة على سائر تشريعاته، وهذاالتشريع أعطى للدين مرونة و منعطفاً جديداً قال سبحانه: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ .[١] وقال: ﴿**مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ .[٢]

وقال رسول الله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار».[٣]

فحدّد كلَّ تشريع بعدم استلزامه الضرر والضرار، فأوجب التيمم مكان الوضوء إذا كان استعمال الماء مضرّاً، كما أوجب الإفطار على المريض والمسافر

---

١. الحج: ٧٨.

٢. المائدة: ٦.

٣. الوسائل: ١٢/ ٣٦٤ ح ٣ و ٤ ، الباب ١٧ من أبواب الخيار .

لغاية اليسر، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ .[١] إلى غير ذلك من الآيات والروايات التي لها دور التحديد والرقابة.

وجاء في الحديث عن الصادع بالحقّ أنّه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة».[٢]

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ هذا الدين لمتين، فأوغلوا فيه برفق، لا تكرهوا عبادة الله لعباد الله».[٣]

٦. العدالة في التقنين

ومن ملامح التشريع القرآني، العدالة حيث تراها متجلّية في كافة تشريعاته، خاصة فيما يرجع إلى القانون والحقوق، قال سبحانه: ﴿وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ .[٤]

وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ﴾.[٥]

وقال تعالى: ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظّالِمين﴾ .[٦]

وقال سبحانه: ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىٰ﴾ .[٧]

وقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الّذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوف﴾ .[٨]

---

١. البقرة: ١٨٥.
٢. أحمد بن حنبل: المسند: ٥/ ٢٦٦.
٣. الكافي: ٢/ ٧٠ ح١.
٤. البقرة: ١٩٠.
٥. البقرة: ١٩٤.
٦. الشورى: ٤٠.
٧. الأنعام: ١٦٤.
٨. البقرة: ٢٢٨.

إلى غير ذلك من الآيات التي تدلّ على أنّ هيكل التشريع الإسلامي بُني على أساس العدل والقسط.

هذه الملامح ترجع إلى سمات القانون الإسلامي ثبوتاً.

ملامح التشريع الإسلامي في مقام الإثبات

أمّا سماته في عالم الإثبات والدلالة فهي عبارة عن الأُمور التالية:

أ. شموليته لعامة الطبقات.

ب. سعة آفاق دلالة القرآن والحديث.

ج. التدرّج في التشريع.

أ. شمولية التشريع

أخذ القرآن الإنسان محوراً لتشريعه، مجرّداً عن النزعات القومية والوطنية والطائفية واللونية واللسانية، فنظر إلى الموضوع بنظرة شمولية وقال: **﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتقاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبيرٌ﴾** .[1]

التشريع القرآني تشريع من جانب رب العالمين إلى نوع البشر، فالوطن والقوم والقبيلة لم تؤخذ بنظر الاعتبار، والكرامة للإنسان وحده، ولا فضل لإنسان على آخر إلاّ بالمُثُل والأخلاق.

فترى أنّه يخاطب المجتمع الإنساني بقوله: **﴿يا أَيُّهَا النّاس﴾** أو **﴿يا بَني آدَمَ﴾** أو **﴿يا أَيُّهَا المؤمنون﴾** وما ضاهاها، فكسر جميع الحواجز والقيود التي

---

١. الحجرات: ١٣.

يعتمد عليها المفكّر المادي في التقنين الوضعي، والذي يقتفي إثر اليهود في مزعمة الشعب المختار.

إنّ النبيّ ﷺ هو القائل: انّ العربية ليست بأبٍ والد، ولكنها لسان ناطق فمن قصر به عمله لم يبلغه حسبه [١]، وفي الوقت نفسه لا يعني بكلامه هذا انّ العلائق الطبيعية، كالانتماء الوطني أو القومي بغيضة لا قيمة لها، وإنّما يندّد باتّخاذها محاور للتقنين، وسبباً للكرامة والمفخرة، أو سبيلاً لتحقير الآخرين، وإيثارها على الدين والعقيدة، يقول سبحانه: ﴿لا تَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَ يُدْخِلُهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدينَ فِيها رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . [٢]

والعجب انّه قد صدر هذا من لدن إنسان أُمّي نشأ في بيئة تسودها خصلتان على جانب الضد من هذا النمط من التشريع، وهما:

الأُمّية والتعصّب.

وهذا الإنسان المثالي صان بأنظمته كرامة الإنسان، ورفعه إلى الغاية القصوىٰ من الكمال، وأخذ يخاطب ضميره الدفين، و مشاعره النبيلة، ويكلّفه بما فيه صلاحه، ويقول:

﴿هٰذا بَيانٌ لِلنّاسِ﴾ . [٣]

﴿هٰذا بَلاغٌ لِلنّاسِ﴾ . [٤]

﴿بَصائِرَ لِلنّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَة﴾ . [٥]

---

١. الكافي: ٨/ ٢٤٦ برقم ٣٤٢.

٢. المجادلة: ٢٢.

٣. آل عمران: ١٣٨.

٤. إبراهيم: ٥٢.

٥. القصص: ٤٣.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِمٰا فِي الصُّدُور﴾ .[1]

وإذا قورن هـذا النوع من التشريـع الذي ينظر إلى الإنسـان بنظرة شمـولية وبرأفة ورحمة، دون فرق بين عنصر وآخر، بـالتقنين الوضعي السائد في أعصارنا في الشرق والغرب، النـاظر إلى الإنسـان من منظار القـومية أو الطائفيـة وغيرهما من النزعات المقيتة، لبان انّ التشريع الأوّل تشريع سماوي لا صلة له بتلك النزعات، والآخر تشريـع بشري متأثر بنظـرات ضيّقة تجود لإنسـان وتبخل لآخـر، وكفى في ذلك فرقاً بين التشريعين.

ب . سعة آفاق دلالة القرآن والحديث

إنّ من تمعّن في القرآن الكريم و تدبّر في معـانيه ومفاهيمه، وقف على سعة آفاق دلالته على مقاصده، غير انّ ثلّة من الفقهـاء مرّوا على القرآن مروراً عابراً مع أنّه سبحانه يعـرّف القرآن بقوله: ﴿وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْيـاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمينَ﴾ .[2]

وعلى ضوء ذلـك لا غنى للفقيه عـن دراسة آيـات الأحكام دراسـة معمّقة ثاقبة، ليجد فيها الجواب على أكثر المسائل المطروحة، ولا ينظر إليها بنظرة عابرة.

وقد استدل أئمة أهل البيت عليهم السلام بالقرآن على كثير مـن الأحكام التي غفل عنها فقهاء عصرهم، ونذكر هنا نموذجاً على ذلك:

قُدّم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بـامرأة مسلمة، فأراد أن يقيم عليه الحد، فأسلم، فقال يحيى بـن أكثم: الإيمان يمحو ما قبله، وقال بعضهـم: يضرب ثلاثة حـدود. فكتب المتـوكل إلى الإمـام الهادي عليه السلام يسألـه، فلمّا قرأ الكتـاب، كتب: «يضرب حتى يمـوت».فـأنكـر الفقهـاء ذلك، فكتـب إليـه يسألـه عـن العلّـة،

---

١. يونس: ٥٧.

٢. النحل: ٨٩.

فكتب: بسم الله الرّحمنِ الرَّحيم: ﴿فَلَمّا رَأَوْا بَأْسَنا قٰالُوا آمَنّا بِاللهِ وَحْدَه وَكَفَرْنٰا بِمٰا كُنّا بِهِ مُشْرِكينَ* فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمّا رَأَوْا بَأْسَنٰا سُنَّت اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالِكَ الْكافِرُونَ﴾ [١]. فأمر به المتوكل، فضرب حتى مات. [٢]

تجد انّ الإمام الهادي عليه السلام استنبط حكم الموضوع من آية مباركة، لا يذكرها الفقهاء في عداد آيات الأحكام، غير انّ الإمام لوقوفه على سعة دلالة القرآن، استنبط حكم الموضوع من تلك الآية، وكم لها من نظير. ولو انّ القارئ الكريم جمع الروايات التي استشهد بها أئمّة أهل البيت على مقاصدهم استشهاداً تعليمياً لا تعبدياً لوقف على سعة آفاق القرآن.

وها نحن نذكر مثالين علىٰ سعة آفاق دلالته:

١. إنّ الأُصوليين تحمّلوا عبئاً ثقيلاً لإثبات كون الأمر موضوعاً للوجوب ومجازاً في الندب، فإذا ورد الأمر في الكتاب احتاجوا في استفادة الوجوب منه إلى نفي المدلول المجازي، بإجراء أصالة الحقيقة.

ولكن هذا النمط جار في المحاورات العرفية، والقرآن في غنى عنها في أغلب الموارد أو أجمعها، فإنّ لاستفادة الوجوب أو الندب في الأوامر الواردة في القرآن طريقاً آخر، وهو الإيعاز بالعذاب أو النار كما نجده في كثير من الواجبات مثل الصلاة و الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال سبحانه: ﴿مٰا سَلَكَكُمْ فِي سَقَر* قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّين﴾ . [٣]وقال سبحانه: ﴿وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقىٰ* الّذِي يُؤتِي مٰالَهُ يَتَزَكّىٰ﴾ [٤] بل كل ما أوعد على فعله أو تركه يستفاد منه الوجوب أو الحرمة.

١. غافر: ٨٤ ـ ٨٥.
٢. ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب: ٤/ ٤٠٣ ـ ٤٠٥.
٣. المدثر: ٤٢ ـ ٤٣.
٤. الليل: ١٧ ـ ١٨.

٢. اختلف الفقهاء في وجوب الكتابة في التداين بدين والاستشهاد بشاهدين الواردين في قوله سبحانه: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتِبٌ بِالْعَدْلِ... وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجالِكُمْ﴾ .[1]

فمن قائل بالوجوب أخذاً بأصالة الحقيقة، وقائل باستحبابه مستدلاً بالإجماع، ومعتذراً عن الأصل المذكور بكثرة استعمال صيغة الأمر في الندب، مع أنّ الرجوع إلى نفس الآية وما ورد حولها من الحكمة يعطي بوضوح انّ الأمرين لا للوجوب ولا للندب، بل الأمران إرشاديان لئلاّ يقع الاختلاف بين المتداينين فيسد باب النزاع والجدال. قال سبحانه: ﴿ذٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهادَةِ وَ أَدْنىٰ أَلاّ تَرْتابُوا إِلاّ أَنْ تَكُونَ تِجارَةً حاضِرَةً تُدِيرُونَها بَيْنَكُمْ﴾ .[2]

ويدلّ على سعة دلالته أيضاً ما رواه المعلّى بن خنيس، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلاّ وله أصل في كتاب الله عزّ وجلّ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال».[3]

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ذلك القرآن فاستنطقوه و لن ينطق لكم، أُخبركم عنه انّ فيه علم ما مضى، وعلم ما يأتي إلى يوم القيامة، وحكم ما بينكم، وبيان ما أصبحتم فيه تختلفون، فلو سألتموني عنه لعلّمتكم».[4]

وقال الصادق عليه السلام: «كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وفصل ما بينكم، ونحن نعلمه».[5]

والسابر في روايات أئمّة أهل البيت عليهم السلام يقف على أنّهم كانوا يستنبطون من الآيات نكاتاً بديعة ومعاني رفيعة عن مستوى الأفهام.

وربّما يتصوّر الساذج انّ هذا النوع من التفسير تفسير بالرأي وفرض على الآية، ولكن بعد الإمعان في الرواية والوقوف على كيفية استدلالهم عليهم السلام يذعن بأنّ لها

---

١. البقرة: ٢٨٢. ٢. البقرة: ٢٨٢.

٣ و ٤ و ٥. الكافي: ١/ ٦٠ـ ٦١، باب الرد إلى الكتاب والسنّة، الحديث ٦و٧و٩.

دلالة خفيّة على ذلك المعنى الرفيع الشامخ وقد غفل عنه.

مثال ذلك ما رواه العياشي في تفسيره، عن زرقان صاحب ابن أبي دؤاد: أنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة وسأل الخليفة تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه وقد أحضر محمد بن علي عليه السلام فسألنا عن القطع في أيّ موضع يجب أن يقطع، فقال الفقهاء: من الكرسوع، لقول الله في التيمم: ﴿**فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَ أَيْدِيكُمْ**﴾ .[1]

فالتفت الخليفة إلى محمد بن علي فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فأجاب: «إنّهم أخطأوا فيه السنّة، فإنّ القطع يجب أن يكون من مفصل أُصول الأصابع، ويترك الكف»قال: لِمَ؟

قال: «لقول رسول الله صلى الله عليه وآله: السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين؛ فإذا قطعت يده من الكرسوع لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿**وأنّ المساجِدَ لله**﴾ يعني به الأعضاء السبعة التي يسجد عليها: ﴿**فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَداً**﴾ وما كان لله لم يقطع».

فأعجب المعتصم ذلك، فأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف.[2]

وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان إذا قطع السارق ترك الإبهام والراحة، فقيل له: يا أمير المؤمنين تركت عليه يده؟ قال: فقال لهم: «فإن تاب فبأيِّ شيء يتوضأ؟ لأنّ الله يقول: ﴿**وَالسّارِقُ وَ السّارِقَةُ فَاْقْطَعُوا أَيْدِيَهُما**﴾ ـ إلى قوله: ـ ﴿**فَمَنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحيم**﴾ [3]».[4]

---

١. النساء: ٤٣.

٢ و ٤. الوسائل: ١٨، الباب ٤ من أبواب حدّ السرقة، الحديث ٥و٦.

٣. المائدة: ٣٨ـ٣٩.

فهذا النمط من الاستدلال يوقف القارئ على سعة دلالة الآيات القرآنية، وانّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام هم السابقون في هذا المضمار، يستنبطون من القرآن ما لا تصل إليه الأفهام.

وأمّا عدد آيات الأحكام فقد ذكر الفاضل المقداد في تفسيره «كنز العرفان» ما هذا نصّه:

اشتهر بين القوم أنّ الآيات المبحوث عنها نحو خمسمائة آية، وذلك إنّما هو بالمتكرر والمتداخل، وإلاّ فهي لا تبلغ ذلك، فلا يظن من يقف على كتابنا هذا ويضبط عدد ما فيه، انّا تركنا شيئاً من الآيات فيسيء الظن به و لم يعلم انّ المعيار عند ذوي البصائر والأبصار، إنّما هو التحقيق والاعتبار لا الكثرة والاشتهار. [1]

ويظهر من البعض أنّ عدد آيات الأحكام ربما تبلغ ٣٣٠ آية، قال عبد الوهاب خلاف:

ففي العبادات بأنواعها نحو ١٤٠ آية.

وفي الأحوال الشخصية من زواج وطلاق و إرث ووصية و حجر وغيرها نحو سبعين آية.

وفي المجموعة المدنية من بيع و إجارة ورهن وشركة وتجارة ومداينة وغيرها نحو سبعين آية.

وفي المجموعة الجنائية من عقوبات وتحقيق جنايات نحو ثلاثين آية.

وفي القضاء والشهادة ومايتعلق بها نحو عشرين آية. [2]

---

١. جمال الدين المقداد السيوري: كنز العرفان في فقه القرآن: ١ / ٥.

٢. عبد الوهاب خلاف: خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي: ٢٨ـ٢٩.

ولكن بالنظر إلى ما ذكرنا من سعة آفاق دلالته يتبيّن انّ عددها ربّما يتجاوز عن الخمسمائة، إذ ربّ آية لاتمت إلى الأحكام بصلة، ولكن بالدقة والإمعان يمكن أن يستنبط منها حكم شرعي.

فمثلاً سورة المسد، أعني قوله سبحانه: ﴿تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَ تَبَّ * ما أَغنىٰ عَنْهُ مالُهُ وَ ما كَسَب ... ﴾ [١]، بظاهرها ليست من آيات الأحكام، ولكن للفقيه أن يستند إليها في استنباط بعض الأحكام الشرعية، وقد حكي عن بعض الفقهاء انّه استنبط من سورة «المسد» قرابة عشرين حكماً فقهياً، كما استنبطوا من قوله سبحانه: ﴿قالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحدى ٱبْنَتَيَّ هاتَيْنِ علىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ... ﴾ [٢] أحكاماً شرعية.

وهذا بالنسبة إلى ما ذكرناه من سعة آفاق دلالة القرآن ليس بغريب.

ج . التدرّج في التشريع

نزل القرآن تدريجيّاً قرابة ثلاث وعشرين سنة لأسباب و دواع مختلفة اقتضت ذلك، وأشار إليها الذكر الحكيم في غير واحد من الآيات:

قال سبحانه: ﴿وَقُرآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْناهُ تَنْزِيلاً﴾ [٣] أي فرقنا نزوله كي تقرأه على الناس على مهل وتريث.

كما أشار في آية أُخرى إلى داع آخر، قال سبحانه: ﴿وَقالَ الّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ [٤] فتثبيت فؤاد النبي ﷺ أحد الأسباب التي دعت إلى نزول القرآن بين الحين والآخر وفي

---

١. المسد: ١ـ٢.
٢. القصص: ٢٧ـ ٢٨.
٣. الإسراء: ١٠٦.
٤. الفرقان: ٣٢.

غضـون السنين، شاحـذاً عزمـه ﷺ للمضيّ في طـريـق الـدعـوة بـلا مبـالاة لما يتّهمونه به.

والآية تعرب عـن أنّ الكتب السماوية الأُخرى كالتوراة و الإنجيـل والزبور نزلت جملة واحدة، فرغب الكفار في أن ينزل القرآن مثلها دفعة واحدة.

وليست الدواعي للنـزول التدريجي منحصرة فيما سبق، بل أنّ هناك أسبـاباً ودواعي أُخـر دعت إلى نـزولـه نجومـاً، و هي مسـايرة الكتـاب للحـوادث التي تستدعي لنفسها حكماً شرعيـاً، فإنّ المسلمين كانوا يواجهـون الأحداث المستجدَّة في حياتهم الفردية و الإجتماعية و لم يكن لهم محيص من طرحها على النبي ﷺ بغية الظفر بأجـوبتها، وقد تكـرر في الذكر الحكيـم قوله سبحـانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ قرابة خمس عشرة مرّة و تصـدىٰ النبي ﷺ للإجـابة عنها، و تختلـف تلك المواضيع بين الاستفسـار عن حكم شرعـي، كحكم القتـال في الشهر الحرام، والخمـر، والميسر، والتصرف في أمـوال اليتـامـى، والأهلّـة، والمحيـض، والأنفـال، وغير ذلـك؛ أو الاستفسار عن أُمور كونية كالروح والجبال والساعة.

وهناك شيء آخر ربما يؤكد لزوم كون التشريـع أمراً تدريجياً، وهو أنّ موقف النبي ﷺ تجاه أُمته كموقف الطبيب من مـريضه، فكما أنّ الطبيب يعالج المريض شيئاً فشيئـاً حسب استعداده، فكـذلك الطبيب الـروحي يمارس نشاطـه التربوي طبقاً لقابليات الأُمة الكامنة بغية الاستجـابة، لئلاّ تُثبط عزائمُهم و يُطفأ نشاطهم ويُثقل كاهلهم.

ومع ذلـك فإن كانـت الظروف مهيّئـة لنزول تشريـع أكثر تفصيـلاً وأوسع تعقيداً وافـاهم الوحي بـه، كما في قوله سبحـانه: ﴿قُلْ تَعـالَوْا أَتْلُ ما حَـرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاّ تُشْرِكُـوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِـدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادكُـمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّاهُمْ وَلا تَقْـرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَمـا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي

حَرَّمَ اللهُ إِلاّ بِالحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ .[١]

وقال سبحانه: **﴿وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاّ بِالَّتي هِيَ أَحْسَنُ حَتّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبىٰ وَ بِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** .[٢]

حيث تجد أنّ الآيتين تتكفّلان تشريع عشرة أحكام تُعَدُّ من جوامع الكلم، وقد روى أمين الإسلام الطبرسي، قال: روى علي بن إبراهيم، قال: خرج أسعد بن زرارة و ذكوان إلى مكة في عمرةِ رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه، فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئناكم نطلب الحلف عليهم، فقال عتبة: بعُدت دارنا عن داركم ولنا شغل لانتفرغ لشيء، قال: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟! قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعي انّه رسول الله، سفّه أحلامنا، وسبّ آلهتنا، وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً؛ و كان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم أبناء «النضير» و «قريظة» و «قين قاع» انّ هذا أوان نبي يخرج بمكة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنّكم به يا معشر العرب، فلمّا سمع ذلك أسعد وقع في قلبه ما كان سمعه من اليهود، قال: فأين هو؟ قال: جالس في الحجر، وانّهم لا يخرجون من شعبهم إلاّ في الموسم، فلا تسمع منه ولا تُكلّمه، فإنّه ساحر يسحرك بكلامه، وكان هذا في وقت محاصرة بني هاشم في الشعب، فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لابدّ لي أن أطوف بالبيت؟ فقال: ضع في أُذنيك القطن، فدخل أسعد المسجد وقد حشا أُذنيه من القطن، فطاف بالبيت

---

١. الأنعام: ١٥١.

٢. الأنعام: ١٥٢.

ورسول الله ﷺ جالس في الحجر مع قوم من بني هاشم، فنظر إليه نظرة، فجازه.

فلمّا كان في الشوط الثاني قال في نفسه: ما أجد أجهل منّي أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أعرفه حتى أرجع إلى قومي فأخبرهم، ثمّ أخذ القطن من أُذنيه و رمى به، وقال لرسول الله: أنعم صباحاً، فرفع رسول الله رأسه إليه و قال: «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا تحية أهل الجنة: السّلام عليكم» فقال له أسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب إلى مَ تدعو يا محمد؟ قال: «إلى شهادة أن لاإله إلاّ الله و انّي رسول الله، وأدعوكم:

﴿أَلاّ تُشرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَ إِيّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إِلاّ بِالحَقِّ ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَ لا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاّ بِالّتي هِيَ أَحْسَنُ حَتّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها وَ إِذا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبىٰ وَ بِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .[١]

فلما سمع أسعد هذا قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وانّك رسول الله. يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين إخواننا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها الله بك فلا أجد أعزّ منك، ومعي رجل من قومي فإن دخل في هذا الأمر رجوت أن يتمم الله لنا أمرنا فيك، والله يا رسول الله لقد كنّا نسمع من اليهود خبرك، وكانوا يبشّروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وأرجو أن تكون دارنا دار هجرتك، وعندنا مقامك، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد لله الذي ساقني إليك، والله ما جئت إلاّ لنطلب الحلف على قومنا،

١. الأنعام: ١٥١ـ١٥٢.

وقد أتانا الله بأفضل ممّا أتيت له. [١]

ومع ذلك كلّه فالتدرّج هو المخيِّم على التشريع، خاصة فيما إذا كان الحكم الشرعي مخالفاً للحالة السائدة في المجتمع، كما في شرب الخمر الذي ولع به المجتمع الجاهلي آنذاك، فمعالجة هذه الرذيلة المتجذّرة في المجتمع رهن طيّ خطوات تهيّئ الأرضية اللازمة لقبولها في المجتمع.

وقد سلك القرآن في سبيل قلع جذور تلك الرذائل مسلك التدرّج.

فتارة جعل السكر مقابلاً للرزق الحسن، وقال: ﴿**وَمِن ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً**﴾ . [٢]

فاعتبر اتّخاذ الخمر من التمور والأعناب ـ في مجتمع كان تعاطي الخمر فيه جزءاً أساسياً من حياته ـ مخالفاً للرزق الحسن، وبذلك أيقظ العقول.

وهذه الآية مهّدت وهيّئت العقول و الطبائع المنحرفة لخطوة أُخرىٰ في سيرها نحو تحريم الخمر، فتلتها الآية الثانية معلنة بأنّ في الخمر والميسر إثماً ونفعاً، ولكن إثمهما أكبر من نفعهما، قال سبحانه: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما**﴾ . [٣]

إنّ هذا البيان و إن كان كافياً إلاّ أنّ جماهير الناس لا يقلعون عن عادتهم المتجذّرة ما لم يرد نهي صريح حتى وافتهم الآية الثالثة، قال سبحانه: ﴿**يا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارىٰ حَتّىٰ تَعْلَمُوا ما تَقُولُون**﴾ [٤] فالآية الكريمة جاءت بالنهي الصريح عن شرب الخمر في وقت محدّد، أي عند إرادة الصلاة بغية الوقوف على ما يتلون من القرآن و الأذكار.

---

١. الطبرسي: إعلام الورىٰ: ٥٥ـ٥٧.

٢. النحل: ٦٧.

٣. البقرة: ٢١٩.

٤. النساء: ٤٣.

فهذه الخطوات الثلاث هيّئت أرضية صالحة للتحريم القاطع الذي بيّنه سبحانه في قوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .[1]

وأدلّ دليل على أنّ التشريع القرآني كان يتمتع بالتدرّج، تتابع الأسئلة على النبي ﷺ في فترات مختلفة بغية إجابة الوحي عنها، قال سبحانه:

١. ﴿يَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبين﴾.[2]

٢. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرامِ قِتالٍ فِيهِ قُلْ قِتالٌ فِيهِ كَبير﴾ .[3]

٣. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ .[4]

٤. ﴿وَ يَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ .[5]

٥. ﴿وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتامىٰ قُلْ إِصلاحٌ لَهُمْ خَيْر﴾ .[6]

٦. ﴿وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحيضِ قُلْ هُوَ أَذىً﴾ .[7]

٧. ﴿يَسْأَلُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ﴾ .[8]

٨. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفالِ قُلِ الأَنْفالُ للهِ وَالرَّسُول﴾ .[9]

وقد جاء في بعض الآيات لفظ الاستفتاء بدل السؤال: قال سبحانه:

٩. ﴿وَ يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ .[10]

---

١. المائدة: ٩٠.
٢. البقرة: ٢١٥.
٣. البقرة: ٢١٧.
٤. البقرة: ٢١٩.
٥. البقرة: ٢١٩.
٦. البقرة: ٢٢٠.
٧. البقرة: ٢٢٢.
٨. المائدة: ٤.
٩. الأنفال: ١.
١٠. النساء: ١٢٧.

١٠. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلالَةِ﴾ .[١]

وممّا يدل أيضاً على أنّ التشريع القرآني أخذ لنفسه صورة التدرّج هو انّ الآيات المتضمّنة للأحكام الشرعية منبثة في سور شتى غير مجتمعة في محل واحد، وهذا يوضح انّ التشريع لم يكن على غرار التشريع في التوراة الذي نزل دفعة واحدة يقول سبحانه: ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فِي الأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وأمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُورِيكُمْ دارَ الْفاسِقِين﴾.[٢]

وقال: ﴿وَلَمّا سَكَتَ عَنْ مُوسى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْواحَ وَفِي نُسْخَتِها هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ .[٣]

هذا بعض الكلام في ملامح التشريع الإسلامي ثبوتاً وإثباتاً قدمتها للمؤتمر العالمي الحادي عشر (ربيع الأول ١٤١٩ هـ) للوحدة الإسلامية، عسى أن يوفق أصحابنا لجمع شمل المسلمين وتقريب خطاهم.

جعفر السبحاني

قم ـ الجامعة الإسلامية

---

١. النساء: ١٧٦.

٢. الأعراف: ١٤٥.

٣. الأعراف: ١٥٤.

المقالة الثامنة

مكانة المرأة في القرآن[1]

احتلّت المرأة مكانة مـرموقة في الإسلام واستأثرت باهتمام خـاص في الذكر الحكيم، وحيث إنّ الموضوع مترامي الأطـراف، فلنسلط البحث في هذا المقام على الموضوعات التالية:

الأوّل : النظر إلى طبيعتها وتكوينها ونفسيتها.

الثانـي: النظر إلىٰ حقوقها .

الثالـث: الواجبات التي تقع علىٰ عاتقها.

كلّ ذلك على ضوء القرآن الكريم.

هذه هي العناوين الـرئيسية في بحثنا هذا وربما تطرح في ثنايـا الكلام أُمور أُخرى لمناسبة تقتضيها .

الأوّل: النظر إلى طبيعتها وتكوينها ونفسيتها

بزغ نـور الإسلام في عصر لم يكن لجنس الأُنثىٰ يـومذاك أيّ قيمة تـذكر في الجزيرة العربية ولا في سائر الحضارات السائدة آنذاك، وكانت البحوث الفلسفية

---

١ . أُلقي المقـال في جامعـة «جـرش» الاردن الهاشمي شهـر محرم الحرام عام ١٤١٩ هــ ، عند رحلـة المحاضر إليها في ذلك العام.

عند الـروم واليونـان تدور علىٰ أنّ الأُنثىٰ من جنـس الحيوان أو من جنس بـرزخي يتوسط بين الحيوان والإنسان، وكان الـرجل يتشاءم إذا أنجبت امرأته أُنثى ويظلّ وجهه مسوداً متواريـاً عن أنظار قومه وكأنّها وصمة عارٍ علىٰ جبينـه قال سبحانه: **﴿وَإِذا بُشّرَ أَحـدُهُمْ بالأُنثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْـوداً وَهُوَ كَظيمٌ* يَتَوارىٰ مِـنَ القَومِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ به أَيُمْسِكُهُ عَلىٰ هُونٍ أَو يَدُسُّهُ في التُّراب أَلا ساءَ ما يَحْكُمُونَ﴾** [١].

فلم يكن للرجل بـد إلاّ وأدُ بناته وقتلهنّ إثر الجهل بكـرامة المرأة وفضيلتها ظناً منـه انّه يحسن صنعـاً، وهذا هو القـرآن الكريم ينـدّد بذلك العمـل ويشجبه ويقول: **﴿وَإِذَا المَؤودَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾** [٢].

وفي خضَمِّ تلك الأفكار الطائشة نجد القرآن الكريم يصف المرأة بأنّها أحد شطري البنيـة الإنسانيـة ويقول: **﴿يـا أَيُّهَا النّـاسُ إِنّـا خَلَقْناكُـمْ مِنْ ذَكَـرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ﴾** [٣] فالأُنثى مثل الذكـر يشكلان أساس المجتمع دون فرق بينهما.

ومن جـانب آخر يـرىٰ للأُنثىٰ خلقـة مستقلة مماثلـة لخلقة الـذكر دون أن تُشتقّ الأُنثى من الذكر، على خلاف ما عليه سفر التكوين في التوراة من أنّ الأُنثى خلقت من ضلـع من أضلاع آدم، يقـول سبحانه شـاطباً على تلك الفكـرة التي تسرّبت إلى الكتاب الإلهي (التوراة): **﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوجَها وَبَثَّ مِنْهما رِجالاً كَثيراً وَنِساءً﴾** [٤].

فـالنفس الـواحـدة، هي آدم وزوجهـا حـواء وإليهما ينتهي نسـل المجتمع

---

١. النحل: ٥٨ـ٥٩.

٢. التكوير: ٨ـ٩.

٣. الحجرات: ١٢.

٤. النساء: ١.

الإنساني، ومعنى قوله: ﴿خَلَقَ مِنْها﴾ أي خلق من جنسها، مثل قولك: الخاتم من فضة أي من جنس الفضة فالزوجان متماثلان ولولا التماثل لما استقامت الحياة الإنسانية.

ويستنتج من هذه الآيات انّ كلاًّ من الذكر والأُنثىٰ إنسان كامل وليس هناك أي نقص في إنسانية الأُنثى وعلى ضوء ذلك فالتفريق بينهما من تلك الناحية لا يبتني علىٰ أساس صحيح .

لقد شملت العناية الإلهية الإنسان لما جعلته أفضل الخلائق، وسخرت له الشمس والقمر ولا تختص هذه الكرامة بالذكر فحسب بل شملت أولاد آدم قاطبة قائلاً: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَني آدَمَ وَحَمْلناهُم فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُم عَلىٰ كَثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضيلاً﴾** [١].

ولأجل هذه الكرامة العامة جعل الذكر والأُنثىٰ في كفة واحدة فمن آمن منهما وعمل صالحاً فهما سيّان أمام الله تبارك وتعالى يجزيهما علىٰ حدّ سواء قال سبحانه: **﴿وَمَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلنحيينّه حياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرهُمْ بِأَحْسنِ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾** [٢].

وممّا يعرب عن موقف القرآن الكريم في خلقة المرأة: هو انّه جعل حرمة نفس الأُنثىٰ كحرمة نفس الذكر وإن قتل واحد منهما يعادل قتل جميع الناس قال سبحانه: **﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الأَرْض فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاس جَمِيعاً وَمَنْ أَحْياها فكَأَنَّما أَحيى النّاسَ جَمِيعاً﴾** [٣].

فقتل المرأة كقتل الرجل عند الله سواء فمن قتل واحداً منهما فكأنّما قتل

---

١. الإسراء: ٧٠.

٢. النحل: ٩٧.

٣. المائدة: ٣٢.

الناس جميعاً، أفيتصور تكريم فوق ذلك.

وممّا يعرب عن انّ نظر الإسلام إلى الشطرين نظرة واحدة هو انّه يتخذ النفس موضوعاً لبعض أحكامه في مجال القصاص دون أن يركز على الذكر، قال سبحانه: ﴿انّ النَّفْس بِالنَّفْس وَالعين بِالعين وَالأَنْف بِالأَنْف وَالأُذُن بِالأُذن وَالسنّ بِالسنّ والجُروح قصاص﴾ [1] حتى انّه سبحانه يصف من لم يحكم علىٰ وفق الآية بانّه ظالم ويقول: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِما أَنْزَل اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُون﴾ .

إنّ الرسول يجعل دماء المسلمين في ميزان واحد ويصف ذمة الجميع بأنّها ذمة واحدة ويقول: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعىٰ بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم» [2] فالمرأة والرجل يتشاركان في لزوم احترام ايجار كلّ واحد منهما فرداً من المشركين.

نعم مشاركة المرأة والرجل في القصاص لا يلازم مشاركتهما في الدية، لأنّ المعيار في القصاص غير المعيار في الدية، فكلّ من جنىٰ علىٰ إنسان يُقتصُّ منه باعتبار انّ الجاني أعدم إنساناً فيعادل بإعدامه.

وأمّا الدية فالمعيار في تعيينها هو تحديد الخسارة والضرر المادي التي مُنيت بها الأُسرة، ولا شكّ انّ خسارة الأسرة بفقد معيلها الرجل هي أكبر من خسارتها بفقد الأُنثىٰ، فلذلك صارت دية المرأة نصف دية الرجل على الرغم من أنّ المصيبة على حد سواء، وهذا لا يعني اختلافهما في الإنسانية.

إلىٰ هنا تبين واقع خلقة كلّ من الرجل والمرأة وانّهما متماثلان لا يتميز أحدهما عن الآخر في ذلك المجال.

وأمّا ما يرجع إلى الأُمور النفسية والروحية عند المرأة والرجل فنقول: لا شكّ

---

١. المائدة: ٤٩.

٢. مسند أحمد: ٢/ ١٩٢.

ثمة فـارق واضح وجلي بين الرجـل والمرأة من هذه الـزاوية وهي انّ المرأة جيّـاشة العاطفة ملؤها الحنان والعطف واللطافة ولها روح ظريفة حساسة.

أودعت يـد الخلقة ذلك فيهـا لتنسجم مع المسؤوليـة الملقاة علىٰ عـاتقها، كتربية الأطفـال التي تـرافقها مشـاق ومصاعب جمة لا يتحمّلهـا الرجـل عادة في حين انّ الرجل يفقد تلـك العواطف الجيّاشة، لأنّه خلق لـوظائف أُخرى تتطلب لنفسها الغلظة والخشونة لتنسجم مع المسؤوليات التي تقع على عاتقه.

فالعـواطف الجياشة مـن جانب إذا تقارنـت مع الغلظة والخشونـة تصبح الحياة عندها نغمة متوازنة فتكون طرية ومبتسمة.

إلىٰ هنا تمّ ما نروم إليه من العنوان الأوّل.

الثاني: النظر إلىٰ حقوقها في القرآن الكريم

حظيت المرأة في الإسلام بحقوق واسعة، قد بحث عنها الفقهاء في كتبهم في أبواب خاصـة لا يمكن لنا الإشارة إلىٰ قليل منها فضـلاً عن كثيرها، وإنّما نقتبس بعضها.

نزل القرآن الكريم وكانت المرأة محرومة من أبسط حقوقها حتّى ميراثها، بل كانت كالمال تورث للآخرين، وفي هذا الجو المفعم بإهدار حقوقها قال: **﴿لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمّا تَـرَكَ الْوالِدان وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسـاء نَصيبٌ مِمّا تَرَكَ الوالِـدان وَالأَقْرَبُونَ مِمّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُر نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾** [1].

وبذلك كسر الطـوق الذي أحاط بالمرأة وحال بينهـا وبين ميراثها في سورة خاصة باسمهـا ـ أعني سورة النسـاء ـ وهي في ميراثها تارة تعـادل الذكر وأُخرى تنقص عنه وثالثة تزيد عليه، حسب المصالح المذكورة في محلها.

---

١. النساء: ٧.

وما اشتهر بأنّ ميراث المرأة ينقص عن ميراث الرجل دائماً فليس له مسحة من الحقّ بل تتراوح فريضتها بين التساوي والنقصان والزيادة كما هو واضح لمن لاحظ الفرائض الإسلامية، ففيما إذا كان المورّث هو الأب والأُمّ فللذكر مثل حظّ الأُنثيين، وفيما إذا كان المورث هو الولد فالأُمّ والأب متساويان يقول سبحانه: ﴿لكُلّ واحِدٍ مِنهُمَا السُّدُس﴾ [١].

وإذا تركت المرأة المتوفاة زوجها وابنتها، فالابنة ترث النصف والزوج الربع، فترث الأُنثىٰ ضعف ما يرثه الذكر، قال سبحانه: ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصينَ بِها أَوْ دَين﴾ [٢].

إلى غير ذلك من صور الفرائض التي شرحها الفقهاء.

نعم الاختلاف في الميراث تابع لملاكات خاصة يجمعها عنوان الأقربية، ومسؤولية الانفاق، فالأقرب يمنع الأبعد، كما أنّ من يقع علىٰ عاتقه الإنفاق يرث أكثر من غيره.

ومن حقوقها حريتها المالية التي ما بلغ إليها الغرب إلى الأمس الدابر، قال سبحانه: ﴿لِلرِّجالِ نَصيبٌ مِمّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمّا ٱكْتَسَبْن وَاسأَلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [٣] فأي كلمة أظهر وأرفع من هذه الكلمة حيث أعلن عن استقلالية كلّ من الرجل والمرأة في حقوقهما وأموالهما والاستمتاع بهما.

المهر عطية من الزوج إلى الزوجة وله تأثير في إحياء شخصية المرأة وبقاء علقة الزوجية، فإذا تزوج الرجل على مهر ليس له التنصل عن تعهده فيجب عليه

---

١. النساء: ١١.

٢. النساء: ١٢.

٣. النساء: ٣٠.

إعطاء ما نحل، قال سبحانه: ﴿وآتُوا النِّساء صَدقاتهنَّ نحَلة﴾ [١].

نعم لو وهبت بطيب نفسها جاز للرجل أخذه شأن كلّ هبة كان للواهب فيه رضا قال سبحانه: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ [٢].

إنّ القرآن يندد بزوج يضيق الخناق علىٰ زوجته ويسيء معاملتها كي تتنازل بذلك عن مهرها يقول سبحانه: ﴿وَلا تعْضِلوهنَّ لتَذهبُوا ببعضِ ما آتَيْتُموهُنَّ إلاّأَن يأتينَ بِفاحِشةٍ مُبَيِّنَة وَعاشِرُوهنَّ بِالمَعْرُوف﴾ [٣].

ثمّ يؤكد مرّة أُخرى بانّه لو دفع الزوج لها مالاً كثيراً فليس له أخذه منها، يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ أَردْتُمُ ٱسْتِبدالَ زَوج مَكانَ زَوجٍ وَآتَيْتُمْ إِحداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبيناً﴾ [٤].

الثالث: الواجبات التي تقع على عاتقها

إنّ التعاون بين أفراد المجتمع الإنساني شرط بقائه، فلو حذفنا التعاون من قاموس المجتمع لانهار، والأسرة مجتمع صغير ولبنة أُولىٰ للمجتمع الكبير فلا تقوم حياة الأسرة إلاّ بالتعاون، وحقيقة التعاون عبارة عن أن يكون كلّ واحد له حقّ وعليه حقّ وهذا ما يعبر عنه الذكر الحكيم بكلمة بليغة جامعة لا يمكن أن يباريه فيها أحد قال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الّذي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوف﴾ [٥].

فيظهر معنى الآية من خلال النظر إلى الأُسرة الإسلامية، فمسؤولية المرأة القيام بالحضانة وتربية الأطفال وليس هذا أمراً سهلاً، لا تقوم به إلاّ الأُمّ التي ينبض قلبها بالعطوفة والحنان.

---

١. النساء: ٤.
٢. النساء: ٤.
٣. النساء: ١٩.
٤. النساء: ٢٠.
٥. البقرة: ٢٢٨.

ومن زعـم انّ دور الحضانـة تحل محلّ الأُمّ في القيـام بتلك الـوظائف فقـد أخطأ ولم يقـف على المضـاعفـات السلبية التـي تتركهـا تلك الـدورعلىٰ حـالات الأطفال النفسية.

وفي مقابل تلك الحقوق ثمة حقوق للرجـل لابدّ له من القيام بها تحتاج إليه المرأة في حياتها الضروريـة والكمالية فيشير القـرآن إلى تلك المسـؤولية الكبيرة علىٰ عاتق المرأة بقوله: ﴿**وَالوالِداتُ يُـرْضِعْنَ أَولادهنَّ حَولين كـامِلين لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتمَّ الرَّضاعَةَ**﴾.

كما يشير إلى المسؤولية التي تقع علىٰ عاتق الرجل بقوله: ﴿**وعَلى المَولُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوتُهُنَّ بِالمَعْروفِ لا تُكَلَّفُ نَفسٌ إلاّوُسْعَها**﴾ [١].

فكلّ من الزوجين يسعىٰ في إقامة دعامة الأسرة، وبذلك تكون الزوجة عوناً للزوج، والزوج عوناً للزوجة، ويكون العيش بينهما رغيداً طيباً.

هذه نظـرة إجمالية إلى ملامح المرأة في القـرآن، وثمة بحوث ضـافية لا سيما حول حـرّيتها الثقافيـة والاجتماعية والسياسيـة التي طرحت في العصـور المتأخرة وموقف القرآن منها نتركها إلى مجال آخر.

ولكن ثمة نكتة هامة وهي:

المساواة أو العدالة

إنّ الغرب يتبنّىٰ موقف المساواة بين الرجل والمرأة، ويريد منهما أن ينزلا إلى معترك الحياة بلا استثناء لكـي يقوما بعامة الوظائف جنبـاً إلى جنب سواء أكانت منسجمة مع طبيعة كلّ منهما أو لا.

---

١. البقرة: ٢٣٣.

هذا هـو الذي يتبناه الغـرب، فالمرأة لابـدّ لها أن تشارك الرجل في ميـادين الحرب والقتال والسيـاسية والـزعامـة وميادين العمل والاستثمار ولا يترك ميدانـاً خاصاً للمرأة أو الرجل إلاّ يسوقهما إليه بدعوى المساواة.

ولكن القرآن يتبنّى العدالة بين الرجل والمرأة ويخالف المساواة، إذ ربما تكون المساواة ضـدّ العدالة، وربما لا تنسجم مع طبيعتهـا، ومن يدّعي المسـاواة، فكأنّه ينكـر الفوارق الموجـودة في نفسيـاتهما وغرائزهما، ويتعـامل معهما معـاملة إنسـان أُستلبت عنه الغرائز الفطرية ولم يبق فيه رمق إلاّ القيام بالأعمال المخوّلة له.

وهذا موضوع هام يحتاج إلى التشريح والتبيين حتى يتضح من خلاله موقف القرآن.

إنّ التساوي في الإنسانية لا تعني التسـاوي في جميع الجهات،وفي القدرات والغرائز والنفسيات، حتى يتجلّـى الجنسـان، جنساً واحداً لا يختلفان إلاّ شكليّاً، ومن يقول ذلك فإنّما يقول في لسانه وينكره عقله ولبّه.

لا شكّ انّ بين الجنسين فوارق ذاتيّـة وعرضية، فالأُولى نابعـة من خلقتها، والثانية تلازم وجودها حسب ظروفهـا وبيئتها، وبالتالي صارت تلك الفوارق مبدأً للاختلاف في المسؤوليات والأحكام.

جعل الإسـلام فطرة المرأة وخلقتهـا، المقيـاس الوحيـد في تشريعه وتقنينـه والتشريـع المبني على الفطـرة يتماشـى معهـا عبر القـرون، وهــذا هـو سرّ خلـود تشريعه، وأمّا التشريع الذي لا يأخذ الفطرة بنظر الاعتبار، ويقنّن لكلّ من الأُنثى والـذكـر على حـدّ سـواء فـربما لا ينسجم مـع الفطـرة والخلقـة ويخلق تعـارضـاً بين القـانـون ومورده ويـورث مضـاعفـات كثيرة كما نشـاهده اليـوم في الحضـارة الغربيّة.

شبهات وحلول

١. الرجال قوّامون على النساء

أعطىٰ سبحانه إدارة شؤون الأُسرة للرجال دون النساء، ومعنى ذلك انّ الرجل هو الذي يترأس الجهات التي بها قوام العائلة، لأنّ الإدارة تتقوّم بأمرين متحققين في الرجل دون المرأة وهما:

١. القوة وتحمل الشدائد.

٢. الإنفاق ورفع الحاجات المالية.

والرجل يتوفر فيه الأمر الأوّل أكثر من غيره.

وأمّا الإنفاق فقد فرض الإسلام إدارة أُمور الأُسرة المالية على الزوج، فهو الذي يتحمل المشاق ليدير دفة العائلة.

وقد أشار سبحانه إلىٰ تلك الإدارة وانّها تدخل تحت صلاحيات الرجل بقوله: ﴿**الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلى النِّساء**﴾ كما أشار إلى الشرطين بقوله: ١. ﴿**بما فَضّل الله بعضهم على بعض**﴾ ٢. ﴿**وبما أنفقُوا من أموالهم**﴾ [1].

وليس المراد الأفضلية عند الله وفي ميزان القرب منه سبحانه، بل المراد هوالتفوّق على الجنس الآخر في تحمل الصبر والاستقامة على الشدائد. وهو أمر تكويني لا يمكن إنكاره، ومن أنكر فانّما أنكره بلسانه دون قلبه، وهذا هو المراد من الأفضلية.

وأمّا الشطر الثاني فهو حكم تكليفي وضعه سبحانه على عاتق الرجل، وبذلك صار أولىٰ بإدارة شؤون الأُسرة من المرأة، وعلىٰ ذلك سارت الحياة

---

١. النساء: ٣٣.

الاجتماعية.

فلو كان هناك انتخاب طبيعي فقد اختير الرجل لإدارة الأُسرة اختياراً طبيعياً أمضاه الشارع.

هذا هو معنى القوّامية وليس فيه أيّ هدر لكرامتها، نعم تفسير القوامية بالسلطة على المرأة و إجحاف حقّها والتدخل في شؤونها بما هو خارج عن إطار العلقة الزوجية أمر مرفوض ومن فسر الآية به فقد افترى على الله سبحانه.

فإدارة الأُسرة والتخطيط لها نحو مستقبل أفضل حسب الاستطاعة شيء، و إنكار حقّ الزوجة والتسلّط عليها و إجحاف حقوقها شيء آخر، ومن خلط بين الأمرين فقد انحرف عن جادة الصواب.

٢. تعدّد الزوجات

من المسائل التي يثيرها الغرب والمؤسسات التي تدافع عن حقوق النساء هي مسألة تجويز تعدّد الزوجات التي شرعها الإسلام، ومنطقهم انّ تجويز تعدّد الزوجات تشكل معاناة للزوجة أوّلاً وتخالف المساواة بين الزوج والزوجة ثانياً، وسنقوم بتسليط الضوء على كلا الأمرين، فنقول:

لا شكّ انّ الأصل في تشكيل الأُسرة هو أن يحبس الزوج نفسه ولا يتزوج بزوجة ثانية رعاية لحال الزوجة الأُولى، وممّا لا شكّ فيه انّ حبس كلّ من الزوجين نفسه على الآخر يشكل رصيداً لبقاء أواصر الأُسرة ويُسفر عنه سيادة الثقة المتبادلة بين الزوجين.

ومع الاعتراف بذلك لكن ربّما يواجه الزوج بعض الظروف والحالات التي تلجئه إلى عدم الاكتفاء بزوجة واحدة وهذا أمر لا يمكن لأحد إنكاره نظير:

إذا كانت الزوجة مريضة مدّة مديدة، أو كانت عقيمة لاتنجب، أو كانت

غريزتها الجنسيـة ضعيفة لا تلبي حاجات الزوج، أو كان الـزوج يقطن في مناطق نائية بعيداً عن زوجته مـدّة لا يستهان بها، ففي تلك الظروف لا يتمكن الزوج من الاقتصار علىٰ زوجة واحدة، فـأمامه ـ مع قطع النظر عن تجويـز تعدّد الزوجات ـ طريقان:

الأوّل: أن يكبح جماح شهوته ويحد من نشاطها.

الثاني: أن ينزلق في مهاوي الفساد والفحشاء.

أمّا الأوّل: فلا يقوم به إلّا الأمثل فالأمثل من الرجال.

وأمّا الثاني: فهو يخالف كرامته وشرفه وينجم عنه أضرار بدنية ونفسية وغير ذلك.

فإذا سدَّ الطـريقان أمامـه فلا يبقىٰ لـه سبيل سوىٰ أن يختار زوجـة بعقد رسمي مع مهر ونفقـة وسكنىٰ لتدخل في نطاق الأُسرة ويتحمل مسـؤولية الجميع علىٰ حدّ سـواء مع تطبيق العدالـة، وهذا هو الـذي دعا الإسلام إلىٰ تشريـع تعدّد الزوجـات، قال سبحـانه: ﴿**فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنىٰ وَثُلاثَ وَرُباع**﴾[1].

ومن الطبيعي معاناة الـزوجة الأُولى مع قيام الرجل بانتخـاب زوجة أُخرى له، ولكنّه أمام انجراف الـرجل في الفحشاء وانحلال الأُسرة من رأس أخف وطأة وأقل معاناة.

إنّ الغرب وإن طبّل وزمّر ضـد قانون تعدّد الزوجـات، لكنّه في الواقع اتخذ سلوكاً موافقـاً مع هذاالقانون لكن بصورة شـوهاء حيث إنّه يقتنع بزوجة قـانونية في حين يقيم عـلاقـات جنسية مـع نساء كثيرات خـارج إطـار الأُسرة ولا يكتفي

١. النساء: ٣.

بواحدة.

إنّ نظام الأُسرة في الغرب أخذ يضمحل وينحل، وما ذلك إلاّ لخيانة الرجل زوجته بإقامة علاقات جنسية مع نساء أُخر، وما ينطوي عليه من فقدان الثقة واضمحلال الروابط العاطفية بينهما، وينتهي إلى انفصام أواصر الأُسرة، قانونياً وعملياً.

وأمّا مسألة المساواة حيث أُبيح للزوج إقامة علاقات جنسية مشروعة مع نساء أُخر دون الزوجة فهذا أمر نحن في غنى عن الإجابة عنه، فإنّ تجويز تعدّد الأزواج للزوجة يكسر عمود النسب ويعصف بالأُسرة ويترك ألواناً من الأمراض وتفسد العلاقات من رأس وحينها يكون المجتمع مرتعاً خصباً للزنا والفحشاء.

وبذلك يعلم سرّ التشريع الإسلامي في تجويز تعدد الزوجات دون الأزواج.

٣. الضرب عند النشوز

من الإشكالات المثارة على حقوق المرأة في الإسلام هو انّه يسوغ للزوج أن يضرب الزوجة عند نشوزها إذا لم ترجع الزوجة ببذل النصيحة والعظة، وهجران مضجعها، قال سبحانه: **﴿واللاتي تَخافُونَ نُشُوزهنّ فَعِظُوهنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي المَضاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبغوا عَلَيْهِنَّ سَبيلاً إِنَّ اللهَ كانَ عَليّاً كبيراً﴾** [1].

والحقّ انّ ذلك الإشكال المثار نجم عن عدم التدبر في مضمون الآية ومورد إباحة الضرب، فالآية تبحث في امرأة ناشزة أطاحت بحقوق زوجها وأساءت بإنسانيته دون أن يضيع منها حق، ففي ذلك الجو المفعم بتمرّد الزوجة علىٰ زوجها حتّى ظلت متشبثة به بعد معالجتها بالنصح والعظة أو هجرانها في الفراش لا

١. النساء: ٣٤.

محيص للزوج عن معالجتها بالضرب غير المبرح حتى تردع الزوجة عن شذوذها الذي طغى على إنسانيتها وكدر صفوة الجو العائلي.

وبذلك اتضح أوّلاً انّ البحث ليس في زوجة مقهورة علىٰ أمرها، ومظلومة في حقّها، فاندفعت إلى التمرد دفاعاً عن حقّها وكرامتها، بل الكلام في المرأة التي قام الزوج بجميع حقوقها ولكنّها طغت علىٰ حقوق الزوج وتمردت عليه.

وثانياً: ليس المراد من الضرب هو الضرب المبرح ولا المدمي، بل المراد الضرب المخيف حتى تردع عن شذوذها، وقد فسر الإمام الباقر عليه السلام الضرب في الآية بالضرب بالسواك. [١]

وهذه الحالة فريدة من نوعها، وقلّما يتفق أن لا يُثمر العلاجان الأوّلان، وعلى فرض الوصول إلى هذه الدرجة، فليس الضرب ضرباً مبرحاً، وإنّما الغرض فيه هو ايجاد الرعب في قلبها كي تردع عن تمردها.

روى الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أيضرب أحدكم المرأة ثمّ يعانقها».

وفي الختام نعطف أنظار الحضار إلى كلمة قيمة عن إمام حكيم خبير بداء المجتمع ودوائه ألا وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال: «ولا تملك المرأة من أمرها ما جاوز نفسها، فانّ المرأة ريحانة وليست قهرمانة» [٢] فلنتعامل معها، بما أنّها ريحانة لا قهرمانة، ولنطلب منها ما يطلب من موجود ظريف كوردة الربيع لا تتحمل البرد القارص ولا الحر الذي يذبلها .

---

١. مجمع البيان: ج٢، في تفسير الآية.

٢. نهج البلاغة ، قسم الرسائل، الرسالة ٣١.

المقالة التاسعة

زواج المتعة

لم تزل مسألة المتعة ــ مع أنّها من المسائل الفرعية ــ مثاراً للاهتمام والنقاش،فأهل السنة علىٰ ردها وادّعاء نسخها.

والشيعة عن بكرة أبيهم على أنّها زواج مشروع نزل بها القرآن الكريم، ومارسها الصحابة عصر النبي ﷺ وبعده.

وقد كتب أحد الكتّاب ـ المدعو محمد الالوسي ــ مقالاً حول المتعة نشرتها صحيفة اللواء على صفحاتها، وقد قرأت المقال أثناء رحلتي الأُولى إلى الأُردن عام ١٤١٨هـ، فكتبت مقالاً في ردّه، وتفضل رئيس تحرير الصحيفة مشكوراً بنشرها [١].

وإليك المقال مع تقديم بقلم رئيس تحريرها.

العلاّمة سبحاني: «ما اختلفنا في النبي.. اختلفنا فيما روي عنه»

يطرح الأُستاذ آية الله جعفر سبحاني في هذا المقال رأي الشيعة في قضية «نكاح المتعة»، و يقدم من الأدلة والحجج و البراهين حول جوازها وعدم نسخها بأُسلوبه المميز وفكره الموضوعي،وعلمه الغزير ما يدفعنا إلى نشر مقاله إيماناً منّا بحرية الرأي الآخر وضرورة فتح صفحات الحوار بين المسلمين مهما اختلفت الرؤى والاجتهادات.

الشيخ سبحاني، واحد من أعلام الفقه والفكر، صدر له أكثر من مائة

---

١. راجع صحيفة اللواء، المؤرخة الأربعاء، ٢٩/ ٥/ ١٩٩٦م.

كتاب في الملل والنحـل والتفسير والفقه وعقائد الإسلام والإلهيـات، درس على يد الأعلام، السيد البروجردي، و السيد محمد حسين الطبـاطبائي، وهو تلميذ الإمام الخميني لأكثر من ثـلاثة عشر عاماً، ويشغل الآن رئاسة مؤسسـة الإمام الصادق عليه السلام للبحوث والدراسات العليا، ويدرّس علم الفقه والأُصول.

وإذا كانـت «اللواء» قدنشرت في عـددها قبـل السابق مقـالاً حول «زواج المتعة» من وجهة نظر المذهب السني، وبقلـم أحد الباحثين في الجامعة الأُردنية، فإنّها وهـي تنشر في هذا العـدد مقـال الشيخ سبحـاني، من وجهـة نظـر المذهب الشيعي، لترجو أن تفتح هذه الاجتهادات في وجـه علمائنا ومفكرينا أبواب الحوار وفق أدب الاختلاف ومنهجيته الإسـلامية التي نحترمها جميعاً، وأن تكـون مقدمة لإزاحة حـالة الاحتقـان التي طـرأت بفعل عوامـل شتى على بحوثنـا ومفكرينـا وأورثت أُمّتنـا ما تعيشـه من انقسامـات وتناقضـات لم تكن في أي حـال متعلقة بأُصول ديننا بقدر ما كانت اجتهادات في فروعه وهوامشه لا غير.

وإذا كان الشيخ سبحـاني قد أكد في أكثـر من مناسبـة بأنّ المشتركات بين المذهبين السني والشيعي تفوق الاختلافـات، وانّ الاختلاف في الفروع أمر طبيعي تحتـاج إليه المجتمعـات، فـانّـه يثير أيضاً وفي كـل منـاسبة وحـوار، انّ المسلمين يختلفون ولن يختلفوا على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسنته المشرّفة ولكنّهـم اختلفوا أو سيختلفوا فيما روّي عنه. فـالاختلاف ـ إذن ـ ليس في النبي أو الكتاب ولكـن فيما روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم وفيما فسره المفسّرون مما جاء في كتاب الله عزّوجلّ.

و «اللـواء» إذ تشكـر سماحة الشيـخ سبحـاني على تعقيبه الـذي أبـداه في حوارها معه حـول مانشرته عن حكم زواج المتعة ليسعدهـا أن تنشر مقالته ورده، دون أن تكون مضطرة لتبنّي أي من وجهتي النظـر السالفتين... فهي منبر للحوار وساحة للتقريب بين أتباع المذاهب، تلـك رسالتها وستظل تسعى من أجل ذلك الهدف الحلم الذي يتطلع إليه كلّ المخلصين و الغيورين على دين الله ورسالته.

المحرر

ما هو زواج المتعة؟

زواج المتعة عبارة عن تزويج المرأة الحرة الكاملة نفسها إذا لم يكن بينها وبين الزوج مانع ـ من نسب أو سبب أو رضاع أو إحصان أو عدة أو غير ذلك من الموانع الشرعية ـ بمهر مسمّى إلى أجل مسمّى بالرضاء والاتفاق، فإذا انتهى الأجل تبين منه من غير طلاق. ويجب عليها مع الدخول بها ـ إذ لم تكن يائسة ـ أن تعتد عدّة الطلاق إذا كانت ممن تحيض وإلاّ فبخمسة وأربعين يوماً.

وولد المتعة ـ ذكراً كان أو أُنثى يلحق بالأب ولا يدعى إلاّ به، وله من الإرث ما أوصانا الله سبحانه به في كتابه العزيز كما يرث من الأُمّ، وتشمله جميع العمومات الواردة في الآباء والأبناء والأُمّهات، وكذا العمومات الواردة في الاخوة والأخوات والأعمام والعمات.

وبالجملة: المتمتع بها زوجة حقيقة، وولدها ولد حقيقة. ولا فرق بين الزواجين: الدائم والمنقطع إلاّ انّه لا توارث هنا ما بين الزوجين، ولا قسمة ولا نفقة لها. كما انّ له العزل عنها، وهذه الفوارق الجزئية فوارق في الأحكام لا في الماهية، لأنّ الماهية واحدة غير انّ أحدهما زوج مؤقّت والآخر دائم، وانّ الأوّل ينتهي بانتهاء الوقت والآخر ينتهي بالطلاق أو الفسخ.

وقد أجمع أهل القبلة على أنّه سبحانه شرع هذا النكاح في صدر الإسلام، ولا يشك أحد في أصل مشروعيته، وإنّما وقع الكلام في نسخه أو بقاء مشروعيته.

ما هو الأصل في مشروعيتها؟

والأصل في مشروعيته قوله سبحانه: ﴿وَحَلائِلُ أَبْنائكُمُ الَّذينَ مِنْ أَصلابِكُم وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُختَيْنِ إلاّ ما قَدْ سَلَفَ إنَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحيماً * والمُحْصَناتُ مِنَ النِّساء إلاّ ما مَلَكَتْ أَيمانكُمْ كتاب الله عَلَيْكُمْ وأُحلَّ لَكُمْ ماوَراء ذٰلِكُمْ أَن تَبتَغُوا بِأَموالِكُمْ مُحصِنينَ غيرَ مُسافِحين فَما ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَريضةً وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ فِيماتَراضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَريضَة إِنَّ اللهَ كانَ عَليماً حَكِيماً﴾[1].

والآية ناظرة إلى نكاح المتعة وذلك لوجوه:

١. الحمل على النكاح الدائم يستلزم التكرار بلا وجه:

إنّ هذه السورة، أي سورة النساء، تكفلت ببيان أكثر ما يرجع إلى النساء من الأحكام والحقوق، فذكرت جميع أقسام النكاح في أوائل السورة على نظام خاص، أمّا الدائم فقد أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلّاتقسطُوا فِي اليَتامى فَأنْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساء مَثْنىٰ وَثلاثَ وَرُباع وَإِنْ خِفْتُمْ أَلّا تَعْدِلُوا فَواحدَة ... ﴾[2].

وأمّا أحكام المهر فقد جاءت في الآية التالية: ﴿وآتُوا النساءَ صَدُقاتهنَّ نِحْلةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شيءٍ مِنْهُ نَفساً فَكُلُوهُ هَنيئاً مريئاً﴾[3].

وأمّا نكاح الإماء فقد جاء في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طولاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنات المؤمنات فَمِنْ ما مَلَكَتْ أَيمانكُمْ من فَتياتكُمُ المؤمنات

---

١. النساء: ٢٣ ـ ٢٤.

٢. النساء: ٣.

٣. النساء: ٤.

وَاللهُ أَعلم بايمانكُـمْ بعضكم من بَعْض فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُـوهُنَّ أُجورهنَّ بِالْمَعْرُوف مُحْصنات غَير مُسافِحات ولا مُتَّخذات أَخْدان ... ﴾[1].

فقوله سبحانه: ﴿فانكحوهنَّ بإذن أَهلهنَّ﴾ إشارة إلى الزواج من أمة الغير.

فإلى هنـا تم بيان جميع أقسـام النكاح فلم يبق إلاّ نكـاح المتعة، وهـو الذي جاء في الآية السابقة، وعلى ضوء هـذا حمل قوله سبحانه: ﴿فما استمتعتم﴾ على الزواج الدائم، وحمل قـوله: ﴿فآتوهنَّ أُجورهنّ﴾ على المهور والصدقـات يوجب التكرار بلا وجه، فالناظر في السورة يرى انّ آياتها تكفلت ببيان أقسام الزواج على نظام خاص ولا يتحقق ذلـك إلاّ بحمل الآية على موضوع جديـد وليس إلاّ نكاح المتعة كما هو ظاهرها أيضاً.

٢. تعليق دفع الأُجرة على عقد الاستمتاع

إنّ لفظ الاستمتاع وإن كـان في الأصل واقعاً على الانتفاع والالتـذاذ، لكنّه صـار بعـرف الشرع مخصـوصـاً بهذا العقـد المعين لا سيما إذا أُضيفت إلى النسـاء والمراد من قوله سبحانه: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ هو «متى عقدتم عليهنّ هذا العقد المسمى متعـة فآتوهنّ أُجـورهنّ» وذلك لأنّ المهر يجب بالعقـد، لا بالجماع والاستمتاع.

ولا يصحّ تفسير قـوله: ﴿فَما ٱسْتَمْتَعْتُمْ بـهِ مِنْهُنَّ﴾ بالعقد الـدائم وحمله عليـه وذلك لأنّه حينئـذٍ إمّـا أن يراد منـه المعنى اللغـوي أي الانتفاع والالتـذاذ ومعنى ذلك انّه لا يجب شيء على الزوج إذا لم ينتفع من المرأة بشيء مع أنّ الفقهاء اتّفقوا على لزوم دفع نصف المهر في العقد الدائم إذا طلقها قبل الانتفاع.

أو يراد منه العقد الدائم ولازمه وجوب دفع المهر بكماله بمجرّد العقد، لأنّه

---

١. النساء: ٢٥.

قال: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورهنّ﴾ أي مهورهنّ ولا خلاف في أنّه غير واجب، وإنّما يجب دفع الكل إذا دخل وإلاّ فذمة الزوج مشغولة بالكلّ على وجه التعليق. نعم للزوجة المنع من الدخول مالم تأخذ المهر كلّه، وأين هو من وجوب دفع المهر كلّه، إليها مطلقاً، امتنعت أم لا، أراد الدخول أم لم يرد.

نعم هذا شأن المتعة التي لم يشرع فيها الطلاق فإذا عقد، عقد متعة، لزمه المهر كلّه، دخل أم لم يدخل.

٣. تصريح جماعة من الصحابة على شأن نزولها

ذكرت أُمّة كبيرة من أهل الحديث نزولها فيها، وينتهي نقل هؤلاء إلى أمثال ابن عباس، وأُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وجابر بن عبد الله الأنصاري، وحبيب بن أبي ثابت، وسعيد بن جبير، إلى غير ذلك من رجال الحديث الذين لا يمكن اتهامهم بالوضع والجعل.

وقد ذكر نزولها من المفسرين والمحدثين:

إمام الحنابلة أحمد بن حنبل في مسنده: ٤/ ٤٣٦.

وأبو جعفر الطبري في تفسيره: ٥/ ٩.

وأبو بكر الجصاص الحنفي في أحكام القرآن:٢/ ١٧٨.

وأبو بكر البيهقي في السنن الكبرى:٧/ ٢٠٥.

ومحمود بن عمر الزمخشري في الكشاف:١/ ٣٦٠.

وأبو بكر بن سعدون القرطبي في تفسير جامع أحكام القرآن:٥/ ١٣٠.

وفخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب:٣/ ٢٠٠.

إلى غير ذلك من المحدثين والمفسرين الذين جاءوا بعد ذلك إلى عصرنا

هذا، ولا نطيل الكلام بذكرهم.

وليس لأحد أن يتهم هؤلاء الأعلام بذكر ما لا يؤمنون به. وبملاحظة هذه القرائن لا يكاد يشك في ورودها في نكاح المتعة.

ونزيد الوضوح بياناً بقوله سبحانه: ﴿**واحلّ لكُمْ ما وَراءَ ذلِكُمْ ان تَبْتَغُوا بِأموالكم محصنينَ غَيْر مُسافحين**﴾.

إنّ قوله سبحانه ﴿**ان تبتغوا**﴾ مفعول له لفعل مقدر، أي بيّن لكم ما يحل ممّا يحرم لأجل أن تبتغوا بأموالكم، وأمّا مفعول قوله: ﴿**تبتغوا**﴾ فيعلم من القرينة وهو النساء أي طلبكم نكاح النساء، أي بين الحلال والحرام لغاية ابتغائكم نكاح النساء من طريق الحلال لا الحرام.

وقوله سبحانه: ﴿**مُحصنين**﴾ وهو من الإحصان بمعنى العفة وتحصين النفس من الوقوع في الحرام، وقوله سبحانه ﴿**غير مسافحين**﴾ هوجمع مسافح بمعنى الزاني مأخوذ من السفح بمعنى صبّ الماء، والمراد هنا هو الزاني بشهادة قوله سبحانه في الآية المتأخرة في نكاح الإماء: ﴿**وَآتُوهُنَّ أُجُورهنَّ بِالمَعْرُوف مُحصناتٍ غَير مُسافِحات**﴾ أي عفائف غير زانيات.

ومعنى الآية: انّ الله تبارك و تعالى شرع لكم نكاح ما وراء المحرمات لأجل أن تبتغوا بأموالكم ما يحصنكم ويصون عفتكم ويصدكم عن الزنا، وهذا المناط موجود في جميع الأقسام، النكاح الدائم، والمؤقت والزواج بأمة الغير، المذكورة في هذه السورة من أوّلها إلى الآية ٢٥.

هذا هو الذي يفهمه كلّ إنسان من ظواهر الآيات غير انّ من لا يروقه الأخذ بظاهر الآية ﴿**فما استمتعتم به منهنّ فآتوهُنَّ أُجورهن**﴾ لرواسب نفسية أو بيئيّة حاول أن يطبق معنى الآية على العقد الدائم، وذكر في المورد شبهات ضعيفة لا تصمد امام النقاش نجملها بما يلي:

شبهات حول المتعة

الشبهة الأُولى: انّ الهدف من تشريع النكاح هو تكوين الأُسرة وإيجاد النسل، وهو يختص بالنكاح الدائم دون المنقطع الذي لا يترتب عليه إلّا إرضاء القوة الشهوية وصب الماء وسفحه.

ويجاب عنها: بأنّه خلط بين الموضوع والفائدة المترتبة عليه، وما ذكر إنّما هو من قبيل الحكمة، وليس الحكم دائراً مدارها، لضرورة انّ النكاح صحيح وإن لم يكن هناك ذلك الغرض، كزواج العقيم واليائسة والصغيرة. بل أغلب المتزوجين في سن الشباب بالزواج الدائم لا يقصدون إلّا قضاء الوطر واستيفاء الشهوة من طريقها المشروع، ولا يخطر ببالهم طلب النسل أصلاً وإن حصل لهم قهراً، ولا يقدح ذلك في صحّة زواجهم.

ومن العجب حصر فائدة المتعة في قضاء الوطر، مع أنّها كالدائم قد يقصد منها النسل والخدمة وتدبير المنزل وتربية الأولاد والإرضاع والحضانة.

ونسأل المانعين الذين يتلقّون نكاح المتعة، مخالفاً للحكمة، التي من أجلها شرع النكاح، نسألهم عن الزوجين اللذين يتزوجان نكاح دوام، ولكن ينويان الفراق بالطلاق بعد شهرين، فهل هذا نكاح صحيح أو لا؟ لا أظن انّ فقيهاً من فقهاء الإسلام يمنع ذلك إلّا إذا أفتى بغير دليل و لا برهان، وعندئذ يطرح السؤال الثاني: أي فرق حينئذٍ بين المتعة وهذا النكاح الدائم سوى انّ المدّة مذكورة في الأوّل دون الثاني ؟

يقول صاحب المنار: انّ تشديد علماء السلف والخلف في منع المتعة يقتضي منع النكاح بنيّة الطلاق، وإن كان الفقهاء يقولون إنّ عقد النكاح يكون صحيحاً إذا نوى الزوج التوقيت، ولم يشترطه في صيغة العقد، ولكن كتمانه إياه يعد خداعاً

وغشاً وهو أجدر بالبطلان من العقد الذي يشترط فيه التوقيت.

أقول: نحن نفترض انّ الزوجين رضيا بالتوقيت لباً، حتى لا يكون هناك خداع وغش فهو صحيح بلا إشكال.

الشبهة الثانية: انّ تسويغ النكاح المؤقت ينافي ما تقرر في القرآن كقوله عزّ وجلّ في صفة المؤمنين: ﴿**وَالّذينَ هُمْ لِفُروجِهِمْ حافِظُون* إلاّ عَلىٰ أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِين* فَمَنِ ابْتَغى وَراء ذلِكَ فَأُولئكَ هُمُ العادون**﴾[1].

والمراد من الآية: انّ من ابتغى وراء ذلك، هم المتجاوزون ما أحله الله لهم إلى ما حرّمه عليهم. والمرأة المتمتع بها ليست زوجة فيكون لها على الرجل مثل الذي عليها بالمعروف.

إلاّ انّه يرد عليها: انّها دعوة بلا دليل. فانّها زوجة ولها أحكام، وعدم وجود النفقة والقسمة لا يخرجانها عن الزوجية، فانّ الناشزة زوجة ليست لها النفقة وحقّ القسمة، ومثلها الصغيرة. والعجب أن يستدل بعدم وجود الأحكام على نفي الماهية، فانّ الزوجية رابطة بين الزوجين تترتب عليها جملة من الأحكام وربما تختص بعض الأحكام ببعض الأقسام.

الشبهة الثالثة: انّ المتمتع في النكاح المؤقت لا يقصد الإحصان دون المسافحة بل يكون قصده مسافحة، فإن كان هناك نوع ما من إحصان نفسه ومنعها من التنقل في دمن الزنا، فانّه لا يكون فيه شيء ما من إحصان المرأة التي تؤجر نفسها كلّ طائفة من الزمن لرجل فتكون كما قيل:

كرة حذفت بصوالجة　　　فتلقفها رجل رجل

---

١. المؤمنون: ٥ ـ ٧.

ويرد على هذه الشبهة: انّه من أين وقف على أنّ الإحصان في النكاح المؤقت يختص بالرجل دون المرأة، فانّا إذا افترضنا كون العقد شرعياً، فكلّ واحد من الطرفين يحصن نفسه من هذا الطريق، وإلاّ فلا محيص عن التنقل في دمن الزنا. والذي يصون الفتاة عن البغي أحد الأُمور الثلاثة:

١. النكاح الدائم.

٢. النكاح المؤقت بالشروط الماضية.

٣. كبت الشهوة الجنسية.

فالأوّل ربما يكون غير ميسور خصوصاً للطالب والطالبة اللّذين يعيشان بمنح ورواتب مختصرة يجريها عليهما الوالدان أو الحكومة، والثالث أي كبت الشهوة الجنسية أمر شاق لا يتحمله إلاّ الأمثل فالأمثل من الشباب والمثلى من النساء وهم قليلون، فلم يبق إلاّ الطريق الثاني فيحصنان نفسهما عن التنقل في بيوت الدعارة.

إنّ الدين الإسلامي هو الدين الخاتم، ونبيه خاتم الأنبياء وكتابه خاتم الكتب، وشريعته خاتمة الشرائع، فلابد أن يضع لكلّ مشكلة اجتماعية حلولاً شرعيةً، يصون بها كرامة المؤمن والمؤمنة، وما المشكلة الجنسية عند الرجل والمرأة إلاّ إحدى هذه النواحي التي لا يمكن للدين الإسلامي أن يهملها، وعندئذٍ يطرح هذا السؤال نفسه:

ماذا يفعل هؤلاء الطلبة والطالبات الذين لا يستطيعون القيام بالنكاح الدائم، وتمنعهم كرامتهم ودينهم عن التنقل في بيوت الدعارة والفساد، والحياة المادية بجمالها تؤجج نار الشهوة في نفوسهم؟ فمن المستحيل عادة أن يصون نفسه أحد إلاّ من عصمه الله، فلم يبق طريق إلاّ زواج المتعة الذي يشكل الحل الأنجح لتلافي الوقوع في الزنا، وتبقى كلمة الإمام علي بن أبي طالب ترن في الأذان محذرة

من تفاقم هذا الأمر عند إهمال العلاج الذي وصفه المشرع الحكيم له، حيث قال عليه السلام: «لولا نهي عمر عن المتعة لما زنى إلاّ شقي أو شقية».

وأمّا تشبيه المتعة بها جاء في الشعر فهو يعرب عن جهل الرجل بحقيقة نكاح المتعة وحدودها فانّ ما جاء فيه هي المتعة الدورية التي ينسبها الرجل وغيره إلى الشيعة، وهم براء من هذا الإفك إذ يجب على المتمتع بها بعد إنهاء المدة الاعتداد على ما ذكرنا، فكيف يمكن أن تؤجر نفسها كلّ يوم لرجل؟ سبحان الله ما أجرأهم على الكذب على الشيعة والفرية عليهم، وما مضمون الشعر إلاّ جسارة على الوحي والتشريع الإلهي، وقد اتفقت كلمة المحدثين والمفسرين على التشريع، وانّه لو كان هناك نهي أو نسخ فإنّما هو بعد التشريع والعمل.

الشبهة الرابعة: انّ الآية منسوخة بالسنّة، واختلفوا في زمن نسخها على أقوال شتى:

١. أُبيحت ثمّ نهي عنها عام خيبر.

٢. ما أحلت إلاّ في عمرة القضاء.

٣. كانت مباحة ونهي عنها في عام الفتح.

٤. أُبيحت عام أوطاس ثمّ نهي عنها.

وهذه الأقوال تنفي الثقة بوقوع النسخ، كما انّ نسخ القرآن بأخبار الآحاد ممنوع جداً، وقد صحّ عن عمران بن الحصين انّه قال: إنّ الله أنزل المتعة وما نسخها بآية أُخرى، وأمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمتعة وما نهانا عنها، ثمّ قال رجل برأيه يريد به عمر بن الخطاب.

إنّ الخليفة الثاني لم يدع النسخ وإنّما اسند التحريم إلى نفسه، ولو كان هناك ناسخ من الله عزّ وجلّ أو من رسوله، لأسند التحريم إليهما، وقد استفاض قول عمر وهو على المنبر: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أنهى عنهما وأُعاقب

عليهما: متعة الحج ومتعة النساء.

بل نقل متكلم الأشاعرة في شرحه على شرح التجريد انّه قال: أيّـها الناس ثلاث كنّ على عهـد رسول الله ﷺ وأنا أنهىٰ عنهنّ، وأُحرمهـنّ، وأُعاقب عليهنّ، متعة النساء، ومتعة الحج،وحي على خير العمل.

وقد روي عن ابن عبـاس ـ و هو من المصرّحين بحلية المتعة و إبـاحتها ـ في ردّه علىٰ من حاجـه بنهي أبي بكر و عمـر لها، حيث قال: يوشـك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول:قال رسول الله ﷺ ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر.

حتى أنّ ابن عمر لما سئل عنها أفتى بالإباحة فعارضوه بقول أبيه فقال لهم: أمر رسول الله ﷺ أحقّ أن يتبع أم أمر عمر؟

كـلّ ذلك يعـرب عـن أنّـه لم يكن هنـاك نسـخ ولا نهي نبـوي وإنّما كـان تحريماً من جانب الخليفة، وهو في حدّ ذاته يعتبر اجتهاداً قبالة النص الواضح، ولم يزل جملة من الصحـابة يعلنون رفضهـم له وعدم إذعانهم لأمـره، و إذا كان الخليفة قد اجتهد لأسباب رآها وأفتى على أساسها فكان الأولى بمن لحقوه أن يتنبهوا لهذا الأمر لا أن يسرفوا في تحريمها دون حجة ولا دليل.

المنكرون للتحريم

ذكرنا انّ لفيفاً مـن وجوه الصحابة والتابعين أنكروا هـذا التحريم ولم يقرّوا به، منهم:

١ . علي أمير المؤمنين، في ما أخرجـه الطبري بالاسناد إليه انّـه قال: «لولا انّ عمر نهى عن المتعة ما زنى إلاّ شقي» [١].

٢ . عبد الله بن عمر، أخرج الإمام أحمد من حـديث عبد الله بن عمر، قال ـ

---

١ . الطبري: التفسير : ٥/ ٩.

وقـد سئل عن متعــة النسـاء ـ : والله مـا كنـا على عهد رسـول الله ﷺ زانين ولا مسافحين، ثمّ قال: والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليكونن قبل يوم القيامة المسيح الدجال وكذابون ثلاثون وأكثر» [١].

٣. عبد الله بن مسعـود، أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعـود، قال: كنّا نغزو مع رسول الله ﷺ وليس لنا شيء ، فقلنا: الا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك، ثمّ رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل معين، ثمّ قرأ علينا: **﴿يا أَيُّها الّذينَ آمَنُوا لا تُحَرِّموا طَيّباتِ ما أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولا تَعْتَدُوا إنّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدين﴾** [٢]. [٣]

٤. عمران بن حصين، أخـرج البخاري في صحيحه عنـه، قال: نزلـت آية المتعة في كتاب الله ففعلنـاها مع رسول الله ﷺ ولم ينزل قرآن يحرمهـا ولم ينه عنها حتى مات. قال رجل برأيه ما شاء [٤].

٥. انّ الخليفـة العباسي المأمـون أوشك أن ينـادي في أيّام حكمـه،بتحليل المتعة إلاّ أنّه توقـف خوفاً من الفتنة وتفرق المسلمين. قال ابـن خلكان، نقلاً عن محمد بن منصور: قال: كنّا مع المأمون في طـريق الشام فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال يحيى بن أكثم لي ولأبي العينـاء: بكّرا غدا إليه، فإن رأيتما للقـول وجهاً فقولا، وإلاّ فـاسكتـا إلى أن أدخـل، قـال : فـدخلنـا عليـه وهـو يستـاك ويقـول وهـو مغتاظ:متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر رضي الله عنـه وأنا أنهى عنهما، ومن أنت يا جُعَل حتـى تنهى عما فعله رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنـه؟فأومأ أبـو العيناء إلى محمـد بن منصـور وقال: رجـل يقول في عمـر بن الخطاب ما يقـول نكلمه نحن؟ فأمسكنا، فجاء يحيى بـن أكثم فجلس وجلسنا،

---

١. مسند أحمد: ٢/ ٩٥.

٢. المائدة: ٨٧.

٣. البخاري: الصحيح: ٧/ ٤، باب ما يكره من التبتل والخصاء من كتاب النكاح.

٤. البخاري: الصحيح: ٦/ ٢٧، تفسير قوله تعالى: **﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج﴾**.

فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيراً؟ فقال: هو غم يا أميرالمؤمنين لما حدث في الإسلام، قال: و ما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا، قال: الزنا؟ قال: نعم، المتعة زنا، قال: و من أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عزّوجلّ، وحديث رسول الله ﷺ، قال الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤمِنُون﴾ إلى قوله: ﴿وَالّذينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ * إلاّ عَلى أَزواجِهِم أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْر مَلُومِين* فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادون﴾ [1] يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين [2].

أقول:هل عزب عن ابن أكثم ـ و قد كان ممّن يكن العداء لآل البيت ـ انّ المتعة داخلة في قوله سبحانه : ﴿إلاّعَلى أَزْواجِهِم﴾ و انّ عدم الوراثة تخصيص في الحكم، وهو لا ينافي ثبوتها، وكم لها من نظير، فالكافرة لا ترث الزوج المسلم، وبالعكس، كما انّ القاتلة لا ترث وهكذا العكس، وأمّا الولد فيلحق قطعاً،و نفي اللحوق ناشئ امّا من الجهل بحكمها أو التجاهل به.

وماأقبح كلامه حيث فسر المتعة بالزنا وقد أصفقت الأُمة على تحليلها في عصر الرسول ﷺ والخليفة الأوّل، أفحسب ابن أكثم انّ الرسول ﷺ حلل الزنا ولو مدة قصيرة؟!

كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

وهناك روايات مأثورة عن الخليفة نفسه، تعرب عن أنّ التحريم كان صميم رأيه، من دون استناد إلى آية أو رواية.

فقد أخرج مسلم في صحيحه: عن أبي نضرة قال: كان ابن عباس يأمر بالمتعة، وكان ابن الزبير ينهى عنها، فذكر ذلك لجابر، فقال: على يدي دار

---

١. المؤمنون: ١ ـ ٧.

٢. وفيات الأعيان: ٦/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

الحديث: تمتعنا مـع رسول الله ﷺ فلما قام عمر، قـال: إنّ الله كان يحل لرسولـه ما شاء بما شاء، فأتموا الحج والعمـرة وأبوا نكاح هذه النساء، فلئـن أُوتي برجل نكح امرأة إلى أجل إلاّ رجمته بالحجارة.

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي نضرة، قال: قلت لجابر: إنّ ابن الزبير ينهى عن المتعة، وانّ ابن عباس يأمر بها، فقال لي: على يدي جرى الحديث: تمتعنا مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر، فلما ولي عمـر خطب الناس فقال: إنّ القـرآن هو القرآن، وانّ رسول الله ﷺ هو الرسول، وانّهما كانتـا متعتان على عهد رسول الله ﷺ احداهما متعة الحج والأُخرى متعة النساء.

وهـذه المأثورات تعـرب عـن جملة مـن الملاحظات نجملهـا بمـلاحظتين اثنتين:

الأُولى: انّ المتعة كانت باقية على الحل إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وبقيت حلالاً في أيامه حتى نهى عنها ومنع.

و **الثانية**: انّه باجتهاده قام بتحريم ما أحلّه الكتاب والسنة، ومن المعلوم انّ اجتهاده ـ لو صحت تسميته بالاجتهاد ـ حجة على نفسه لا على غيره.

وفي الختام نقول:

إنّ الجهل بفقـه الشيعـة أدى بكثير مـن الكتـاب إلى التقـوّل على الشيعـة، وخصوصـاً في مسألة المتعة التي نحـن في صدد الحديث عنها، بجملـة منكرة من الآراء والأحكام تدل على جهل مطبق أو خبث سريرة، ومن هذه الأقوال: إنّ من أحكام المتعـة عند الشيعة انّـه لا نصيب للولد مـن ميراث أبيه، وانّ المتمتع بها لا عـدّة لها، وانّها تستطيع أن تنتقل مـن رجل إلى رجل إن شـاءت، و من أجل هـذا استقبحوا المتعة واستنكروها وشنعوا على من أباحها.

وقد خفي الواقـع على هؤلاء وانّ المتعة عند الشيعة كـالزواج الدائم لا تتم

إلاّ بالعقد الدال على قصد الزواج صراحة، وانّ المتمتع بها يجب أن تكون خالية من جميع الموانع، وانّ ولـدها كـولد الـزوجة الـدائمة مـن وجوب التـوارث، والإنفاق وسائر الحقوق الماديـة، وانّ عليها أن تعتد بعد إنهاء الأجل مـع الدخول بها، و إذا مات زوجها وهي في عصمته اعتدت كـالدائمة من غير تفاوت، إلى غير ذلك من الآثار.

على أنّ الأمر الذي ينبغي الالتفات إليه و إدراكه بوضوح، انّ الشيعة ورغم إدراكهم و إيمانهم بحلية زواج المتعـة وعدم تحريمه ــ وهو ما يعلنون عنـه صراحة ودون تردّد ـ إلاّ انّهم لا يلجأون إلى هذا الزواج إلاّ في حـدود ضيقة وخاصة، وليس كما يصـوّره ويتصـوّره البعض مـن كـونـه ظـاهـرة متفشيـة في مجتمعهم وبشكـل مستهجن ممجوج.

المقالة العاشرة

الاختلاف في الفروع لا في الأُصول

قرأنا في العدد ٣٧٣ من مجلة الشريعة الأُردنية المؤرخة بكانون الثاني سنة ١٩٩٧ م لقاءً صحفياً أجرتـه مجلة الشريعة مع الشيخ عبد الله المنيع من علماء السعودية، فكان في كلامه لدغ للشيعة فآثرت كتابة مقال في ردّه، وتفضلت مجلة الشريعة مشكورة بنشـره.

***

وإليك نصّ الحوار الذي أجرته معه مجلة الشريعة :

سأله المحاور: مـؤخراً عقدت عدّة مؤتمرات بهدف تقـريب وجهات النظر بين المذاهب الإسلاميـة المتعدّدة وخاصة بين المذهبين السنـي و الشيعي، فما هو رأي فضيلتكم في هذه المؤتمرات؟

فأجاب الشيخ المنيع: لا يوجد هناك معـايير يرجع إليها في سبيل التقريب بين المذاهب الإسلاميـة. فالخلاف بين المذاهب السنية هو خلاف بـالفروع وليس بالأُصول، وحتى أصحاب رسول الله وجد بينهم خلاف في فروع الشريعة فقط ولم يكن هذا سبباً في تباعدهم وتناحـرهم وتباغضهم بل بقي بينهم التآخي والتوادد، ولكن الاختلاف بين أصحـاب المذهب السني والمذهب الشيعي هـو اختلاف في الأُصول حيث إنّ نظـرتهم إلى أصحاب رسول الله ﷺ نظرة سيئة تصل لدرجة أن يلعنـوا بعض أصحـاب رسـول الله بينما ورد في سـورة الحشر وصف المهـاجـرين والأنصار بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرِ لَنَا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالإِيمان﴾.

بالإضافة إلى عدم إقرار إخواننا الشيعة بكتابي مسلم و البخاري، فلو أمكن إيجاد تقارب في هذه النقاط التي نعتبرها أُصولاً فإنّنا نرحب بهذا التقارب.

***

وقد كتبنا مقالاً حول تلك المقابلة وبعثنا به إلى هيئة تحرير المجلة، و إليك نصّ مقالنا المنتشر في مجلة الشريعة العدد ٣٧٩ الموافق ربيع الأوّل ١٤١٨هـ.

قرأنا في العدد ٣٧٣ المؤرخ في كانون الثاني سنة ١٩٩٧م من مجلتكم الموقرة [الشريعة] حواراً مع الشيخ عبد الله سليمان المنيع طرح فيه المحاور على الشيخ مسألة التقريب بين المذاهب الإسلامية طالباً رأيه فيها، فأجاب الشيخ على النحو الماضي.

وحاصل كلامه يرجع إلى أمرين:

الأوّل: انّ نظرة الشيعة إلى أصحاب رسول الله ﷺ نظرة سيئة.

الثاني: انّ الشيعة لا تعترف بكتابي مسلم و البخاري.

فإليك تحليل ذينك الأمرين:

أمّا الأوّل: إنّ الشيعة هم من يشايعون علياً والأئمّة من أهل البيت ولا يتخلّفون عن إرشاداتهم وتعاليمهم التي هي امتداد لإرشادات وتعاليم رسول الإسلام العظيم محمد ﷺ وهذا هو الإمام علي عليه السلام يقول في أصحاب النبي ﷺ: «أين إخواني الذين ركبوا الطريق و مضوا على الحق؟ أين عمار، وأين ابن التيهان، وأين ذو الشهادتين، وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية»[1] وهذا هو الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام يدعو لأصحاب جدّه رسول الله ﷺ الذين أحسنوا الصحبة إذ قال: «اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحبة والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، واستجابوا له حيث أسمعهم حجّة

١. نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.

رسالاتـه وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمتـه وقاتلوا الآبـاء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به، ومـن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لـن تبور في مودته» إلى أن قال: «اللهمّ وصلّ على السـابقين لهم بإحسان الذين يقولون ربّنـا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان خير جزائك». [1]

لنفترض إنّ من الشيعـة من لا يحب بعـض الصحابـة لا لكـونهم صحابـة النبي ﷺ بل لما صدر منهم من المواقف و من الأعمال التى لا تنطبق على موازين الشريعة، فهو إمّا مصيب في اعتقاده واجتهاده و إمّا مخطئ، وعلى الأوّل له أجران، وعلى الثـاني له أجـر واحد، كيـف لا وقد حـدث هذا التشـاجر والتعـارض بين صحابة النبي ﷺ أنفسهم، فهذا هو الإمام البخاري ينقل لكم مشاجرة حامية بين سعد بن عبادة الذي قـال لسعد بن معاذ في محضر النبي ﷺ «كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقـدر على قتله، ولو كان مـن أهلك ما أحببت أن يقتل، فقـام أسيد بن حُضير ـ و هو ابن عم سعد بن معاذ ــ و قال لسعد بن عبادة: كذبت، وعمر الله لنقتلنّـه، فإنّك منـافق تجادل عن المنـافقين» [2] وكم لهذه المشـاجرات السـاخنة والتراشق بـالاتهامات بين الصحـابة من نظير، ومـع ذلك لم يعتبرها أحـد موجبـاً للكفـر أو الخروج عن ربقـة الإيمان، ثـمّ ماذا يفعـل الشيعـة إذا وجـدوا في أصح الكتب عنـد أهل السنة بعـد كتاب الله عـن رسول الله ﷺ أنّه قال: «يـرد علي يوم القيامة رهط من أصحابي فيحلئون عـن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقول إنّك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنّهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى»، وغير ذلك من الروايات التي أخرجها الإمام البخاري في صحيحه في باب الحوض وغيره. [3]

فما ذنب الشيعي إذا وجد في أصح الكتب لدى إخوانه السنـة انّ صحابياً

---

١. الصحيفة السجادية : الدعاء ٤.

٢. صحيح البخاري، ج٥، ص ١١٨ـ ١١٩، في تفسير سورة النور.

٣. لاحظ جامع الأصول، ج١١، ص ١٠.

جليلاً كـأسيد بن حُضير يصف سعـد بن عبادة ذلـك الصحابي الجليل بـالنفاق ويقول: إنّك منافق تجادل عن المنافقين.

فإذا صـحّ ذلك العمـل من الصحـابي بحجـة انّـه وقف على نفـاق أخيـه الصحابي الآخر، فلماذا لا يصح صدوره من الآخرين إذا وقفوا على أنّ بعض من كان حول النبي ﷺ قد اقترف ما لا يرضـى به الله ورسوله ﷺ فيبدي عدم رضائه من عمله كما أبداه أسيد بن حُضير.

كما أظهر سبحانه عدم رضائه من بعضهم وقال:

﴿إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ .[1]

فقـد وصـف بعضهم بـالفسـق، كما وصف الـذكـر الحكيم لفيفـاً منهـم بالإعراض عن الذكر و الصلاة والاشتغال بالتجارة وكسب المال .

قال سبحانه: ﴿وَإِذا رَأَوا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرازِقين﴾ [2].

وعلى ذلك فـالشيعة تحب الصحابـة الكرام بما انّهم صحـابة للـرسول ﷺ وملبي دعوته ونـاشري سنته، ولكن ذلك لا يمنع من مناقشـة بعض مواقفهم إذا خالف الكتاب والسنة فانّ العصمة لله تبارك و تعالى و لمن عصمه.

فليست الصحابـة بمعصومين عن الخطأ والزلل، ونقـد بعض أعمالهم نابع عن تلك الحقيقـة، و إلاّ فمن أراد أن تُكبح الألسن للحيلولـة دون وصف أعمالهم بالخير والشر والحسن والقبح فقد ألبس عليهم ثوب العصمة وهو بدعة ما فوقها بدعة.

هذا كلّه حول الأمر الأوّل و إليك الكلام في الأمر الثاني:

---

١. الحجرات:٦.

٢. الجمعة:١١.

٣. الكافي:٦/ ٢٥٦ـ ٢٥٧.

متى أصبح الصحيحان أصلين في الإسلام ؟

إنّ الواجب على كافة المسلمين هو الأخذ بسنة رسول الله ﷺ من غير أن يكون هناك خصوصية لكتاب دون كتاب. و الشيعة بفضله سبحانه أخذوا سنة الرسول ﷺ من زلال صاف وهو العترة الطاهرة أوّلاً وثقات المسلمين ثانياً وبذلك وقفوا على أحاديث هائلة في سنته ﷺ فقارنوا الكتاب والسنة ولم يفرقوا بينهما .

ولم يكن الأخذ بالصحيحين ملاكاً للإيمان، بشهادة أنّ المسلمين كانوا يعملون بسنة رسول الله ويروونها قبل أن يولد البخاري ومسلم ويكون لهما أثر في الوجود، فمتى أصبح البخاري ومسلم أصلاً و مناراً ومحوراً للإيمان والكفر، مع أنّ الأصل هو سنة الرسول ﷺ وعند الشيعة سنته ﷺ المروية عن طريق أهل بيته المطهرين بأسانيد عالية ونقية من كلّ شائبة.

فنرجو ونأمل من الأُستاذ الشيخ المنيع إعادة النظر في كلامه الذي مرّ ملخصه، ونرجو أن يطالع كتب الشيعة في هذا المجال ليقف على الحقيقة.

وفي الختام إنّنا لا نبخس حقّ الشيخ المنيع لما لمسناه فيه من تفتح ومرونة وأدب مع إخوانه الشيعة.

جعلنا الله سبحانه و تعالى جميعاً من أنصار دينه والأشداء على أعدائه الصهاينة الملحدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

قم ـ الجامعة الإسلامية

٢٨/ ١٢/ ١٤١٧هـ

المقالة الحادية عشرة

آية التطهير و عصمة أهل البيت

حضرة الأخ العزيز الأُستاذ حسن التلّ المدير العام و رئيس التحرير المسؤول لصحيفة اللواء الأُردنية، الموقر.

السّلام عليكم و رحمة الله و بركاته

أتقدّم إليكم بالتحية و السّلام ، و أرجو من الله سبحانه مزيد التوفيق لكم و لمن حولكم من الأعزاء.

منذ مدّة و نحن نقرأ في صحيفتكم الغرّاء مقالات بقلم الأُستاذ الفاضل محمد الآلوسي حول عقائد الشيعة و تاريخها، و قد امتازت هذه المقالات بالبحث الموضوعي و الدراسة الهادئة بعيداً عن المهاترات، والاتهامات و بمعزل عمّا لا يليق بالكاتب الإسلامي، فشكر الله مساعيه وكثّر في المجتمع الإسلامي أمثاله، إذ طالما نقرأ في الصحف والمجلات أو في الكتب المنشورة حول الشيعةمقالات بأقلام بذيئة، لا تنتج عند القارئ إلّاالنفور من الكاتب و إساءة الظن به وبأهدافه، فإنّ البحث العلمي يرتفع عن إقرانه بالشتم و السب غير انّ كاتبنا ـ ولله الحمد ـ مستثنىٰ من تلك الزمرة، فهو كاتب مؤدب، ذو صدر رحب، و لهجة مهذبة.

لكن الذي بعثنا على أن نسجل شيئاً أو هامشاً على بعض مقالاته ما قرأناه

في صحيفـة اللواء المؤرّخـة في ١٠ جمادى الآخرة ١٤١٧ هجـري، الموافق لـ٢٢ تشرين الأول ١٩٩٦م، العدد ١٢٢٢ السنة الخامسة و العشرون.

ففي الصفحـة ٢٤ كتب الأخ تحت عنوان «الخلافة والإمـامة عنـد الشيعة» أُمـوراً لنا فيهـا تأمّـلات و مناقشـات يرجـىٰ نشرها على صفحـات اللواء لتكـون الصحيفة منبر الإسـلام الحرّ، و معرضاً لمختلف الآراء، و فـرصة لتلاقـح الأفكار الذي منه ينبثق النور، و يضاء الطريق، و قد قيل: الحقيقة بنت البحث.

و إليك موجز كلامه:

قال الأُستاذ الآلوسي:

إنّ أهمّ نصّ استدل بـه الشيعة و توصلوا مـن خلاله إلى عصمة من قـالوا بعصمتهم هـو قولـه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُـرِيدُ الله لِيُـذهبَ عَنْكُمُ الـرِّجْسَ أَهـل الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ [1].

فقد قالوا: إنّها نزلت بشأن علي و زوجته فاطمة و ولديهما الحسن و الحسين وقد جمعهم النبيﷺ إثر نزول الآية و ألقى عليهم كساء و قال: «اللّهمّ هؤلاء أهل بيتي فـاذهب عنهم الـرجس و طهّـرهم تطهيراً... » و عليه يكـون المقصود بـأهل البيت هم هـؤلاء الأربعة فقط و ذرّيتهـم من بعدهم دون غيرهـم، لأنّ كلمة إنّما تفيد الاختصـاص الدالّ على الحصر...و هذا الحديث و الـرواية بشأن نـزول الآية هي إحـدى الـروايات المشهـورة عنـد أهل السنّـة أيضاً في مصـادرهم المعتمـدة كالسيوطي و الطبري و ابن كثير والآلوسي في تفـاسيرهم و كثيرون غيرهم، و قالوا أيضاً انّ قوله تعالى في الآية: ﴿إِنَّما يُريد﴾ يفيد الإرادة الإلهية القدرية النافذة و من ثمّ دلّـت على حصول الشيء فعـلاً و هو التطهير و ذهـاب الـرجس عن الأربعـة «رضي الله عنهم» و هـو ما يعرف عنـد المتكلّمين بالإرادة الكـونية لله الـذي يقول

١. الأحزاب: ٣٣.

للشيء إذا أراده ﴿كُنْ فيكون﴾ .

ثمّ ناقش استدلال الشيعة الذي نقله بوجوه نأتي بها:

١. انّ أهل السنة قالوا: إنّ المقصود بأهل البيت هم نساء النبي و ليس الأربعة رضي الله عنهم، و انّ الّذي رجّح عندهم هذه الرواية هو سياق الآيات التي سبقتها، و السياق له اعتباره في استنباط الأحكام ثمّ نقل الآيات المتقدمة على آية التطهير والمتأخرة عنها و كلّها نازلة في نساء النبي.

٢. انّ الخطاب في آية التطهير و إن جاء بصيغة المذكر: ﴿**عنكم أهل البيت و يطهركم...**﴾ خلافاً للضمائر الواردة في سائر الآيات التي سبقتهاو التي أعقبتها ، فهي بصيغة المؤنث. لكنّه لا يصير دليلاً على التغاير، و انّ المقصودين من آية التطهير غير المقصودين من سائر الآيات، و ذلك لأنّه يجوز في لغة العرب مخاطبة جمع المؤنث بصيغة جمع المذكر تعبيراً لعلو المقام والمبالغة.

٣. انّ حديث الرسول جاء بصيغة الطلب «اللّهمّ اذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً» و هي صيغة تفيد عدم شمول الأربعة وقت نزول النصّ، فدعا الرسول ربه أن يشملهم أيضاً بحكمه، و لو كانوا هم المقصودين لكان الرسول ناجى ربّه بصيغة الشكر لا بصيغة الطلب.

٤. انّ الإرادة الواردة في الآية هي الإرادة التشريعية أي الأمر الذي لا يسلب المخاطب القدرة على الاختيار، و ليست إرادة كونية ـ التي تدّعيها الشيعة ـ و التي تتعلق بكلّ قضايا الخلق و الإيجاد فقد خُلِقتْ من دون اختيار، و ذلك لأنّه عندئذ تصبح طهارتهم ـ عصمتهم ـ أمراً خارجاً عن الاختيار ولا تكون خاضعة للثواب و العقاب.

هذه هي الأدلة التي استدل بها على نزول الآية في نساء النبيّ ، و لكن الأُستاذ ـ أنار الله برهانه ـ لم يتجرّد عن عقيدته في تفسير الآية، ولو كان ناظراً إليها

وما حولها و مـا فيها من القرائن المتصلة و المنفصلة الدالّـة على نزولها في آل العباء والكساء، لما عدل عن مقتضاها، و لما اختار ما اختار.

انّ استدلال الشيعـة بهذه الآية على عصمة آل الكساء مبنـي على أُمور تنتج مختارهم بوضوح:

الأوّل: ما هوالمراد من الإرادة في الآية؟

إنّ الإرادة المتعلّقـة بالإيجاد و التكـوين إرادة تكـوينية و هي لا تنفـك عن المراد إذا كان المريد هو الله سبحانه كقوله سبحانه: **﴿إِنَّما أمره إذا أراد شيئاً أَنْ يقول لهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾** [1] فخلق السماوات و الأرض مراد بإرادة كونية.

وأمّا الطلب الموجّه إلى البشر الحاكي عن تعلّق إرادتـه سبحانه بقيام الناس بالوظائف فهي إرادة تشريعية و لم يكتب عليهـا عدم التفكيك، فانّه سبحانه أراد الطاعة من الإنسان، وكم هناك إنسان كافر أو عاص لله سبحانه.

و هذا التقسيم ممّا لا غبار عليه.

إنّما الكـلام هـو في الإرادة الـواردة في آيـة التطهير و أنّها من أي القسمين، والأُستاذ ذهب إلى أنّها تشريعية، و لكن الدليل يسوقنا إلى أنّها كونية، و ذلك لأنّها إذا كانت تشريعية كان من لوازمها انّها لاتختص بفئة دون فئة، بدليل أنّه سبحانه أراد التطهير و التطهّـر من كـلّ شين و رين و طلبـه مـن جميع النـاس، مـن دون تخصيص و حصر. قال سبحانه:

﴿وَ لَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم﴾ [2].

﴿وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ منَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [3].

---

١. يس: ٨٢. ٢. المائدة: ٦.

٣. الأنفال: ١١.

﴿إِنّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابينَ و يُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾ [١].

﴿فيه رِجَالٌ يُحِبُّون أَنْ يَتَطَهّروا و اللهُ يُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ﴾ [٢].

وحبه سبحانـه علامة بعثه و طلبه، و إرادتـه التشريعية المتعلّقة بتطهير كل المؤمنين عامة لا جماعة خاصة.

و سؤالنا هو : لو كانت الإرادة الـواردة في الآية المبحوثة كالإرادة الواردة في هذه الآيات فما هو وجه التخصيص بأُمور خمسة:

ألف: بدأ قوله سبحانه بحرف ﴿إنّما﴾ المفيدة للحصر.

ب : قدم الظـرف و قال : ﴿ليذهب عنكم الرجس﴾ و لم يقـل ليـذهب الرجسَ عنكم ، و ذلك لأجل أنّ التقديم يفيد التخصيص .

ج : بيّن من تعلّقت الإرادة بتطهيـرهم بصيغة الاختصـاص و قال : ﴿أهل البيت﴾ أي أخصُّكم أهل البيت مثل قول النبيﷺ: «نحن معاشر الأنبياء...».

وقول قائلهم: نحن العرب أسخى من بَذَل.

د: أكد المطلوب بتكرير الفعل و قال: ﴿ويطهّركم﴾ الذي هو تأكيد لمعنى إذهاب الرجس المتقدّم عليه.

هـ: أرفقه بالمفعول المطلق و قال: ﴿تطهيراً﴾.

فهـذه الوجـوه الخمسـة آيـة أنّ هذه الإرادة إرادة خـاصّـة بأهـل البيت لا يشـاركهم فيهـا أحـد مـن الأُمّـة، و إلاّ لكـانت تلـك العنـايـة البـالغـة في مجال التخصيص و الاختصاص لغواً مضراً بالبلاغة، وغير لائقة بكلام ربّ العزة.

ثمّ إنّ تعلّـق إرادته التكـوينية بطهـارة أهل البيـت من الذنـب ليس بأمـر جـديد، فقـد جاء نظيره في مـريم سـلام الله عليها ، قـال الله سبحانـه: ﴿إنّ الله

---

١. البقرة: ٢٢٢.

٢. التوبة: ١٠٨.

اصطَفَاكِ وَ طَهَّرَكِ و اصْطَفَاكِ على نِسَاء العَالَمِينَ﴾[١].

و ليس هذا الإصطفاء و التطهير بالإرادة التشريعيّة، فانّ مريم و غيرها أمام هذه الإرادة سواسية، بل هناك إرادة خاصّة تعلّقت بمريم دون غيرها فطهرتها من الذنوب و حصّنتها من اقتراف المعاصي.

و سيوافيك انّ تعلّق الإرادة التكوينية بالطهارة من الذنب لا ينافي الاختيار على الاستجابة و الرفض، والثواب و العقاب، والفعل و الترك.

***

الثاني: ما هو المراد من الرجس؟

هذا هو الأمر الثاني الذي يجب الإمعان فيه حتّى يكون الدليل منتجاً لا عقيماً و قد غفل الأُستاذ عن تبيين تلك الناحية في كلامه فنقول: إنّ الرجس استعمل في الذِّكر الحكيم، في الخمر و الميسر والأنصاب و الأزلام [٢] كما استعمل في الميتة و الدم و لحم الخنزير [٣] و في الأوثان [٤] و في المنافقين [٥] و في المشركين[٦] و في غير المؤمنين [٧] إلى غير ذلك من موارد استعماله في الكتاب والسنّة النبوية واللغة العربية، فينتقل الإنسان من مجموع هذه الموارد إلى أنّ الرجس عبارة عن كلّ قذارة ظاهرية كالدم و لحم الخنزير، أو باطنية و روحية كالشرك و النفاق وفقد الإيمان. و بالجملة مساوئ الأخلاق، و الصفات السيئة والأفعال القبيحة التي يجمعها الكفر و النفاق والعصيان.

فالمنفي في الآية المبحوثة عنها هو هذا النوع من الرجس، فهو بتمام معنى

---

١. آل عمران: ٤٢.

٢. المائدة: ٩٠.

٣. الأنعام: ١٤٥.

٤. الحجّ: ٣.

٥. التوبة: ٩٥.

٦. يونس: ١٠٠.

٧. الأنعام: ١٢٥.

الكلمة ممّا أذهبه الله عن أهل البيت.

فإذا كان أهل البيت منزهين عن النفاق و الشرك و الأعمال القبيحة و ما يراد منها، فهم معصومون من الذنب مطهّرون من الرجس، بإرادة منه سبحانه.

وقد رباهم الله سبحانه و جعلهم معلّمين للأُمّة هادين للبشر، كما ربّى أنبياءه و رسله لتلك الغاية.

فهل الأُستاذ ـ حفظه الله ـ يوافقنا على هذا التفسير أم انّ له في تفسير الرجس مذهباً آخر فليبينه لنا؟ ولا أظن أن يفسره بغير ما يفسره القرآن.

وعلى ضوء ذلك فأهل البيت ـ كانوا من كانوا ـ معصومون بنصّ هذه الآية، مطهّرون من الذنب والعثرة في القول و العمل بإذن من الله سبحانه و إرادة حاسمة. وقد اتّفقت الأُمّة على أنّ نساء النّبي لسنَ بمعصومات، فانّ الآيات الواردة في سورة الأحزاب، أوّلاً ثمّ في سورة التحريم ثانياً حيث يقول سبحانه: ﴿**إنْ تَتُوبَا إِلى اللهِ فَقَد صَغَت قُلُوبُكُمَا و إن تَظَاهَرَا عَلَيهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَ جِبْرِيلُ وَ صَالِحُ المُؤمِنِينَ والملائكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ**﴾[1] تثبت ذلك.

و هذا لا يعني أن نبخس حقّهن، و نترك تكريمهن فانّهن أُمّهات المؤمنين لهنّ من الحقوق ما شرعها الله في كتابه و سنة نبيّه المطهّرة.

***

الثالث: ما هوالمراد من «البيت»؟

لا شكّ انّ ﴿البيت﴾ في هذه الآية محلاّة باللام و هي تستعمل في تعريف

١. التحريم: ٤.

الجنس، والاستغراق، والعهد فيجب التدبّر في مفادها، فهل هي هنا لتعريف الجنس أو لبيان الاستغراق، أو انّها تشير إلى بيت معهود بين المتكلّم و المخاطَب؟

أمّا الأوّل والثاني فلا سبيل إليهما، لأنّه سبحانه ليس بصدد بيان انّ إرادته الحكيمة تعلقت باذهاب الرجس عن أهل جنس البيت أو كلّ البيوت في العالم، و ذلك واضح لا يحتاج إلى الاستدلال إذ تكون حينئذٍ شاملة لبيوت عامة المؤمنين.

فتعيّن الثالث، و هو كون المراد (بيت واحد) معيّن معهود، بين المتكلّم والمخاطب (أي النبي ﷺ).

و عندئذٍ يجب علينا أن نحاول فهم ذلك البيت المعهود و انّه ما هو؟

و لا يمكن لنا أن نطبقه على بيوت نساء النبي بشهادة أنّه سبحانه عند ما يذكر بيوتهنّ فانّه يذكرها بصيغة الجمع إذ أنّ لهنّ بيوتاً لا بيت واحد.

و الآية تركز على البيت الواحد، و الدليل على تعدّد بيوتهنّ:

قوله سبحانه: ﴿**وَقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْن تَبَرّج الجاهليّةِ الأُولى**﴾ [1].

و قوله سبحانه: ﴿**واْذكُرْنَ ما يُتلَى في بُيُوتِكُنَّ من آياتِ اللهِ والحكمَةِ**﴾ [2].

فإنّنا نرى هنا انّه لم يكن لنساء النبي بيت واحد بل بيوت عديدة.

و لم يكن للنبيّ أيضاً بيت واحد.

قال سبحانه: ﴿**يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لا تَدخُلُوا بُيُوتَ النبيّ إلاّ أن يُؤذَنَ لَكُم**﴾ [3].

فإنّنا نرى هنا انّه لم يكن للنبي ﷺ ولا لنسائه بيت واحد بل بيوت عديدة

---

١. الأحزاب: ٣٣.
٢. الأحزاب: ٣٤.
٣. الأحزاب: ٥٣.

فما هو المراد ـ ياترى ـ بالبيت الذي جاء بصيغة المفرد؟

فعندئذ يجب على المفسّر المحقّق المجرّد من كلّ عقيدة مسبّقة تبيين هذا البيت و تعيينه، فهذا البيت ليس من بيوت نسائه، ولا بيوت نفس النبيّ بشهادة ما مضى من أنّ القرآن عندما يتحدّث عن ازواج النبي و نفس النبي إنّما يتحدّث عن بيوت لهن لا عن البيت الواحد. فلا محيص عن تفسيره ببيت واحد معهود فأيّ بيت ذاك؟فعلى الأُستاذ تعيينه.

هذا إذا كان المراد من البيت هو البيت المحسوس ، أي البيت المادي وهناك احتمال آخر و هو أن يكون المراد منه هو مركز الشرف و مجمع السيادة و العزّ ، وإن شئت قلت إذا أُريد منه بيت النبوّة و بيت الوحي و مركز أنوارهما فلا يصحّ أن يراد منه إلاّ المنتمون إلى النبوّة و الوحي بوشائج روحيّة خاصة على وجه يصحّ مع ملاحظتها، عدّهم أهلاً لذلك البيت، و تلك الوشائج عبارة عن النزاهة في الروح و الفكر.

ولا يشمل كل من يرتبط ببيت النبوّة عن طريق السبب أو النسب فحسب، و في الوقت نفسه يفتقد الأواصر الروحيّة الخاصة، و لقد تفطّن العلاّمة الزمخشري صاحب التفسير لهذه النكتة، فهو يقول في تفسير قوله تعالى:﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [1]:

لأنّها كانت في بيت الآيات و مهبط المعجزات و الأُمور الخارقة للعادات فكان عليها أن تتوقّر ولا يزدهيها ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوّة، و أن تسبّح الله و تمجّده مكان التعجّب، و إلى ذلك أشارت الملائكة في قولها: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ... ﴾ أرادوا أنّ هذه و أمثالها ممّا

---

۱. هود: ۷۰.

يكرمكم به ربّ العزّة و يخصّكم بالأنعام به يا أ هل بيت النبوّة.[١]

و على ذلك لا يصح تفسير الآية بكل المنتمين عن طريق الأواصر العائلية إلى بيت خاص حتى بيت فاطمة إلاّ أن تكون هناك الوشائج المشار إليها.

ولقد جرى بين «قتادة» ذلك المفسّر المعروف و بين أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام مناظرة لطيفة أرشده الإمام فيهـا إلى هذا المعنى الذي أشرنا إليه قال ـ عند ما جلس الإمـام الباقر عليه السلام ـ : لقد جلسـت بين يدي الفقهـاء و قـدّام ابن عباس فما اضطرب قلبي قـدّام واحد منهم ما اضطرب قدّامك. قـال له أبوجعفر الباقر عليه السلام : ويحك أتـدري أيـن أنت؟ أنـت بين يـدي ﴿**بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُـرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُـهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهٰا بِالْغُدُوِّ وَ الآصٰـالِ* رِجٰالٌ لاٰ تُلْهِيهِمْ تِجٰارَةٌ وَ لاٰ بَيْعٌ عَـنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقـامِ الصَّـلاةِ وَ إِيتٰـاءِ الزَّكـاةِ**﴾ [٢] فأنـت ثم ونحـن أُولئك. فقـال قتـادة: صــدقت و الله جعلنـي الله فـداك، و الله مـا هـي بيـوت حجـارة ولا طين.[٣]

و ما جاء في كلام باقر الأُمّة عليه السلام يحضّ المفسّر فيها على البحث و التحقيق عن الـذين يـرتبطون بـذلك البيت الـرفيع بأواصر روحيّـة معينـة و بذلك يظهـر وهن القـول بـأنّ المراد من البيـت أزواج النبي صلى الله عليه وآله لأنّـه لم تكن تلك الـوشـائج الخاصـة ـ بـاتفـاق المسلمين ـ بينهـنّ ، و أقصى مـا عندهـنّ أنّهنّ كنّ مسلمات مؤمنات.

***

---

١. الذهبي، ميزان الاعتدال:٣/ ٩٣ـ ٩٧ ؛سير اعلام النبلاء:٥/ ١٨ـ٢٢.

٢. النور: ٣٦ ـ ٣٧.

٣. الشرح الحديدي:٤/ ١٠٢؛ سير اعلام النبلاء:٤/ ٤٢١ـ٤٢٧.

الرابع: الضمائر

نرى أنّه سبحانه عندما يتحدث عن أزواج النبي و نسائه يذكرهنّ بصيغة جمع المؤنث، ولا يذكرهنّ بصيغة الجمع المذكر، فانّه سبحانه يأتي في تلك السورة من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٤ باثنين و عشرين ضميراً.. مؤنثاً مخاطباً بها نساء النبي و إليك الإيعاز إليها:

١. كنتنّ؛ ٢. تردن؛ ٣. تعالين؛ ٤. امتعكنّ؛ ٥. أُسرّحكنّ [١].

٦. كنتنّ؛ ٧. تردن؛ ٨. منكنّ [٢].

٩. منكنّ [٣].

١٠. منكنّ [٤].

١١. لستنّ؛ ١٢. اتقيتنّ؛ ١٣. فلا تخضعنَ؛ ١٤. و قلنَ [٥].

١٥. وقرنَ؛ ١٦. بيوتكنَ؛ ١٧. تبرّجنَ؛ ١٨. اقمنَ؛ ١٩. آتينَ؛ ٢٠. اطعنَ [٦].

٢١. و اذكرنَ؛ ٢٢. في بيوتكنَّ [٧].

نرى أنّه سبحانه عندما يتحدّث عن نساء النبي يذكرهن بهذه الضمائر، مع انّا نرى انّه سبحانه عند ما يذكر أهل البيت يذكرهم بضمائر المذكر، ويقول: ﴿ليذهب عنكم﴾، ﴿و يطهّركم﴾.

فما هو وجه العدول في هذه الآية عن السياق الوارد في الآيات المتقدمة

---

١. الأحزاب: ٢٨.
٢. الأحزاب: ٢٩.
٣. الأحزاب: ٣٠.
٤. الأحزاب: ٣١.
٥. الأحزاب: ٣٢.
٦. الأحزاب: ٣٣.
٧. الأحزاب: ٣٤.

والمتأخرة عنها؟

و ما يقوله الأُستاذ من أنّ أهل السنة يجوّزون في لغة العرب مخاطبة الجمع المؤنث، بصيغة جمع المذكر تعبيراً لعلوّ المقام، والمبالغة، لو كانت صحيحة، فما هو وجه العدول في مورد واحد عمّا ورد في اثنين عشرين مورداً؟!

أليس هذا العدول لذلك التبرير المزعوم موجباً للالتباس و وقوع المخاطب في الاشتباه؟

إلى هنا ثبت انّ الآية لا تهدف إلى نساء النبي، و إنّما تهدف إلى بيت واحد وإلى أهله خاصّة.

فعند ذلك يجب علينا أن نميط الستر عن وجه الحقيقة عن طريق السنة النبوية.

السنّة النبوية تميط الستر عن وجه الحقيقة

إنّ للنبي ﷺ عناية وافرة بتعريف أهل البيت لم ير مثلها إلاّ في أُمور نادرة حيث قام بتعريفهم بطرق مختلفة ، و إليك بيانها على سبيل الإيجاز والاختصار.

لقد قام النبيّ بتعريف أهل البيت بطرق ثلاثة:

أوّلاً: صرّح بأسماء من نزلت الآية في حقّهم، حتى يتعين المنزول فيه باسمه ورسمه.

ثانياً: قد أدخل جميع من نزلت الآية في حقّهم تحت الكساء و منع من دخول غيرهم.

ثالثاً: كان يمر ببيت فاطمة عدّة شهور كلّما خرج إلى الصلاة فيقول: الصلاة أهل البيت ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً**﴾ .

و نذكر من كلّ طائفة نماذج:

أما الأُولى: أخرج الطبري في تفسير الآيـة عن أبي سعيد الخدري قـال، قال رسول الله ﷺ: نـزلت الآيـة في خمسة: فيّ وفي علي رضي الله عنـه و حسن رضي الله عنـه ، وحسين رضي الله عنـه، و فاطمـة رضي الله عنهـا، ﴿**إنّما يريـد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً**﴾ .

و قـد رويت في هـذا المجـال روايات فمـن أراد فليرجع إلى تفسير الطبري والدر المنثور للسيوطي.

و أمّا الثانية: فقدروى السيوطي و أخرج ابن أبي شيبة و أحمد ومسلم و ابن جريـر وابن أبي حاتم والحاكم عن عـائشة رضي الله عنها قالت :خـرج رسول الله غداة و عليـه مرط مـرجّل من شعـر أسود فجـاء الحسن و الحسين رضي الله عنهما فأدخلهما معه، ثمّ جاء علي فأدخلـه معه ثمّ قال: ﴿**إنّما يريـد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً**﴾ .

ولو لم تـذكر فاطمة في هـذا الحديث فقد جاء في حديـث آخر، حيث روى السيوطي قال: و أخرج ابن جرير و الحاكم و ابن مردويه عن سعد قال: نزل على رسول الله الوحي فأدخل علياً و فاطمـة و ابنيهما تحت ثوبه، قال: اللّهمّ انّ هؤلاء أهلي وأهل بيتي.

و في حديث آخر جاء رسول الله ﷺ إلى فاطمة و معه حسن وحسين، و علي حتى دخل فأدنى علياً و فاطمة فـأجلسهما بين يديه و أجلس حسناً و حسيناً كل واحد منهما على فخـذه ثمّ لف عليهم ثـوبه و انـا مستدبرهـم ثمّ تلا هـذه الآية :

﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً**﴾ .

و أمّا الطائفة الثالثة : فقد أخرج الطبري عن أنس أنّ النبـي كان يمرّ ببيت فاطمة ستة أشهر كلّما خرج إلى الصلاة فيقول الصلاة أهل البيت ﴿**إنّما يريد الله**

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً﴾ ..

و للوقـوف على مصادر هـذه الروايـات لاحظ تفسير الطبري ، ج٢٢، ص ٥ـ٧، و الدر المنثـور:ج٥، ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ، و الروايات تربـو على أربع و ثلاثين روايـة، و رواها من عيـون الصحـابة: أبـو سعيد الخدري، أنـس بن مالـك ، ابن عباس، أبـو هريرة الـدوسي، سعد بن أبي وقـاص، واثلة بن الاسقع، أبـو الحمراء أعني هلال بن حارث، أُمّهات المؤمنين عائشة و أُمّ سلمة.

و رواه من أصحاب الصحاح: مسلـم في صحيحه :ج٧، ص ١٢٢ـ١٢٣ و الترمذي في سننه.

ولاحظ جامع الأُصول لابن الأثير ج ١٠ ، ص ١٠٣ .

و بالإمعان في مـا ذكرنا من النصوص تقف على ضعف قـول الأُستاذ حيث يقـول: إنّ حديـث الرسـول جـاء بصيغـة الطلب، اللّهمّ اذهـب عنهم الـرجس وطهّرهم تطهيراً، و هي تفيـد عدم شمول الآية لـلأربعة وقت نزول النص، فـدعا الرسول ربّه بأن يشملهم أيضاً بحكمه.

فانّ مـا ذكره الأُستاذ إنّما جـاء في بعض صور هـذا الحديث، و لكن الكثير على خلاف هذا فانّ صيغة (أذهِب) جاءت في قليل من النصوص والصور، و أمّا الأكثر فمشتمل على أنّ النبي جللهم تحت الكساء و تلا الآية المذكورة.

فقد أخرج مسلم عـن عائشة أنّها قالت: خرج النبيﷺ وعليـه مرط مرجل أسـود فجـاءه الحسن فـأدخله، ثـمّ جـاءه الحسين فأدخلـه، ثمّ جـاءت فـاطمـة فأدخلها، ثمّ جاء علي فـأدخله، ثمّ قال: **﴿إنّما يريد الله ليـذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهّركم تطهيراً﴾** .

ولـو افترضنـا صحّـة مـا ورد من صيغـة الطلب، فهـذا لا يـدل على عـدم الشمول، وإنّما هو دعـاء على استمرار الشمول كقولـه سبحانه: **﴿إهدنا الصراط**

المستقيم﴾ فانّه يتلوه النبي و الوصي والمؤمنـون كلهم، و ليس معناه خروجنا عن الصراط المستقيم حتى يهدينا الله سبحانه إليه.

بقي هنا كلام و هـو أنّ لفيفاً من التابعين ذكروا انّ الآية نـزلت في حقّ نساء النبي و أزواجه ، ولكن هذه الروايـة تصل إلى عكرمة الخارجي الحروري [١] و عروة ابن الزبير المعروف بالانحراف عن علي عليه السلام [٢] و مقاتل بن سليمان [٣] الذي يعد من أركان المشبّهة.

عود إلىٰ بدء

قد تعرفت علىٰ منطق الشيعة في نزول الآية في آل العباء و الكساء و دلالتها علىٰ عصمتهم من الذنب و العصيـان، غير انّ الكاتب القدير محمـد الآلوسي قد استبعـد نزولها في حقّهـم بـأُمور ربما مضـىٰ تحليلها في ثنـايـا البحث و لإيضـاح المطلب نرجع إلى تحليل ما استند إليه ثانياً.

قد مضى انّه استند في تقريب مختاره إلى الأُمور التالية:

١ . سياق الآيات يمنع عن نزولها في غير أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ .انّ تذكير الضميرين في آيـة التطهير مع أنّ المقصود هـو نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو لأجل الإشعار بعلو المقام و المبالغة.

٣. حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جاء بصيغة الطلب، و هـذا دليل علىٰ عدم شمول الآية لآل العباء و لو شملت الآية لهم لجاء بصيغة الشكر.

٤ . الإرادة التكوينية المتعلقـة بالعصمة تسلب الاختيـار عن المعصوم و لا يكون عمله خاضعاً للثواب و العقاب.

و إليك تحليل تلك الأُمور:

---

١ . ميزان الاعتدال: ٣/ ٩٣ .

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤/ ٦٩ .

٣. ميزان الاعتدال: ٤/ ١٧٣ .

الف: مشكلة السياق

إنّ القول بنزول الآيـة في آل الكساء لا توجد أيّ مشكلة في سيـاقها شريطة الوقوف على أُسلوب البلغاء في كلامهم و خطاباتهم. فانّ من عادتهم الانتقال من خطاب إلى غيره ثمّ العود إليه مرّة أُخرى.

قال صاحب المنار: إنّ من عادة القرآن أن ينتقل بالإنسان من شأن إلى شأن ثمّ يعود إلى مباحث المقصد الواحد المرة بعد المرة. (١)

و قـد اعترف الكاتب بهذه الحقيقـة أيضـاً عند بحثـه في آية الـولايـة التي سيوافيك البحث عنها بعد الفراغ من آية التطهير حيث قال ما هذا نصّه:

الأصل عند أهل السنّة انّ الآية تعتبر جزءاً من سياقها إلاّ إذا وردت القرينة علىٰ أنّـها جملة اعتراضيـة تتعلّق بموضوع آخر علىٰ سبيل الاستثنـاء و هو اسلوب من أساليب البلاغة عند العرب جاءت في القرآن الكريم علىٰ مستوى الإعجاز.

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام : «إنّ الآية من القـرآن يكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء». (٢)

فعلى سبيل المثال، انّه سبحانه يقول في سورة يـوسف حاكياً عن العزيز انّه بعدما واجه الواقعـة في منزله قال: **﴿إِنَّهُ مِن كَيْـدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيـمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا و اَسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنّكِ كُنتِ من الخاطِئين﴾** (٣).

ترى أنّ العزيز يخاطب زوجته بقوله: **﴿إنّه من كيدكن﴾** و قبل أن يفرغ من كلامـه معها يخاطب يـوسف بقـوله: **﴿يوسـف أعرض عن هـذا﴾** ثمّ يـرجـع إلى

---

١. المنار:٢/ ٤٥١.

٢. الكاشف:٦/ ٢١٧.

٣. يوسف: ٢٨ـ ٢٩.

الموضـوع الأوّل، و يخاطب زوجتـه بقولـه: ﴿**واستغفري لذنبكِ**﴾ فقوله: ﴿**يوسف أعرض عن هذا**﴾ جملة معترضة، وقعت بين الخطابين، و المسوّغ لوقوعها بينهما كون المخاطَب الثاني أحدَ المتخـاصمين و كانت له صلة تامّة بـالواقعة التي رفعت إلى العزيز.

و الضـابطة الكليـة لهذا النـوع من الخطـاب هو وجـود التنـاسب المقتضي للعدول من الأوّل إلى الثاني ثـمّ منه إلى الأوّل و هي موجودة في الآية فانّـه سبحانه يخاطب نساء النبي بالخطابات التالية:

١. ﴿**يا نِسـاءَ النَّبِيِّ مَن يَـأْتِ مِنكُنَّ بفاحِشَـةٍ مبيّنَةٍ يُضـاعَفْ لَهـا العَذَابُ ضِعْفَيْن**﴾[1].

٢. ﴿**يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنّ**﴾[2].

٣. ﴿**و قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ولاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّج الجَاهِلِيّةِ الأُولى**﴾[3].

فعند ذلك صحّ أن ينتقل إلى الكلام عن أهل البيت الّذين أذهب الله عنهم الرجس و طهّرهم تطهيراً و ذلك لوجهين:

١ـ تعريفهن على جماعة بلغوا في التورع و التقى الذروة العلياء و في الطهارة عن الرذائل والمساوئ، القمةَ، و بذلك استحقـوا أن يكونوا أُسوة في الحياة و قدوة في مجال العمل، فيلزم عليهنّ أن يقتدين بهم،و يستضئن بنورهم.

٢ـ كان النبي ﷺ محوراً للطائفتين المجتمعتين حوله ﷺ.

الأُولى: أزواجه و نساؤه.

الثانية: بنته و زوجها و أولادها.

فالنبي ﷺ هو الرابـط الذي تنتهي إليه تلـك المجموعتان، فنحـن ننظر إلى

١. الأحزاب: ٣٠. ٢. الأحزاب: ٣٢. ٣. الأحزاب: ٣٣.

كلّ طائفـة مجرّدةً عن الأُخرى و لأجل ذلـك نرى انقطاع السيـاق، إذا فسرنا أهل البيت بفاطمة و زوجها و بنيها.

ولكن لما كان المحور للمجموعتين هو النبي ﷺ والله سبحانه يتحدث فيما يرتبط بالنبي من بيوتٍ و أهلها، فعند ذلك تتراءى المجموعتان كمجموعة واحدة حول النبي و هـو الرابط بينهما ، فيعطى لكل جماعة حكمها فيتحـدث عن نسائه بقوله :﴿**يا أيها النبي قل لأزواجك . يا نساء النبي من يأت . يا نساء النبي لستنّ**﴾ الخ.

كما انّه يتحـدث عن المجمـوعة الأُخـرى الموجودة في تلك الجماعـة بقولـه: ﴿**إنّما يريد الله ليذهب عنكم**﴾ .

فالباعث للجمع بين الطائفتين في تلك المجموعة من الآيات و في ثنايا آية واحدة إنّما هو انتسـاب الكلّ إلى النبي ﷺ وحضورهما حولـه، و ليس هناك أي مخالفة للسياق.

ب: تذكير الضمائر لأجل التعبير عن علو المقام

قـد تعرفـت في ثنايـا الكـلام ضعف هـذا الاعتذار، والـواجب ان لا نعـود إليه.

وقـد عرفـت انّ مجموعـة الآيات الـواردة في هـذا المضمار تشتمل على اثنين وعشرين ضميراً بصيغة الجمـع المؤنث كلّها ترجـع إلى نساء النبي ﷺ فعند ذلك يطرح هذا السـؤال فأي سبب دعا المتكلم إلى الايعاز لعلو مقـامهم و المبالغة في تكريمهم في هذا المورد دون الموارد الأُخرى مع أنّ المورد لا يقتضي الإيعاز إلى علو مقامهم، فترى أنّ المتكلّم يتشدد في كلامه معهنّ حيث يقول:

﴿**يـا نِسـاءَ النَّبِيِّ مَـن يَأْتِ مِنكُنَّ بفـاحِشَـةٍ مُبَيِّنَـةٍ يُضَـاعَفْ لَهَـا العَـذَابُ**

ضِعفَيْنِ ... ﴾[١].

و يقول: ﴿يا نِساءَ النَّبِيّ لَسْتُنَّ كَأحَدٍ مِنَ النِّساءِ إنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ ... ﴾[٢].

و يقول: ﴿وَ قَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجاهِلِيَّةِ الأُولى ... ﴾[٣]. أفي هذا المقام الذي أخذ المتكلم يندد بهنّ و يطلب منهنّ أن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأُولى يستحق الإيعاز بتكريمهن و بيان علو مقامهن!

ترى أنّ لحن الكلام لحن التشدد و التنديد و مثل هذا المقام لا يناسب الإيعاز بعلو مقامهنّ و الإشارة إلى تكريمهنّ خصوصاً انّ العدول يوجب الالتباس و الذي دعا الكاتب إلى التمسك بهذا الحبل الموهن هو صيانة عقيدته التي نشأ عليها منذ نعومة أظفاره إلى يومه هذا و إلاّ فالأُستاذ كاتب قدير يعلم مواقف التكريم والتقدير عن غيرها.

ج: حديث الرسول جاء بصيغة الطلب

يقول الأُستاذ الآلوسي: إنّ حديث الرسول جاء بصيغة الطلب، و قال: «اللهمّ اذهب» و لو كانت الآية شاملة لهم لكان المناسب هو صيغة الشكر لا صيغة الطلب.

يلاحظ عليه: انّ الأُستاذ انتقى من أحاديث الرسول ما جاء فيها صيغة الطلب و ترك غيرها و قد عرفت لفيفاً من الأحاديث و كيف أنّ الرسول ﷺ تكلم فيها مخبراً عن ذهاب الرجس عنهم لا طالباً، و فيما مضىٰ كفاية.

---

١. الأحزاب: ٣٠.

٢. الأحزاب: ٣٢.

٣. الأحزاب: ٣٣.

د: الإرادة التكوينية تسلب الاختيار

هذا هو السبب المهم لما ذهب إليه الأُستاذ من أنّ الإرادة في الآية تشريعية لا تكوينية، و ذلك لأنّ الإرادة التكوينية تسلب الاختيار و بالتالي لا تصبح العصمة فخراً، لأنّ الإنسان مع هذه الإرادة يصبح بلا اختيار.

يلاحظ على هذا الكلام: انّ القول بالعصمة لو كان سالباً للاختيار فالإشكال يسري إلى جميع الأنبياء والمرسلين و على رأسهم سيد المرسلين فانّهم معصومون من الخطأ في إبلاغ الأحكام و من العصيان في تطبيق الشريعة على الساحة باتفاق الأُمة إلاّ من شذ ممن لا يعبأ به فلو كانت العصمة سالبة للاختيار فما قيمة عصمتهم و ما قيمة اجتنابهم عن المعاصي.

و هذا الإشكال ليس جديداً و إنّما هو مطروح في الموسوعات الكلامية والكتب التفسيرية و قد قام المحقّقون من علماء الإسلام بالإجابة عنه و قالوا:

إنّ العصمة لا تسلب الاختيار عن الانسان، فانّ المعصوم قادر علىٰ اقتراف المعاصي و ارتكاب الخطايا حسب ما أُعطي من القدرة و الحرية غير انّ وصوله إلى الدرجة العليا من التقوى واستشعاره بعظمة الخالق يصدّه عن اقترافها.

وإن شئت قلت: إنّ المعصوم قد بلغ في العلم بآثار المعاصي مرحلة يشاهد آثارها السيئة مشاهدة حضورية لا يتسرب إليها الشك و الترديد ـ يقول سبحانه:

﴿كلاّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لتَرَوُنَّ الجَحِيم﴾ [1].

و مثل هذا العلم يصدّ الإنسان عن ارتكاب المعاصي، و لأجل تقريب الفكرة نأتي با لمثال التالي:

إنّ الوالد العطوف بالنسبة إلى قتل ولده معصوم لا يقدم عليه، و مع ذلك

---

١. التكاثر: ٥ ـ ٦.

هو قادر عليـه، أما انّه قادر فلا شـكّ انّ بإمكانه أن يأخذ بـالسكين و يذبحه كما يذبح الكبش، و امّا انّـه لا يقدم عليه و لو اعطي له الكنـوز المكنوزة و المناصب المرموقة، لأنّ عطفه و حنانه قد ملئ بهما قلبه فلا يبادله بشيء.

فـالعلم بـآثـار الموبقـات تعطي ملكـة العصمـة، و لكن لا تغير الطبيعـة الإنسانية ، المختارة في أفعالها الإرادية، ولا يخرجها إلى ساحة الإجبار و الاضطرار.

هذا إجمال ما أوضحناه في موسوعتنا التفسيرية. [١]

آية الولاية و زعامة الإمام علي عليه‌السلام

قال الأُستاذ الآلوسي:

لم تـزل الشيعة عن بكـرة أبيهم يستـدلّون علىٰ إمـامة الإمـام علي و قيادتـه وزعامتـه بعد النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله بقوله سبحانه: **﴿إنّما وَلِيُّكُـمُ الله و رَسُولُـهُ و الّذِينَ آمَنُـوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاَة و يُؤتُونَ الزّكاة و هُمْ راكِعُون﴾** (و قد سقط في نص المقال جملة «و يؤتون الزكاة») **﴿ و مَن يَتَـوَّل اللهَ و رَسُولَهُ والّـذِينَ آمَنُوا فإنَّ حِـزْبَ اللهِ هُمُ الغالِبُون﴾** [٢].

و إليك عرضاً موجزاً لاستدلالهم:

استدلت الشيعـة بهذه الآية على أنّ علياً عليه‌السلام وليّ المسلمين بعد رسـول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قائلين بأنّ الآية تعد الولي ـ بعد الله و رسوله ـ الّذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة في حال الركوع، و قد تضافرت الروايات بأنّ علياً عليه‌السلام تصدّق بخاتمه و هو راكع فنزلت الآية.

أخرج الحفـاظ و أئمّة الحديـث عن أنس بن مـالك و غيره أنّ سـائلاً أتى مسجد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله و عليٌّ عليه‌السلام راكعٌ فأشار بيده للسائل أي اخلع الخاتم من يدي.

---

١. مفاهيم القرآن :٣/ ٤٠١ـ٤٠٥.
٢. المائدة: ٥٥ ـ ٥٦.

قال رسول الله : يا عمر وجبت. قال: بأبي أنت و أُمّي يا رسول الله ما وجبت؟!قال: وجبت له الجنّة والله، و ما خلعه من يده حتّى خلعه الله من كلّ ذنب و من كلّ خطيئة. قال: فما خرج أحدٌ من المسجد حتّى نزل جبرئيل بقوله عزّ وجلّ: **﴿إنّما وليّكم اللهُ و رسوله و الّذين آمنوا الّذين يُقيمون الصَّلاة و يُؤتون الزّكاة و هُمْ راكعون﴾** . فأنشأ حسّان بن ثابت يقول:

أبا حسن تفديك نفسي و مهجتي — و كلّ بطيءٍ في الهدى و مسارع
أيذهب مدحي و المحبّين ضايعاً؟! — وما المدح في ذات الإله بضائع
فأنت الذي أعطيت إذ أنت راكعٌ — فدتك نفوس القوم يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيّدٍ — و يا خير شارٍ ثمّ يا خير بائع
فأنزل فيك الله خير ولاية — و بيّنها في محكمات الشرائع [١]

و قد أخرجه ابن جرير الطبري [٢] والحافظ أبوبكر الجصاص الرازي في أحكام القرآن [٣]و الحاكم النيسابوري (المتوفّى ٤٠٥) [٤]و الحافظ أبو الحسن الواحدي النيسابوري (المتوفّى ٤٦٨) [٥] و جار الله الزمخشري (المتوفّى ٥٣٨) إلى غير ذلك من أئمّة الحفاظ و كبار المحدثين ربما ناهز عددهم السبعين ، وهم بين محدّث ومفسّر و مؤرخ و يطول بنا الكلام لو قمنا بذكر أسمائهم ونصوصهم، و كفانا في ذلك مؤلّفات مشايخنا في ذلك المضمار. [٦]

---

١. رواه السيد البحراني عن الحافظ أبو نعيم الاصبهاني عن كتابه الموسوم بـ «نزول القرآن في أمير المؤمنين» ص ١٠٦.

٢. تفسير الطبري٦/ ١٨٦.

٣. أحكام القرآن:٢/ ٥٤٢ و رواه من عدة طرق.

٤. معرفة أُصول الحديث ، ص ١٠٢.

٥. أسباب النزول، ص ١٤٨.

٦. لاحظ المراجعات للسيد شرف الدين العاملي، المراجعة الأربعون، ص ١٦٢ــ ١٦٨ و الغدير لشيخنا الأميني :٣/ ١٦٢ و قد رواه من مصادر كثيرة.

و لا يمكن لنا إنكار هذه الروايات المتضافرة لو لم تكن متواترة، فانّ اجتماعهم على الكذب أو على السهو و الاشتباه أمر مستحيل.

و المراد من الولي في الآية المباركة هو الأولى بالتصرف كما في قولنا : فلان وليّ القاصر، و قول الرسول ﷺ«أيّما امرأة نُكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل» وقد صرّح اللغويّون و منهم الجوهري في صحاحه بأنّ كلّ من ولي أمر أحد فهو وليّه ، فيكون المراد: انّ الّذي يلي أُموركم فيكون أولى بها منكم إنّما هو الله عزّوجلّ و رسوله و من اجتمعت فيه هذه الصفات: الإيمان و إقامة الصلاة، و إيتاء الزكاة في حال الركوع. و لم يجتمع يوم ذاك إلاّ في الإمام علي حسب النصوص المتضافرة.

و في حقّه نزلت هذه الآية.

و الدليل على أنّ المراد من الولي هو الأولى بالتصرف أنّه سبحانه أثبت في الآية الولاية لنفسه و لنبيه و لوليه على نسق واحد، وولاية الله عزّوجلّ عامة فولاية النبي و الولي مثلها و على غرارها. غير انّ ولاية الله، ولاية ذاتية و ولاية الرسول والولي مكتسبة معطاة، فهما يليان أُمور الأُمّة بإذنه سبحانه.

ولو كانت الولاية المنسوبة إلى الله تعالى في الآية غير الولاية المنسوبة إلى الّذين آمنوا لكان الأنسب أن تفرد ولاية أُخرى للمؤمنين بالذِكر، دفعاً للالتباس كما نرى نظيرها في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ باللهِ و يُؤْمِنُ للمُؤْمِنِين﴾ [١].

نرى انّه سبحانه كرر لفظ الإيمان، و عدّاه في أحدهما بالباء، و في الآخر باللاّم لاختلاف في حقيقة إيمانه بالله، و للمؤمنين حيث إنّ إيمانه بالله سبحانه إيمان جدّي و تصديق واقعي، بخلاف تصديقه للمؤمنين المخبرين بقضايا

---

١. التوبة: ٦١.

متضادة حيث لا يمكن تصديقهم جميعهم تصديقاً جدياً، و الذي يمكن هو تصديقهم بالسماع و عدم الرفض و الرد، ثمّ التحقيق في الأمر، و ترتيب الأثر على الواقع المحقّق.

و ممّا يكشف عن وحدة الولاية في الآية المبحوثة انّه سبحانه أتى بلفظ «وليكم» بالافراد، و نسبه إلى نفسه و إلى رسوله و إلى الّذين آمنوا، و لم يقل: «و إنّما أولياؤكم» وما هذا إلاّ لأنّ الولاية في الآية بمعنى واحد و هو: الأولى بالتصرف، غير أنّ الأولوية في جانبه سبحانه بالأصالة و في غيره بالتبعية.

وعلى ضوء ذلك يُعلم انّ القصر والحصر المستفاد من قوله: «إنّما» لقصر الإفراد، و كأنّ المخاطبين يظنون انّ الولاية عامّة للمذكورين في الأُمة و غيرهم، فأُفرد المذكورون للقصر، و انّ الأولياء هؤلاء لا غيرهم.

ثمّ يقع الكلام في تبيين هؤلاء الّذين وصفهم الله سبحانه بالولاية و هم ثلاثة:

١. الله جلّ جلاله.

٢. و رسوله الكريم ﷺ.

وهما غنيان عن البيان.

وأمّا الثالث فبما أنّه كان مبهماً بيّنه بذكر صفاته و خصوصياته الأربع:

١. ﴿**الّذين آمنوا**﴾.

٢. ﴿**الّذين يقيمون الصلاة**﴾.

٣. ﴿**و يؤتون الزكاة**﴾.

و لا شكّ انّ هذه السمات، سمات عامة لا تميز الولي عن غيره.

فالمقام بحاجة إلى مزيد توضيح يجسّد الولي و يحصره في شخص خاص لا يشمل غيره، و لأجل ذلك قيّده بالسمة الرابعة أعني قوله: ﴿**و هم راكعون**﴾.

وهي جملة حـاليّة لفاعل يؤتـون، وهو العامل فيهـا. وعند ذلك انحصر في شخص خاص على ما ورد في الروايات المتضافرة.

هذا هو منطق الشيعة في تفسير الآية لا تتجاوز في تفسيرها عن ظاهرها قيد أنملة.

نعم نقل الكـاتب القديـر نظرية أُخـرى و هي لأهل السنة فقـال: إنّ هذه الآية لم تنزل بهذا السبب رغم ورود هذه الـرواية (نزولها في حقّ عليّ) عندهم، و في كتبهم و تفاسيرهم، مرجحين في ذلك روايات أُخرى تفيد نزولها بحقّ الّذين كانت بينهم و بين اليهـود في المدينة تحالفات عُقِـدت قبل الإسلام و قبل الهجـرة فمنهم من رفض فـكّ ارتباطـه باليهود حـرصاً منـه على موالاتهم، و منهم مـن أنهى هذا التحالف قـائلاً بولاية الله و رسولـه و المؤمنين عليه معززين رأيهم الـذي رجحوه على جملة اعتبارات:

منها انّ كلمة الولاية مشتركة في معانيها، فهي مثلما تعني الرئاسة و الزعامة تعني الولاء والنصرة والحب و الود وا لتحالـف و انّ هذا المعنى الأخير هو المرجح عند نزول الآية لـوجود تحالف كان قائماً فعلاً، و عدم وجـود ولاية لليهود في جنبه بمعنى الزعامة والقيادة.

و لذلك رأى أهل السنّة أنّ هذا الترجيح أقرب لواقع الحال في حينه.

اضـافـة إلى ذلك فـانّ السيـاق و هـو الآيات التـي سبقت هـاتين الآيتين والآيات التي أعقبتها جاءت تحذر من كيـد اليهود و تندد بمن أصر على استمرار التحالف معهم، أمثال عبد الله بن أُبي، زعيم المنافقين في حينه. والأصل عند أهل السنة أنّ الآية تعتبر جزءاً من سياقها إلاّ إذا وردت القرينة على أنّها جملة اعتراضية تتعلق بموضوع آخـر على سبيل الاستثناء، وهو أُسلوب من أساليب البـلاغة عند العرب جاءت في القرآن الكريم على مستوى الإعجاز.

عرض و تحليل

هذا نصّ الأُستاذ وحاصله يرجع إلى أمرين:

١. انّ لفظ الولايـة مشترك بين عدّة معان، فلا سبيل إلى حملهـا على القيادة والزعامة إلاّ بدليل.

٢. انّ سيـاق الآيات يـؤكد على حملهـا على ذلك المعنى أي النصرة و الـود والحب و التحالف.و الأخير هو المناسب.

هذا عرضاً موجزاً لمقاله و إليك تحليله:

يلاحظ على الوجه الأوّل:

نحن نفترض انّ الـولايـة مشتركـة بين المعـاني المختلفـة، و لكـن القـرائن القاطعة تدل على أنّ المراد منها هو التصرف، لما عرفت.

أوّلاً: انّ الولاية با لمعنى الواحد نسب إلى الله و إلى رسوله و الّذين آمنوا.

أفيصحّ لنا أن نحصر ولاية الله سبحانه بالنصر و الود و الحب و التحالف، فانّ ولايته سبحانه ولاية عامة تشمل جميع ما يعدّ مظاهر لها.

فإذا كانت الولاية منسوبـةً بمعنى واحد إلى الثلاثة فيجب أن تفسر بمعنى واحد،لا أن تُفرز الولاية المنسوبة إلى الله عمّا نسبت إلى الآخرين.

و ثـانياً: لـو فسرنا الـولايـة بالنصر و الـود و التحالـف، فيلزم اتحاد الـولي والمولّـى عليه، إذ لو كان المؤمنون المصلون المزكون أولياء فمن المولّى عليه إذن؟

و بعبارة أُخرى انّه سبحانه يعـدّ جميع المؤمنين أولياء فيجب أن يكون هناك مولّى عليه غيرهم و ليس هناك شيء... و « لا قرية وراء عبادان».

ثالثاً: لو فسرنا الولاية بالنصر و الود و التحالف، فا لمؤمنون كلّهم في صفّ واحد، فلماذا قيد الولاية بالزكاة في حالة الركوع ؟

فلو افترضنا أنّ مـؤمناً صلّىٰ و زكّى في غير حال الصلاة ـ و مـا أكثرهم ـ أو يصح لنا إخراجهم عن عداد الأولياء.

كلّ ذلك يدلنـا بوضوح على أنّ الآية وردت في جمع أو فـرد خاص عبّر عنه بصيغة الجمع، و ما أكثر نظيره في القرآن حيث عبر عن المفرد بالجمع.

قال سبحانه: ﴿الّذِينَ قَالُوا إنَّ الله فَقِيرٌ و نَحنُ أغنِياء﴾ والقائل هو فنحاس اليهودي [١].

قال سبحانه: ﴿و منهُمُ الّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِـيَّ و يَقُولُونَ هُوَ أُذُن﴾ [٢]. نزل في رجل من المنافقين [٣].

إلى غير ذلك من الآيات التي يطول المقام بنقلها.

فقد وردت صيغة الجمع في عشرين آية و أُريد منها شخص واحد.

فهذه الوجوه الثلاثة تصدنا عـن تفسير الولاية بغير الزعامة و القيادة، فانّها المعنية بقوله سبحانه: ﴿أم اتّخَذُوا مِن دُونِهِ أولِياءَ فاللهُ هُوَ الوَلِيُّ﴾ [٤].

وقال سبحانه: ﴿مالكُم مِن دُونِهِ مِن وَلِيّ و لاَ شَفِيعٍ أفَلاَ تَتَذَكّرون﴾ [٥].

و قال سبحانه: ﴿أنتَ وَلِيّي فِي الدُّنيا وا لآخِرَة ﴾ [٦].

وقال سبحانه: ﴿فما لَهُ مِن وَلِيّ مِن بَعْدِه﴾ [٧].

وقال سبحانه: ﴿و اللهُ وَلِيُّ المُؤمِنين﴾ [٨].

غير انّ ولايـة الله سبحـانـه ولاية ذاتيـة، و ولايـة غيره بـالجعـل و النصب

---

١. راجع تفسير القرطبي: ٤/ ٢٩٤.
٢. التوبة: ٦١.
٣. تفسير القرطبي: ٨/ ١٩٢.
٤. الشورى: ٩.
٥. السجدة: ٤.
٦. الشورى: ١٠١.
٧. الشورى: ٤٤.
٨. آل عمران: ٦٨.

والافاضة.

و يشير إلى ولاية الرسول بقوله: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ من أَنْفُسِهِم﴾ [١].

و إلى ولاية الرسول وأُولي الأمر بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [٢].

و من يريد تفسير ولاية الله و الرسول بالحب و الحلف و قصرها في إطار ضيق بالنصر، فقد أخرج الآية عن ذروة البلاغة إلى حدّ نازل.

فكما انّ السياق جزء من التفسير، و سبب يستعان به على كشف المراد، فكذلك الخصوصيات الموجودة في نفس الآية أدلّ دليل يرشد القارئ إلى التعمق في مراده سبحانه.

فعلى من يفسر الآية بغير الأولوية في التصرف فعليه الإجابة عن الأُمور الثلاثة السالفة.

هذا كلّه حول الأمر الأوّل و أمّا الكلام في السياق الذي تمسك به فنقول:

مشكلة السياق عند الكاتب

انّ الكاتب القدير إنّما ترك الروايات المتضافرة لأجل صيانة السياق، وإليك توضيح دليله و تحليله:

قال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٣].

١. الأحزاب: ٦.

٢. النساء: ٥٩.

٣. المائدة: ٥١.

وقال سبحانه: ﴿إِنّما وَلِيُّكُمُ الله و رَسُولُهُ و الّذِينَ آمَنُوا الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاَة و يُؤتُونَ الزّكاَةَ وَهُمْ راكِعُونَ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الّذِينَ أُوتُواْ الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَ ٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَ اتَّقُواْ ٱللهَ إن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ (٢).

ذكر المفسرون انّ نزول الآية الأُولى في حقّ عبادة بن صامت الخزرجي و عبد الله بن أُبي حيث إنّ الأوّل تبرأ من أوليائه من اليهود، بخلاف الثاني فانّه لم يتبرأ من ولاية اليهود، و قال: لأنّي أخاف الدوائر.

و ذكروا في سبب نزول الآية الثانية: انّه لما تصدّق عليّ عليه‌السلام بخاتمه في الصلاة و هو راكع نزلت الآية الكريمة.

و ذكروا في سبب نزول الآية الثالثة أنّها نزلت في رفاعة بن زيد و سويد بن الحرث اللّذين أظهرا إسلامهما ثمّ نافقا، و كان رجال من المسلمين يوادونهما فنزلت الآية.

فبما انّ الولايةَ في الآية الأُولىٰ ليست بمعنى الزعامة بل بمعنى الود والنصر أو الحلف كما هو الحال في الآية الثالثة، فمقتضى السياق يقتضي تفسير الآيةَ الثانية بهما لا بالزعامة.

هذا ما يتبناه الكاتب و قد سبقه الرازي في تفسيره. (٣) غير انّا نركز على أمرين و بهما يتجلىٰ انّ تفسير الولاية في الآية الثانية بالزعامة لا يستلزم مخالفة السياق.

الأوّل: انّ الغوص في غمار اللغة و مجاميع الأدب وجوامع العربية يدفعنا إلى

١. المائدة: ٥٥.

٢. المائدة: ٥٧.

٣. التفسير الكبير : للفخر الرازي: ١٢/ ٢٦.

القول بأنّه ليس للولي في الآيات الثلاث إلاّ معنى واحد و هو الأولىٰ بالشيء و لو أُطلق على الناصر والمحب والزعيم فانّما أُطلق بمعنى واحد، و لو كان هناك اختلاف فإنّما هو في جانب المتعلّق.

و بعبارة واضحة: ليس للولي معان مختلفة وضع لها اللفظ بأوضاع متعددة حتى يصبح اللفظ مشتركاً لفظياً بين المعاني المتباينة. بل هو موضوع لمعنى واحد جامع بين مصاديق و موارد مختلفة، فلو كان هناك اختلاف فإنّما هو في المتعلق والمورد، لا في المفهوم والمعنى.

فالربّ ولي لأنّه أولىٰ بخلقه من أي قاهر عليهم حيث خلق العالمين كما شاءت حكمته و يتصرف فيهم بمشيئته.

و كل من المحب و الناصر ولي، لأنّ كلاًّ منهما أولى بالدفاع عمّن أحبه و نصره.

و الزعيم و القائد ولي، لأنّه أولىٰ بأن يتصرف في مصالح من تولّىٰ أمره.

فإذا كان للفظ معنىٰ واحد فلا يكون هناك أي اختزال مهما ذهبنا إلى التفريق بين الآيات الثلاثة، فانّ المفروض انّ لكلّ شأناً و سبباً للنزول، و بينها جامع و هو الأولوية المطلقة كما في الآية الثانية و المقيدة كما في الآية الأُولى والثالثة.

هذه حقيقة لغوية قد نصّ عليها المحقّقون. قال الإمام أبو الفتح المطرزي: الولي: كلّ من ولي أمر واحد فهو وليه، و منه ولي اليتيم أو القتيل: مالك أمرهما، و والي البلد: ناظر أُمور أهله و مصدرهما الولاية (بالكسر). [١]

و ألفت نظر الأُستاذ السامي إلى أنّ النهي عن تولى اليهود و النصارى والكفّار في الآيات التي تقدّمت أو تأخّرت، لا يرجع إلى التولي المجسّد في مجرد

١. المطرزي: المغرب: ٢/ ٣٧٢

العطف القلبي و لا يتلخص في الحنان الروحي، فانّهما أمران قلبيان خارجان عن الاختيار، فانّ حب الأب أو الأُم و إن كانا كافرين أمر جبلي لا يصحّ النهي عنه بل يرجع إلى التولي المستعقب، للتصرف في أُمور المسلمين والتدخل في مصالحهم الذي ليس إلّا من شأنه سبحانه و رسوله و من عيّنه الرسول بأمر منه.

فالآيات بأجمعها سبيكة واحدة، تصد المؤمنين عن اتخاذ أيّ ولي ـ غير الله و رسوله ـ يتصرف في أُمورهم و إن كان سببه التحالف فلو صار الحلف بين المسلمين والكافرين سبباً لولاية الكفّار على المسلمين و تدخلهم في أُمورهم فهو ممنوع لانّه لا ولي للمؤمنين إلّا الله و من نصبه سبحانه.

و الذي يرشدنا إلى أنّ الولاية في الآية: ﴿إنّما وليكم الله و رسوله ...﴾ بمعنى الزعامة و القيادة، هو انّه سبحانه يقول بعدها: ﴿وَ مَنْ يَتَوَلَّ ٱللهَ وَ رَسُولَهُ وَالّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ ٱللهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾[1] فيطرح حزب الله أوّلاً، ثمّ غلبته على سائر الأحزاب، والكلّ يناسب القيادة والزعامة، لا مجرد الحب والود، أو النصر والحلف.

الثاني: انّ في نفس الآيات الثلاثة قرينة واضحة على الاختلاف في تفسير الولي (لو قلنا بانّه اختلاف في المفهوم)، و ذلك انّه سبحانه يجمع لفظ الولي في الآية الأُولىٰ و الثالثة.

فقال في الأُولىٰ: ﴿لا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ و النَّصارى أَوْلِيَاءَ﴾.

وقال في الثالثة: ﴿و الكفّار أولياء﴾.

و لكنّه نرىٰ انّه سبحانه أتىٰ بها بلفظ المفرد في ثانية الآيات.

وقال: ﴿إنّما وليّكم الله ...﴾ فما هو الوجه في الإتيان بالجمع في الآيتين والإفراد في الثانية؟

---

١. المائدة: ٥٦.

و الإمعان فيه يدلنا على التغاير في تطبيق معنى الولي، و ذلك لأنّ الولاية في الآيتين ترجع إلى الحب والنصر و بما انّها متعددة حسب تعدد المحب و الناصر فهناك ولايات و أولياء، و لأجل ذلك أتى سبحانه بلفظ الجمع.

وأمّا الآية الثانية فهناك ولاية إلهية سماوية خصّها سبحانه بالذات لنفسه وأفاضها بالتشريع على رسوله و من جاء بعده و لذلك أتى بلفظ المفرد فيحمل على الولاية الملازمة للقيادة والزعامة.

و آخر كلمة أقدمها إلى الأُستاذ، انّه لو كانت الولاية بمعنى الحب و النصر فما معنى تقييد الولي بايتاء الزكاة و هم راكعون فانّ كلّ مؤمن يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة ولي لأبناء أُمّته، زكّىٰ في حال الركوع أم لا، مع أنّنا نرى انّه سبحانه يشير إلى الولي بعلامة خاصة تميّزه عن غيره و هو إيتاء الزكاة في حال الركوع، و الركوع حقيقة في الصورة المعلومة منه في الصلاة لا في مطلق الخضوع إذ مع أنّه خلاف الظاهر، ينافيه قوله سبحانه: ﴿**يقيمون الصّلاة**﴾ .

على أنّ الأُستاذ تفرد في تفسير الولاية بالتحالف، فإنّ أهل السنة يفسرونها بالودّ و الحب و النصر ـ لاحظ التفسير الكبير للرازي.

هذا غيض من فيض و قليل من كثير ممّا أفاضه علماؤنا و أصحابنا في تفسير الآية و إن كان ما ذكرناه مقتبساً من أنوار علومهم. غفر الله للماضين من علماء الإسلام و حفظ الله الباقين منهم و رزقنا الله توحيد الكلمة كما رزقنا كلمة التوحيد.

والسّلام عليكم و علىٰ من حولكم من الدعاة إلى الوحدة الإسلامية لترفرف في ظلّها راية الإسلام خفاقة في ربوع العالم و إرجاء الدنيا بإذن منه سبحانه.

جعفر السبحاني

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١/ شعبان المعظم ١٤١٧ هـ

المقالة الثانية عشرة

الأخوة الإسلامية

ودورها في بناء الحضارة [1]

إنّ الحديث عن بلاد القفقاس أعاد إلىٰ ذاكرتي الخواطر، وأثارت في قلبي شعوراً خاصاً حيالها ذلك انّها انجبت العديد من العباقرة في حقول الأدب والعلم والعرفان والفلسفة أمثال الشاعر المفلق«الخاقاني» و «الفلكي» و«السيد عظيم» و «صابر» و «بهار» والفيلسوف الكبير السيد حسين البادكوبي.

ولا يفوتني الإشارة إلى أُستاذي الكبير السيد محمد البادكوبي الذي كان له حقّ عظيم عليَّ وعلى العلم، فقد كان ﵀ رجلاً عالماً و مناضلاً، هجّره الالحاد متوجهاً إلى بلاد الغربة بعيداً عن وطنه ومسقط رأسه، إلىٰ غير ذلك من الشخصيات الطائرة الصيت في سماء العلم والفلسفة والأدب الذين كتبوا لوجودهم خلوداً في القلوب و بقاءً في التاريخ وأثراً في المجتمع.

لم أزل أمرّ على شريط الذاكرة استذكر فيه انّ هذه البلاد ربّت في أحضانها رجالاً وابطالاً ضَحّوا بنفسهم ونفيسهم في سبيل عقيدتهم الإسلامية، أمثال الشيخ شامل ذلك البطل المجاهد، والشيخ حنيف ذلك الثائر العظيم.

---

١. القيت هذه المحاضرة في مؤتمر الحضارة الإسلامية في القفقاس المنعقد في باكو عاصمة أذربيجان عام١٤١٩هـ.

وثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي انّ شعوب بلاد القفقاس ـ التي هي جزء من الكيان الإسلامي ـ لن تبلغ مجدها التليد العتيد إلاّ باحياء مآثرها السابقة، والرجوع إلىٰ أصالتها الإسلامية، وتقوية أواصرها بالمسلمين عامة وبث الثقافة الدينية بين أوساط شبابها و افلاذ كبدها.

وقد شعرت بذلك ـ بحمد الله ـ حكوماتها و دولها، وما إقامة هذا المؤتمر ـ الذي يهدف إلى البحث عن معطيات الحضارة الإسلامية في تلك البلاد ـ إلاّ أثراً من آثار ذلك الشعور.

هذه مقدمة موجزة قدّمتها للحضار الكرام ولنبدأ بالمقال الذي كتبته تحت عنوان «الاخوة الإسلامية ودورها في بناء الحضارة».

نص المقال:

الإسلام عقيدة و شريعة جاء لاسعاد الإنسان في أقطار الأرض ومعالجة مشاكله و معضلاته دون أن يختص خطابه بطائفة دون طائفة أو بعنصر دون عنصر أو بقوم دون قوم، ولا تجد في عقيدته وشريعته أثراً من آثار القوميّة ولا ملمحاً من ملامحها.

كما انّه بنى القيم الأخلاقية على اسس رصينة تستمد مقوماتها من الفضائل الروحية والكمالات النفسية، لا من عنصر خاص أو طائفة خاصة، حتى العربية التي هي لسان كتابه وشريعته لم يتخذها ملاكاً للفخر والاعتزاز.

لقد تفشّت ظاهرة القومية بين العرب في العصر الجاهلي وكأنّ رحى الفخر قد دار حولها وكأنّ جميع القيم و الخصائل الإنسانية قد حُصِرت فيها، وفي تلك الأجواء المشحونة بالعنصرية والطائفية والقومية ظهر الإسلام شاطباً

بقلم عريض على تلك النزعات المقيتة، وقال: ﴿يا أَيُّها النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إنَّ أَكْرَمكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ [١].

والعجب انّ هذه الآية إلىٰ جانب اعترافها بجميع القوميات حيث تقول: ﴿وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ﴾. تعود و تفسر فلسفة هذه القوميات بقولها ﴿لتعارفوا﴾ أي خلقناكم أقواماً وطوائف مختلفة للتعارف لا للتفاخر، للأُلفة لا للتناحر، للتعاون لا للتفرق، للخير لا للشر، وحصرت ملاك الفخر في التقوىٰ وقالت: ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾.

هذه الآية المباركة و إن تكلّم فيها المفسرون قديماً وحديثاً ولكنّهم لم يركّزوا على تلك النكتة التي صرحت بها، وهي انّ الإسلام لا ينكر القومية بل يعترف بها ويراها من شؤون الخلقة التي تعلقت بها يد الجعل والقدرة وقال: ﴿وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقبائِلَ﴾ ولكنّه يتخذ القومية المعترفة ذريعة للفضائل، وهي التعارف والتجاذب والتعاون، لا ذريعة للتفاخر والتنازع.

إنّ نبيّ الإسلام ﷺ لم يقتصر على هذه الآية بل أعقبها بكلمه الطيب وحدّد موقفه من القومية وانّها ليست ملاكاً للافتخار وقال في بعض خطبه التاريخية: أيّها النّاس، إنّ ربّكم واحدٌ، و إنّ أباكم واحدٌ، كلّكم لآدم وآدم من تراب ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾ وليس لعربيّ علىٰ أعجميّ فضل إلاّ بالتّقوى.[٢]

وقال في خطبة حجة الوداع: أيّها النّاسُ انّ ربكُم واحد، وأباكُم واحد، ليسَ لعربيّ على أعجمي، ولا لأعجمي على عربيّ، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر، فضل إلاّ بالتقوى.[٣]

وقال رسول الله ﷺ: إنّ العربية ليست بأبٍ والد ولكنّها لسان ناطق،

---

١. الحجرات: ١٣.

٢. تحف العقول: ٣٤.

٣. سيرة ابن هشام: ٢/ ٤١٢.

فمن قصر به عمله لم يبلغه حسبه». [١]

هذه نماذج من أقواله ﷺ استعرضناها على حضراتكم حول نبذ القومية والتركيز على القيم الأخلاقية.

وأمّا مواقفه العملية على هذا الصعيد فقد تلخصت في اهتمامه بالقيم الأخلاقية والانسانية دون أن يعير أهمية للقومية المقيتة.

نرى انّه ﷺ طرد عمه أبا لهب مع صلته الوثيقة به من حيث الدم و اللسان والتراب، وفي الوقت نفسه قرّب سلمان الفارسي على الرغم من اختلافه معه في اللسان و الدم والتراب. و ما هذا إلّا لانّ أبا لهب كان على شفير جرف هار من المساوئ الأخلاقية وسلمان كان في أوج القيم والفضائل الإنسانية.

هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة فآخىٰ بين العبيد والسادة، فهذا هو «بلال الحبشي» كان عبداً أسود قد آخىٰ رسول الله بينه وبين «خالد الخثعمي» من أكابر الصحابة، كما آخىٰ بين «زيد» الرق مع عمّه «حمزة»، وبين «عمّار» و «حذيفة»، كلّ ذلك لأجل صهر الفوارق الطبقية الناشئة من القومية.

وقد أثّرت التعاليم الإسلامية أثرها في القلوب إلى حدّ ارتقى كثير من الموالي إلى مناصب عالية و ما كان لهم ذلك لولا الإسلام، فصار الموالي العجم يسيرون جنباً إلى جنب مع العرب في نشر الإسلام و إسعاد البشرية ونجاتها من براثن الوثنية.

وفي ضوء تلك التعاليم صارت المرأة المسلمة كفوًاً للرجل المسلم دون نظر إلى قوميته وطائفته ولسانه.

---

١. الكافي: ٨/ ٢٤٦ برقم ٣٤٢.

وقد جسد رسول الله ﷺ تلك المساواة بفعله حيث زوّج بنت عمته زينب حفيدة عبد المطلب زعيم قريش، بعبد أسود يدعىٰ زيد بن حارثة وكان لعمله هذا صدى واسع على نطاق الجزيرة العربية، وبذلك أزاح الجدار المزعوم بين العبيد والأشراف، حتى انّ أخا زينب قدم إلى النبي ﷺ ـ مندفعاً من خلفيات عنصرية وطائفية ـ واعترض قائلاً: أو ليس هذا عاراً حيث زوجتَ بنت بيت الشرف بعبد أسود؟!

فأجابه النبي ﷺ بقوله: إنّ زوج زينب رجل مؤمن فهو كفؤ لزينب، و لما طلّق زيد زوجته زينب وانفصم عقدهما، قام النبي ﷺ بتدارك ما فات، فزوج زينب لنفسه ليثبت انّ زواجها بزيد لم ينقص منها شيئاً، فها هي اليوم زوجة رسول الله ﷺ أفضل الخليقة على الأرض.

وها نحن نذكر هنا حادثة طريفة وقعت في عصر الرسول، ينقلها الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام وهي تعكس الفكرة الرائجة عند المسلمين.

قال: كان سلمان جالساً مع نفر من قريش في المسجد فأقبلوا ينتسبون ويرفعون في أنسابهم حتّى بلغوا سلمان، فقال له بعض الحاضرين: أخبرني من أنت و من أبوك و ما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبد الله كنت ضالاً فهداني الله عزّ وجلّ بمحمّد ﷺ، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمّد ﷺ وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمّد ﷺ هذا نسبي و هذا حسبي، قال: فخرج رسول الله ﷺ و سلمان رضي الله عنه يكلّمهم، فقال له سلمان: يا رسول الله ما لقيت من هؤلاء جلست معهم فأخذوا ينتسبون و يرفعون في أنسابهم حتّى إذا بلغوا إليَّ قال بعضهم: من أنت و ما أصلك و ما حسبك؟ فقال النبي ﷺ: فما قلتَ له يا سلمان؟ قال: قلت له: أنا سلمان بن عبد الله، كنت ضالاً فهداني الله عزّ ذكره بمحمّد ﷺ، و كنت عائلاً فأغناني الله عزّ ذكره بمحمّد ﷺ، و كنت مملوكاً فأعتقني الله عزّ ذكره بمحمّد

ﷺ ، هذا نسبي و هذا حسبي . فقال رسول الله ﷺ : يا معشر قريش إنّ حسب الرَّجل دينه و مروءته خلقه، وأصله عقله ، و قال الله عزّ وجلّ : ﴿**إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ**﴾ ثمّ قال النبيّ ﷺ لسلمان : ليس لأحد من هؤلاء عليك فضلٌ إلاّ بتقوى الله عزّوجلّ ، و إن كان التقوى لك عليهم فأنت أفضل .

انّ الشريعة التي تحمل هموم الإنسانية وتحاول نجاتها عن مخالب الوثنية والمفاسد الأخلاقية لا محيص لها إلاّ أن تنظر إلى العالم من منظار واسع وتنظر إلى الإنسان مجرداً عن كلّ لون و عنصر، فلذلك عاد الإسلام يخاطب جميع الناس بقوله: ﴿**يا أَيُّها النّاس**﴾ مكان «يا أيّها العرب» أو «يا أيّها العجم» و يؤسس «دار الإسلام» مكان «دار العروبة»، فصار هذا و ذاك سبباً في أن ترىٰ جميع الشعوب في الإسلام ديناً لها لا ديناً لطائفة خاصة أعارته هذه.

وفي ضوء ذلك اتحدت الشعوب غير المتجانسة تحت راية الإسلام و نشروا ثقافة إسلامية إنسانية في جميع الأقطار، وصارت تلك الوحدة نواة للحضارة الإسلامية التي لم ير تاريخ البشر مثيلاً لها.

فالحضارة الإسلامية هي حصيلة جهود الشعوب الإسلامية المختلفة، ولكلٍ فيها سهم وافر.

الدعوة القومية ومضاعفاتها

الدعوة القومية فكرة مستوردة من الغرب، والغرض من ورائها هو تشتيت صفوف المسلمين وتمزيق وحدتهم وجعلهم أُمماً متناحرة فيما بينها.

ومن تصفّح التاريخ يجد انّ لهذه الدعوة جذوراً تمتد إلىٰ زمن الأمويين، الذين شرعوا في الخطوات اللازمة لتوطيد القومية من خلال توزيع المناصب

الحكومية على العرب خاصة، وتحقير غير العرب من سائر القوميات وقد انتهى الأمر إلى استياء عام واندلاع حركات تمرّد وعصيان في كافة ارجاء الأمصار الإسلامية، فأخذ الجهاز الأموي الحاكم يتهاوىٰ أمامها، إلى ان تمّ القضاء عليه.

ولما دالت دولة الأمويين وقامت دولة العباسيين اتخذوا سياسة مناقضة للأمويين حيث قدموا العنصر غير العربي على العنصر العربي ووزعوا المناصب عليهم.

انّ السياسة التي سلكتها كلتا الدولتين كانت على طرف النقيض من الإسلام ولم تُنتج إلاّ إيقاف عجلة تقدم الحضارة الإسلامية.

فلو كانت الخلافة العباسية متجاوبة مع روح الإسلام لما آلت إلى الضعف و الزوال ولازداد الإسلام قوة ومنعة.

الاستعمار وعناصر القومية

بثّ الإسلام روح التسامح والتصالح بين القوميات المختلفة ،متخذاً الإنسانَ محوراً لدعوته و إرشاده، وجعل التفاخر بالتقوىٰ والأخلاق الفاضلة، مما حدا إلى اجتماع القوميات المختلفة تحت رايته وخيمته دون أن ينتابهم شعور بالعنصرية والقومية، لانّ الإيمان جعلهم كالاخوة فيما بينهم.

ولما استيقظ الغرب من سباته في القرن التاسع عشر، ورأى المسلمين كتلة وحدة يحكمون اصقاعاً شاسعة ذات ثروات عظيمة، ورأىٰ انّ الإسلام سدّ منيع أمام تحقق أطماعه، حاول تمزيقهم إلىٰ دويلات صغيرة بُغية القضاء علىٰ شوكتهم وعظمتهم من خلال احياء القوميات في كل صقع، فزرع القومية التركية في تركيا، والفارسية في إيران، و العربية في البلاد العربية إلىٰ غير ذلك من القوميات . كما سعىٰ إلىٰ بث روح القومية بين شعوب تلك المناطق.

والعجب انّ دعاة القوميـة في البلاد الإسلامية لم يكونـوا مسلمين، بل تربوا في أحضان الاستعمار[1] وأخذوا بـاثارة النعـرات الطائفيـة .وفي ظل هذه الـدعوة البغيضـة انفصمت عـرىٰ الخلافة الإسـلاميـة وتمزقت اوصـالها، وعـادت بشكل دويلات صغيرة، وأضحت لقمة سائغة للاستعمار قابعة تحت نيره.

موقف الإسلام حيال القومية

انّ الإسلام يحترم كافة القوميات دون أن يـرجّح قومية علىٰ أُخرىٰ، بل ينظر إلى الجميـع بعين الأخـوة، ويقـول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُـونَ إِخْوَةٌ**﴾ ويقـول أيضـاً: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾ .

ويقول النبي ﷺ مثل المؤمنين في توادّهم وتعاطفهـم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ.[2]

فهذه هي الوصفة التي كتبها الإسلام لاسعاد البشرية كافة، ومع ذلك لم يلغ القومية وايجابياتها بل احترمها.

روى المفسّرون انّ النبي ﷺ لما هاجر عن مكّة المكـرّمة ووصل في طريقه إلىٰ «جحفة» تذكر مـوطنه وحنّ إليه فامتلأت عيناه بالدمـع، فنزل عليه أمين الوحي يسليه بالآية المباركة: ﴿**إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرآنَ لَرادُّكَ إِلىٰ مَعادٍ**﴾[3].

وقد حقق سبحانه وعده، ففتح النبي ﷺ مكّة بعد ثمانية أعوام ودخلها من ناحية «أذاخـر» وهي أعلىٰ نقطة في مكة، ولما وقع نظره على الكعبة وبيـوتات مكّة هاج به الحزن، وقال مخاطباً ربوعها بانّي أُحبك ولولا أنّي هُجّرتُ لما تركتك.

---

١. انظر المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام.

٢. مسند أحمد: ٤/ ٢٧٠.

٣. القصص: ٨٥.

لا شكّ انّ الإنسان إذا نشأ في ربع من الربوع وترعرع فيه منذ نعومة أظفاره وحتىٰ بلوغه وهرمه، يجد في نفسه حبّاً ورغبة ووُدّاً حياله، فذلك أمر جبلي قد فطر عليه الإنسان ولم تكافحه الشريعة التي هي دين الفطرة بل احترمته، لذا تجد انّه يحاول بكافة السبل الحفاظ على لغته الأُمّ و ثقافته، و بذل كافة الجهود في سبيل ازدهار وطنه و رفاه قومه.

فالمترقب من كلّ مسلم إعمار بلده و استثمار ثرواته في سبيل خدمة قومه وثقافته القومية إذا كانت متجاوبة مع القيم والمُثل الإسلامية و هذا أمر مرغوب إليه من قبل الإسلام، ولكن المحظور هو جعل القومية ملاكاً للتفاخر والتفوّق.

وفي الختام؛ أتقدم بالشكر الجزيل إلى المشرفين على هذا المؤتمر لاتاحتهم الفرصة لي.

وأختم كلمتي بهذين البيتين:

انّا لتجمَعُنا العقيدة أُمّة ... ويضمنا دينُ الهدى اتباعا

ويؤلّف الإسلام بين قلوبنا ... مهما ذهبنا في الهوىٰ اشياعا

اللّهمّ ارزق المسلمين توحيد الكلمة كما رزقتهم كلمة التوحيد

جعفر السبحاني

قم المقدسة ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

١٥ شعبان المعظم من شهور عام ١٤١٩هـ

المقالة الثالثة عشرة

الطلاق المعلّق لا كفارة فيه ولا فراق

بسم الله الرحمن الرحيم

فضيلة الأُستاذ قيس تيسير ظبيان
المدير العام لمجلة «الشريعة» المحترم

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أمّا بعد،

أتقدم لكم بالشكر الجزيل لما قمتم به من نشر محاضرتي التي القيتها في جامعة «الاردن» على صفحات مجلّتكم الغراء«الشريعة» في عددها الصادر برقم ٣٩٤من شهر تشرين الأوّل ١٩٩٨م، وبذلك أكدتم أواصر الاخوَّة بين المسلمين وقد كانت المحاضرة حول عناصر الوحدة الإسلامية وموانعها .

قرأت العدد الانف الذكر بما فيه من مقالات متنوعة حسب ما سمح لي الوقت، وأخصُّ بالذكر من بينها، الأسئلة التي تصدّىٰ للاجابة عنها فضيلة الشيخ عبد المنصف عبد الفتاح فكانت الأجوبة مقنعة في أغلب مواردها لكن استرعىٰ انتباهي السؤالَ الذي طرحه أحد القراء بالشكل التالي، وقال:

ضربتُ زوجتي ذات يوم فتركتْ المنزل وذهبتْ إلى بيت أُسرتها فلم ألبث ان ذهبتُ إليها لكـي أصالحها ولكي تطمئـن إلىٰ عدم ضربي لها مرّة ثـانية، قلت لها: عليَّ الطلاق لـن اضربك مرّة أُخـرى، فهل إذا ضربتُهـا لأمر مـا، تكون طـالقاً أم ماذا؟

وأجاب فضيلته عن هذا السؤال بما هذا ملخصه:

هذا النوع من الطلاق علىٰ قسمين:

تارة يـريد القـائل بهذا النوع من الكـلام الحملَ على فعل شيء أو تـركه أو التهديد أو التخويف، لا إيقاع الطلاق بالفعل.

وأُخرى يريد بذلك إنشاء الطلاق بالحلف إذا حصلت المخالفة.

ففي الأوّل نَقَل عن ابن تيميـة وابن قيم انّ الطلاق المعلّق الـذي فيه معنى اليمين، غير و اقع وتجب فيه كفارة اليمين.

وفي الثـاني تقع طلقـة واحـدة رجعيـة وللـزوج أن يـراجعهـا قبل انقضـاء العدة.(انتهى).

***

الطلاق المعلّق لا كفارة فيه ولا فراق

أقول: انّ الاجتهاد الحرّ المستمد من الكتاب والسنة من دون التزام بمذهب إمام دون إمام يجرّنا إلى القول بخلاف ما أجاب به فضيلة الشيخ (مدّ الله في عمره) في كلا القسمين و انّه لا كفارة في الصورة الأُولىٰ ولا فراق في الصورة الثانية .

وبكلمة مـوجزة : الطلاق المعلق لا يترتـب عليه أيُّ أثر وإن كـان المختار لدى أئمّة المذاهب الأربعة غير ذلك. وإليك توضيح كلا الأمرين.

أمّا الأوّل(لا كفـارة): فلأنّ الـدليل على كفارة اليمين هـي الآية المبـاركة التالية.

قال سبحانه: ﴿**لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ في أَيمانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما عَقَّدْتُمُ الأَيمانَ فَكَفّارَتُهُ إِطْعامُ عَشَرةِ مَساكينَ مِنْ أَوسطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْليكُمْ أَوْ كِسْوتُهُمْ أَوْ تَحْريرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصيامُ ثَلاثَةِ أَيّام ذٰلِكَ كَفّارَةُ أَيْمانِكُمْ إِذا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمانكُم كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ .[1]

والآية توجب الكفارة المترتبة على من نكث يمينه ولكنّها ظاهرة في اليمين بلفظ الجلالة أو ما يعادله ويقاربه من الأسماء المقدسة وليس الحلف بالطلاق داخلاً في الآية المباركة حتى يستلزم نقضُه،الكفارة بل هي قضية شرطيةكعامة القضايا الشرطية المجرّدة عن معنى الحلف بالله سبحانه كما لو قال لئن كشفت سرّي، فأنا أيضاً أفعل كذا.

وتصور انّ الطلاق المعلق يتضمن معنى الحلف بالله تصور خاطئ إذ لا يتبادر منه الحلف بالله أولا، وعلى فرض تضمنه فليس هو مما قصده المتكلم بكلامه ثانياً. وعلى فرض تسليمها فالموضوع لوجوب الكفارة، هو الحلف الصريح بشهادة قوله سبحانه: ﴿**بِما عَقَدْتُمُ الأَيمان**﴾ لا الحلف الضمني.

ولذلك يطلقون الفقهاء علىٰ هذا النوع من الحلف، اليمين بالطلاق، لا الحلف بالله سبحانه ولو ضمنيا.

وأمّا الثاني: أي وقوع الطلاق إذا كان قاصداً إنشاء الطلاق المعلق فهو لا يصمد امام النقاشات التالية:

الأوّل: انّ عناية الإسلام بنظام الأُسرة الذي أُسُسُها النكاح والطلاق،

---

١. المائدة: ٨٩.

يقتضي أن يكـون الأمر فيهـا منجَّـزاً لا معلقاً، فـانّ التعليق ينتهـي إلى مالا تُحمـد عاقبته من غير فرق بين النكاح والطلاق، فالمرء إمّا أن يقدم على النكاح والطلاق أو لا، فعلى الأوّل فينكح أو يطلِّـق بتـاتاً، وعلى الثـاني يسكـت حتى يحدث بعـد ذلك أمـراً، فـالتعليـق في النكـاح والطـلاق لا ينـاسب ذلـك الأمـر الهام، قـال سبحانه:

﴿وَلَنْ تَسْتَطيعُـوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْـنَ النِّساءِ وَلَوْ حَـرَصْتُمْ فَلا تَميلُـوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوها كَالمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَانَّ اللهَ كانَ غَفُوراً رَحيماً﴾ [1].

والله سبحانـه يُشبِّه المرأة التي يترك الزوجُ أداء واجبها بـ«المعلّقة» التي هي لا ذات زوج ولا أيّم. وعلقة الزوجية علقة مقدسة لا تخضع لاهواء الزوج فهو إمّا أن يطلقها ويسرّحهـا، أو يتركها ولا يمـسُّ كرامتها، والـزوجة في الطـلاق المعلّق أشبه شيء بالمعلقة الواردة في الآية، فهي لا ذات زوج ولا أيّم.

الثاني: انّ هذا النـوع من الطلاق يقوم بـه الزوج في حالات خـاصة دون أن يشهده عدلان، والاشهاد على الطلاق شرط لصحة وقوعه ومتىٰ فقد لم يقع الطلاق من دون فرق بين المنجّـز والمعلّق، ويدل عليـه قوله سبحـانه: ﴿يا أَيُّهَا النَّبيّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُـنَ لِعِدَتِهنَّ ... *فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُـوهُنَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدلٍ مِنْكُمْ وَأَقيمُوا الشَّهادةَ للهِ﴾ [2].

فقوله سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُوا ذوي عدلٍ﴾ قيد للطلاق والـرجعة علىٰ قول أو لخصوص الأوّل على قول آخر وإليك دراسة كلا القولين.

---

١. النساء: ١٢٩.

٢. الطلاق: ١ ـ ٢.

الاشهاد في الآية راجع إلى الطلاق والرجوع

فهناك من ذهب إلى كونه قيداً لهما، وقد نقل هذا القول عن عدة من الصحابة والتابعين: نقل عن ابن عباس: انّه فسرها بالطلاق والرجعة.[1]

وقال السيوطي: أخرج عبد الرزاق عن عطاء، قال: النكاح بالشهود والطلاق بالشهود، والمراجعة بالشهود.

وسئل عمران بن حصين عن رجل طلق ولم يشهد، وراجع ولم يشهد؟ قال:بئس ما صنع طلق في بدعة وارتجع في غير سنّة فليشهد علىٰ طلاقه ومراجعته وليستغفر الله.[2]

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وأَشْهِدُوا﴾ أمرنا بالاشهاد على الطلاق، وقيل: على الرجعة.[3]

وقال الآلوسي: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوي عَدْلٍ مِنكُم﴾ عند الرجعة إن اخترتموها أو الفرقة إن اخترتموها تبريّاً عن الريبة.[4]

إلى غير ذلك من الكلمات الواردة في تفسير الآية.

وممّن قال برجوع القيد إلى الطلاق والرجعة الشيخ أحمد محمد شاكر القاضي المصري. قال بعد ما نقل الآيتين من أوّل سورة الطلاق:والظاهر من سياق الآيتين أنّ قوله: ﴿وَأَشْهدوا﴾ راجع إلى الطلاق و إلى الرجعة معاًوالأمر للوجوب، لانّه مدلوله الحقيقي، ولا ينصرف إلى غير الوجوب ـ كالندب ـ إلاّ

---

١. تفسير الطبري:٢٨/ ٨٨.

٢.السيوطي: الدر المنثور:٦/ ٢٣٢.

٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن:١٨/ ١٥٧.

٤. الالوسي: روح المعاني:٢٨/ ١٣٤.

بقرينة، ولا قرينة هنا تصرفه عن الوجوب، بل القرائن هنا تؤيّد حمله على الوجوب ـ إلى أن قال: ـ فمن أشهد على طلاقه، فقد أتىٰ بالطلاق على الوجه المأمور به، و من أشهد على الرجعة فكذلك، ومن لم يفعل فقد تعدّىٰ حدود الله الذي حدّه له فوقع عمله باطلاً، لا يترتّب عليه أي أثر من آثاره .[١]

الاشهاد في الآية راجع إلى الطلاق خاصة

وهناك من يذهب إلى انّ قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذويْ عَدْلٍ مِنْكُم﴾ يرجع إلى خصوص الطلاق، فقط، قائلاً بانّ السورة بصدد بيان أحكام الطلاق، وقد افتتحت بقوله : ﴿يٰا أَيُّهَا النَّبيّ إذا طَلَّقْتُمُ النِّساء﴾، فذكرت للسورة عدّة أحكام:

١ . أن يكون الطلاق لعدتهن.

٢ . احصاء العدة.

٣. عدم خروجهن من بيوتهن.

٤ . خيار الزوج بين الإمساك والمفارقة عند اقتراب عدّتهن من الانتهاء.

٥ . اشهاد ذوي عدل منكم.

٦ . عدّة المسترابة.

٧. عدّة من لا تحيض وهي في سن من تحيض.

٨. عدّة أولات الأحمال.

و إذا لاحظت مجموع آيات السورة من أوّلها إلى الآية السابقة تجد انّها بصدد بيان أحكام الطلاق لانّه المقصود الأصلي، لا الرجوع المستفاد من قوله: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ وقد ذكر تبعاً.

---

١ . أحمد محمد شاكر: نظام الطلاق في الإسلام: ١١٨ـ١١٩ .

وقال أبو زهـرة: قال فقهاء الشيعة الإماميـة الاثني عشرية والإسماعيلية: إنّ الطلاق لا يقع من غير اشهـاد عدلين لقوله تعالى «في أحكـام الطلاق وانشائه في سورة الطلاق»: ﴿**وَأَشْهِدُوا ذويْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهادة لله ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ من كان يـؤمن بالله واليـوم الآخر ومن يتّق الله يجعـل له مخرجـاً ويرزقـه من حيث لا يحتسب**﴾ فهذا الأمر بالشهادة جاء بعد ذكر انشاء الطلاق وجواز الرجعة، فكان المناسب أن يكون راجعاً إليه، وانّ تعليل الاشهاد بانّه يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر يرشّح ذلك ويقويه، لانّ حضـور الشهود العدول لا يخلو من موعظة حسنة يزجونها إلى الزوجين، فيكـون لها مخرج من الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله سبحانه وتعالى.

وأنّه لـو كان لنا أن نختار للمعمـول به في مصر لاخترنا هـذا الرأي فيشترط لوقوع الطلاق حضور شاهدين عدلين.[١]

ويـؤيد رجـوع الأمـر بالاشهـاد إلىٰ خصوص الطـلاق لا الـرجعة هـو أنّ الطلاق حلال مبغوض عند الله سبحانـه، والشريعة الإسلامية شريعة اجتماعية لا ترغب في أي نوع من أنواع الفرقة لا سيما في العائلة والأسرة، بعد ما أفضىٰ كلّ من الزوجين إلى الآخر بما أفضىٰ، فالشارع بحكمته يـريد تقليل وقوع الطلاق والفرقة، فكثّر قيوده وشروطه على القاعدة المعروفة من أنّ الشيء إذا كثرت قيوده، عزّ أو قلّ وجوده، فاعتبر الشاهدين العـدلين للضبط أوّلاً وللتأخير والأناة ثانياً، وعسىٰ إلى أن يحضر الشاهدان أو يحضر الـزوجان أو أحدهما عندهما يحصـل الندم ويعودان إلى الأُلفة كما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿**لا تَدري لعلَّ اللهُ يحدث بَعْدَ ذلِكَ أَمْراً**﴾ ، وهذه حكمـة عميقة في اعتبار الشاهـدين، لا شكّ انّها ملحوظـة للشارع الحكيم مضـافاً إلى الفـوائد الآخر، وهـذا كلّـه بعكس قضية الـرجـوع فانّ الشـارع يريـد

١. أبوزهرة: الأحوال الشخصية:٣٦٥ كما في الفقه على المذاهب الخمسة:١٣١.

التعجيل به ولعلّ في التأخير آفات فلم يوجب في الرجعة أي شرط من الشروط.

وحاصل الكلام بما انّه حلف بالطـلاق مجرّداً عن الاشهاد، فلا يترتّب عليه الأثر بحكم الآية المباركة سواء أقلنا بانّ المراد بالاشهاد يرجع إلى الطلاق والرجعة أو إلى الأوّل فقط.

***

الثالث: انّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام افتوا ببطلان الطـلاق المعلق، فقد روى أبو أُسامة الشحام عن الإمام الصادق عليه السلام انّه قال له: انّ لي قريباً أو صهراً حلف إن خرجت امرأته من الباب فهي طالق، فخرجت وقد دخل صاحبها منها ما شاء من المشقة فأمرني أن أسألك.

فأجاب عليه السلام مرّة فليمسكها فليس بشيء ثمّ التفـت إلى القوم فقال سبحان الله يأمرونها أن تتزوج ولها زوج.[1]

وقد اشتهر عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام انكار الأُمور الثلاثة التالية:

١. طلاق المرأة وهي حائض.

٢. الطلاق دون اشهاد عدلين.

٣. الحلف على الطلاق.

وثمّة سؤال يتوجه إلىٰ فضيلة الشيخ بـانّه لماذا اختار في الاجابة مذهب ابن تيمية وابن قيم الجوزية مع انّ المذهب المشهـور بين فقهاء السنة انّه يقع الطلاق إذا حنث في يمينه دون فرق بين الصورتين.

قال السبكي: وقد أجمعت الأُمّة علىٰ وقوع المعلق كوقوع المنجز فانّ الطلاق ممّا يقبل التعليق. فلو قال انّ كلّمتِ فلاناً فـأنتِ طالق وهو الذي يقصد به الحثّ أو المنع فإذا علق الطلاق على هذا الوجه ثمّ وجد المعلَق عليه، وقع الطلاق.

---

١. وسائل الشيعة: ١٥، الباب ١٨ من أبواب مقدمات الطلاق، الحديث ٣.

ثمّ قال: وقد لبّس ابن تيمية بوجود خلاف في هذه المسألة وقد نقل إجماع الأُمّة علىٰ ذلك أئمّة لا يرتاب في قولهم ولا يتوقف في صحّة نقلهم.[١]

ولذلك كان الأولى لفضيلة الشيخ الاجتهاد في المسألة ثمّ الافتاء وفق اجتهاده من دون أن يتبع فتوى إمام دون إمام وإلاّ فما هو المرجح للافتاء بقول إمامين دون سائر الأئمّة من أهل السنة.

وفي الختام نلفت نظركم السامي إلى الكلمة التالية لبعض علمائنا.[٢]

انّ الإمامية يُضيّقون دائرة الطلاق إلىٰ أقصى الحدود، ويفرضون القيود الصارمة على المطلِّق والمطلقة، وصيغة الطلاق وشهوده، كلّ ذلك لانّ الزواج عصمة مودة ورحمة وميثاق من الله قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَفْضى بَعْضُكُمْ إِلىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ ميثاقاً غَليظاً﴾[٣] وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٤] إذن لا يجوز بحال أن ننقض هذه العصمة والمودة والرحمة، وهذا العهد والميثاق إلاّ بعد أن نعلم علماً قاطعاً لايداخله شك بانّ الشرع قد حلّ الزواج ونقضه بعد أن أثبته وأبرمه.[٥] وليس اليمين بالطلاق ـ مع وجود الاختلاف الكثير بين الفقهاء ـ من هذه المقولة فعلى الزوج أن يمسك بعصمتها مالم يدل دليل قاطع على الطلاق الشرعي.

جعفر السبحاني

الجمهورية الإسلامية في إيران

قم . الجامعة الإسلامية

---

١. السبكي: الدرة المضيئة: ٥٥ـ٥٦.

٢. الفقه على المذاهب الخمسة: ٢١٤ للمغفور له الشيخ محمد جواد مغنية.

٣. النساء: ٢١.

٤. الروم: ٢١.

المقالة الرابعة عشرة

من كربلاء إلى قانا

لقد كان لرحلتي إلى المملكة الأُردنيـة الهاشمية تأثير بالغ في إلفات الأنظار إلى مـذهب الشيعـة، وانّ الشيعـة هـم أتبـاع أئمّـة أهل البيـت عليهم السلام وقدتـركت انطباعات مهمة في النفوس والقلوب.

ومما أكـدتُ عليه في بعض محاضراتي انّ العشرة الأُولى مـن شهر محرم الحرام أيّام حداد وحزن لشهـادة السبط الأصغر الحسين بن علي عليهما السلام في كربلاء على يد الأمويين، وقـد خُيّر السبط بين السِلّة والذلـة، وبين القتل و البيعة ليزيـد الخمور والفجور، فأبـى أن يهادن مع الظلم والذل واستشهد مع أولاده وخيرةأصحـابه في هذا السبيل.

سل كـربـلا كـم من حشـى لمحمـد	نهبـت بها وكـم استجـزّت مـن يــد
أقمار تـمّ غــالها خســف الــردىٰ	واغتــالها بصروفــه الـزمـن الــردي

فإذاً بـا لمقال الذي كتبـه الأُستاذ حسين الرواشـدة في صحيفة اللـواء حول شهادة الحسين عليه السلام وأهدافـه وانّه يجب على الأُمة أخذ الـدروس و العبر من ثورة الحسين عليه السلام ، وبما انّ للمقالة قيمة تاريخيـة نشرت في بلد يقام فيها مجالس الأفراح في شهر محرم الحرام، قمنا بنشرها لتبقىٰ خالدة في بلادنا عبر القرون.

وقد خاطبني في مقاله وقال:

***

إلى سماحة الشيخ آية الله السبحاني:

من كربلاء إلى قانا ... لم نتعلم من المحنة بعد

واقع الأُمّة بين السلة والذلة...

عاشوراء: دروس في البيعة والصلح والثورة ضد القهر والهوان.

الحسين: لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد

...أمّا الذين يتطوعون ـ اليوم ـ لتحريف الواقع وتسويغه وفق بوصلة مصالحهم وأهدافهم فمطالبون بقراءة تاريخ عنوانه «كربلاء» وأمّا الذين يبحثون عن لغة جديدة لتضليل الشعوب باسم الراحة و السمن والعسل وتكتيك المهادنة، ويحذورنهم من عبثية المواجهة ويدعونهم إلى شرعية الصلح المتصل بحبال المصلحة الوطنية التي غالباً ما تتحول في أيدي السحرة إلى حيات مخيفة... هؤلاء مدعوّون لزيارة الحسين بن علي كرم الله وجهيهما في مثل هذا الموسم من عاشوراء لا لمتابعة اللطم وشق الصدور و إقامة مآتم الندم والعزاء...ولكن لفهم معادلة الصراع بين الحقّ والباطل و إدراك قضية العدالة المرتبطة بالعبودية الخالصةلله، فعاشوراء ما زالت تتجدد في كيانات هذه الأُمة ثورة ضد الاضطهاد، يتمثلها الأجيال كفاحاً وتمرّداً ضد الواقع الحزين وتنطق بها الأرض دماً لا يهدأ، وروحاً تستأنس بالشهادة كما يستأنس الطفل بمحالب أُمّه لا مجرد حماس وانفعال وثورة عاطفية تشتعل ثمّ تخمد...و إنّما فكر متعلق بالله وعمل شعاره«هون ما نزل بنا، انّه بعين الله...» و إرادة مستمدة من الحسين بن علي شهيد كربلاء وهو يصعد إلى السماء ودمه في كفه مردداً«هكذا أكون حتى ألقى الله وجدي رسول الله عليه الصلاة والسلام ...».

محنة الحسين بن علي التي تتردّد أصداؤها اليوم في ذاكرة الأُمة الضالة لتعيد إليها تاريخها المستباح وتوقظ فيها مشاعر الكرامة والثورة ضد الظلم

والطاغوت... تعلمنا كيف نمد أيدينا لنصافح أو نعاهد أو نعاقد، وكيف نسحب أيدينا حين تكون المسألة متعلقة بالعزة والكبرياء والانفة، وحين تحس النفس المؤمنة بأنّ عقد الصلح قيد لإذلالها وإذعانها لشرعية الطاغوت يعلمنا الحسين بن علي الفقير الذي تربّى في حضن جدّه المصطفى كما تربّى والده علي كرم الله وجهه منذ ولد في كنف ابن عمه ﷺ كيف نحافظ على بساط التفاوض مع الأعداء نسحبه حين يكون الإقرار إقرار العبيد، ونرفضه حين يكون استجداء كإعطاء الذليل الذي يشعر بانسحاق إرادته أمام سيده ... فالعزة ليست في المنصب والمال ولا في «السلة» التي يوهمنا بها أدعياء الرفاه والاستقرار، ولكنّها بمقدار ما يملك الإنسان من إرادة وعزيمة وبمقدار ما يرتفع إليه من إيمان وشجاعة والتزام.

أين نحن اليوم من حكمة شهيد كربلاء ومحنته المليئة بالدروس والمواقف؟ انّ الذين يقرأون هذه المحنة التي واجهها الهاشميون من آل عترة المصطفى ﷺ سيدركون ـ لا ريب ـ حجم القوة الإيمانية التي تدفع اثنين وثمانين رجلاً وامرأة للوقوف مع الحقّ في وجه أكثر من اثني عشر ألفاً من جيش يزيد بن معاوية... وتجعلهم مع محارمهم اللواتي ما هتك لهنّ ستر قط يواجهون عطشاً وحصاراً وظلماً وجبروتاً يقع بعده الشهيد تلو الشهيد من أبناء الحسن وجعفر وآل أبي طالب أحفاد رسول الله ﷺ دون أن يدفعهم ذلك إلى قبول «الذلة» ومبايعة يزيد «بالخلافة».

درس في البيعة ــ اذن ـ و درس في قبول الصلح و الانسياق خلف سلال الغنيمة ... فما الذي دفع الحسين إلى رفض السلة مع الذلة معاً؟ السر في ذلك يلخصه رضي الله عنه في إحدى خطبه فيقول: «... لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد، ألا وانّ الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين

السلة والـذلة وهيهـات منّا الـذلة، يأبـى الله لنا ذلك ورسـوله والمؤمنـون وحجور طابت وطهرت وانوف حمية وجباه أبية...».

والسر في ذلك يعرضـه مرة أُخرى «جون» مـولى أبي ذر الغفاري حين أشار عليه الحسين بن علي أن ينتحى عن المشاركة في قتال «عاشوراء» فيجيبه جون: لا والله... أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي الشدة أخذلكم؟! والله لا أُفارقكم حتى يختلط هذا الدم الأسود مع دمائكم... فأذن له الحسين حتى استشهد بعد أن قتل خمسة وعشرين رجلاً.

هو ــ اذن ـ درس في امتحان الصحـابة وفرزهم عـن جموع الموظفين الذين يتزاحمون ساعـة الطمع ويفرون ساعـة الفزع...والقائد هنا لا يكـذب على أتباعه بالشعارات ولا يصفهم في طـوابير بالحديد والنار ليقاتلوا دونـه، ولكنّه يصارحهم بالحريـة في البيعة والوضـوح في القصد، فالبطـولة ليست بهلـواناً والمعركـة ليست قتالاً مجرداً من العقيدة والرسالة والإرادة.

وهو درس للـذين يتسابقـون بدافع القوة مـن قوة الآخر وهيمنتـه وجبروته للسجود بين يديه، والاضمحلال فيه لخدمـة مصالحه، واستناد إلى الواقع بمنطقه المعكوس لتبريـر هذا الانجرار، هؤلاء لم يسمعـوا «حنظلة الشبامي» [كـذا] وهو ينادي على الحسين: «صدقت يا ابن رسول الله أفلا نروح إلى الآخرة...»، ولم يصغوا للشيخ الطاعـن في السن «أنس الكاهلي» الـذي رأى النبي وسمع حديثـه وشهد معـه بدراً وحنينـاً وقد بـرز رافعاً حـاجبيه بـالعصابـة ومقاتـلاً دون الحسين حتى استشهد.

لم تكن قلة العدد ــ اذن ـ معياراً للهزيمة أو الانكسـار، ولم يكن الانكسار مؤشراً لانـدحار الحقّ وغلبة البـاطل... ولم تكن الهزيمة والغلبـة مدعاة للـرضوخ والاستسـلام، وما كـان الصادقـون ـ آنـذاك ـ قصراً عـن تبرير الـواقع وتسويغـه

ليناسب حجم المحاذير والرغائب كان «الحسين بن علي» وقد أقفل عائداً من مكة إلى كربلاء بعد أن قطع الحج وترك الذين ينتظرون خطبته على عرفة... كان يدرك وهو يصارح من انسحب خلفه من القوم انّ كثيراً منهم لا يريد سوى الدنيا وكان صادقاً معهم وهو يقول عشية السفر:« ألا و من كان فينا باذلاً مهجته موطناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا فانّي لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً...» وقد انسحب عنه الكثيرون بعد أن أدركوا حقيقة ما قاله الفرزدق «قلوبهم معك وسيوفهم عليك» وبقي القلة من الذين كان حاديهم يقول:«لوددت انّي قتلت وأحرقت ثمّ أحييت يفعل بي ذلك سبعين مرّة ما توانيت عنك».

درس في ترسيم العلاقة مع الله... العلاقة الدائمة غير الرسمية أو الموسمية مع أوامر الخالق... العلاقة التي لا تقتصر على طقوس الصلاة والصيام فحسب بل تتعداها إلى كلّ ما يدور في حياة المسلم وما يتعلق بواقعه داخل المسجد وخارجه وهو درس غائب عن هذه الجماهير التي استهلكتها الحياة المادية بشهواتها وعوارضها... درس يندر اليوم أن يتجسد في «نموذج» يقارب ولو من بعيد نموذج الحسين وصحابته الذين ماتوا دفاعاً عن حقّهم في الكرامة والشهادة.

ما أحوج الأُمة اليوم، وهي تضع رقبتها على حدّ المقصلة، وتدافع عن كرامتها بمزيد من التبعية والاستسلام، وتسرب من خلايا أعدائها وعيونهم لتخنق شعوبها... ما أحوجها إلى وقفة مع «عاشوراء» و ما تجسد من فكر في التضحية والالتزام بالحقّ ومواجهة الباطل وجنوده... والاستعلاء على وسخ الواقع وطين الوعود و الخوف على شهواته الزائلة... فمن قال إنّ مصلحة الأُمّة في الراحة والذلة و من قال إنّ مصلحة الوطن في حسن التعامل مع الواقع المهين بمفرداته

وآلياته وشروطه التي يمليها القوي على الضعيف... ألم يمتحن رسول الله صحابته حين أرسل بعضاً منهم إلى قلعة ضخمة لبلوغها، وحين عادوا مقرين بضعفهم وجبنهم قال لهم محمد ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه...».

فأوّل شروط نبذ الضعف والجبن الذي يسوغه البعض تكتيكا وخروجاً من مأزق الواقع هو محبة الله ورسوله... ولكن أين الذين يحبّهم الله وأين الذين يحبّونه ورسوله في عالمنا هذا المهزوم؟ وأين الذين قال فيهم علي بن أبي طالب «من أحد سنان الغضب لله قوي على قتل أشداء الباطل»....

إنّ الذين نخشاهم اليوم يحدون سيوفهم للقضاء على شعوبهم، ويغضبون إذا غضبت امريكا أو إذا زمجرت إسرائيل...الذين نخافهم ممن يعطون أنفسهم مراسيم القومية والخوف على مستقبل الأُمة يحرسون ثغور ومصالح غيرهم، فأين منا الحسين وأين كربلاء التي تجسد في أعماقنا أكبر ثورة إنسانية ضد الخنوع والقهر لآلة الاستبداد واستيطان الإرادة والإنحناء لغير الله عزّوجلّ....

كيف يمكن لهذه الأُمّة أن تعيد مرّة أُخرى «عاشورا» إلى منصتها الخالدة، لتنفض عنها غبار «الذلة» و تمسح دماء أطفال «قانا» التي لم تجف بعد... كيف يمكن أن يقف الشعب خلف قيادته وأن يعلن رجل يصارع الموت كما أعلن «مسلم بن عوسجة» في حضرة « الحسين بن علي» وصيته لصديقه...وما هي وصيته؟ يقول حبيب بن مظاهر:

«لما صرع مسلم بن عوسجة مشى إليه الإمام الحسين وكنت معه، وجلسنا عنده وهو يحتضر قلت له: والله لولا ان أعلم انّي في الأثر لأحببت أن توصي فانّ الصديق يوصي صديقه لحظة الاحتضار، يوصيه بأهله وعياله ولكن مشكلتي انّي سأموت من بعدك وسأسير في نفس الطريق...فقال له مسلم: لي وصية تستطيع

أن تنفذها الآن...؟ قلت: وما هي وصيتك؟ قال: أوصك بهذا ــ و أشار بيده للإمام الحسين بن علي ـ جاهد دونه حتى تموت.

ومادام هنالك قضية عادلة، وحق يقابل باطلاً ليدحضه، فالموت ليس مهماً والدم أقرب اللحظات التي توصل الأرض بالسماء ألم تسمع ماذا قال «علي الأكبر» ابن الإمام الحسين وهو يرى أنفاس والده تعانق السماء وقد ظل يكرر **﴿إِنّا لله وَإِنّا إليهِ راجِعُون﴾** : يا أبتاه لم تسترجع؟ فأجابه: يا بني عنَّ لي فارس وأنا في المنام يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير خلفهم، فعلمت انّ نفوسنا نعيت إلينا، قال علي: يا أبتاه ألسنا مع الحقّ؟ قال الحسين: بلى والذي نفسي بيده. قال علي: لانبالي يا أبتاه ـ إذن ـ أن نموت محقين.

ولكن كيف يمكن لأطفالنا أن يتساءلوا عن قضيتنا؟ وكيف يمكن لنا ـ نحن التعساء ــ أن نجيبهم، لقد علّم الحسين ولده درس نعلم أبناءنا درس التضحية ونحن نسبل رموشنا لاستقبال خيرات العهد الشرق أوسطي الجديد؟

كيف يمكننا أن نقنع أجيالنا بأنّ الذي ندافع عنه هو الحق... الذي يجب أن يدافعوا عنه ويصونونه أي حق هذا الذي استعدناه وأي تضحية تلك التي قطفنا ثمارها بعد سيل الهزائم والانكسارات....

يا الله...

ماذا يحدث لهذه الأُمّة التي تحولت إلى قطيع تائه...ماذا يحدث لهذه الأجيال التي مسخت تاريخها... ماذا يحدث وقد غابت المرجعيات وتحول معظم العلماء إلى سدنة في بلاط السلطة، وعبيد في أقبية السلاطين وقد فقدت الحركات مبررات وجودها،واستمرأت اللعبة، فاشتغلت في شؤون الحيض وتنظيف الفرج واللسان بدعوى السماحة والنظافة والاعتدال وانتظار فرج السماء.

يا الله...

إذا كان القوم قد تركوا حفيد رسولك «الحسين بن علي» وحيداً أعزل إلاّ من الإرادة والإيمان واثنين وثمانين رجلاً وامرأة... وشهدوا على دمه الطيب ـ بعد أن منعوه وحصانه الماء ـ و هو يصعد في كفة السماء...فمن يستطيع في زماننا أن يحمل راية حملها الحسين... ومن تبقى معه من أُمّة نخر عصبها الفساد والتعب والضلال.

أمّا نحن فلا نملك إلاّ أن نقرأ «كربلاء» و أن نتوقف بقلوب أدمنت الحزن ومرارة «المحنة» على معنى المكابدة من أجل رضى الله، ومعنى التضحية بكلّ شيء من أجل الحقّ... ومعنى الإيمان الخالص بالقضية العادلة والدفاع عنها مهما غلا الثمن.

نقرأ عاشوراء... مرة تلو مرة...لنحدد أهدافنا ونوضحها ونميز بين الصحابة والموظفين، بين المؤمنين بدينهم وأوطانهم والمندسين طمعاً في الغانم، بين المرتبطين عقلاً وروحاً بالإسلام وبين المرتبطين عاطفياً وموسمياً به عبر الفاكسات والبيانات.

ونعيد إلى ذاكرتنا محنة «الحسين» وأصحابه، فالحسين ليس ملكاً لفرقة دون فرقة،وعاشوراء ليست مناسبة دينية لمذهب دون آخر....الحسين هو معلّمنا جميعاً وعاشوراء وكربلاء مناسبتان عابقتان بالدم والتضحية في تاريخنا السياسي الإسلامي وهما في قاموسنا ثورة ضد الطغاة، ضد الإذلال، ضد التطبيع والمصالحة والمصافحة ضد الاستهتار بحقّ الأُمّة ، ضد تسويغ الواقع وتبرير السقوط في دهاليزه المظلمة... ضدّ كلّ خطط الاذلال التي تحاك هنا و هناك للقضاء على روح الجهاد في هذه الأُمّة... عاشوراء لنا جميعاً بلا استثناء لفقرائنا وساستنا، لحركاتنا التائهة ولإنساننا الذي أدمن اليأس والصمت والانتظار، عاشوراء لغة

الواقـع التي تؤسـس لصياغـة المستقبل وهي لفتـة الحرية في تـاريخنا المليء بـالقهر والاستبداد...تظل تعيـد في أذهاننا ما قالـه الحسين رضي الله عنه «والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقرّ إقرار العبيد».

ترى...هل تستطيـع هذه الأُمّة المسكينـة التي تبيع برميل نفطهـا بما يعادل ثمن حبة برتقال ـ كما اعترف بذلـك وزير النفط العماني ـ التي تشتغل اليوم بكلّ طواقمهـا في الانتخابـات الصهيونيـة وتسير خلف أوهـام السلام الـذي يبشر به سفـاح قـانـا... أن نقـرأ دروس عـاشـوراء، و أن نتعلم مـن دروس الحسين في كربلاء... أم انّني أنفخ في قربة مخزوقة....

يـا الله... مـاذا يملك المظلـومـون العـاصـون غير الـدعـاء إليـك واللـوذ ببابك...فاعف عنّا يا أرحم الراحمين.

المقالة الخامسة عشرة

التقية رخصة شرعية

كانت لرحلتي إلى الأُردن عام ١٤١٨ نتـائج بنّاءة في تقريب الخطىٰ و تبيين عقائد الشيعة مـن خلال المحاضرات التي القيتُها في الجامعات الإسـلامية، و ممّا عطفت النظـر عليه هي مسـألة التقيّة، و إنّها ليست أصـلاً شيعيّاً محضاً بـل هي أصل قرآني نطق بها الصادع بالحقّ و أوضحها المفسرون بكلماتهم.

ثمّ إنّي لما قفلت راجعاً إلى إيران وقفت على مقالة بقلم أحد أساتذة جامعة مؤتة نشرتها صحيفة اللواء الأُردنيّة في عددهاالصادر ١٢١١ المؤرخة ٢٤/ ٧/ ٩٦ و قد استرعىٰ انتباهي ما في آخـر المقال مـن جملة ربما تتُخـذ ذريعة لتحـريف الحقيقة فعزمت علىٰ كتابة رسالة إلى رئيـس التحرير و بيّنت فيها موقف المسلمين بالنسبة إلى ما تحتويه تلك الجملة.

و لما كان المقال وثيقة علمية اصحر الحق بها ذلك الكاتب، آليتُ أن أنشره مع ما ذيلته به، و إليك المقال.

❋❋❋

الضرورات تبيح المحذورات و المشقة تجلب التيسير

الحمـدلله ربّ العـالمين مـلء السّمـوات والأرض و مـا بينهما وا لصّـلاة و

السّلام على محمّد النبيّ الخاتم و على آله الطيّبين الطاهرين الّذين أذهب الله عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيراً... و بعد.

في بواكير ثقافتي و اطلاعي كنت أسمع الكثير من المفتريات والمبالغات التي كانت تدور حول الشيعة و حول التشيّع خاصّة ما يؤمنون من أفكار و معتقدات كنت أصدق كلّ ما يقال و ذلك لقلّة اطلاعي.

فقد كنت أسمع عن مبدأ التقية عند الشيعة و كأنّ هذا المبدأ ليس له أصل في الشرع الإسلامي إلاّ انّه مجرّد فكر اختلقه علماء الشيعة و لكن الحقائق بعد الاطلاع ظهرت جلية و ﴿ **جاء الحقّ و زهق الباطل انّ الباطل كان زهوقاً**﴾.

و الآن ما هي التقية و ماهي أحكامها و أدلّتها الشرعية؟

التقية: الاظهار باللسان خلاف ما ينطوي عليه القلب للخوف على النفس و هي عكس مفهوم النفاق.

ففي التقية يتم اظهار الكفر و ابطان الإيمان. أمّا في النفاق فيتم إبطان الكفر و إظهار الإيمان.

والتقيّة رخصة شرعية كأكل الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أُهلّ لغير الله به لانّ الله عزّ وجلّ يقول:﴿**وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهيم هُوَ سَمّاكُمُ الْمُسْلِمينَ**﴾.

أمّا النفاق: «فهو أشدّ الكفر لانّه أشدّ خطورة و المنافقون في الدرك الأسفل من النار».

الأدلّة على جواز الأخذ بمبدأ التقيّة:

انّ الأصل في الإسلام هو: عدم موالاة الكافرين و اليهود و النصارى والصدع بما أمر الله و عدم خشية أحد في الحقّ إلاّ الله.

فالمؤمنـون هم الّـذين **﴿يجاهـدون في سبيـل الله ولا يخافـون لـومـة لائم﴾** (المائدة/ ٥٤).

و لكن الضرورات تبيح المحذورات و المشقة تجلب التيسير.

قال تعالى: **﴿فمن اضطرّ غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه﴾**.

أي من اضطـر للوقـوع في المحرّم على أن لا يطلبـه لذّاتـه و لا يتعدى على أصل تحريمه فإنّ الإثم عنه مرفوع.

ونحـن نعلم انّ الله قـد نهانـا عن مـوالاة الكافـريـن و مودّتهم في الأصـل الحكمي و لكن هنالـك حالات يجوز لنا فيها موالاتهم فيها فما هـي لنتعرف عليها من خلال الآية القرآنية الكريمة التالية:

قال تعالى: **﴿لا يتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين و من يفعل ذلـك فليـس مـن الله في شيء إلاّ أن تتقـوا منهـم تقـاة و يحذّركـم الله نفسـه و إلى الله المصير﴾**(آل عمران/ ٢٧).

مفهوم الآيـة: نهي و تحذير مـن الواحد الأحـد عزّوجـلّ من مـوالاة و مودة الكافرين؟ و من يفعل ذلك فهو في غايـة البعد عن الله. و لكن في حالة خوفكم من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه فهنا الموالاة جائزة كرخصة لا كأصل.

و قال تعالى: **﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله و قد جاءكم بالبيّنات من ربّكم و إن يك كاذباً فعليه كذبه و إن يك صـادقاً يصبكـم بعـض الّذي يعـدكـم انّ الله لا يهدي مـن هو مسرف كـذّاب﴾** (غافر/ ٢٨).

من خلال الآية السابقة نلاحظ ما يلي:

انّ الرجـل من آل فرعـون و قوم فرعون فـاسقون والرجـل مؤمن وكـان هذا

الرجل يكتم إيمانه أي يخفيه يظهر الكفر و يبطن الإيمان والسبب في ذلك: خوفاً من فرعون وجنوده لانّ فرعون طغى و في الأرض علا.

و لكن ماهي المنفعة التي جلبها و حقّقها مؤمن آل فرعون بكتمه إيمانه:

صيانة نفسه و حمايتها و تقديم النصح بعدم قتل موسى بناء على انّه كافر ليس مؤمن و ليس له عند موسى أيّ منفعة.

فهنا تمّ تحقيق أمرين بالتقية و اخفاء الإيمان: درء مفسدة و جلب مصلحة.

والتقية تكون في حال التمكّن في الأرض و في حال ضعف المسلمين و تكون في الحرب لانّ (الحرب خدعة) و هي جائزة لصون النفس من الضرر لانّ دفع الضرر عن النفس واجب قدر الإمكان حتى في ساحة القتال. قال تعالى: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ و قال تعالى: ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً**﴾.

أحكام التقية

١. تكون بالجري على اللسان مع الاطمئنان في القلب بالإيمان.

٢. لو انّه أفصح بالإيمان والخوف حيث تجوز له التقيّة كان ذلك أفضل[١] و ذلك بناء على قاعدة ﴿**وان تصوموا خير لكم**﴾.

٣. تكون التقية إذا كان الرجل في قوم كفّار ويخاف منهم على نفسه و ماله فيداريهم بلسانه و نحن نعرف انّ الدعوة السرية للإسلام استمرت ثلاث سنين قبل أن يصدع الرسول ﷺ بالدعوة.

---

١. إذا ترتّب على ترك التقية مصلحة أعظم من المفسدة التي جرها تركها.

و من ذلك الذي يعيش مثلاً في «اسرائيل» وسيط اليهود أو في روسيا وسط الشيوعيين أو في أيّ دولة أوروبية تعادي الإسلام.

٤. إنّما تجوز فيما يتعلّق بإظهار الموالاة والدين فأمّا ما يرجع ضرره على الغير كالقتل والزنا و غصب الأموال و شهادة الزور و قذف المحصنات و اطلاّع الكفّار على عورات المسلمين فذلك غير جائز البتّة لأنّه « لا ضرر و لا ضرار».

٥. و كما انّ التقيّة جائزة لصون النفس فكذلك هي جائزة لصون المال. قال ﷺ: «حرمة مال المسلم كحرمة دمه» و لقوله: «من قتل دون ماله فهو شهيد» و لانّ الحاجة إلى المال شديدة.

حيث إنّه من المعروف انّ الماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الوضوء و جاز الاقتصار على التيمم دفعاً لذلك القدر من نقصان المال فكيف لا يجوز ههنا.

٦. انّ التقيّة يؤخذ بها في أيّ وقت إلى يوم القيامة فهي رخصة تطبق عند وجود السبب و الضرورة و لا تقتصر على حال و وقت معيّن.

٧. انّ التقيّة واجبة كضرب من اللطف والاستصلاح فمن خاف الكفّار فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه فقد روى البخاري عن أبي الدرداء انّه قال: إنّا لنكشر في وجوه قوم و قلوبنا تلعنهم. و قال ابن عباس: ليس التقية بالعمل إنّما التقيّة باللسان. و كذا قال أبو العالية و أبو الشقاء والضحّاك والربيع بن أنس و يؤيد ما قالوه قول الله تعالى: **﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان﴾**.

و كلّنا يعرف قصة آل ياسر و تعذيب قريش لهم فقد نطق ياسر بكلمة الكفر بلسانه من شدّة العذاب و لكن بقي قلبه مطمئناً بالإيمان.

روى الحسن انّ مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ

فقال لاحدهما أتشهد انّ محمّداً رسول الله ؟ قال: نعم، قال: أفتشهد انّي رسول الله ؟ قال: نعم فقال للآخر: أفتشهد انّي رسول الله ؟ فقال: انّي أصم قالها ثلاثاً كلّ ذلك يجيبه مثل الأوّل فضرب عنقه فبلغ ذلك رسول الله فقال: أمّا ذلك المقتول فمضى على صدقه و يقينه و أخذ بفضله فهنيئاً له. وأمّا الآخر فقبل رخصة الله فلا يتبعه عليه فعلى هذا تكون التقية رخصة والافضاح بالحق عزيمة.

وإذاً انّ البعض قد أساء فهم مدلول التقية فانّ الخطأ لم يكمن في القاعدة أو الحكم إنّما الخطأ يكمن في العمل والتطبيق.

و أخيراً نقول انّ الله يحبّ أن تؤتى رخصة كما يحبّ أن تؤتى عزائمه.

و آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

***



«حضرة الأُستاذ حسن التل»
رئيس تحرير صحيفة اللواء الأُردنية، الموقّر

أتقدم لكم بالتحية الخالصة متمنياً دوام التوفيق.

أمّا بعد: فقد قرأنا في العدد ١٢١١ و المؤرَّخ في ٢٤/ ٧/ ٩٦ مقالاً قيّماً حول التقيّة بعنوان: التقية رخصة شرعية بقلم الأُستاذ الفاضل أُسامة عبد الكريم الكساسبة من قسم الدراسات الإسلامية بجامعة مؤتة.

ونحن إذ نقدّر منكم و من الأُستاذ الكاتب لذلك المقال، هذه الخطوة الهادفة إلىٰ التقريب بين المذاهب نسأل الله سبحانه أن ينصر المسلمين و يعيد إليهم عزّتهم و كرامتهم على أيدي المخلصين من أبناء امتنا الإسلامية.

انّ المقال المذكور تضمّن ـ و لله الحمد ـ أدلّة مشرقة أثبتت أنّ للتقية أُصولاً وجذوراً في القرآن الكريم و السنّة المطهّرة والتاريخ الإسلامي، فهو بحق مقال علمي كشف القناع عن وجه التقية و بيّن الفرق بينها و بين النفاق بوجه واضح.

بيد أنّه جاء في آخر المقالة عبارة مجملة هي:« و إذا كان البعض قد أساء فهم مدلول التقية فانّ الخطأ لم يكمن في القاعدة أو الحكم إنّما الخطأ يكمن في الخطأ في العمل والتطبيق».

فإذا كان مقصود الكاتب من هذه العبارة ـ كما فهمنا أو احتملنا ـ هو

اختصاص أدلّة مشروعية التقيّة باتقاء المسلم من الكافر، فلا يشمل اتّقاء المسلم من المسلم فهو غير صحيح، لأنّ مورد آيات التقيّة و إن كان اتّقاء المسلم من الكافر و لكن المورد ليس بمخصّص لأنّ الغرض من تشريع التقيّة عند الابتلاء بالكفّار ليس إلاّ صيانة النفس و المال من الشرّ والضرر، فإذا ابتُلي المسلم بمسلم ظالم صادر حرّيته، و منعه من إظهار عقيدته من دون خوف بحيث لو أظهر عقيدته نكلّ به و استباح دمه و ماله، حكم العقل والنقل هنا بصيانة النفس والمال بواسطة التقيّة، و عدم إظهار المعتقد، و مماشاة من يهدّد حياته أو ماله، وحينئذٍ لا يكون اللوم متوجّهاً إلى المسلم المقهور بل إلى الآخر الذي صادَرَ حرّيته، و قهره و منعه من اظهار معتقده.

و قد صرح بهذا(أي مشروعيّة التقيّة حتّى عند المسلم) طائفة من أعلام المسلمين، نشير إلى عبارات بعضهم في هذا المجال:

١. يقول الإمام الرازي في تفسير قوله سبحانه: ﴿**إلاّ أن تتقوا منهم تقاة**﴾ ظاهر الآية يدل على أنّ التقية إنّما تحلّ مع الكفّار الغالبين إلاّ أنّ مذهب الشافعي أنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين و الكافرين، حلّت التقية محاماةً عن النفس، و قال: التقية جائزة لصون النفس، و هل هي جائزة لصون المال؟ يحتمل أن يحكم فيها بالجواز لقوله ﷺ:«حرمة مال المسلم كحرمة دمه» و قوله ﷺ: «من قُتِل دون ماله فهو شهيد».(مفاتيح الغيب:٨/ ١٣).

٢. نقل جمالُ الدين القاسمي عن الإمام المرتضى اليماني في كتابه «إيثار الحقّ على الحق» ما نصّه: «و زاد الحقّ غموضاً و خفاءً أمران: أحدهما: خوف العارفين مع قلّتهم من علماء السوء وسلاطين الجور و شياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنصّ القرآن و إجماع أهل الإسلام، و مازال الخوف مانعاً من إظهار الحقّ، ولا برح المحقّ عدوّاً لأكثر الخلق و قد صحّ عن أبي هريرة انّه قال في

ذلك العصر الأوّل: حفظت من رسول الله ﷺ وعائين أمّا أحدهما فبثثته في الناس و أمّا الآخر فلو بثثته لقُطع هذا البلعوم. (محاسن التأويل: ٤/ ٨٢).

٣. قال المراغي في تفسير قوله سبحانه: ﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان**﴾: و يدخل في التقية مداراة الكفر و الظلمة و الفسقة، و إلانة الكلام لهم، والتبسّم في وجوههم و بذل المال لهم لكفّ أذاهم و صيانة العِرض منهم، ولا يُعدّ هذا من الموالاة المنهي عنها، بل هو مشروع، فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ: «ما وقى المؤمن به عرضَه فهو صدقة». (تفسير المراغي:٣/ ١٣٦).

و هكذا يذهب اعلام من المسلمين إلى مشروعيّة إتقاء المسلم من المسلم إذا خاف على نفسه و حتى ماله من الهلاك والضياع، و لا إثم على المسلم إذا اتقى أخاه المسلم و عامَلَه بالتقية و أخفى عنه معتقده إذا لم يسمح له أخوه المسلم بأن يظهر عقيدته بدافع العصبية و الطائفية.

فالذي ينبغي أن يسعى إليه المسلمون و بخاصة المهتمون بشؤونهم هو فتح آفاق الحوار البنّاء، والسماح للجميع بإظهار عقائدهم، بعيداً عن الإرهاب والإرعاب، والتكفير و التفسيق لتعود الأُمّة الإسلامية قوّة متراصة الصفوف، متكاتفة حتى مع الاختلاف في الاجتهادات، والآراء.

و على كلّ حال نعود لنثمن جهدكم و جهدَ الكاتب الفاضل هذا.

وفقكم الله و أخذ بأيديكم لما فيه صالح المسلمين.

جعفر السبحاني

قم ـ الجامعة الإسلامية

٢٠/ ٤/ ١٤١٧هـ

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الرسالة الثانية
الشيعة الإمامية في دائرة المعارف المصرية (السفير)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الرسالة التاسعة
جواب رسالة حول الشيعة
أُصولها و عقائدها (١)

الرسالة العاشرة
جواب رسالة حول الشيعة
وأُصولها وعقائدها (٢)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

المقالة الرابعة
الحج عمل عبادي وملتقى سياسي

المقالة الخامسة
بين الحقائق والأوهام

المقالة السادسة
دراسة علم الكلام حاجة ملحّة

الموضوع	الصفحة

المقالة الثامنة
مكانة المرأة في القرآن الكريم

المقالة التاسعة
زواج المتعة

الموضوع	الصفحة

المقالة العاشرة
الاختلاف في الفروع لا في الأُصول

المقالة الحادية عشرة
آية التطهير وعصمة أهل البيت عليهم السلام

الموضوع	الصفحة